

السِّيرةُ العسكريّةُ لسيِّدِ المُرسلينَ مُحمَّدٍ ﷺ

الشيخ علي حسن غلوم

تقديم: أ. د حسين المسري

دار الولاء

www.daralwalaa.com

الشيخ علي حسن غلوم

السيرة العسكرية

لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم



تقديم

أ. د. حسين علي المسري

فهرس
الكتاب



فهرس الكتاب

١. **مقدمة أ.د. حسين المسري** ٢١
٢. **مقدمة المؤلف** ٢٣
٣. **معركة بدر الكبرى** ٢٧
٤. تحديد زمني ومكاني ٢٩
٥. مواجهات سبقت بدراً ٣١
٦. أبو تراب ٣٣
٧. غزوات أخرى ٣٨
٨. أهداف السرايا ونتائجها ٤١
٩. التشكيك في دوافع السرايا ٤٢
١٠. سبب معركة بدر الكبرى ٤٣
١١. الخروج إلى بدر ٤٤
١٢. دعاء النبي ٤٥
١٣. عقد اللواء ٤٦
١٤. عدة المسلمين وعتادهم ٤٧
١٥. أوضاع قريش ٤٨
١٦. رؤيا عمة النبي ٤٩
١٧. النفير العام ٥١
١٨. أبو لهب يتهرب ٥٢
١٩. قصة عدّاس ٥٣
٢٠. الاستقسام بالأزلام ٥٤
٢١. قصة أمية بن خلف ٥٥
٢٢. موقف بني عبدالمطلب ٥٦
٢٣. بطر واستعراض للقوة ٥٦
٢٤. أبو سفيان يستنقذ القافلة ٥٨

٢٥.	انسحاب بني زُهرة	٥٩
٢٦.	انسحاب بني عدي	٥٩
٢٧.	مشاهد في الطريق إلى بدر	٦٠
٢٨.	النبي وقرار المواجهة	٦٣
٢٩.	النبي يطلب قرار الأنصار	٦٧
٣٠.	بشارة نبوية	٦٩
٣١.	الوصول إلى وادي بدر	٧٠
٣٢.	ردة فعل قريش	٧١
٣٣.	اختيار موقع المعسكر	٧٢
٣٤.	بناء العريش	٧٥
٣٥.	الرحمات الإلهية	٧٥
٣٦.	الاصطفاف للقتال	٧٧
٣٧.	النبي يخطب في أصحابه	٨١
٣٨.	دعاء النبي	٨١
٣٩.	نزول الملائكة	٨٢
٤٠.	محاولة سلمية	٨٤
٤١.	استقاء من الحوض	٨٤
٤٢.	تخذيل المشركين	٨٥
٤٣.	شعار المسلمين	٨٦
٤٤.	أربعة أبطال	٨٧
٤٥.	وصية نبوية	٨٧
٤٦.	موقف أخلاقي	٨٧
٤٧.	المبارزة	٨٨
٤٨.	مقتل عاصم السهمي	٩٠
٤٩.	مقتل أبي جهل	٩١
٥٠.	غضب أبي سلمة	٩٢
٥١.	مقتل نوفل بن خويلد	٩٢
٥٢.	مقتل العاص بن سعيد	٩٣
٥٣.	مقتل أحد المشركين	٩٣

٥٤.	تمنّي غروب الشمس	٩٤
٥٥.	الهروب الكبير	٩٥
٥٦.	نتائج المعركة	٩٧
٥٧.	التخلص من الجثث	٩٨
٥٨.	الموقف من الأسرى	٩٩
٥٩.	إعدام النضر بن الحارث	١٠١
٦٠.	إعدام عقبة بن أبي معيط	١٠٢
٦١.	النهي عن التمثيل	١٠٢
٦٢.	موقف لمصعب بن عمير	١٠٢
٦٣.	قلادة السيدة خديجة	١٠٣
٦٤.	قصة الأسير الجُمَحي	١٠٤
٦٥.	محاولة هروب	١٠٤
٦٦.	توزيع الغنائم وتخميسها	١٠٥
٦٧.	المبشِّران بالنصر	١٠٨
٦٨.	إرجاف المنافقين	١٠٩
٦٩.	وصول النبي والمسلمين	١٠٩
٧٠.	المتخلفون يقدّمون أعذارهم	١١٠
٧١.	موقف أم المؤمنين سودة	١١٠
٧٢.	الوضع بمكة	١١١
٧٣.	موقف هند بنت عتبة	١١٢
٧٤.	موقف اليهود	١١٢
٧٥.	قصة عمير بن وهب	١١٢
٧٦.	خاتمة	١١٣
٧٧.	**معركة أُحُد**	١١٥
٧٨.	تحديد زمني ومكاني	١١٧
٧٩.	جبل أُحُد	١١٨
٨٠.	أحداث سبقت المعركة	١٢١
٨١.	قريش تعلن النفير	١٢٥
٨٢.	اصطحاب النساء	١٢٨

٨٣.	لمحة عن جيش المشركين	١٢٩
٨٤.	العباس يخبر النبي	١٢٩
٨٥.	بلوغ الخبر المدينة	١٣٠
٨٦.	مشاهد في الطريق	١٣١
٨٧.	استعراض المستكبرين	١٣١
٨٨.	نبش قبر السيدة آمنة	١٣٢
٨٩.	التجسس على الغزاة	١٣٣
٩٠.	الاعتداء على الممتلكات	١٣٣
٩١.	التجسس من جديد	١٣٤
٩٢.	قرار المواجهة	١٣٤
٩٣.	النبي يستشير أصحابه	١٣٥
٩٤.	انقسام الصحابة	١٣٥
٩٥.	إعلان القرار النهائي	١٣٩
٩٦.	محاولة للتراجع	١٤٠
٩٧.	سلمة يواجه طليعة فرسان	١٤١
٩٨.	وفاة مالك النجاري	١٤١
٩٩.	خبر قتل النبي	١٤٢
١٠٠.	عقد الألوية	١٤٣
١٠١.	الخروج من المدينة	١٤٤
١٠٢.	النبي يستثني الصغار	١٤٥
١٠٣.	إثارات المنافقين	١٤٥
١٠٤.	تحرشات الغزاة	١٤٦
١٠٥.	إساءة أخرى من المنافقين	١٤٧
١٠٦.	فائدة فقهية	١٤٩
١٠٧.	الاستعداد للمواجهة	١٤٩
١٠٨.	انسحاب المنافقين	١٥٠
١٠٩.	ترتيب القوات	١٥١
١١٠.	أبو سفيان يثير مشكلة	١٥٤
١١١.	النبي يسوّي الصفوف	١٥٤

١١٢.	وصية النبي	١٥٥
١١٣.	بدء المعركة	١٥٦
١١٤.	المبارزات الفردية	١٥٦
١١٥.	بداية المخالفة	١٦١
١١٦.	كر المشركين	١٦٣
١١٧.	هجوم ابن الوليد	١٦٤
١١٨.	الارتباك الكبير	١٦٦
١١٩.	انكشاف المقاتلين	١٦٧
١٢٠.	استشهاد مصعب	١٦٩
١٢١.	البحث عن النبي	١٦٩
١٢٢.	إشاعة قتل النبي	١٧١
١٢٣.	نداء الشيطان	١٧٢
١٢٤.	الصامدون	١٧٢
١٢٥.	من بطولات الإمام علي	١٧٤
١٢٦.	بطولة نسيبة بنت كعب	١٧٥
١٢٧.	تساقط الشهداء	١٧٦
١٢٨.	استشهاد حمزة	١٧٧
١٢٩.	استشهاد حنظلة	١٨٠
١٣٠.	استشهاد عمرو بن الجموح	١٨٠
١٣١.	البشارة لعلي بالشهادة	١٨١
١٣٢.	اللجوء إلى الشِّعب	١٨٢
١٣٣.	انتهاء المعركة	١٨٤
١٣٤.	حركة استعراضية	١٨٥
١٣٥.	تتبع أثر المشركين	١٨٦
١٣٦.	دفن الشهداء	١٨٧
١٣٧.	الزهراء مع أبيها	١٩٠
١٣٨.	العودة إلى المدينة	١٩٠
١٣٩.	موقف المنافقين واليهود	١٩٣
١٤٠.	غزوة حمراء الأسد	١٩٤

١٤١.	زيارة الشهداء	١٩٦
١٤٢.	تتمة فقهية	١٩٧
١٤٣.	البناء على المراقد	١٩٩
١٤٤.	آية الربا	٢٠٠
١٤٥.	**غزوة الأحزاب (الخندق)**	٢٠٣
١٤٦.	تحديد زمني ومكاني	٢٠٦
١٤٧.	أسباب الغزوة	٢٠٧
١٤٨.	الاستعداد للحرب	٢١١
١٤٩.	اليهود يحشدون القبائل	٢١١
١٥٠.	تشكيلة الأحزاب	٢١٢
١٥١.	وصول الخبر	٢١٣
١٥٢.	حفر الخندق	٢١٤
١٥٣.	مشاهد من أيام حفر الخندق	٢١٥
١٥٤.	مقاسات الخندق	٢٢٣
١٥٥.	تدابير لاحقة	٢٢٤
١٥٦.	خيانة بني قريظة	٢٢٥
١٥٧.	وصول قوات الأحزاب	٢٢٨
١٥٨.	انصراف المنافقين	٢٢٩
١٥٩.	التمادي في الخيانة	٢٣٠
١٦٠.	إجراءات احترازية	٢٣١
١٦١.	محاولة التعرّض لأحياء المسلمين	٢٣٢
١٦٢.	شجاعة عمة النبي	٢٣٢
١٦٣.	مشاهد من أيام الحصار	٢٣٣
١٦٤.	برز الإيمان كله	٢٣٦
١٦٥.	دعاء النبي لعلي	٢٤٢
١٦٦.	الثناء على الإمام	٢٤٣
١٦٧.	النداء بالقتال دفعة واحدة	٢٤٥
١٦٨.	أحداث ذات علاقة	٢٤٧
١٦٩.	محاولة لتفكيك الأحزاب	٢٤٩

١٧٠.	محاولة أخرى	٢٥١
١٧١.	دعاء وريح عاتية	٢٥٤
١٧٢.	نهاية الغزوة	٢٥٥
١٧٣.	رسالة أبي سفيان	٢٥٧
١٧٤.	عودة المقاتلين المسلمين	٢٥٨
١٧٥.	شهداء الغزوة	٢٥٩
١٧٦.	حصار بني قريظة	٢٦٠
١٧٧.	بدء المفاوضات	٢٦١
١٧٨.	الاستسلام	٢٦٢
١٧٩.	تدخّل الأوس	٢٦٣
١٨٠.	شبهات وردود	٢٦٥
١٨١.	من نتائج الغزوة	٢٦٧
١٨٢.	**غزوة خيبر**	٢٦٩
١٨٣.	جغرافية خيبر ووصفها	٢٧١
١٨٤.	سبب التسمية	٢٧٢
١٨٥.	اليهود في خيبر	٢٧٢
١٨٦.	وصف خيبر في المصادر الإسلامية	٢٧٤
١٨٧.	الأوضاع قبل الغزوة	٢٧٦
١٨٨.	التحديد الزمني	٢٧٦
١٨٩.	تفصيل أسباب الغزوة	٢٧٧
١٩٠.	إجراءات عسكرية	٢٧٨
١٩١.	في أجواء الاستعداد	٢٨٠
١٩٢.	مشاهد في الطريق	٢٨٢
١٩٣.	المسلمون على أبواب خيبر	٢٨٤
١٩٤.	اختيار الموقع	٢٨٥
١٩٥.	الحث على الجهاد	٢٨٦
١٩٦.	المواجهة الأولى	٢٨٦
١٩٧.	الإصابة بالحمّى	٢٨٧
١٩٨.	تفكيك التحالف	٢٨٧

١٩٩.	فتح الحصون	٢٨٩
٢٠٠.	حدث ذو دلالة	٢٩٠
٢٠١.	أمير المؤمنين بطل خيبر	٢٩١
٢٠٢.	التلاعب في النص التاريخي	٢٩٣
٢٠٣.	تتمة الخبر	٢٩٧
٢٠٤.	مبارزات متفرقة	٢٩٨
٢٠٥.	مناقشة روايات التترس بالباب	٢٩٩
٢٠٦.	أحداث متفرقة	٣٠٣
٢٠٧.	مشاهد قتالية أخرى	٣٠٦
٢٠٨.	أحداث حصون الشِّق	٣٠٩
٢٠٩.	كنز آل أبي الحقيق	٣١١
٢١٠.	تصرف إنساني	٣١١
٢١١.	الإبقاء على اليهود في خيبر	٣١٢
٢١٢.	عيينة بن حصن وانكشاف الموقف	٣١٢
٢١٣.	محاولة اغتيال النبي	٣١٣
٢١٤.	توزيع الغنائم	٣١٤
٢١٥.	خمس المغنم	٣١٦
٢١٦.	تدابير ما بعد الغزوة	٣١٧
٢١٧.	أمر فدك	٣١٩
٢١٨.	يهود وادي القرى وتيماء	٣٢٤
٢١٩.	نهاية الغزوة	٣٢٥
٢٢٠.	**غزوة مؤتة (جيش الأمراء)**	٣٢٧
٢٢١.	تحديد زمني ومكاني	٣٢٩
٢٢٢.	مؤتة عبر التاريخ	٣٢٩
٢٢٣.	آل الجعافرة	٣٣٠
٢٢٤.	البناء على المرقد	٣٣٢
٢٢٥.	مراسلات النبي	٣٣٣
٢٢٦.	سرايا سبقت مؤتة	٣٣٩
٢٢٧.	عمرة القضاء	٣٤٠

٢٢٨. الغساسنة ٣٤١
٢٢٩. عرب الجنوب والشمال ٣٤٤
٢٣٠. ديانات العرب قبل الإسلام ٣٤٥
٢٣١. العرب النصارى ٣٤٦
٢٣٢. طوائف النصارى ٣٥٢
٢٣٣. قصص قرآنية ٣٥٤
٢٣٤. مقتل الحارث الأزدي ٣٥٧
٢٣٥. النبي يعلن النفير ٣٥٩
٢٣٦. التعريف بالقادة ٣٦١
٢٣٧. ترتيب القادة ٣٦٧
٢٣٨. دعاء النبي ووصاياه ٣٧٢
٢٣٩. مشاهد في الطريق ٣٧٥
٢٤٠. بدء القتال ٣٧٩
٢٤١. القيادة بيد ابن الوليد ٣٨٣
٢٤٢. محاولة استيضاح لحقيقة ما جرى ٣٨٦
٢٤٣. خسائر العدو ٣٨٨
٢٤٤. شهداء مؤتة ٣٨٨
٢٤٥. عودة الجيش ٣٨٩
٢٤٦. تأبين جعفر ٣٩١
٢٤٧. نتائج الغزوة ٣٩٥
٢٤٨. **فتـح مكـة** ٣٩٧
٢٤٩. النبي يقصد مكة للعمرة ٤٠٠
٢٥٠. نتائج صلح الحديبية ٤٠٣
٢٥١. عمرة القضاء ٤٠٣
٢٥٢. أهم أحداث العام السابع ٤٠٥
٢٥٣. خلفيات وأسباب فتح مكة ٤٠٦
٢٥٤. أبو سفيان يحاول تدارك الموقف ٤٠٧
٢٥٥. النبي يستعد للفتح ٤٠٩
٢٥٦. خيانة حاطب ٤٠٩

٢٥٧.	آيات سورة الممتحنة	٤١٢
٢٥٨.	عدد جيش المسلمين	٤١٢
٢٥٩.	محاولات فاشلة	٤١٢
٢٦٠.	القبض على جاسوس	٤١٤
٢٦١.	موقف إنساني	٤١٥
٢٦٢.	العباس يلتقي النبي	٤١٥
٢٦٣.	إسلام وفد مكي	٤١٦
٢٦٤.	الإفطار في السفر	٤١٧
٢٦٥.	عشرة آلاف شعلة	٤١٩
٢٦٦.	أبو سفيان يعاين جيش المسلمين	٤٢١
٢٦٧.	العودة إلى مكة	٤٢٣
٢٦٨.	المسلمون يدخلون مكة	٤٢٣
٢٦٩.	صفة دخول النبي مكة	٤٢٦
٢٧٠.	قصة أم هانيء بنت أبي طالب	٤٢٨
٢٧١.	المنظر المهيب	٤٢٨
٢٧٢.	بنو شيبة ومفاتيح الكعبة	٤٢٩
٢٧٣.	محو الصور ودخول النبي الكعبة	٤٣٠
٢٧٤.	خطبة النبي	٤٣١
٢٧٥.	أمير المؤمنين على ظهر الكعبة	٤٣٢
٢٧٦.	الخطبة الثانية	٤٣٣
٢٧٧.	البيعة العامة	٤٣٤
٢٧٨.	الدخول في الإسلام	٤٣٥
٢٧٩.	**غزوة حُنين وأوطاس والطائف**	٤٣٧
٢٨٠.	تحديد زمني ومكاني	٤٣٩
٢٨١.	تحديد طرفي المواجهة	٤٤٠
٢٨٢.	أسباب الغزوة	٤٤١
٢٨٣.	إجراءات النبي	٤٤١
٢٨٤.	تحذير دُريد	٤٤٢
٢٨٥.	ذات أنواط	٤٤٢

٢٨٦.	إعجاب المسلمين بقوتهم	٤٤٣
٢٨٧.	الاستعدادات الميدانية	٤٤٤
٢٨٨.	خطبة مالك بن عوف	٤٤٤
٢٨٩.	المفاجأة الكبرى	٤٤٤
٢٩٠.	ثبات العشرة	٤٤٥
٢٩١.	نداءات النبي	٤٤٦
٢٩٢.	مواقف سلبية	٤٤٦
٢٩٣.	بطولة أخرى للإمام علي	٤٤٧
٢٩٤.	نهاية المعركة	٤٤٨
٢٩٥.	مقتل أسيرين	٤٤٨
٢٩٦.	غنائم الحرب	٤٤٩
٢٩٧.	القرآن يتحدث عن الغزوة	٤٤٩
٢٩٨.	حصار الطائف	٤٤٩
٢٩٩.	الإمام علي في مهمة	٤٥٠
٣٠٠.	مكيدة عُيينة	٤٥٠
٣٠١.	دبابتان ومنجنيق	٤٥١
٣٠٢.	انتهاء الحصار	٤٥٢
٣٠٣.	توزيع الغنائم	٤٥٢
٣٠٤.	احتجاج الأنصار	٤٥٣
٣٠٥.	احتجاج ابن مرداس	٤٥٤
٣٠٦.	احتجاج ذي الخويصرة	٤٥٥
٣٠٧.	يوم النهروان	٤٥٦
٣٠٨.	إطلاق السبي	٤٥٨
٣٠٩.	العودة إلى مكة	٤٥٨
٣١٠.	وصف علَوي	٤٥٩
٣١١.	**غزوة تبوك**	٤٦١
٣١٢.	تحديد زمني ومكاني	٤٦٣
٣١٣.	تبوك في التاريخ	٤٦٥
٣١٤.	أسماء الغزوة	٤٦٦

٣١٥.	أسباب الغزوة	٤٦٦
٣١٦.	التهيؤ للخروج وإرجاف المنافقين	٤٦٨
٣١٧.	التعبئة العامة	٤٧٢
٣١٨.	المتخلفون عن الخروج	٤٧٣
٣١٩.	أبو ذر يمشي وحده	٤٧٤
٣٢٠.	أبو خيثمة يتخلف	٤٧٥
٣٢١.	أنت مني بمنزلة هارون	٤٧٦
٣٢٢.	حركة الجيش نحو تبوك	٤٨٢
٣٢٣.	تشييد المسجد	٤٨٢
٣٢٤.	قصة أبي رهم	٤٨٣
٣٢٥.	عين تبوك	٤٨٣
٣٢٦.	المفاجأة	٤٨٤
٣٢٧.	تشييد مسجد تبوك	٤٨٥
٣٢٨.	موعظة ومسائل	٤٨٧
٣٢٩.	مواعظ أخرى	٤٩٠
٣٣٠.	سرية خالد بن الوليد	٤٩٠
٣٣١.	مصالحة ملك أيلة	٤٩٣
٣٣٢.	محاولة اغتيال النبي	٤٩٤
٣٣٣.	هدم مسجد ضرار	٤٩٧
٣٣٤.	الثلاثة الذي خُلّفوا	٤٩٩
٣٣٥.	خاتمة	٥٠٤
٣٣٦.	**مصادر الكتاب**	٥٠٥

مقدمة
الكتاب



مقدمة أ.د. حسين المسري

يتحدث المؤلف في هذا الكتاب عن الغزوات التي قام بها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعن السرايا التي بعثها بتأمير أحد أصحابه «رضوان الله عليهم». وكانت بداية هذه الغزوات والسرايا بعد الهجرة المباركة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. وكانت أولى هذه الغزوات غزوة بدر الكبرى التي دارت رحاها بين المسلمين وكفار قريش.

وقد سبق هذه الغزوة ما قام به رسول الله «صلى الله عليه وآله» باعتراضه لعِير قريش وقوافلها التجارية الذاهبة إلى الشام أو العائدة منها، نكايةً بما صنعت قريش من مصادرتها لأموال المسلمين الذين هاجروا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة المنورة، وكان لاعتراض قوافل قريش التجارية آثاره السلبية على تجارة قريش، فقد تضررت هذه التجارة كثيراً، وقد تبعت غزوة بدر غزوات وسرايا أخرى كغزوة أُحد ومؤتة وحُنين وتبوك.

وتتميز هذه الدراسة بما قام به المؤلف من إحاطة شاملة لأحداث غزوات رسول الله «صلى الله عليه وآله» معتمداً في ذلك على العديد من المصادر، تشهد على ذلك قائمة المصادر المرفقة في نهاية هذا الكتاب.

كما أن الميزة الطيبة للمؤلف أنه اعتمد في بحثه هذا على أمهات المصادر التاريخية والدينية ذات الصلة المباشرة بموضوع هذه الدراسة. ونذكر على سبيل المثال من هذه المصادر: كتاب «السيرة والمغازي» لأبي عمر المعروف بالواقدي، ولعل هذا الكتاب من أفضل الكتب التي تحدّث صاحبها عن السيرة والمغازي، لذلك أجد أن الباحث عوّل عليه كثيراً.

واعتمد أيضاً على كتاب «تاريخ الأمم والملوك» لمحمد بن جرير الطبري، وكتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، هذا فضلاً عن الكتب ذات الطابع الديني في علم الفقه وعلم الحديث.

وقد لمست من خلال قراءتي لجوانب من هذا الكتاب أن الباحث يعتمد في دراسته على التحقيق في بعض المعلومات التاريخية التي يقف عندها، وكان يستعرض في ذلك آراء المؤرخين ورجال الدين، ومن شتى المدارس، حول رأيهم في هذه المسألة الدينية أو المعلومة التاريخية.

والشيء الملفت للنظر أن موقف المؤلف من هذه الآراء التي يعرضها كان موقفاً محايداً، مما يدل على أمانة

الباحث في نقله للمعلومة التاريخية أو الفقهية، وهذا بطبيعة الحال يعطي مؤشراً على القيمة العلمية لهذا الكتاب.

ويتضح من قراءتي لهذا الكتاب ما قام به الباحث من جهد كبير متمثل في جمع المادة العلمية من المصادر والمراجع المتنوعة، كما أنه لم يغفل عن الاستعانة بالوسائل التوضيحية باستخدام الخرائط التي عيّن عليها المواضع التي حدثت فيها الغزوات. وهذا عمل طيب يُشكر عليه الباحث.

ولـي أمل بأن هذا الكتاب سوف يسد فراغاً كبيراً في تاريخنا الإسلامي، وأسأل الله «العلي القدير» أن يكون الهدف والغاية من هذه الدراسة خاصلة لوجه الله «تعالـى» لنشر المعرفة والعلم، سواء كانت في العلوم الشرعية أو العلوم الإنسانية، لتكون في متناول الدارسين وخاصة الشباب.

وما التوفيق إلا من عند الله «تبارك وتعالـى».

أستاذ تاريخ الخليج والجزيرة في العصور الإسلامية

كلية الآداب ـ جامعة الكويت

أ.د. حسين علي المسري

الكويت في ١٥ شوال ١٤٣٧ هـ ـ ٢٠ يوليو ٢٠١٦م

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه، ونَيِّر برهانه، ونوامي فضله وامتنانه، الذي جعل شرائف صلواته و نوامي بركاته على محمّد عبده ورسوله، القائم بأمره والمجاهد في سبيله، وعلى العترة الطيبين من أهل بيته المصطفين، الذين أذهب عنهم كل دنس، وطهّرهم من كل رجس.

اهتم المسلمون بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» برواية وتدوين سيرته الشريفة، وصُنِّفت في ذلك المصنفات الكثيرة، كما حظيت غزواته وسراياه طيلة سنوات هجرته بعناية خاصة، وصُنِّفت فيها كتب استقلّت عن كتب السيرة، من قبيل كتاب «المغازي» لمحمد بن عمر الواقدي، وكتاب «الرسول القائد» لمحمود شيث خطاب، وكتاب «غزوات الرسول» لعبدالحميد شاكر، وغير ذلك.

وقد قمت قبل عدة سنوات بالبدء باستعراض غزواته «صلى الله عليه وآله» خلال شهر رمضان ضمن محاضرات ألقيت من على منبر مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت، فتم عرضها غزوة غزوة على مدى سبع سنوات متتالية، وشملت تلك المحاضرات ضمن العرض بحوثاً فقهية وجغرافية ورجالية، كما تم تدعيمها بالأفلام الوثائقية والصور والخرائط والمخططات.

وخلال السنة الأخيرة من الإعداد، شرعت في تحويل تلك المحاضرات إلى مادة صالحة كي تُقدَّم ككتاب مستقل، الأمر الذي استدعى مني إعادة كتابة النصوص والشروح والتعليقات، وإجراء مراجعة شاملة وتوثيقية للنصوص المقتبسة من المراجع والمصادر، مع الأخذ بعين الاعتبار مراعاة الأمور التالية:

١. إعداد خرائط جديدة اعتماداً على آخر نسخة لبرنامج Google Earth. ولم يكن تحديد الأماكن على الخرائط بالأمر اليسير أحياناً،لاسيما مع تغير أسماء تلك الأماكن أو ضياع معالمها أو اختفائها من على وجه الأرض بعد مرور أكثر من ألف وأربعمائة عام على الأحداث، وهو ما اضطرني إلى مراجعة كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي ومصادر أخرى لتحديد المسافات بين المواضع التي يراد تحديدها على الخريطة، أو بعض العلامات المساعدة على التحديد، ومقارنة أسمائها الحديثة بالقديمة، وغير ذلك، كي أصل في نهاية المطاف إلى تحديد تقريبي للمكان المقصود على الخريطة.

٢. شرح معاني الكلمات الصعبة، وتوضيح المراد من العبارات الغامضة، وتفكيك بعض النصوص الطويلة وتحويلها إلـى فقرات متعددة تجعل من النص التاريخي نصاً سهلاً وسلساً وواضحاً.

٣. الاستعانة ببعض الكتب والبرامج لتحويل ومقارنة التواريخ الهجرية والميلادية، وتبديل المقاييس المذكورة في الكتب القديمة من قبيل المرحلة والبريد والفرسخ والميل إلـى مقياس معاصر هو الكيلومتر وأجزائه.

٤. تقديم ترجمات مختصرة لكثير من الشخصيات الوارد ذكرها في الكتاب، لاسيما المجهولة الحال من بينها، أو التي تحتاج إلـى شيء من البيان، لما لذلك من أثر في فهم الموقف الصادر عنها، أو علاقتها النسَبية مثلاً بشخصيات أخرى وردت أسماؤها في ذات الحدث، أو لغير ذلك من الدواعي التي تخدم هدف الكتاب، مع التغافل عن شخصيات أخرى مشهورة ومعروفة.

٥. تحليل وتقييم بعض الأخبار والروايات الواردة في سياق الغزوة أو الحدث التاريخي، لا من الناحية السندية، بل من جهة مدى توافق النص مع ما جاء في القرآن الكريم من حديثٍ حول ذات القضية، أو لتعارضها مع روايات أخرى أكثر مواءمة مع العقل والمنطق وتسلسل الأحداث والظروف الموضوعية، وأمثال ذلك.

٦. الاعتماد ـ قبل الدخول في تفاصيل الغزوة ـ على الإتيان بمقدمة مختصرة حول الظروف السابقة والمحيطة بها، وأسبابها، ثم استعراض بعض آثارها ونتائجها. علاوة على تقديم نبذة تاريخية وجغرافية عن الأماكن التي شهدت الغزوة أو تلك التي لها علاقة مباشرة بها.

٧. تصميم الكتاب وطباعته بالألوان، وتمييز الآيات القرآنية الشريفة وأسماء الشخصيات المترجَم لها والمعلومات الإضافية والبحوث الجانبية وعناوين الصور التوضيحية من خلال اعتماد ألوان متباينة وفق الحاجة، بغرض تيسير مطالعة الكتاب والاستفادة منه بأفضل صورة ممكنة.

وفي نهاية المطاف، فإن هذا الكتاب عبارة عن جهد بشري قابل للخطأ والتقصير والقصور، فأطلب العذر ابتداء من صاحب السيرة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» إن أخطأت، ومن القراء الكرام إن زللت، والله المستعان.

علي حسن غلوم علي ـ الكويت

رمضان ١٤٣٧ هـ / يونيو ٢٠١٦


بسم الله الرحمن الرحيم

معركة
بدر الكبرى



معركة بدر الكبرى

معركة بدر من معارك الإسلام الحاسمة والمهمة وذات الطابع والتأثير الخاص، فقد كانت أولى المعارك الفاصلة في الإسلام، وبداية المواجهات بين المسلمين والمشركين من أهل مكة. وفيها تحقق النصر للمسلمين على الرغم من تفوق المشركين قبل المعركة بعدة لحاظات.

هذا النصر أعطى دفعة معنوية كبيرة للمسلمين لمزيد من الثقة بقيادتهم الحكيمة المتمثلة في شخص رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبالوعود الإلهية الخاصة بالامتداد العددي والجغرافي وحيازة القوة الاقتصادية والغلبة على العدو بشكل نهائي.

كما وقد اكتسب الذين شاركوا فيها منزلةً خاصة بين المسلمين فيما بعد، حتى كان يقال أن فلاناً من «البدريين»، وللقرار أو الرأي الذي يؤيده البدريون: «وافقَنا عليه البدريون».

جاء ذلك كله نتيجة الأهمية الكبرى للمعركة من الناحية:

١- الزمنية، فهي أول معركة كبيرة «نسبياً» للمسلمين.

٢- القرآنية، حيث فصّل القرآن الكريم حديثَه عنها، وعن آثارها وظروفها.

٣- الحديثية، إذ رُويَت أخبار عن النبي «صلى الله عليه وآله» في شأن «البدريين»، وسنقيّم ذلك لاحقاً.

٤- الظرفية، حيث عاهد المسلمون النبي «صلى الله عليه وآله» على القتال الذي لم يبادروا له، مع الفارق العددي والتسليحي، ومن حيث الإمكانات المختلفة.

* تحديد زمني ومكاني:

اتفق المؤرخون على أن المعركة قد وقعت في ١٧ من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ويوافق ذلك ١٧ من مارس من سنة ٦٢٤ م. وقلما يتفقون على مثل ذلك.

موقع المعركة أرض «بدر»، وبذا اكتسبت المعركة اسمها، وقد قال بعض المؤرخين أن التسمية جاءت نسبةً إلى «بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»، والواقع أن لا دليل على هذا القول، وقد اعتاد بعض المؤرخين على ذكر مثل هذه النسب دون تقديم دليل واضح.

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (بدر: بالفتح ثم السكون. قال الزجاج: بدر أصله الامتلاء. يقال غلام: بدر، إذا كان ممتلئاً شاباً لحماً. وعين بدرة. ويقال: قد بدر فلان إلى الشيء وبادر إليه، إذا سبق. وهو غير خارج عن الأصل، لأن معناه استعمل غاية قوته وقدرته على السرعة، أي استعمل ملء طاقته. وسُمّي بيدر الطعام بيدراً [1] لأنه أعظم الأمكنة التي يجتمع فيها الطعام. ويقال بدَرت من فلان بادرة، أي سبقت فعلة عند حدة منه في غضب بلغت الغاية في الإسراع. وقوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [2] أي مسابقة لكبرهم. وسمي القمر ليلة الأربعة عشر بدراً، لتمامه وعظمه. وبدر ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلة، ويقال: إنه يُنسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنُسب إليه ثم غلب اسمه عليه. وقال الزبير بن بكار: قريش بن الحارث بن يخلد، ويقال مخلد بن النضر بن كنانة، به سميت قريش فغلب عليها لأنه كان دليلها وصاحب ميرتها، فكانوا يقولون جاءت عير قريش وخرجت عير قريش، قال: وابنه بدر بن قريش به سُميت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة لأنه كان احتفرها، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرّق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة... وبين بدر والمدينة سبعة بُرد، بريد بذات الجيش، وبريد عبود، وبريد المرغة، وبريد المنصرف، وبريد ذات أجذال، وبريد المغلاة، وبريد الأثيل، ثم بدر، وبدر الموعد، وبدر القتال، وبدر الأولى والثانية كله موضع واحد. وقد نسب إلى بدر جميع من شهدها من الصحابة الكرام. ونسب إلى سكنى الموضع أبو مسعود البدري واسمه عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة بن عطية بن جدارة بن عوف بن الحارث بن الخزرج شهد العقبة الثانية وكان أصغر من شهدها. وفي كتاب الفيصل أنه لم يشهد بدراً، وقال ابن الكلبي شهد بدراً والعقبة، وولّاه علي الكوفة حين سار إلى صفين)[3].

تقع بدر جنوب غرب المدينة المنورة، والمسافة بينها وبين المدينة ـ بالطرق القديمة للقوافل: ١٥٤ كم تقريباً، حيث أن البريد: ٤ فراسخ، والفرسخ ٥,٥ كم تقريباً، وعليه يكون البريد: ٢٢ كم تقريباً. والمسافة بينهما بالطريق الحديثة: ١٥٣ كم، وتفصلها عن سواحل البحر الأحمر الواقعة غربها بحوالي ٣٠ كم.

كانت بدر على عهد النبي «صلى الله عليه وآله» محطة لمرور القوافل المتجهة إلى الشام والعائدة إلى مكة المكرمة، كما كانت سوقاً من أسواق العرب المشهورة، وساعدها في ذلك موقعها الجغرافي.

١. البيدر: موضع يُجمع فيه القمح ونحوُه.
٢. سورة النساء: ٦.
٣. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٣٥٧-٣٥٨.



محافظة بدر ـ حالياً ـ هي إحدى محافظات منطقة المدينة المنورة، وتُعد من المناطق الزراعية، كما أنها غنية بالكثير من المعالم والشواهد التاريخية، وبها منطقة مخصصة لمقابر شهداء معركة بدر الكبرى، وغالبية سكانها في هذا العصر من بني صبح الغفاريين، كما كانت من ديار بني غفار على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله».

«صبح» قبيلة غفارية ضمرية كنانية الأصل تُنسب إلى غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبدمناة بن كنانة.

* مواجهات سبقت بدراً:

لم تكن معركة بدر الكبرى هي المواجهة الأولى بين المسلمين وغيرهم في العهد المدني، واختلفت طبيعة هذه المواجهات بين مناورات ومعارك صغيرة وعقد تحالفات.

سرية حمزة بن عبدالمطلب: أوّل لواء عُقد كان لحمزة بن عبد المطلب «رضوان الله عليه»، وقد أمّره النبي «صلى الله عليه وآله» على ثلاثين رجلاً من المهاجرين بعثهم إلى سواحل البحر الأحمر حيث الطرق التجارية التي تمر فيها قوافل قريش التجارية، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، فتواجهوا مع قافلة قريش وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل من أهل مكة، فاصطفّوا للقتال، ولكنهم تفرقوا لاحقاً استجابةً لوساطة قام بها مجديّ بن عمرو الذي كان حليفاً للمسلمين ولمشركي قريش في آن واحد، فانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة، وتوجّه أبو جهل وأصحابه إلى مكة.

سرية عبيدة بن الحارث: في نفس الوقت الذي بعث فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» سريّة حمزة، أو بعدها بقليل ـ في شوال ـ عقد لواءً آخر لعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وبعثه في ستين راكباً من المهاجرين بهدف التعرض لقافلة قريش التجارية بقيادة أبي سفيان، فسار حتى بلغ قرب ينبع، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش يبلغ مائتين، ولكنْ لم يكن بينهم قتال، إلاّ أنه روي أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم، كما أنه روي أنه التحق رجلان مسلمان كانا في قافلة أبي سفيان بالمسلمين.

سرية سعد بن أبي وقاص: بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» في شهر ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة سريّة بقيادة سعد بن أبي وقاص على رأس ثمانية أشخاص من المهاجرين للتحقق من تنقلات قريش ورصد تحرّكاتها خارج المدينة، فخرجوا حتى بلغوا منطقة الخرّار ولكنهم لم يجدوا أحداً فعادوا إلى المدينة.

يقع مسجد الجحفة على الضفة الشمالية الغربية لوادي الجحفة، وكان الوادي يعرف باسم «مر عنيب» أو «الخرار»، أما اليوم فيسمى «الخانق».

غزوة الأبواء: في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة استعمل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على المدينة سعد بن عبادة وخرج بنفسه مع جماعة، لملاحقة الركْب التجاري لقريش واعتراضه، حتى بلغ الأبواء، ولكنه لم يلق أحداً. واستفاد النبي «صلى الله عليه وآله» من هذه الفرصة وعقَد معاهدة موادعة مع بني ضَمَرة من كنانة على أن لا يُكثروا، ولا يعينوا عليه أحداً، ثم كتب بينهم كتاباً، ورجع بعد غيبة استمرت خمس عشرة ليلة.

بنو ضمرة يُعرفون الآن باسم «عشائر الضمور» وهم من القبائل العدنانية من بطون قبيلة بني كنانة التي تسكن الحجاز و تهامة، وقد خرجوا لاحقاً من ديارهم الأصلية في الحجاز إلى الأردن، وهم حالياً من عشائرها.

غزوة بواط: في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة استعمل النبي «صلى الله عليه وآله» على المدينة السائب بن عثمان أو سعد بن معاذ وخرج على رأس مائتين من الرجال يريد قريشاً حتى بلغ بَواط، وهو جبل يقع بالقرب من مدينة ينبع، ولكنه لم يظفر بقافلة قريش التي كان يقودها أميّة بن خلف وعلى رأس مائة رجل من قريش ومعهم ألفين وخمسمائة بعير، فرجع إلى المدينة. وتذكُر بعض الأخبار أن عيون قريش أخبرت القافلة بحركة النبي ومن معه، فأسرعت قافلتهم بحركتها وسلكت غير طريق القوافل، ومكث المسلمون في بواط ما يقارب الشهر.

غزوة ذو العُشيرة: في منتصف جمادى الأولى ـ وقيل في جمادى الآخرة ـ علم النبي «صلى الله عليه وآله» بخروج قافلة قريش التجارية من مكة بقيادة أبي سفيان تريد الشام للتجارة، وقد جمعت قريش كلَّ أموالها في



تلك القافلة، فخرج النبي «صلى الله عليه وآله» في جمع من أصحابه لاعتراضها حتى بلغ موضعاً يُعرف باسم «ذو العُشيرة ـ ذات العشيرة ـ العشيرة ـ العشيراء» القريبة من مدينة ينبع، وقد استعمل على المدينة هذه المرّة أبا سلمة بن عبدالأسد، وبقي «صلى الله عليه وآله» في تلك المنطقة شهراً ينتظر قافلة قريش، ولكنه لم يظفر بها، إذ استطاعت القافلة سلوك طريق أخرى. واستفاد النبي من الفرصة ووادعَ بني مدلج وعقد معهم معاهدة عدم اعتداء.

بنو مدلج بطن من كنانة قليل العدد، وكانوا يستقرون في منطقة العُشيرة، ويعملون في الزراعة، وخاصة زراعة النخيل، ويسكن بجوارهم بنو ضمرة، وبينهما حلف، وتقع منازلهم بقرب الساحل.

* أبو تراب:

كانت كنية «أبي تراب» أحب كُنى الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» إلى قلبه، فقد كنّاه بها رسول

الله «صلى الله عليه وآله».. هذا من جهة.. ومن جهة أخرى لتناغمها مع طبيعة شخصية الإمام علي من خلال دلالتها على التواضع والبساطة والزهد الذي عُرف به.

محمد رشيد بن علي رضا: مفكر وعالم ديني لبناني «ت١٣٥٤هـ». تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، وهاجر إلى مصر حيث أصد مجلة المنار المشهورة حينذاك وكانت تعد من المجلات الفكرية الإصلاحية، وله التفسير المعروف باسم المنار أيضاً.

وقد ذكر محمد رشيد رضا في كتابه «سيدنا محمد» وهو يتحدث عن هذه الغزوة: (**وبالعشيرة كنَّى رسول الله علي بن أبي طالب أبا تراب، وذلك أنه رآه نائماً متمرغاً في البوغاء**[١] **فقال: اجلس أبا تراب، فجلس**)[٢].

وقد روى الخبر الكثير من المؤرخين، من بينهم ابن الأثير في «الكامل في التاريخ»، قال: (**في هذه الغزوة والمكان نزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وجماعته في بواط عند عين، فنام علي وعمّار فوجدهما رسول الله «صلى الله عليه وسلم» نائمَين في دقعاء من التراب**[٣] **فأيقظهما، وحرّك عليّاً فقال: قم يا أبا تراب، ألا أخبرك بأشقى الناس؟ أُحيمر ثمود عاقر الناقة، والذي يضربك على هذه ـ يعني قرنه ـ فيخضّب هذه منها ـ يعني لحيته ـ**)[٤].

وروى أحمد في مسنده عن عمّار بن ياسر قال: (**كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع، فلما نزلها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أقام بها شهراً فصالح فيها بني مدلج وحلفاءهم من ضمرة فوادعهم، فقال لي علي «رضي الله عنه»: هل لك يا أبا اليقظان أن نأتي هؤلاء نفر من بني مدلج يعملون في عين لهم فننظر كيف يعملون؟ قال: قلت: إن شئت. فجئناهم فنظرنا إلى أعمالهم ساعة، ثم غشينا النوم فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في ظل صَوْر من النخل**[٥] **وفي دقعاء من التراب فنمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يحركنا برجله وقد تربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها، فيومئذ قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعلي «رضي الله عنه»: ما لك يا أبا تراب؟ لما يرى عليه من التراب. ثم قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس، رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى يبل منها هذه، وأخذ بلحيته**)[٦].

١. البوغاء: ما ثار من الغبار ودقاق التراب.
٢. رضا: سيدنا محمد، ج١، ص ٢٠٨.
٣. أي أنها كانت ترابية خالية من النباتات، وترابها دقيق ناعم.
٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٢٤٧.
٥. صور من النخل: النخل المجتمع الصغار.
٦. ابن حنبل: المسند: ج٤، ص ٢٦٢.

وبعض النصوص تدل على أنها ليست المرة الأولى التي نادى فيها النبيُّ علياً بذلك، ففي صحيح البخاري عن عبدالعزيز ابن أبي حازم عن أبيه أن رجلاً جاء إلى الصحابي سهل بن سعد فقال: (هذا فلان لأمير المدينة، يدعو علياً عند المنبر. قال: فيقول ماذا؟ قال: يقول له: أبو تراب. فضحك. قال: والله ما سماه إلا النبي «صلى الله عليه وسلم» وما كان له اسم أحب إليه منه. فاستطعمت الحديث سهلاً [1] وقلت: يا أبا عباس، كيف ذلك؟ قال: دخل عليٌّ على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي «صلى الله عليه وسلم» أين ابن عمك؟ قالت: في المسجد. فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول: اجلس يا أبا تراب، مرتين).

ثم علق ابن حجر على ما سبق بقوله: (ظاهره أن ذلك أول ما قال له ذلك). ثم روى رواية غزوة العشيرة وأضاف: (ويُروى من حديث ابن عباس أن سبب غضب علي كان لما آخى النبي «صلى الله عليه وسلم» بين أصحابه ولم يؤاخ بينه وبين أحد فذهب إلى المسجد، فذكر القصة وقال في آخرها: قم فأنت أخي... وحديث الباب أصح، ويمتنع

سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري «ت٩١هـ» وهو أحد رواة خبر الراية يوم خيبر. لقي قافلة سبايا كربلاء خارج باب دمشق، وتحدّث إلى السيدة سكينة وعرّفها بنفسه وأعطى لحامل رأس الحسين ٤٠٠ دينار كي يسير به أمام القافلة حتّى ينشغل الناس بالنظر إليه لا إلى السبايا. أدرك عهد الحجاج الثقفي وامتُحن معه، حيث أمر به، فخُتم في عنقه، وخَتم أيضاً في عنق أنس بن مالك، وفي يد جابر بن عبدالله، إذلالاً لهم وليجتنبهم الناس، ولا يسمعوا منهم.

العبارة غير مفهومة، ولذا علق ابن حجر في كتابه «فتح الباري» على هذا المقطع بقوله: (أي عنى أمير المدينة، وفلان المذكور لم أقف على اسمه صريحاً). ثم ذكر أن الجرجاني فقيه الشافعية روى العبارة بصورة مختلفة وهي: (هذا) وكأنه يشير إلى شخص (فكان فلان ابن فلان). وهذا بداية التحريف والتلاعب بتغييب اسم الشخص.

مجدداً تبدو العبارة غامضة وبلا معنى، فما هي المقولة التي نقلها المتحدث كي يُسأل عنها؟ نعم، في رواية الطبراني العبارة هكذا: (يدعوك لتسب علياً).. هكذا بدأت الصورة تتضح تدريجياً، فالمسألة تتعلق بمبعوث جاء إلى أمير المدينة بينما كان عند منبر المسجد وأشار إلى شخص ما قائلاً بأن ذلك الشخص يطلب من الأمير أن يسب علياً ويذكره باسم أبي تراب! ولما سمع سهل بن سعد ذلك ضحك للمفارقة وذكر للمتحدث حقيقة هذه الكنية.

١. كأنه أراد رأيه في الأمر كمن يتذوق الطعام.

الجمع بينهما لأن قصة المؤاخاة كانت أول ما قدم النبي «صلى الله عليه وسلم» المدينة، وتزويج علي بفاطمة ودخوله عليها كان بعد ذلك بمدة، والله أعلم)[1].

ولربما يكشف لنا الخبر التالي حقيقة الشخص الآمر بسب علي، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: **(أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حُمر النعم**[2] **سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول له، خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلّفتني مع النساء والصبيان! فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي؟ وسمعته يقول يوم خيبر: لأُعطينَّ الراية رجلاً يُحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. قال: فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي علياً. فأتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾**[3] **دعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي)**[4].

والمفارقة أن كل التاريخ المتواتر حول قضية سب الإمام علي «عليه السلام» على المنابر في العهد الأموي لم يكن دليلاً كافياً على وقوع الأمر! ولذا قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: **(قال العلماء: الأحاديث الواردة التي في ظاهرها دخل على صحابي يجب تأويلها. قالوا: ولا يقع في روايات الثقات إلا ما يمكن تأويله. فقول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب، كأنه يقول: هل امتنعت تورعاً، أو خوفاً، أو غير ذلك؟ فإن كان تورعاً وإجلالاً له عن السب فأنت مصيب محسن، وإن كان غير ذلك فله جواب آخر، ولعل سعداً قد كان في طائفة يسبون، فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار، وأنكر عليهم، فسأله هذا السؤال. قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه: ما منعك أن تخطّئه في رأيه واجتهاده، وتُظهر للناس حُسن رأينا واجتهادنا، وأنه أخطأ؟)**[5].

ولا أدري إن كانت نسبة هذه التأويلات إلى العلماء من قبيل الهروب من واقع يدركه النووي ويتمثل في عدم قبوله كلامهم، فألقى الكرة في ملعبهم؟ ثم ما معنى كلمة «أمَر» في قوله **(أمَر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب)**؟ أليس المراد من ذلك أنه أمره أن يسبَّه فامتنع، فاستفهم منه سبب الامتناع مستنكراً عليه ذلك؟

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مسألة ٣٥٠٠.
٢. حُمر النَّعَم: نوعية من الإبل هي الأغلى قيمةً عندهم.
٣. سورة آل عمران: ٦١.
٤. مسلم: المسند الصحيح «صحيح مسلم»، ح ٤٤٢٠.
٥. النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، مسألة ٢٤٠٤.

ثم لاحظ رواية ابن ماجة عن سعد بن أبي وقاص حيث قال: (**قَدِم معاوية في بعض حجاته فدخل عليه سعد فذكروا علياً فنال منه**[١]، **فغضب سعد وقال: تقول هذا لرجل سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه. وسمعته يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وسمعته يقول: لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله؟**)[٢].

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي: (**وكنَّاهُ رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أبا تراب، وَجَدهُ نائماً في تراب قد سقط عنه رداؤه وأصاب التراب جسده، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له: اجلس، إنما أنت أبو تراب. فكانت هذه الكنية من أحب كناه إليه صلوات الله عليه، و كان يفرح إذا دُعي بها، و كانت تُرغِّبُ بنو أمية خطباءها أن يسبُّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمةً عليه، فكأنما كسوه بها الحُلي والحُلل كما قال الحسن البصري «رحمه الله»**)[٣].

وفي «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي عن عمر بن علي بن الحسين، عن أبيه [٤] قال: (**قال مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم ـ يعني علياً عن عثمان** [٥] **ـ قال: فقلت: ما بالكم تسبونه على المنابر؟ قال: لا يستقيم الأمر إلا بذلك. رواه ابن أبي خيثمة بإسناد قوي، عن عمر**)[٦].

وقال ابن الاثير في «الكامل في التاريخ»: (**ذِكر ترْك سب أمير المؤمنين علي «عليه السلام». كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»، إلى أن ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة، فترك ذلك وكتب إلى العمال في الآفاق بتركه**)[٧].

وفي معرض حديث ابن تيمية عن حكم ذكر الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة ومبدأ ذلك قال: (**فلما كان في بني أمية من يسب علياً «رضي الله عنه» ويذمّه ويقول إنه ليس من الخلفاء الراشدين، وتولى عمر بن عبد العزيز بعد أولئك، فقيل: إنه أول من ذكر الخلفاء الراشدين الأربعة على المنبر، فأظهر ذِكر علي والثناء عليه وذكر فضائله، بعد أن كان طائفة ممن يبغض علياً لا تختار ذلك**)[٨].

---

١. قال السندي شارح سنن ابن ماجه: (أي نال معاوية من علي ووقع فيه وسبه بل أمر سعداً بالسب كما قيل في مسلم والترمذي).
٢. القزويني: سنن ابن ماجه، ح ١٢١.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص ١١-١٢.
٤. أي الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام».
٥. أي لم يدافع أحد عن عثمان كما دافع عنه علي أثناء الفتنة التي أدت إلى قتله.
٦. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٤٨٧.
٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٣٦٤.
٨. ابن تيمية: منهاج السنة، ج١، ص ١٦٥.

وقال ابن حزم متحدثاً عن بني العباس: (**إلا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة «رضوان الله عليهم» بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن عليّ بن أبي طالب «رضوان الله عليه» ولعن بنيه الطاهرين من بني الزهراء، وكلهم كان على هذا، حاشا عُمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد «رحمهما الله تعالى» فإنهما لم يستجيزا ذلك**)[1].

ولعميد المنبر الحسيني المرحوم الشيخ الدكتور أحمد الوائلي قصيدة رائعة بعنوان «أبو تراب» يعرض فيها مدلولات هذه الكنية العلوية المهداة من النبي «صلى الله عليه وآله»، حيث قال فيها:

أأبا ترابٍ، وللترابِ تفاخرُ	إن كان من أمشاجِه لك طين
والناسُ من هذا التراب وكلهم	في أصله حمأ به مسنون
لكن من هذا التراب حوافر	ومن التراب حواجب وعيون
فإذا استطال بك التراب فعاذرٌ	فلأنت من هذا التراب جبين
ولئن رجعت إلى التراب فلم تمت	فالجذر ليس يموت وهو دفين
لكنه ينمو ويفترع الثرى	وترف منه براعمٌ وغصون

* غزوات أخرى:

كان كرز الفهري من رؤساء المشركين قبل أنْ يسلم، ثم شهد الحديبية وخيبر، وتوجه مع النبي لفتح مكة عام ٨ هـ ولكنه قُتل في الطريق.

غزوة بدر الأولى: نعود مجدداً للحديث عن السرايا والغزوات التي سبقت معركة بدر الكبرى، فقد رجع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد غزوة ذو العشيرة إلى المدينة بعد اليأس من قافلة قريش، ولم يقم بها إلاّ ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى هاجم كُرز بن جابر الفهري على إبل أهل المدينة ومواشيهم التي كانت قد سرحت للرعي صباحاً. فخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» في طلبه واستعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ وادي سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كُرزاً، فكرَّ راجعاً.

سرية نخلة: وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» عبدالله بن جحش ـ وأمُّه عمَّة النبي أميمة بنت عبدالمطلب ـ على رأس ثمانية رجال من المهاجرين لملاحقة قافلة قريش التجارية، وقد روى عبدالله الحدث كما نقل عنه الواقدي في المغازي: (**دعاني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين صلى العشاء فقال: وافِ مع الصبح، معك سلاحك، أبعثك وجهاً! قال: فوافيت الصبح وعليَّ سيفي وقوسي**

١. الأندلسي: الرسائل، ج١، ص ٣٦٦.

وجعبتي، ومعي درقتي، فصلى النبي «صلى الله عليه وسلم» بالناس الصبح ثم انصرف، فيجدني قد سبقتُه واقفاً عند بابه، وأجد نفراً معي من قريش. فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أبيَّ بن كعب فدخل عليه، فأمره رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وكتب كتاباً. ثم دعاني فأعطاني صحيفةً من أديم خولاني[١] فقال: قد استعملتك على هؤلاء النفر، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم امض لما فيه. قلت: يا سول الله، أي ناحية؟ فقال: اسلك النجدية، تؤم رَكِيَّة[٢]. قال: فانطلق حتى إذا كان ببئر ابن ضميرة نشر الكتاب فقرأه فإذا فيه: سر حتى تأتي بطن نخلة[٣] على اسم الله وبركاته، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض لأمري فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عِيرَ قريش[٤]. فلما قرأ عليهم الكتاب قال: لست مُستكرهاً منكم أحداً، فمن كان يريد الشهادة فليمض لأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ومن أراد الرجعة فمن الآن! فقالوا أجمعون: نحن سامعون ومطيعون لله ورسوله ولك، فسر على بركة الله حيث شئت. فسار حتى جاء نخلة فوجد عيراً لقريش...)[٥].

من الواضح أن النبي«صلى الله عليه وآله» بدأ يشك بوجود منافقين أو بعض الجواسيس في صفوف المسلمين، فيُخبرون قريشاً بأمر السرايا والغزوات، فتهرب القوافل التجارية قبل الوصول إليها. أما هذه القافلة فقد كانت عائدة من الطائف إلى مكة تحمل زبيباً وأدَماً [٦] وتجارةً من تجارة قريش، فنزل المسلمون بالقرب منهم، ولكي لا يكتشفهم العدوّ، ولا يعرف بأمرهم ومهمّتهم، حلقوا رؤوسَهم ليتصوّر مَن في القافلة أنهم معتمرون. فلما رآهم رجالُ قريش على هذه الحال اطمأنوا وأمِنوا جانبهم وقالوا : عُمّار [٧]، لا بأس عليكم منهم.

ثم تشاور المسلمون فيما بينهم ورأى بعضهم أنهم إذا تركوا القافلة وشأنها في تلك الليلة، وكانت آخر ليلة من شهر رجب، فإن مَن فيها سيدخلون ضمن حدود الحرم المكي الآمن، وبالتالي فلا يمكن قتالهم فيه، فأجمعوا على قتل مَن قدروا عليه منهم، وأخْذ ما معهم.

وهكذا قام المسلمون بمباغتة القافلة، ورمى الصحابيُّ واقدُ بن عبد الله قائدَها عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وفرّ رجالُه إلاّ نفرين هما: عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان حيث أسرهما المسلمون، وعاد عبدالله بن

١. الأديم: الجلد.. الخولاني: نسبة إلى خولان، قبيلة يمانية أو قرية قرب دمشق.
٢. الركية: البئر.
٣. بطن نخلة: موضع بين مكة والطائف.
٤. عير قريش: قافلتهم.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص٧.
٦. أدم: جمع أديم، وهو الجلد، أو الطعام.
٧. عمار: أي تصوروا أنهم من المعتمرين.

جحش وأصحابه بالقافلة مع ما فيها من أموال قريش والأسيرين إلى المدينة. ولما قدموا على رسول الله «صلى الله عليه وآله» المدينة انزعج من ذلك وقال: (**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**)[١].

وفعلاً استخدمت قريش هذه القضية كسلاح دعائيّ، وقد روي أنها قالت: (**قد استحل محمد و أصحابه الشهر الحرام و سفكوا فيه الدم و أخذوا فيه الأموال و أسروا فيه الرجال. فقال مَن يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان**)[٢]. وروى ابن كثير: (**ففجَر عليه المشركون وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله ، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى. وقيل: في أول رجب، وآخر ليلة من جمادى، وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب. فأنزل الله يُعيّر أهل مكة: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[٣] لا يحل، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددتم عنه محمداً «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه، حين أخرجوا محمداً «صلى الله عليه وسلم» أكبر من القتل عند الله**)[٤].

وتفاءل اليهود بما حدث، واعتبروا أن اسم القتيل «عمرو الحضرمي» والقاتل «واقد بن عبدالله» باعثٌ على مثل ذلك.. فمن الاسم «عمرو» قالوا: عمرت الحرب.. ومن اسم «الحضرمي» قالوا: حضرت الحرب.. ومن اسم «واقد» قالوا: وقدت الحرب!

وتدخلت العناية الإلهية من خلال القرآن الكريم للتخفيف من وطأة هذه الهجمة الإعلامية، فقال الله «تعالى» في بيان حكم هذه المسألة: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، وكانت الآية بمثابة الفرَج للمسلمين مما كانوا فيه من حرَج وضغط نفسي شديد، بلحاظ اتهام الناس لهم بعدم احترام العهد الإبراهيمي الذي يحترمه المشركون بكون مكة وما حولها مكاناً آمناً.

وهكذا قَبَض رسول الله «صلى الله عليه وآله» العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما، فقال: (**لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان**[٥] **ـ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**)[٦].

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ح ٤٠٨٢ ضمن تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٣٦٦.
٣. سورة البقر: ٢١٧.
٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، في تفسير الآية السابقة.
٥. كانا قد أضلا طريقهما في الصحراء فأسرتهما رجال من قريش.
٦. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ١٦.

وكان للنبي ما أراد، حيث أطلقت قريش الرجلين، حتى إذا بلغا المدينة أطلق النبي سراح الأسيرين المشركين. ولكن أحدَهما ـ الحكم بن كيسان ـ اختار أن يدخل في الإسلام ويبقى في المدينة، فحسُن إسلامُه وأقام عند رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومات في حادثة بئر معونة شهيداً.

تعود قصة بئر معونة إلى قدوم عامر بن مالك على النبي، فقدّم له هدية رفضها النبي طالباً منه أن يعرض عليه الإسلام أوّلاً. فلما عرض عليه لم يقبل ولم يمتنع بل اقترح على النبي أن يبعث معه مَن يعلّم قبيلته الإسلام، وافق النبي بعد أن ضمنوا له الأمان وأعطوه المواثيق، واستدعى سبعين أو أربعين من قرّاء القرآن وبعثهم معه، فلما وصلوا عند بئر معونة أغارت عليهم قبيلة بني سُليم فقتلتهم إلا اثنين منهم! وقد تألم النبي لهذه الغدرة أشد ما يكون، حتى أنه استمر لأسبوعين أو شهر، يدعو على القتلة عقب كل صلاة! وقد روي أن المغدور بهم كانوا أهل قرآن وصلاة، يجتمعون خارج المدينة ليلاً في رحاب ذلك، فإذا أصبحوا قَدِموا بالماء والحطب لحُجَر رسول الله.

* أهداف السرايا ونتائجها:

١. **الاستطلاع**: بالتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة، وخاصة الطريق التجارية الحيوية لقريش، والقبائل المتواجدة فيها.

٢. **مناورات**: تجارب قتالية أشبه بالمناورات التي تؤديها عادة القوات المسلحة المعاصرة، للتدريب وتهيئة النفوس لمواجهات أكبر.

٣. **رسائل تهديد**: تضمنت التحركات العسكرية رسائل تهديد قوية لقريش وحلفائها، فاختيار عدم المواجهة التي انتهجها النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون خلال العهد المكي لم يكن ليستمر إلى الأبد، ولابد أن يدرك المشركون قوة المسلمين، ولا يتصورون أن عوامل الضعف ستستمر.

٤. **ضغط اقتصادي وأمني**: قد يدفع هذا الضغط إلى تغيير المعادلة الراجحة لمصلحة قريش ضد المسلمين. فقريش تعتمد اعتماداً كبيراً على حركة القوافل التجارية في اقتصادها وتحقيق مكانتها المرموقة في الجزيرة العربية، ومع تعرضها للتهديد، فإنها قد تعيد التفكير في طريقة التعامل مع المسلمين الذين يمثّلون مصدر التهديد، ولربما اضطرت للمهادنة أو عقد اتفاق صلح، فيأمن المسلمون شرَّها.

٥. **عقد تحالفات**: مع بعض القبائل في المناطق التي شهدت تحركات المسلمين خلال الغزوات والسرايا بما يضمن تحييدها أو ضمها لقوة المسلمين وإن لم تدخل في الإسلام.

٦. **تعويض مادي**: لاشك أن المسلمين من أهل مكة تضرروا بشكل كبير مادياً نتيجة اختيار الهجرة وترك

أموالهم وممتلكاتهم بمكة لا عن اختيار، بل للممارسات القرشية الظالمة، ومن حقهم أن يبحثوا عن تعويض لذلك، لاسيما وفق الأعراف التي كانت قائمة في ذلك العهد.

* التشكيك في دوافع السرايا:

الإشكال الأول: شكَّك عدد كبير من المستشرقين في الدوافع الكامنة وراء هذه السرايا والغزوات، وفي موقف أهل المدينة منها، حيث نجد حضوراً لبعض المهاجرين وغياباً ملحوظاً للأنصار، وادّعى هؤلاء المستشرقون من خلال ذلك أن هدف النبيّ «صلى الله عليه وآله» من السرايا ومصادرة أموال قريش والسيطرة عليها كان هدفاً شخصياً لم يتفاعل معه الأنصار، كما وأن الإغارة من شِيَم الأعراب أهل البوادي البعيدين عن روح الحضارة وقيم المدنية وأخلاقها، بينما كان مسلمو يثرب عامةً أهلَ زرعٍ وفلاحةٍ، ولم يُعهد منهم أن قطعوا الطرق على القوافل، أو سلبوا أموال القبائل التي كانت تعيش خارج حدودها.

إلا أن القراءة الدقيقة للمعطيات التاريخية توضح أن العلة في خروج المهاجرين دون الأنصار إنما كان بسبب أن أن الأنصار قد بايعوا في العقَبة ـ قبل هجرة النبي ـ على الدفاع، أي أن معاهدتهم مع رسول الله كانت معاهدة دفاعية تعهّدوا بموجبها بأن يمنعوه من أعدائه ويدافعوا عنه إذا قصده عدوّ. ومن هنا سنجد أن النبي «صلى الله عليه وآله» عند خروجه إلى غزوة بدر الكبرى ـ كما سيأتي تفصيله لاحقاً ـ يقوم بما يشبه تجديد البيعة مِن قبل مَن خرج معه من المهاجرين والأنصار، لتكون مبايعة على القتال والنصرة العسكرية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه «صلى الله عليه وآله» ندب إلى الخروج إلى بدر الكبرى كلَّ من شاء من المهاجرين والأنصار، ولم يجبر أحداً على ذلك، ولم يلُم أحداً على عدم الخروج، مما يؤكد أن هدفه لم يكن شخصياً كما زعموا.

الإشكال الثاني: قال بعض المستشرقين: لم يتفاعل كثير من المهاجرين مع أوامر النبي المتكررة للخروج إلى الغزوات، وهذا ما يبيّنه قلة عدد أفرادها، كما أنهم لم ينووا تعويض ما خسروه بهجرتهم، رغم أنّ ثرواتهم وممتلكاتهم كانت قد صودرت من قبل المكيين، ويدل على ذلك أنهم لم يعترضوا إلا قوافل قريش، ولذا كانت مهماتهم استطلاعية فقط.

ويَرِدُ على هذا الإشكال أن هؤلاء ما خرجوا إلا بأمر النبي «صلى الله عليه وآله»، والتزموا تعليماته، فلو أنه أراد منهم شيئاً وخالفوه، لبان ذلك في النصوص، بل إنه لامهم في سرية نخلة عندما قتلوا من قتلوا بتلك الصورة التي ذكرناها، ولم يرتض أخذ الغنيمة إلا بعد نزول الآية. ثم إن خروجهم بهذه الأعداد القليلة كان بأمر النبي ولم يكن تصرفاً شخصياً منهم، أو لتمرّدهم على أوامره بالخروج في تلك السرايا.

الإشكال الثالث: قال بعض المستشرقين: إن المقصود من هذه العمليات الاعتراضية هو الانتقام من قريش، لأنّ النبيّ وأصحابه تعرّضوا على أيدي المكيين لألوان التعذيب والاضطهاد والأذى، فدفعتهم غريزة الانتقام والثأر ـ بعد أن حصلوا على القوة ـ إلى تجريد سيوفهم للانتقام من الذين طالما اضطهدوهم.

ويمكن الرد على هذا الإشكال كالتالي: لو كانت هذه السرايا مكلّفة بمقاتلة العدوّ والانتقام، فلماذا قبل عم النبي حمزة بن عبدالمطلب «رضي الله عنه» وساطة مجدي بن عمرو وانصرف عن القتال؟ ولماذا لام النبي مَن تجاوز منهم أوامرَه وقتل الرجلين من قريش في سرية نخلة؟

* سبب معركة بدر الكبرى:

لما أفلتت قافلة قريش من النبي ومَن معه في غزوة ذوالعشيرة، بقي المسلمون يترقّبون عودة القافلة. قال الواقدي في مغازيه: (**ولما تحيّن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» انصراف العِيرَ من الشام، ندب أصحابَه للعير، وبعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» طلحةَ بن عبيد الله وسعيد بن زيد، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خبر العِيرَ حتى نزلا على كُشَد الجُهني بالنخبار من الحوراء ـ والنخبار من وراء ذي المروة على الساحل ـ فأجارهما وأنزلهما، ولم يزالا مقيمين عنده في خِباء حتى مرت العير، فرفع طلحة وسعيد على نَشَز من الأرض**[1] **فنظرا إلى القوم وإلى ما تحمل العير، وجعل أهل العير يقولون: يا كُشد، هل رأيت أحداً من عيون محمد؟ فيقول: أعوذ بالله. وأنّى عيون محمد بالنخبار؟ فلما راحت العير باتا حتى أصبحا، ثم خرجا. وخرج معهما كشد خفيراً، حتى أوردهما ذا المروة. وساحَلت العير فأسرعت وساروا الليل والنهار فَرَقاً**[2] **من الطلب**)[3].

ذكر البكري في «معجم ما استعجم» عند تعريفه بـ«التّجْبَار» وهي «النخبار»: (وهو موضع بين حورة السفلى ـ أي الحوراء ـ وبين منخوس، على طريق التجّار إلى الشام). ويرى البعض أن النخبار أصبح مهجوراً بعد القرن الخامس الهجري. والحوراء ميناء على البحر الأحمر، ذو شهرة تاريخية قديماً، وحل محله ميناء أُملج الواقع على بعد ١٥٠ كم شمال ينبع.

ولم يلحق طلحة وسعيد بالنبي «صلى الله عليه وآله» وهو في المدينة، إذ كان قد خرج منها مع مَن خرج لاعتراض القافلة، فلحقا به حيث وقعت معركة بدر الكبرى لاحقاً.

---

١. النشز: المرتفع.
٢. فرقاً: خشيةً.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٩.

* الخروج إلى بدر:

أما في المدينة فقد ندب رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسلمين وقال: (**هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم، لعل الله يغنمكموها**)[1]. وروي أن الناس انقسموا إلى أقسام:

منهم مَن أسرع وبادر، ونجد في البين قصة الصحابي سعد بن خيثمة مع أبيه إذ تنافسا في الخروج إلى بدر، فقال سعد لأبيه: (**إنه لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا**) فقال الأب: (**آثِرني، وقُر**[2] **مع نسائك**). إلا أن سعداً أصر على الخروج فقال له أبوه: (**إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم**)[3] فلجأ الأب وابنه إلى القرعة، فكانت لصالح سعد الذي قُتل ـ لاحقاً ـ ببدر ووقع شهيداً في سبيل الله.

ومنهم من تلكأ ولم يخرج.. فما هو المبرر؟ روى الواقدي: (**وأبطأ عن النبي «صلى الله عليه وسلم» بشر كثيرٌ من أصحابه، كرهوا خروجه، وكان فيه كلام كثير واختلاف. وكان من تخلّف لم يُلَم لأنهم ما خرجوا على قتال وإنما خرجوا للعِير. وتخلّف قوم من أهل نيات وبصائر لو ظنوا أنه يكون قتال ما تخلفوا. وكان ممن تخلّف أسيد بن حضير، فلما قدم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال له أسيد: الحمد لله الذي سرّك وأظهرك على عدوك. والذي بعثك بالحق ما تخلفت عنك رغبة بنفسي عن نفسك، ولا ظننت أنك تلاقي عدواً، ولا ظننت إلا أنها العير. فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: صدقت**)[4].

ولكن من الصعب قبول الخبرين في آن واحد، إذ كيف يبادر البعض رغبةً في الشهادة ويوقع أحدهم القرعة مع أبيه تنافساً على هذا الأمر العظيم، بينما يعتذر كثيرون عن الخروج لأنه لم يكن متوقعاً أن يقع قتال في البين، وأن المسألة كانت مجرد اعتراض للقافلة التجارية! فإما أن نصدِّق الخبر الأول وأن مسألة المواجهة مع قريش ستكون حاضرة هذه المرة، وإما الخبر الثاني الذي يؤكد أن مسألة القتال ما كانت على بال كثير من الصحابة. وهل للدفاع عن شخصية مثل أسيد بن حضير دخل في وضع الخبر ـ على افتراض وضعه ـ لما للرجل من موقف يسجَّل له لاحقاً في يوم السقيفة، إذ اعترض على خلافة سعد بن عبادة، وأيّد أحقّية الخليفة أبي بكر بها؟

وعلى كل حال فقد خرج النبي «صلى الله عليه وآله» في شهر رمضان باتجاه الساحل، قال ابن هشام: (**خرج يوم الإثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان**) وفي رواية أخرى أن خروجه كان في الثاني عشر من هذا الشهر

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٩.
٢. قر: من القرار، أي ابق.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٩.
٤. ن. م.

(واستعمل عمرو بن أم مكتوم ـ ويقال اسمه: عبدالله بن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي ـ على الصلاة بالناس)[١].

إلا أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» ـ ولسبب غير معلوم ـ بدا له أن يستبدل ابن مكتوم، ويعيّن مكانه أبا لبابة بشير بن عبدالمنذر الأوسي الأنصاري، فردّه من الروحاء[٢].

ولم يغادر النبي «صلى الله عليه وآله» المدينة نهائياً حتى توقف وعسكر عند نَقْب بني دينار[٣] يستعرض مَن خرج معه من المقاتلة، **(فعرض عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، فردَّهم ولم يُجِزهم)**[٤].

وقد روى الواقدي صورة أخرى للرغبة في الخروج بهدف الشهادة تؤيد الخبر السابق لابن خيثمة حيث قال سعد بن أبي وقاص: **(رأيتُ أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ويستصغرني فيردّني، وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة. قال: فعُرض على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فاستصغره فقال: ارجع. فبكى عمير فأجازه رسول الله «صلى الله عليه وسلم». قال فكان سعد يقول: كنت أعقد له حمائل سيفِه مِن صِغره. فقُتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة)**[٥].

❊ دعاء النبي:

ولما حانت ساعة التحرك من المعسكر دعا النبي متوكلاً على الله، فعن أبي قتادة: **(أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» صلى عند بيوت السقيا، ودعا يومئذ لأهل المدينة فقال: اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك ونبيك، أدعوك لأهل المدينة، أن تبارك لهم في صاعهم ومُدِّهم وثمارهم. اللهم حبِّب إلينا المدينة، واجعل ما بها من الوباء بخُمٍّ**[٦]**. اللهم إني قد حرَّمتُ ما بين لابتيها كما حرَّم إبراهيم خليلك مكة)**[٧].

وفي نص آخر أنه دعا في تلك اللحظات وهو يغادر أرض المدينة قائلاً: **(اللهم إنهم حفاة فاحملهم. اللهم إنهم عراة فاكسهم. اللهم إنهم جياع فأشبعهم)**[٨].

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦٣٤.
٢. بئر الروحاء قريبة من ميقات ذي الحليفة «أبيار علي».
٣. النقب: الطريق الضيقة في الجبل. وبنو دينار من أهل المدينة.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص٨٦.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص٩.
٦. أي ادفع الوباء عنهم واجعله في منطقة بعيدة، وهي خم القريبة من الجحفة التي تبعد قرابة ٢٠٠ كم عن المدينة.
٧. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٠. واللابة تعني الأرض المكسوة بالحمم البركانية، والمدينة محاطة شرقاً وغرباً بلابتين.
٨. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص ٢٠٨.



قال الراوي مخبراً عما جرى لاحقاً فكان بمثابة استجابة لدعائه: (**ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا**)[1].

❊ عقد اللواء:

عند البحث حول شخصية حامل لواء المسلمين في هذه المعركة ـ بل وفي معارك أخرى ـ نجد اختلافاً بين المؤرخين، تارة من جهة تحديد الشخصية، وتارة من حيث عدد الألوية.

فقد روى ابن هشام عن محمد بن إسحاق قوله: (**ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار. قال ابن هشام: وكان أبيض**). وقال: (**وكان أمام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار**)[2]. بينما ذكر ابن هشام لاحقاً ـ وبرواية أخرى ـ أن راية الأنصار كانت مع سعد بن معاذ.

١. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص ٢٠٨.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦٣٥.

أما الواقدي فقد ذكر أن الألوية كانت متعددة، قال: (**عقد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الألوية، وهي ثلاثة، وأظهر السلاح، وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود**)[1]. في الوقت الذي اعتبر فيه بعض الباحثين أن اللواء كان واحداً وبيد الإمام علي «عليه السلام» كما هو الحال في سائر الغزوات، فعن ابن عباس قال: (**لعلي بن أبي طالب «عليه السلام» أربع ما هن لأحد: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو صاحب لوائه في كل زحف، وهو الذي ثبت معه يوم المهراس وفر الناس، وهو الذي أدخله قبره**)[2]. وعن سعد بن أبي وقاص مستنكراً سب علي «عليه السلام» في ضمن كلام له: (**ألم يكن صاحب راية رسول الله «صلى الله عليه وآله» في غزواته؟**)[3].

بغضِّ النظر عن احتمال التحريف العمدي بغرض سلب منقبة عن هذا أو جلبها لذاك كما تكرر في أحداث مختلفة سترد علينا تباعاً في تفاصيل هذه الغزوة وما يليها، علاوة على احتمال وقوع الخطأ من بعضهم، فإن السبب قد يعود أيضاً إلى وقوع الخلط عندهم بين اللواء والراية. فقد قيل في الفرق بين اللواء والراية أن اللواء ما يُعقد في طرف الرمح ويُلوى عليه لكبره، بينما الراية هي ما يُعقَد فيه ويُترك حتى تصفقه الرياح. وقيل بل إن اللواء هو مطلق العلم الكبير، والراية كل علم صغير. وقيل أن اللواء علامة جماعة الأمير والقائد العام، تدور معه حيث دار، أما الراية فهي التي يتولاها صاحب الحرب ـ أي القائد الميداني في وسط ساحة المعركة ـ ويقاتل عليها وتميل المقاتلة إليها. وهذا يعني ـ بحسب التفسيرات السابقة ـ التعدد من حيث اللواء والراية من جهة، واحتمال التعدد أيضاً من حيث عدد كل واحد منهما.

* عدّة المسلمين وعتادهم:

بلغ عدد إبل المسلمين ـ بحسب ابن هشام ـ السبعين، بحيث كان يعتقب كل واحدة منها الرجلان والثلاثة والأربعة، فاعتقب رسول الله وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد واحدة، واعتقب حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأَنَسة ـ مولياً رسول الله ـ واحدة، بينما اعتقب أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ثالثة.

أما خيل المسلمين ـ بحسب الرواية ـ فكانت فرسان فقط، فرس للمقداد بن عمرو، وفرس لمرثد بن أبي مرثد، وقد ذكرنا قبل قليل أن

كان أبو كبشة من مولّدي مكة، أي وُلد فيها ولكنه لم يكن عربي الأصل، وهكذا الأمر بالنسبة إلى أَنَسة المكنَّى أبو مُسرح حيث كان من مولَّدي السراة وهي في اليمن.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨.
٢. الخوارزمي: المناقب، ص ٢١-٢٢.
٣. النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص٥٠٠.

مرتداً اعتقب واحدة من الإبل مع النبي وعلي، مما يرجّح وجود خطأ في البين. ولذا قال الواقدي أن الفرس الآخر كان ـ بحسب رواية أخرى ـ للزبير بن العوام وليس لمرثد.

* أوضاع قريش:

أقبل أبوسفيان بعِير قريش من الشام، وتُعرَف باسم اللطيمة [١] وفيها تجارتهم ، وقد استثمر كثير من القرشيين أموالهم في هذه القافلة. قال المقريزى: **(كانت العِيرُ ألفَ بعير، فيها أموال عظام، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير، فيقال: إن فيها لخمسين ألف دينار، ويقال: أقل)**[٢].

وبمعية أبي سفيان أربعون ـ وقيل ثلاثون ـ راكباً من قريش. وقد روى الواقدي في مغازيه الحالة النفسية التي انتابتهم بمجرد علمهم بترصد النبي «صلى الله عليه وآله» القافلة، وردة فعلهم. قال: **(عن مخرمة بن نوفل قال: لما لحقنا بالشام أدركنا رجل من جذام، فأخبرنا أن محمداً كان عرَض لعيرِنا في بدأتنا، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا، قد حالف علينا أهلَ الطريق ووادعَهم. قال مخرمة: فخرجنا خائفين، نخافُ الرَّصَد، فبعثْنا ضمضم بن عمرو حين فصلْنا من الشام)**[٣]. ثم أضاف الواقدي: **(وكان عمرو بن العاص مع العير، و كان يُحدِّثُ بعد ذلك يقول: لما كنا بالزرقاء ـ والزرقاء بالشام بناحية معان من أذرعات على مرحلتين**[٤] **ـ و نحن منحدرون إلى مكة، لقينا رجلاً من جُذام، فقال: قد كان عرض محمدٌ لكم في بدأتكم في أصحابه، فقلنا: ما شعرنا. قال: بلى، فأقام شهراً، ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرَض محمدٌ لكم مُخِفُّون**[٥] **فهو الآن أحرى أن يعرِضَ لكم، إنما يعُدّ لكم الأيام عدّاً، فاحذروا على عيركم، وارتئوا آراءكم، فو الله ما أرى مِن عدد و لا كُراع و لا حلقة**[٦]**. فأجمعوا أمرهم، فبعثوا ضمضماً، وكان في العير، و قد كانت قريش مرَّت به و هو بالساحل**[٧]**، معه بُكران له**[٨]**، فاستأجروه بعشرين مثقالاً، وأمره أبوسفيان أن يُخبر قريشاً أنَّ محمداً قد عرَض لعيرِهم، وأمرَه أن يجدَعَ بعِيرَه إذا دخل، و يُحوِّل رحله**[٩]**، ويشق قميصه مِن قُبُلِه و دبُرِه، ويصيح: الغوث الغوث**[١٠]**! ويقال: إنما بعثوه من تبوك)**[١١].

١. اللطيمة: طيب المسك، ويُطلق هذا الاسم على الجمال التى تحمل العطر والبز، غير الميرة.
٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ٨٤-٨٥.
٣. فصلنا من الشام: غادرناها.
٤. الزرقاء من مدن الأردن في العصر الحالي.
٥. مخفون: أي أنهم ما كانوا يحملون بضائع كثيرة في طريقهم إلى الشام، فكانت حركتهم خفيفة وفرارهم من الملاحقة سهل.
٦. أي لم يكن مع القافلة التجارية سلاح ولا قوة حماية كافية.
٧. وذلك في طريقهم إلى الشام.
٨. إبل يرعاها.
٩. بحيث يجلس على راحلته معكوساً فيكون وجهه ومقاديم بدنه إلى الخلف.
١٠. كان هذا من عادة العرب عند إنذار قومهم.
١١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٢٨.

* رؤيا عمة النبي:

يذكر المؤرخون أن عاتكة بنت عبدالمطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فأرسلت إلى أخيها العباس فقالت: (يا أخي، قد رأيت والله رؤيا الليلة أفظعْتُها، وتخوَّفْتُ أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عليَّ أحدثك منها. قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل غُدَر، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث! فصرخ بها ثلاث مرات، فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، إذ مَثَلَ به بعيرُه على ظهر الكعبة، فصرخ بمثلها ثلاثاً، ثم مثَل به بعيره على رأس أبي قُبَيس، ثم صرخ بمثلها ثلاثاً. ثم أخذ صخرة من أبي قُبيس فأرسلها، فأقبَلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت[1] فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار من دور مكة، إلا دخلته منها فِلذَة[2]. فكان عمرو بن العاص يحدِّث فيقول: لقد رأيتُ كل هذا، ولقد رأيت في دارنا فلقة من الصخرة التي انفلقت من أبي قبيس، فلقد كان ذلك عبرة، ولكنَّ الله لم يُرِد أن نُسلِمَ يومئذ لكنه أخَّر إسلامَنا إلى ما أراد[3]. قالوا: ولم يدخل داراً ولا بيتاً من دور بني هاشم ولا بني زُهرة من تلك الصخرة شيء[4]. قالوا: فقال أخوها: إنَّ هذه لرؤيا، فخرج مغتماً حتى لقي الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه، ففشا الحديث في الناس. قال: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهل في رهط من قريش يتحدثون قعوداً برؤيا عاتكة، فقال أبو جهل: ما رأت عاتكة هذه؟ فقلت: وما ذاك؟ فقال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ زعمَت عاتكة أنها رأت في المنام كذا وكذا ـ الذي رأت ـ فسنتربَّص بكم ثلاثاً، فإن يكُ ما قالت حقاً فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن، نكتب عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

هي عمة النبي. تزوجت في الجاهلية من حذيفة بن المغيرة المخزومي، والد السيدة أم سلمة أم المؤمنين، إلا أنها كانت من زوجة أخرى هي: عاتكة بنت عامر، وقد أخطأ البعض حين اعتبر أن السيدة عاتكة هي أمها. أنجبت السيدة عاتكة: عبدالله وزهير. لم يسلم عبدالله إلا قبل الفتح، أما زهير فقد أسلم في العهد المكي، وكان أحد الساعين لنقض صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش ضد النبي وبني هاشم أثناء الحصار في الشِّعب. وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عاتكة أسلمت على أثر فتح مكة ثم هاجرت إلى المدينة، وكانت تقول الشعر، ولها رثاء بحق النبي.

---

١. ارفضّت: تفرقت.

٢. فلذة: قطعة.

٣. هذا الكلام منه ـ إن ثبت ـ دليل على إيمانه بالجبر.

٤. المثبت أن دور بني هاشم كانت تقع حيث شِعب أبي طالب البعيد عن جبل أبي قُبيس أساساً، إلا أن يقال أنه كانت لهم دور أخرى عند الكعبة المشرفة أسفل جبل أبي قبيس.



فقال: يا ..... [١] أنت أولى بالكذب واللؤم منا. قال أبو جهل: إنا استبقنا المجد وأنتم، فقلتم فينا السقاية، فقلنا: لا نبالي، تسقون الحاج. ثم قلتم فينا الحجابة، فقلنا: لا نبالي، تحجبون البيت. ثم قلتم: فينا الندوة، فقلنا: لا نبالي، تلون الطعام وتطعمون الناس. ثم قلتم: فينا الرفادة، فقلنا: لا نبالي، تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف. فلما أطعمنا الناس وأطعمتم وازدحمت الركب واستبقنا المجد فكنّا كَفرَسي رهان، قلتم: منّا نبي. ثم قلتم: منّا نبيّة. فلا واللاتي والعزى، لا كان هذا أبداً. قال: فوالله ما كان مني من غير إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً. فلما أمسيتُ لم تبقَ امرأة أصابتها ولادة عبد المطلب[٢] إلا جاءت، فقلن: رضيتم بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم؟ ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع ولم يكن لك عند ذلك غيرة؟ قال: والله ما فعلت إلا ما لا بال به، والله لأعترضنَّ له غداً، فإنْ عادَ لأكفيكموه. فلما أصبحوا من ذلك اليوم الذي رأت فيه عاتكة ما رأت قال أبو جهل: هذا يوم، ثم الغد[٣]. قال أبو جهل هذان يومان. فلما كان في اليوم الثالث قال أبو جهل هذه ثلاثة أيام، ما بقي[٤]. قال: وغدوْتُ في اليوم الثالث وأنا حديد مُغضَب، أرى أن قد فاتني منه أمرٌ أحبُّ أن أدركَه، وأذكر ما أحفظتني النساء به من مقالتهن لي ما قلن. فلله إني لأمشي نحوه ـ وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ـ إذ خرج نحو باب بني سهم يشتد، فقلت: ما باله لعنه الله؟ أكل هذا فرَقاً[٥] من

١. آثرت حذف الكلمات القبيحة وهي مثبتة في المصدر.
٢. أي كانت من نسله وذريته.
٣. أي قد مضى يوم وبقي يومان.
٤. أي قد انتهت المهلة.
٥. فرقاً: خوفاً.

أن أشاتمه؟ فإذا هو قد سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يقول: يا معشر قريش، يا آل لؤي بن غالب، اللطيمة! قد عرَض لها محمد في أصحابه. الغوث الغوث، والله ما أرى أن تُدركوها. وضمضم ينادي بذلك ببطن الوادي، قد جدَع أذني بعيرِه وشقَّ قميصَه قُبُلاً ودُبُراً، وحوَّل رَحلَه). وبذا سرّ بنو هاشم لتحقق رؤيا عمة النبي عاتكة بنت عبدالمطلب، حتى قال قائلهم: **(كلا، زعمتم أنا كذبنا وكذبت عاتكة)**[1]، وأما أبوجهل والمستهزئون معه فقد خاب أمرهم وصمتوا كأنما أُلقموا حجراً.

* النفير العام:

وهكذا وصل ضمضم بن عمرو إلى مكة بتلك الصورة التي أدخلت الرعب في قلوب أهلها، ولم يمهلهم للتفكير والتشاور في ما بينهم، حتى قال عُمَيْر بن وَهْب: **(ما رأيت أعجب من أمر ضمضم قط! وما صرخ على لسانه إلا شيطان! إنه لم يملِّكنا من أمورنا شيئاً حتى نفَرنا على الصَّعب والذَّلول**[2]**)**، وقال حَكيم بن حِزام في مقام تبرير ردة الفعل السريعة من قبل المشركين: **(ما كان الذي جاءنا فاستنفرنا إلى العِير إنسان، إنْ هو إلا شيطان! فقيل: كيف يا أبا خالد؟ فقال: إني لأعجب منه، ما ملكنا من أمورنا شيئاً)**[3].

فتجهّز المشركون للخروج لإنقاذ القافلة ومواجهة النبي ومن معه من المسلمين على مدى ثلاثة أيام، واشتروا السلاح، وأعان بعضُهم بعضاً في تأمين النفقات ومستلزمات الخروج للقتال، ومَن لم يستطع منهم الخروج أرسل بديلاً عنه مع تكفله التام بكل النفقات الخاصة بذلك. وقد نقل الرواة صوراً من ذلك حيث قام سُهَيْل بن عَمرو في رِجَالٍ مِن قُريش فقال: **(يا معشر قريش، هذا محمد والصُّباة معه من شبانكم وأهل يثرب، قد عرضوا لعيركم ولطيمة قريش.... فمن أراد ظَهراً فهذا ظَهر**[4] **ومن أراد قوة فهذه قوة**[5]**)**.

عمير بن وهب الجُمَحي القرشي. كان من أشد أعداء الإسلام في مكة. أسلم بعد غزوة بدر واستأذن النبي في العودة إلى مكة ليدعو إلى الإسلام.

حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد القرشي، وعمته السيدة خديجة أم المؤمنين. كان يعد من العارفين بالأنساب. أسلم بعد فتح مكة، وتوفي عام ٥٤ هـ.

سهيل بن عمرو خطيب قريش وفصيحهم، تم أسره ببدر، ولم يسلم إلا في فتح مكة. حضر صلح الحديبية عن قريش، واعترض على عبارة «محمد رسول الله».

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٩-٣١.
٢. الصعب والذلول من أنواع الإبل، وتستعمل العبارة أحياناً كناية عن اتخاذ كل سبيل للخروج نحو المواجهة.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١.
٤. ظهر: وسيلة نقل كالناقة والحصان.
٥. المراد من القوة هنا: السلاح.

وقام زَمَعةُ بن الأسْوَد فقال: (إنه واللاتي والعزى، ما نزل بكم أمر أعظم من هذا، إنْ طمع محمد وأهل يثرب أن يعترضوا لعيركم، فيها حرائبكم فأوعِبوا [1]، ولا يتخلف منكم أحد، ومن كان لا قوة له فهذه قوة. والله لئن أصابها محمد لا يروِّعكم بهم إلا وقد دخلوا عليكم. وقال طعيمة بن عدي: يا معشر قريش، إنه والله ما نزل بكم أمر أجل من هذا، أن تستباح عيركم ولطيمة قريش، فيها أموالكم وحرائبكم. والله ما أعلم رجلاً ولا امرأة من بني عبد مناف له نَشٌّ [2] فصاعداً إلا وهو في هذه العير، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقوّيه). فحمل على عشرين بعيراً، وقوّاهم وزوّدهم بمعونة لأهاليهم يعتاشون منها عند رحيلهم.

وقام حنظلة ومعه أخوه عمرو ابني أبي سفيان بن حرب، فحرّضا الناس على الخروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حُملان، فقيل لهما: (ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان؟) فاعتذرا عن ذلك وقالا: (والله ما لنا مال، وما المال إلا لأبي سفيان)[3].

ومشى نوفل بن معاوية إلى أثرياء قريش، فكلمهم في بذل النفقة والحملان لمن خرج، فاستجاب له بعضهم، وزوّدوه بالمال.

* أبو لهب يتهرب:

رأت قريش أن أبا لهب غير متفاعل مع الحدث، فمشى إليه جمعٌ منهم وقالوا له: (إنك سيد من سادات قريش، وإنك إن تخلَّفْتَ عن النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فاخرج أو ابعث أحداً. فقال: واللاتي والعزى لا أخرج ولا أبعث أحداً. فجاءه أبو جهل فقال: قم أبا عُتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك). ويروى أنا أبا جهل خاف في تلك اللحظات أن يكون أبو لهب بصدد أن يُسلِمَ!

زمعة بن الأسود بن المطلب القرشي، ولسخائه عُرف باسم زاد الركب. كان شديداً على النبي والمسلمين. شهد بدراً مع المشركين وقُتل فيها.

حنظلة بن أبي سفيان الأموي، وأمه صفية بنت أبي العاص. كان أول الأبناء الذكور لأبي سفيان. شهد بدراً وهو مشرك، وقُتل فيها على يد الإمام علي.

عمرو بن أبي سفيان، وأمه صفية ابن أبي عمرو. أسِر ببدر على يد الإمام علي، ورفض أبوسفيان فداءه، ولما احتجز أبوسفيان أحد المسلمين المعتمرين في مكة، بودل به فعاد إليها.

نوفل بن معاوية الديلي الكناني، شهد بدراً وأحداً والخندق مع المشركين، ثم أسلم وشهد فتح مكة مع المسلمين. مات على عهد حكم يزيد بن معاوية.

١. الحرائب: الأموال التي يعتاش منها الشخص. أوعبوا: اخرجوا بأجمعكم إلى الحرب.
٢. النّشّ: وزنٌ مقدارُه عشرون درهمًا.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣١-٣٢.

أصرَّ أبو لهب على عدم الخروج، وعدم إرسال أحد مكانه[١]، والسر في ذلك خوفه من رؤيا أخته عاتكة، وما ستؤول إليه الأمور تعبيراً لتلك الرؤيا.

اسمه عبدالعزى، وزوجته أم جميل أخت أبي سفيان. وقد توعدهما الله بالعذاب في الآخرة لشدة معاداتهما للنبي والمسلمين. هلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ، وبقي ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أنتن، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة من بعيد حتى دفنوه.

❊ قصة عدّاس:

روى بعض المؤرخين قصة غريبة ترتبط بشخص نصراني من أهل نينوى[٢] اسمه عدّاس كان مولى شيبة بن ربيعة. قالوا أنه لقي النبيَّ «صلى الله عليه وآله» بالطائف عندما ذهب إليها قبل الهجرة للدعوة فيها إلى دين الله «عزوجل»، وأنَّ شيبة وعُتبة ابني ربيعة كانا بالطائف أيضاً حينئذ، فشاهدا ردّة الفعل السلبية لأهلها تجاه النبي فعطفا عليه من باب الرحم، فقالا لعَدّاس: **(خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ثم قال له: كُلْ. فلما وضع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فيه يده، قال: باسم الله. ثم أكل. فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي. فأكبَّ عدّاس على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يُقبِّل رأسَه ويديه وقدميه)**[٣]. بل روى آخرون أنه تعرّف على النبي «صلى الله عليه وآله» بينما كان في مكة في بداية الوحي، حيث ادّعي أنه بشّر السيدة خديجة «رضي الله عنها» بنبوة النبي قبل ورقة بن نوفل! وشطحت مخيّلة البعض حين ادّعوا أن عدّاساً هذا هو أمين الله بينه وبين النبيين، وأنه صاحب موسى وعيسى!

وعلى كل حال، فقد روي أن عتبة وشيبة ابني ربيعة أخرجا دروعاً لهما استعداداً للخروج مع مَن خرج، فنظر إليهما عدّاس وهما يصلحان دروعهما وآلة حربهما، فقال: **(ما تريدان؟ قالا: ألم تر إلى الرجل الذي أرسلناك إليه بالعنب في كِرمنا بالطائف؟ قال: نعم. قالا: نخرج فنقاتله. فبكى وقال: لا تخرجا، فوالله إنه لنبي)**[٤].

١. قيل إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة . وكان له عليه دين فقال اخرج وديني لك. فخرج عنه.
٢. نينوى: مدينة آشورية قديمة كانت تقع جنوب مدينة الموصل الحالية.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٤٢١.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٤.

وتكمل الرواية تفاصيل القصة حيث تقول بأن الرجلين أبيا أن يسمعا كلام عدّاس، فخرجا إلى القتال وكانت النتيجة أنهما قُتلا.. ثم لا يكتفي الراوي بذلك بل ويضيف أن عدّاساً خرج معهما فقتل هو الآخر!! فلماذا يخرج معهما ويشارك في المعركة ضد مَن آمن بنبوته ونهى الرجلين ـ وهو باك ـ عن الخروج لقتاله؟ بل كيف يفعل ذلك وله من المقام المزعوم ما له؟! كل هذه التفاصيل والتساؤلات تدفعنا إلى القول بعدم واقعية القصة، ولربما كان الشخص نفسه من نسج الخيال.

* الاستقسام بالأزلام:

لجأ بعض سادة قريش إلى الأزلام[1] لاتخاذ القرار بخصوص الخروج للقتال، إما لشدة ما أصابهم من خوف من مواجهة النبي «صلى الله عليه وآله» حيث كان قد توعّد بهم إنْ لقيَهم خارج مكة أن يقتلهم جزاءً لجرائمهم الوحشية التي ارتكبوها بحق المسلمين والرسالة، أو لأنها كانت عادتهم عند الشدائد. ومن هنا نفهم لماذا أوصى أبوسفيان بعدم الاستقسام بالأزلام قبل الخروج إلى بدر، ففي الخبر أنه: **(قال أبو سفيان بن حرب لضمضم: إذا قدِمتَ على قريش فقل لها لا تستقسموا بالأزلام)**[2].

أمية بن خلف القرشي الجمحي، كان من سادات قريش والأشداء على رسول الله والمسلمين، وقد عذّب بلالاً بشدة، ولكن الله مكّن بلالاً منه في غزوة بدر فقتله.

وعلى كل حال، فقد مضى بعضهم في الاستقسام قبل الخروج كما جاء في الخبر التالي: **(واستقسمت قريش بالأزلام عند هُبَل للخروج، فاستقسم أمية بن خلف، وعتبة، وشيبة عند هبل بالأمر والناهي، فخرج القدح الناهي للخروج، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل[3]، فقال: ما استقسمتُ، ولا نتخلف عن عيرنا. ولما توجه زمعة بن الأسود خارجاً، وكان بذي طوى، أخرج قداحه فاستقسم بها، فخرج الناهي للخروج، فلقي غيظاً، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك، فكسرها، وقال: ما رأيتُ كاليوم قداحاً أكذب من هذه! ومرَّ به سهيل بن عمرو وهو على تلك الحال، فقال: ما لي أراك غضبان يا أبا حكيمة؟ فأخبره زمعة فقال: امض عنك أيها الرجل، وما أكذب من هذه القداح! قد أخبرني عُمير بن وهب مثل الذي**

---

١. الأزلام: جمع زَلَم: سِهام كان أهل الجاهليّة يقترعون بها، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي كف، وكانت أيضاً تستخدم عند أخذ الرأي، وفي إثبات نسب المشكوك فيه، وفي القمار. قال «تعالى»: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (المائدة:٣).

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٤.

٣. أي استقر رأيهم على عدم الخروج حتى حرّضهم أبو جهل ودفعهم إلى الخروج دفعاً وإحراجاً.

أخبرتني أنه لقيه. ثم مضيا على هذا الحديث)[١]. وفي الخبر أن حكيم بن حزام قال: (ما وجَّهت وجهاً قط كان أكره لي من مسيري إلى بدر، ولا بان لي في وجهٍ قط ما بان لي قبل أن أخرج) وقال: (قَدِم ضمضم فصاح بالنفير، فاستقسمتُ بالأزلام، كل ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجتُ على ذلك حتى نزلنا مَر الظَّهران. فنحر ابن الحنظلية [٢] جُزُراً، فكانت جزور منها بها حياة، فما بقي خباءٌ من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها، فكان هذا بيّناً [٣]، ثم هممتُ بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه، فيردّني حتى مضيت لوجهي)[٤].

الحارث بن عامر بن نوفل بن عبدمناف، كان ممن أعان على نقض صحيفة المقاطعة الخاصة بحصار بني هاشم. شهد بدراً مع قريش وقُتل فيها على يد خبيب الأنصاري.

وهكذا كان حال الحارث بن عامر، قال الواقدي: (وما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث بن عامر، وقال: ليت قريشاً تعزم على القعود، وأنَّ مالي في العير تلف، ومال بني عبد مناف أيضاً. فيقال: إنك سيد من ساداتها، أفلا تزعها [٥] عن الخروج؟ قال: إني أرى قريشاً قد أزمعت على الخروج، ولا أرى أحداً به طرق [٦] تخلَّفَ إلا من عِلّة، وأنا أكره خلافها، وما أحب أن تعلم قريش ما أقول الآن، مع أن ابن الحنظلية رجل مشئوم على قومه، ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب. ولقد قسم مالاً من ماله بين ولده، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة. وجاءه ضمضم بن عمرو، وكانت للحارث عنده أيادٍ، فقال: أبا عامر، رأيت رؤيا كرهتها، وإني كاليقظان على راحلتي، وأرى كأن واديكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه. قال الحارث: ما خرج أحدٌ وجهاً من الوجوه أكره له من وجهي هذا. قال: يقول ضمضم له: والله، إني لأرى أن تجلس. فقال الحارث: لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة، فاطوِ هذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كلَّ مَن عوَّقها عن المسير)[٧].

* قصة أمية بن خلف:

وذكر البعض لأمية بن خلف قصة أخرى قيل أنها كانت سبب تمنّعه ـ بدايةً ـ عن الخروج إلى بدر، فقد روي أن الصحابي سعد بن معاذ خرج معتمراً ـ وذلك قبل يوم بدر والنفير للخروج ـ فنزل على أمية بن خلف، فأتاه

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٤.
٢. ابن الحنظلية: أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي، وعُرف بذلك نسبة إلى أمه أسماء بنت مخربة الحنظلية.
٣. أي علامة ونذير سوء على ما سيصيب المشركين من قتل وما سيراق من دمائهم.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٥.
٥. تزعها: تكفّها وتمنعها.
٦. طرق: فحولة.
٧. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٥.

أبو جهل فقال: (**أتُنزل هذا، وقد آوى محمداً وآذنّا بالحرب؟ فقال سعد بن معاذ: قل ما شئت، أما إنَّ طريق عيركم علينا. قال أمية بن خلف: مه، لا تقُل هذا لأبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي! قال سعد بن معاذ: وأنت تقول ذلك يا أمية، أما والله لسمعت محمداً يقول: لأقتلنَّ أمية بن خلف. قال أمية: أنت سمعته؟ قال، قلت: نعم**).

أدخلت هذه الكلمات الرعب في قلب أمية، وأثّرت فيه تأثيراً كبيراً، حتى إذا بلغه خبر نفير قريش للمواجهة، رفض أن يخرج معهم، فأتاه عُقبة بن أبي مُعيط، وأبو جهل، ومع عقبة مِجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مُكحُلَة ومِرْوَد [1]، فأدخلها عُقبة تحته وقال: (**تبخَّر، فإنما أنت امرأة! وقال أبو جهل: اكتحل، فإنما أنت امرأة!**).

أثارت هذه الكلمات حفيظة أمية وشعر بإهانة كبيرة وتناسى قول النبي «صلى الله عليه وآله» وقرر الخروج على عجل وقال: (**ابتاعوا لي أفضل بعيرٍ في الوادي**)[2]. فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة درهم، وخرج مع مَن خرج.

* موقف بني عبدالمطلب:

عرفنا أن قريشاً استعملت أكثر من أسلوب للحث على الخروج للقتال، ويضاف إلى الوسائل التي سبق وذكرناها ما رواه بعض المؤرخين من أن قريشاً لجأت إلى التهديد بهدم دار مَن لا يخرج! فخرج معهم على إثر ذلك العباس بن عبدالمطلب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وعقيل بن أبي طالب.

وقد روى الكليني بسنده عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (**لما خرجت قريش إلى بدر وأخرجوا معهم بني عبد المطلب وفيهم طالب بن أبي طالب، نزل يرتجز ويقول:**

يا رب إما خرجوا بطالب ... في مِقنَب من هذه المقانب

في مقنب المغالب المحارب ... فاجعلهم المغلوب غير الغالب

واجعلهم المسلوب غير السالب

فردوه)[3].

* بطَر واستعراض للقوة:

وفي محاولة من قريش لشحذ الهمم، قررت الخروج بمعيّة مجاميع من القيان [4] يضربن بالدفوف ويغنين، كما

---

١. المكحلة: الوعاء الذي يوضع فيه الكحل. المرود: أداة من زجاج أو معدن يكتحل بها.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٥.

٣. الكليني: الكافي، ج٨، ص ٣٧٥. وقريب منه ما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج١، ص ٢١. والمقنب: جماعة من الخيل والفرسان.

٤. القيان: جمع قَينة، وهي الأمَة، ويغلب الاستعمال في الإماء المغنيات.

أخذت قريش تنحر الإبل الجزور لطعامها وإطعام من يأتيهم ممن كان يسكن في تلك النواحي، لا حباً في الخير، بل بطراً واستعراضاً للقوة وتشجيعاً على المضي قدماً [١]. قال الله «تعالى» مُعرّضاً بقريش: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٢].

وفي تفسير القرطبي: (**خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني ـ وكان صديقا لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن له، وقال: إن شئت أمددتُك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع مَن خَفَّ مِن قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله مِن طاقة. وإن كنا نقاتل الناس، فوالله إنَّ بنا على الناس لقوة. والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإنَّ بدراً موسمٌ من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد**)[٣].

ولكن بقي هاجس الخوف عند بعض سادات قريش مسيطراً عليهم وهم في الطريق إلى بدر، على الرغم من كل الوسائل التي حاولوا بها تجاوز هذه الحالة النفسية وما تظاهروا به من امتلاك القوة والشجاعة وإمارات النصر الذي زعموا تحقيقه بكل سهولة.

وقد روي أن عتبة و شيبة ابني ربيعة أخبرا عمّا يعتلج في نفسيهما، حيث قال أحدهما لصاحبه: (**ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب؟ لقد خشيت منها. قال الآخر: فاذكرها. وذكرها** [٤]. **فأدركهما أبو جهل فقال: ما تتحادثون به؟ قالا: نذكر رؤيا عاتكة. قال: يا عجباً من بني عبد المطلب، لم يرضوا أن تتنبأ علينا رجالهم، حتى تنبأت علينا النساء! أما و الله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلن بهم و لنفعلن. قال عتبة: إنَّ لهم أرحاماً و قرابة قريبة. ثم قال أحدهما لصاحبه: هل لك أن ترجع؟ قال أبو جهل: أ ترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما و تقطعان بهم بعد أن رأيتم ثأركم بأعينكم؟ أ تظنّان أن محمداً و أصحابَه يلاقونكما؟ كلا و الله، إن معي من قومي مائة و ثمانين كلهم من أهل بيتي يحلّون إذا أحللت، و يرحلون إذا رحلت. فارجعا إن شئتما. قالا: و الله لقد هلكت و أهلكت قومك. ثم قال عتبة لأخيه شيبة: إنَّ هذا رجل مشئوم، يعني أبا جهل، و إنه لا يمسه من قرابة محمد ما يمسّنا، مع أن محمداً معه الولد** [٥]**، فارجع بنا وَ دَعْ قوله. فقال شيبة: و الله تكون علينا سُبّة ـ يا أبا الوليد ـ أن نرجع الآن بعد ما سرنا فمضينا**)[٦].

١. كان المسافرون يكتفون بالطعام البسيط خلال مسيرهم الطويل، ولذا كان طعامهم القليل من التمر وأمثال ذلك.

٢. سورة الأنفال: ٤٧.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، في تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنفال.

٤. العبارة في نص آخر: فاذكرها. فذَكرها... أي كأنه طلب تذكيره بالرؤيا فذكرها له الآخر.

٥. كان لعتبة ولد مسلم مهاجر اسمه أبوحذيفة، استشهد لاحقاً في حرب اليمامة وهي من حروب الردة ضد مسيلمة الكذاب.

٦. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٠٥-١٠٦.

❋ أبو سفيان يستنقذ القافلة:

في أثناء مسير قريش باتجاه بدر، كانت القافلة التجارية التي سعى النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون لاعتراضها تترقب عودة ضمضم إليها ليخبرها عن ردة فعل قريش وما ستُقدِم عليه، ولكنه تأخر، حتى إذا كانت الليلة التي سيصلون بعدها إلى أرض وماء بدر، قرر أبوسفيان ومَن معه أن يتريّثوا، ويبيتوا ليلتهم تلك بعيداً عن الماء خوفاً من أن يكون المسلمون قد سبقوهم إلى الماء، فيقع المحظور.

إلا أن إبل القافلة التجارية ما كانت لتهدأ تلك الليلة وهي تشعر قربها من الماء وحرمانها منه، فصارت تُقبل نحو أرض بدر، ورجال القافلة يضربونها بالعُقل منعاً لها من الحركة، واضطروا لربط أرجلها بعقالين، فصارت: (**تُرجِّع الحنين**[١] **تواراداً إلى ماء بدر، وما إن بها إلى الماء من حاجة، لقد شربت بالأمس! وجعل أهلُ العِير يقولون: إنَّ هذا شيء ما صنعته الإبل منذ خرجنا**)[٢].

وبدأ أبوسفيان يتفحّص المكان حين نزلوا، وسأل مجدي بن عمرو: (**هل أحسستَ أحداً مِن عيون محمد؟ فإنه ـ والله ـ ما بمكة مِن قرشي ولا قرشية لَهُ نش فصاعداً إلا قد بعث به معنا**). فقال مجدي: (**والله ما رأيتُ أحداً أُنكره إلا راكبين أتيا إلى هذا المكان**). وأشار له إلى مَناخ حليفين للمسلمين[٣] أرسلهما النبي لترصّد القافلة.

عمد أبوسفيان إلى البعر المتناثر هناك، ولما وجد فيه نوى تمر المدينة[٤]، عرف أن الرجلين كانا يتجسسان لصالح المسلمين، وأنهما سبقاه إلى هذا المكان، فساق إبل القافلة سوقاً باتجاه الغرب حيث ساحل البحر، تاركاً بدراً وراءه، ثم أرسل قيسَ بن امرئ القيس ليُخبر قريشاً أنهم استطاعوا الفرار سالمين دون مواجهة، ويطلب منهم العودة إلى مكة، قائلاً: (**قد نجّى الله عيركم، فارجعوا ودعوا محمداً والعرب، وادفعوا بالراح ما اندفع**)[٥].

مجدي بن عمرو الهلالي الجهني، وجهينة من قبائل قضاعة. قَدِم على النبي لاحقاً مع قومه ودخلوا في الإسلام. أقدم موطنٍ لجهينة كان في تهامة اليمن، وتتمركز فروع قبيلة جهينة في هذا العصر بعدد من المدن غرب المملكة العربية السعودية، مثل: (ينبع البحر، جـدة، المدينة المنورة، مكة المكرمة، تبوك).

١. الحنين: صوت النّاقة إذا حنَّت.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٠٤.
٣. هما: بسبس بْن عَمْرو. وعدي بْن أبِي الزغباء. مِن جهينة حليفان للأنصار.
٤. يقال أن شكل ذلك النوى كان خاصاً بتمر عجوة الذي تختص بزراعته المدينة المنورة.
٥. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٩.

وصل مبعوث أبي سفيان إلـى المشركين وهم في الطريق، وأحيطوا بكلامه، ولكنهم رفضوا العودة وأصرّوا على المضي، وأرسلوا رجلاً يُقال له الفرات بن حيّان العِجْلي إلـى أبي سفيان يخبره بقرارهم، واستطاع اللحاق بقافلة قريش التجارية وهي على بُعد ٧٥ كم تقريباً من مكة المكرمة، فقال أبوسفيان: (**وا قوماه! هذا عمل عمرو بن هشام** [١]**، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس على الناس و بغى، والبغي منقصة وشؤم، والله لئن أصاب أصحاب محمد النفير** [٢] **ذلّلنا إلـى أن يدخل مكة علينا**)[٣].

اسمه فرات أو الفرات، جُرِحَ لاحقاً في بدر عدة جِراحات، وهرب على قدميه وهو يقول: (ما رأيت كاليوم أمراً أنكد! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر). أسلم لاحقاً.

هم بنو زهرة بن كلاب أخو قصي بن كلاب من أجداد النبي، فنسبُه: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي. وإلـى بني زهرة تنتسب والدة النبي، فهي: آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. وكذلك الصحابي سعد بن أبي وقاص.

❊ انسحاب بني زُهرة:

لما بلغ النفير خبر نجاة القافلة، وقرر المشركون الاستمرار في المضي باتجاه النبي والمسلمين، قال الأخنس بن شُريق الثقفي، وكان حليفاً لبني زُهرة وهم بالجحفة: (**يا بني زُهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جُبنَها** [٤]**، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا** [٥]**)**[٦]. وفعلاً اقتنع رجالات بنو زهرة بكلامه، ورجعوا قافلين إلـى مكة المكرمة.

❊ انسحاب بني عدي:

وروي أيضاً أن بني عدي انسحبوا من النفير كما فعل بنو زُهرة، وفي الخبر الذي رواه أبوبكر بن عمر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي: (**إنَّ بني عدي خرجوا من النفير حتى كانوا بثنية لفت**[٧]

---

١. أي أبو جهل.

٢. النفير: قوات قريش التي خرجت لإنقاذ القافلة.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٠٧.

٤. أي لو عيّركم أحد بالجبن فحملوني ذلك العار.

٥. أي لا تنصتوا إلـى قرار أبي جهل.

٦. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٩٩.

٧. ثنية لفت أو عقبة السويق أو عقبة السكر أو ثنية خليص: مسلك ودرب قديم للقوافل في الطريق ما بين مكة والمدينة. وهي من المسالك الوعرة والشاقة لكثرة الرمل حيث تغوص أرجل الإبل فيها إلـى الساق، تقع بين (خليص) المرحلة الثالثة و(قديد) المرحلة الرابعة.



فلما كان في السَّحَر عدلوا في الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان فقال: كيف رجعتم يا بني عدي، ولا في العير ولا في النفير؟ قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع، فرجع مَن رجع، ومضى من مضى. فلم يشهدها أحد من بني عدي. ويُقال إنه لاقاهم بمرِّ الظهران فقال تلك المقالة لهم)[1].

بنو عدي من بطون قريش، وإليهم ينتسب الخليفة عمر بن الخطاب. يلتقون في النسب بعيداً مع بني هاشم، في كعب بن لؤي. فعدي هو أخو مُرّة جدّ قصي بن كلاب. وبعد فراغ قريش من بناء البيت الحرام تنازعوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، وتعاقدوا على الحرب، فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دماً، وتحالفوا مع بني عدي بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسُموا لعقة الدم.

* مشاهد في الطريق إلى بدر:

المشهد الأول:

عن مُعَاذ بن رِفاعَة عن أبيه قال: (خرجت مع النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى بدر، وكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيراً، فكنت أنا وأخي خلاد بن رافع على بِكرٍ لنا، ومعنا عبيد بن زيد بن عامر، فكنا نتعاقب. فسرنا حتى إذا كنا الروحاء، أذم بنا بِكرُنا[2] فبرك علينا، وأعيا، فقال أخي: اللهم، إنَّ لك على نذراً، لئن رددتنا إلى المدينة لأنحرنَّه. قال: فمر بنا النبي «صلى الله عليه وسلم» ونحن على تلك الحال، فقلنا: يا رسول الله، برك علينا بكرنا. فدعا رسول الله «صلى

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٠٩.
٢. أذمّت الدابة: كلّتْ فوقَفتْ أو تأخّرتْ.

الله عليه وسلم» بماءٍ، فتمضمض وتوضأ في إناءٍ، ثم قال: افتحا فاه! ففعلنا، ثم صبَّه في فيه، ثم على رأسه، ثم على عنقه، ثم على حاركه، ثم على سنامه، ثم على عجزه، ثم على ذنَبِه، ثم قال: اركبا! ومضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فلحقناه أسفل المنصرف وإن بكرنا لينفر بنا، حتى إذا كنا بالمصلى راجعين من بدر برك علينا، فنحره أخي، فقسّم لحمه وتصدق به)[١].

المشهد الثاني:

عن سعد بن أبي وقاص: (لما كنا بتربان[٢] قال لي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يا سعد، انظر إلى الظبي. فأفوِّق له بسهم[٣] و قام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فوضع رأسه بين منكبي و أذني ثم قال: اللهم سدِّد رميتَه. قال: فما أخطأ سهمي عن نحره. فتبسم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وخرجت أعدو فأخذته وبه رمق فذكّيته، فحملناه حتى نزلنا قريباً، و أمر به رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقُسِّم بين أصحابه)[٤].

المشهد الثالث:

أصبح رسول الله «صلى الله عليه وآله» صبيحة الرابع عشر من رمضان بعرق الظُّبْيَة[٥] فجاء من تهامة أعرابيٌّ، فسُئل عن أبي سفيان فقال: (ما لي به علم. فقالوا له: تعال سلّم على رسول الله. قال: وفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: فأيكم هو؟ قالوا: هذا. قال: أنت رسول الله؟ قال: نعم. قال: فما في بطن ناقتي هذه إن كنتَ صادقاً؟) أثارت هذه الكلمات حفيظة سلمة بن سلامة فوجّه له كلاماً قبيحاً انزعج منه النبي، قال الراوي: (فكره رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مقالته وأعرَض عنه)[٦].

يشترط في حل الصيد بالآلة كالسهم والرصاصة كون الرامي مسلماً، والتسمية حال الرمي، واستناد القتل إلى الرمي، وأن يكون الرمي بقصد الاصطياد. ويختص الحل بالاصطياد بهذه الوسائل بما كان الحيوان ممتنعاً بحيث لا يُقدر عليه إلا بوسيلة، فلا يقع على الأهلي الذي يُقدر عليه بلا وسيلة كالبقر والغنم. فإذا مات الصيد بسبب تلك الوسيلة حل، وإذا وُجد به رمقٌ وجبت تذكيته بذبحه.

سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري، شهد بيعتي العقبة، وبدراً وأحداً، وما بعدهما. وسيمر بنا موقف آخر لسلمة في خواتيم الغزوة، وسيذكّره النبي بهذا الموقف مع الأعرابي.

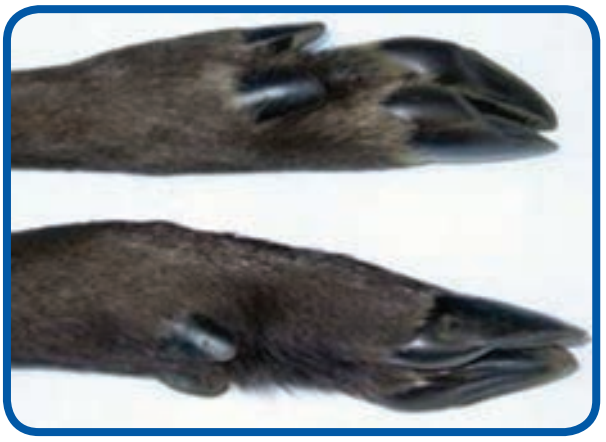
١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٨٩.
٢. وادي قريب من المدينة المنورة على طريق مكة وما زال يحمل هذا الاسم.
٣. فَاقَ السَّهْمَ : وضَعَ فُوقَهُ في الوَتَر لِيُرْمَى به.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٩٠.
٥. عرق الظبية على بعد ٧٠ كم تقريباً من المدينة المنورة.
٦. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٩٢.

المشهد الرابع:

أكمل النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون مسيرهم نحو بدر، حتى إذا بلغوا الروحاء[١] ليلة الأربعاء للنصف من رمضان، صلى عند بئر الروحاء، ولما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره لعن الكفرة. وقال: (**اللهمّ لا تُفلتنَّ أبا جهل فرعون هذه الأمة، اللهمّ لا تُفلتن زمعة بن الأسود، اللهمّ وأسخن عين أبي زمعة بزمَعة**[٢]**، اللهمّ وأعمِ بصر أبي زمعة، اللهمّ لا تُفلتن سُهيلاً، اللهمّ أنجِ سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين**)[٣].

المشهد الخامس:

كان خُبيب ـ أو حبيب ـ بن يساف من الخزرج ولكنه لم يدخل الإسلام مع مَن دخله من أهل المدينة، فلما خرج النبي «صلى الله عليه وآله» إلى بدر، خرج هو وقيس بن محرث ـ أو الحارث ـ و هما مشركان، فأدركا رسول الله بالعقيق[٤]، وخبيب مقنَّع في الحديد، فعرفه رسول الله من تحت المِغفر، فالتفت إلى سعد بن معاذ و هو يسير إلى جنبه فقال: (**أليس بخبيب بن يساف؟ قال: بلى. فأقبل خبيب حتى أخذ ببطان**[٥] **ناقة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال له و لقيس بن محرث: ما أخرجكما؟ قال: كنتَ ابن أختنا**[٦] **و جارنا، و خرجنا**



سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي. أخو أبي جهل. أسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة ثم رجع فحبسه أبوجهل وضربه وأجاعه وأعطشه، ولم يتمكن من الهجرة إلا بعد غزوة الأحزاب. استشهد في الفتوحات سنة ١٤.

عياش بن عمرو بن المغيرة المخزومي، ابن عم أبي جهل وأخوه لأمه. أسلم بمكة وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ثم هاجر إلى المدينة قبل النبي، فوفد عليه أبوجهل وأخوه الحارث واحتالا عليه بأن أمه قد نذرت ألا تمتشط إلى أن ترى ابنها عياشاً، فعاد معهما، وفي الطريق ربطاه وأدخلاه مكة موثقاً. استشهد في الفتوحات سنة ١٥.

١. من أودية المدينة المنورة وتقع على بعد ٨٠ كم منها وتمتد لمسافة ٢٥ كم، وهي المحطة الثانية في طريق سفر القوافل من المدينة إلى مكة.
٢. الزمعة: قطعة زائدة قاسية تكون وراء ظلف الشاة. انظر الصورة أعلى الصفحة.
٣. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٩٢.
٤. من أودية المدينة وله امتداد عظيم جنوباً وشرقاً.
٥. بطان الناقة: الحزام الذي يربط أسفل بطنها.
٦. أم عبدالمطلب جد النبي كانت سلمى بنت عمرو النجارية، وبنو النجار من أهل المدينة المنورة.



مع قومنا للغنيمة. فقال «صلى الله عليه وسلم» لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا. فقال خبيب: لقد علم قومي أني عظيم الغناء في الحرب[1] شديد النكاية، فأقاتل معك للغنيمة، و لا أُسلِم. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا، ولكن أسلِم ثم قاتِل. فلما كان بالروحاء جاء فقال: يا رسول الله أسلمت لرب العالمين، و شهدت أنك رسول الله. فسر بذلك وقال: امضه. فكان عظيم الغناء في بدر وفي غير بدر. وأما قيس بن الحارث فأبى أن يُسلِم فرجع إلى المدينة. فلما قدِم النبي «صلى الله عليه وسلم» من بدر أسلم و شهد أحداً فقُتل)[2].

من طريف ما روي عن خبيب أنه قال: (ضربني رجل من المشركين على عاتقي فقتلته، وتزوجت ابنته بعد ذلك، فكانت تقول: لا عدِمتُ رجلاً وشَحك هذا الوشاح، وأقول: لا عدمت رجلاً عجَّل أباك إلى النار).

* النبي وقرار المواجهة:

مضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى إذا كان على مشارف بدر، أتاه الخبر أن قريشاً قرَّرت المضي في مسيرها بهدف المواجهة المسلحة، فكشف النبيُّ «صلى الله عليه وآله» الأمرَ لأصحابه، واستشارهم في القرار، إما المواجهة، وإما العودة. والمشهور أن هذه المشورة جاءت بالنظر إلى أن المسلمين لم يخرجوا أساساً للحرب ومواجهة قريش، وإنما لاعتراض القافلة. إلا أن بعض ما عرضناه من تنافس على الخروج بين الأب وابنه، ورغبة

١. عُرف خبيب بشجاعته في الحروب ولذا قال بأنه مشاركته في هذه الغزوة ستكون مفيدة جداً.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١١٠-١١١.

البعض بالشهادة، وامتناع كثيرين عن الخروج وندمهم بعد ذلك، يثير في البين احتمال خروجهم وهم يدركون أنهم ـ على الأغلب ـ سيُقبلون على مواجهة مسلحة مع قريش، وأن هذه المشورة النبوية جاءت بعد أن بات الأمر شبه محسوم، فأراد أن يختبر أصحابه ويتأكد من مصداقيتهم واستعدادهم للقتال، إلا أن يقال أن تلك الروايات الخاصة بالتنافس على الخروج وأمثالها غير صحيحة، والله أعلم بحقيقة الأمر.

وعلى كل حال فقد كشف النبي لأصحابه ما بلغه، واستمع إلى أقوالهم التي تلاعبت فيها أهواء الرواة والمؤرخين ونساخ الكتب حتى وصلت إلينا بالصور التالية:

النموذج الأول: في السيرة النبوية لابن هشام: **(وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسَن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: .....)**[1].

النموذج الثاني: في صحيح مسلم: **(عن ثابت عن أنس أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: .....)**[2].

النموذج الثالث: في المصباح: **(عن أنس بن مالك قال: شاور ـ يعني النبي «صلى الله عليه وسلم» ـ الناس يوم بدر، فتكلم أبو بكر فضافَ عنه**[3]**، وتكلم عمر فضافَ عنه، فقال سعد بن عبادة :.....)**[4].

النموذج الرابع: في المغازي: **(ومضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حتى إذا كان دُوَيْن بدر أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبرهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بمسيرهم، واستشار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته. ثم قام المقداد بن عمرو فقال:.....)**[5].

وقد ذكر السيد مرتضى العسكري في كتابه «معالم المدرستين» عشرة أنواع من «الكتمان والتحريف لسنة الرسول «صلى الله عليه وآله» وأخبار أهل بيته وأصحابه»، وهي:

أ ـ حذف بعض الحديث من سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله» وتبديله بكلمة مبهمة.

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦١٤-٦١٥. وسنذكر قول المقداد لاحقاً.
٢. مسلم: المسند الصحيح «صحيح مسلم»، ح ١٧٧٩.
٣. ضَافَ عنه: عَدَلَ، انحرف.
٤. المقدسي: المصباح في عيون الصحاح، ح٢.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٨.

ب ـ حذف تمام الخبر من سيرة الصحابة مع الإشارة إلى الحذف.

ج ـ تأويل معنى الحديث من سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله».

د ـ حذف بعض أقوال الصحابة مع عدم الإشارة إليه.

هـ ـ حذف تمام الرواية من سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله» مع عدم الإشارة إليه.

و ـ النهي عن كتابة سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله».

ز ـ تضعيف الروايات ورواة سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله» والكتب التي تنتقص السلطان.

ح ـ إحراق الكتب والمكتبات.

ط ـ حذف بعض الخبر من سيرة الصحابة وتحريفه.

ي ـ وضع الروايات المختلقة بدلاً من روايات سنّة الرسول الصحيحة، وسيرة الصحابة الصحيحة.

ثم قال: (من أنواع الكتمان بمدرسة الخلفاء، حذف بعض الحديث من سنّة الرسول «صلى الله عليه وآله» وتبديله بكلمة مبهمة بدل ما حُذف، مثل ما فعله الطبري وابن كثير بخبر دعوة بني هاشم في تفسير الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] حيث حذفا[2] قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «ووصيّي وخليفتي فيكم»، وأبدلاه بقولهما: «وكذا وكذا». ومن هذا النوع من الكتمان ما فعله البخاري في صحيحه مع سيرة الصحابة في خبر عبدالرحمن الذي مرّ بنا سابقاً[3]، حيث حذف قول عبدالرحمن لمروان وقال: «فقال عبد الرحمن شيئاً» بدّل كلام عبد الرحمن بقول مبهم، وأضاف إلى ذلك حذف ما روته أمّ المؤمنين عائشة عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الحديث في حقّ

١. سورة الشعراء: ٢١٤.

٢. هكذا في تفسيرهما، ومن المحتمل أن الحذف تم من قبل النساخ لا المؤلفين، بدليل أن الطبري في تاريخه ج١، ص ٥٤٣ يذكر كلام النبي دون حذف، قال على لسان الإمام علي: (فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعو له وأطيعوا).

٣. الخبر أنه لما أراد معاوية أن يأخذ البيعة ليزيد، كان عبد الرحمن بن أبي بكر من أشد المعارضين، فخطب مروان في مسجد الرسول وكان والياً على الحجاز من قبل معاوية فقال: (إن أمير المؤمنين قد اختار لكم، فلم يأل، وقد استخلف لابنه يزيد بعده). فقام عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال: (كذبت والله يا مروان! وكذب معاوية، ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل). فقال مروان: (هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. فسمعت أم المؤمنين عائشة مقالته من وراء الحجاب، فقامت من وراء الحجاب وقالت: (يا مروان، يا مروان). فأنصَت الناس، وأقبل مروان بوجهه فقالت: (أنت القائل لعبد الرحمن أنه نزل فيه القرآن؟ كذبت والله ما هو به، ولكنه فلان بن فلان، ولكنك فضضٌ من لعنة الله) يعني ما انْفَضَّ من نطفة الرجل وفي رواية أنها قالت: (كذب والله ما هو به، ولكن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فضض من لعنة الله عزوجل). انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٣، ص ١٠٠.

الحَكَم والد الخليفة مروان. ومن هذا النوع من الكتمان ـ أيضاً ـ ما فعلوه بخبر استشارة رسول الله «صلى الله عليه وآله» أصحابه في شأن غزوة بدر وجواب أصحابه له.... تُرى ماذا كان جواب الصحابيّين أبي بكر وعمر لرسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي حُذف من هذه الرواية وأبدل بقول مبهم وهو: «وأحسن»؟ ولو كان القول حسناً فلم حذف ذلك القول الحسن؟! بينا أثبت قول المقداد المهاجري وسعد بن معاذ الأنصاري! نرجع إلى صحيح مسلم فنجد في روايته: إنّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» شاور أصحابه حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: «فتكلّم أبو بكر، فأعرض عنه. ثمّ تكلّم عمر فأعرض عنه... الحديث». ترى لماذا أعرض الرسول «صلى الله عليه وآله» عن الصحابيين لو كان قولهما حسناً؟ ونبحث عن قولهما لدى الواقدي والمقريزي فنجدهما يقولان هكذا، واللفظ للأوّل: «قال عمر: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزّها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدّته...». عرفنا من رواية ابن هشام والطبري ومسلم أنّ الصحابي عمر تكلّم بعد الصحابي أبي بكر، ووصف الطبري وابن هشام قول كلّ منهما بـ«فأحسن» وفي رواية مسلم أنّ الرسول «صلى الله عليه وآله» أعرض عن أبي بكر، ثمّ عن عمر، ومن ثمّ نعرف أنّ قولهما كان أمراً واحداً، وعندما صرّح الواقدي والمقريزي بقول عمر وكتما قول أبي بكر، كشف لنا قول عمر ـ أيضاً ـ عن قول أبي بكر. ولمّا كان قول الصحابيّين يسوء ذكره بعض الناس حُذف قولهما من رواية ابن هشام والطبري ومسلم، ومن أجل هذا النوع من الكتمان، أصبحت هذه الكتب من أوثق الكتب بمدرسة الخلفاء. وأصبح صحيح البخاري الذي لم يذكر شيئاً من هذا الخبر؛ مبهماً وغير مبهم أكثر اشتهاراً بالصحّة والوثاقة من جميع الكتب)[1].

نعود من جديد لاستكمال خبر المشورة النبوية حيث اتفق الرواة على أن كلمات الصحابي المقداد بن الأسود كانت إيجابية حيث قال: (يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون[2]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سِرت بنا إلى بِرَك الغماد لجالدنا معك مِن دونه، حتى

برك الغماد من المواقع التهامية المعروفة، وكان لموقعها على الطريق بين مكة واليمن أهمية اقتصادية وحربية كبيرة، اُعتُني بتحصينها وتسويرها منذ وقت مبكر، ولا تزال بقايا أسوارها شاخصة إلى اليوم. وقد ذكره المقداد لبعده عن المدينة بقرابة ١٠٠٠ كم، أي أن الوصول إليه من الصعوبة بمكان. والمنطقة تُعرف حالياً بـ«البرك» وهي تابعة لمنطقة عسير على طريق الساحل الغربي على شاطئ البحر الأحمر.

١. العسكري: معالم المدرستين، ج١، ص ٢٤٤-٢٤٦.
٢. نص الآية في سورة المائدة ٢٤ هكذا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.



تبلغَه، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خيراً، ودعا له به)[١]. وفي صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول: **(شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عُدل به**[٢]. **أتى النبي «صلى الله عليه وسلم» وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي «صلى الله عليه وسلم» أشرق وجهه وسره. يعني قوله)**[٣]. قال ابن حجر العسقلاني معلقاً على الخبر السابق: **(زاد النسائي في روايته «جاء المقداد على فرس يوم بدر فقال» وذكر ابن إسحاق أن هذا الكلام قاله المقداد لما وصل النبي «صلى الله عليه وسلم» الصفراء وبلغه أن قريشاً قصدت بدراً، وأن أبا سفيان نجا بمن معه، فاستشار الناس...)**[٤].

* النبي يطلب قرار الأنصار:

مما سبق يتضح أن الصحابة الذين تحدثوا إلى الآن كانوا من المهاجرين فقط، ولذا قال «صلى الله عليه وآله»: **(أشيروا علي أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار ـ وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذِمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذممنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا**

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦١٥.
٢. قيل: من الثواب أو مِن مُلك الدنيا، ولعل النبي ذكر قيمة ذلك الموقف ولكنه نُسي أو أهمِل على الرغم من وقعه الكبير حتى أن أبا أيوب الأنصاري قال: (فتمنينا معشرالأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد).
٣. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر «صحيح البخاري»، ح ٣٧٣٦.
٤. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الخبر السابق.

ونساءنا، فكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت. فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك منا ما تقرُّ به عينُك، فسِرْ بِنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بقول سعد، ونشّطه ذلك)[1].

وفي نص آخر أنه قال: **(يا رسول الله، إنا قد خلفنا من قومنا ما نحن بأشد حبّاً لك منهم، ولا أطوع لك منهم. لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا يا رسول الله أنك ملاق عدواً ما تخلّفوا، ولكن إنما ظنوا أنها العير، نبني لك عريشاً فتكون فيه ونعدُّ لك رواحلك، ثم نلقى عدوّنا فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلستَ على رواحلك فلحقت مَن وراءنا. فقال له النبي «صلى الله عليه وسلم»: خيراً. وقال: أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد)**[2]. ولكن هل يُعقَل أن يرضى النبي بهذا الاقتراح، وأن يترك أصحابه عند الهزيمة نهَباً لسيوف المشركين ويفرّ إلى المدينة للنجاة بنفسه؟ ولو قيل أن هذا مجرد اقتراح من سعد ولم يكن النبي ليعمل به، فلمَ لم يعارضه النبي مبيّناً أنه لا يمكن أن يُقدِم على شيء من هذا القبيل، على الأقل من جهة تقوية عزائم مقاتليه؟ هذه التساؤلات تجعلنا نشكك في النص السابق، أو على الأقل في جزء منه.

وتبقى هنا نقطة أخرى وهي أنه قد مرَّ بنا آنفاً عند استعراض رواية مسلم في صحيحه أن الذي تكلم من الأنصار هو سعد بن عبادة الخزرجي، وليس سعد بن معاذ الأوسي، فأي القولين أصح؟

قال ابن حجر في «فتح الباري»: **(ووقع في «مسلم» أن سعد بن عبادة هو الذي قال ذلك، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة من مرسل عكرمة، وفيه نظر؛ لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدراً، وإن كان يُعد فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه كما سأذكره في آخر الغزوة، ويمكن الجمع بأن النبي «صلى الله عليه وسلم» استشارهم في غزوة بدر مرتين: الأولى وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بيِّن في رواية مسلم ولفظه أن النبي «صلى الله عليه وسلم» شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، والثانية كانت بعد أن خرج، كما في حديث الباب. ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية ، وهذا أولى بالصواب)**[3].

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، في تفسير قوله «تعالى»: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ سورة الأنفال: ٧.
٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص ٢٤١.
٣. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٢٨٨.

ولا يخفى ما كان بين الأوس والخزرج من تنافس استمر على الرغم من الجهود التي بذلها النبي «صلى الله عليه وآله» في هذا الاتجاه، ولربما كان التحريف في قصة المشورة ببدر نتيجة ذلك، لأهمية الموقف والمضمون، أو أنه وقع نتيجة خطأ غير مقصود من الرواة أو النسّاخ.

❊ بشارة نبوية:

ذكر عدد من المؤرخين والمفسرين أن النبي عقّب على كلام المقداد بن الأسود وسعد بن معاذ بقوله: (**سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**)[1].

وفي نصٍّ آخر أن النبي «صلى الله عليه وآله» أراهم: (**مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فما عدا كل رجل منهم مصرعه، قال: فعلم القوم انهم يلاقون القتال، وإن العير تفلت، ورجا القوم النصر لقول النبي «صلى الله عليه وسلم»**)[2]. وإن صح الخبر، فلابد أن يكون هذا قد تم وهم في الموقع الذي سيشهد القتال، لا في وادي الصفراء على مشارف بدر، لأن النص يقول أنه أراهم المواقع التي ستكون عليها جثث المقتولين من قريش بعد المعركة، وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: (**أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ندب أصحابه فانطلقوا إلى بدر فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج فأخذه أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم»..... قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هذا مصرع فلان غداً، ووضع يده على الأرض، وهذا مصرع فلان غداً، ووضع يده على الأرض، وهذا مصرع فلان غداً، ووضع يده على الأرض، فقال: والذي نفسي بيده، ما جاوز أحد منهم عن موضع يد رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**)[3]. وهذا خبر صريح في أن ذلك تم في موقع المعركة لا في وادي الصفراء، لأن قريشاً عسكرت في بدر وأرسلت عبيدها للاستقاء من آباره.

قال الزمخشري في تفسيره «الكشاف» في محاولة لتفسير وبيان الوسيلة التي من خلالها استطاع النبي تحديد القتلى من قريش ومواضع مصارعهم: (**ولعل الله «تعالى» أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم. وهو يومئ إلى الأرض، ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان**)[4].

بينما لم يرتضِ القرطبي هذا التأويل وقال: (**الصحيح أنها رؤية عين يقظة، لما آتاه بدراً أراه جبريل «عليه السلام» مصارع القوم، فأراها الناس**)[5].

---

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، في تفسير سورة الأنفال: ٧.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ١١٣.
٣. أبو داود: السنن، ح ٢٦٨١.
٤. الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٢، ص ٦٧٥.
٥. أبو داود: السنن، ح ٢٦٨١.

والرجلان ينتميان إلى مدرستين مختلفتين، فالأول معتزلي ينحو المنحى العقلي، بينما الآخر أقرب إلى المدرسة السلفية وأتباع مدرسة الحديث. وقد قال ابن تيمية حول تفسير القرطبي في معرض كلامه عن تفسير الزمخشري: (**وتفسير القرطبي خير منه بكثير**[1]، **وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما يُنقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذي حق حقه**)[2].

* الوصول إلى وادي بدر:

مع حلول ليلة الجمعة وهي ليلة السابع عشر من شهر رمضان، نزل النبي «صلى الله عليه وآله» ومَن معه من المسلمين وادي بدر، فبعث الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وبَسبَس بن عمرو طلباً للماء في ذلك الموقع، مع أخذ الحيطة في ذلك خوفاً من وجود المشركين عنده، وأشار النبي إلى جبل صغير يُعرف باسم الظُّرَيْب فقال: (**أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظُّرَيب**)[3].

اندفع الأربعة تلقاء ذلك الجبل، فإذا عددٌ من عبيد قريش يستقون الماء من القليب، وسرعان ما فرّ بعضهم ووقع ثلاثة آخرون في يد المسلمين.

أُخِذ الثلاثة إلى النبي «صلى الله عليه وآله» وهو قائم يُصلّي، فسألهم بعض المسلمين في الأثناء عن غرض تواجدهم عند الماء فقالوا: (**سُقّاء قريش، بعثونا نسقيهم من الماء**). شك بعض المسلمين في كلامهم، أو أنهم تمنَّوا لو سمعوا غير هذه المقولة، وأنهم سُقّاء قافلة أبي سفيان، لا جيش قريش.. فضربوهم! فما كان من العبيد إلا أن غيّروا كلامهم وادّعوا أنهم من مرافقي القافلة التجارية، أملاً في أن يكفّوا عن ضربهم، قالوا: (**نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، وهذه العير بهذا القوز**[4])!

أنهى النبي «صلى الله عليه وآله» صلاته وسلّم ثم عاتبَ المسلمين مستنكراً ضربهم وقال: (**إنْ صَدَقوكم ضربتموهم، وإنْ كذَبوكم تركتموهم؟! فقال أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلّم»: يخبروننا يا رسول الله أن قريشاً قد جاءت. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلّم»: صدَقوكم. خرَجت قريش تمنعُ عيرَها، وخافوكم عليها. ثم أقبل رسول الله «صلى الله عليه وسلّم» على السُّقّاء فقال: أين قريش؟ قالوا: خلف هذا الكَثِيب الذي ترى. قال: كم هي؟ قالوا: كثير. قال: كم عددها؟ قالوا: لا ندري كم هم. قال: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشرة، ويوماً تسعة. قال: القوم ما بين الألف والتسعمائة. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» للسُّقاء: مَن خرج مِن مكة؟**

١. أي خير من تفسير الكشاف للزمخشري.
٢. ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٣، ص ٣٨٧.
٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٨.
٤. القوز هو العالي من الرمل كأنه جبل.

قالوا: لم يبقَ أحدٌ به طعم[١] إلا خرج. فأقبل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على الناس، فقال: هذه مكة، قد ألقت إليكم أفلاذ كبدِها. ثم سألهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هل رجع أحدٌ منهم؟ قالوا: رجع ابن أبي شريق ببني زُهرة. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أرشدُهم، وما كان برشيدٍ، وإن كان ما علِمتُ لمُعادِياً لله ولكتابه. قال: أحدٌ غيرُهم؟ قالوا: بنو عَدي بن كعب)[٢].

* ردَّة فعل قريش:

لما أفلت بعضُ السَّقَّائين، هرول أحدهم منادياً: **(يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وقد أخذوا سُقَّاءَكم)**. فدخل الرعب قلوب المشركين و كرهوا ما جاء به من خبر.

قال حكيم بن حزام واصفاً ردة فعل المشركين: **(كنَّا في خباء لنا على جَزور نشوي من لحمها، فما هو إلا أن سمعنا الخبر، فامتنع الطعام منا[٣]، ولقي بعضنا بعضاً، ولقيني عتبة ابن ربيعة فقال: يا أبا خالد ما أعلم أحداً يسير أعجب من مسيرنا، إنَّ عيرَنا قد نجت وإنّا جئنا إلى قوم في بلادِهم بغياً عليهم. فقال عتبة: لأمرٍ حُمٍّ[٤] ولا رأي لمن لا يطاع. هذا شؤم ابن الحنظلية يا أبا خالد، أتخاف أن يبيِّتنا القوم[٥] ؟ قلت: لا آمن ذلك. قال فما الرأي يا أبا خالد؟ قال: نتحارس حتى نُصبح، وترون مَن وراءَكم. قال عتبة: هذا الرأي)**.

قال ابن منظور في «لسان العرب» في بيان سبب إطلاق هذا الاسم على النبي: (أصله أن أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبَدَ «الشِّعرى العبور») اسم نجمة (فسَمَّى المشركون سيدنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله «تعالى» تشبيهاً به، كما خالفهم أبو كبشة إلى عبادة الشعرى... وقال آخرون: أبو كبشة كنية وهب بن عبدمناف جد سيدنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من قِبَل أمه، فنُسب إليه، لأنه كان نزع إليه في الشَّبَه، وقيل: إنما قيل له ابن أبي كبشة، لأن أبا كبشة كان زوج المرأة التي أرضعته «صلى الله عليه وسلم»).

وهكذا أمضى بعض المشركين تلك الليلة ساهرين يحرسون المعسكر خوفاً من الإغارة عليه، ظناً منهم أن المسلمين قد يفعلون ذلك، وهم يجهلون أخلاق ومبادئ النبي «صلى الله عليه وآله» في الحروب، إذ لم يكن يسمح بالإغارة ولا بالبدء بالقتال.

١. طعم: أي عقل وحزم.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩.
٣. أي عافت نفوسهم الأكل.
٤. حم: أسود.
٥. أي يغيرون علينا فجأة أثناء الليل.

وبين أيدينا عدة نصوص تؤكد على ذلك، ومن بينها خبر عبد الرحمن بن عائذ قال: (**كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إذا بعث جيشاً قال: تألّفوا الناس وتأتّوهم**[1]، **و لاتغيروا عليهم حتى تدعوهم إلى الإسلام. فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتوني بهم مسلمين أحبّ إليَّ مِن أن تأتوني بنسائهم وأبنائهم، وتقتلون رجالهم**)[2].

وعن بريدة قال: (**كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إذا أمّر أميراً على جيش أو سريَّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتِلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا ولاتغدروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين. ولايكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**)[3].

وفي خبر أنس بن مالك: (**كان إذا جاء قوماً بليل، لم يَغِرْ عليهم حتى يُصبِح**)[4].

هذه سنة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وفي المقابل سنّة التكفيريين من خوارج العصر الذين يرتكبون كل أنواع الغدر وأعمال القتل الوحشية والجماعية، ولا ينتهون عن ارتكاب جرائمهم البشعة تفجيراً وتدميراً في المساجد والمستشفيات والمدارس والجامعات، وفي الأسواق والطرقات ووسائل النقل العامة، وغير ذلك من صور الهمجية والجريمة بحق الأبرياء والآمنين من المسلمين وغيرهم.

ونعود من جديد مع ردة فعل المشركين، فقد علم أبوجهل بكلام عتبة، فلم يُعجبه، ولم يُخفِ انزعاجه وتساءل عن تلك الحراسة المضروبة في المعسكر، فلما علم السبب قال: (**إنَّ هذا لهو العَجَب! أتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم؟ والله لأنتَحِيَنَّ ناحيةً بقومي، فلا يحرسُنا أحد**)[5]. فتنحّى ناحيةً، والسماء تمطر عليه.

* اختيار موقع المعسكر:

قيل أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما وصل إلى بدر واختار موقع المعسكر قال له الحُباب بن المنذر:

١. تأتّى: ترفّق.
٢. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ح ٦٣٧.
٣. مسلم: المسند الصحيح «صحيح مسلم»، ح ١٧٣١.
٤. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر «صحيح البخاري»، ح ٢٩٤٥.
٥. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١١٥.

(أرأيتَ منزلك هذا، أ هو منزلٌ أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: فإنَّ هذا ليس بمنزل. انطلِق بنا إلى أدنى مياه القوم، فإني عالمٌ بها وبقُلُبِها، فإنَّ بها قَليباً قد عرفْتُ عذوبةَ مائها، وماؤها كثير لا ينزح. نبني عليها حوضاً ونقذف فيها بالآنية، فنشرب ونقاتل ونُغوِّر ما سواها من القُلُب).

وتقول الرواية بأن ابن عباس كان يقول: (نزل جبريل على النبي «صلى الله عليه وسلم» فقال: الرأيُ ما أشار به الحُباب. فقال: يا حُباب، أشرت بالرأي. ونهض وفعل كل ذلك)[1].

ولكن يُلاحظ على هذه الرواية عدة أمور:

١. قريش كانت في بدر قبل وصول المسلمين إليها، وقد أرسلوا سُقّاءهم للاستقاء من البئر، والنبي أرسل الأربعة من أصحابه إلى حيث الماء، فعن أي بئر يتحدث الحباب؟

٢. كيف يكون الماء بحوزة المسلمين والآية تقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[2]. فالآية تدل على أن المسلمين كانوا بحاجة إلى الماء، وكان المطر غوثاً لهم من العطش.

٣. ولعل الرواية التالية تكون الأقرب إلى الصحة، فعن ابن عباس: (أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغَلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يُصلّون مُجنبين مُحدثين، حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فأنزل الله من السماء ماءً حتى سال الوادي، فشرب المسلمون، وملئوا الأسقية، وسقوا الرِّكاب[3]، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبَّت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رَملة، فبَعث الله عليها المطر، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام)[4].

وفي تفسير القرطبي رواية تدل على أن الشك دخل في قلوب بعض المسلمين بسبب عدم توفر الماء لديهم وتوفره عند المشركين: (حكى الزجاج: ... فقال بعضهم ـ في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم ـ: نزعُم أنّا أولياء الله، وفينا رسوله، وحالُنا هذه، والمشركون على الماء؟ فأنزل الله المطر)[5].

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١١٦.
٢. سورة الأنفال: ١١.
٣. الركاب: الإبل المركوبة.
٤. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ح ١٥٧٧١.
٥. القرطبي: تفسير القرآن العظيم، في تفسير الآية ١١ من سورة الأنفال.

٤. وهل يْعقَل أن يلجأ رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلـى وسيلة من هذا القبيل للضغط على العدو؟ روى ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» عن نصر بن مزاحم أن معاوية بن أبي سفيان أمر بمنع ماء الفرات عن جيش الإمام علي «عليه السلام» وهو في الطريق إلـى الشام في حرب صفِّين، فأرسل الإمامُ مالكاً الأشتر، فأجلاهم، قال نصر: (**فقال أصحاب علي «عليه السلام» له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك! فقال: لا، خلّوا بينهم و بينه لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله وندعوهم إلـى الهدى، فإن أجابوا و إلا ففي حد السيف ما يُغني إن شاء الله. قال: فو الله ما أمسى الناس حتى رأوا سقاتهم و سقاة أهل الشام، ورواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء، ما يُؤذي إنسانٌ إنساناً**)[١].

هذه أخلاق علي «عليه السلام» التي أخذها عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فهل نتصور رسول الله بغير تلك الصفة؟ وللأسف عندما يأتي بعض الكتّاب لمشهد غزوة بدر، يمجّد مَنع الماء ويعتبره من حكمة القيادة، ثم عندما يصل إلـى مشهد صِفّين يتحدث عن الإنسانية وعظم الأخلاق!

٥. ثم إن الموقع المختار بحسب الرواية هو الأفضل، بينما تدل الآية السابقة على أنه لولا المطر النازل لكان الموقع سلبياً. قال «تعالـى»: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً.... وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾. ويؤكد هذا ما جاء في قوله «تعالى»: ﴿**إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى**﴾[٢]. وهذا يُبيِّن أن وصول المسلمين بعد قريش اضطرهم إلـى أن يكونوا في الموقع غير المناسب، فالمقصود بالعدوة الدنيا: الموقع الأقرب للقادم من الشمال «المدينة المنورة»، في مقابل القصوى وهو الموقع الأبعد جنوباً بالنسبة إليهم. ولهذا الموقع الذي اضطروا إليه سلبيات، منها:

أولاً: عدم توفر الماء.

ثانياً: رخاوة الأرض، وقد تحدث المفسرون حول نزول المطر وأثره والذي أشار إليه قوله «تعالى»: ﴿**وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾. ففي تفسير البغوي: (**وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون إلـى ماء بدر**). ولكن الله «تعالـى» أنزل عليهم المطر فحوّل هذه السلبية إلـى إيجابية، قال البغوي: (**فأرسل الله «عز وجل» عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المؤمنون واغتسلوا ، وتوضؤوا وسقوا الرِّكاب ، وملؤوا الأسقية، وأطفأ الغبار، ولبّد الأرض حتى ثبتت عليه الأقدام**)[٣].

وفي ذيل الخبر السابق الذي رواه الطبري وجدناه يقول: (**وثبَّت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رَملة، فبَعث الله عليها المطر، فضربها حتى اشتدَّت، وثبتت عليها الأقدام**).

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٣١.
٢. سورة الأنفال: ٤٢.
٣. البغوي: معالم التنزيل، في تفسير الآية ٤٢ من سورة الأنفال.

وفي كتاب «الاصطفا في سيرة المصطفى»: (مضت قريش وسارت حتى نزلت بالعدوة القصوَى من الوادي. ونزل المسلمون على كَثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدرٍ، فأحرزوه، وحفروا القُلُبَ لأنفسهم، ليجعلوا فيها الماء من الآبار المعينة، فيشربوا منها، ويسقوا دوابهم. وأدرك المسلمين النعاس، وأصبحوا لا يصلون إلى الماء للشرب والغسل والوضوء، فأرسل الله عليهم مطراً، سال منه الوادي، فشرب المسلمون،واتخذوا الحياض على‌عدوة الوادي،واغتسلوا وتوضؤوا، وسقوا الركاب، وملأوا الأسقية، وأطفأت المطر الغبار،ولبَّد الأرض، حتى تثبت عليها الأقدام والحوافر وضرَّ ذلك بالمشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة، وأصابهم ما لا يقدرون معه على الارتحالِ)[1].

❊ بناء العريش:

مرَّ علينا في ما سبق الكلام المنسوب إلى الصحابي سعد بن معاذ حيث اقترح على النبي «صلى الله عليه وآله» أن يبنوا له عريشاً قائلاً: (نبني لك عريشاً فتكون فيه ونعدُّ لك رواحلك، ثم نلقى عدوّنا فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلستَ على رواحلك فلحقت مَن وراءنا)[2]. وقيل أنهم بنوا للنبي «صلى الله عليه وآله» ذلك العريش فكان فيه وقت المعركة.

وقد ناقشتُ مضمون الخبر مسبقاً في ما له علاقة بمسألة هروب النبي إلى المدينة في حال وقعت الهزيمة، وأضيف هنا أنه يصعب تصوّر اختيار النبي «صلى الله عليه وآله» البقاء تحت الظل في ساعة القتال بينما يعاني أصحابُه ما يعانونه في أثناء ذلك.. نعم يمكن قبول أن يكون قد تم بناء العريش كمقر للقيادة على موقع مرتفع مطل على ساحة المعركة. دون أن يعني ذلك أن النبي قد استظل بالعريش في أثناء القتال، فقد كان النبي يشارك أصحابه كل معاناة يعانون منها، ولربما فاقت معاناته معاناتهم في بعض المواقف، وقد روي مثل ذلك في غزوة الأحزاب على الصعيدين: المشاركة في المعاناة، وفي اتخاذ العريش كموقع للقيادة، كما سيمرُّ بنا بإذن الله «تعالى».

❊ الرحمات الإلهية:

بالإضافة إلى ما تحدّث عنه القرآن حول نزول المطر الذي وفّر الماء للمسلمين، ولبّد الأرض من تحت أقدامهم، وجعل الأرض التي يقف عليها المشركون زلقة، فإن الله «تعالى» أعان المسلمين بأمر آخر، حيث ألقى عليهم النعاس. قال «عزوجل»: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[3].

١. الخباز: الاصطفا في سيرة المصطفى، ج٢، ص ١٩٤.
٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٩، ص ٢٤١.
٣. سورة الأنفال: ١١.

فقد أراد الله «تعالى» لهم أن يعيشوا ليلة المعركة بعيداً عن أي توتر نفسي وقلقٍ من الغد الذي سيجعلهم في وضع قتالي ولأول مرة، وجهاً لوجه مع مقاتلين أشاوس، وفي ظرفٍ غير متكافئ بلحاظ العدد والعتاد والتجربة.

لقد كان الشعور العميق بالأمن والطمأنينة الروحيّة بالنسبة إليهم أمراً فائق الأهمية في تلك الساعات الحاسمة، لذا غشّاهم الله بالنعاس، فاستسلموا ـ بنعمةٍ من الله ـ لإغفاءة، تخفّفوا بها من الجهد والتعب، وعاشوا فيها راحة الجسد، إلى جانب ما عاشوه من راحة الروح.

ووصف الزبير بن العوام شدة الناس التي غلبتهم بقوله: (**سُلِّط علينا النعاس تلك الليلة حتى إني كنت لأتشدَّد فتجلدني الأرض**[1]، **فما أطيق إلا ذلك، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأصحابُه على مثل تلك الحال**). وقال سعد بن أبي وقاص: (**رأيتني وإن ذقني بين يدي، فما أشعر حتى أقع على جنبي**)[2].

وزادهم الله «تعالى» من فضله فضلاً، فقد رأى النبي «صلى الله عليه وآله» في المنام ما ساهم في تخفيف الوطأة على المسلمين: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3] فأخبر المسلمين بما رأى، فاستبشروا بذلك وقوي عزمُهم على الدخول في المعركة.

والآية ـ كما لا يخفى ـ تُخبر أيضاً عن الحالة النفسية التي كان يعيشها البعض في صفوف المسلمين، بحيث أنهم كانوا معرّضين للاختلاف في الرأي والتنازع في ما بينهم حول أمر القتال مما سيؤدّي إلى فشلهم في ساحة المعركة ولحوق الهزيمة بهم ميدانياً بعد هزيمتهم النفسية.. ولكنها رحمة الله «سبحانه» وعنايته التي تدخّلت وقلبت الموازين لصالح المسلمين، بارتفاع المعنويات ووحدة الكلمة والقيادة الحكيمة والإسناد الغيبي.

وفي المقابل عاش المشركون حالة غير طبيعية من القلق والأرق واضطراب الحال على الرغم من كل المقوّمات الماديّة التي تجعل الأمور وكأنها تصب في مصلحتهم!

قال نبيه بن الحجّاج: (**لَمْ يَتْرُك الجوعُ لنا مَبِيتاً**)! على الرغم من أنهم لم يكونوا جياعاً، ولكن معاناتهم وحالتهم النفسية السيئة أخذت منهم كل مأخذ.

نبيه بن الحجاج السهمي القرشي، شاعر جاهلي، من ذوي الوجاهة في قريش. كان نديماً للنضر بن الحارث، ثم كان هو وأخوه «منبه» من «المقتسمين»، وهم سبعة عشر رجلاً من قريش اقتسموا أعقاب مكة يصدون الناس عن رسول الله، وقيل أن فيهم نزلت الآية ٩٠ من سورة الحِجْر: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْـمُـقْتَسِمِينَ﴾. قُتل في غزوة بدر الكبرى.

١. أي كان يحاول مقاومة النعاس، إلا أنه كان يشعر وكأن الأرض تشده إليها ليسترخي ويستسلم للنوم.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٤.
٣. سورة الأنفال: ٤٣.

قال نوفل بن معاوية الديلي: (**نحرْنا تلك الليلة عشر جزائر**[١] **فنحن في خِباء من أخبيتهم نشوي السنام والكبد وطيبة اللحم، ونحن نخاف من البيات، فنحن نتحارس إلى أن أضاء الفجر**)[٢].

وقد نقل عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود هذه الصورة للنبي «صلى الله عليه وآله» حين أرسلهما للتجسس على معسكر المشركين تلك الليلة، ففي الخبر أن النبي: (**أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود، فأطافا بالقوم ثم رجعا إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» فقالا: يا رسول الله، القوم مذعورون فزِعون. إنَّ الفَرَس ليريد أن يصهل فيُضرَب وجهُه، مع أن السماء تسحُّ عليهم**)[٣].

واستمرت الرحمات الإلهية إلى صبيحة ذلك اليوم.. إذ يحدّثنا القرآن الكريم عن تدخُّل غيبي له أثر نفسي آخر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ ليندفع المسلمون في المعركة بروح قوية ثابتة من موقع الاستهانة بالعدو، بينما ناسب ذات الأمر المشركين ولكن ليتحركوا نحو المسلمين بروح الاستهانة والتهوّر التي تمنعهم من الاستعداد الذاتي والحذر الشديد، ليساهم ذلك في إتمام عملية النصر للمسلمين: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾[٤].

وكان للملائكة دور أيضاً ضمن عنوان الرحمات الإلهية النازلة، ولكن سنتحدث عن هذا التدخل الغيبي لاحقاً مراعاةً لترتيب الأحداث.

* الاصطفاف للقتال:

ولما أصبح الجمعان، صفَّ النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه، ووقف ينظر إلى الصفوف، وقد استقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وبذا اضطر المشركون أن يستقبلوا الشمس بوجوههم، ولاشك أن هذا الأمر سيمثّل نوعاً من الصعوبة بالنسبة إلى المقاتلين. وقد روي أن أحد الصحابة ـ دون أن يُسمّى ـ قال: (**يا رسول الله، إنْ كان هذا منك عن وحي نزل إليك فامض له، وإلا فإني أرى أن تعلو الوادي، فإني أرى ريحاً قد هاجت من أعلى الوادي، وإني أراها بُعثت بنصرك**). ولكن النبي «صلى الله عليه وآله» رفض ذلك، إذ سيكون علامة التردد، علاوة على أنه قد درس الوضع واختار الأصلح، ولذا قال: (**قد صفَفْتُ صفوفي ووضعت رايتي، فلا أغيِّر ذلك**)[٥].

---

١. جزائر: جمع جَزور، وهو ما يَصْلُحُ لأَن يُنحَر من الإبِل.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٤.
٣. أي بالإضافة إلى أن السماء تُمطر عليهم بغزارة، فيزيدهم ارتباكاً إلى ارتباكهم، ويحجب عنهم الرؤية بشكل مريح، وهم يعيشون قلق المباغتة ليلاً من قبل المسلمين.
٤. سورة الأنفال: ٤٤.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٦.

محمود شيت خطّاب، حسنيّ النسب. ولد في الموصل عام ١٩١٩، درس العسكرية في العراق وبريطانيا، وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وتقلّد مناصب وزارية عدة. له أكثر من مائة وعشرين كتاباً منها: الرسول القائد، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية، المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم، نفحات روحانية. توفي سنة ١٩٩٨.

وكان الأسلوب الذي اعتمده النبي «صلى الله عليه وآله» في صفِّ أصحابه للقتال أسلوباً جديداً لم يعهده العرب من قبلُ. وقد تحدث اللواء محمود شيت خطّاب عن هذا الأسلوب وإيجابياته بإسهاب، وذلك بلحاظ الوضع والظروف المحيطة بالمعركة، قال: (قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكرّ والفر. ولا بد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمين. القتال بأسلوب الكرّ والفر، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوّتهم على العدو: النشّابة منهم، والذين يقاتلون بالسيوف، ويطعنون بالرماح، مشاة وفرساناً، فإنْ صمد لهم العدو أو أحسّوا بالضعف نكصوا، ثم أعادوا تنظيمهم وكرّوا، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يُكتب لهم النصر أو الفشل. والقتال بأسلوب الصفوف، يكون بترتيب المقاتلين صفَّين أو ثلاثة صفوف أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء. وتبقى الصفوف في مواضعها بسيطرة قائدها، إلى أن يفقد زخم المهاجمين بالكرّ والفر شدّته... عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبةً للزحف على العدو. يظهر من ذلك أن أسلوب الصفوف يتميز على أسلوب الكرّ والفر بأنه يؤمّن ترتيب القوات بالعمق، فتبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان، كأن يصد هجوماً مضاداً للعدو، أو يضرب كميناً لم يتوقّعه، أو أن يحمي الأجنحة التي يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته، ثم يستثمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة. إنَّ أسلوب الصفوف يؤمّن السيطرة على القوة بكاملها، ويؤمّن احتياطاً للطوارىء، ويصلح للدفاع والهجوم في وقت واحد؛ أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة على قواته ولا يؤمّن له أي احتياط للطوارىء. إنَّ تطبيق الرسول «صلى الله عليه وسلم» لأسلوب الصفوف في معركة بدر، عاملٌ مهم من عوامل انتصاره على المشركين؛ والتاريخ العسكري يحدثنا بأن سر انتصار القادة العظام كالإسكندر وهنيبال قديماً، ونابليون ومولتكه ورومل ورونشتد [١] حديثاً، هو أنهم طبقوا أسلوباً جديداً في القتال غير معروف، أو قاتلوا بأسلحة جديدة غير معروفة)[٢].

١. هنيبال أو حنا بعل (ت١٨٢ ق.م) قائد عسكري فينيقي قرطاجي (جزء من تونس حالياً).. هيلموت فون مولتكه (ت ١٨٩١) رئيس أركان الجيش البروسي.. إرفين رومل (ت١٩٤٤) من كبار قادة هتلر ويلقب بثعلب الصحراء.. كارل رودلف غيرد فون رونتشتيد (ت١٩٥٣) قائد القوات الألمانية في الجبهة الغربية أبان الحرب العالمية الثانية.

٢. خطاب: الرسول القائد، ص ١٠٥.

وأخذ النبي «صلى الله عليه وآله» يستعرض أصحابه قبل القتال، فعندما رآهم يتزاحمون ويدنو بعضهم من بعض جعلهم صفوفاً، وأخذ يقيمها بدقّة، وفي الخبر أنه: (**كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يسوّي الصفوف يومئذ وكأنما يُقوِّم بها القِداح**[1])[2].

وفي تلك الأثناء تقدم سواد بن غَزيَّة أمام الصف، فدفع النبي «صلى الله عليه وسلم» بقِدح في بطنه، وقال له: (**استوِ يا سواد. فقال له سواد: أوجعتني، والذي بعثك بالحق نبياً، أقِدْني**[3]. **فكشف رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن بطنه ثم قال: استقِد**). لم يتمالك سوادُ نفسَه في تلك اللحظة وإذا به يعتنق النبي ويقبّله. فسأله النبي: (**ما حملك على ما صنعت؟ فقال: حضَر مِن أمر الله ما قد ترى، وخشيت القتل، فأردت أن يكون آخر عهدي بك أن أعتنقك**)[4].

إلا أن في البين رواية أخرى تتشابه مع هذه الرواية في بعض تفاصيلها، قيل: (**لما مرض النبي «عليه السلام» مرضه الذي توفي فيه، وذلك يوم السبت، أو يوم الأحد من صفر، أخذ بيد علي وتبعه جماعة من أصحابه وتوجَّه إلى البقيع، ثم قال: السلام عليكم أهل القبور، وليُهنئكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس، أقبَلَت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. إنَّ جبرئيل كان يعرض عليَّ القرآن كل سنة مرَّة، وقد عرضه عليَّ العامَ مرتين، ولا أراه إلا لحضور أجلي. ثم خرج يوم الأربعاء معصوب الرأس متكياً على عليٍّ بيمنى يديه، وعلى الفضل**[5] **باليد الأخرى فصعد**

سواد بن غزيّة النجاري الأنصاري. شهد بدراً والمشاهد بعدها. أمّره النبي على خيبر بعد فتحها. روي أنه جاء بتمر جيّد، فسأله النبي: (أ كُلُّ تمرِ خيبر هكذا؟ قال: لا والله يا رسول الله، إنا نشتري الصاع بالصاعين، والصاعين بثلاثة آصع مِن الجمع. فقال رسول الله: لا تفعل، ولكن بِعْ هذا، واشتر بثمنه من هذا). وهذا ما نصَّ عليه الفقهاء بأنه يمثّل نوعاً من الربا، حين يكون الثمن والمثمَن من جنس واحد، مع تفاضل أحد الطرفين من حيث الوزن أو الكيل مثلاً، كما فعل سواد حين اشترى صاعاً من التمر الجيد مقابل صاعين من التمر الردئ، فنهاه النبي عن ذلك، وبيّن له أن المعاملة الشرعية تقتضي أن يبيع الصاعين بثمن من جنس مختلف كالحنطة مثلاً، ثم يشتري التمر الجيد بتلك الحنطة ومن خلال معاملةٍ ثانية.

١. القداح: جمع قِدح، وهو قطعةٌ من الخشب تُعرّض قليلاً وتُسَوّى، وتكون في طول الفِتْر أو دونَه، وتُخَطُّ فيه حزوزٌ تميّزُ كل قِدْح بعددٍ من الحزوز، وكان يستعمل في المَيْسِر، وقد يكتب على القِدح: لا أو نعم، أو يُغْفل لِيُقْرَعَ به ويُستقْسَم.

٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٩٩.

٣. أي أن يطلب القصاص من النبي لتألمه.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٧.

٥. أي الفضل بن العباس بن عبدالمطلب.

المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنه قد حان مني خُقوق [1] من بين أظهركم، فمن كانت له عندي عدة فليأتني أعطه إياها، ومن كان له عليَّ دَيْن فليخبرني به. فقام رجل فقال: يا رسول الله، إنَّ لي عندك عدة. إني تزوجت فوعدتني أن تعطيني ثلاثة أواقي، فقال إيماءً: انحلها يا فضل، ثم نزل. فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر فخطب ثم قال: معاشر أصحابي، أيُّ نبيٍّ كنت لكم؟ ألم أجاهد بين أظهركم؟ ألم تُكسر رُباعيتي؟ ألم يُعفَّر جبيني؟ ألم تسل الدماء على حر وجهي؟ ألم أكابد الشدة والجَهد مع جهّال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ فقالوا: بلى يا رسول الله. قال: إنَّ ربي حكَم وأقسم ألا يجوزه ظلم ظالم، فأنشدكم الله، أيّ رجل كانت له قِبَل محمد مظلمة إلا قام. فالقصاص في دار الدنيا أحب إليَّ من القصاص في دارالآخرة على رؤس الملائكة والأنبياء. فقام إليه رجل يقال له سوادة بن قيس فقال:إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتُك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق، فرفعتَ القضيب وأنت تريد الراحلة، فأصاب بطني، فقال «صلى الله عليه وآله» لبلال: قم إلى منزل فاطمة فأتني بالقضيب الممشوق. فلما مضى إليها سألت فاطمة: وما يريد به؟قال: أما علمتِ أنه يودِّعُ أهل الدين والدنيا؟ فصاحت وهي تقول: وا غمّاه لغمِّك يا أبتاه. فلما ورد إليه قال: أين الشيخ؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: فاقتصّ حتى ترضى. فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك، ثم قال:أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله، فقال: اللهم اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفى عن نبيك محمد)[2].

وسواء أصحَّت الرواية الأولى أم الثانية فتبقى الدلالة واحدة، حيث تتجلى عظمة أخلاق نبي الرحمة «صلى الله عليه وآله» وهو في موقع القائد الأعلى بعد الهجرة، كما تتجلى وهو في مكة يعيش الظروف القاهرة والتحديات الكبرى، فما يحدِّد معالم شخصية الإنسان وتصرفاته هو إيمانه العميق، وأخلاقه النابعة من الفطرة، وإحساسه بالرقابة الإلهية الدائمة، وقد قال «صلى الله عليه وآله» في ما روي عنه: **(ثلاث خصال مَن كُنَّ فيه استكمل خصال الإيمان: إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يُخرجه الغضب مِن الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له)[3].**

كما أن من دلالات الحدث السابق أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» ـ من موقعه كحاكم ـ بيّن أن من مسؤوليات القائد أن يشجّع الناس على نقده ومصارحته ومطالبته بالالتزام بمنهج العدل في الحكم، ولو مسَّ الأمر شخصَه أو أقرب الناس إليه، فليس هناك أحد فوق النقد.

---

١. خفوق: اضطراب، يقال: خفَق القلبُ: اضطرب وتحرّك زادت ضرباته لانفعال أو جهد.

٢. ابن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب، ج١، ص ٢٠٢-٢٠٣.

٣. البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص ٤٧٥.

وأن على الحاكم ـ وكل مَن بيده سلطة وقوة ـ أن يتذكّر أن دوام الحال من المحال، وأن الدوائر ستدور على الظالم في يوم ما، وأن عقوبة الظالم في الآخرة شديدة، و أن يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، وأن الظلم ظلمات يوم القيامة.

* النبي يخطب في أصحابه:

بعد أن صفَّ النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه خطب فيهم خطبةً حثّهم فيها على الصبر والقتال والبشرى بالنصر: (**فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني أحثّكم على ما حثّكم الله عليه، و أنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإنَّ الله عظيم شأنُه يأمر بالحق و يُحب الصدق و يُعطي على الخير أهلَه، على منازلهم عنده، به يذكرون و به يتفاضلون، و إنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، و إن الصبر في البأس مما يفرج الله به الهم، و يُنجي به من الغم، تُدركون به النجاة في الآخرة. فيكم نبي الله يحذّركم و يأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطَّلعَ الله على شيء من أمرِكم يمقتُكم عليه، فإنه «تعالى» يقول: ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾**[1] **انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وما أعزّكم به بعد الذلة، فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإنَّ وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، و إنما أنا و أنتم بالله الحي القيوم. إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لي و للمسلمين**)[2].

* دعاء النبي:

ولما شاهد النبي «صلى الله عليه وآله» قوات المشركين وقد نظمت صفوفها دعا الله قائلاً: (**اللهم إنك أنزلتَ عليَّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تُخلف الميعاد. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادّك، وتكذِّب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني. اللهم أحنهم الغداة**[3]**)**[4].

وفي خبر آخر أنّ النبي «صلى الله عليه وآله» ما زال يهتف ويدعو مادّاً يديه وهو يستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه من منكبيه، فنزل الملَك جبريل «عليه السلام» بقوله «تعالى»: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[5].

---

١. سورة غافر: ١٠.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٠-١٢١.
٣. أي اصرفهم في هذه الصبيحة مهزومين خائبين.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٥٩.
٥. سورة الأنفال: ٩.

❊ نزول الملائكة:

ولنتوقف عند آيات نزول الملائكة في ذلك اليوم كما أخبر عنه القرآن الكريم، قال «تعالى»: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1].

فهل كان نزولهم للقتال كما صوّرته بعض الروايات المبثوثة في كتب المسلمين حتي أنها قدّمت تفاصيل تصويرية لكيفية نزولهم وهيئاتهم وألبستهم وأسماء المشركين الذين قُتلوا بأيديهم وغير ذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلم كل هذا العدد في مقابل ألف من المشركين مع فارق القوة بين المَلَك والإنسان والذي يصب لصالح الطرف الأول؟ أم كان النزول لبث الطمأنينة الروحية في نفوس المسلمين، وللمساعدة الغيبية من خلال بث الرعب في قلوب المشركين وأمثال ذلك مما لا يُعتبَر تدخلاً مباشراً في القتال؟

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: (**تلائم الآية ما في قوله «تعالى» في ما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ، بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾**[2] **فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين، نزول ألف منهم يستتبعون آخرين، فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين**)[3].

وقال العلامة فضل الله في تفسيره: (**وكانت هذه الاستجابة الإلهية مصدر قوّةٍ روحية كبيرة، في ما أثارته في نفوسهم حركة الملائكة في المعركة بما كانوا يحملونه في أفكارهم عن القوّة الغيبيّة التي يتمتع بها هؤلاء. ولكن الملائكة الذين أنزلهم الله إلى ساحة المعركة، لم تكن مهمتهم قتاليّةً، لأن الله لم يرد للمسلمين أن يستسلموا للاسترخاء، على أساس الاعتقاد بأن الملائكة جاءت لتقاتل بالنيابة عنهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كانت هناك حاجةٌ ملحّةٌ لأيّة معركة وأيّ قتال، لأن القوة الغيبيّة كفيلةٌ بتصفية جميع الأعداء، بل كانت مهمتهم تطمينيةً نفسية، وهذا ما عبّرت عنه الآية ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ ليزيل من نفوسهم كل شعورٍ**

١. سورة الأنفال: ٩-١٢.

٢. سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص ٢٠.

بالقلق والخوف والاهتزاز، ليندفعوا إلى المعركة بقوّة وثباتٍ، ليعطوا كل طاقاتهم للقتال في إحساسٍ عميق بأنهم لا يصنعون النصر عندما يصنعونه بقوتهم الذاتية، كما لا يصنعه الملائكة ـ لو صنعوه ـ بل هو من عند الله، من خلال ما تتحرك به ألطافه وتفيض به رحمته من أسباب النصر، لأن الأمور كلها بيده، في آفاق الغيب، وفي آفاق الواقع)[1].

وعليه فلا يُركن إلى الروايات التي تُخبِر عن أن الملائكة ظهرت عياناً من قبيل ما روي عن عبد الله بن الزبير: **(أنّ الزبير كانت عليه مُلاءة صفراء يوم بدر، فاعتم بها، فنزلت الملائكة يوم بدر على نبيّ الله «صلى الله عليه وسلم» معمّمين بعمائم صُفر)**[2]. وعن مولى لسهيل بن عمرو قال: **(سمعت سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بُلق**[3] **بين السماء والأرض، مُعلِمين، يقتلون ويأسرون)**[4]. وعن أبي أسيد بن مالك بن ربيعة وكان ممن شهد بدراً: **(لو كنتُ معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكة، لا أشكّ ولا أمتري)**[5].

وجنحت مخيلة بعضهم بعيداً جداً، حتى رووا عن رجل من بني غفار أنه قال: **(أقبلتُ وابن عم لي يوم بدر حتى صعدنا على جبل ونحن مشركان، ونحن على إحدى عجمتي بدر ـ العجمة الشامية العجمة من رمل ـ ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة فننتهب مع من ينتهب، إذ رأيت سحابة دنت منا، فسمعت فيها حمحمة الخيل، وقعقعة اللجم والحديد، وسمعت قائلاً يقول: أقدِم حيزوم! فأما ابن عمي فانكشف قناعُ قلبه فمات، وأما أنا فكدت أهلك، فتماسكت وأتّبعتُ البصر حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه، ثم رجعت وليس فيها شيء مما كنت أسمع)**[6].

ثم يكملون القصة بقولهم: **(سأل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جبريل: مَن القائل يوم بدر من الملائكة: أقدِم حيزوم؟ فقال جبريل: يا محمد، ما كل أهل السماء أعرف)**[7].

وهكذا يروون عن اشتراك الملائكة في القتال، فعن بردة قال: **(جئت يوم بدر بثلاثة أرؤس، فوضعتهن بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقلت: أمّا رأسان فقتلتهما، وأما الثالث فلم أقتله. فقال له النبي «صلى الله عليه وسلم» حين ذاك: قتلته الملائكة)**[8].

١. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيات ٩-١٤ من سورة الأنفال.
٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ح ٧٧٩٠.
٣. بلق: جمع أبلق، وهو ما كان في لونه سواد وبياض.
٤. ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٤٩.
٥. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج ٤، ص ١٨٢.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٦-٧٧.
٧. ن. م. ص٧٧.
٨. محمد سالم: بدر الكبرى، ج١، ص٣٨.

السّائَبُ بن أبي حُبَيْش ابن المطلب بن أسَد بن عبد العُزّى ابن قصي بن كلاب. أسلم في فتح مكة، ومات على عهد معاوية.

ثم نسبوا إلى بعضهم المشاركة في أسر المشركين، فقد قيل: (**كان السائب ابن أبي حبيش الأسدي يُحدِّث في زمن عمر بن الخطاب يقول: والله ما أسَرَني أحدٌ من الناس. فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزَمت قريش انهزمتُ معها، فيدركني رجل أبيض طويل على فرس أبلق بين السماء والأرض فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادي في المعسكر: مَن أسر هذا؟ فليس أحدٌ يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال لي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يا ابن أبي حبيش، مَن أسرك؟ فقلت: لا أعرف. وكرِهتُ أن أخبرَه بالذي رأيت، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أسَرَه ملك من الملائكة كريم. اذهب يا ابن عوف بأسيرك. فذهب بي عبد الرحمن. فقال السائب: فما زالت تلك الكلمة أحفظها، وتأخَّر إسلامي حتى كان ما كان من إسلامي**)[1]. وكلها مجرد قصص من خيال الرواة ليس لها من الواقع نصيب.

❊ محاولة سلمية:

وتذكر بعض الأخبار أن النبي «صلى الله عليه وآله» حاول أن يثني المشركين عن عزمهم على القتال، ولذا أرسل إليهم عمر بن الخطاب قائلاً: (**ارجعوا، فلأن يلي هذا الأمر منّي غيركم أحبّ إليّ مِن أن تلوه مني، وأن أليَه مِن غيركم أحبّ إليّ مِن أنْ أليَه منكم**). واختلف المشركون في ما بينهم، فقال حكيم بن حزام: (**قد عرَض نَصَفاً، فلبُّوه. و الله لا تُنصرون عليه بعدَ أنْ عرَض عليكم مِن النَّصَف ما عرض**). بينما قال أبوجهل: (**لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم، ولا نطلب أثراً بعد عَين، ولا يعرض لعيرنا بعد هذا أبداً**). واستقر رأيهم على المواجهة.

❊ استقاء من الحوض:

وبين أيدينا خبر قد يبدو متعارضاً للوهلة الأولى مع ما ذكرناه آنفاً عند المقارنة بين أوضاع الطرفين من حيث خصائص الموقع، فقد رُوي أن نفراً من المشركين قدموا ناحية معسكر المسلمين ـ قبيل وقوع القتال ـ للاستقاء من حوض الماء، ومعهم حكيم بن حزام، فأراد المسلمون منعهم وطردَهم، إلا أن النبي «صلى الله عليه وآله» نهاهم عن ذلك آمراً بالسماح لأولئك النفر من المشركين بالشرب من الماء.

فلماذا يلجأ المشركون إلى الشرب من حوض الماء المتجمع من المطر، بينما كان البئر في متناول أيديهم؟ والجواب عن ذلك ـ إن صححنا الخبر ـ أن البئر لربما طُمر بفعل السيل الحاصل من المطر المنهمر في تلك الليلة، مما أرغمهم على اللجوء إلى الحوض الذي أعدّه المسلمون لاحتياجاتهم.

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٩-٨٠

* تخذيل المشركين:

ولكن يبدو أن هؤلاء النفر من المشركين لم يكتفوا بالشرب من الماء، بل جعلوا من اقترابهم من معسكر المسلمين فرصة للاستكشاف، حيث أرسلوا عُمَيْر بن وهب الجُمَحِي، ولما رجع قال: (**لا مدد و لا كمين و القوم ثلاثمائة إن زادوا قليلاً، و معهم سبعون بعيراً و معهم فرسان**)، ولكنه حذّرهم من بأسهم قائلاً: (**يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. ألا ترونهم خُرساً لا يتكلمون، يتلمّظون تلمّظ الأفاعي؟ والله ما أرى أن يُقتل منهم رجل حتى يَقتل رجلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير في العيش بعد ذلك. فروا رأيكم**). وقيل أنه ذهب في حادثة منفصلة عن شرب الماء من الحوض، وأنه لما أخبرهم بذلك أرادوا التأكد، فأرسلوا أبا أسامة الجشمي ـ وكان فارساً ـ فأطاف بمعسكر المسلمين ثم رجع إليهم، فقالوا له: (**ما رأيت؟ قال: والله ما رأيت جَلَداً ولا عدداً ولا حلقةً و لا كراعاً، و لكني والله رأيتُ قوماً لا يريدون أن يردوا إلى أهليهم، رأيت قوماً مستميتين ليست معهم منَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زُرق العيون**[1] **كأنهم الحصا تحت الحجف. ثم قال: أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد**) فاتجه أبو أسامة نحو الوادي، ثم صعد، ثم رجع إليهم فقال: (**لا كمين ولا مدد. فروا رأيكم**)[2].

جاء التحذير السابق بمثابة الشرارة التي أوقعت النزاع بين بعض قادة قريش وفي اللحظات الحاسمة، إذ لما سمع حكيم بن حزام ما قال عمير بن وهب أتى عتبة بن ربيعة فقال: (**يا أبا الوليد، أنت كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك ألا تزال تُذكَر فيها بخير آخر الدهر، مع ما فعلت يوم عكاظ**[3] ـ **وعتبة يومئذ رئيس الناس ـ فقال: و ما ذاك يا أبا خالد؟ قال: ترجع بالناس وتحمل دم حليفك وما أصابه محمد من تلك العير ببطن نخلة. إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدم والعير. فقال: عتبة قد فعلت، و أنت عليّ بذلك**).

ثم جلس عتبة على جمله فسار في المشركين من قريش يقول: (**يا قوم، أطيعوني ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، و اعصبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جُبنها فيّ، فإن منهم رجالاً قرابتهم قريبة، ولا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينكم شحناء وأضغاناً، و لن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم، مع أنه لا آمن أن تكون الدائرة عليكم، وأنتم لا تطلبون إلا دم القتيل منكم، والعير التي أصيبت، وأنا**

---

١. لربما كناية عن شدة العداوة؛ لأن زرقة العيون غالبة على الروم، وكان بينهم وبين العرب عداوة شديدة، أو بمعنى تصلب الحدقة بلحاظ التشبيه بالحصا إذ أمرهم النبي أن ينظروا باتجاه المشركين وأن لا يتلفّتوا، أو بمعنى انقلاب العين حتى أصبحت بيضاء، كناية عن الشدة.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٣-١٢٤.

٣. يشير بذلك إلى حرب الفجار التي وقعت بين قريش ومن معها من كنانة من جهة ، وقيس عيلان وأحلافها من جهة، ووقعت الحرب بين الطرفين حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذ إلى الصلح فاصطلحوا.

أحتمل ذلك، وهو عليَّ. يا قوم، إن يكُ محمدٌ كاذباً يكفيكموه ذؤبان العرب، و إن يكُ ملكاً، كنتم في ملك ابن أخيكم، و إن يكُ نبياً كنتم أسعد الناس به. يا قوم، لا تردوا نصيحتي و لا تسفِّهوا رأيي)[1].

فمال إليه البعض، وعارضه في ذلك أبوجهل، متّهماً إياه بالجبن، وتسابّا، ثم استعان أبوجهل بعامر بن الحضرمي أخي المقتول بغزوة نخلة، فقام عامر وكشف عن رأسه ثم حثا عليها التراب وصرخ منادياً باسم أخيه مطالباً بالثأر لدمه، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، وحلف عامر لا يرجع حتى يقتل من أصحاب محمد. ثم طلب أبو جهل من عمير بن وهب أن يتوجّه إلى معسكر المسلمين مهاجماً لعله يثيرهم للبدء بالقتال، فثبت المسلمون على صفّهم ولم يزولوا، وتقدم عامر بن الحضرمي، فشدّ على المسلمين مهاجماً وهو فارس، فكان أول من خرج إليه مَهجع مولى عمر، فقتله عامر بسهم.

مهجع بن صالح العكّي اليماني، سُبي واشتراه عمر بن الخطاب بمكة ثم أعتقه. يعد أول شهيد ببدر.

ومن غريب ما روي في المقام أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد أن صفّ الصفوف للقتال دخل العريش: **(فاضطجع فغشيه النوم، وقال: لا تقاتلوا حتى أوذنكم، وإن كثبوكم فارموهم ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم. قال أبو بكر «رضي الله عنه»: يا رسول الله، قد دنا القوم وقد نالوا منا. فاستيقظ رسول الله)**[2]! فهل يُعقل أن يتصرف النبي الحكيم والحريص على أصحابه وتحقيق النصر في قتال المشركين بتلك الصورة وفي تلك اللحظات الحاسمة؟ وأي قائد جيش يمكنه أن يتصرف بهذه الصورة الغريبة؟

* شعار المسلمين:

عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: **(وشعارنا يوم بدر: يا نصر الله اقترب اقترب)**[3].

بينما روي عن زيد بن علي، قال: **(كان شِعار رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم بدر: يا منصورُ أمِت)**[4].

وعن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: **(جعل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» شعار المهاجرين يوم بدر: عبد الرحمن، والأوس: بني عبد الله، والخزرج: بني عبيد الله)**. قال الحاكم: **(هذا حديث غريب صحيح الإسناد ولم يخرجاه)**[5].

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٤-١٢٥.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٤.
٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٩، ص ١٦٣.
٤. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ح٦٨٥.
٥. النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٢٥٥٦.

وقد ذكر محمود شيت خطّاب في كتابه «الرسول القائد» أن النبي «صلى الله عليه وآله» وضع كلمة للتعارف بين المسلمين في ما لو تلاحم الطرفان، كي لا يقتل بعضهم بعضاً، وكانت: (**أحَد أحَد**)[١].

❊ أربعة أبطال:

كان من عادة العرب في القتال أن يُعلِم أبطالُهم بطريقةٍ ما ليمتازوا عن سواهم، كنوع من إظهار القوة ودعوة الأكفاء لقتالهم، و كان (**أربعة من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يُعلِمون في الزحوف: حمزة بن عبدالمطلب مُعلم يوم بدر بريشة نعامة، وكان علي «عليه السلام» مُعلماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير مُعلماً بعصابة صفراء... وكان أبو دجانة يُعلم بعصابة حمراء**)[٢].

❊ وصية نبوية:

أوصى النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه بعدم البدء بالقتال، والحفاظ على صفوفهم المتراصة، وقد روى خفاف بن إيماء بقوله: (**فرأيت أصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» يوم بدر وقد تصاف الناس وتزاحفوا وهم لا يسلّون السيوف ولكنهم قد انتضوا القسيّ** [٣] **وقد تترَّس بعضهم عن بعض بصفوف متقاربة لا فُرَج بينها، والآخرون قد سلوا السيوف حين طلعوا، فعجبت من ذلك، فسألت بعد ذلك رجلاً من المهاجرين فقال: أمرنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ألا نسلَّ السيوف حتى يغشونا**)[٤].

خفاف بن إيماء الغفاري، كان أبوه سيد بني غفار. شهد صلح الحديبية وبايع بيعة الرضوان. كان يؤم قومه وهو خطيبهم.

❊ موقف أخلاقي:

من جملة ما أوصى به النبي «صلى الله عليه وآله» عدم قتل أبي البختري العاص بن هشام، ابن ابن عم السيدة خديجة، الذي على الرغم من كونه من زعماء قريش، إلا أنه لم يرتضِ إلحاق الأذى بالنبي، وجعله ذات مرة في جواره وقد لبس السلاح بعد ما كان بلغ من النبي «صلى الله عليه وآله» من الأذى ما بلغ، وقال: (**لا يَعترِض اليوم أحدٌ لمحمد بأذى إلا وضعْتُ فيه السلاح**)[٥].

ويضاف إلى ذلك أنه كان من جملة الذين نقضوا الصحيفة التي قاطع بها مشركو مكة بني هاشم إبان

١. خطاب: الرسول القائد، ج١، ص ١١١.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٦.
٣. انتضى القوس: جذب وتره.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٧.
٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص ٣٤٨، في الهامش.

الحصار الممتد من السنة السابعة إلى العاشرة قبل الهجرة. ولذا نهى النبي عن قتله، عرفاناً لجميله، وإن كان الرجل قد قُتل لاحقاً على يد أحد المسلمين حين قاوم ورفض الاستسلام، حيث تذكر الرواية أن الصحابي المجذّر بن زياد لما واجهه في المعركة أخبره بوصية النبي، فقال أبوالبختري: (وزميلي؟) أي جنادة بن مليحة الذي رافقه من مكة، فقال المجذّر: (**لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرَنا رسول الله إلا بك وحدك. قال: لا والله إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً. لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة**). وهكذا قتله الصحابي وجاء إلى النبي «صلى الله عليه وآله» معتذراً قائلاً: (**والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلاّ أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته**)[1].

المجذّر ـ واسمه عبدالله ـ بن زياد البلوي حليف الأنصار. قتل المجذرُ سويدَ بن الصامت في الجاهلية، فهيّج قتلُه وقعةَ بُعاث. ثم أسلم المجذر بن زياد، كما أسلم الحارث ابن سويد المقتول. وتحين الحارث الفرصة في غزوةأحد، فاغتال المجذر. ولما علم النبي بالأمر أمر بقتل الحارث قصاصاً.

وفي خبر آخر أن أبا داود المازني قال: (**فلحقتُه يوم بدر فقلت له: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد نهى عن قتلك إن أعطيت بيدك، قال: وما تريد إليّ إن كان قد نهى عن قتلي؟ فقد كنتُ أبليته ذلك، فأما أن أعطي بيدي فو اللات والعزّى لقد علِمَت نسوةٌ بمكة أني لا أعطي بيدي، و قد عرفتُ أنك لا تدعني، فافعل الذي تريد. فرماه أبو داود بسهم وقال: اللهم سهمك وأبو البختري عبدك، فضعه في مقتله. و أبو البختري دارع، ففتق السهم الدرع فقتله**)[2].

أبو داود عمرو أو عمير بن عامر المازني الخزرجي، شهد غزوتي بدر وأحد، ولم يشهد بيعة العقبة حيث وصل متأخراً، فبايع أسعد بن زرارة وكان رأس النقباء ليلة العقبة.

* المبارزة:

زحف المشركون على جيش المسلمين، وقال الأسود بن عبدالأسد المخزومي وقد دنا من حوض الماء: (**أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه**)[3] فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، حتى إذا التقيا ضربه حمزة فأطنَّ قدمَه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبرّ يمينه، وأتْبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص ٣٤٨-٣٤٩.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٣٣.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦٢٥.

مع دنو المشركين بأجمعهم من جيش المسلمين، خرج عُتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة منفصلين عن صفوف المشركين، ثم دعوا إلى المبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، وهم بنو عفراء معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث، وروي أن ثالثهم عبدالله بن رواحة، (**فاستحى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من ذلك، وكره أن يكون أول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الأنصار، و أحب أن تكون الشوكة لبني عمه وقومه، فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيراً**)[1]. ولعله لم يجد فيهم الكفاءة للمبارزة، فلو قُتلوا ستكون النتيجة دافعاً معنوياً قوياً للمشركين، وهذا ما لا يريده أي قائد جيش. وفي خبر آخر أنه لما خرج الأنصار إليهم لم يردّهم النبي، بل قال لهم المبارزون المشركون: (**من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة**)[2].

وتبعاً للخبر الأول فقد نادى منادي المشركين بعد أن أرجع النبي الأنصار قائلاً: (**يا محمد، أخرج إلينا الأكفاء من قومنا. فقال لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله. فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف، فمشوا إليهم، فقال عتبة: تكلّموا نعرفكم ـ وكان عليهم البيض[3] فأنكروهم ـ فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم. فقال حمزة: أنا حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله. فقال عتبة: كفء كريم. وأنا أسد الحلفاء. مَن هذان معك؟ قال: علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب. فقال: كفآن كريمان. ثم قال عتبة لابنه: قم يا وليد. فقام الوليد، وقام إليه علي، وكانا أصغر النفر، فاختلفا ضربتين، فقتله علي بن أبي طالب «عليه السلام». ثم قام عتبة وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين، فقتله حمزة «رضي الله عنه» . ثم قام شيبة و قام إليه عبيدة وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فضرب شيبة رِجل عبيدة بذباب السيف[4]، فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرّ حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة، فحازاه إلى الصف، ومخ ساقه يسيل. فقال عبيدة: يا رسول الله، ألستُ شهيداً؟ قال: بلى. قال: أما والله لو كان أبو طالب حياً لعلم أني أحق بما قال حين يقول:**

كذبتم وبيتِ الله نخلي محمدا ... ولمّا نطاعن دونه ونناضل

وننصره حتى نُصرع حوله ... ونُذهل عن أبنائنا والحلائل

و نزلت فيهم هذه الآية: ﴿هذانِ خَصْمانِ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾)[5].

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٨.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٦٢٦.
٣. البيض: جمع بيضة وهي الخوذة العسكرية.
٤. ذباب السيف: حد طرفه الذي بين شفرتيه.
٥. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٢٩-١٣٠. والآية من سورة الحج: ١٥.

وقد توزع المتبارزون بحسب الأعمار، فشيبة من جهة المشركين أكبرهم، وعتبة الأوسط، ثم الوليد. وهكذا كان عبيدة أكبر الثلاثة من جهة المسلمين، وحمزة الأوسط ثم الإمام علي.

ولابن أبي الحديد التفاتة هنا حيث علّق على الخبر السابق مبيّناً وجود نص آخر يختلف في تحديد ترتيب المتبارزين، قال: (**وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارز عبيدة بن الحارث، و أن شيبة بارز حمزة بن عبد المطلب، فقتل حمزة شيبة لم يمهله أن قتله، ولم يُمهل عليٌّ الوليدَ أن قتلَه، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبتَ صاحبَه، وكرَّ حمزةُ وعلي «عليه السلام» على عتبة بأسيافهما حتى وقعا عليه، و احتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف. قلت: وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين «عليه السلام» في كلامه إذ يقول لمعاوية: وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وخالك وجدّك**[1] **يوم بدر. و يقول في موضع آخر: قد عرفتَ مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك، وما هي من الظالمين ببعيد**)، وبعد أن استعرض أدلة تؤيد الخبر الأول قال: (**والأمر عندي مشتبه في هذا الموضع**)[2].

ثم إن في القلب شيء من هذا الخبر المؤكَّد حول خروج عتبة بن ربيعة للمبارزة وتعارضه بنحو من التعارض مع بعض الأخبار السابقة التي تحكي أن عتبة كان رافضاً للقتال أو متردداً فيه، فقد يقال: كيف نوفّق بينها وبين خروجه للمبارزة ـ مع أخيه وابنه ـ من دون سائر المشركين؟ والمنطق يقول أن الأجدر بالخروج والمبارزة هم من كانوا متحمسين للقتال. وبما أن خبر المبارزة لا خلاف عليه، فالشك حينئذ يتوجّه إلى سائر الأخبار التي تنقل صورة التردد عند عتبة، والله أعلم بحقيقة الحال.

* مقتل عاصم السهمي:

بعد المبارزة ومقتل المشركين الثلاثة، دخل الوهن عليهم بأشد مما كانوا عليه من الهزيمة النفسية، ثم تشابَك الطرفان، وفي الأثناء ظهر عاصم بن أبي عوف السهمي يحرّض على قتل النبي «صلى الله عليه وآله» قائلاً: (**يا معشر قريش، عليكم بالقاطع، مفرّق الجماعة، الآتي بما لا يُعرف، محمد! لا نجوت إن نجا**). واعترضه أبو دجانة سماك الأنصاري، فاختلفا ضربتين وضربه أبو دجانة فقتله، ووقف على سبله يسلبه، فمرَّ عمر بن الخطاب وهو على تلك الحال، فقال: (**دع سلبَه حتى يجهض العدو، وأنا أشهد لك به، ويُقبل معبد بن وهب، فضرب أبا دجانة ضربة، برك أبو دجانة كما يبرك الجمل، ثم انتهض، وأقبل عليه أبو دجانة فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئاً، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها، وبرك عليه أبو دجانة، فذبحه ذبحاً، وأخذ سلبه**)[3].

١. أما الأخ فهو حنظلة بن أبي سفيان، وأما الخال فالوليد بن عتبة، وأما الجد فعتبة بن ربيعة.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٣١-١٣٢.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣١.

* مقتل أبي جهل:

لما شاهدت بنو مخزوم ما جرى لعتبة وشيبة ابني ربيعة التفّوا حول سيدهم أبي جهل في محاولة للدفاع عنه، فكانوا حوله مثل الشجر الملتف، إمعاناً في حمايته، بل إنهم ألبسوا رجلاً منهم اسمه عبدالله بن المنذر لأمة أبي جهل بهدف تضليل المهاجمين: (فصمد له علي «عليه السلام» فقتله وهو يراه أبا جهل، ومضى عنه وهو يقول: خذها وأنا من بني عبد المطلب! ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، فصمد له حمزة وهو يراه أبا جهل فضربه فقتله، وهويقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب! ثم ألبسوها حرملة بن عمرو، فصمد له علي «عليه السلام» فقتله، وأبو جهل في أصحابه. ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم، فأبى أن يلبسها يومئذ. فقال معاذ بن عمرو ابن الجموح: نظرت إلى أبي جهل في مثل الحرجة، وهم يقولون: أبو الحكم، لا يخلص إليه! فعرفت أنه هو، فقلت: والله لأموتن دونه اليوم أو لأخلصن إليه! فصمدت له حتى إذا أمكنتني منه غرّة حملتُ عليه، فضربته ضربة وطرحت رجله من الساق، فشبهتها بالنواة تنزو من تحت المراضخ [1]. ثم أقبل ابنه عكرمة عليَّ، فضربني على عاتقي، وطرح يدي من العاتق، إلا أنه قد بقيت جلدة، فإني أسحب يدي بجلدة من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها رجلي، فتمطيت عليها حتى قطعتها. ثم لاقيت عكرمة وهو يلوذ كل ملاذ، فلو كانت يدي معي لرجوت يومئذ أن أصيبه)[2].

بقي أبوجهل حياً على الرغم من الإصابة الشديدة التي لحقت به، حتى إذا انتهت المعركة لاحقاً أمر النبي «صلى الله عليه وآله» أن يُبحَث عنه، قال ابن مسعود: (فوجدته في آخر رمقٍ، فوضعت رجلي على عنقه فقلت: الحمد لله الذي أخزاك! قال: إنما أخزى الله عبد ابن أم عبد! لقد ارتقيتَ مرتقي صعباً يا رويعي الغنم، لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله. قال ابن مسعود: فأقتلع بيضته عن قفاه، فقلت: إني قاتلك يا أبا جهل! قال: لست بأول عبد قتل سيده! أما إن أشد ما لقيته اليوم في نفسي لقتلك إياي، ألا يكون ولي قتلي رجلٌ من الأحلاف أو من المطيّبين! فضربه عبد الله ضربة، ووقع رأسه بين يديه، ثم سلبه.... وأقبل بسلاحه، ودرعه، وبيضته، فوضعها بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: أبشِر، يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل! فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أحقاً، يا عبد الله؟ فو الذي

في حلف الفضول على إثر حرب الفجار انقسمت قريش إلى قسمين، فشكّل بنو عبدمناف وحلفاؤهم «المطيبين» لأنهم وضعوا أيديهم في الطيب وتحالفوا على النصرة، ووضع بنو عبدالدار وحلفاؤهم أيديهم في الدم، وعُرفوا باسم الأحلاف.

١. المراضخ: جمع مِرضَخة، حجر يُرْضَخ ويُطحَن به النوى.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣١.

نفسي بيده، لهو أحب إليّ من حُمر النِّعَم[1]**، أو كما قال)**. فرِح رسول الله بِقتلِ أبي جهل، وقال: **(اللهم، قد أنجزت ما وعدتني، فتمِّم عليَّ نعمتك!)**[2]. وهذه إحدى روايات قتل عدو الله، وفي البين روايات أخرى تنسب قتله إلى رجال آخرين، ويبدو أن فخر قتل عدو الله جعل الرواة يختلفون في نسبة ذلك لهذا الصحابي أو ذاك.

❊ غضب أبي سلمة:

قيل أن أبا سلمة كان عند النبي حين قدِم عليه ابن مسعود مستبشراً بقتل أبي جهل المخزومي، فغضب أبوسلمة وأخذته حميّة جاهلية وأقبل على ابن مسعود وقال: **(أنت قتلتَه؟ قال: نعم، الله قتله. قال أبو سلمة: أنت وليت قتله؟ قال: نعم. قال: لو شاء لجعلك في كُمّه. فقال ابن مسعود: فقد والله قتلته وجرّدته. فقال: أبوسلمة: فما علامته؟ قال: شامة سوداء ببطن فخذه اليمنى. فعرف أبو سلمة النعت فقال: أ جرّدته ولم يُجرِّد قرشي غيره؟ فقال ابن مسعود: إنه و الله لم يكن في قريش ولا في حلفائها أحد أعدى لله ولا لرسوله منه، وما أعتذر من شيء صنعته به. فأمسك أبوسلمة)**. قال الواقدي: **(سُمع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل)**[3].

أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي، ابن عمة النبي برة بنت عبدالمطلب، وأخوه من الرضاعة. هاجر إلى الحبشة، ثم عاد مع عثمان بن مظعون إلى مكة فأجاره أبوطالب. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد غزوتي بدر وأحد ثم توفي متأثراً بجراحه سنة ٣ هـ.

❊ مقتل نوفل بن خويلد:

كان نوفل بن خويلد أخا السيدة خديجة، ومن فرسان قريش المعدودين، ويلقب بأسد قريش، وكانت قريش تقدّمه وتعظمه وتطيعه، وكان شديد الأذى على المسلمين، ولذا دعا النبي «صلى الله عليه وآله» في بدر قائلاً: **(اللهم اكفني نوفل بن خويلد)**. وأقبل نوفل يومئذ وهو مرعوب قد رأى قتل أصحابه، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون يصيح بصوت مرتفع: **(يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة)**. فلما رأى قريشاً قد انكسرت جعل يصيح بالأنصار: **(ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟ أما لكم في اللبن من حاجة؟)**.

فأسره جبار بن صخر الأنصاري الخزرجي وساقه أمامه، وفي الأثناء شاهد علياً «عليه السلام» مقبلاً نحوه، فقال لجبار: **(يا أخا الأنصار، من هذا؟ واللات والعزى، إني لأرى رجلاً، إنه ليريدني. قال: هذا علي بن أبي طالب. قال: ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع في قومه منه**[4]**)**.

---

١. حمر النعم: نوع من الإبل الثمينة جداً.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٤١-١٤٢.
٤. أي أسرع في قتاله لقومه المشركين.

لم يتردد أمير المؤمنين «عليه السلام» في التوجه إلى هذا المشرك الذي دعا عليه النبي، قاصداً قتله، بعد أن فضّل بعض المسلمين أن يحتفظوا بعدد من الأسرى أملاً في الحصول على فديتهم، وهو ما سنعالجه لاحقاً بالتفصيل، وصمد له علي «عليه السلام» فضربه، فنشب سيفه في حجفته [١]، ثم نزعه فضرب ساقيه بينما كانت درعه مشمَّرة كاشفة عن الساقين، فقطعهما، ثم أجهز عليه فقتله. وقد سأل النبي «صلى الله عليه وآله» عمّن له علم بنوفل بن خويلد، فقال علي: (**أنا قتلتُه**). فكبَّر رسول الله وقال: (**الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه**)[٢].

❊ مقتل العاص بن سعيد:

سعيد بن العاص الأموي المولود سنة ٢ هـ، ولي الكوفة على عهد الخليفة عثمان قرابة ٥ سنوات، ولما وقعت الفتنة بين الإمام علي ومعاوية اعتزل بمكة، ثم ولاه معاوية سنة ٤٢ هـ المدينة لأكثر من مرة، مناوبةً بينه وبين مروان بن الحكم. قيل بأنه كفَّ عن سب الإمام علي على المنابر.

أقبل العاص بن سعيد بن العاص الأموي يحث على القتال، فالتقى هو وأمير المؤمنين علي «عليه السلام»، فقتله علي، وحين ولي عمر بن الخطاب الخلافة قال لابنه سعيد بن العاص: (**إني لأراك معرضاً، تظن أني قتلت أباك؟**) وفي نص آخر: (**والله ما قتلت أباك، ولا أعتذر من قتل مشرك، ولقد قتلتُ خالي بيدي، العاص بن هشام بن المغيرة، فقال سعيد: لو قتلتَه لكان على الباطل وأنت على الحق**). أُعجِب الخليفة عمر بجواب سعيد فقال: (**قريش أعظم الناس أحلاماً، وأعظمها أمانةً، لا يبغيهم أحدٌ الغوائل إلا كبه الله لفيه**)[٣]. وأما ابن أبي الحديد فقد نقل الخبر بصورة مختلفة وفيه: (**أن عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته، فجلس سعيد بن العاص حُجرَة**[٤]**، فنظر إليه عمر فقال: ما لي أراك مُعرضاً كأني قتلت أباك. إني لم أقتله، ولكنه قتله أبو حسن. وكان علي «عليه السلام» حاضراً فقال: اللهم غفراً، ذهب الشرك بما فيه ومحا الإسلام ما قبله، فلماذا تُهاج القلوب؟ فسكت عمر، وقال سعيد: لقد قتَله كُفء كريم، وهو أحب إليَّ من أن يقتله مَن ليس من بني عبد مناف**)[٥].

❊ مقتل أحد المشركين:

ولعلي «عليه السلام» خبر مع أحد المشركين، حيث قال: (**إني يومئذٍ بعد ما ارتفع النهار، ونحن والمشركون قد اختلطَت صفوفُنا وصفوفهم، خرجتُ في إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد**

١. حجفة: تُرس يصنع من جلد.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣.
٣. ن. م.
٤. حجرة: ناحية.
٥. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٤٤-١٤٥.





ابن خيثمة، وهما يقتتلان، حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة. والمشرك مقنَّع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه، فعرفني وهو معلمٌ ولا أعرفه، فناداني: هلم ابن أبي طالب للبراز! قال: فعطفت عليه فانحط إليَّ مقبلاً، وكنت رجلاً قصيراً، فانحططت راجعاً لكي ينزل إلي، فكرهت أن يعلوني بالسيف. فقال: يا ابن أبي طالب، فررتَ؟ فقلت: قريباً مفرٌ، ابن الشتراء! قال: فلما استقرَّت قدماي وثبتُّ أقبَل، فلما دنا مني ضربني، فاتقيت بالدرقة فوقع سيفُه فلحِج [1] فأضربه على عاتقه وهو دارع، فارتعش، ولقد فض سيفي درعَه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا بريق سيف من ورائي، فطأطأت رأسي ويقع السيف، فأطنَّ قحْف رأسِه [2] بالبيضة، وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب! فالتفتُّ من ورائي فإذا حمزة بن عبدالمطلب)[3].

* تمنّي غروب الشمس:

ولشدة هول ما نزل بالمشركين وانهيارهم النفسي، تمنَّى بعضهم أن تغيب الشمس ويدخل الليل لتنتهي المواجهة، حتى قال حكيم بن حزام: (انهزمْنا يوم بدر، فجعلت أقول: قاتَل الله ابن الحنظلية، يزعم أن النهار قد ذهب، والله إن النهار لكما هو. قال حكيم: وما ذاك بي إلا أحب أن يأتي الليل فيَقصُر عنّا طلبُ القوم).

---

١. لحج: لزم.

٢. قحف الرأس: أعلى الجمجمة.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٤.

واضطر حكيم للهروب على قدميه باتجاه مكة، فأدرك عبيدَالله وعبد الرحمن ابنا العوام على جمل لهما، فقال عبد الرحمن لأخيه: (**انزل فاحمِل أبا خالد**) وكان عبيدالله رجلاً أعرج، فقال عبيدالله: (**إنه لا رُجلة بي كما ترى. قال عبدالرحمن: والله إن منه بُد، ألا نحمل رجلاً إن متنا كفانا ما خلَّفْنا من عيالنا، وإن عشنا حمل كَلَّنا؟**). فنزل عبد الرحمن وأخوه وهو أعرج فحملاه، فكانوا يتعاقبون الجمل، ولما وصلوا مَرَّ الظَّهران قرب مكة قال حكيم: (**والله لقد رأيت ههنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأي، ولكنه شؤم ابن الحنظلية. إن جزوراً نُحِرَت ههنا فلم يبق خِباء إلا أصابه من دمها. فقالا: قد رأينا ذلك، ولكن رأيناك وقومَنا مضيتُم فمضينا معكم، فلم يكن لنا أمرٌ معكم**)[1].

* الهروب الكبير:

وهكذا بدأ الهروب الكبير لمئات المشركين من ساحة المعركة، ومن أجل أن يتخفف الهاربون اضطروا إلى إلقاء دروعهم، ولعلهم فعلوا ذلك أيضاً لإلهاء بعض المسلمين بجمعها كغنائم، والانشغال عنهم بها فعن مَخْلَد بن خِفاف بن إيماء، عن أبيه قال: (**كانت الدروع في قريش كثيرة يومئذ، فلما انهزموا جعلوا يلقونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا، ولقد رأيتني يومئذ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلي فكانت عندنا بعدُ**)[2].

وصورة أخرى نقلها عبد الله بن عمرو بن أمية، قال: (**سمعتُ أبي عمرو بن أمية قال: أخبرَني من انكشف يومئذٍ منهزماً، وإنه ليقول في نفسه: ما رأيتُ مثل هذا الأمر فرَّ منه، إلا النساء!**).

عمرو بن أمية بن خويلد الضمري، أحد أنجاد العرب في الجاهلية، أسلم بعد غزوة أحد. زوجته هي: سخيلة بنت عبيدة أحد المبارزين الثلاثة في بدر مع حمزة وعلي. أرسله النبي بعد ذلك في عدة سرايا. توفي قبل سنة ٦٠ هـ.

وقال قُباث بن أشيم الكناني: (**شهدت مع المشركين بدراً، وإني لأنظر إلى قلة أصحاب محمد في عيني وكثرة ما معنا من الخيل والرجال، فانهزمْتُ فيمن انهزم، فلقد رأيتني وإني لأنظر إلى المشركين في كل وجهٍ، وإني لأقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرَّ منه إلا النساء! وصاحبني رجلٌ، فبينا هو يسير معي إذ لحقنا من خلفنا، فقلت لصاحبي: أبِك نهوض؟**[3] **قال: لا والله، ما هو بي، قال: وعقِر، وترفَّعْت**[4]**، فلقد صبَّحْتُ غَيْقة**[5]

---

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٥، ص ١٠٥.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٤٨.
٣. نهوض: إسراع في الهروب.
٤. عقر: بقي مكانَه لم يتقدَّم أو يتأخَّر كأنه مقطوعُ الرِّجْل. تَرَفّعت: بالغْت في السير هرباً.
٥. صبحت غيقة: وصلت عند الصباح مكاناً اسمه غيقة.



ـ عن يسار السُّقيا بينها وبين الفُرع ليلة والمدينة ثمانية بُرُد ـ قبل الشمس، كنت هادياً بالطريق ولم أسلك المحاج وخفت من الطلب فتنكبْتُ عنها [1]، فلقيني رجلٌ من قومي بغيقة، فقال: ما وراءك؟ قلت: لا شيء! قُتلنا وأُسِرنا وانهزمنا، فهل عندك من حُملان؟ فقال: فحملني على بعيرٍ، وزوَّدني زاداً حتى لقيت الطريق بالجُحفة، ثم مضيت حتى دخلت مكة، وإني لأنظر إلى الحيسُمان بن حابس الخزاعي بالغَميم، فعرفتُ أنه يقدم ينعي قريشاً بمكة، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتنكبتُ عنه حتى سبقني ببعض النهار، فقدِمتُ وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم، وهم يلعنون الخزاعي ويقولون: ما جاءنا بخير! فمكثت بمكة، فلما كان بعد الخندق قلت: لو قدمتُ المدينة فنظرت ما يقول محمد. وقد وقع في قلبي الإسلام. فقدمت المدينة فسألت عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقالوا: هو ذاك في ظل المسجد مع ملإ من أصحابه. فأتيتُه، وأنا لا أعرفه من بينهم، فسلَّمتُ فقال: يا قُباث بن أشيم، أنت القائل يوم بدر ما رأيتُ مثل هذا الأمر فرَّ منه إلا النساء؟ قلت: أشهد أنك رسول الله، وأن هذا الأمر ما خرج مني إلى أحدٍ قط. وما ترمرمت [2] به إلا شيئاً حدَّثْتُ به نفسي، فلولا أنك نبي ما أطلعك الله عليه، هلمَّ حتى أبايعك. فعرض عليّ الإسلام فأسلمت)[3].

ويبدو أن المعركة لم تدم إلا سويعات، ففي الخبر أن انهزامهم وهروبهم الكبير تمَّ حين زالت الشمس، أي عند الظهر لا أكثر.

١. المحاج: جمع محجّة، أي الطرق الواضحة المعروفة. تنكبت عنها: تنحيت.
٢. ترمرم: حرّك فمه للكلام، ولم يتكلم.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٥.

* نتائج المعركة:

وبذا انتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، خسر فيها المشركون سبعين قتيلاً، بينهم أكثر من عشرين من قادتهم، كما وقع في أسْر المسلمين سبعون محارباً، بينهم بعض زعماء المشركين. قال «عزوجل»: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]. ومن أهم أسماء القتلى:

- عتبة بن ربيعة من بني عبد شمس.. «اشترك في قتله علي»
- الوليد بن عتبة من بني عبد شمس.. «قتله علي»
- شيبة بن ربيعة من بني عبد شمس
- العاص بن سعيد من بني عبد شمس.. «قتله علي»
- عقبة بن أبي معيط من بني عبدشمس.. «أعدِم بعد الأسر»
- طعيمة بن عدي من بني نوفل.. «قتله علي»
- زمعة بن الأسود من بني أسد.. «اشترك في قتله علي»
- الحارث بن زمعة من بني أسد
- نوفل بن خويلد من بني أسد.. «قتله علي»
- العاص بن هشام.. من بني أسد
- النضر بن الحارث من بني عبد الدار «قتله علي» بعد أسره، وسنتناول هذا لاحقاً
- أبوجهل: عمرو بن هشام.. من بني مخزوم
- أمية بن خلف الجُمحي

وقد اختلف المؤرخون في عدد من قتلهم الإمام علي «عليه السلام» وحده في المعركة، فقيل أنهم كانوا ستة وثلاثين رجلاً، برواية الطبرسي في «إعلام الورى»، وقيل بل كانوا خمسة وثلاثين برواية المفيد في «الإرشاد»، وقيل أنهم كانوا اثنين وعشرين، برواية

كان عقبة نديم أبيّ بن خلف، فطلب منه أبي أن يذهب إلى مجلس النبي ويبزق في وجهه ويطأ عنقه ويقول له كيت وكيت! فعل عقبة ذلك، وروي أن قوله «تعالى»: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ نزلت فيه.

كان ابن عباس يقول: (فيما بلغني: نزل فيه ثمان آيات من القرآن، قول الله «عزوجل»: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن). وكان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة ويقول: إن محمداً يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن.

١. سورة آل عمران: ١٢٣.

الواقدي في «المغازي»، وقيل أن عددهم واحد وعشرون، برواية الشبلنجي في «نور الأبصار». ونتيجة لهذا الدور الحاسم للإمام علي «عليه السلام» في المعركة قال المجلسي: **(الكفار كانوا يسمونه الموت الأحمر، سموه يوم بدر لعظم بلائه ونكايته)**[١].

أما الغنائم ففي الخبر: **(وكانت الإبل التي أصابوا يومئذٍ مائة بعير وخمسين بعيراً، وكان معهم أدمٌ كثير حملوه للتجارة، فغنمه المسلمون يومئذٍ... وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفراس، وأصابوا لهم سلاحاً)**[٢].

وقد اختار النبي «صلى الله عليه وآله» سيف ذا الفقار نافلة له من بين تلك الغنائم، وكان السيف لمنبه بن الحجاج، واختلف الرواة هل كان مع النبي سيف قبل ذلك؟ ففي رواية أنه قد غزا بسيفٍ وهبه له سعد بن عبادة يقال له العضب، ودرعه ذات الفضول. وفي رواية أخرى أنه خرج يوم بدر وما معه سيف. وكان أول سيف تقلّده سيف منبه بن الحجاج.

منبه بن الحجاج السهمي القرشي، أحد رؤساء الكفر في مكة. كان يؤذي النبي ويستهزئ به كثيراً. قتله الإمام علي في بدر وغنم سيفه.

❊ التخلص من الجثث:

أمر رسول الله يوم بدر بالقُلُب أن تغور[٣] ثم أمر بالقتلى، فطُرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف، فإنه كان سميناً، وقد انتفخ زيادة بعد موته، فلما أرادوا أن يلقوه تهتَّك لحمه، فأمرهم النبي أن يتركوه. ونظر رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى عُتبة بن ربيعة يُجر إلى القليب، وكان رجلاً جسيماً، وفي وجهه أثر الجدري، فتغيَّر وجه ابنه أبي حذيفة، فقال له النبي: **(ما لك؟ كأنك ساءك ما أصاب أباك؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولكني رأيت لأبي عقلاً وشرفاً، كنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما أخطأه ذلك، ورأيت ما أصابه غاظني. فقال أبو بكر: كان والله يا رسول الله أبقى في العشيرة من غيره، ولقد كان كارهاً لوجهه، ولكن الحِين[٤] ومصارع السوء. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: الحمد لله الذى جعل خدَّ أبي جهل الأسفل، وصرعه وشفانا منه)**.

وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد طاف بقتلى المشركين وهم مصرَّعون، وأبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً، ورسول الله يحمد الله ويشكره ويقول: **(الحمد لله الذى أنجز لي ما وعدني، فقد وعدني إحدى الطائفتين)**.

ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: **(يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا**

---

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٦٢.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٣٧.
٣. أي أن تملأ الآبار بالتراب والحجارة لمنع خروج الماء منها، ويرتفع عمقها.
٤. الحين: الأجل.

أبا جهل بن هشام، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. بئس القوم كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس. فقالوا: يا رسول الله، أ تنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أنَّ ما وعدهم ربهم حق).

وروى ابن أبي الحديد عن ابن إسحاق في كتاب المغازى قوله: **(أن عائشة كانت تروي هذا الخبر، وتقول: فالناس يقولون إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: لقد سمعوا ما قلت لهم. وليس كذلك، إنما قال: (لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق)**[1].

بقي النبي «صلى الله عليه وآله» إلى العصر، فصلى ببدر، ثم تحرك عائداً إلى المدينة، فمَرّ بالأُثَيِّل[2] قبلَ غروب الشمس، فنزل به، وأقام حراسةً تلك الليلة خوفاً من إغارة بعض المشركين، حتى غادر المكان.

* الموقف من الأسرى:

كان الوضع القائم يوم بدر يستدعي عدم الإبقاء على المشركين في ساحة المعركة أثناء القتال، وعدم السعي لأسر أحد منهم، وقد أمرهم النبي «صلى الله عليه وآله» بذلك بشكل واضح، ولذا قال «تعالى»: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

إلا أن المسلمين خالفوا ذلك، طمعاً في الحصول على الفداء، ليستفيدوا به في تقوية أنفسهم من الناحية المادية، وليعوّضوا جزءً مما فقدوه بسبب الهجرة من ديارهم، والآية السابقة تندّد بذلك. وتلك نقطة ضعفٍ سجَّلها الله عليهم، لأن المقاتل الذي يشعر بخطورة القوة الكبرى المهيمنة على شؤون الناس بالظلم والسيطرة، لا يعيش في المعركة هاجس النفع المادي، بقدر ما يعيش هاجس القضاء عليها، بالقضاء على كل رموزها لئلا تكون فتنة ويكون الدين لله، لا سيّما في المرحلة الصعبة التي خاض فيها المسلمون المعركة غير المتكافئة ضد قريش وانتصروا فيها، ممّا يفرض التفكير في إضعاف أيّة مبادرة مستقبلية لمعركة جديدة، في ما يمكن أن تفكّر به قريش من هجوم جديد ثأراً لنفسها. ولكنها التجربة الأولى للمسلمين الذين كانوا يخوضون فيها معركة الوجود واللا وجود للإسلام، فخاضوها على الطريقة التي كانوا يخوضون فيها معاركهم الخاصة سابقاً، في قتل البعض، والإبقاء على البعض الآخر من أجل الفداء، فكانت هذه الآية تناقش المسألة من زاوية المصلحة الإسلامية العليا في حركة الأنبياء، فليس للنبي الداخل في معركةٍ من معارك الإيمان والكفر، أن يكون له أسرى، حتى يتمكن في

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٧٨.
٢. نقل ياقوت الحموي في معجم البلدان عن السكيت: (ذو أثيّل واد كثير النخل بين بدر والصّفراء) وتعرف المنطقة اليوم باسم الحسنية. والصفراء واد شرق بدر على مسافة ٢٢ كم تقريباً.
٣. سورة الأنفال: ٦٧.

الأرض ويستقر ويثبّت أقدامه، لينطلق ـ بعد ذلك ـ من موقع قوة، بعيداً عن إمكانات التحرّك المضاد من قِبَل الأعداء، وسيكون الحكم حينذاك مختلفاً في مسألة السعي للأسر في ساحة المعركة من عدمه[١].

وقد جاء في تفسير «مجمع البيان»: (**كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم علي بن أبي طالب «عليه السلام» سبعة وعشرين، وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبي «صلى‌الله عليه وآله» فجمعوا الأسارى، وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم... وفي كتاب علي بن إبراهيم: لما قتل رسول الله «صلى‌الله عليه وآله» النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك، أتجذّ أصلهم[٢] ؟ فخُذ ـ يا رسول الله ـ منهم الفداء. وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش، فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾**)[٣].

ويبدو أن المسلمين بإصرارهم على الفداء ـ حتى بعد الأسر ومخالفة الأمر ـ نزل الحكم بالتخيير كما في رواية «المغازي»: (**كان علي «عليه السلام» يحدّث يقول: أتى جبريل إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» يوم بدر فخيّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو يأخذ منهم الفداء ويستشهد منكم في قابل عدتهم. فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه فقال: هذا جبريل يخيّركم في الأسرى بين أن نضرب رقابهم، أو نأخذ منهم الفدية ويستشهد منكم في قابلٍ عدتهم. قالوا: بل نأخذ الفدية ونستعين بها، ويستشهد منا فندخل الجنة، فقبل منهم الفداء وقتل منهم في قابلٍ عدّتهم بأُحُد**)[٤].

لقد كانت المخالفة جسيمة حتى قال «تعالى»: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ﴾ أي بالعفو عن خطاياكم وفتح باب التوبة أمامكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

أما الموقف من الأسرى بعد اختيار الإبقاء عليهم فداءً فبينته الآية اللاحقة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٦].

---

١. فضل الله: من وحي القرآن، في تفسير الآية ٦٧ من سورة الأنفال.
٢. جذ الأصل: الاستئصال.
٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٤، ص ٨٥٩.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٣٩.
٥. سورة الأنفال: ٦٨-٦٩.
٦. سورة الأنفال: ٧٠-٧١.

ولعل النبي كان قلقاً من إطلاقهم، فقال له الله «تعالى» ما مفاده: إن كان بعضهم يضمر الشر ويعدّ الخطط العدوانية للعودة إلى الحرب، ومقاومة المؤمنين، والاعتداء على الرسالة، فلا تخشَ من ذلك ولا تحمل له هماً، لأنهم لن يكونوا القوة التي لا تُقهر، كما أنها ليست أوّل خيانةٍ لهم، فقد اعتادوها حتى سرَت في دمائهم.

وهكذا، أوصى النبي «صلى الله عليه وآله» بالأسرى خيراً، فعن الزهري قال: (**قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: استوصوا بالأسرى خيراً. فقال أبو العاص بن الربيع: كنت مع رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبزة، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل ليقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك، ويزيد، بل وكانوا يحملوننا، ويمشون**)[1].

أبو العاص واسمه لقيط بن الربيع بن عبدالعزى بن عبدشمس بن عبدمناف، وأمه هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة، وهو زوج زينب ابنة النبي. أسِر ببدر، وفك أسرُه، ثم أسلم قبيل فتح مكة وردّ إليه النبي زوجته. لأبي العاص ابنة اسمها أمامه تزوج بها الإمام علي بوصية من الزهراء بعد وفاتها.

* إعدام النضْر بن الحارث:

وعلى الرغم مما سبق، فقد استثنى النبي «صلى الله عليه وآله» بعض كبار قادة المشركين، ومنهم النضر بن الحارث، وكان قد أسره المقداد بن الأسود، فلما خرج النبي من بدر بمعيّة الأسرى، توقف في وادي الأُثيل الذي يبعد قرابة ٤ كم عن بدر، وأخذ يستعرض الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث طويلاً فقال لرجلٍ إلى جنبه: (**محمدٌ والله قاتلي، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت! فقال الذي إلى جنبه: والله ما هذا منك إلا رعب**). فحاول النضر الاستجارة بمصعب بن عمير وقال له: (**يا مصعب، أنت أقرب مَن ها هنا بي رحماً**[2]. **كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا. وتقول فيه نبيه كذا وكذا. قال: يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي، إن قُتلوا قُتلت، وإن مَنَّ عليهم مَنَّ عليَّ. قال مصعب: إنك كنت تُعذّب أصحابه. قال: أما والله، لو أسَرتْكَ قريشٌ ما قُتلت أبداً وأنا حي. قال مصعب: والله، إني لأراك صادقاً، ولكن لستُ مثلك، قطع الإسلام العهود! فقال المقداد: أسيري! قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: اضرب عنقه، اللهم أغنِ المقداد من فضلك! فقتله علي بن أبي طالب «عليه السلام» صبراً بالسيف بالأثيل**)[3].

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ٧٢١٦٧.
٢. كلاهما من بني عبدالدار بن قصي بن كلاب.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩.

❊ إعدام عقبة بن أبي معيط:

أكمل النبي «صلى الله عليه وآله» مسيره نحو المدينة، حتى إذا بلغ «عِرق الظبية»[١] أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط، فجعل عقبة يقول: **(يا ويلي، علام أُقتَل يا معشر قريش مِن بين مَن ها هنا؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لعداوتك لله ولرسوله. قال: يا محمد، منك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتَهم قتلتني وإن منَنْتَ عليهم مَنَنْتَ عليّ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم، يا محمد، مَن للصِّبيَة؟ قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: النار! قدِّمه يا عاصم، فاضرب عنقه! فقدَّمَه عاصم فضرب عنقه. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: بئس الرجل كنت والله ما علمت، كافراً بالله وبرسوله وبكتابه، مؤذياً لنبيه، فأحمد الله الذي هو قتلك وأقرَّ عيني منك)**[٢].

❊ النهي عن التمثيل:

وروى الواقدي أنه لما أُسِر سهيل بن عمرو: **(قال عمر «رضي الله عنه»: يا رسول الله، انزَع ثنيتيه[٣] يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا أمثِّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبياً، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه. فقام سهيل بن عمرو حين جاءه وفاة النبي «صلى الله عليه وسلم» بخطبة أبي بكر «رضي الله عنه» بمكة كأنه كان يسمعها. قال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد إنك لرسول الله! يريد حيث قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: لعله يقوم مقاماً لا تكرهه)**[٤].

حرّم الإسلام التمثيل بأجساد الموتى، ولو كانوا محاربين أو مجرمين، فعن عليّ: (يا بني عبد المطّلب، لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين خوضاً تقولون قُتل أمير المؤمنين. ألا لا يُقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل فإنّي سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب العقور). كما حرّم الإسلام التعذيب، ولا فرق في ذلك بين أن يكون المعذَّب مسلماً أو غير مسلم، بل حتى لو كان محارباً للمسلمين.

❊ موقف لمصعب بن عمير:

وكان أبو عزيز زرارة بن عمير أخو الصحابي مصعب لأبيه وأمه من ضمن أسرى المشركين، وله في ذلك قصة، قال: **(وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا**

١. عرق الظبية: منطقة تبعد عن المدينة ٦٨ كم تقريباً.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢.
٣. الثنيتان: جمع ثنية وهي: إحدى الأسنان الأربع التي مقدّم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩.

وقد نفحنى بها. قال: فأستحي فأردّها عليه فيردّها عليّ ما يمسّها. قال: و مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى فقال له: شدّ يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك).

وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث. فلماطلب أخوه مصعب تشديد الأسر عليه، قال له أبو عزيز: **(يا أخى، هذه وصايتك بي؟ قال: إنه أخي دونك. فسألَت أمُّه عن أعلى ما فُدي به قرشي. فقيل لها أربعة آلاف درهم. فبعثت أربعة آلاف درهم ففدته بها)**[1].

❊ قلادة السيدة خديجة:

لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب ابنة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في فداء زوجها أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت مهداة لها من قبل أمها السيدة خديجة ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله رقَّ لها رقة شديدة وقال لأصحابه: **(إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذي لها. فقالوا: نعم)**.

أخذ النبي «صلى الله عليه وآله» من أبي العاص وعداً أن يُخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ـ بعد انتهاء الغزوة بشهر تقريباً ـ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: **(كونا ببطن يأجج[2] حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها)**.

أما أبو العاص بن الربيع فإنه عاد إلى مكة وقال لزوجته زينب: **(تجهزي، فالحقي بأبيك. قالت: فخرجتُ أتجهَّز فلقيتني هند بنت عتبة فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت لها: ما أردتُ ذلك. فقالت: أي بنت عم، لا تفعلي، إني امرأة موسرة وعندي سلع من حاجتك، فإن أردت سلعة بعتكها، أو قرضاً من نفقة أقرضتك، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت: فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، فخفتها فكتمتها وقلت: ما أريد ذلك)**.

ولما فرغت زينب من جهازها ارتحلت بصحبة كنانة بن الربيع[3] يقود بها نهاراً، وتسامع بذلك أهل مكة، وخرج في طلبها هبّار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفهري، وكان أول من سبق إليها هبار، فروَّعها بالرمح وهي في هودجها، حتى أجهضت لاحقاً. وبرك كنانة بن الربيع ونثر نبله، ثم أخذ قوسه وقال: **(والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً)**. وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش فقال: **(يا هذا، أمسِك عنا نبلكَ حتى نكلمك)**.

فتوقّف كنانة وخاطبه أبو سفيان قائلاً: **(إنك لم تصنع شيئاً، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس، وقد عرفت**

---

١. الدياربكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٨٨.
٢. بطن يأجج: موضع قريب من مر الظهران.
٣. هو أخو زوجها.

مصيبتنا التي أصابتنا ببدر، فتظن العرب وتتحدث أن هذا وهنٌ منّا وضَعف خروجك إليه بابنته على رؤوس الناس مِن بين أظهرنا. ارجع بالمرأة فأقِم بها أياماً، ثم سلها سلّاً رفيقاً في الليل، فألحِقها بأبيها، فلعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك الآن من ثؤرة [1] فيما أصاب منا)[2]. التزم كنانة بما طُلب منه، فلما مرَّ به يومان أو ثلاثة أخرجها ليلاً بكل هدوء، فانطلق بها حتى قدِمَت على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

* قصة الأسير الجُمَحي:

أمّن رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عُمير الجُمَحي، وكان شاعراً، فقال للنبي: **(لـي خمس بنات ليس لهن شيءٌ، فتصدّق بي عليهن يا محمد. أعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أُكثِر عليك [3] أبداً)**. قَبِل النبي كلامه وأعتقه.

فلما كان مِن قابل، وخرجت قريش إلـى أحُد في غزوتها الثانية، جاءه صفوان بن أمية فقال: **(اخرج معنا. فقال: إني قد أعطيت محمداً موثِقاً ألا أقاتله ولا أكثِر عليه أبداً، وقد منَّ عليَّ ولم يمنّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء)**. لم يقبل منه صفوان هذا العذر، وطالبه بالخروج عارضاً عليه أن يجعل بناته مع بناته إن قُتل، وإن عاش أعطاه مالاً كثيراً تفوق حاجته وحاجة عياله.

وافق الجمحي، فخرج يدعو العرب ويحشرها، ثم خرج مع قريش يوم أحُد، فأُسِر ولم يؤسر غيره من قريش، فقال: **(يا محمد، إنما خرجت مُكرَهاً، ولـي بنات فامنن عليّ! فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أين ما أعطيتني من العهد والميثاق؟ لا والله، لا تمسح عارضيك بمكة تقول سخرتُ بمحمدٍ مرتين. إنَّ المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، يا عاصم بن ثابت، قدِّمه فاضرب عنقه. فقدّمه عاصم فضرب عنقه)**[4].

* محاولة هروب:

حاول سُهيل بن عمرو ـ وهو في الأسر ـ أن يهرب، وكان يقوده مالك بن الدخشم، حيث طلب الأسير أن يُفك قيدُه وأن يتوارى خلف شيء كي يتمكن من قضاء حاجته، ولما تأخر سهيل أدرك مالك ما حصل، فصاح في الناس، فخرجوا في طلبه، وخرج النبي «صلى الله عليه وآله» معهم، فوجده قد أخفى نفسه بين شجرات، فأمر به فرُبطت يداه إلـى عنقه، ثم قرنه إلـى راحلته، فلم يركب سهيل خطوة ـ عقوبةً ـ حتى قدِم المدينة.

---

١. ثؤرة: ثأر.

٢. القرطبي: تفسير القرآن، ج ٨، ص ٥٤-٥٥.

٣. أكثر عليه: حرّض الناس عليه.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠-٤١.

* توزيع الغنائم وتخميسها:

بعد هروب المشركين وانتهاء المعركة وحصر الغنائم، تساءل المسلمون عن كيفية توزيع الغنيمة، وهل ستكون وفق السنن الجاهلية التي عرفوها أم ستختلف عنها، وهل سينال الذين لزموا النبي «صلى الله عليه وآله» في أواخر المعركة ولم يكونوا في ساحتها مع المقاتلة نصيباً منها أم لا.

وفي الخبر أنه: (**لما انهزم المشركون كان الناس ثلاث فرق، فرقة قامت عند خيمة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكان أبو بكر معه في الخيمة، وفرقة أغارت على النهب تنتهب، وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا. فتكلم سعد ابن معاذ، وكان ممن أقام على خيمة رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب العدو زهادة في الأجر ولا جبن عن العدو، ولكنّا خفنا أن نُعري موضعك، فيميل عليك خيل من خيل المشركين ورجال من رجالهم، وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من المهاجرين والأنصار والناس كثير، ومتى تُعطِ هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء، والقتلى والأسرى كثير، والغنيمة قليلة. فاختلفوا**)[1].

قال السيد مرتضى العسكري موضحاً ما جرى في تلك الأثناء: (**ولما انتهت المعركة بفوزهم الساحق على قريش، اختلفوا في ما ظفروا به من جهة العدى ورجعوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» في ذلك، فنزلت الآيات الكريمة من أول سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّـهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**). في سيرة ابن هشام والطبري وسنن ابى داود وغيرها واللفظ للأول: **أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمر بما في العسكر مما جَمع الناس فجُمع، فاختلف المسلمون فيه، فقال مَن جَمعه: هو لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شَغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله «صلى الله عليه وآله» مخافةَ أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله «صلى الله عليه وآله» كرَّة العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا. وروى عن عبادة بن الصامت أنه قال عن سورة الأنفال: فينا ـ أصحاب بدر ـ نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقسمه رسول الله بين المسلمين على السواء. وروي عن أبي أسيد الساعدي قال: أصبت سيف بني عائذ المخزوميين ـ المرزُبان[2] ـ يوم بدر، فلما أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» الناس أن يردّوا ما في أيديهم من النفل أقبلت حتى ألقيته في النفل. قال ابن هشام: ثم أقبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» قافلاً إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين حتى إذا خرج من مضيق الصَّفراء نزل على كثيب،**

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ١٦٥.
٢. المرزبان: اسم السيف، والمرزبان: الفارس الشجاع المقدّمُ على القوم.

فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء. نفهم من كل ما سبق أن الله «سبحانه» حين استعمل لفظة الأنفال في الآية الكريمة قصد منها معناها اللغوي وهو الهبة والعطية، أي أن ما استوليتم عليها من أموال العدى ليست من باب السلب والنهب وفق قواعد الجاهلية لتتملكوها، بل هي عطاء من الله، ثم هي لله ولرسوله وعليكم أن تردّوها إلى رسوله ليعمل فيها وفق رأيه)[1].

وروي أنه احتج بعض المسلمين على ذلك فعن عِكرمة أنه قال: (اختلف الناس في الغنائم يوم بدر، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالغنائم أن تُرَد في المقسَم، فلم يبق منها شيء إلا رُد. فظن أهل الشجاعة أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يخصهم بها دون غيرهم من أهل الضعف. ثم أمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن تُقسّم بنهم على سواءٍ، فقال سعد: يا رسول الله، أيُعطى فارس القوم الذي يحميهم مثل ما يُعطى الضعيف؟ فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: ثكلتك أمك، وهل تُنصرون إلا بضعفائكم؟)[2].

وعلى الرغم من أن آية الخمس وهي قوله «تعالى»: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، قد نزلت في أجواء غزوة بدر الكبرى،

ما جاء في الخبر لا يتناسب مع أخلاق النبي، وعكرمة ابن عبد الله البربري المدني «ت١٠٥هـ» كان مولى عبدالله بن عباس، والتقى بكثير من الصحابة، ثم أخذ يجوب البلدان مدعياً العلم، ويطلب المال في مقابل ما كان يبثّه فيهم. قال التابعي أيوب بن كيسان السختياني: (قدِم علينا عكرمة، فاجتمع الناس عليه حتى أُصعِدَ فوق ظهر بيت. أي ليراه الناس وهو يتحدث إليهم. وقال أيضاً: لو لم يكن عندي ثقة لم أكتب عنه). ولما علم أيوب لاحقاً أن عكرمة يتعرض للأعطيات، حَجَبَ عنه توثيقه، وصار يقول عنه: (قليل العقل). ذهب عكرمة إلى إفريقية، وانضم فيها إلى الحرورية من الخوارج، وتبنّى آراءهم، وقد قال خالد بن أبي عمران: (دخل علينا عكرمة مولى ابن عباس بإفريقية في وقت الموسم، فقال: وددت أني اليوم بالموسم بيدي حربة أضرب بها يميناً وشمالاً)! ثم عاد لابن عباس فسلم، فقال ابن عباس: (قد جاء الخبيث). وكان يكذب على ابن عباس، مستغلاً سنوات خدمته له، وقد قال يحيى البكاء: (سمعت ابن عمر يقول لنافع: اتق الله، ويحك، لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس).

١. العسكري: معالم المدرستين، ج٢، ص ٩٤-٩٥.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٦.
٣. سورة الأنفال: ٤١.

إلا أن الباحثين اختلفوا حول عمل النبي بها، أم أنها نزلت لاحقاً، فعمل بها فيما تلاها من غزوات، كما اختلفوا في علاقتها بآية الأنفال التي تعطي للنبي حق التصرف الكامل.

أما بخصوص المسألة الأولى فيمكن القول أن النص التالي يبيّن أن العمل بخمس الغنيمة لم يتم إلا بعد غنيمة بدر، فعن عبادة بن الصامت قال: (**سلمنا الأنفال لله ولرسوله، ولم يخمس رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بدراً، ونزلت بعدُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ﴾. فاستقبل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالمسلمين الخمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر**)[1]، والله أعلم.

وأما بخصوص المسألة الثانية فقد يقال أن آية الأنفال بيّنت أن أمر الغنيمة بيد الله والنبي، ثم جاءت الآية الثانية وبيّنت أن خمس الغنيمة يُخرَج أولاً، ثم يتم التقسيم بين الذي شهدوا المعركة.

ومن المستبعد أن تكون آية الخمس قد نسخت آية الأنفال، كما نقل ذلك بعض العلماء[2]، فالآيتان نازلتان في سورة واحدة وبخصوص حدث واحد ـ وهو غزوة بدر ـ وفي زمن متقارب، وليس من الحكمة أن ينزل التشريع الآن وبآية قرآنية ثم يُنسخ بعد ساعات أو أيام قلائل، بحيث يجعل قيمة التشريع متزلزلةً في النفوس.

وعلى كل حال، فإن آية الأنفال التي جعلت أمر الغنيمة بيد النبي «صلى الله عليه وآله» لم تدفعه للاستئثار بها، بل وزّعها على المقاتلين. وقد تجرأ بعضهم ووضع رواية أن بعض المسلمين اتهموا النبي بأخذ شيء من الغنيمة خلسة! قيل: (**وكانت يومئذٍ فيما أصابوا قطيفة حمراء، فقال بعضهم: ما لنا لا نرى القطيفة؟ ما نرى رسول الله إلا أخذها. فأنزل الله «عز وجل»: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[3] إلى آخر الآية**)[4].

أي أنهم اتهموه بالأخذ خلسة، لأن الغل يعني الأخذ بخُفية، كالسرقة. ولا يمكن قبول صدور شيء من هذا القبيل عن أحد من المسلمين، علماً بأن الآية نازلة في أحداث غزوة أحد لا بدر، ويؤكد ذلك أنها من سورة آل عمران التي نزلت في أجواء غزوة أحد، بينما السورة التي نزلت في أجواء غزوة بدر الكبرى هي سورة الأنفال. علماً بأن رواية اتهام النبي رواها عكرمة عن ابن عباس!

وقد احتمل البعض أن الذي غلّ هو أحد المسلمين كما في الخبر التالي: (**وجاء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: يا رسول الله، إن فلاناً غلَّ قطيفة. فسأل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الرجل، فقال: لم أفعل يا رسول الله. فقال الدال: يا رسول الله، احفروا ها هنا. فأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فحفروا هناك**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٦.
٢. الحائري: مباني فتاوى في الأموال العامة، ص ٣٢٧.
٣. الآية هكذا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ «آل عمران: ١٦١».
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٧.

فاستُخرجت القطيفة. فقال قائل: يا رسول الله، استغفر لفلان. مرتين أو مراراً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: دعونا من آتي جُرم)[1]. ولكن تم إخفاء اسم الذي غلَّ من قبل الراوي أو المؤرخ أو ناسخ الكتاب. كما ذهب بعض المفسرين إلى أن الغل هنا هو إخفاء شيء من الوحي وكتمانه، لا الخيانة في المغنم.

والأرجح عندي أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يُتَّهَم في بدر، وأن القصة ملفَّقة، والآية نزلت في أحداث أُحُد بسبب قول بعض الرماة، أو غير ذلك مما سنتناوله بإذن الله عند الحديث عن أُحُد.

* المبشِّران بالنصر:

أرسل النبي «صلى الله عليه وآله» زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة من الأثيّل على عجل ليبشِّرا أهل المدينة بتحقق النصر، وفارق عبدُالله زيداً بالعقيق متجهاً إلى الأطراف الشرقية والجنوبية الشرقية المحيطة بالمدينة، حتى إذا بلغ العوالي جعل ينادي: **(يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله وقَتْل المشركين وأسْرهم، قُتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأُسِر سهيل بن عمرو ذو الأنياب، في أسرى كثير)**. لم يصدِّق عاصم بن عدي ما سمعته أذناه، فقام واتجه إلى ابن رواحة وقال له: **(أحقاً ما تقول يا ابن رواحة؟ قال: إي والله، وغداً يقدم رسول الله إن شاء الله، ومعه الأسرى مقرَّنين)**. ثم تتبّع دور الأنصار بالعالية يبشّرهم، داراً داراً، والصبيان يلاحقونه ويقولون: **(قُتل أبو جهل الفاسق)**. أما زيد بن حارثة فقد قدِم على ناقة النبي «القصواء»، يبشّر أهل المدينة الساكنين بالقرب من المسجد النبوي الشريف، فلما جاء المسجد صاح على راحلته: **(قُتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وأبوالبختري وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسِر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة)**. فجعل الناس لا يصدّقون زيد بن حارثة، حتى قيل: **(ما جاء زيد إلا فلّاً)**[2]، أي هارباً بسبب الهزيمة لا سيما وأنه قدم عليهم يركب ناقة النبي، وعمَّ القلق والخوف بينهم.

العوالي «العالية»: أحد أحياء المدينة المنورة، يطلق اسمها تاريخياً على المنطقة الواقعة في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية من المدينة في خط يمتد شرقاً من البقيع إلى حرة واقم وجنوباً بمحاذاة قباء، وكانت تنتشر فيها أحياء سكنية لعدد من قبائل الأنصار وتتخللها مزارع.

عاصم بن عدي العجلاني، خرج إلى بدر فردّه النبي واستخلفه على قباء والعالية لشيء بلغه عنهم، ثم أعطاه حصة من الغنيمة. وسيأتي في غزوة تبوك شأن المنافقين في قباء. شهد عاصم أُحُداً وما بعدها من الغزوات. توفي سنة ٤٥ هـ.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٧.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٨٤-١٨٥.



* إرجاف المنافقين:

عمل المنافقون على الإرجاف في المدينة كعادتهم، فقال أحدهم: (قُتِل صاحبُكم ومَن معه)، وقال آخر: (قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً، وقد قُتل عليه أصحابكم، وقُتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب، وقد جاء فلّاً).

وجاء أسامة بن زيد بن حارثة لأبيه متسائلاً: (يا أبت، أحقٌّ ما تقول؟ فقال: أي والله حقاً يا بني) فقويت نفسُه ورجع إلى المنافق فقال له: (أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين؟ لنُقدمنَّك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا قَدِم، فليضربنَّ عنقك). خاف المنافق فقال: (يا أبا محمد، إنما هو شيء سمعتُ الناس يقولونه)[1].

* وصول النبي والمسلمين:

وصلت قافلة الأسرى قبل مقدم النبي «صلى الله عليه وآله» بيوم، وكان دخولهم ضربة موجعة للمرجفين وقد قيل: (أذلَّ الله بوقعة بدر رقابَ المشركين والمنافقين، فلم يبق في المدينة منافقٌ ولا يهودي إلا وهو خاضعٌ عنقه لوقعة بدر)[2].

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٨٥.
٢. االسيوطي: الخصائص الكبرى، ج١، ص ٣٤٩.

وخرج الناس لاستقبال النبي والمسلمين، فصاروا يهنّئون رسول الله بفتح الله عليه، فقال سلمة بن سلامة بن وقش: (**ما الذى تهنئونه؟ فوالله ما قَتلنا إلا عجائز صُلعاً. فتبسم النبي «صلى الله عليه وآله» فقال: يا بن أخي، أولئك الملأ، لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتَها، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم. فقال سلمة: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله**[1]، **إنك يا رسول الله لم تزل عنى معرضاً منذ كنا بالروحاء في بدأتنا**). فذكّره النبي بقوله الفاحش للأعرابي[2]، ثم قال: (**وأما ما قلت في القوم، فإنك عمَدت إلى نعمة مِن نعم الله تزهّدها!**)[3]. وما لبث أن اعتذر سلَمة إلى النبي، فقَبِل معذرته.

* المتخلفون يقدمون أعذارهم:

أحرج الانتصار الذي تحقق ببدر بعضَ المسلمين الذين لم يخرجوا مع النبي «صلى الله عليه وآله» فقدِموا إليه عند وصوله المدينة معتذرين بأعذار مختلفة، ومنها قول أُسَيْد بن حُضَيْر: (**يا رسول الله، الحمد لله الذى ظفرك وأقرّ عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلّفي عن بدر وأنا أظن بك إنك تلقى عدواً، ولكني ظننت أنها العِير، ولو ظننتُ أنه عدو لما تخلَّفت، فقال رسول الله: صدقت**).

وسبقهم عبد الله بن أنيس حيث خرج إلى تُربان[4] مستقبلاً قافلة النبي قائلاً: (**يا رسول الله، الحمد لله على سلامتك وما ظفرك. كنت يا رسول الله ليالي خرجتَ موروداً**[5]، **فلم يفارقني حتى كان بالأمس، فأقبلتُ إليك. فقال: آجرك الله**)[6].

* موقف أم المؤمنين سودة:

علمت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بقدوم الأسرى، فخرجت من بيت ذوي أحد الشهداء، ودخلت بيتها قالت: (**وإذا أبو يزيد ـ سهيل بن عمرو ـ**[7] **في ناحية الحجرة مجموعةٌ يداه إلى عنقه بحبل. قالت: فوالله ما ملكتُ نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: يا أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم؟! ألا متُّم كراماً؟!**).

كانت هذه الكلمات صادمة لرسول الله حين سمعها، وهي لا تعلم بوجوده في البيت حيث يسمعها، فكيف

---

١. كيف يتلاءم هذا مع التبسم؟ لابد أن النبي لم يتبسم بل انزعج من تهوين أمر النصر الذي تحقق، والتبسم هو نوع من تحريف النص.
٢. ذكرنا ما جرى ضمن بيان الأحداث التي وقعت في طريق الذهاب إلى بدر.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٨٥-١٨٦.
٤. تربان: وادي يقع خارج المدينة على مسير ليلة منها بحسب وسائل السفر القديمة.
٥. موروداً: أي دخل عليَّ ضيف.
٦. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٨٦.
٧. كانت السيدة سودة زوجة السكران بن عمرو أخي سهيل هذا، وكان السكران مسلماً توفي بمكة، فتزوج بها النبي وذلك رأفةً بحالها بعد وفاة السيدة خديجة، إذ كانت السيدة سودة أكبر منه بخمس سنوات، ولم تكن ذات جمال كما قيل.

يمكن لزوجته أن تتمنّى لو قاتل سهيل بن عمرو حتى الرمق الأخير ولا يقع في الأسر بيد المسلمين فيذل؟! وأكملت السيدة سودة حكايتها لما جرى وقالت: (**فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من البيت: يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله؟! قالت: قلت: يا رسول الله، والذى بعثك بالحق، ما ملكتُ نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بحبل أن قلت ما قلت**)[١].

وللسيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية موقف أيضاً مع بعض الأسرى من أهلها، ولم تكن بعدُ زوجةً للنبي «صلى الله عليه وآله»، فقد جيء بابني عمها خالد بن هشام بن المغيرة وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وحُبِسا في بيتها، بينما كانت هي في عزاء شهيدي آل عفراء، ولما أُخبِرت بذلك خرجت ودخلت عليهما، فلم تكلمهما وغادرت المكان واتجهت لبيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» المخصص لأم المؤمنين عائشة، فقالت: (**يا رسول الله، إن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم عليَّ فأضيفهم، وأدهن رؤوسهم، وألمَّ من شعثهم، ولم أحب أن أفعل ذلك حتى أستأمرك. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لست أكره شيئاً من ذلك! فافعلى من ذلك ما بدا لك**)[٢].

* الوضع بمكة:

أما في مكة فقد تزعّم أبوسفيان الموقف بعد مقتل وأسْر رجالاتها وعودة الفارّين من المعركة، فقام قائلاً: (**يا معشر قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنُح عليهم نائحة، ولا يبكهم شاعرٌ، وأظهروا الجلَد والعزاء، فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشِّعر أذهب ذلك غيظَكم، فأكلكم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه**[٣]**، مع أنه إنْ بلغ محمداً وأصحابه شمتوا بكم، فيكون أعظم المصيبتين شماتتهم، ولعلكم تُدركون ثأركم، والدهن والنساء عليَّ حرامٌ حتى أغزو محمداً. فمكثَت قريش شهراً لا يبكيهم شاعرٌ ولا تنوح عليهم نائحةٌ**)[٤].

التزمت قريش بكلمة أبي سفيان لمدة شهر، وخلالها كان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره، وقد حزن حزناً شديداً على مَن قُتل مِن وُلده، وكان يحب أن يبكي على ولده، وتأبى ذلك عليه قريش، فكان يطلب من غلامه أن يحضر الخمر ويسلك به الطريق إلى خارج مكة، فيجلس فيسقيه، ثم يبكي على أولاده، ويحثي التراب على رأسه ويقول لغلامه: (**ويحك! اكتم عليَّ أن تعلم بي قريش، فإني أراها لم تجمع البكاء على قتلاها**)[٥].

---

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص١٥٨.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٣.
٣. يعني أن ذلك سيثبط عزائمهم عن الانتقام والثأر.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٤.
٥. ن. م. ص ٤٥.

❊ موقف هند بنت عتبة:

دخلت نساء قريش على هند بنت عتبة فقلن لها: (**ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟ فقالت: حَلْقى**[1]**، أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا، ونساء بني الخزرج؟! لا والله، حتى أثأر محمداً وأصحابه، والدهنُ عليَّ حرامٌ إن دخل رأسي حتى نغزو محمداً. والله، لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي بكيت، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري بعيني من قَتَلةِ الأحبة**)[2]. فمكثت على حالها لا تقرب الدهن، وما قربت فراش أبي سفيان من يوم حلفت حتى كانت وقعة أحد.

❊ موقف اليهود:

عودة إلى المدينة وموقف اليهود الذي كان مسانداً للمنافقين في نشر الأراجيف، ثم انقلبت الأمور عليهم حين شاهدوا النبي والمسلمين بمعية الأسرى فقالوا فيما بينهم: (**هو الذي نجده منعوتاً، والله لا تُرفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت. وقال كعب بن الأشرف: بطن الأرض اليوم خيرٌ مِن ظهرها، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم، وملوك العرب، وأهل الحرم والأمن، قد أصيبوا**)[3].

ثم خرج كعب إلى مكة فنزل على أبي وداعة، فجعل يُنشد الشعر في هجاء المسلمين ورثاء قتلى بدر من قريش، وأخذها الناس منه وأظهروا المراثي، وصار الصبيان والجواري ينشدون هذه الأبيات، فناحت قريش على قتلاها شهراً، ولم تبق دارٌ بمكة إلا فيها نوح، وجزَّت النساء شَعورهن، وخرجن إلى السكك فسترن الستور في الأزقة وقطعن الطرق وبتن ينُحن ليل نهار، وكان يُؤتى براحلة الرجل المقتول منهم أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها.

أبو وداعة الحارث بن صُبيرة أو ضبيرة من بني سهم وأمه من بني زُهرة. زوجته ابنة عم النبي وهي أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب. أُسِر ببدر فوصل ولدُه المطلب المدينة في ٤ ليال لفدائه، فكان أول مَن أُطلق أُساره. أسلم يوم فتح مكة.

❊ قصة عمير بن وهب:

كان من بركات الانتصار ببدر أن أسلم جمعٌ من أهل مكة، ففي الخبر أن عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي اجتمع بصفوان بن أمية فِي حِجر إسماعيل بجانب الكعبة المشرفة، وابن عُمير أسير لدى المسلمين، واتفقا على أن

١. حلقى: أي حلقني الله، يعني فليصيبني وجع في حلقي. وفي بعض المصادر: حلافي أن أبكيهم. أى قسَماً لن أبكيهم.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٥.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٤-٤٥.

يغتال عُمير النبيَّ في المدينة، على أن يتكفَّل صفوان بدَيْنِه وقال لهَ: (**دَيْنُك عليَّ وعيالُك أسوةُ عيالي، فاعمَد لشأنك فجهّزه**)، وحمَله على بعير، فشحذ عُمير سيفَه وسمَّه وسار إلى المدينة فدخلها متقلداً سيفه، فبَصُرَ به عمر بن الخطاب، فوثب إليه ووضع حمائل سيفه في عنقه وأدخله على رسول الله «صلى الله عليه وآله» وقال: (**هذا عدو الله عمير بن وهب. فقال: تأخَّر عنه يا عمر. ثم قال له: ما أقدَمَك؟ قال: لفداء أسيري عندكم. قال: فما بال السيف؟ قال: قبَّحها الله، وهل أغنَت من شيء؟ و إنما نسيتُه حين نزلت وهو في رقبتي. فقال له: فما شرَطْتَ لصفوان بن أمية في الحِجر؟ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟ قال: تحمَّلتَ له بقتلي على أن يقضي دَيْنَك ويعول عيالك، والله «تعالى» حائل بيني و بين ذلك. فقال عمير: أشهد أنك لرسول الله، وأنك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله. كنّا نكذِّبُك بالوحي من السماء، وهذا الحديث كان سراً بيني وبين صفوان كما قلت، لم يطَّلع عليه أحد غيري. فقال عمر: و الله لخنزيرٌ كان أحب إليَّ منه حين طلع، وهو الساعة أحبُّ إليَّ مِن بعض ولدي. فقال رسول الله «صلى الله تعالى عليه وسلم»: علِّموا أخاكم القرآن و أطلقوا له أسيره. فقال عمير: إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، وقد هداني الله، فله الحمد، فائذن لي فألحِق قريشاً فأدعوهم إلى الله والإسلام. فأذن له، فلحق بمكة ودعاهم، فأسلم بشرٌ كثير، وحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً**)[1].

* خاتمة:

وبذا انتهت فصول هذه الغزوة بانتصار مذهل للمسلمين عزَّزوا به مشروعَهم الفتي، وامتلؤوا عزاً وفخراً بالنصر الذي حققته تلك الثلة التي خرجت مع النبي «صلى الله عليه وآله» ببدر، حتى أصبح عنوان «البدريين» عنواناً مهماً في تقييم صحابة رسول الله، وانكسر حاجز الرهبة في مواجهة قريش وطغيانها، ولكنه سرعان ما سيعود مجدداً بعد أحداث غزوة أُحُد في السنة المقبلة، حيث صمَّم المشركون على الثأر لهزيمتهم الشنيعة، وحققوا نصراً جزئياً على إثر المخالفات التي صدرت عن بعض المسلمين فيما سنستعرضه بإذن الله ضمن بيان تفاصيل غزوة أُحُد وملابساتها ونتائجها.

١. الماوردي: أعلام النبوة، ج ١، ص ١٢٠-١٢١.

معركة
أُحُـــــد



معركة أُحُد



تمتاز هذه المعركة بأنها ثاني المعارك والغزوات الكبرى على عهد النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، كما واجه فيها المسلمون هزيمة غير مسبوقة، بالإضافة إلى أن القرآن في سورة آل عمران قد تحدث عنها بصورة مفصَّلة، مستعرضاً الكثير من العِبَر والدروس التي استفاد منها المسلمون في التحديات اللاحقة والمعارك المستقبلية.

* تحديد زمني ومكاني:

نص المؤرخون على أن المعركة وقعت يوم السبت، السابع من شهر شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، أي في السنة الثالثة منها، وبالرجوع إلى برامج التحويل بين التاريخين الهجري والميلادي يتبيّن أن هذا اليوم يوافق الثالث والعشرين من شهر مارس من سنة ٦٢٥م.

موقع المعركة بجوار جبل أُحُد، والذي كان يبعد عن المدينة المنورة بحدودها في ذلك الزمان: ثلاثة أميال ونصف الميل، وبما أن الميل الواحد يساوي ١,٨٥ كم على بعض التقادير، فتكون المسافة ٦,٤٧٥ كم تقريباً. أما الآن فالعمران متصل من مركز المدينة إلى الجبل.



* جبل أُحُد:

قال ياقوت الحموي: (**وهو جبل أحمر، ليس بذي شناخيب**[١]، **وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها**[٢] **وعنده كانت الوقعة الفظيعة.. وفي الحديث: أن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: أُحُد جبل يحبُّنا ونحبُّه، وهو على باب من أبواب الجنة. و عَير جبلٌ يُبغضنا ونُبغضه، وهو على باب من أبواب النار**)[٣].

للمدينة حرم كما لمكة، وفي الخبر عن النبي: (إن مكة حرم الله حرّمها إبراهيم «عليه السلام» وإن المدينة حرمي ما بين لابتيها، حرم لا يُعضَد شجرُها) أي لا يُقطع (وهو ما بين ظل عاير إلى ظل وَعِير، ليس صيدها كصيد مكة، يؤكل هذا ولا يؤكل ذاك). وجبل عاير هو ذاته جبل عير.

ورد هذا الخبر حول جبل أُحُد في كتب عديدة منها صحيح البخاري قال: (**بابُ أُحُد يحبّنا ونحبُّه، قاله عباس بن سهل عن أبي حُمَيد عن النبي «صلى الله عليه وسلم»..... عن قتادة: سمعتُ أنساً «رضي الله عنه» أن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: هذا جبلٌ يحبنا ونحبه**)[٤].

وفي «إعلام الوَرى بأعلام الهدى» للفضل بن الحسن الطبرسي عن أبي حمُيَد الساعدي قال: (**أقبلْنا مع**

١. شناخيب: جمع شُنْخُوبَةُ وشُنْخوبُ: القمم المدببة للجبال.
٢. أي أن التوسع العمراني في زمانه ـ نهايات القرن السادس وبدايات القرن الهجري السابع ـ قد قلص المسافة إلى الثلث تقريباً.
٣. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ١٠٩.
٤. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر «صحيح البخاري»، ح ٣٨٥٥.



رسول الله «صلى الله عليه وآله» من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال: هذه طابة، وهذا أُحُد. جبل يحبنا ونحبه)[١].

قال ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث السابق الوارد في «صحيح البخاري»: **(قال ذلك لما رآه في حال رجوعه من الحج. ووقع في رواية أبي حُميد أنه قال لهم ذلك لما رجع من تبوك وأشرف على المدينة، قال: هذه طابة. فلما رأى أُحُداً قال: هذا جبل يحبنا ونحبه. فكأنه «صلى الله عليه وآله» تكرر منه ذلك القول)**[٢].

وفي رواية أخرى في «صحيح البخاري» عن أنس أنه قاله عند رجوعه من خيبر[٣]، وفي «تاريخ المدينة» لعمر بن شَبَّة عن أبي قِلابَة قال: **(كان النبي «صلى الله عليه وسلم» إذا جاء من سفر فبدا له أُحُد، قال: هذا جبل يحبنا ونحبه. ثم قال: آيبون، تائبون، ساجدون لربنا، حامدون)**[٤]. وروي الخبر أيضاً عن أبي هريرة وعن أبي عيسى ابن جبير.

وقال العسقلاني في تفسير معنى الحب هنا: **(وللعلماء في معنى ذلك أقوال:**

أحدها: أنه على حذف مضاف، والتقدير أهل أُحُد والمراد بهما الأنصار لأنهم جيرانه[٥].

١. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ص ٧٥.
٢. العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الحديث ٣٨٥٥.
٣. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر «صحيح البخاري»، ح ٢٧٣٦.
٤. ابن شبة: تاريخ المدينة، ح ٢٤٦.
٥. أي جيران الجبل.

ثانيها: أنه قال ذلك للمسرّة بلسان الحال إذا قدم من سفر لقربه من أهله ولُقياهم، وذلك فِعل من يحب بمن يحب.

ثالثها: أن الحب من الجانبين على حقيقته وظاهرِه، لكون أُحُد من جبال الجنة كما ثبت حديث أبي عبس بن جبر مرفوعاً: «جبل أُحُد يحبنا ونحبه وهو من جبال الجنة». أخرجه أحمد. ولا مانع في جانب البلد من إمكان المحبة منه كما جاز التسبيح منها، وقد خاطبه «صلى الله عليه وسلم» مخاطبة مَن يعقل فقال لمّا اضطرب: اسكن أُحُد. الحديث. وقال السهيلي: كان «صلى الله عليه وسلم» يحب الفأل الحسن والاسم الحسن، ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأَحَدِيَّة. قال: ومع كونه مشتقاً من الأَحَديّة فحركات حروفه الرفع، وذلك يُشعر بارتفاع دين الأَحَد وعلوّه، فتعلق الحب من النبي «صلى الله عليه وسلم» لفظاً ومعنى، فخُصّ من بين الجبال بذلك والله أعلم)[١].

وفي «تاريخ المدينة» لابن شَبّة عن زينب بنت نبيط[٢]، عن أنس بن مالك أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (أُحُد على باب من أبواب الجنة، فإذا مررتم به فكلوا من شجره، ولو مِن عضاهه)[٣].

العِضاه كل شجر له شوك يعظم. ومنه شجر السَّلَّم. ينتشر بجبل أحد العديد من النباتات ومنها (لوز النبي = اللوز الهندي = التمر الهندي) والحميض والعوسج والسَّمر والسَّلم والسدر.

وروى السمهودي أنها كانت ترسل ولائدها فتقول: (اذهبن إلى أُحُد فأتينّي من نباته، فإن لم تجدن إلا عِضاها فأتينّي به)[٤].

وروي عن أنس بن مالك قوله: (حدثنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لما تجلى الله «عز وجل» للجبل، طارت لعظمته ستة أجبُل، فوقعت ثلاثة بالمدينة، وثلاثة بمكة، وقع بالمدينة أحد وورقان ورضوى، ووقع بمكة حراء وثبير وثور. قال أبو غسان: فأما أُحُد فبناحية المدينة، على ثلاثة أميال منها في شاميها، وأما ورقان فبالروحاء من المدينة، على أربعة بُرُد، وأما رضوى فبينبع، على مسيرة أربعة ليال، وأما حراء فبمكة وجاه بئر ميمون، وثور أسفل مكة، وهو الذي اختبأ فيه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في غاره)[٥].

ولا يعدو هذا الخبر الأخير أن يكون من المختلقات والأساطير، وأما مسألة الربط بين أُحُد والجنة والتناول من شجر ذلك الجبل، وهل صدر هذا الكلام عن النبي «صلى الله عليه وآله» فعلاً أم لا، فالله أعلم بحقيقة ذلك. ثم ما معنى أن يكون جبلٌ على باب من أبواب النيران، وأنه يُبغض النبي والنبي يُبغضُه؟! نعم، برَّر بعضهم

١. العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، في شرح الحديث ٣٨٥٥.
٢. هي زوجة أنس بن مالك.
٣. ابن شبة: تاريخ المدينة، ح ٢٥٥.
٤. السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، ج١، ص ٢٦٤.
٥. ابن شبة: تاريخ المدينة، ح ٢٤٠.



من مهاريس جبل أُحُد

بُغض النبي لهذا الجبل بالنظر إلى اسمه، فالعَيْر هو اسم الحمار المذموم أخلاقاً. والحق أن هذا التبرير ليس في محله ولا معنى له، وأقصى ما في الأمر ـ لو افترضنا صحته ـ أن يغيّر اسمه إلى اسم جميل أو ذي دلالة محبَّبة إلى النفس، لا أن يبغض جبلاً هو من خلق الله «تعالى». وقد نقل السمهودي خبر (**دفن هارون «عليه السلام» بأُحُد، وهناك شِعْب يعرف بشَعْب هارون بن عمران، يزعمون أنه بأعلاه**) ثم علّق قائلاً: (**وهو بعيد جداً**)[1].

أما عن سبب تسمية جبل أُحُد بهذا الاسم، فقد نص الباحثون على أن ذلك يعود لتوحُّده وانقطاعه عن غيره من الجبال كما هو ظاهر للعيان، ويبلغ طوله ٧ كم، وعرضه بين ٢ و ٣ كم، وارتفاعه يصل إلى قرابة ٣٥٠م. أغلب صخور الجبل من الجرانيت الأحمر، وبعض الصخور تميل إلى الأخضر الداكن والأسود، وبها عدة تجاويف طبيعية تسمى «المهاريس» تقوم باحتجاز مياه الأمطار، وبه العديد من الكهوف والشقوق التي يتجاوز ارتفاع بعضها متراً ونصف، وعمقها عشرة أمتار.

❊ أحداث سبقت المعركة:

شهدت السنة الهجرية الثانية انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى انتصاراً مذهلاً، نتج عنها قتل وأسر كبار رجالات قريش، ثم أعقب ذلك قيام النبي «صلى الله عليه وآله» باتخاذ مجموعة من الإجراءات العسكرية والأمنية التي زادت موقف المسلمين قوة، كما زادت من تعقيدات موقف قريش، ويمكن تلخيصها كالتالي:

١. السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، ج١، ص ٢٦٤.

• غزوة بني قينقاع: فبعد أقل من شهر من انتهاء معركة بدر الكبرى، صدَر عن يهود بني قينقاع أمران:

١. التمرُّد على المعاهدة التي توافق عليها النبي مع يهود المدينة: (**لما أصاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحاب بدر وقدِم المدينة، بغت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من العهد، فأرسل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إليهم فجمَعَهم، ثم قال: يا معشر يهود، أسلِموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش. فقالوا: يا محمد، لا يغرنَّك مَن لقيت، إنك قهرتَ قوماً أغماراً. وإنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتَنا لتعلمنَّ أنك لم تقاتل مثلنا**)[١].

٢. انتهاك حرمة امرأة شريفة: كانت زوجة أحد المسلمين، بعمل مناف للأدب، حيث ربطوا طرف ثوبها وثبتوه بشوكة، فلما قامت انكشف جزء من جسدها للعيان، فتضاحك اليهود، ففزع لها مسلم شهد الحدث، وقَتل اليهودي، فاجتمع بنو قينقاع وقتلوا المسلم وأعلنوا الحرب، فحاصرهم النبي «صلى الله عليه وآله» خمس عشرة ليلة حتى قذف الله في قلوبهم الرعب فاستسلموا، وتم إجلاؤهم واغتنام أموالهم. ولا يخفى أن هذا الانتصار على قوم أشدّاء متحصّنين يملكون كمية جيدة من الأسلحة، وبعد فترة وجيزة من انتهاء غزوة بدر، هذا كله يمثّل رسالةً قوية إلى قريش وحلفائها.

حيي بن أخطب سيد بني النضير، وهو والد أم المؤمنين صفية. كان من أعلم اليهود بدينهم، كما كان من أشد مقاتليهم.

• غزوة السَّويق: الإجراء الثاني الذي اتخذه النبي على المستوى العسكري والأمني كان بعد شهرين من معركة بدر، وجاء كردة فعل على عمل تخريبي قام به أبوسفيان، وعُرف الحدث باسم غزوة السَّويق[٢].

وتفصيل الحدث بحسب ما رواه بعض المؤرخين: (**وسببها أن أبا سفيان بن حرب بعد وقعة بدر حرَّم على نفسه النساء والطيب، وقال ابن سعد: حرَّم الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه، فخرج في مائتي راكب ـ وقيل في أربعين ـ فجاءوا بني النضير ليلاً، فطرقوا حُيي بن أخطب ليستخبروه من أخبار رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأبى أن يفتح لهم، وطرقوا سلاّم ابن مِشكَم ففتح لهم وقَراهم[٣] وسقاهم خمراً، وأخبرهم من أخبار رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلما كان السَّحَر خرج أبو سفيان فمرَّ بالعُريض، وبينه وبين المدينة نحو من ثلاثة أميال، فقَتل به رجلاً من الأنصار وأجيراً له، وحرق**

سلام بن مشكم، من علماء بني النضير، كان من أعداء النبي، روي أن زوجته زينب بنت الحارث قدمت للنبي شاة مسمومة لتقتله.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٦٥.
٢. السَّويق: يُطلق على الطعام المعمول من دقيق الحنطة أو الشعير المحموص مع قليه وخلطه بالسمن أو العسل، ويتناول بطرق متعددة.
٣. القِرى: الضيافة.



أبياتاً وتبناً، ورأى أن يمينه قد حلت، ثم ولّى هارباً). ما أن عرف النبي بما جرى حتى استنفر أصحابه: **(فخرج في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار في أثرهم وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفَّفون فيُلقون السويق، وهي عامة أزوادهم... فجعل المسلمون يأخذونها، فسميت غزوة السويق، ولم يلحقوهم وانصرف رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة بعد غياب خمسة أيام)**[1]. وهكذا انقلب فرار أبي سفيان عليه خزياً وعاراً بعد أن كان يظن أن غزوته هذه سترفع من شأنه وتعيد إلى قريش شيئاً من هيبتها التي فقدتها.

• غزوة قَرقَرة «قرارة» الكُدْر[2]: وهي الإجراء الثالث الذي اتخذه النبي في الثالث من محرم، أي في بداية السنة الثالثة من الهجرة، حيث بلغ النبي «صلى الله عليه وآله» وجود تجمع وتحرك مريب لقبيلتي غطفان وسُليم في تلك المنطقة، فخرج مع مائتين من أصحابه، فلما علم الأعراب بذلك فرّوا وتركوا إبلهم، وكانت ٥٠٠ رأس من الإبل، مع عبدٍ يرعاها.

اغتنم المسلمون الإبل، وبقي النبي مع أصحابه في المنطقة ثلاثة أيام إمعاناً في التحدّي وإظهار القوة، ثم غادروا المنطقة حتى إذا وصلوا بالقرب من العُريض خمّس الغنيمة واقتسم الباقي لكل رجل بعيرين، وأعتق العبد الراعي ـ واسمه يسار ـ بعد أن رآه يصلي معهم.

• غزوة غَطَفان «ذي أمَرّ»: وهي الإجراء العسكري الرابع، ووقعت في ربيع الأول، أي بعد شهرين من

١. الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٢٤٦.
٢. القرقرة الأرض الملساء. والكدر جمع الكدرة من اللون أو الكمية الضخمة من المدر والطين الجاف.



الغزوة السابقة، وذلك أن النبي «صلى الله عليه وآله» بلغه أمر تجمُّع لبني ثعلبة ومُحارب في منطقة ذي أمرّ القريبة من قرقرة الكدر، وأنهم يريدون الإغارة على المدينة وعلى رأسهم دُعْثُور بن الحارث بن مُحارب.

خرج النبي في ٤٥٠ من أصحابه، فوجدوا رجلاً منهم، ولما استعلموا منه الخبر كذب عليهم وأنكر وجود تجمّع للأعراب، فأدخلوه على النبي «صلى الله عليه وآله» فدعاه إلى الإسلام فأسلم، واعترف بعدها أن القوم قد هربوا متجنّبين المواجهة، وسار مع المسلمين يدلّهم على الطريق الذي يمكن مباغتتهم بها، إلا أنهم لما وصلوا وجدوهم قد التجؤوا إلى رؤوس الجبال ينظرون إليهم، ومعهم ذريتهم وأنعامهم. فلم يقع قتال بين الطرفين، ولم يغنم المسلمون شيئاً، وعادوا إلى المدينة بعد أن وأدوا تلك الغارة.

• غزوة بني سُليم: ووقعت بمنطقة بُحران بالقرب من الفُرع. مرة أخرى، علم النبي «صلى الله عليه وآله» بوجود تجمع مريب للأعراب من بني سُليم، فخرج في ثلاثمائة من أصحابه في تحرك سريع وسري حيث لم يُخبر أحداً عن مقصده، حتى إذا وصل دون بُحران بليلة لقي رجلاً منهم، فاستعلمه خبر القوم، فادّعى أنهم قد تفرّقوا، فاحتُبس وتحرك النبي «صلى الله عليه وآله» نحو بُحران، فما وجد فيها أحداً، إذ هرب القوم خوفاً، فأقام عدة أيام في تلك المنطقة ثم أطلق سراح الرجل وعاد إلى المدينة.

• سريَّة القَرَدَة: والقردة: اسم ماء بنجد بالقرب من الربذة، حيث جاء الإجراء العسكري السادس بقيادة

زيد بن حارثة في جمادى الأولى من تلك السنة، على أثر المضايقات المستمرة التي لاقتها قوافل قريش في طريق التجارة الساحلي من قبل المسلمين، حيث اتجهوا للبحث عن طريق بديلة: (**قال صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا [1] علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن في دارنا هذه، ما لنا بها نفاق[2]، إنما نزلناها على التجارة، إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة. قال له الأسود بن المطلب: فنكِّب[3] عن الساحل، وخذ طريق العراق. قال صفوان: لست بها عارفاً. قال أبو زمعة: فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مغمض العين إن شاء الله. قال: من هو؟ قال: فرات بن حيان العجلي، قد دوّخها وسلكها. قال صفوان: فذلك والله**)[4]. وهكذا استدعوا الرجل وأبدى استعداده، وتجهز صفوان بن أمية، وخرج بمال كثير.

من جهة أخرى فقد دخل المدينة نُعيم بن مسعود الأشجعي[5]، قبل إسلامه، وجلس مع أحد المسلمين عند بني النضير يشربان الخمر ـ قبل تحريمها ـ فأخبره خبر القوم، فسارع المسلم إلى النبي وأخبره، فبادر إلى استدعاء زيد بن حارثة مع مائة من المسلمين، فاعترضوا القافلة فأصابوا العِير، وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين، وقدِموا بالعير على النبي «صلى الله عليه وآله» فخمَّسها، فكان الخمس يومئذٍ قيمة عشرين ألف درهم، وقُسّم ما بقي على أهل السرية.

وبذا حُرم المشركون من طريق «مكة ـ العراق» عبر نجد، كطريق بديلة عن الطريق الساحلية، والتي اضطروا إليها على الرغم من أنها كانت ستكلفهم أكثر بسبب بُعد المسافة، فأصبح الحصار الاقتصادي مزعجاً أكثر لقريش، كما أنهم قد فقدوا أموال التجارة التي كانت في القافلة مما زاد الطين بِلّة.

كل الأحداث السابقة تراكمت مع هزيمة المشركين ببدر، لتدفع قريشاً نحو اتخاذ القرار الحاسم لغزو المدينة المنورة بأعداد مضاعَفة، واستعدادات أكبر، وتحالفات أوسع، ليتم القضاء على المسلمين، أو تُكسر شوكتهم نهائياً.

* قريش تعلن النفير:

كان لمقتل وجرح وأسر العديد من كبار رجالات قريش في غزوة بدر أن صفت القيادة لأبي سفيان والتي كان يطمح إليها من قبل، ويمنعه عنها وجود تلك الشخصيات المنتمية إلى الأسر المكية المختلفة.

---

١. عوّر علينا متجرنا: عرّضها للتلف.
٢. نفاق: مصادر للرزق ننفق من خلالها.
٣. نكّب: مِل وانحرف.
٤. سيأتي معنا ضمن أحداث غزوة الأحزاب دور نعيم بن مسعود في نقل الكلام بين الأطراف المتحالفة والمتصارعة، وهذا من طبعه.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٤.

ثم إن العداء الكبير الذي أعلنه أبوسفيان للإسلام والتصدّي لرسول الله «صلى الله عليه وآله» مهّد له الطريق لمثل هذه الزعامة الكبيرة. ومن هنا نجد أن محور الأحداث في غزوة أُحُد يدور حول أبي سفيان في كثير من الأحايين.

ولما كان تجهيز جيش جديد باستعدادات ضخمة وتحالف واسع لغزو المدينة يحتاج إلى تأمين موارد مالية كبيرة، فقد قررت قريش التالي: (لما رجع من حضر بدراً من المشركين إلى مكة، والعير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبة أهل العير، مشَت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب: الأسود بن المطلب بن أسد، وجبير بن مطعم، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب ابن عبد العزي، وحُجَير بن أبي إهاب، فقالوا: يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدِمْت بها فاحتبستَها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبو الأنفس، يجهّزون بهذه العير جيشاً إلى محمد، وقد ترى مَن قُتل من آبائنا، وأبنائنا، وعشائرنا. قال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور الثائر، قد قُتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العير موقوفةً حتى تجهّزوا للخروج إلى أحُد، فباعوها وصارت ذهباً عيناً، فوُقف عند أبي سفيان. ويقال إنما قالوا: يا أبا سفيان، بِع العِير ثم اعزل أرباحها. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً، وكان متجرهم من الشام غزة، لا يعدونها إلى غيرها).

فهل كان التجهيز من كل المال أم من الأرباح فقط؟ النص التالي يبيّن ترجيح بعض المؤرخين للرأي الثاني: (وكان أبو سفيان

جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، كان عالماً بالأنساب، كان والده قد أجار النبي. أسلم قبيل أو بعد الفتح.

الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، فرَّ من المعركة ببدر، وأسلم يوم الفتح، واستشهد بمعركة اليرموك سنة ١٥ هـ.

عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي. أسلم يوم الفتح. كان ممن يجهّز المقاتلين بمكة ويزوّدهم لحرب الجمل ضد الإمام علي، ولكنه مات قبل أن يشارك في الحرب.

حويطب بن عبدالعزى بن أبي قيس بن عبد ود، أسلم يوم الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم. اشترى من معاوية داراً له بأربعين ألف دينار. مات سنة ٥٤ هـ.

حُجَير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل بن عبدمناف. أسلم يوم الفتح.

قد حَبس عِير زُهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر، وسلَّم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبني أبيه وبني عبد مناف بن زُهرة، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يُسلّم إلى بني زُهرة جميعاً. وتكلم الأخنس فقال: ما لعير بني زُهرة من بين عيرات قريش؟ قال أبو سفيان: لأنهم رجعوا عن قريش. قال الأخنس: أنت أرسلت إلى قريش أن ارجِعوا فقد أحرزنا العير، لا تخرجوا في غير شيء، فرجعنا. فأخذت زُهرة عيرها، وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف، لا عشائر لهم ولا منعة، كل ما كان لهم من العير. فهذا يبين أنما أخرج القوم أرباح العير)[1]. وبعد تأمين المصدر المالي، توجهت قريش لجمع أطراف التحالف: (قالوا: نسير في العرب فنستنصرهم، فإن عبد مناة غير متخلِّفين عنا، هم أوصل العرب لأرحامنا، ومَن اتَّبَعنا من الأحابيش[2])[3].

وقررت قريش أن تبعث أربعة رجال مميَّزين من حيث الفطنة والأسلوب لاستنهاض القبائل وتشكيل التحالف وهم: عمرو بن العاص الأموي، وهو من أدهى العرب، وهُبَيْرة بن أبي وهب المخزومي، وكان شاعراً، وعبدالله بن الزِّبَعْرَى السهمي القرشي، وكان شاعراً، وأبو عزة الجُمَحي، وكان شاعراً أيضاً.

استجاب أولئك النفر لطلب قريش ما عدا أبو عزة الذي أبى أن يسير، لأنه قد وعد النبي حين وقع في الأسر يوم بدر وعفا عنه، أن لا يساهم في التجييش ضده، ولا يخرج في قتال، وقد ذكرنا قصته ضمن حديثنا عن أسرى بدر، وكيف غيّر رأيه وخرج للتجييش ضد النبي والمسلمين.

وهكذا خرج الأربعة واستطاعوا أن يشكّلوا التحالف المطلوب: (فألَّبوا العرب وجمعوها، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا)[4].

مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، أسلم يوم الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم. لما سمع النبي بقدومه ذات مرة قال: بئس أخو العشيرة.

الأخنس بن شريق حليف بني زهرة، أسلم يوم الفتح وكان من المؤلفة قلوبهم. كان حلو المنطق، وُصف بالنفاق والشر والخبث.

قبيلة بني كنانة من القبائل المضرية العدنانية، ولكنانة أولاد، من بينهم النضر «قريش» وعبدمناة، وقد شكل بعض أولاده فروعاً للقبيلة، منها «بنوالنضر بن كنانة» ومنها «بنو عبدمناة بن كنانة»، ويتفرع عنها بنو غفار وبنو حرام وغيرهما.

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٥.

٢. الأحابيش جمع الأحْبُوش، والأحبُوشة: أي الجماعة من الناس اختلفت أجناسهم، وكانت تطلق على مجاميع من الأعراب غير معروفي الانتماء إلى القبائل المشهور، كما تطلق على المتحالفين من قريش وكنانة خزاعة اجتَمعوا عند حُبْشيّ، وهو جَبل بأسفل مكّة، وتحالَفوا.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢١٤.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٥.

وكان لأبي عامر الفاسق دورٌ أيضاً في تشجيع قريش على الخروج للقتال، حيث منّاهم بالنصرة من قِبَل الذين يميلون إليه من أهل المدينة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمتعصبين لانتمائه الأوسي، ليمثّل ذلك ضربة توجَّه إلى المسلمين من الداخل وتزامناً مع الغزوة.

ففي الخبر أنه خرج من المدينة (**في خمسين رجلاً من الأوس حتى قدِمَ بهم مكة حين قَدِم النبي «صلى الله عليه وآله»، يحرّضها ويُعلمها أنها على الحق و ما جاء به محمد باطل! فسارت قريش إلى بدر ولم يسِرْ معها، فلما خرجت قريش إلى أُحُد سار معها، وكان يقول لقريش: إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان، وهؤلاء معي نفر منهم خمسون رجلاً، فصدّقوه بما قال وطمعوا في نصره**)[1].

أبو عامر الفاسق واسمه عبد عمرو بن صيفي الأوسي، والد الشهيد حنظلة المعروف بغسيل الملائكة. عُرف في الجاهلية باسم أبي عامر الراهب لأنه تنصّر وترهّب وكان من سادات الأوسيين قبل هجرة النبي، ومع دخول أهل المدينة في الإسلام، اتخذ أبوعامر موقف المناصب للعداء والحرب لرسول الله حسداً ونقمة، لأنه سُلب الموقع المتقدم الذي كان عليه عند الأوسيين على المستوى الروحي والقيادي، وصار النبي بالنسبة إليهم هو القائد الروحي والسياسي، وبذا غدا أبوعامر من أعوان المشركين والمنافقين والروم ضد الإسلام فأطلق عليه النبي لقب الفاسق، وبه عُرف بعد ذلك. قال ذات يوم للنبي: (الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً. فقال النبي: أجل). ومرت الأيام وإذا به مولّياً إلى مكة حتى إذا فتحها النبي عام ٨ هـ ولّى إلى الطائف، فدخل أهلها في الإسلام بعد فتح مكة بأسابيع، فولّى إلى الشام ومات بها غريباً.

❋ اصطحاب النساء:

وقع الانقسام بين المشركين، أيصطحبون النساء معهم أم لا؟ فمن أيّد ذلك كان يعتبر أن لخروجهن فائدة بث روح الحماسة والغيرة في نفوس المقاتلين، بينما عارضهم المخالفون بذريعة الخشية من وقوعهن في الأسر على يد المسلمين في حالة الهزيمة. قال صفوان بن أمية: (**اخرُجوا بالظّعُن[2]، فأنا أول من فعل، فإنَّه أقْمَنُ[3] أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر، فإن العهد حديث، ونحن قوم مستميتون، لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه. فقال عكرمة ابن أبي جهل: أنا أول مَن أجاب إلى ما دعوت إليه. وقال عمرو بن العاص مثل ذلك**).

ومن جهة أخرى عارضهم نوفل بن معاوية الديلي، وهو من كنانة حلفاء قريش في الحرب فقال: (**يا معشر قريش، هذا ليس برأي، أن تعرضوا حرمكم عدوّكم، ولا آمن أن تكون الدائرة لهم، فتفتضحوا في نسائكم**).

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢١٩.
٢. ظعن: جمع ظعينة: وهي المرأة في الهودج، وتطلق على إمرأة الرجل عموماً.
٣. أقمن: أجدر.

وأصر صفوان على موقفه، فتوجه نوفل إلى أبي سفيان في محاولة منه لإقناعه بعد إخراج النساء إلا أنه واجه موقفاً عنيفاً من هند بنت عتبة: (**فصاحت هند بنت عتبة: إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك، نعم، نخرج فنشهد القتال، فقد رُدّت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر فقُتلت الأحبة**[1] **يومئذٍ. قال أبو سفيان: لست أخالف قريشاً، أنا رجلٌ منها، ما فعَلَت فعلْتُ**)[2].

وهكذا قرروا أن يخرجوا بالنساء، فخرج أبوسفيان بهند بنت عتبة، وأميمة بنت سعد ـ وقيل أمامة بنت سفيان ـ الكنانية، بينما خرج صفوان بن أمية بامرأتين، وطلحة بن أبي طلحة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعمرو بن العاص، كلٌّ بزوجة واحدة، كما خرج غُراب بن سفيان بو عُوَيف بامرأته عَمْرة بنت الحارث، وسيكون لها شأن مع لواء المشركين في أُحُد.

كانت لأبي سفيان عدة زوجات وهن:

صفية بنت أبي العاص، وقد أنجبت له حنظلة وأم حبيبة واسمها رملة وهي زوج النبي وأميمة.

هند بنت عتبة، وأنجبت له معاوية وعتبة وجويرية وأم الحكم.

زينب بنت نوفل الكنانية، وأنجبت له يزيد.

عاتكة بنت أبي أزيهر، وأنجبت له محمداً وعنبسة.

صفية بنت أبي عمرو بن أمية، وأنجبت له عمْراً وعُمَر وصخرة وهنداً وأمينة.

أمامة «وقيل أميمة» بنت سفيان «وقيل سعد» ابن وهب الكنانية، وأنجبت له رملة الصغرى.

لبابة بنت أبي العاص بن أمية، وأنجبت له ميمونة وهي أم ليلى أم علي الأكبر ابن الإمام الحسين.

❊ لمحة عن جيش المشركين:

تشكّل جيش المشركين من ثلاثة آلاف مقاتل، منهم مائة من ثقيف، ومائتي فرَس، وثلاثة آلاف من الإبل، وسبعمائة دارع. وتم عقد الألوية الثلاث في دار الندوة، لواء يحمله سفيان بن عُويف، ولواء للأحابيش، ولواء يحمله طلحة بن أبي طلحة. وقيل: بل خرجت قريش ومن معها على لواء واحد، يحمله طلحة بن أبي طلحة، ولعل الصحيح أنها ثلاث رايات ولواء واحد، وقد تحدثنا عن الفرق بينهما أثناء استعراض أحداث بدر الكبرى.

❊ العباس يخبر النبي:

فلما أجمعوا المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن

---

١. قُتل في معركة بدر أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. وعمها شيبة بن ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة. فأقسمت أن تنتقم لهم.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٦.

يسير على عجل وسرعة ليبلغ المدينة خلال ثلاثة أيام، وأن يأتي رسول الله ليخبره أن قريشاً قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وضمّن رسالته تفاصيل تشكيل الجيش وعتاده وسلاحه.

❋ بلوغ الخبر المدينة:

انطلق الغفاري باتجاه المدينة مسرعاً، فلم يجد النبي «صلى الله عليه وآله» فيها، وأُعلِم أنه قد خرج إلى قرية قُباء، فتوجه إليها مسرعاً وبحث عنه حتى وجده النبي على باب مسجدها يركب حمارَه، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبيُّ بن كعب .

أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، كان يُعد من فقهاء الصحابة وزهادهم، ومن كُتّاب الوحي، كما اعتبر من أفضل قرّاء القرآن. توفي سنة ٣٠ هـ .

سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي، من النقباء الذين بايعوا النبي في مكة، وله موقف مشرّف يوم أحد، فأثنى عليه النبي وترحم إذ استشهد، وسنذكر الخبر لاحقاً.

لم يرغب النبي في أن ينتشر الخبر قبل أن يفكر في كيفية التعامل معه، ولذا استكتم أُبيّاً ما فيه. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، حيث دخل النبي «صلى الله عليه وآله» منزل سعد بن الربيع فقال: **(أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك. فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، وجعل سعد يقول: يا رسول الله، إني لأرجو أن يكون في ذلك خير، وقد أرجفَت يهود المدينة والمنافقون، وقالوا: ما جاء محمداً شيءٌ يحبه. فانصرف رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى المدينة واستكتم سعداً الخبر. فلما خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت: ما قال لك رسول الله؟ فقال: ما لك ولذلك، لا أمَّ لك؟ قالت: قد كنت أسمع عليك. وأخبَرَت سعداً الخبر، فاسترجع سعد وقال: لا أراكِ تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»: تكلم بحاجتك! ثم أخذ يجمع لبتها [1]، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالجسر وقد بلحَت[2]، فقال: يا رسول الله، إنَّ امرأتي سألتني عما قلت، فكتمتُها فقالت قد سمعت قول رسول الله. فجاءت بالحديث كله، فخشيتُ يا رسول الله أن يَظهر من ذلك شيءٌ فتظن أني أفشيت سرَّك. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: خلِّ سبيلَها)[3].**

لم يعد بالإمكان ـ بعد هذا ـ كتمان الخبر، لاسيما بقدوم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خُزاعة حلفاء النبي والذين كانوا قد علِموا بمعسكر جيش المشركين في ذي طُوى، فأعلموه بما شاهدوا.

١. اللبة: وسط الصدر.
٢. بلحت: أعيت وتعبت.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٧٧.



❊ مشاهد في الطريق:

ثم إن أولئك النفر من خزاعة غادروا المدينة واتجهوا نحو مكة، فوجدوا قريشاً وقد عسكرت في رابغ، فتحاشوها إلا أن خبر حركتهم من المدينة إلى مكة بلغ أباسفيان وهو في الأبواء، فقال: (**أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا وعددنا وحذّروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيهم** [١]**، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا. فقال صفوان بن أمية: إن لم يصحروا** [٢] **لنا، عمَدْنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم، فلا يجتبرونها** [٣] **أبداً. و إن أصحروا لنا، فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وِتر** [٤] **عندهم، ولا وتر لهم عندنا**)[٥].

❊ استعراض المستكبرين:

من مشاهد الطريق من مكة إلى المدينة، أن قريشاً كرَّرت أسلوبها الاستعراضي في خروجها كما فعلت حين خرجت إلى بدر، وتحدث القرآن الكريم عن ذلك في قوله «عزوجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا

١. الصياصي: الحصون.
٢. يصحروا: يخرجوا إلى الصحراء خارج أحياظهم ومساكنهم.
٣. يجتبرونها: يعوضونها.
٤. وتر: ثأر.
٥. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢١٨-٢١٩.



عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[1]، إلا أنه كان للقرشيات دور إضافي في إمعان هذه الحالة الاستعراضية: (**وخرج النساء معهن الدفوف يحرّضن الرجال ويذكرنّهم قتلى بدر في كل مَنزل، وجعلت قريش تنزل كل مَنهل ينحرون ما نحروا من الجُزُر[2] مما كانوا جمعوا من العِير، ويتقوَّون به في مسيرهم ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال**)[3].

* نبش قبر السيدة آمنة:

وكان من خِسّة بعض القرشيين أن رغبوا في نبش قبر أم النبي السيدة آمنة بنت وهب، نكايةً برسول الله وتعبيراً عن دناءتهم ورغبةً في ابتزاز النبي «صلى الله عليه وآله» إنْ أسَر بعض القرشيات في حالة هزيمة الغزاة: (**وكانت قريش لما مرت بالأبواء قالت: إنكم قد خرجتم بالظُّعُن معكم، ونحن نخاف على نسائنا، فتعالوا ننبش قبر أم محمد، فإن النساء عورة، فإنْ يُصِب من نسائكم أحداً قلتم هذه رمَّة أمِّك، فإن كان بَرّاً بأمِّه كما يزعم، فلعمري ليفادينَّكم برمَّة أمه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم، فلعمري ليفدينَّ رمَّةَ أمِّه بمال كثير إن كان بها بَراً**).

تقبّل أبوسفيان الفكرة مبدئياً فطرحها على أهل الرأي من قريش، فرفضوها، لا لدناءتها، بل خوفاً من اتخاذها

---

١. سورة الأنفال: ٣٦.

٢. الجزر: جمع جزور، ما يصلح أن يُنحر من الإبل.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢١٩.

سُنّة عند العرب، وبالتالي لربما يأتي يومٌ يشربون هم من نفس الكأس! ولذا قالوا له: (**لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نَبَشت بنو بكر و خزاعة موتانا**)[1].

❋ التجسس على الغزاة:

وفي هذه الأثناء كان النبي «صلى الله عليه وآله» قد بعث رجلين من المسلمين ليتقصّيا له أمور الغزاة، هما أنس ومؤنس ابني فَضالة، وكان ذلك في ليلة الخميس الخامس من شوال، قبل وقوع المعركة بليلتين، فاعترضا لقريش بمنطقة العقيق، فسارا معهم حتى نزلوا بالقرب من المدينة، فأتيا رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأخبراه بما شاهدا.

كلمة العقيق مشتقة من العق وهو الشق، ولربما أطلق الاسم على المكان لوجود سيل يشق الأرض ويجري في مجراه. والمشهور من العقيق ثلاثة: عقيق المدينة، يأتيها من الشمال، فإذا تجاوز ذا الحليفة سمي العقيق، فيدفع بأسفل المدينة. ثم عقيق الطائف: يقع شمالها، وعقيق عُشيرة وهو ميقات أهل نجد. ووادي العقيق كان يشبه النهر الدائم الجريان مما شجع على اتخاذ القصور على ضفافه، ويعد قصر سعيد بن العاص من أشهرها، وقصر مروان بن الحكم، وسعد بن أبي وقاص، وعروة بن الزبير. وكانت توجد بالوادي مزارع خصبة وأرق الحدائق التابعة للقصور القائمة فيه.

❋ الاعتداء على الممتلكات:

حين وصل جيش الغزاة إلى منطقة قريبة من المدينة المنورة، وجدوا أراضي زراعية ممتدة، هي ملك للمسلمين، فاعتدوا عليها بالسماح لأنعامهم ودوابهم أن تسرح فيها وتمرح: (**وكان المسلمون قد ازدرعوا العِرض ـ والعرض ما بين الوطاء بأُحُد إلى الجُرف إلى العرصة، عرصة البقل اليوم ـ وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل، وكان الماء يومئذ بالجرف نشطة لا يريم سابق الناضح مجلساً واحداً، ينفتل الجمل في ساعته**[2]، **حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها معاوية بن أبي سفيان**[3]، **وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة، فقَدِم المشركون على زرعهم فخلّوا فيه إبلهم وخيولهم، وكان لأسيد بن حُضير في العِرض عشرون ناضحاً تسقي شعيراً، وكان المسلمون قد حَذِروا على جمالهم وعمّالهم وآلة حرثهم، وكان المشركون يرعون يوم الخميس، فلما أمسوا جمعوا الإبل وقصَلوا عليها القَصيل**[4]، **وقصلوا على خيولهم ليلة الجمعة، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلوا ظهرهم**[5] **في الزرع وخيلَهم، حتى تركوا العرض ليس به خضراء**)[6].

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢١٩.
٢. نشاط البئر بكونها قَريبة القَعر يَخرج دلوُها بجَذْبَة. لا يريم: لا يبرح. الناضح: الإبل التي تستقي. والمراد أن الماء وفيرة والسقاية سريعة.
٣. أمر معاوية أبان حكمه بحفر عيون ماء في منطقة الغابة الواقعة إلى الغرب من أحد، فأثّر ذلك في وفرة الماء في الجرف.
٤. جزوا وقطعوا الزرع الأَخْضَر.
٥. الظهر: الدواب التي تحملهم.
٦. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢٢٠.

* التجسس من جديد:

ومع اقتراب جيش الغزاة من المدينة أكثر، بعث النبي ـ سراً ـ الحُباب بن المنذر للتجسس والحصول على بعض التفاصيل، وشرط عليه إذا رجع أن لا يخبره بما رأى في حال حضور المسلمين عنده، إلا إذا اكتشف من خلال عملية التجسس أن عدد المشركين قليل. دخل الحباب بين جموع الغزاة متخفياً وكأنه أحدهم، فحزر ونظر إلى جميع ما يريد، ورجع إلى النبي فأخبره لوحده وقال له: (**رأيتُ عدداً حزرتهم ثلاث آلاف، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتا فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع**). فسأله النبي إن كان قد رأى نساءً معهم، فقال: (**نعم، رأيت النساء معهن الدفاف و الأكبار ـ وهي الطبول ـ فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أردنَ أن يحرِّضن القوم ويذكِّرنهم قتلى بدر ، هكذا جاءني خبرُهم، لا تذكُر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونِعم الوكيل. اللهم بك أحول، وبك أصول**)[1].

الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي السلمي، كان له موقف في يوم السقيفة حين قال الخليفة أبوبكر: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء) فقال الحباب: (لا والله لا نفعل أبداً، منا أمير ومنكم أمير) فقال أبو بكر: (لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم ـ أي قريش ـ أوسط العرب داراً، وأكرمهم أحساباً فبايعوا عمر أو أبا عبيدة). فرفض عمر وأعاد الأمر إلى أبي بكر، فتمّ. توفي الحباب على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وليس له عَقِب.

* قرار المواجهة:

استنفر عدد من سادات الأنصار ورجالاتهم كسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة خوفاً من هجوم مباغت يقوم به الغزاة على المدينة، فباتوا ليلة الجمعة ـ وعليهم السلاح ـ في المسجد، بباب حجرة النبي، كما حُرست المدينة تلك الليلة حتى صباح الجمعة قبل يوم من وقوع المعركة.

ورأى رسول الله «صلى الله عليه وآله» رؤيا في تلك الليلة، فلما أصبح واجتمع المسلمون خطب مِن على المنبر، فحمدالله وأثنى عليه، ثم قال: (**أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيتُ كأني في درع حصينة، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبَته**[2]**، ورأيت بقراً تُذبح، ورأيت كأني مُردِفٌ كبشاً. فقال الناس: يا رسول الله، فما أوّلتَها؟ قال: أما الدروع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي من عند ظبته فمصيبة في نفسي، وأما البقر المذبَّح، فقتلى في أصحابي، وأما مردف كبشاً، فكبش الكتيبة**[3] **نقتُله إن شاء الله**).

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢٢٠-٢٢١.
٢. الظبة: حد السيف أو الخنجر.
٣. كبش الكتيبة: مصطلح يطلق على المقاتل القوي الشديد.

أما ابن عباس فقد روي عنه الخبر بصورة مختلفة حيث قال: (**قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: وأما انقصام سيفي، فقَتْلُ رجل من أهل بيتي**). بينما روى المسور بن مخرمة قول النبي «صلى الله عليه وآله» هكذا: (**ورأيتُ في سيفي فلّاً فكرهتُه**) وفسّره من عند نفسه قائلاً: (**فهو الذي أصاب وجهه**)[١].

* النبي يستشير أصحابه:

بإعلان اقتراب الغزاة وما أخبر به النبي «صلى الله عليه وآله» من تلك الرؤيا، بدأت المشاورات حول الطريقة الفضلى للمواجهة، فالخيارات مازالت مفتوحة، وهذه التجربة ستكون مختلفة تماماً عن معركة بدر الكبرى من حيث ظروف بدء المواجهة وموقعها، وهكذا من خلال عدد الغزاة وتركيبة قواتهم.

وقد تحدث المؤرخون عن أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يفضّل البقاء في المدينة متحصناً بها، ومستعيناً بالآطام[٢] والحصون والجدران المبنية بين البيوت والأزقة والطبيعة الجغرافية الخاصة بها والتي تكفل لها قدراً جيداً من الحماية من الغزاة وصعوبة تحركهم بين حرّاتها [٣] وغابات النخيل الموزّعة في أرجائها، وهو الأسلوب الذي سيعتمده لاحقاً في غزوة الخندق.

وقد كانت الرؤيا الصادقة التي رآها وحكاها للناس مؤيّدة لهذا التوجه عنده: (**قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: أشيروا عليَّ. ورأى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، فرسول الله «صلى الله عليه وسلم» يحب أن يوافَق على مثل ما رأى، وعلى ما عبَّر عليه الرؤيا**)[٤].

وقد روي أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال أيضاً: (**امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، وارموا من فوق الصياصي**[٥] **والآطام. فكانوا قد شبكوا المدينة بالبنينان من كل ناحية فهي كالحصن**).

* انقسام الصحابة:

انقسم أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى فئتين، فئة تريد ما أراده النبي، وأخرى تصرّ على الخروج للقتال في أرض مفتوحة وبذرائع شتّى، وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض دوافع المصرّين على الخروج، وسنبحث ذلك مع ما ذكره المؤرخون من الذرائع المقدَّمة مِن قِبَلهم ومدى تطابقها مع ما جاء في القرآن.

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٧٨.
٢. آطام: جمع أُطُم، وهي نوع خاص من الحصون الصغيرة المبنية من الحجارة، وكانت منتشرة في المدينة.
٣. الحرة: الأرض المكسوة بالحمم البركانية السوداء.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٧٩.
٥. صياصي: جمع صِيصِيَة، وهي الحصن.

الرأي الأول الموافق للنبي تزعّمه رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول! فقد قام من فوره وقال: (**يا رسول الله، كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة. والله، لربما مكث الوِلدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدوّنا، ونشبِك المدينة بالبُنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك. يا رسول الله، إن مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منّا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشَرٍّ مَحبِس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً. يا رسول الله، أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة**).

قالوا: (**وكان رأي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مع رأي ابن أبي، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من المهاجرين والأنصار**).

أما الفئة الثانية فتبناها الشباب المتحمسون ومجموعة من كبار رجالات المسلمين، وكان المبرر الأول بحسب النص التاريخي الحماسة للقتال: (**فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الخروج إلى عدوهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدوِّنا**).

أما المبرر الثاني فتمثّل - بحسب هذه النصوص - في التخوف من جرأة العدو، والاطمئنان إلى قوة المسلمين: (**وقال رجال من أهل السن وأهل النية، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، في غيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدوُّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنتَ يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا**).

النعمان بن مالك بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، وكان ثعلبة يُعرف باسم قَوْقَل. وكان قَوْقَل له عزّ، وكان يقول للخائف إذا جاءه: (قَوْقِل حيث شئت فإنّك آمن)، أو يقول: (قوقل في هذا الجبل وقد أمنت) أي ارتق. فسُمّي بنو غَنْم وبنو سالم كلّهم بذلك قواقلة. شهد النعمان بدرًا وأُحُدًا وقُتل يومئذٍ شهيداً، قتله صفوان بن أُميّة، وليس للنعمان بن مالك عقب.

وقريب منه قول إيَاس بن أوس بن عَتيك، قال: (**يا رسول الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبَّح**[1]، **نرجو يا رسول الله أن نَذبح في القوم ويُذبح فينا، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار، مع أني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي**

١. جاء في رؤيا النبي أنه قد رأى بقراً مذبوحاً، وفسر ذلك باستشهاد بعض أصحابه.

يثرب وآطامها! فيكون هذا جرأة لقريش، وقد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذبّ[1] عن عرضنا لم نَزرع، وقد كُنّا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا، ولا يطعمون بهذا منّا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبّهم عنا، فنحن اليوم أحق إذ أيدَنا الله بك، وعرفنا مصيرنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا).

مالك بن سنان بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، روي أنه طَوِيَ ثلاثًا، ولم يسأل أحدًا شيئًا، فقال النبي: (من أراد أن ينظر إلى العفيف المسألة، فلينظر إلى مالك بن سنان). استشهد في غزوة أُحُد.

والمبرر الثالث: طلب النصر أو الشهادة: (وقال **مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري**: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنين إما يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد، فيذلّهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة. والله يا رسول الله، ما أُبالي أيهما كان، إن كلاً لفيه الخير. فلم يبلغنا أن النبي «صلى الله عليه وسلم» رجع إليه قولاً، وسكت).

وقريب منه قول خَيْثَمة بن الحارث الأنصاري، قال: (يا رسول الله، إن قريشاً مكثَت حَوْلاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكلَموا[2]، فيجرِّؤهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويُصيبوا أطرافَنا، ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجتريء علينا العرب حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبّهم عن جوارنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً، لقد بلغ من حِرصي أن ساهمتُ ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة[3]، وقد كنتُ حريصاً على الشهادة. وقد رأيتُ ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول: إلحَق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقد والله يا رسول الله أصبحتُ مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبُرَتْ سِنّي، ورقَّ عظمي، وأحببتُ لقاء ربي، فادعُ الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة. فدعا له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بذلك، فقُتل بأُحُد شهيداً)[4].

قال العلامة الشيخ جعفر السبحاني معلقاً على هذه الكلمات: (إن هذا الّذي ذكرناه ليس سوى نموذج واحد من مواقف كثيرة تجدها ـ أيّها القارىء الكريم ـ في صفحات التاريخ الإسلامي المشرقة، فهناك الكثير من هؤلاء

١. نذب: ندافع.
٢. يُكلَم: يُجرح.
٣. تكلمنا عن هذه الحادثة ضمن تفاصيل أحداث معركة بدر عند الحديث عن سعد بن خيثمة.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٧٩-٨٠.

الفدائيين المخلصين الذين آلوا على أنفسهم أن يدافعوا عن حياض العقيدة وشرف الدين، ورُزقوا الشهادة في نهاية المطاف. إن الايديولوجية الّتي لا تعتمد على أسس الإيمان بالله واليوم الآخر قلما تُنتج جندياً فدائياً مخلصاً مثل خيثمة، ومَن شاكله. إن روح الفداء والتفاني والإيثار بالنفس والتضحية بالغالي والرخيص، التي تدفع بالجندي إلى أن يطلب الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الحق، وإعزاز التوحيد بإصرار وشوق لا توجد إلاّ في مدرسة الأنبياء والمرسلين، ولاتحصل إلا في ضوء تربيتهم. وأما في المجتمعات المادية كالمجتمعات الحاضرة التي تهتم أكبر اهتمام بتحسين أحوال العسكريين حيث إن الهدف من الحروب والمعارك لم يكن قط إلاّ الحصول على وضع معيشي أفضل، فإنّه لا يهم الجنود فيها إلا الحفاظ على أرواحهم وحياتهم، فذلك هو أكبر هدف لديهم، ومن هنا تندر عندهم روح التفاني والتضحية. وأما في مدرسة الأنبياء فإن المعارك والحروب لا يهدف منها إلا ابتغاء رضا الله «سبحانه»، فلو انحصر ذلك في الشهادة أقدم عليها الجندي المسلم من دون خوف أووجل، وعرّض نفسه لجميع الأخطار من دون تلكؤ أو إبطاء)[1].

وقريب من موقف خيثمة، موقف النعمان بن مالك بن ثعلبة من بني سالم، قال: **(يا رسول الله، أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك وأني منهم، فلم تحرمنا الجنة؟ فو الذي لا إله إلا هو لأدخلنها. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: بم؟ قال: إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: صدقت. فاستشهد يومئذ)**.

ولحمزة بن عبدالمطلب عم النبي «صلى الله عليه وآله» موقف مؤيد للجمع، قال: **(والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة. وكان يُقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت صائماً، فلاقاهم وهو صائم)**.

وذُكِر أن النبي «صلى الله عليه وآله» علَّق على قول أنس بن قتادة القائل: **(يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم)**. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: **(إني أخاف عليكم الهزيمة)**[2].

وكأنه «صلى الله عليه وآله» ينبههم أن الموت والشهادة في حد ذاتها ليست غاية كي لا يفكّر المسلم إلا بها عند مواجهة العدو، بل الغاية انتصار الإسلام، وعليهم أن يفكروا ويخططوا في هذا الاتجاه، بحيث لا تكون حساباتهم فردية ونظرتهم ضيقة، وأن أحدهم لو نال الشهادة في طريق الانتصار فذلك، وإن لم ينلها مع تحقق النصر فقد نال أجراً لا يقل عن الشهادة.

---

١. السبحاني: سيد المرسلين، ج٢، ص ١٤٣-١٤٤.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٠.

* إعلان القرار النهائي:

وهكذا، وجد النبي «صلى الله عليه وآله» أن الكثرة من أصحابه يأبون إلا الخروج للقتال، على الرغم من تفضيله الخطة الأخرى في المواجهة، الأمر الذي دفعه للاستجابة إلى رغبتهم في الوقت الذي ما كان لهم أن يخالفوه في ذلك، لعلمهم بأنه مسدَّد من الله «عزوجل».

وأما سبب عدم إصراره على موقفه على الرغم من إبدائه تخوّفاً من الهزيمة في المعركة، فلربما يعود إلى تخوّف أي قائد من تخاذل قواته في ما لو عارض توجه عدد كبير منهم، وبالتالي انكسار معنوياتهم، وإحداث شرخ عميق في صفوف جيشه، وفيما بينه وبينهم.

وهكذا صلّى النبي «صلى الله عليه وآله» صلاة الجمعة بالناس، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح مؤيدو الخروج بإعلان القرار النهائي لصالحهم، وكرِه ذلك القسم الآخر. وعلى أثر ذلك، أمر النبي بالتهيؤ للعدو، ثم صلى العصر بالناس.

وفي الأثناء بدأ الاحتشاد يتسارع من الأطراف المختلفة، من المدينة وما حولها، والكل يتلبّس السلاح، وأدخلوا النساء والأطفال في الآطام والحصون لحمايتهم. وهي صورة مغايرة تماماً لما جرى يوم بدر، حين نادى النبي «صلى الله عليه وآله» بالخروج، فتلكّأ كثيرون متعذّرين بأعذار شتى.. فما سر هذا الإقبال الشديد هذه المرة؟ وهل الغاية واحدة عند الجميع، وهي التطلع لهزيمة العدو أو نيل الشهادة؟ فلندع الآيات القرآنية تخبرنا عن حقيقة الأمر.

قال الله «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[1].

وقال «عز اسمه»: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[2].

ومن هنا ندرك أن قسماً ممن تحمّس للخروج ومعارضة أمر النبي «صلى الله عليه وآله» إنما كان يتطلع للنصر ومن ثم نيل الغنائم ـ التي لا ينالها بعد التخميس ـ إلا المشتركون في القتال، وهو ما تحقق للمقاتلين في غزوة بدر الكبرى، وحُرم من ذلك مَن لم يخرج للقتال.

وهذا ما سيدفع بعضهم لاحقاً للاندفاع إلى جمع الغنائم قبل انتهاء المعركة وحسم الموقف فيها ـ كما

---

١. سورة آل عمران: ١٥٢.

٢. سورة آل عمران: ١٤٥.

سنعرف ذلك بالتفصيل ـ على الرغم من الأوامر النبوية الصريحة بعدم ترك المواقع المحددة لهم إلا بإذنه، وعلى الرغم من توجيههم للعودة إلى مواقعهم.. ولكنهم استمروا في العصيان حتى وقعت الهزيمة.

وليست هذه هي المرة الأولى التي يكون للغنائم فيها التأثير السلبي على المسلمين، فقد وقع النزاع عليها بين فئات ممن حضر القتال بعد الانتصار في بدر حتى قال عبادة بن الصامت كما ذكرنا في محلّه: **(حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقُنا)**[1].

كما تكرر الأمر في غزوة حنين والطائف حين أعطى النبي المؤلفة قلوبهم من الخمس فتحدث قسم من الأنصار بما كان يعكس انزعاجهم واتهامهم النبي بمحاباة أهله بعد فتح مكة. وستعالج الآيات القرآنية هذه المشكلة ضمن معالجتها لنتائج المعركة.

* محاولة للتراجع:

على الرغم من كل الزخم الذي لاقاه إعلان النبي «صلى الله عليه وآله» الخروج للقتال، إلا أن بعضاً من أصحابه من كبار رجالات الأنصار بدؤوا يتندّمون على موقفهم المخالف لرغبة النبي في التحصن في المدينة، وهذا ما نقله المؤرخون بألفاظ عديدة من بينها: **(فدخل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بيتَه، ودخل معه أبوبكر وعمر «رضي الله عنهما»، فعمَّماه ولبّساه، وصفَّ الناسُ له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: قلتم لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فرُدُّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له فيه هوى أو رأى فأطيعوه. فبينا القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كاره، إذ خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، قد لبس لأمته[2]، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمِنطَقة [3] من حمائل سيف من أدم[4]، كانت عند آل أبي رافع مولى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**

أبو رافع مولى رسول الله، من أقباط مصر، ويقال أن اسمه إبراهيم، وقيل أسلم. كان عبداً للعباس بن عبدالمطلب، فوهبه للنبي، فلما أن بشّر أبو رافع النبي بإسلام العباس أعتقه. شهد غزوة أحد والخندق، وكان ذا علم وفضل. جعله الإمام علي على بيت المال في الكوفة. توفي بالكوفة سنة ٤٠ هـ تقريباً.

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٣، ص ٣٧٠.

٢. لأمة: نوع من الدروع، وتطلق الكلمة أيضاً على أداة الحرب كلها، من رمحٍ، وبيضة، ومِغْفَر، وسيف، ودرع.

٣. منطقة: حزام يشد في الوسط.

٤. أدم: جلد.

بعدُ [1]، واعتمَّ، وتقلَّد السيف. فلما خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ندموا جميعاً على ما صنعوا، وقال الذين يلحّون على رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ما كان لنا أن نلح على رسول الله في أمر يهوى خلافه. وندَّمَهم أهلُ الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك. فقال: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: انظروا ما أمرتُكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم)[2].

وفي نص آخر عن جابر الأنصاري أنه قال: **(لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذّن في الناس بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل)[3].**

وهذا النص أوضح دلالة من سابقه، حيث تتضح من خلاله المسألة، وأنها متعلقة بالنداء للحرب والاستعداد لها، وليس فقط ارتداء النبي لأمتَه، فمتى ما اتُّخذ القرار والعدو بالمرصاد، فلابد من المضي في ذلك، وأي قرار بالتراجع يُعدّ هزيمة وانكساراً و فتّاً في عضد الجيش وتحطيماً للمعنويات، خاصة بلحاظ كل تلك الحماسة الملتهبة التي أبداها كبار القوم.

وهكذا حُسِم الأمر وما عاد ممكناً أن يتراجع النبي «صلى الله عليه وآله» عن قرار المواجهة خارج المدينة.

❊ سلمة يواجه طليعة فرسان:

خرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة قبل يوم من المعركة، حتى إذا كان بأدنى العِرض إذا طليعةُ خيل المشركين عشرة أفراس، فلاحقوه، فوقف لهم على مرتفع من الحَرَّة، فراشقهم بالنبل مرّة، وبالحجارة مرّة، حتى انكشفوا عنه. فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى العِرض، فاستخرج سيفاً كان له ودرع حديد كانا دُفنا في ناحية المزرعة، فخرج بهما يعدو حتى أتى بني عبد الأشهل، فخبَّر قومَه بما لقي منهم.

❊ وفاة مالك النجاري:

وفي ذات اليوم توفي الصحابي الأنصاري مالك بن عمرو النجّاري، ولما خرج النبي «صلى الله عليه وآله» مرتدياً لأمته، توجّه إلى حيث وُضع الجثمان، فصلى عليه، ثم دعا بدابّته ليركب إلى أُحُد.

---

١. أي أن هذه الحمائل الجلدية غدت عند آل أبي رافع بعد ذلك واحتفظوا بها.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٠.

٣. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١٣، ص ١٠٨.

* خبرُ قتل النبي:

وبين أيدينا خبر يدل على أن بعض المسلمين صار يتحدث عن أن النبي «صلى الله عليه وآله» معرَّض للقتل في هذه المعركة، ولعل حديثهم هذا ـ إن صح الخبر ـ يدل على أن هؤلاء فسّروا رفض النبي للخروج مع إصرارهم على المخالفة، وعدم ارتياحه من القرار بأنه يعود إلى علم النبي «صلى الله عليه وآله» بأن حدثَ سوء سيقع عليه، ولربما تفسيراً لرؤياه، أو أن الله «جل جلاله» سيغضب عليهم لهذه المخالفة الصادرة عنهم، وسيسلبهم نعمة وجود النبي بين ظهرانيهم.. كما يُحتمل أنها إشاعة بثّها المنافقون لزلزلة نفوس المقاتلين وإضعاف عزائمهم... فكيف عالج النبي هذه الإشاعة بحسب هذا الخبر؟

(قال له جُعال بن سراقة وهو موجَّهٌ إلى أُحُد: يا رسول الله، إنه قيل لي إنك تُقتَل غداً. وهو يتنفس مكروباً، فضرب النبي «صلى الله عليه وسلم» بيده في صدره وقال: أليس الدهر كله غداً؟)[1].

بهذه البساطة والتعامل الحكيم، عالج النبي «صلى الله عليه وآله» هذا القلق الذي كان يساور الصحابي دون أن ينفي الأمر أو يثبته، لأن الموت بيد الله، ولا يعلم بتوقيته إلا هو «جل جلاله»، واحتمال

جُعَل بن سُراقة، اختلفوا في اسمه وانتمائه القبلي، فقيل أن اسمه جُعَيْل بن سُراقة الضمري، وقيل: الغِفاري، وقيل: الثعلبي، وقيل جُعال، وقيل جَعال، وقيل: إنه في عداد بني سواد من بني سلمة، من الأنصار. أسلم قديمًا، وكان من الفقراء البسطاء، غيّر النبي اسمه إلى عمرو وذلك في زمن حفر الخندق، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سَمّاهُ مِن بعدِ جُعَيْلٍ عَمْرُو ... وكان للبائسِ يوْماً ظَهْرُ

شهد المشاهد مع النبي. قال قتادة: (كان جُعيل بن سراقة رجلاً صالحاً، وكان دَميماً قبيحاً). وروي عن أبي ذَر أن رسول الله قال له: (كيف ترى جعيلاً؟ قلت: مسكيناً كشكله من الناس. قال: وكيف ترى فلاناً؟ قلت: سيداً من السادات. قال: لجُعَيْلُ خيرٌ مِن مِلءِ الأرض مثل هذا). فمن هذا الرجل الذي ذمه النبي وحذفته يد التلاعب في النصوص؟ لاحظ النص التالي لما أعطى رسول الله بعض الشخصيات من الخُمس في حُنين، فزاد نصيبُهم على الآخرين، قيل: (يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيلاً! فقال: والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طِلاع الأرض مثل عيينة والأقرع، ولكني أتألفهما، وأَكِلُ جعيلاً إلى إيمانه). ويبدو أن «فلاناً» هو أحد هذين الرجلين بدليل تكرار المقارنة، والتلاعب في النص لربما نشأ محاباةً نتيجة التعصب القبلي، أو لأمر ما نجهله.

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨١.

استشهاد النبي في المعركة أمر وارد، ولا يستطيع أن ينفيه، وبالتالي أبقى باب الأمل مفتوحاً بعبارة: (**أليس الدهر كله غداً؟**).

❋ عقد الألوية:

(ثم دعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أُسَيد بن حُضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، ويقال إلى سعد بن عبادة، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب «عليه السلام»، ويقال إلى مصعب بن عمير)[1].

من جديد يبرز الاختلاف حول حامل اللواء، ولربما بسبب الخلط بين الراية واللواء، كما قلنا من قبل، قال الشيخ المفيد: **(تلت بدراً غزاةُ أُحُد وكانت راية رسول الله «صلى الله عليه وآله» بيد أميرالمؤمنين «عليه السلام» فيها، ومما يدل على ذلك ما رواه يحيى بن عمارة قال: حدثني الحسن بن موسى بن رباح مولى الأنصار قال حدثني أبو البختري القرشي، قال: كانت راية قريش ولواؤها جميعاً بيد قَصي، ثم لم تزل الراية في يد وُلد عبدالمطلب يحملها منهم مَن حضر الحرب حتى بعث الله رسولَ الله «صلى الله عليه وآله» فصارت رايةُ قريش وغيرها إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، فأقرَّها في بني هاشم فأعطاها رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى علي بن أبي طالب «عليه السلام» في غزاة وَدّان**[2]**، وهي أول غزاة حُمل فيها راية في الإسلام مع النبي، ثم لم تزل معه في المشاهد ببدر، وهي البطشة الكبرى، وفي يوم أُحُد، وكان اللواء يومئذ في بني عبدالدار**[3]**، فأعطاه رسول الله «صلى الله عليه وآله» مصعب بن عمير**[4]**، فاستشهد ووقع اللواء من يده فتشوَّفَته القبائل، فأخذه رسول الله «صلى الله عليه وآله» فدفعه إلى علي بن أبي طالب «عليه السلام» فجمع له يومئذ الراية واللواء. وقد ورد عن ابن عباس ما يؤيد ذلك، فقد رُوي أنه قال: لعليٍّ أربع خصال ليس لأحد من العرب غيره، هو أول عربي وعجمي صلّى مع النبي «صلى الله عليه وآله» وهو الّذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي ثبت معه يوم المِهراس ـ يعني يومَ أُحُد ـ وفَرّ الناس، وهو الذي أدخله قبرَه)**[5].

ويضاف إلى ما سبق رواية ابن عساكر في «تاريخ دمشق» و ابن سعد في «الطبقات الكبرى»: **(إن علي بن أبي طالب كان صاحب لواء رسول الله يوم بدر وفي كل مشهد)**[6].

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢٢٦-٢٢٧.
٢. ودّان : موضع بين مكة والمدينة. سُمّيت الغزوة به.
٣. في جهة المشركين.
٤. وهو من بني عبد الدار أيضاً.
٥. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ٧٩-٨٠.
٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٩، ص ١٤٢. وابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٣.

وتتضح من بعض النصوص حساسية الأمر، خاصة وأنها ذات علاقة بفضيلة لأمير المؤمنين «عليه السلام» فقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن مالك بن دينار قال: (**سألتُ سعيد بن جبير قلت: يا أبا عبد الله، مَن كان حامل راية رسول الله «صلى الله عليه وسلم»؟ قال: فنظر إليّ وقال: كأنك رخيّ البال**[1]. **فغضبتُ وشكوته إلى إخوانه من القرّاء. قلت: ألا تعجبون من سعيد، إني سألتُه مَن كان حامل راية رسول الله «صلى الله عليه وسلم»؟ فنظر إليَّ وقال: إنك لرخّي البال. قالوا: أرأيتَ حين تسأله وهو خائف من الحَجّاج وقد لاذ بالبيت**[2]**! كان حاملُها عليّ**)[3].

* الخروج من المدينة:

خرج النبي من المدينة مع جيشه بمنظر مَهيب إظهاراً للقوة ورفعاً للمعنويات التي كانت في الأساس مرتفعة، ولكنها بدأت تتراجع مع التلاوم الذي دار حول مخالفة رغبة النبي، وإشاعة أنه سيُقتَل في المعركة: (**ثم دعا النبي «صلى الله عليه وسلم» بفرَسِه فركبه، وأخذ النبي «صلى الله عليه وسلم» القوس وأخذ قناةً بيده ـ زُجُّ الرمحِ يومئذ من شَبَهٍ** [4]**ـ والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع، فيهم مائة دارع. فلما ركب رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، خرج السَّعْدان أمامَه يعدوان، سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ**[5]**، كل واحد منهما دارع، والناس عن يمينه وعن شماله حتى سلك على البدائع، ثم زقاق الحِسْي حتى أتى الشيخين ـ وهم أطمان كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان، فسمي الأطمان الشيخين**[6] **ـ حتى انتهى إلى رأس الثنيّة** [7]**، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجَل خلفه**[8]**، فقال: ما هذه؟ قالوا: يا رسول الله، هؤلاء حلفاء ابن أبيّ من يهود. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك**)[9].

من الملفت أن يخرج هؤلاء اليهود مع عبدالله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين لمؤازرة قوات المسلمين ضد المشركين، حيث سنعلم لاحقاً أنَّ ابنَ سلول ومَن يأتمرون بأمره سينسحبون من تشكيلة الجيش وهم يشكّلون الثلث قبل نشوب المعركة.. لذا يبدو أنهم كانوا يخططون لما هو أسوأ من ذلك، ولعلهم عزموا على القيام بغدرة

١. أي في نعمة، لا شيء يشغلك، ولذا تبحث في أمور تثير المشاكل بلا داع.
٢. كان ذلك سنة ٩٤ هـ حينما خرج سعيد ومن معه على الوليد بن عبد الملك كما ذكره ابن جرير الطبري في تاريخه ج ٨، ص ٩٣.
٣. ابن حنبل: فضائل الصحابة، ح ١٠١٧.
٤. الزج هو النصل، والشبه نوع من النحاس.
٥. الأول سيد بني الخزرج، والثاني سيد بني الأوس.
٦. وقيل موضع بين المدينة وجبل أحد على الطريق الشرقية مع الحَرة إلى جبل أحد.
٧. الثنية: منعطف في الطريق بسبب وجود عائق وعقبة كالجبل.
٨. كتيبة خشناء: كثيرة السلاح. الزجل: الضجة والصوت المرتفع.
٩. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٢.

في وسط الحرب، فتفطّن لها النبي «صلى الله عليه وآله» وأفشلها. وأما التعبير بأنهم «أهل الشرك» فهو غريب، ولا ندري إن كان قد صدر عن النبي فعلاً مثل هذا التعبير بحقهم، أم هو من زيادات الرواة.

* النبي يستثني الصغار:

وفي منطقة الشيخين عَسْكر النبي «صلى الله عليه وآله» مستعرِضاً قواته، فعُرِض عليه صغار المقاتلين: (منهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان ابن بشير، وزيد بن أرقم، والبرَاء بن عازب، وأُسيد بن ظُهَير، وعَرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسَمُرَة بن جُندُب، ورافع ابن خَديج، فردّهم. قال رافع بن خديج: فقال ظهير بن رافع: يا رسول الله، إنه رام يُعيننني. قال: وجعلت أتطاول، وعليَّ خُفّان لـي، فأجازنى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلما أجازني قال سمرة بن جندب لمُرّي بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: يا أبيّه، أجاز رسول الله «صلى الله عليه وآله» رافع بن خديج، وردَّني، وأنا أصرع رافعاً. فقال مُرّي: يا رسول الله، ردَدْتَ ابني، وأجزتَ رافع بن خديج، وابني يصرعُه. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: تصارعا. فصرع سمرة رافعاً، فأجازه رسول الله «صلى الله عليه وسلم»)[1].

* إثارات المنافقين:

بدأ المنافقون بعد النزول في المعسكر، وبعد منع حلفاء ابن سلول من اليهود من الانضمام إلـى الجيش بإثارة كلمات مسيئة بحق النبي «صلى الله عليه وآله» وقراراته: (وأقبل ابنُ أُبيّ فنزل ناحية من العسكر، فجعل حلفاؤه ومَن معه من المنافقين يقولون لابن

البراء بن عازب بن حارث الأنصاري الأوسي، ولد قبل الهجرة بعشر سنين، وشارك في الخندق. يعد من فقهاء الصحابة، وشارك في الفتوحات كقائد عسكري، كما شهد مع الإمام علي الجمل وصفين والنهروان. توفي سنة ٧٢ هـ.

أسيد بن ظهير الأنصاري الخزرجي، شهد الخندق، وأبوه من كبار رجالات الأنصار. روى عنه أبو الأبرد عن النبي: (مَن أتى مسجد قباء فصلّى فيه، كانت كعمرة). توفي على عهد عبدالملك بن مروان.

عرابة بن أوس بن قيظي الأنصاري الأوسي، كان أبوه من رؤوس المنافقين. كان عرابة من سادات قومه، كريماً جواداً، كان يقاس في الجود بعبد الله بن جعفر .

رافع بن خديج الأنصاري الأوسي، شهد أحداً وما بعدها، وتوفي لاحقاً في الفتوحات بمرض أصيب به عام ٧٣هـ، ودفن في ليبيا.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ٢٢٧.



أُبيّ: أشرتَ عليه بالرأي ونصحتَه وأخبرتَه أنَّ هذا رأيُ مَن مَضى مِن آبائك، وكان ذلك رأيُه مع رأيِك، فأبى أن يقبله، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه. فصادفوا مِن ابن أُبيّ نفاقاً وغِشاً. فبات رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالشيخين، وبات ابنُ أبيّ في أصحابه)[1]. وبذلك جعل ابن سلول قواته منعزلة عن باقي القوات لاتخاذ الخطوة المناسبة له متى ما شاء.

❋ تحرشات الغزاة:

استعرض النبي «صلى الله عليه وآله» رجالَه طوال النهار، واطمأن على الاستعدادات للمواجهة المحتملة في الغد، حتى إذا أذّن بلال أذانَ المغرب صلّى بهم النبي، ثم أذّن بلال بالعشاء فصلى بهم العشاء، ثم اختار فرقة حراسة مؤلفة من خمسين مقاتلاً وعلى رأسهم محمد بن مسلمة، فصاروا يطوفون بالمعسكر طوال الليل.

(وكان المشركون قد رأوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين أَدلجَ، ونزَل بالشيخين، فجمعوا خيلهم وظهرهم، واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين، وباتت صاهلةُ خيلِهم لا تهدأ،

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٢.

وتدنو طلائعُهم حتى تلصق بالحَرّة، فلا تُصعِّد فيها حتى ترجع خيلُهم، ويهابون موضِعَ الحرَّة ومحمدَ بن مسلمة)[١].

ويُروى أن النبي «صلى الله عليه وآله» بحث عمّن يحرسهم تلك الليلة بالإضافة إلى مجموعة محمد بن مسلمة: **(وقد كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال حين صلى العشاء: مَن يحفظنا الليلة؟ فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: من أنت؟ قال: ذكوان بن عبد قيس. قال: اجلس. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مَن رجل يحفظنا هذه الليلة؟ فقام رجل فقال: أنا. فقال: من أنت؟ قال: أنا أبو سبع. قال: اجلس. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مَن رجل يحفظنا هذه الليلة؟ فقام رجل فقال: أنا. فقال: ومن أنت؟ قال: ابن عبد قيس. قال: اجلس. ومكث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ساعة ثم قال: قوموا ثلاثتكم. فقام ذكوان بن عبد قيس، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أين صاحباك؟ فقال ذكوان: أنا الذي كنتُ أجبتك الليلة**[٢]**. قال: فاذهب، حفظك الله. قال: فلبس درعه وأخذ دَرَقته**[٣]**، وكان يطوف بالعسكر تلك الليلة، ويُقال كان يحرس رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لم يفارقه)**[٤].

ومن المستبعد أن تصح هذه الرواية، إذ كيف لم يكتشف النبي «صلى الله عليه وآله» اتحاد شخصية المتكلم بالصوت أو بالشخص، ولماذا لم يتحدث أحد من المحيطين بالرجل من بقية أصحاب النبي ليخبروه باتحاد المتحدث؟ وأين ذهب المخلِصون من أصحاب النبي ليقوموا بالمهمة؟ يبدو أن المسألة لا تعدو أن تكون إثبات منقبة وهميّة للشخص، أو اختلاق حدث لمجرد زيادة التفاصيل من قبل الرواة.

* إساءة أخرى من المنافقين:

من جديد تتكرر الإساءة من قبل المنافقين، فقد نام النبي «صلى الله عليه وآله» ليلته في المعسكر ثم أفاق وقت السحر ولبس درعاً [٥]، ونادى بالحركة وقال: **(أين الأدلاء؟ مَن رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم مِن كثب؟ فقام أبو حَثْمَة الحارثي فقال: أنا يا رسول الله).**

أبو حثمة أو خيثمة عبدالله بن ساعدة الحارثي الأنصاري الأوسي، كان أبوبكر، وعمر، وعثمان يبعثونه على الخرص (أي حَزْرُ ما على النخل من الرُّطَب تمراً) وقد بعثة النبي من قبلُ خَارصاً إلى خَيبر.

١. ن. م.
٢. أي أنه نفس الشخص وقد انبرى في كل مرة باسم أو لقب أو كنية
٣. درقة: ترس مصنوع من الجلد لا خشب فيه.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٢.
٥. أسس في هذا الموقع لاحقاً مسجد يُعرف باسم مسجد الدرع.



خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» فركب فرسه، فسلك به في بني حارثة، ثم أخذ يمر بين البساتين والأراضي الزراعية الكائنة في تلك المنطقة، إلى أن وصل حائط[1] مَربع بن قيظي المنافق مضطراً للعبور من خلاله، فدخل رسول الله وأصحابُه الحائط، فقام مربع يَحثي التراب في وجوههم وهو يقول: **(إن كنتَ رسولَ الله، فلا تدخل حائطي. فيضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده، فشجَّه في رأسه فنزل الدم، فغضب له بعض بني حارثة ممن هو على مثل رأيه، فقال: هي عداوتكم يا بني عبد الأشهل، لا تدعونها أبداً لنا[2]. فقال أُسيد بن حضير: لا والله، ولكنه نفاقكم. والله، لولا أني لا أدري ما يوافق النبي «صلى الله عليه وسلم» من ذلك لضربت عنقَه، وعنقَ مَن هو على مثل رأيه. فأسكِتوا)**[3].

مربع بن قيظي الأوسي، أحد المنافقين، وكان أعمى البصر. وقد روي أنه هو المقصود في أحداث غزوة الخندق بقول الله: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾. وقيل أن القائل أخوه أوس.

بينما روى ابن أبي الحديد المعتزلي أن سكوتهم كان بناء على نهي رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأضاف:

---

١. الحائط: المكان المسوّر، وعادة ما يكون بستاناً أو أرضاً زراعية.

٢. قيل أن المتحدث هذه المرة هو أوس بن قيظي المنافق.

٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٣.

(وقال محمد بن إسحاق: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: دعوه، فإنه أعمى البصر، أعمى القلب. يعنى مربع بن قيظي)[1].

❊ فائدة فقهية:

وقد استفاد ابن القيم من هذا الخبر أصلاً فقهياً فقال: **(فصل فيما اشتملت عليه هذه الغزاة من الأحكام والفقه... جواز سلوك الإمام بالعسكر في أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قيظي مع الرسول «صلى الله عليه وسلم» وجيشه)**[2].

بل إن الأمر يتعدى ذلك العنوان المحدد وفق مفهوم ولاية النبي «صلى الله عليه وآله» العامة، وعليه فالمثال السابق يكون من الواضحات. ثم إن القائلين بولاية الفقيه العامة يرون ذات الصلاحية للفقيه، وإن انقسموا في ضيقها واتساعها، قال الشيخ مصباح يزدي: **(وقد حصر بعض الفقهاء دائرة ممارسة ولاية الولي الفقيه وأمره ونهيه الواجب طاعته على المسلمين في الحالات الخاصة والمتطلبات الملحة للمجتمع، ولكن في المقابل ثمة طائفة أخرى ترى هذه الدائرة أوسع مدى وتعتقد بأن دائرة ولاية الفقيه غاية في السعة وهي تشمل كافة الشؤون الاجتماعية ما خلا الأمور التي يختص التدخل فيها بالإمام المعصوم «عليه السلام». ولغرض المزيد من الإيضاح لهاتين الرؤيتين نسوق المثال التالي: ربما يصبح من الضروري توسيع الطرق والشوارع بحيث تتعرض أرواح الكثيرين للخطر ويقع الكثير من حوادث الاصطدام، وبالتالي تلحق خسائر مادية وبشرية فادحة في حالة عدم إنجازها، ولأجل الحد من حصول مثل هذا الوضع ترى كلتا الفئتين صلاح تدخّل الولي الفقيه وجواز إصداره الحكم بهدم البيوت أو غيرها من البنايات لإنجاز عملية توسيع الممرات والشوارع. أما إذا كانت الغاية من الهدم توفير المزيد من الراحة للناس أو تزيين البلد فإن الفئة الأولى تعتقد بعدم مأذونية الولي الفقيه في إصدار حكم الهدم، بيدَ أن الفئة الثانية تقول: حيثما كان الأمر يصب في مصلحة المجتمع ـ وإن لم يبلغ مستوى الضرورة ـ فبإمكان الولي الفقيه إصدار الحكم أيضاً لضمان مصالح الشعب مطلقاً، كما في المثال المتقدم فيكون الآخرون مكلفين بإنجاز العمل)**[3].

❊ الاستعداد للمواجهة:

حرّك المشركون قواتهم من حيث عسكروا بمجرّد أن غادر المسلمون معسكرهم في الشيخين. أما المسلمون فإنهم ما إن وصولوا إلى موقع المعركة، أقاموا صلاة الصبح جماعة بعد أن أمر النبي «صلى الله عليه وآله» بلالاً

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٠.

٢. ابن القيم: زاد المعاد، ج٣، ص١٨٩.

٣. يزدي: أسئلة وردود، ج٢، ص ١٠.



بالأذان[1]، ثم لبس درعاً ثانية، ومِغفَراً وبيضةً فوق المِغفَر. وقد أعطاه هذا السبق إلى المكان المحدَّد أفضلية اختيار الموقع الأنسب لقواته.

عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي، أحد نقباء بيعة العقبة، سُمّي جدّه حراماً لأنه حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية. استشهد في أحُد. ولما أمر معاوية بإجراء الماء على المنطقة، نزل سيل شديد صار يجرف جثامين الشهداء، فسارع المسلمون إلى نقلها، ووُجد عبدالله (وقد أصاب جرحٌ في وجهه، فيدُه على جرحه، فأميطت يده، فانبعث الدم فرُدَّت، فسكَن الدم). قال ابنه جابر: (فرأيتُ أبي في حفرته كأنه نائم، وما تغيّر مِن حاله شيء، وبين ذلك ست وأربعون سنة). فحُوّل جثمانه إلى مكان آخر، وكان رطباً يتثنّى.

* انسحاب المنافقين:

وفي هذه اللحظات الحاسمة انسحب عبدالله ابن أبيّ بن سلول مع الموالين له وعددهم ثلاثمائة مقاتل، أي ما يقارب ثلث مجموع الجيش: **(ارتحلَ ابنُ أبيّ مِن ذلك المكان في كتيبة كأنه هَيْق[2] يقدُمُهم، فاتَّبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام فقال: أذكّركم الله ودينَكم ونبيَّكم، وما شرطتُم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسَكم وأولادَكم ونساءَكم. فقال ابنُ أبيّ: ما أرى يكون بينهم قتال، ولئن أطعتَني يا أبا جابر لترجعنّ، فإنَّ أهلَ الرأي**

١. روي أن موقع هذه الصلاة كان حيث مسجد الفسح «الفسيح» «مسجد أحُد» الآن، وسنتحدث عنه في نهاية هذه الغزوة.
٢. الهيق: الظليم، وهو الذكر من النعام، والأنثى هيقة.

والحِجَا[1] قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفَنا وأشرتُ عليه بالرأي، فأبَى إلا طواعية الغلمان. فلما أبَى على عبدِالله أن يرجع ودخلوا أزقّة المدينة، قال لهم أبو جابر: أبْعَدَكم الله، إن الله سيُغني النبيَّ والمؤمنين عن نصْركم! فانصرف ابنُ أبيّ وهو يقول: أيعصيني ويطيع الولدان؟ وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يعدو حتى لحق رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو يسوّي الصفوف. فلما أصيب أصحابُ النبي «صلى الله عليه وسلم» سُرَّ ابنُ أبيّ، وأظهر الشماتة وقال: عصاني وأطاع مَن لا رأي له)[2].

وقد تحدّث القرآن عن أمر يتعلق بهذه الأجواء حيث قال «تعالى»: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3]، وهو ما فُسِّر على أن مجموعتين من المسلمين وقعتا تحت تأثير فعل المنافقين وأراجيفهم ـ إما في المدينة قبل الخروج إلى المعركة وإما في اللحظات الأخيرة عند انسحاب المنافقين ـ وكادتا أن تنسحبا من ساحة المعركة مع المنافقين لولا بقية من إيمان في نفوسهما، فشملهما الله برعايته ورحمته، وصمدتا وأكملتا الطريق مع بقية المسلمين. وقد تحدثت بعض الأخبار عن أن الطائفتين هما بنو سلمة وبنو حارثة.

❋ ترتيب القوات:

بعد صلاة الصبح بدأت عملية توزيع المقاتلين بحسب ما تقتضيه طبيعة المواجهة والمحيط الجغرافي، والمتفق عليه أن النبي «صلى الله عليه وآله» عيّن خمسين رامياً على جبل عَيْنَيْن، يرأسهم عبدالله بن جُبير، أما موقع بقية المقاتلين فمختلف فيه من حيث النصوص المتضاربة في عباراتها وتحليل الباحثين.

ففي خبر أن النبي «صلى الله عليه وآله» صفّ أصحابه (**وجعل أُحُداً خلفَ ظهْره، واستقبل المدينة، وجعل عَيْنَين عن يساره، وأقبل المشركون، واستدبروا المدينة في الوادي، واستقبلوا أحداً**). وفي خبر آخر أنه: (**جعل عينين خلف ظهره، واستدبر الشمس، واستقبلها المشركون**)[4]. ويمكن تصوّر كل خبر بنحوين كما ستبين ذلك الخرائط المرفقة. ومن الواضح هنا أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان حريصاً على أن يصِل الموقع قبل المشركين على خلاف ما جرى في غزوة بدر الكبرى، وذلك للاستفادة من العناصر الجغرافية والظرفية كعوامل مساندة في المعركة. قال «تعالى» واصفاً هذه الحالة من اهتمام النبي «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

---

١. الحجى: العقول.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٣.

٣. سورة آل عمران: ١٢٢.

٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣١.

٥. سورة آل عمران: ١٢٢.



التصور الأول للخبر الأول



التصور الثاني للخبر الأول



التصور الأول للخبر الثاني



التصور الثاني للخبر الثاني

وكان من ضمن التدابير العسكرية التي اتخذها النبي في ساحة القتال أن وصّى مجموعة الرماة الخمسين بقوله: (**احموا لنا ظهورَنا، فإنا نخاف أن نؤتَى مِن ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم، حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا. اللهم، إني أشهدك عليهم. وارشقوا خيلَهم بالنبل، فإن الخيل لا تُقدِم على النبل**)[1].

* أبوسفيان يثير مشكلة:

وأما المشركون فقد قسّموا قواتهم بحيث جعلوا خالد بن الوليد على الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل على الميسرة، بمساندة مائتي فرَس بقيادة صفوان بن أمية ـ وقيل عمرو بن العاص ـ مع مائة رامٍ بقيادة عبدالله بن أبي ربيعة، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار ابن قَصي بن كلاب. وقبيل بدء المعركة أثار أبوسفيان مسألةً كادت أن تُفسد الأمور على المشركين، حيث نادى بأن يكون اللواء بيد بني أمية، بدلاً عن بني عبدالدار، مبرِّراً ذلك بأهمية اللواء في حفظ القوات وتحقيق النصر من جهة، وقد لحقتهم الهزيمة ببدر بسبب فشل بني عبد الدار في تحمل هذه المسؤولية، ولأن بني أمية أصحاب ثارات بدر، الأمر الذي سيجعلهم أكثر حرصاً على بقاء اللواء مرتفعاً محفوظاً.

(**صاح أبو سفيان يومئذ: يا بني عبد الدار، نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا! إنا إنما أُتِينا يوم بدر من اللواء، وإنما يؤتَى القوم من قبل لوائهم، فالزموا لواءكم وحافظوا عليه، وخلّوا بيننا وبينه، فإنا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثأراً حديث العهد. وجعل أبو سفيان يقول: إذا زالت الألوية فما قِوام الناس وبقاؤهم بعدها؟**).

لم يجد أبوسفيان من بني عبدالدار ـ وفي تلك اللحظات العصيبة ـ ردة فعل سوى الغضب وقالوا: (**نحن نُسلِم لواءنا؟! لا كان هذا أبداً، فأما المحافظة عليه، فسترى! ثم أسندوا الرماح إليه، وأحدقت بنو عبد الدار باللواء، وأغلظوا لأبي سفيان بعض الإغلاظ**).

لم ييأس أبو سفيان، وحاول الالتفاف على هذا الموقف الصلب من بني عبدالدار فقال: (**فنجعل لواء آخر؟ قالوا: نعم، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار، لا كان غير ذلك أبداً**)[2].

* النبي يسوّي الصفوف:

ونعود مجدداً إلى معسكر المسلمين، حيث كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» ينظّم الصفوف ويسوّيها كما فعل في غزوة بدر الكبرى، حيث كان حريصاً على أن تصبح الصفوف منتظمة إلى حد كبير، وكأن المقاتلين

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.
٢. ن.م. ص ٨٤.

بنيانٌ مرصوصٌ: (**وجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يمشي على رجليه، يسوّي تلك الصفوف، ويبوّيء أصحابه مقاعد للقتال، يقول: تقدَّم يا فلان، وتأخَّر يا فلان، حتى إنه ليرى مِنكب الرجل خارجاً فيؤخّره، فهو يقوِّمهم كأنما يُقوِّم القِداح، حتى إذا استوت الصفوف، سأل: مَن يحمل لواء المشركين؟ قيل: عبد الدار، قال: نحن أحق بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا. قال: خذ اللواء. فأخذه مصعب فتقدَّم به بين يدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»**)[1].

من الواضح هنا أن النبي «صلى الله عليه وآله» ارتأى أن المصلحة في إسناد مهمة حمل اللواء لمصعب بن عمير وهو من بني عبدالدار أيضاً، مع إبقاء الراية عند الإمام علي «عليه السلام»، علماً بأن اللواء سيعود إلى الإمام من جديد، وبذا يزول التعارض بين النصوص والآراء التي انقسمت حول شخصية حامل اللواء في ذلك اليوم.

* وصية النبي:

وكما عهدنا النبي «صلى الله عليه وآله» في غزوة بدر الكبرى يوصي أصحابه بوصايا قبل نشوب المعركة، نجده من جديد يوصيهم في هذه المعركة بمجموعة من الوصايا التي تجعل من القتال باباً من أبواب العبادة والتقرب إلى الله «سبحانه»، لا غاية من الغايات، ولا وسيلة من وسائل الكسب المادي أو الانسياق وراء الثأر الشخصي أو القبلي، علاوة على الوصية بأهمية الصبر والجِد في مواجهة العدو، والالتزام بأوامر القيادة، ووحدة الموقف، والانضباط في القتال، علاوة على التطلع إلى الانتصار، والثقة بالله «عزوجل»، والأمل بنيل الثواب الجزيل. كما مزج النبي تلك الوصايا بوصايا عبادية للتأكيد على أن هذا القتال يصب في النهاية لغاية العبودية لله، في الوقت الذي نشعر فيه بأنه يوصي من باب الإحساس بمسؤولية القائد الذي قد يغادر الدنيا في أية لحظة، لا سيما في مثل هذا الظرف العصيب، ما يجعله حريصاً على أن يذكّر أتباعه المؤمنين برسالته بمجموعة من المبادئ التي يجب عليهم التمسك بها وإن فقدوا قائدهم.

قام رسول الله «صلى الله عليه وآله» فخطب الناس فقال: (**يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه. ثم إنكم اليوم بمنزل أجْر وذُخر لمن ذَكَر الذي عليه، ثم وطَّن نفسه له على الصبر واليقين والجِد والنشاط، فإنَّ جهادَ العدو شديد كربُه، قليلٌ مَن يصبر عليه، إلا من عزم الله رُشدَه، فإن الله مع مَن أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالَكم بالصبر على الجهاد، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رُشدِكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يُحب الله، ولا يُعطي عليه النصر ولا الظفر. يا أيها الناس، جُدِّد في صدري أنَّ مَن كان على حرام فرَّق الله**

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٢.

بينه وبينه، ومَن رغِب له عنه غفر الله ذنبَه، ومن صلّى عليَّ صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومن أحسَن من مسلم أو كافر وقع أجرُه على الله في عاجل دنياه أو آجل آخرته، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة، إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومَن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد. ما أعلم مِن عملٍ يقرِّبكم إلى الله إلا وقد أمرتُكم به، ولا أعلم من عمل يقرِّبكم إلى النار إلا وقد نهيتُكم عنه. وإنه قد نَفث في روعي الروحُ الأمين، أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله ربكم وأجمِلوا في طلب الرزق، ولا يحملنَّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يُقدَر على ما عنده إلا بطاعته. قد بيَّن لكم الحلال والحرام، غير أن بينهما شبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا مَن عصم، فمن تركها حَفظ عِرضَه ودينَه، ومَن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه. وليس ملِكٌ إلا وله حِمى، ألا وإنَّ حِمى الله محارمُه. والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر الجسد. والسلام عليكم).

وفي المقابل فقد كانت نساء المشركين يعملن على بث روح الحماسة في صفوف المقاتلين: (**وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقي الجمعان أمام صفوف المشركين يضربن بالأكبار والدفاف والغرابيل**)، وسيستمر دورهن هذا بعد أن يتراجعن إلى خلف الصفوف مع بدء القتال: (**فجعَلْنَ كلما ولّى رجلٌ حرَّضنَه وذكَّرْنه قتلاهم ببدر**)[1].

❊ بدء المعركة:

قبيل وقوع القتال، برز أبو عامر الفاسق مع خمسين من مؤيديه ومعه عبيد قريش، فنادى في الأوسيين من الأنصار: (**يا آلَ أوس، أنا أبوعامر**) متصوراً أنهم سيعطونه مجالاً للكلام وزعزعة موقفهم وهو يشاهدون عدد المشركين الذي يزيد على أربعة أضعاف عددهم، فإذا به يُهان (**قالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ !**).

وإذ تفاجأ أبو عامر بالرد، بدأ عَبيد قريش ممن كانوا معه برمي الحجارة على المسلمين، الذين ردّوا بدورهم بالمِثل: (**فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة، حتى ولّى أبو عامر وأصحابه**)[2].

❊ المبارزات الفردية:

وحان وقت المبارزة الفردية بين الطرفين، إلا أن بين أيدينا مسارين مختلفين تماماً لسير أحداث هذه المبارزات، وسنعلّق على ذلك بعد استعراض تفاصيلهما بحسب ما وردت في كتب السيرة، ولعل منشأ الاختلاف الشديد

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٤.

٢. ن.م.

يعود إلى ذِكر الإمام علي «عليه السلام» بشكل مكرر في إحداهما بلحاظ دوره الرئيس في قتل المبارزين المشركين بحسب ذلك المسار.

ففي المسار الأول أن حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة دعا إلى البِراز صائحاً: (**مَن يبارز؟ فقال علي «عليه السلام»: هل لك في البراز؟ قال طلحة: نعم. فبرزا بين الصفين. ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» جالس تحت الراية عليه درعان ومِغفر وبيضة، فالتقيا فبدَره عليٌّ فضربه على رأسه، فمضى السيف حتى فلق هامته حتى انتهى إلى لحيته، فوقع طلحة وانصرف علي «عليه السلام». فقيل لعلي: ألا ذَفَّفْتَ عليه[1]؟ قال: إنه لما صرع استقبلتني عورتُه فعطفني عليه الرحم، وقد علمت أن الله «تبارك وتعالى» سيقتله، هو كبش الكتيبة**)[2].

وفي خبر آخر: (**أن طلحة حمل على علي «عليه السلام»، فضربه بالسيف، فاتّقاه بالدَّرَقة ، فلم يصنع شيئاً، وحمل علي «عليه السلام» وعلى طلحة درع ومِغفر، فضربه بالسيف، فقطع ساقيه، ثم أراد أن يذفِّفَ عليه ، فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل ، فتركه ولم يذفِّف عليه**)[3].

وفي خبر ثالث أن طلحة بن أبي طلحة عند خروجه للمبارزة نادى: (**معاشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل منكم من أحد يبارزني؟ قال قتادة: فخرج إليه علي وهو يقول:**

أنا ابن ذي الحوضين عبدالمطلب وهاشم المطعِم في العام السغب

أوفي بميعادي وأحمي عن حسَب

فضربه علي «عليه السلام» فقطع رجله)[4].

وفي خبر رابع أن علياً «عليه السلام» (**خرج فقال:**

يا طلحُ إن كنتَ كما تقول لنا خيولٌ ولكم خيول

فاثبت لننظر أينا المقتول وأينا أولى بما تقول

فقد أتاك الأسد الصؤول بصارمٍ ليس به فلول

بنصرة القاهر والرسول

---

١. ذفف عليه: أجهز عليه وقتله.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٦.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٨٢.

فقال طلحة: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب. قال طلحة: قد علمت يا قُضَم أنه لا يجسر عليّ أحد غيرك! فشد عليه طلحة فضربه، فاتقاه أمير المؤمنين «عليه السلام» بالحجفة، ثم ضربه أمير المؤمنين «عليه السلام» على فخذيه فقطعهما جميعاً، فسقط على ظهره، وسقطت الراية، فذهب علي «عليه السلام» ليجهز عليه فحلّفه بالرحم فانصرف عنه، فقال المسلمون: ألا أجهزتَ عليه؟ قال: قد ضربته ضربة لا يعيش منها أبداً)[1].

وهكذا كانت الضربة الأولى لعلي «عليه السلام» في ترجيح كفة المسلمين في بدء القتال رافعاً بذلك المعنويات ومعطياً دفعة قوية لتحقيق النصر: **(فلما قُتل طلحة، سُرَّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأظهر التكبير، وكبَّر المسلمون)**[2]. هذا المقدار متفق عليه في المسارين، ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟

عن الإمام الصادق: (أنه سئل عن معنى قول طلحة بن أبي طلحة لما بارزه علي «عليه السلام»: ياقُضم. قال: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبي طالب، وأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله يرمونه بالحجارة والتراب، وشكى ذلك إلى علي «عليه السلام» فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، إذا خرجت فأخرجني معك. فخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعه أميرالمؤمنين «عليه السلام» فتعرَّض الصبيان لرسول الله «صلى الله عليه وآله» كعادتهم، فحمل عليهم أميرالمؤمنين «عليه السلام»، وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم ، فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا علي، قضمَنا عليّ، فسمى لذلك القُضَم).

في المسار الأول نجد أن الطرفين اكتفيا بتلك المبارزة فتلاحما بعدها مباشرة: **(ثم شد أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون حتى نقضت صفوفهم، وما قُتل إلا طلحة)**.

ثم حمل اللواء عثمان أخو طلحة: **(وهو أمام النسوة، يرتجز ويقول:**

إنَّ على أهل اللواء حقّا أنْ تُخضَب الصعدةُ أو تندقّا)

فهو يعتبر أن مسؤولية حامل اللواء الاستبسال في القتال حتى قتل العدو أو انكسار الصَّعدة ـ أي القناة ـ التي يرفرف عليها اللواء. **(فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب «رحمه الله»، فضربه بالسيف على كاهله، فقطع يده وكتفه، حتى انتهى إلى مؤتزره فبدا سَحرُه**[3]**، ثم رجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج. ثم حمل اللواء أخوهما**

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٥٠.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٥.
٣. السحر: الرئة.

أبو سعد بن أبى طلحة، فرماه سعد بن أبى وقاص فأصاب حنجرته، وكان دراعاً، وعليه مِغفَر لا رفرف[1] عليه، وعلى رأسه بيضته، فأدلع[2] لسانه إدلاع الكلب. وقد روي أن أبا سعد لما حمل اللواء، قام النساء خلفه يقلن:

ضرباً بني عبد الدارْ ضرباً حماة الأدبارْ

ضرباً بكل بتّارْ

قال سعد بن أبي وقاص: فأحمل عليه فأقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء باليد اليسرى، فأضربه على يده اليسرى، فقطعتها، فأخذ اللواء بذراعيه جميعاً وضمه إلى صدره، وحنى عليه ظهره. قال سعد: فأدخل سِيَةَ القوس بين الدرع والمغفر، فأقلع المغفر، فأرمي به وراء ظهره، ثم ضربته حتى قتلته، وأخذت أسلبُه درعَه، فنهض إليَّ سُبيع بن عبد عوف ونفرٌ معه، فمنعوني سلبَه، وكان سلبُه أجود سلب رجل من المشركين، درع فضفاضة، ومغفر وسيف جيد، ولكن حيل بيني وبينه)[3].

قال ابن أبي الحديد: (شتان بين عليّ وسعد هذا يجاحش على السلب ويتأسف على فواته، وذلك يقتل عمرو بن عبدود يوم الخندق، وهو فارس قريش وصنديدها ومبارزه، فيُعرض عن سلبه، فيقال له كيف تركت سلبه وهو أنفس سلب؟ فيقول: كرهت أن أبز السبي، ثيابه فكأن حبيباً) أبا تمام (عناه بقوله:

إن الأسود أسود الغاب همتها

يوم الكريهة في المسلوب لا السلب).

ثم حمل اللواء (مُسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وقال: خذها وأنا ابن أبي الأقلح! فقتله، فحُمل إلى أمه سُلافة بنت سعد بن الشهيد، وهي مع النساء، فقالت: مَن أصابك؟ قال: لا أدري، سمعتُه يقول: خذها وأنا ابنُ أبي الأقلح. قالت سلافة: أقلحيٌّ والله! أي مِن رهطي.... فيومئذ نذَرَت أن تشرب في قحف رأس عاصم بن ثابت الخمر، وجعلت تقول: لمن جاء به مائة من الإبل)[4].

عاصم بن ثابت الأنصاري الأوسي، شهد بدراً وأُحُد، وفي السنة الرابعة وفَد على النبي بعض بني لحيان طالبين توجيه نفرٍ معهم لنشر الإسلام في ديارهم، فوجّه معهم عاصم في عدّة من أصحابه، فلمّا قَدِموا بلادَهم، أبان القوم نيتهم الخبيثة، وطلبوا من المسلمين الاستسلام ليبيعوهم على أهل مكة، فرفضوا وقاتلوا حتى استشهدوا بمن فيهم عاصم بن ثابت.

١. الرفرف: الجوانب.

٢. أدلع: أخرج.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٣٧.

٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٦.

ثم حمل اللواء (كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزبير بن العوام، ثم حمله الجُلّاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله، ثم حمله أرطاة بن شُرحْبيل، فقتله علي «عليه السلام»، ثم حمله شُريح بن قارظ، فلسنا ندري مَن قتله، ثم حمله صُؤابٌ غلامُهم، فاختُلف في قتله، فقائل قال سعد بن أبي وقاص، وقائل علي «عليه السلام»، وقائل: قُزمان، وكان أثبتهم عندنا قزمان. قال: انتهى إليه قُزمان، فحمل عليه فقطع يده اليمنى، فاحتمل اللواء باليسرى، ثم قطع اليسرى فاحتضن اللواء بذراعيه وعضديه، ثم حنى عليه ظهره، وقال: يا بني عبد الدار، هل أعذرت؟ فحَمل عليه قزمان فقتله)[1].

قزمان بن الحارث من بني عبس حليف بني ظفر. قيل أنه كان من المنافقين، وقد تخلّف عن أُحُد، فلما أصبح عيَّره نساء بني ظفر وشبهوه بالنساء! فخرج يعدو وقد استعد للحرب حتى وصل والنبي يصف الصفوف، فتقدم إلى الصف الأول. وكان أول من رمى بسهم من المسلمين، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل، فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار. يا آل أوس، قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثل ما أصنع. وبعد قتال مرير قتل خلاله سبعة من المشركين، وقع متأثراً بجراحه، فانتحر! وروي أن النبي قال: (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر).

هذا ما يخص المسار الأول للأخبار الخاصة بالمبارزات، وأما وفق المسار الثاني فالصورة مختلفة تماماً، حيث نجد أن علياً «عليه السلام» بعد أن قتل طلحة مبارزة، بارز البقية الواحد تلو الآخر، كلما سقط منهم قتيل حمل الآخر اللواء مكانه، فيبرز له علي «عليه السلام» فيقتله، وقد روى المجلسي[2] أنه: (قتل منهم ثمانية، ثم أخذ باللواء صؤاب عبدٌ حبشي لهم، فضُرب على يدِه، فأخذه باليسرى فضُرب عليها، فأخذ اللواء وجمع المقطوعتين على صدره، فضُرب على أم رأسه فسقط اللواء. قال حسان بن ثابت:

فخَرتُم باللواء وشرّ فخر ... لواء حين رُدّ إلى صؤاب

فسقط اللواء، فأخذته عمرة بنت الحارث بن علقمة بن عبد الدار، فصُرعت وانهزموا، وقال حسان بن ثابت:

ولولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون في الأسواق بالثمن الوكس)

وفي خبر يوم الشورى التي أمر بإقامتها الخليفة عمر بن الخطاب بعد اغتياله لاختيار الخليفة من بعده، أن علياً «عليه السلام» ذكّر القوم بفضله بعدة أمور من بينها: (نشدتُكم بالله، هل فيكم أحد قتَل من بني عبد الدار تسعة مبارزة غيري، كلهم يأخذ اللواء، ثم جاء صؤاب الحبشي مولاهم وهو يقول: والله لا أقتل بسادتي إلا محمداً، قد

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٦.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٨٢.

أزبد شِدقاه[١] واحمرت عيناه، فاتقيتموه وحدْتُم عنه، وخرجتُ إليه فلما أقبل كأنه قبة مبنية[٢]، فاختلفْتُ[٣] أنا وهو ضربتين، فقطعته بنصفين، وبقيت رجلاه وعجزُه وفخذاه قائمة على الأرض ينظر إليه المسلمون ويضحكون منه؟ قالوا: اللهم لا)[٤].

* بداية المخالفة:

وعلى كل حال فقد كانت نتائج المبارزات الفردية دفعة قوية لانتصار المسلمين الحاسم في المعركة، فوقع التلاحم بين الطرفين ولم يستطع المشركون الصمود: (وقالوا: ما ظفّر الله نبيه في موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم أحد... وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوُون، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف... وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أُحُداً، قال كل واحد منهم: والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، ما دون أخذهن شيء لمن أراد ذلك، وكلما أتى خالد مِن قبل ميسرة النبي «صلى الله عليه وسلم» ليجوز حتى يأتي مِن قبل السّفح فردّه الرماة، حتى فعلوا ذلك مراراً... وتبعهم المسلمون، يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر)[٥]. وكان هذا ما بشّر به الله المؤمنين إن أطاعوه وأطاعوا رسوله وصبروا في مواجهة العدو وإن كثر عديده وعتاده، وإن تظاهر بالقوة والاستكبار، قال «تعالى»: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[٦].

وقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه بطولة عليٍّ «عليه السلام» في ذلك الموقف برواية الصحابي أبي رافع، قال: (لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: احمِل عليهم، فحمَل عليهم، ففرَّق جمعَهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجُمحي. قال: ثم أبصر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: احمِل عليهم. فحمل عليهم، ففرَّق جماعتهم، وقتل شيبة بن مالك، أحد بني عامر بن لؤي. فقال جبريل: يا رسول الله، إنَّ هذه للمواساة. فقال رسول

إبراهيم أبو رافع القبطي، مولى رسول الله، كان عبداً للعباس، فأسلم في مكة، وأهداه العباس للنبي. هاجر للحبشة فالمدينة، وشهد الغزوات بعد بدر، وأعتقه النبي بعد خيبر، ثم كان مع الإمام علي في حروبه، وجعله على بيت المال في الكوفة. توفي سنة ٤٠ هـ.

١. الشدق: جانب الفم.
٢. قبة: غرفة.
٣. اختلفت: تبادلت.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٣٢٤-٣٢٥.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
٦. سورة آل عمران: ١٥١.

الله «صلى الله عليه وسلم»: إنه مني، وأنا منه. فقال جبريل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي)[١].

ومع هذه الهزيمة المنكرة للمشركين وهروبهم المخزي من ساحة المعركة انكب المقاتلون المسلمون على الغنائم التي خُلّفت، وهو ما يذكّرنا من جديد بقوله «تعالى»: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٢]. قالوا: (ووقعوا ينتهبون العَسكَر)[٣].

وبين أيدينا خبر يرويه أبو سفيان بنفسه لما جرى منذ بداية القتال إلى وقوع النهب: (قال أبوسفيان: يا معشر قريش، خَلِّفوا غلمانكم على متاعكم يكونون هم الذين يقومون على رِحالكم. فجمعْنا بعضها إلى بعض، وعقلنا [٤] الإبل، وانطلق القوم على تعبيتهم ميمنة وميسرة، وألبسنا الرِّحال الأنطاع[٥]. ودنا القوم بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا ساعة ثم إذا أصحابنا منهزمون، فدخل أصحاب محمد عسكرنا ونحن في الرحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أُسِروا. وانتهبوا العسكر أقبح انتهاب، حتى إن رجلاً منهم قال: أين مال صفوان بن أمية؟ فقلت: ما حمَل إلا نفقة، هي في الرحل. فخرج يسوقني حتى أخرجتها من العيبة [٦] خمسين ومائة مثقال. وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم، وانحاش النساء[٧]، فهنّ في حجرهن سِلْمٌ لمن أرادَهُن. وصار النَّهْبُ في أيدي الرجال)[٨].

كما روت السيدة أم عمارة نُسيبة بنت كعب خبر الانتصار واصفةً حال نساء المشركين: (قيل لأم عمارة: هل كن نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهن؟ فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأة منهن رمَت بسهم ولا بحجر، ولكن رأيت معهن الدفاف والأكبار، يضربن ويذكّرن القومَ قتلى بدر، ومعهن مكاحل ومراود، فكلما ولّى رجل أو تَكعكع[٩] ناولته إحداهن مِرْوداً ومِكحلة ويقلن: إنما أنتَ امرأة! ولقد رأيتهن ولَّينَ منهزمات مشمِّرات، ولها عنهن الرجال أصحاب الخيل، ونجوا على متون الخيل، يَتْبعن الرجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطريق.

---

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٣٤٨.
٢. سورة آل عمران: ١٥٢.
٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
٤. عقلنا: ربطنا أرجلها كي لا تتحرك.
٥. الرحل: ما يُوضَعُ على ظهر البعير للركوب، النطع: الجلد.
٦. العيبة: وعاء من خوص.
٧. انحاش: ابتعد.
٨. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
٩. تكعكع: هاب وتراجع.

ولقد رأيتُ هندَ بنت عتبة، وكانت امرأة ثقيلة ولها خَلْق[١]، قاعدة خاشية من الخيل، ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى)[٢].

في تلك الأثناء وجد الرماة أنفسهم بعيدين عن الحصول على غنائم السلب، ولا أثر للمشركين في ساحة المعركة فحدّثوا أنفسهم بترك موقعهم عل جبل عينين والنزول إلى أرض القتال: (قال بعضُ الرماة لبعض: لمَ تُقيمون ها هنا في غير شيء؟ قد هَزم الله العدو، وهؤلاء إخوانُكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغتنموا مع إخوانكم. فقال بعض الرماة لبعض: ألم تعلموا أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال لكم: احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنِمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا؟ فقال الآخرون: لم يُرِد رسول الله هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر فانتهِبوا مع إخوانكم. فلما اختلفوا خطبهم أميرُهم عبد الله بن جبير، وكان يومئذ مُعلِماً بثياب بيض، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله «صلى الله عليه وسلم»، وألا يخالَف لرسول الله أمر. فعصوا وانطلقوا، فلم يبق من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا نُفَيْر ما يبلغون العشرة، فيهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: يا قوم، اذكروا عهدَ نبيكم إليكم، وأطيعوا أميركم. قال: فأبَوْا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلّوا الجبل وجعلوا ينتهبون، وانتقضت صفوف المشركين، واستدارَت رجالهم، وحالت الريح[٣]، وكانت أول النهار إلى أن رجعوا صبا، فصارت دَبُوراً[٤] حيث المشركون، بينا المسلمون قد شُغلوا بالنهب والغنائم)[٥].

قال «تعالى»: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ، وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم تقتلونهم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[٦].

❋ كَر المشركين:

نعود إلى رواية أبي سفيان التي يحكي فيها كيف انتبه المشركون إلى الفراغ الحاصل في ساحة المعركة

١. لها خلق: ضخمة الجثة، ولذا لم تستطع الهروب.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٣.
٣. حالت الريح: استدارت.
٤. الصبا: الريح الشرقية التي أخذت تهب في وجه المشركين وتكون معاكسة لحركتهم. غربيّة مساندة لهم ومخالفة للمسلمين، والملاحظ أن هذا الانقلاب حصل عند مخالفة المسلمين لأوامر النبي واهتمامهم بالغنائم بدلاً من ملاحقة العدو وإيقاع القتل والتشريد والأسر فيهم، ولعله بفعل الملائكة.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
٦. سورة آل عمران: ١٥١-١٥٢.

بسبب تلك المخالفات، قال: (فإنا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام إلى أن نظرت إلى الجبل، فإذا الخيل مُقبلة فدخلوا العسكر فلم يكن أحدٌ يردّهم، قد ضُيِّعت الثغور التي كان بها الرماة، وجاءوا إلى النهب والرماة ينتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبِّطي قسيِّهم وجِعابهم[١]، كل رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلَت خيلُنا دخلَت على قوم غارين آمنين[٢]، فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً. وتفرَّق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا وأُجلُوا عن عسكرنا، فرجعنا متاعنا بعدُ فما فقدنا منه شيئاً، وخلّوا أسرانا، ووجدنا الذهب في المعرَك[٣]. ولقد رأيتُ رجلاً من المسلمين ضمَّ صفوان بن أمية إليه ضمَّةً ظننتُ أنه سيموت حتى أدركتُه به رمق، فوجأتُه بخنجر معي فوقع، فسألت عنه بعدُ فقيل: رجلٌ من بني ساعدة)[٤].

وفعلاً ضاعت الغنائم من يد المسلمين، وقد كانت همَّ كثيرٍ منهم، وقد روي أنه: (ما علِمنا أحداً من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الذين أغاروا على النَّهْب، فأخذوا ما أخذوا من الذهب، بقي معه من ذلك شيء رجع به حيث غشينا المشركون واختلطوا إلا رجلين: أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، جاء بمِنطَقة وجدها في العسكر فيها خمسون ديناراً، فشدَّها على حِقويه[٥] من تحت ثيابه، وجاء عبّاد بن بشر بصُرَّة فيها ثلاثة عشر مثقالاً، ألقاها في جيب قميصه، وعليه قميص، والدرع فوقها، قد حزم وسطه. فأتيا بذلك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأحُد، فلم يخمّسه، ونفلهما إياه)[٦].

* هجوم ابن الوليد:

نعود من جديد إلى حيث جبل عينين الذي لم يعُد محروساً من قبل عدد كاف من الرماة، حيث نزل جلّهم لجمع الغنائم مخالفين بذلك الأمر الصريح لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، حينها انتبه خالد بن الوليد إلى ذلك، فكرَّ مع فرسان الميمنة، وتبِعَه عكرمة مع فرسان الميسرة، فانطلقوا جميعاً إلى بعض الرماة فحملوا عليهم، وراموهم حتى أصيبوا، ورامى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر، ثم كسر جَفْنَ سيفه[٧]، فقاتلهم حتى قتُل، وصار ظهر المقاتلين المسلمين مكشوفاً، فانتقضت صفوفهم، ونادى المشركون بشعارهم: يا للعزى، يا آل هبل، وعادت إليهم روح القتال.

١. الجعاب: جمع جعبة، وهو الوعاء الجلدي الذي توضع فيه السهام.
٢. وهم المسلمون.
٣. المعرك: موضع القتال.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٧.
٥. الحقو: الخصر.
٦. ن. م. ص ٨٨.
٧. جفن السيف: غمده، ويُكسر علامة الاستماتة في القتال.

وفي رواية خَوّات بن جُبير أنه: (لما كرَّ المشركون، انتهوا إلى الجبل وقد عَرِي من القوم، وبقي عبد الله بن جبير في عشرة نفر، فهم على رأس عينين. فلما طلع خالد بن الوليد وعكرمة في الخيل قال[1] لأصحابه: انبسِطوا نَشْراً لئلا يجوز القوم. فصفُّوا وجه العدو، واستقبلوا الشمس، فقاتلوا ساعة حتى قُتل أميرهم عبد الله بن جبير، وقد جُرِح عامتُهم . فلما وقع جرَّدوه ومثلوا به أقبح المَثْل، وكانت الرماح قد شَرَعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته، فكانت حشوته[2] قد خرجت منها)[3].

خوات بن جبير الأنصاري الأوسي، وهو أخو عبدالله بن جبير الذي اختاره النبي مسؤولاً عن الرماة. خرج إلى معركة بدر فلما كان بالروحاء أصابه حجر فكسرت رجله، فرده النبي إلى المدينة، وأعطاه نصيباً من الغنيمة كنصيب المقاتلين، توفي سنة ٤٠ هـ.

وجاء وصف ما جرى من جهة المشركين برواية ضرار بن الخطاب الذي كان في جيش المشركين كالتالي: (فالتقينا، فوالله ما أقمنا لهم حتى هُزمنا وانكشفنا مولِّين، فقلت في نفسي: هذه أشدّ من وقعة بدر. وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كرّ على القوم. فجعل يقول: وترَى وجهاً نكرُّ فيه؟ حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خالياً، فقلت: أبا سليمان، انظر وراءك. فعطف عنان فرسه، فكرَّ وكررنا معه، فانتهينا إلى الجبل فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نفيراً فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارون ينتهبون العسكر، فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا. وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة فلا أرى أحداً، قد هربوا، فما كان حلب ناقة[4] حتى تداعَت الأنصار بينها، فأقبلت، فخالطونا ونحن فرسان، فصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي وترجَّلْتُ، فقتلت منهم عشرة. ولقيت من رجل منهم الموت الناقع حتى وجدت ريح الدم، وهو معانقي، ما يفارقني حتى أخذته الرماح من كل ناحية ووقع، فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي ولم يهنّي بأيديهم)[5].

ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري، نشأ في قريش، وغدا من فرسانها وشعرائها، وقد حضر مع المشركين كل المشاهد، وكان يقاتل أشد القتال ويحرّض على المسلمين بشعره، وهو القائل: زوّجت عشرة من أصحاب النّبيّ بالحور العين. أسلم يوم فتح مكة.

١. القائل هو عبدالله بن جبير.
٢. حشوته: أحشاؤه كالأمعاء.
٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٧.
٤. أي فترة زمنية قصيرة.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص١٠٦. وكلامه الأخير يعني به أن استشهاد العشرة كان بسببه، وهذا خير بالنسبة إليهم، كما أن نجاته من القتل في أحد كان خيراً له، وإلا لمات على الكفر محارباً النبي والمسلمين.

* الارتباك الكبير:

ولما وقع المسلمون في هذا الوضع الحرج تخبّطوا وصاروا يقتلون بعضهم بعضاً بالخطأ. قال رافع بن خديج في وصف ما جرى: (أُتينا مِن قِبَل أنفسنا، ومعصية نبيِّنا، واختلط المسلمون، وصاروا يُقتلون، ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل، وقد جُرح يومئذ أسيد بن حُضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بُرْدة بن نيار، وما يدري، يقول: خُذها وأنا الغلام الأنصاري. وكرّ أبو زَعْنة في حومة القتال، فضرب أبا بردة ضربتين، ما يشعر أنه هو يقول: خذها وأنا أبو زعنة. حتى عرفه بعد، فكان إذا لَقِيَه قال: انظر ما صنعت بي. فيقول أبو زعنة: وأنت فقد ضربت أسَيد بن حُضير ولا تشعر، ولكن هذا الجرح في سبيل الله. فذُكر ذلك لرسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: هو في سبيل الله يا أبا بُردة، لك أجرُه، حتى كأنك ضربك أحدُ المشركين، ومَن قُتل فهو شهيد)[1].

أبو بردة بن نيار القضاعي الأنصاري، من حلفاء الأوس. وهو خال البراء ابن عازب. شهد بيعة العقبة وبدراً وسائر حروب النبي، وتوفي سنة ٤٢ هـ.

أبو زعنة الشاعر واسمه عامر بن كعب الأنصاري الخزرجي. من البدريين، وشهد مع الإمام علي معركة صفين.

وتكرر الأمر مع والد حذيفة بن اليمان: (وكان الشيخان حُسَيْل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين، قد رُفعا في الآطام مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه: لا أبا لك، ما نستبقي مِن أنفسنا؟ فو الله ما نحن إلا هامة اليوم أو غداً، وما بقي من أجلنا قدر ظِمْءِ دابَّة[2]، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول الله «صلى الله عليه وآله» لعل الله يرزقنا الشهادة. قال: فلحقا برسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأما رفاعة فقتله المشركون، وأما حُسَيْل بن جابر فالتفَّت عليه سيوف المسلمين، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وابنُه حذيفة يقول: أبي، أبي، حتى قُتل، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ما صنعتُم؟ فزاد به عند رسول الله «صلى الله عليه وآله خيراً، وأمر رسول الله بدِيَتِه أن تُخرَج، ويقال إن الذي أصابه عتبة بن مسعود، فتصدَّق حذيفة ابنُه بدمه على المسلمين)[3].

والتفَت بعض المسلمين إلى ضرورة ترتيب صفوفهم لعدم تكرار هذا الخطأ القاتل الذي قد يكلّفهم كثيراً: (وأقبل يومئذ الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح: يا آل سلَمة! فأقبلوا عنُقاً واحدة: لبَّيك داعي الله، لبيك داعي الله... حتى أظهروا الشِّعار بينهم، فجعلوا يصيحون: أَمِت. أَمِت. فكَفَّ بعضُهم عن بعض)[4].

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٤١.
٢. أي لم يبق من عمرنا إلا اليسير.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ٢٤١. والتصدق بالدم يعني التصدق بالديَّة.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٨.

❋ انكشاف المقاتلين:

مع اشتداد هجوم المشركين والتخبط في صفوف المسلمين، بدأ المسلمون بالهروب من ساحة المعركة، والرسول يدعوهم للرجوع، قال محمد بن مسلمة: **(سَمِعَت أذناي وأبصرت عيناي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول يومئذ، وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه، وإنه ليقول: إليَّ يا فلان، إليَّ يا فلان، أنا رسول الله! فما عرج منهما واحد عليه، ومضيا)**[1].

وكالعادة تختفي الأسماء وتلعب يد التحريف من قِبَل المؤلف أو النسّاخ، خوفاً أو إحراجاً أو لتضييع الحقيقة التي قد تكشفها روايات أخرى في كتب أخرى، أو بعض القرائن، ولربما تبقى مبهَمة عبر التأريخ. وفي رواية أخرى أنه «صلى الله عليه وآله» كان ينادي: **(أنا ابن العواتك... أنا النبي لا كذِب، أنا ابنُ عبدالمطلب)**[2]. وفي رواية أنهم: **(تفرَّقوا في كل وجه، وجعل الناس يمرون على النبي «صلى الله عليه وسلم»، لا يَلوي عليه أحد منهم، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» يدعوهم في أخراهم، حتى انتهى مَن انتهى منهم إلى المِهراس)**[3].

قال الله «تعالى» في وصف ذلك: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[4].

قال الدكتور مارسدن جونس في مقدمة تحقيق كتاب المغازي للواقدي: (ويبدو لنا أن السبب فى اتهام الواقدي وابن إسحاق بالتشيع لا يرجع إلى عقيدتهما الشخصية، وإنما يرجع إلى ما ورد فى كتابيهما من الأقوال والآراء الشيعية التي يعرضانها، وليس ذلك عن عقيدة صحيحة فيها، مما تقتضيه طبيعة التأليف فى مثل هذه الموضوعات. ولعل السبب فى وصف الواقدي خاصة بأنه يتشيَّع يرجع إلى ما أورده فى بعض مواضع من كتابه حين يأتى إلى جماعة من الصحابة، ومنهم بعض الخلفاء الراشدين، فيذكر مثلاً عمر وعثمان فى عبارات لا تضعهما فى مكانتهما المرموقة. فمثلاً في المخطوطة التي اتخذناها أصلاً لهذه النشرة قائمةٌ بمن فرَّ عن النبي يوم أحد تبدأ بهذه الكلمات: وكان ممن ولّى فلان... بينما نرى النص عند ابن أبي الحديد: عمر وعثمان بدلاً من فلان. ويروي البلاذري عن الواقدي عثمان ولا يذكر عمر. ويظهر بوضوح أن النص في المخطوطة الأم: كان يذكر عثمان وعمر، أو عمر وحده، أو عثمان وحده ممن ولّوا الأدبار يوم أحُد، ولكن الناسخ لم يقبل هذا في حق عمر، أو عثمان فأبدَل اسميهما أو اسم أحدهما بقوله: فلان).

---

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٨٩.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥. وقوله أنا ابن العواتك لأن أم هاشم بن عبد مناف: عاتكة بنت مرة من بني سليم.، وأم رسول الله آمنة بنت وهب، وأم وهب عاتكة بنت الأوقص من بني سليم. وأم عبد مناف عاتكة بنت فالج من بني سليم.

٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١١٠.

٤. سورة آل عمران: ١٥٣.

سعد بن عثمان الأنصاري الزُّرَقي، وأمه من الخزرج. شهد بدراً، وفرَّ مع أخيه عقبة في أحُد. قيل أنه بقي حياً إلى أن بلغ الثمانين وما شاب.

وفي خبر أنه: (تفرَّق الناس، فمنهم مَن ورَدَ المدينة، فكان أول من دخل المدينة يُخبِر أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد قُتِل **سعد بن عثمان أبو عبادة**، ثم ورد بعده رجالٌ حتى دخلوا على نسائهم، حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسول الله تفرّون؟ قال: يقول ابن أم مكتوم: أعَن رسول الله تفرّون؟ ثم جعل يؤفِّف بهم، وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خلَّفه بالمدينة، يصلي بالناس، ثم قال: اعدلوني على الطريق[١] ـ يعني طريق أحُد ـ فعدلوه على الطريق، فجعل يَستخبر كلَّ مَن لقي عن طريق أحُد حتى لحق القوم، فعلم بسلامة النبي «صلى الله عليه وسلم»، ثم رجع. وكان ممن ولّى فلان، والحارث بن حاطب، وثعلبة بن حاطب، وسواد بن غزية، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، بلغ مَلل[٢]، وأوس بن قيظي في نفر من بني حارثة، بلغوا الشقرة[٣]، ولقيَتْهم أمُّ أيمن تَحثي في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغزل به، وهلمَّ سيفَك. فوجَّهت إلى أحُد مع نسيات معها)[٤].

كما روى الواقدي أنه: (كان خالد بن الوليد يُحدِّث وهو بالشام يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام. لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب «رحمه الله» حين جالوا وانهزموا يوم أحُد، وما معه أحَد، وإني لفي كتيبة خشناء فما عرفه منهم أحدٌ غيري، فنكبت عنه وخشيت إن أغريتُ به مَن معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجِّهاً إلى الشِّعب)[٥]. ولا يخفى للمتتبع ما كان بين ابن الوليد والخليفة عمر من عدم انسجام استمر إلى عهد الخلافة، على الرغم من صلة القرابة بينهما، فخالد ابن عم والدة الخليفة عمر، وفي الخبر أن ابن الوليد وعمرَ ـ في زمن طفولتهما ـ تصارعا، فكسر خالد رِجْل عمر. ولعل خالد بن الوليد أراد ـ بهذا الخبر ـ أن يُعرِّض بالخليفة من جهة، ويحمّله جميلاً من جهة أخرى.. هذا إن افترضنا صحته.

وهكذا نجد موقفاً آخر يُروى حول فرار بعض أصحاب النبي من ساحة المعركة في أحُد، وبقاء هذا الحدث مثاراً من حين إلى آخر كسلاح للتشهير: (كان بين عبد الرحمن وعثمان كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه فقال: اذهب إلى أخيك[٦] فبلِّغه عني ما أقول لك، فإني لا أعلم أحداً يبلّغه غيرك. قال الوليد:

١. قال ذلك لأنه كان أعمى البصر.
٢. ملل: وادي يقع غرب المدينة المنورة على بُعد ٤٠ كم تقريباً.
٣. الشقرة: وادي بين المدينة المنورة والقصيم على بُعد ٨٠ كم تقريباً، وبتقديري أن في الخبر مبالغة.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩٠.
٦. الوليد بن عقبة أخو الخليفة عثمان بن عفان لأمه، فأمهما أروى بنت كريز.

أفعل. قال: قل، يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدراً ولم تشهد، وثبتُّ يوم أحُد ووليتَ عنه، وشهدتُ بيعةَ الرضوان ولم تشهدها. فجاءه فأخبره فقال عثمان: صدق أخي! تخلَّفْت عن بدر على ابنة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهي مريضة[١]، فضرب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بسهمي وأجرى فكنت بمنزلة مَن حَضَر. وولَّيت يوم أحُد، فقد عفا الله ذلك عني، فأما بيعة الرضوان فإني خرجتُ إلى أهل مكة، بعثني رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله)[٢].

❊ استشهاد مصعب:

وقد كان لاستشهاد حامل لواء المسلمين مصعب بن عمير أثر كبير في سيطرة الروح الانهزامية على المسلمين: (حمل مصعبٌ اللواء، فلما جال المسلمون ثبت به، فأقبل ابن قَمِيئَة[٣] ـ وهو فارس ـ فضرب يده اليمنى فقطعها..... وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنَى عليه فقطع يده اليسرى، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره..... ثم حمل عليه الثالثة فأنفذه واندقَّ الرمح، ووقع مصعب وسقط اللواء، وابتدرَه رجلان من بني عبد الدار، سُويبِط بن حرملة وأبو الروم، وأخذه أبو الروم فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون)[٤].

❊ البحث عن النبي:

ثبت رسول الله «صلى الله عليه وآله» في ساحة المعركة، يواجه خطر الموت دون مبالاة، وهو المستهدَف الأول، وكان في ثباته هذا ينادي بالمسلمين للصمود: (وجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يومئذ يذمر[٥] الناس ويحضهم على القتال)[٦]. وقد بدأ المشركون بالبحث عنه لاستهدافه، فعن نافع بن جُبير قال: (شهدتُ أحُداً فنظرتُ إلى النَّبْل تأتي من كل ناحية، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» وسطها، كل ذلك يُصرَف عنه[٧]. ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزُّهْري يقول يومئذ: دلّوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. وإن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى جنبه، ما معه

عبدالله بن شهاب الزهري، هو جد محمد بن مسلم بن شهاب الزّهري الفقيه المعروف، وله جد آخر من جهة الأم وله نفس الاسم، وهما أخوان، وقد كان اسم الأكبر منهما عبدالجان، فلما أسلم لاحقاً أبدل النبي اسمه بعبدالله.

١. وهي السيدة رقية.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.
٣. هو عبدالله بن قميئة الحارثي.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩٠.
٥. يذمر: يحث.
٦. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩١.
٧. أي لم يُصَب النبي بأيٍّ منها.

أحَد، ثم جاوزه، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية، فقال صفوان: ترِحْتَ[1]، ألم يمكنك أن تضرب محمداً فتقطع هذه الشأفة؟ فقد أمكنك الله منه. قال: وهل رأيته؟ قال: نعم، أنت إلى جنبه. قال: والله ما رأيته. أحلف بالله إنه منّا ممنوع، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك)[2].

ونعرف هؤلاء الأربعة من خلال الخبر التالي: (وكان أربعةٌ من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وعرفهم المشركون بذلك: عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قميئة، وأبيّ بن خلف)[3].

عتبة بن أبي وقاص الزهري، أخو الصحابي سعد، وأبو هاشم المرقال الذي كان من المخلصين للإمام علي. وفي الخبر أن النبي قال يوم أُحُد: (عتبة بن أبي وقاص هشّم وجهي ودق رباعيّتي). والرباعية من الأسنان الأمامية. مات كافراً.

ولكن يبدو أن هذا الخبر غير صحيح، والأصح أن الأربعة تعرّضوا لرسول الله «صلى الله عليه وآله» ووصلوا إليه وأصابوه، واعتقدوا أنهم قد قتلوه حينما أغمي عليه: (فلما أُتي المسلمون مِن خلفِهم انكشفوا وأصاب منهم المشركون، وكان المسلمون لما أصابهم ما أصابهم من البلاء أثلاثاً: ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث منهزم وقد جهِدَتْه الحرب حتى ما يدري ما يصنع. وأصيبت رباعيَّةُ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» السفلى، وشُقّت شفتُه وكَلُم في وجنتيه وجبهته في أصول شعره، وعلاه ابنُ قميئة بالسيف على شِقِّه الأيمن، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص)[4].

وفي خبر آخر أنه: (رمى وجنتي رسول الله «صلى الله عليه وآله» ابنُ قميئة، و الذي رمى شفته و أصاب رباعيّته عتبة بن أبي وقاص. قال الواقدي: أقبل ابن قميئة يومئذ وهو يقول دلّوني على محمد، فوالذي يُحلَف به لئن رأيته لأقتلنّه. فوصل إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فعلاه بالسيف، ورماه عتبة بن أبي وقاص في الحال التي جلَّله ابن قميئة فيها السيف[5]، و كان «صلى الله عليه وآله» فارساً، وهو لابس درعين مثقل بهما، فوقع رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن الفرس في حفرة كانت أمامه. قال الواقدي: أصيب ركبتاه، جُحِشتا[6] لما وقع في تلك الحفرة، وكانت هناك حفرٌ حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» واقفاً على

١. ترح: قلَّ خيره.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩٠.
٣. ن. م. ص ٩٢.
٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٦٥.
٥. أي رماه في نفس اللحظة التي رفع فيها ابن قميئة السيف.
٦. جُحشتا: سُجحتا.

بعضها وهو لا يشعر، فجُحشت ركبتاه و لم يصنع سيفُ ابن قميئة شيئاً إلا وهنُ الضربة بثِقل السيف، فقد وقع رسول الله «صلى الله عليه وآله» ثم انتهض وطلحة يحمله مِن ورائه، وعلي «عليه السلام» آخذٌ بيديه حتى استوى قائماً)[1].

* إشاعة قتل النبي:

وإذ سرت على إثر ذلك إشاعة قتل النبي «صلى الله عليه وآله»، ازداد وهن المسلمين، وشد ذلك من عزيمة المشركين. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الخلل الذي أصاب موقف المسلمين على أثر تلك الإشاعة حيث قال «تعالى»: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[2].

وتحرك مَن تواجد من المنافقين في المعركة للتأثير على المسلمين: **(وقال منافق: إن رسول الله قد قُتل، فارجعوا إلى قومكم، فإنهم داخلوا البيوت)**[3].

وفي خبر أن سعد بن أبي وقاص قال متحدثاً عن تلك اللحظات الحرجة التي شاهد فيها أخاه عتبة ساعياً لقتل النبي «صلى الله عليه وآله» فلاحقه: **(ولقد حرصت على قتله حرصاً ما حرصت على شيء قط، و إن كان ما علمت لعاقاً بالوالد، سيئ الخُلق، ولقد تخرَّقْتُ صفوفَ المشركين مرتين، أطلب أخي لأقتله، ولكنه راغ مني روغان الثعلب، فلما كان الثالثة قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا عبدالله، ما تريد؟ أ تريد أن تقتل نفسَك؟ فكففْتُ. فقال رسول الله «صلى الله عليه**

من المناسب أن ننبه إلى أن النبي لم يقاتل في أية معركة، لتعارض حمله السيف للقتال مع كونه رحمة للعالمين، ولأن العرب عُرفوا بالثأر لقتلاهم، ولو قتل النبي منهم أحداً بشكل مباشر لكان من الصعب بالنسبة إليهم أن يرضخوا لحكمه ويؤمنوا برسالته. وكان الإمام علي بمثابة اليد اليمنى لرسول الله، فتحمّل لاحقاً تبعات قتله لصناديد قريش والعرب حنقاً وحقداً، وقد قالت السيدة الزهراء في هذا الشأن: (حتى استنقذكم الله برسوله بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببُهَم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو نجَمَ قرنُ الشيطان أو فغرت فاغرةٌ من المشركين، قذَفَ أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخَها بأخْمُصه، ويطفئ عاديةَ لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله). ولذا لا نجد أحداً قتله النبي في ساحة معركة، وهو الشجاع لا ريب. أما قول الإمام علي: (كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتَّقيْنا برسولِ الله) فلا يعني أنه كان يُقاتل معهم، بل كان المسلمون يقتربون من موقع رسول الله لينالوا شعوراً بالطمأنينة في تلك المواطن العصيبة.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٣-٤.
٢. سورة آل عمران: ١٤٤.
٣. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٦.

وآله»: اللهم لا تحوّلن الحولَ على أحد منهم[١]. قال سعد: فوالله ما حال الحول على أحد ممن رماه أو جرحه. مات عتبة، وأما ابن قميئة فاختُلف فيه، فقائل يقول قُتل في المعرك، وقائل يقول: إنه رمى بسهم في ذلك اليوم فأصاب مصعب بن عمير فقتله، فقال: خذها وأنا ابن قميئة. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» أقمأه الله[٢]. فعمد إلى شاة يحتلبها فتنطحه بقرنها وهو معتلقها، فقتلته فوُجد ميتاً بين الجبال)[٣].

* نداء الشيطان:

جاء في عدة نصوص على لسان مجموعة من الصحابة الذين شاركوا في المعركة أن الذي نادى بقتل رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليس سوى الشيطان.. فإما:

١. أن نقبل بأن المقصود بالشيطان إبليس ذاته، وهذا يصعب قبوله.

٢. أو نقول بأنهم توهّموا ذلك، ولكنهم تسالموا عليه وكأنه حقيقة مفروغ منها، وهذا معقول.

٣. وإما أنهم قصدوا الرمزية في الأمر، معتبرين أن المشرك الذي نادى بذلك كان بمثابة الشيطان.

* الصامدون:

ووقف علي «عليه السلام» دفاعاً عنه، مع نفر قليل من الصحابة اختلفوا في عددهم ما بين السبعة مع الإمام علي، إلى الثلاثين.. واختلفوا في أسمائهم، ولكنهم اتفقوا على أن علياً «عليه السلام» كان أحدهم دون شك.

ومن بين تلك الأخبار أنه: **(بايعه يومئذ على الموت ثمانية، ثلاثة من المهاجرين و خمسة من الأنصار، فأما المهاجرون فعلي «عليه السلام» وطلحة، والزبير، وأما الأنصار فأبو دجانة، والحارث بن الصِّمَّة، والحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حُنيف، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحَد)[٤].**

الحارث بن الصمة الأنصاري الخزرجي، شهد معركة بئر معونة، حيث أرسل النبي سبعين من قراء القرآن مع ملاعب الأسنّة بحسب طلبه لنشر الإسلام بين بعض القبائل البدوية، ولكن غُدر بهم لاحقاً، فقُتل يومئذ شهيداً.

وروايات عديدة أن من بين الصامدين طلحة بن عبيدالله: **(وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذ عن النبي «صلى الله عليه وسلم» قتالاً شديداً، فكان طلحة يقول: لقد رأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حيث انهزم أصحابه وكثر المشركون، فأحدقوا بالنبي**

١. أي أن النبي دعا عليهم بالموت قبل مرور سنة.
٢. أقمأه: أذلّه.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٦.
٤. ن.م. ص ٢٠.

«صلى الله عليه وسلم» من كل ناحية، فما أدري أقومُ مِن بين يديه أو مِن ورائه أو عن يمينه أو عن شماله، فأذبُّ بالسيف من بين يديه مرة، وأخرى مِن ورائه حتى انكشفوا)[1]. وأصيب إصبع يده فشلَّت يدُه.

وروي أنه: (لما كان يوم الجمل وقتل علي مَن قَتل من المسلمين ودخل البصرة، جاءه رجل من العرب فتكلم بين يديه، ونال مِن طلحة، فزبَره علي وقال: إنك لم تشهد يوم أُحُد وعِظَم غِنائه عن الإسلام مع مكانه من رسول الله «صلى الله عليه وسلم». فانكسر الرجل وسكت، فقال رجل من القوم: وما كان غناؤه وبلاؤه يوم أُحُد «يرحمه الله»؟ فقال عليّ: نعم، فيرحمه الله، فلقد رأيته وإنه لَيترّس بنفسه دون رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وإنَّ السيوف لتغشَاه والنَّبل من كل ناحية، وإنْ هو إلا جُنَّة بنفسه لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»)[2]. فإن صحّت الرواية بهذه الصورة فهي تدل ـ فيما تدل عليه ـ على عظم إنصاف أمير المؤمنين «عليه السلام» حتى لخصومه وفي مثل ذلك الموقف.

وروي أن النبي «صلى الله عليه وآله» سأل لاحقاً عن أحد أصحابه ـ وهو ذَكوان بن عَبد قيس ـ فقال الإمام علي: (أنا رأيتُ يا رسول الله فارساً يركض في أثره حتى لحقه وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ. فحمل عليه بفرسه، وذكوان راجل، فضربه وهو يقول: خذها وأنا ابن عِلاج. فأهويتُ إليه وهو فارس، فضربت رجلَه بالسيف حتى قطعتها عن نصف الفخذ، ثم طرحته من فرسه فذففت عليه، وإذا هو أبو الحكم بن الأخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي)[3].

خرج ذكوان بن عبد قيس الأنصاري وأسعد بن زرارة إلى مكة فسمعا برسول الله فأتياه فعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن فأسلما ورجعا إلى المدينة، فكانا أول من قدم بالإسلام إلى المدينة. شهد العقبة الأولى والثانية، ثم خرج من المدينة إلى النبي فكان معه بمكة، ولذا كان يُقال له: مهاجري أنصاري.

كما رويت أخبار عن بعض المقاتلين المسلمين الذين ثبتوا وقاتلوا حتى حين انتشرت إشاعة قتل النبي «صلى الله عليه وآله» ومن بينهم أنس بن النضْر: (أتينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعوداً، ومر بهم أنس بن النضر بن ضمضم ـ عم أنس بن مالك ـ فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم جالد بسيفه حتى قُتل. فقال عمر بن الخطاب: إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة)[4].

---

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ٢٤٧٤٨.

٢. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٥٠.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٠٧. ومن المستبعد أن يكون الإمام في ذلك الظرف قد ذكر الاسم بهذا التفصيل، ولعلها إضافة من الراوي.

٤. ن.م. ص١٠٥.

ومن الثابتين خارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي: (مرّ مالك بن الدّخشم[١] على خارجة بن زيد أبي زهير وهو قاعد، في حشوته[٢] ثلاثة عشر جرحاً، كلها قد خلصت إلى مقتَل[٣]، فقال: أما علمتَ أن محمداً قد قُتل؟ فقال خارجة: فإن كان محمد قد قُتل فإن الله حي لا يموت، لقد بلّغ محمد، فقاتِل عن دينك)[٤].

ومنهم ثابت بن الدّحداحة[٥] حليف الأنصار الذي أخذ يصيح: (يا معشر الأنصار، إليّ إليّ، أنا ثابت بن الدحداحة، إنْ كان محمدٌ قد قُتل، فإن الله حي لا يموت، فقاتِلوا عن دينكم، فإن الله مُظهِركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله، وقَتل مَن كان معه من الأنصار «رضي الله عنهم»، فيقال: إن هؤلاء آخر من قُتل من المسلمين)[٦].

* من بطولات الإمام علي:

ولأمير المؤمنين «عليه السلام» بالإضافة إلى مبارزاته الأولى في أحُد بطولاتٌ عديدة من بينها ما جاء في الأخبار التالية، ففي إحداها أنه قال: (لما كان يوم أحُد وجَال الناس تلك الجولة، أقبل أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنَّع في الحديد، ما يُرى منه إلا عيناه، وهو يقول: يومٌ بيوم بدر. فيعترض له رجلٌ من المسلمين فيقتله أميّة. قال علي «عليه السلام»: وأصمد له فأضربه بالسيف على هامته وعليه بيضة وتحت البيضة مغفر، فنبا سيفي[٧]، وكنت رجلاً قصيراً، ويضربني بسيفه فأتّقي بالدرقة، فلحِجَ[٨] سيفُه فأضربه، وكانت درعه مشمَّرة، فأقطع رجليه، ووقع فجعل يعالج سيفه حتى خلَّصه من الدرقة، وجعل يناوشني وهو بارك على ركبتيه، حتى نظرت إلى فتق تحت إبطه فأخش بالسيف فيه، فمال ومات وانصرفتُ عنه)[٩].

وروي أنه «عليه السلام» قال: (لمّا انهزم الناس عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لحقني من الجزع ما لم أملك نفسي، وكنت أمامه أضرب بسيفي المشركين، فرجعت أطلبه فلم أره، فقلت: ما كان رسول الله «صلى الله عليه

---

١. وهو متهم بالنفاق.
٢. حشوته: أحشاؤه.
٣. أي كانت إصاباته شديدة.
٤. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ١٦٥.
٥. وقيل: الدحداح.
٦. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ١٦٥.
٧. نبا السّيفُ عن الضّريبة: لم يُصِبْها.
٨. لحج: علق.
٩. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٥.

وآله» ليفر، وما رأيته في القتلى، وأظنّه رُفع من بيننا إلى السماء. فكسرتُ جِفنَ سيفي وقلت: لأقاتلنّ به حتّى أُقتَل، وحملت على القوم فأفرجوا، فإذا أنا برسول الله «صلى الله عليه وآله» قد وقع مغشيّاً عليه، فنظر إليّ وقال: ما فعل الناس يا عليّ؟ فقلت: كفروا [1] يا رسول الله وولّوا الدبر وأسلموك إلى عدوّك، فنظر إلى كتيبة قد أقبلت فقال: ردّهم عنّي، فحملت عليهم أضربهم يميناً وشمالاً حتّى قتلت منهم هشام بن أميّة المخزومي، وانهزم الباقون. وأقبلت كتيبة أخرى فقال لي «صلى الله عليه وآله»: احمل على هذه، فحملت عليهم وقتلت منهم عمر بن عبد الله الجمحي، وانهزموا أيضاً، وجاءت أخرى فحملت عليها وقتلت منها بِشر بن مالك العامري، وانهزموا. ولم يزل «عليه السلام» يُقاتل في ذلك اليوم ويفرّق جموعَ القوم عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتّى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه سبعون جراحة، وهو قائم وحدَه بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يغفل عنه طرفة عين، فقال له «صلى الله عليه وآله»: يا عليّ، أما تسمع مديحك في السماء؟ إنّ ملكاً اسمه رضوان ينادي بين الملائكة: لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ)[2].

* بطولة نسيبة بنت كعب:

كان لبعض النساء المسلمات حضور في المعركة بغرض توفير الماء للمقاتلين وتضميد جراحاتهم، ومن بينهن نُسَيْبَة بنت كعب ـ أم عُمارة ـ التي شهدت أُحُداً هي وزوجُها وابناها، فلما رأت ما رأت من هزيمة منكرة لكثير من المسلمين: (قاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسناً، فجُرحت اثني عشر جرحاً، بين طعنة برمح أو ضربة بسيف)[3].

وقد روت أم سعد بنت سعد بن الربيع قولها: (دخلتُ عليها فقلت لها: يا خالة، حدثيني خبرك. فقالت: خرجتُ أول النهار إلى أُحُد، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سِقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو في أصحابه والدولة والربح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلَّي الجراح).

تقول الراوية للخبر: (فرأيتُ على عاتقها جرحاً له غَوْر أجوف فقلت: يا أم عمارة من أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قميئة وقد ولّى الناس عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يصيح: دلّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير وأناسٌ معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتُه على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان).

١. ليس المقصود من الكفر الكفر العقدي، بل الكفر بمعنى العصيان وعدم الثبات.. هذا إن صح النص وصدق الراوي.
٢. الديلمي: إرشاد القلوب، ج١، ص ٦١-٦٢.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠١.

وفي رواية أخرى قالت: (**قد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فما بقي إلا نُفَيْر ما يُتمّون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه نذبُّ عنه، والناس يمرّون به منهزمين، ورآني لا تُرس معي، فرأى رجلاً مولياً معه تُرس، فقال: يا صاحب التُّرس، ألقِ ترسَك إلى مَن يقاتل. فألقى ترسه، فأخذتُه فجعلت أترِّس عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحابُ الخيل، لو كانوا رَجّالة مثلنا أصبناهم، إن شاء الله، فيُقبل رجل على فرس فضربني، وترَّسْتُ له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى، وأضرب عرقوب فرسه فوقع على ظهره. فجعل النبي «صلى الله عليه وسلم» يصيح: يا ابن أم عمارة، أمَّك، أمَّك! قالت: فعاونني عليه حتى أوردتُه شَعوب**[1]). وكان ضمرة بن سعيد يحدِّث عن جدته ـ وكانت قد شهدت أُحُداً تسقي الماء ـ قالت: (**سمعتُ النبي «صلى الله عليه وسلم» يقول: لَمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان**[2]. **وكان يراها تُقاتل يومئذ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جُرحت ثلاثة عشر جُرحاً**).

وقد حاولَت أن تلتحق بالمقاتلين الذين ندبهم النبي «صلى الله عليه وآله» لملاحقة قريش بعد انتهاء معركة أُحُد (**فشدَّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم**).

ولما عاد النبي «صلى الله عليه وآله» من ملاحقة المشركين: (**ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها فسُرَّ النبي «صلى الله عليه وسلم» بذلك**)[3].

ثم قُطعت يدُها في معركة اليمامة التي وقعت بين المسلمين والمرتدّين من الأعراب من أتباع مسيلمة الكذاب بعد وفاة رسول الله، وهي تقاتلهم.

* تساقط الشهداء:

استشهد في المعركة أكثر من سبعين من مقاتلي المسلمين، بعضهم قبل وقوع الهزيمة، وأكثرُهم بعدها، وقد كان عبدالله والد جابر الأنصاري من الفئة الأولى، قال جابر: (**كان أبي أول قتيل قتل من المسلمين يوم أحد، قتله سفيان بن عبد شمس أبو أبي الأعور السَّلَمي، فصلى عليه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قبل الهزيمة. قال جابر: لما استشهد أبي جعَلت عمّتي تبكيه، فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: ما يبكيها؟ ما زالت الملائكة تظل عليه بأجنحتها حتى دُفن. وقال عبد الله بن عمرو بن حرام: رأيتُ في النوم قبل يوم أُحُد بأيام**

عمرو بن سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمي، حليف أبي سفيان. شهد حنيناً كافراً ثم أسلم بعدُ، ثم صار من أصحاب معاوية وخاصّته، وشهد معه صفين، وكان أشد من عنده على الإمام علي.

١. شعوب: الموت.
٢. مرة أخرى تمتد يد التلاعب بالنص لتُخفي الحقيقة.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠١-١٠٢.

وكأني رأيت مبشر بن عبد المنذر يقول: أنت قادمٌ علينا في أيام. فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة. نسرح منها حيث نشاء. قلت له: ألم تُقتَل يوم بدر؟ فقال: بلى، ثم أحييت. فذكر ذلك لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: هذه الشهادة يا أبا جابر)[1].

* استشهاد حمزة:

ومن الشهداء سيدهم حمزة بن عبدالمطلب الذي كان يَفري المشركين فرياً بسيفه: (نظَر صفوان بن أمية إلى حمزة يومئذ وهو يَهُدّ الناس، فقال: مَن هذا؟ قالوا: حمزة بن عبد المطلب. فقال: ما رأيتُ كاليوم رجلاً أسرع في قومه، وكان يومئذ مُعلِماً بريشة نسر)[2].

وقد روى وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب خبر ما جرى له مع حمزة في أُحُد، قال: (أما محمد فقد علمتُ أني لا أقدر عليه، وأن أصحابه لن يسلموه، وأما حمزة فوالله لو وجدته نائماً ما أيقظته من هيبته، وأما علي فألتمسه. قال وحشي: فكنتُ يوم أُحُد ألتمسه، فبينا أنا في طلبه طلع عليٌّ، فطلع رجل حذر مرس كثير الالتفات، فقلتُ ما هذا بصاحبي الذي ألتمس، إذ رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنت له إلى صخرة وهو مُكبِس[3] له كتيت[4] فاعترض له سباع ابن أم نيار، وكانت أمُّه ختَّانة بمكة، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان سباع يُكنى أبا نيار، فقال له حمزة: وأنت أيضاً يا ابن .....[5] ممَّن يُكثر علينا؟ هلم إليَّ، فاحتمله حتى إذا برقت قدماه[6] رمَى به فبرك عليه فشحطه شحط الشاة، ثم أقبل عليَّ مكبّاً حين رآني فلما بلغ المسيل، وطئ على جُرف، فزلّت قدمه، فهززْتُ حربتي حتى رضيت منها، فأضرب

كان وحشي عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، فقالت له: إن أبي قُتل يوم بدر، فإنْ أنت قتلتَ أحد الثلاثة فأنت حر، محمد وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب. فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم. وفي رواية أخرى أنه قال: (إني كنت عبداً لجبير بن مطعم ابن عدي فلما خرج الناس إلى أُحُد دعاني فقال قد رأيت مقتل طعيمة بن عدي، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر، فلم تزل نساؤنا في حزن شديد إلى يومي هذا، فإن قتلتَ حمزة فأنت حر، فخرجت مع الناس و لي مزاريق «رماح قصيرة» كنت أمر بهند بنت عتبة فتقول: إيه أبا دسمة، اشفِ و اشتفِ).

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠٠-١٠١.
٢. ن. م. ص ١٠٩.
٣. مكبس: مهاجِم.
٤. كتيت: صوت الأنفاس في الصدر.
٥. حذفت الكلمة تقديراً للقارئ، وهي مُثبَتة في المصدر.
٦. أي ضعفتا.

بها في خاصرته حتى خرجَت من مثانته، وكرَّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمعهم يقولون: أبا عمارة. فلا يُجيب. فقلت: قد و الله مات الرجل، و ذكرْتُ هنداً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها. وانكشف عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته، ولا يروني، فأكرّ عليه فشققتُ بطنَه، فاستخرجتُ كبدَه، فجئت بها إلى هند بنت عتبة فقلت: ما ذا لي إن قتلتُ قاتلَ أبيك؟ قالت: سَلْني[1]. فقلت: هذه كبد حمزة! فمضغَتْها، ثم لفظَتها، فلا أدري لم تسغْها أو قذَرتها. فنزَعت ثيابَها وحليَّها فأعطتنيه ثم قالت: إذا جئتَ مكة فلك عشرة دنانير. ثم قالت: أرني مصرعَه، فأريتها مصرعه فقطعت مذاكيرَه، وجدَعت أنفَه وقطعت أذنَيه، ثم جعلت ذلك مَسكتين ومِعضدين وخدَمتين[2] حتى قدمت بذلك مكة، وقدمت بكبده أيضاً معها).

وفي خبر آخر: (و كان في ساقيها خدَمتان من جزع ظفار، ومَسكتان من ورق[3] وخواتيم من ورق كنَّ في أصابع رجليها، فأعطتني بكل ذلك)[4].

وفي الخبر أنه: (كانت هند أولَ من مثّل بأصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» وأمَرَت النساء بالمثل ـ جدْع الأنوف والآذان ـ فلم تبق امرأة إلا عليها معضدان ومسكتان وخدَمتان، ومُثّل بهم كلهم إلا حنظلة). وسنعرف لاحقاً لماذا استثني حنظلة من ذلك.

ولصفية بنت عبدالمطلب خبر مع هذا الحدث الجلل، قالت: (رُفِعنا في الآطام، ومعنا حسان بن ثابت ونحن في فارع[5]، فجاء نفر من اليهود يرمون الأطم، فقلت: عندك يا ابن الفُرَيعة[6]. فقال: لا والله، ما أستطيع، ما يمنعني أن أخرج مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى أحُد[7]. ويصعد يهودي إلى الأطم فقلت: شدَّ على يدي السيف، ثم برئْتُ[8]. ففعل. قالت: فضربتُ عنقه، ثم رميت برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا. قالت: وإني في فارع أول النهار مشرفة على الأطم، فرأيت المزراق يُزرق به، فقلت: أومن سلاحهم المزاريق؟ أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر. قالت: ثم خرجْتُ آخر النهار حتى جئت رسول الله «صلى الله عليه وسلم». وكانت تحدث تقول: كنت أعرف انكشاف أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأنا أعلم على الأطم، يرجع حسان إلى أقصى الأطم،

---

١. أي اطلب ما شئت.

٢. المسكة والخدمة: نوعان من الخلخال.

٣. ورق: فضة.

٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ١٢-١٣.

٥. اسم الحصن، يقع في منازل بني عدي بن النجار وهو اليوم أمام باب الرحمة غرب المسجد النبوي.

٦. الفريعة: اسم أم حسان بن ثابت: الفريعة بنت خنيس.

٧. أي إنما يمنعه من الخروج إلى اليهودي هو الخوف الذي منعه من الخروج إلى المعركة.

٨. نوع من التهديد.

فإذا رأى الدولة لأصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» أقبل حتى يقف على جدار الأطم. قالت: ولقد خرجت والسيف في يدي، حتى إذا كنت في بني حارثة أدركت نسوة من الأنصار وأم أيمن معهن، فكان الجَمْزُ مِنّا [1] حتى انتهينا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأصحابه أوزاع [2]، فأول من لقيت علي ابن أخي، فقال: ارجعي يا عمة، فإن في الناس تكشّفا. فقلت: رسولَ الله؟ فقال: صالحٌ بحمد الله. قلت: ادللني عليه حتى أراه. فأشار لي إليه إشارة خفيّة من المشركين، فانتهيت إليه وبه الجراحة. قال: وجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: ما فعل عمي؟ ما فعل عمي حمزة؟ فخرج الحارث بن الصمة فأبطأ، فخرج علي بن أبي طالب.... حتى انتهى إلى الحارث ووجد حمزة مقتولاً، فأخبر النبي «صلى الله عليه وسلم» فخرج النبي «صلى الله عليه وسلم» يمشي حتى وقف عليه، فقال: ما وقفتُ موقفاً قط أغيظ إليَّ من هذا الموقف! فطلعت صفية فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يا زبير، أغْنِ عني أمك، وحمزة يحفر له. فقال: يا أمّه، إن في الناس تكشّفاً، فارجعي. فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله «صلى الله عليه وسلم». فلما رأت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قالت: يا رسول الله، أين ابن أمي حمزة؟ قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هو في الناس. قالت: لا أرجع حتى أنظر إليه. قال الزبير: فجعلت أطِدُها [3] إلى الأرض حتى دُفن حمزة) [4].

وفي خبر آخر: (أن صفية لما جاءت، حالت الأنصار بينها و بين رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: دعوها، فجلست عنده، فجعلت إذا بكت يبكي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإذا نَشَجت ينشج رسول الله «صلى الله عليه وآله» و جعلت فاطمة «عليها السلام» تبكي، فلما بكت بكى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم قال: لن أصاب بمثل حمزة أبداً. ثم قال «صلى الله عليه وآله» لصفية وفاطمة: أبشرا، أتاني جبرائيل «عليه السلام» فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله) [5].

ولم يكتفِ أبوسفيان بفعلة زوجته فقد نظر الحُلّيس بن علقمة إلى أبي سفيان وهو على فرس وبيده رمح يجأ به في شدق حمزة وهو يقول: (ذُق عَقَق). فاستهجن الحليس فعلته ونادى: (يا معشر بني كنانة، انظروا إلى من يزعم أنه سيد قريش، ما يصنع بابن عمه الذي قد صار لحماً) فقال أبو سفيان: (صدقت، إنما كانت مني زلة، اكتمها عليَّ) [6].

١. أي ركضنا.
٢. أوزاع: متفرقون.
٣. أطدها: أثبتها.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠٨-١٠٩.
٥. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ١٧.
٦. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٩٧.

❊ استشهاد حنظلة:

ومن الشهداء حنظلة المعروف بغسيل الملائكة، وهو ابن أبي عامر الفاسق: (وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أبيّ بن سلول، فأُدخلت عليه في الليلة التي في صُبحها قتال أحُد. وكان قد استأذن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن يبيت عندها، فأذِن له، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها، ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيتُ كأنَّ السماء فُرِجَت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة. فأشْهدَتْ عليه أنه قد دخل بها. وتَعْلَق بعبد الله بن حنظلة... وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحَه، فلحق برسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأحُد وهو يسوّي الصفوف. قال: فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة بن أبي عامر لأبي سفيان بن حرب فضرَب عُرقوب فرسِه، فاكتسعت الفرس[1]، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب. وحنظلة يريد ذبْحه بالسيف، فأسمع الصوت رِجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة حتى عاينه الأسود بن شَعُوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه، فمشى حنظلة إليه بالرمح وقد أثْبَته، ثم ضربه الثانية فقتله. وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه وردف وراء أبي سفيان، فذلك قول أبي سفيان).

ولاحقاً بعد انتهاء المعركة مشى إليه أبوه أبوعامر الفاسق: (وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب وعبدالله بن جَحْش، فقال: إن كنتُ لأحذّرك هذا الرجل[2] مِن قَبْل هذا المصرع، والله إن كنتَ لبرّاً بالوالد، شريفَ الخُلُق في حياتك، وإن مماتك لمع سَراة أصحابك[3] وأشرافهم. وإنْ جزى الله هذا القتيل ـ لحمزة[4] ـ خيراً، أو أحداً من أصحاب محمد، فجزاك الله خيراً. ثم نادى: يا معشر قريش، حنظلةُ لا يُمثَّل به وإن كان خالفني وخالفَكم، فلم يألُ لنفسه فيما يرى خيراً. فمُثِّل بالناس وتُرِك فلم يُمثَّل به... وقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إني رأيت الملائكة تُغسّل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المُزْن في صِحاف الفضة)[5].

❊ استشهاد عمرو بن الجموح:

وروي أن عمرو بن الجَموح الأنصاري السلمي صهر عبدالله والد جابر الأنصاري كان رجلاً أعرج شديد

١. اكتسعت: سقطت من ناحية المؤخرة.
٢. أي النبي.
٣. السراة: الشرفاء.
٤. أي أشار إلى حمزة وقصَده.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠٣-١٠٤.

العرج، وكان له بنون أربعة شجعان يشهدون مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» المشاهد، فلما كان يوم أُحُد أراد قومه منعه من الخروج إلى القتال، وقالوا له: (**أنت رجل أعرج ولا حرج عليك وقد ذهب بنوك مع النبي «صلى الله عليه وآله». قال: بخ. يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؟ فقالت هند بنت عمرو بن حرام امرأته: كأني أنظر إليه مولّياً قد أخذ درَقَته وهو يقول: اللهم لا تردّني إلى أهلي**).

فخرج ولحقه بعضُ قومِه يكلّمونه في القعود فأبى، وجاء إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: (**إنَّ قومي يريدون أن يحبسوني هذا الوجه، والخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعَرجتي هذه في الجنة. فقال له: أما أنت فقد عذَرك الله، ولا جهاد عليك. فأبى. فقال النبي «صلى الله عليه وآله» لقومه وبنيه: لا عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله يرزقه الشهادة**)[1]. فخلوا عنه، وخرج عمرو إلى أُحُد مع النبي، وقُتل بها شهيداً.

أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً وأحداً ويعد من أثرياء الأنصار، كريماً كثير الصدقات. توفي سنة ٣٤ هـ.

وقد جاء في وصف بطولته على الرغم من إعاقته ما روي عن أبي طلحة الأنصاري أنه قال: (**نظرتُ إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون، ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول، لكأني أنظر إلى ضِلعِه في رِجله، يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة. ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثرِه حتى قُتلا جميعاً**)[2].

❋ البشارة لعلي بالشهادة:

روى الشريف الرضي في نهج البلاغة قول أمير المؤمنين «عليه السلام»: (**لما أنزل الله «سبحانه» قولَه ﴿الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ علمْتُ أنّ الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله «صلى الله عليه وآله» بين أظهرنا، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرَك الله «تعالى» بها؟ فقال «صلى الله عليه وآله»: يا عليّ، إنّ أمتي سيُفتنون من بعدي. فقلت: يا رسول الله، أو ليس قد قلت لي يوم أُحُد، حيث استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت[3] عنّي الشهادة، فشقّ عليّ ذلك، فقلت لي: أبشِر فإنّ الشهادة مِن ورائك؟ فقال «صلى الله عليه وآله»: ذلك كذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر**).

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الفقرة: (**وهذا الخبر مرويٌّ عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، قد رواه كثير من المُحدِّثين عن عليّ «عليه السلام» أنّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال له: إنّ الله قد كتبَ عليك جِهاد**

١. المجلسي: بحارالأنوار، ج ٣٠، ص ٢٠.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠٠.
٣. حيزت: أبعدت.

المَفتونين ، كما كتَبَ عليَّ جِهادالمُشركين. قال، فقلت: يا رسولَ الله، ما هذه الفتنة التي كُتبَ عليّ فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالِفون للسُنّة. فقلت: يا رسول الله، فعلامَ أُقاتلهم وهُم يشهدون كما أشهد؟ قال: على الإحداث في الدِّين، ومخالفة الأمر. قلت: يا رسول الله، إنّك كنت وعدْتَني الشهادة، فاسأل الله أن يجعلها لي بين يديك. قال: فمَن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما إنّي وعدتك الشهادة وسَتسْتشهِد، تُضرَب على هذه فتُخضب هذه، فكيف صبرك إذن؟ قلت: يا رسول الله، ليس ذا بمَوطِن صبر، هذا مَوطن شُكر. قال: أجَل، أصَبْت)[1].

* اللجوء إلى الشِّعب:

بعد إصابة النبي «صلى الله عليه وآله» وتفرّق الكثير من المقاتلين واستشهاد عدة من المجموعة الصامدة أو إصابتها بجراح شديدة، أخِذ النبي إلى شِعبٍ[2] في جبل أحد بعيداً عن مرمى المشركين الذين استهدفوه من قبل، ولربما يستهدفونه من جديد. وقد روي أنه: (وصل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الشِّعب مع أصحابه، فلم يكن هناك قتال)[3].

قال المقريزي: (وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ـ لما انكشف المسلمون ـ لم يبق معه إلا نُفير، فأحدق به أصحابُه من المهاجرين والأنصار، وانطلقوا به إلى الشِّعب وما للمسلمين لواء قائمٌ ولا فئة ولا جَمْع، وإنَّ كتائب المشركين لتحوشهم[4] مقبلة ومدبرة في الوادي يلتقون ويفترقون، ما يرون أحداً من الناس يردُّهم، ثم رجعوا نحو معسكرهم واشتوروا في المدينة وفي طلب المسلمين[5]، فبينا هم على ما هُم فيه، إذ طلع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى أصحابه: فكأنهم لم يُصِبْهم شئ حين رأوه سالماً)[6].

وجاء في وصف ما جرى داخل الشِّعب أن النبي وصل: (إلى الشِّعب وأصحابه في الجبل أوزاع، يذكرون مقتل مَن قُتل منهم، ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم». قال كعب: وكنت أول من عرفه وعليه المغفَر. قال: فجعلتُ أصيح: هذا رسول الله حياً سوياً. وأنا في الشِّعب، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يوميء إليَّ بيده على فيه أن اسكت، ثم دعا بلأمتي وكانت صفراء أو بعضَها[7]، فلبسها رسول الله «صلى

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٢٠٥-٢٠٦.
٢. الشعب: انفراجٌ بين الجبلين. والجمع: شِعابٌ.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٠٦.
٤. تحوشهم: يأخذونهم من حواليهم من كل جانب.
٥. أي شاور بعضهم البعض في غزو المدينة وملاحقة المسلمين.
٦. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١، ص ١٤٧.
٧. أي بعضها باللون الأصفر.



الشعب الذي يقال أن النبي لجأ إليه

الله عليه وسلم» ونزع لأمته[١]. قال: وطلع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على أصحابه في الشِّعب بين السعدَيْن، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، يتكفّأ[٢] في الدرع، وكان إذا مشى تكفّأ تكفؤاً «صلى الله عليه وسلم» ـ ويقال إنه كان يتوكأ على طلحة بن عبيد الله ـ وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد جُرح يومئذ، فما صلى الظهر إلا جالساً. قال: فقال له طلحة: يا رسول الله، إن بي قوة. فحمله حتى انتهى إلى الصخرة على طريق أُحُد ـ مَن أراد شِعْبَ الجزارين[٣] ـ لم يعدُها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى غيرها، ثم حمله طلحة حتى ارتفع عليها، ثم مضى إلى أصحابه ومعه النفر الذين ثبتوا معه. فلما نظر المسلمون مَن معه جعلوا يُولُّون في الشِّعب، ظنوا أنهم من المشركين! حتى جعل أبو دجانة يُليح إليهم بعمامةٍ حمراء على رأسه، فعرفوه فرجعوا، أو بعضُهم).

ويبدو أن بعض المشركين عاود الكرة على المسلمين عند هروبهم إلى جبل أُحُد، ففي خبر عن رافع بن خديج أنه قال: (إني إلى جنب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر مَن قُتل مِن قومه ويسأل عنهم، فيُخبَر برجال، منهم سعد بن ربيع، وخارجة بن زهير، وهو يسترجِع[٤] ويترحّم عليهم، وبعضهم يسأل بعضاً عن حَميمه، فهم يُخبرون بعضُهم بعضاً. فبيناهم على ذلك، ردَّ الله المشركين ليُذهب بالحزن عنهم، فإذا عدوُّهم فوقهم قد علوا، وإذا كتائب المشركين. فنسوا ما كانوا يذكرون، ونَدَبَنا رسولُ الله «صلى الله عليه وسلم» وحضَّنا على القتال، وإني لأنظر إلى فلان وفلان[٥] في عُرض الجبل يعدُون. فكان عمر يقول: لما صاح الشيطان: قُتل محمد، أقبلتُ أرقى في الجبل

١. إما لكي لا يعرفه المشركون المتقصّدون له، أو لأنها كانت مدماة، فأراد أن لا يثير مشاعر المسلمين سلبياً، أو لأن اللون الأصفر مميز مما يلفت انتباه أصحابه الموزّعين في الجبل.

٢. تكفأ: مال.

٣. تحديد موضع الصخرة في الشعب.

٤. يسترجع: يقول إنا لله وإنا إليه راجعون.

٥. مجدداً تختفي الأسماء بفعل فاعل.

كأني أروية[١]، فانتهيت إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآية[٢]، وأبو سفيان في سَفْح الجبل. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اللهم ليس لهم أن يعلونا. فانكشفوا).

ونزل النعاس على المسلمين رحمةً لحالهم وتخفيفاً من معاناتهم وليقوموا بعدها بروحية أفضل: (قال أبو أسيد الساعدي: لقد رأيتنا قبل أن يُلقى علينا النعاس، وإنا لسِلم لمن أرادنا[٣]، لما بِنا من الحزن، فألقى علينا النعاس فنمنا حتى تناطح الحَجف[٤]، وفزعنا[٥] وكأنا لم تُصبنا قبل ذلك نكبة. وقال طلحة بن عبيد الله: غشينا النعاس حتى كان حجف القوم تناطح. وقال الزبير بن العوام: غشِيَنا النعاس، فما منّا رجل إلا وذقنُه في صدره من النوم، فأسمع مُعتّب بن قُشير يقول ـ وإني لكالحالم ـ: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا. فأنزل الله «تعالى» فيه)[٦]. أي نزل فيه قوله «تعالى»: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٧].

معتب بن قشير بن مليل الأنصاري الأوسي، شهد العقبة وبدراً، وقيل إنه كان منافقاً، وأنه تاب.

❊ انتهاء المعركة:

وبهذه الصورة المأساوية توقف القتال، وتوجّه أبوسفيان إلى حيث تجمّع المسلمون بجوار رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الجبل وقد قرر المشركون عدم الاستمرار في الحرب، وإنما صرفهم الله «تعالى» عن ذلك كما في بعض النصوص. وقد روي عن عمرو بن العاص بيان كيفية اتخاذ المشركون القرار بالرجوع إلى مكة ـ وهو منهم يومذاك ـ على الرغم من إمكانية الاستمرار في المواجهة حتى تحقيق هدف حاسم، قال: (لما كرَرنا عليهم، أصبنا

١. الأروية: الأنثى من الوعل.
٢. تمام الآية هكذا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾. سورة آل عمران: ١٤٤.
٣. أي كان بإمكان العدو أن يهجم علينا دون مقاومة منا.
٤. أي تصادمت دروعهم مع بعضها البعض.
٥. أي أفقنا من النوم.
٦. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١٣، ص ٢٦٥.
٧. سورة آل عمران: ١٥٤.

من أصبنا منهم وتفرّقوا في كل وجه، وفاءت لهم فئة بعدُ، فتشاورت قريش فقالوا: لنا الغلبة، فلو انصرفنا، فإنه بلغَنا أن ابنَ أبيّ انصرف بثلث الناس، وقد تخلّف ناسٌ من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا وفينا جراح، وخيلُنا عامتها قد عُقِرت من النبل. فمضوا)[1].

* حركة استعراضية:

وقبيل مغادرة الغزاة لموقع القتال، قام أبوسفيان بحركة استعراضية أراد منها التشفّي وإظهار الغلبة والتأكد من خبر ابن قميئة الذي ادّعى أنه قتل النبي «صلى الله عليه وآله»، فقد روى الطبرسي أنه: **(قام أبو سفيان فنادى بعض المسلمين: أحيٌّ ابن أبي كبشة؟ فأما ابنُ أبي طالب فقد رأيناه مكانه. فقال علي «عليه السلام»: إي والذي بعثه بالحق، إنه ليسمع كلامك. قال: إنه قد كانت في قتلاكم مُثلة، والله ما أمرتُ ولا نهيت، إنَّ ميعاد ما بيننا وبينكم موسم بدر في قابل هذا الشهر. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: قل: نعم. فقال: نعم. فقال أبو سفيان لعلي «عليه السلام»: إن ابن قميئة أخبرني أنه قَتل محمداً، وأنت أصدق عندي وأبرّ. ثم ولّى إلى أصحابه وقال: اتخِذوا الليل جملاً**[2]**، وانصرفوا)**[3].

وقد رويت رواية أخرى مشابهة وبتفاصيل أكثر تذكر أن الذي كان يجيبهم هو الخليفة عمر. وقد يكون الأنسب بالقبول هو الرواية الأولى، وذلك لأمرين:

١. أن الذي ينبغي أن يتصدى لهذا الأمر هو صاحب العزيمة والهمّة في المعركة، وقد رأينا الفارق بين موقف علي وعمر، ومن البعيد أن يرضى النبي «صلى الله عليه وآله» بإيكال الرد بقوة على أبي سفيان من قبل مَن ولّى ولم يُعقّب.

٢. لرواية ابن أبي الحديد في شرح النهج حيث قال: **(روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة**[4] **وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته..... و كتَب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم أن انظروا مَن قِبَلكم مِن شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته والذين يروون فضائلَه ومناقبَه فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا**

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٣.
٢. اتخذ الليل جملا: يضرب لمن يعمل عَمَلَه بالليل ؛ كأنه رَكِبَ اللّيْل ولم يَنَمْ فيه.
٣. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ١٨١.
٤. الكورة: البقعة التي يجتمع فيها قُرَى ومحال.

ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء[1] والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثُر ذلك في كل مِصر وتنافسوا في المنازل والدنيا..... ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مِصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحُجّة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقُرئت كتبُه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذِكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلَّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله)[2].

❊ تتبع أثر المشركين:

وعلى كل حال، فقد أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بتتبع أثر المشركين للتأكد من مسيرهم ووجهتهم، أيقصدون دخول المدينة، أم العودة إلى مكة. واختلفت الروايات في مَن أرسله النبي لهذه المهمة، أهو الإمام علي، أم سعد بن أبي وقاص.

النص الأول يقول: **(ثم دعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» فقال: اتبعهم فانظر أين يريدون، فإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، وإن كانوا ركبوا الإبل وساقوا الخيل فهم متوجهون إلى مكة)**. فعاد الإمام بالخبر وقال: **(فرأيت خيلهم تضرب بأذنابها مجنوبة[3] مُدبِرة، ورأيت القوم قد تجمَّلوا[4] سائرين. فطابت أنفس المسلمين بذهاب العدو)**[5].

بينما النص الثاني يذهب إلى أن النبي أرسل سعداً وقال له ما ذكرناه في النص السابق، وأضاف: **(إن سعداً لما رجع يرفع صوته بأنْ: جَنِّبوا الخيل وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يشير إلى سعد أن اخفض صوتَك. قال: ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن الحرب خدعة، فلا تُري الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، فإنما ردّهم الله «تبارك وتعالى»)**.

---

١. الحباء: الهدية.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ٤٤-٤٦.

٣. مجنوبة: وضعت على جنب لأنها غير مركوبة.

٤. تجملوا: ركبوا جمالهم.

٥. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ١٨١.

هذا الموقف الإرشادي ـ المفترَض ـ من النبي «صلى الله عليه وآله» لسعد وتخطئته لأسلوبه في إبلاغ الأمر تبدّل في رواية أخرى إلى ثناء ومديح: (**فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين، قد دخلوا في المُكَيْمِن**[1]، **رجع إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وهو كالمنكسر، فقال: وجّه القوم يا رسول الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنَّبوا الخيل. فقال: ما تقول؟ فقلت ذلك. ثم خلا بي فقال: حقاً ما تقول؟ قلت: نعم يا رسول الله. فقال: ما لي رأيتك منكسراً؟ قال، فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فرحاً بقفولهم إلى بلادهم. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن سعداً لمجرّب**[2])[3].

* دفن الشهداء:

انتهت المعركة عن استشهاد أكثر من سبعين، قيل خمسة أو أربعة من المهاجرين، وسبعين من الأنصار. وقيل أن المجموع سبعين شهيداً. وقد ذكرنا بعضاً منهم في ما سبق أثناء استعراض تفاصيل الأحداث. بينما قُتل من المشركين ما يقارب العشرين. ومع مغادرة قريش لساحة المعركة نزل المسلمون بحثاً عن الجرحى والشهداء.

وأمر النبي «صلى الله عليه وآله» بجمع جثامين الشهداء: (**فكان كلما أُتيَ بشهيد وُضع إلى جنب حمزة ابن عبد المطلب، فصلى عليه وعلى الشهداء، حتى صلى عليه سبعين مرة، لأن الشهداء سبعون. ويقال كان يؤتى بتسعة وحمزة عاشرهم، فيُصلّي عليهم، ثم يُرفع التسعة وحمزة مكانه، ويؤتى بتسعة آخرين فيوضعون إلى جنب فيصلي عليهم، حتى فعل ذلك سبع مرات. ويُقال كبَّر عليهم تسعاً وسبعاً وخمساً. وكان طلحة بن عبيدالله، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، يقولون: صلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على قتلى أُحُد، وقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أنا على هؤلاء شهيد**[4]. **فقال أبو بكر «رضي الله عنه»: يا رسول الله، أليسوا إخواننا، أسلموا كما أسلمنا، وجاهدوا كما جاهدنا؟ قال: بلى، ولكن هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم شيئاً**[5]، **ولا أدري ما تُحدثون بعدي. فبكى أبو بكر وقال: إنا لكائنون بعدك؟**)[6].

وللنبي «صلى الله عليه وآله» مع الشهيد سعد بن ربيع الأنصاري قصة نذكرها بعد أن أشرت إليها في بدايات عرض أحداث الغزوة، وهي كالتالي: (**قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مَن يأتيني بخبر سعد بن ربيع؟**

---

١. مكيمن الجمّاء: منطقة في وادي العقيق.

٢. مجرب: صاحب خبرة وتجربة.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٢.

٤. أي شهيد على استقامتهم.

٥. لأنهم ثبتوا على الحق إلى آخر حياتهم وختموها بالشهادة.

٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٧.

فإني قد رأيته ـ وأشار بيده إلى ناحية من الوادي ـ وقد شرع فيه اثنا عشر سِناناً. قال: فخرج محمد بن مسلمة ـ ويقال أبيّ بن كعب ـ فخرج نحو تلك الناحية. قال: وأنا وسط القتلى أتعرّفهم، إذ مررت به صريعاً في الوادي، فناديتُه فلم يُجب، ثم قلت: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أرسلني إليك. فتنفّس كما يتنفس الكِير[١]، ثم قال: وإن رسول الله لحي؟ قال: قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سناناً. قال: طُعنت اثنتي عشرة طعنة، كلها أجافتني[٢]، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله، الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة. والله ما لكم عذر عند الله إن خَلُصَ إلى نبيكم ومنكم عين تطرف. ولم أرِم[٣] مِن عنده حتى مات. قال: فرجعت إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأخبرتُه. قال: فرأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» استقبل القبلة رافعاً يديه يقول: اللهم القَ سعد بن الربيع وأنت عنه راض)[٤].

ثم أمر النبي «صلى الله عليه وآله» بدفن الشهداء وقال: (احفروا وأوسعوا وادفنوا الإثنين والثلاثة في القبر. قالوا: يا رسول الله، مَن نُقدّم؟ قال: أكثرُهم جمعاً وأخذاً للقران[٥])[٦].

وكان من تعلمياته «صلى الله عليه وآله» أن أمر بدفن أكثر من شهيد في القبر الواحد، ولعل ذلك لكثرتهم من جهة، والإجهاد الذي أصاب المسلمين من جهة أخرى: (وكان ممن يعرف أنه دفن في قبر واحد: عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح، وخارجة بن زيد، وسعد بن ربيع، والنعمان بن مالك، وعبدة بن الحسحاس، في قبرٍ واحد. فلما واروا حمزة بن عبد المطلب أمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ببُردة تُمدّ عليه وهو في القبر، فجعلت البردة إذا خَمَّروا[٧] رأسه بدت قدماه، وإذا خمّروا رجليه تنكشف عن وجهه، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: غطّوا وجهه)[٨].

كما روي أنه «صلى الله عليه وآله» قال: (ادفُنوا عبدالله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد. ويقال إنهما وُجدا وقد مُثّل بهما كل المثل، قُطّعت أَرابهما ـ يعني عضواً عضواً ـ فلا تُعرَف أبدانهما، فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: ادفنوهما جميعاً في قبرٍ واحد. ويقال إنما أمر بدفنهما في قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء، فقال: ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبرٍ واحد. وكان عبد الله بن عمرو بن حرام رجلاً أحمر أصلع،

١. الكير: المنفاخ، أداة من جلد أو نحوه يستخدمها الحدّاد وغيره للنفخ في النار لإذكائها.
٢. أجافتني: أصابت جوفي.
٣. أرم: برح وفارق.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٠.
٥. أي حفظاً واهتماماً بالقرآن.
٦. ابن حنبل: المسند، ح ١٥٨١٢.
٧. خمروا: غطوا.
٨. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٧.

ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح طويلاً، فعُرفا ودخل السيل عليهما [١] ـ وكان قبرهما مما يلي السيل ـ فحفر عنهما، وعليهما نمرتان، وعبد الله قد أصابه جرحٌ في وجهه، فيده على وجهه، فأميطت يده عن جرحه فثَعَب الدم، فرُدَّت إلى مكانها فسكن الدم. قال جابر: فرأيت أبي في حفرته فكأنه نائم، وما تغيّر مِن حاله قليل ولا كثير. فقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما كُفّن في نِمرة خُمّر بها وجهُه، وعلى رجليه الحرمل، فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ستة وأربعون سنة. فشاورهم جابر في أن يُطيّب بمسكٍ، فأبى ذلك أصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» وقالوا: لا تُحدِثوا فيهم شيئاً)[٢].

ومر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بمصعب بن عمير وهو مقتول مسجّى ببُردة بالية، فقال: **(لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حُلّة ولا أحسن لمّة [٣] منك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس في هذه البُردة! ثم أمر به فقُبِر، ونزل في قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويبطة بن عمرو بن حرملة)[٤].**

وأما حمزة بن عبدالمطلب فقد نزل في قبره علي «عليه السلام» والزبير وأبو بكر وعمر، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» جالس على حفرته. وكان الناس أو عامتهم قد حملوا قتلاهم إلى المدينة، ودفنوهم بها **(فنادى منادي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ردّوا القتلى إلى مضاجعهم[٥] ـ وكان الناس قد دفنوا قتلاهم ـ فلم يرد أحدٌ أحداً منهم إلا رجلاً واحداً أدركه المنادي ولم يُدفَن، وهو شماس بن عثمان المخزومي)[٦].**

فماذا عن مجموعة القبور الموجودة في أُحُد المجاورة لحمزة ومصعب؟ إحدى الروايات تقول: **(كان طلحة بن عبيد الله إذا سئل عن تلك القبور المجتمعة بأُحُد يقول: قوم من الأعراب كانوا زمان الرمادة[٧] في عهد عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» هناك فماتوا، فتلك قبورهم)[٨].**

فهل يصح ذلك؟ أم هو تكرار لنفس السيناريو المعاصر لتضييع قبور الشهداء وإهمالها من خلال ادّعاء نصوص على لسان الصحابة تنفي معلومية أصحاب هذه القبور؟

١. تحدثنا مسبقاً عن جريان السيل على قبور الشهداء حين أمر معاوية بإجراء الماء في المنطقة إبان حكمه. قال الواقدي: (ويقال إن معاوية لما أراد أن يجري كظامة، والكظامة عينٌ أحدثها معاوية، نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيلٌ بأحد فليشهد! فخرج الناس إلى قتلاهم فوجدوهم طرايا يتثنون، فأصابت المسحاة رجلاً منهم فثعب دماً. قال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً).

٢. ن. م. ص ١٠١.

٣. لِمّة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ٣٩.

٥. أي إلى موضع استشهادهم بأُحُد.

٦. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ج ١٥، ص ٣٩.

٧. زمان أو عام الرمادة: السنة التي أصابهم فيها القحط والمجاعة في آخر سنة ١٧ هـ إلى بداية سنة ١٨ هـ.

٨. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١١٨.

❋ الزهراء مع أبيها:

لما وصل خبر الأحداث المؤلمة التي جرت في أُحُد وانقلاب الحال على المسلمين، والحديث عن قتل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لم تصبر ابنته السيدة فاطمة الزهراء «عليها السلام» وبعض نسوة المدينة حتى شددن الخُطا نحو موقع المعركة دون تهيّب من العدو: (**وخرجت فاطمه «عليها السلام» في نساء وقد رأت الذي بوجه أبيها «صلى الله عليه وآله»، فاعتنقته، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسوله. وذهب علي «عليه السلام» فأتى بماء من المهراس، وقال لفاطمة: امسكي هذا السيف غير ذميم**[1]. **فأتي بماء في مجنّة، فأراد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن يشرب منه وكان قد عطش فلم يستطع، ووجد ريحاً من الماء كرهها فقال: هذا ماء آجن. فمضمض منه فاه للدم في فيه، وغسلت فاطمة الدم عن أبيها**)[2].

فلما رأت فاطمة «عليها السلام» الدم لا يتوقف نزفُه، وهي تغسله، وعلي «عليه السلام» يصب الماء عليها، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم، ويقال إنها داوته بصوفة محترقة. وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد ذلك يداوي الجرح الذي في وجهه بعَظَمٍ بالٍ إلى مدة من الزمن، كما بقي يجد ألم ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر.

❋ العودة إلى المدينة:

بعد أن فرغ النبي من دفن الشهداء بأُحُد، دعا بفرسه فركبه، وخرج أصحابه حوله، وأكثرهم جرحى، فلما كانوا بأصل الحرَّة أمرهم بالاصطفاف، فاصطفت الرجال صفين، وخلفهم النساء وعدتهن أربع عشرة امرأة، فرفع يديه فدعا فقال: (**اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت. اللهم إني أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك. اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إني أسألك الأمن يوم الخوف، والغناء يوم الفاقة، عائذاً بك اللهم من شر ما أعطيت، ومن شر ما منعت. اللهم توفنا مسلمين. اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم عذّب كفرة أهل الكتاب الذين يكذّبون رسلك ويصدون عن سبيلك. اللهم أنزل عليهم رجسَك وعذابَك، إله الحق آمين**).

وكانت عودته «صلى الله عليه وآله» من جهة مساكن بني حارثة ثم بني عبدالأشهل، فوجدهم يبكون على قتلاهم، فقال متألماً لفقدان عمه: (**لكن حمزة لا بواكي له**).

---

١. يثني على سيفه حيث أبلى بلاء حسناً.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٩٤.



وخرجت النساء يستقبلن رسول الله وينظرن إلى سلامته، ومن بينهن أم عامر الأشهلية التي تركت النوح على قتلاها حين نظرت إليه «صلى الله عليه وآله» وعليه الدرع كما هي فقالت: (**كل مصيبة بعدك جلل**). وخرجت أم سعد بن معاذ ـ كبشة بنت عتبة ـ تعدو نحو رسول الله، وسعد آخذ بعنان فرسه فقال سعد: (**يا رسول الله، أمي. فقال: مرحباً بها**). فدنت حتى تأمَّلته وقالت: (**إذ رأيتُك سالماً فقد شفَت المصيبة**). فعزّاها بابنها عمرو بن معاذ ثم قال: (**يا أم سعد، أبشري و بشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً، و هم اثنا عشر رجلاً، وقد شُفّعوا في أهليهم. فقالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لمن خُلّفوا. فقال: اللهم أذهب حزن قلوبهم و آجر مصيبتَهم، وأحسِن الخلف على من خلفوا. ثم قال لسعد بن معاذ: حل أبا عمرو الدابة، فحل الفرس، وتبعه الناس فقال: يا أبا عمرو، إن الجِراح في أهل دارك فاشية، و ليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان اللون لون دم، والريح ريح مسك، فمن كان مجروحاً فليقر في داره، و ليداوِ جُرحَه، ولا تبلغ معي بيتي عزمةً** [1] **مني**)[2].

انطلق سعد بن معاذ يخبر أهله بأمر النبي، فتخلفوا عن مرافقته إلى المدينة، وباتوا يوقدون النيران و يداوون الجراح، و فيهم ثلاثون جريحاً، بينما مضى سعد بن معاذ مع رسول الله.

وخرج أبو سعيد الخدري مع بعض الصبية للاطمئنان على صحة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلاقوه في

١. أي أنه يلزمهم بذلك، لا رخصة فيه.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٤١-٤٢.

الطريق، قال: (**فلقينا الناس منصرفين ببطن قناة، فلم يكن لنا همة إلا النبي «صلى الله عليه وسلم» ننظر إليه، فلما نظر إليّ قال: سعد بن مالك؟ قلت: نعم بأبي وأمي، فدنوت منه فقبّلت ركبَته وهو على فرسه، ثم قال: آجرك الله في أبيك. ثم نظرتُ إلى وجهه فإذا في وجنتيه مثل موضع الدرهم في كل وجنة، وإذا شجةٌ في جبهته عند أصول الشعر، وإذا شفتُه السفلى تدمي، وإذا رباعيته اليمنى شظيةً، وإذا على جرحه شيءٌ أسود. فسألت: ما هذا على وجهه؟ فقالوا: حصير محرَّق، وسألت: مَن دمى وجنتيه؟ فقيل: ابن قميئة. فقلت: مَن شجّه في جبهته؟ فقيل: ابن شهاب. فقلت: من أصاب شفته؟ فقيل: عتبة. فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه، فما نزل إلا حَملاً، وأرى ركبتيه مجحوشتين، يتكىء على السعدين: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته**)[1].

وقفل سعد بن معاذ عائداً إلى أهله، فلما غربت الشمس وأذّن بلال بالصلاة، خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» متوكأً على السعدين، ثم انصرف إلى بيته، والناس في المسجد يوقدون النيران، يتكمدون بها من الجراح.

لما عاد سعد بن معاذ إلى أهله جمع النساء واصطحبهن: (**فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فبكين بين المغرب والعشاء**)، ثم أذن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق، فلم يخرج رسول الله، وجلس بلالٌ عند بابه حتى ذهب ثلث الليل، والنساء على حالهن يبكين، ثم ناداه بالصلاة، فخرج رسول الله وقد ارتاح قليلاً إذ نام، وتحسّنت حالته الصحية نسبياً، وتساءل عن البكاء فقيل له: (**نساء الأنصار يبكين على حمزة، فقال: رضي الله تعالى عنكن وعن أولادكن. وأمر النساء أن يرجعن إلى منازلهن، قالت أم سعد بن معاذ: فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالنا، فما بكت منا امرأة قط إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا**)[2].

وهذا شبيه بما يفعله شيعة أهل البيت، حيث يبدؤون مجالس عزائهم بذكر مصيبة الإمام الحسين بن علي، وهذا ديدنهم من بعد استشهاده حتى يومهم هذا، ولو كان أمراً قبيحاً أو منكراً لنهى النبي نساء الأنصار عن فعل مثله بحق عمه حمزة بن عبدالمطلب.

لقد كانت هذه المواقف الرحيمة من رسول الله «صلى الله عليه وآله» في هذا الظرف العصيب واهتمامه بأهالي الشهداء والمصابين، وعدم تقريع المخطئين وتحميلهم المسؤولية ومعاقبتهم، كالبلسم على الجروح، وكان هذا من أسباب إصرار المسلمين على الالتفاف حوله، بل وشعورهم بالمسؤولية عن الخطأ الذي ارتكبوه، وإحساس الأهالي بأن سلامة رسول الله تفوق من حيث الأهمية أي أمر آخر، ولو كان ذلك على حساب استشهاد أبنائهم، وهو ما أفشل مساعي المنافقين واليهود الذين حاولوا تأليب الناس كما سيتبيّن لنا في العنوان اللاحق.

١. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٣، ص ٢٨٩.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٤٢.

قال الله «عزوجل» في سياق الكلام عن أحداث غزوة أُحد ونتائجها: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

وهكذا صلى رسول الله بأصحابه العشاء، ثم رجع إلى بيته وقد صفَّ له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه، يمشي وحده حتى دخل. وأمضى رجالٌ من الأنصار تلك الليلة في المسجد عند باب بيت رسول الله، يحرسونه خشية أن يعود المشركون من الطريق ويهجمون غدراً.

* موقف المنافقين واليهود:

وأما المنافقون فإنهم كانوا مسرورين بنجاتهم من الموت والجراحات، وصار ابن أبيّ ومَن معه يُظهرون السرور لسلامتهم ويشمتون لما أصاب المسلمين، قال الله «عزوجل» واصفاً حالهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وجلس ابنُ أبيّ تلك الليلة عند ولده عبدالله، وهو جريح يكوي الجراحة بالنار، وقال له: (**ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأي، عصاني محمد وأطاع الولدان! والله لكأني كنت أنظر إلى هذا. فقال ابنه: الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله**)[3].

ومشهد آخر لمنافق آخر مع ابنه، إنه حاطب بن أمية، فبينما كان ابنه يزيد رجلَ صِدق، شهد أُحُداً مع النبي «صلى الله عليه وآله» فجُرح بها جرحاً أدى إلى استشهاده لاحقاً، فلما جيء به إلى منزله قال أبوه حاطب، وهو يرى أهل الدار يبكون عنده: (**أنتم والله صنعتم هذا به! قالوا: كيف؟ قال: غررتموه من نفسه حتى خرج فقتل، ثم صار منكم في شيءٍ آخر، تعدونه جنة يدخل فيها، جنة من حرمل! قالوا: قاتلك الله! قال: هو ذاك!**)[4].

وأظهر اليهود الشماتة أيضاً حتى قال بعضهم: (**ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وأصيب في أصحابه**). واستغل المنافقون هذه الإثارة من اليهود، فصاروا يخذّلون عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويأمرون الناس بالتفرق عنه، وقالوا لأصحاب النبي: (**لو كان مَن قُتل منكم عندنا ما قُتل**). حتى سمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله يستأذنه في قتل مَن سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين، فقال له: (**يا عمر، إن الله مُظهر دينه ومعزّ نبيّه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم. قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول**

١. سورة آل عمران: ١٥٩.
٢. سورة آل عمران: ١٦٨.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٤٢-٤٣.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٩٩.

الله يقولون، فقال: أ ليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: بلى، وإنما يفعلون تعوذاً من السيف، وقد بان لنا أمرُهم، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة. فقال: إني نُهيت عن قتل مَن قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. يا بن الخطاب، إن قريشاً لن ينالوا ما نالوا منّا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن)[1].

وصدرت بعض ردود الفعل تجاه رأس المنافقين ابن أبيّ، منها أنه اعتاد على أن يتحدّث أمام الناس كل جمعة والنبي «صلى الله عليه وآله» على منبره، متظاهراً بالتأييد، وكان يقول: **(هذا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا)** فلما أراد أن يفعل ذلك بعد غزوة أُحُد ووقف قام إليه بعض المسلمين وقالوا: **(اجلس يا عدو الله! وقام إليه أبو أيوب وعبادة بن الصامت، وكانا أشد من كان عليه ممن حضر، ولم يقم إليه أحدٌ من المهاجري، فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته، وعبادة بن الصامت يدفع في رقبته، ويقولان له: لستَ لهذا المقام بأهل)** فخرج بعد ما تركاه، وهو يتخطى رقاب الناس ويقول: **(كأنما قلت هجراً، قمت لأشُدّ أمره)**[2].

انظر إلى الفرق بين هذا الموقف وبين ما يرتكبه التكفيريون من مجازر باسم الإسلام! هذا هو أمر الله وسنة رسوله: حرمة قتل من نطق بالشهادتين. قال «سبحانه»: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. وفي حديث المقداد بن الأسود أنه قال لرسول الله: (أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله. أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله: لا تقتله. قال: فقلت: يا رسول الله إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟ قال رسول الله: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال). وقال «سبحانه»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ولاحظ الغرض من الإصرار على تكفير المقابل في الآية.. هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا.. وليس الآخرة، ولا مصلحة الرسالة.

* غزوة حمراء الأسد:

نزلت الآيات القرآنية لمعالجة الحالة النفسية التي أعقبت الهزيمة، ولتفتح للمسلمين باب المغفرة والأمل في ما هو قادم، ولتبيّن لهم أسباب الهزيمة لئلا يكرروا أخطاءهم، وألا يستمعوا إلى تسويلات المنافقين واليهود، وأن يتذكروا حقيقة أن لا مفر من الموت إنْ في ساحة الحرب أو في غيرها، وأنّ قتلاهم أحياء يرزقون، وأن العذاب

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٤٣.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٢٠.



سيلاحق المشركين. بالإضافة إلى ذلك، فقد اتّخذ النبي «صلى الله عليه وآله» تدبيراً عسكرياً مهماً لرفع الحالة المعنوية عند المسلمين، ولضمان عدم غدر المشركين بهم إن قرروا العودة من جديد سراعاً. وتمثّل هذا التدبير في اتخاذ قرار الخروج لملاحقة الغزاة.

ففي صبيحة اليوم الثاني من عودة النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة، وبعد أن صلّى الفجر، أمر بلالاً أن ينادي بالخروج لملاحقة المشركين، وأن لا يخرج إلا مَن شهد القتال بالأمس، وبدأ المسلمون ـ فعلاً ـ بالتنادي للخروج ولم يهتمّوا لجراحاتهم، فلما نظر رسول الله إليهم والجراح فيهم فاشية دعا لهم بالرحمة.

ودعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» بلوائه وهو معقود لم يُحَل من الأمس، فدفعه إلى علي «عليه السلام»، ثم صلى ركعتين في المسجد وأرسل ثلاثة نفر لاستقصاء أمر القوم، ثم تحرك بمن معه نحو حمراء الأُسد، فأمر أصحابه بالنزول هناك، وأن يجمعوا الحطب نهاراً ويوقدوها ليلاً: (**وأقام المسلمون بذلك المحل ثلاث ليال، وكانوا يوقدون في كل ليلة من تلك الليالي خمسمائة نار، حتى تُرى من المكان البعيد. وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه**)[1].

وهناك، وفد مَعبَد بن أبي مَعبَد الخزاعي[2] على النبي «صلى الله عليه وآله»، وأظهر حزناً على ما أصاب

١. الزرقاني: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، ج٢، ص ٤٦٧.
٢. كان معبد على الرغم من شركه حليفاً للنبي.

المسلمين، ثم ذهب إلى حيث نزلت قريش فوجدهم يتلاومون لعدم القضاء على النبي والمسلمين نهائياً، ويحدّثون أنفسهم بالعودة إلى المدينة، فبدأ الخزاعي يخذّلهم ويخوّفهم، قال: (**تركتُ محمداً وأصحابَه خلفي يتحرّقون عليكم بمثل النيران و قد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس و الخزرج، و تعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم، فيثأروا منكم، وقد غضبوا لقومهم غضباً شديداً و لمن أصبتم مِن أشرافهم**).

وكان صفوان بن أمية ممن يخاف الرجوع إلى المدينة، وقد حذّر المشركين قبل وفود الخزاعي، ولذا اقتنع الجمع بضرورة العودة إلى مكة وصرف النظر عن مهاجمة المدينة: (**انصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم**)[1].

إلا أن أباسفيان لم يهنأ له الأمر أن يغادر المكان بهذه الصورة، ولذا فقد طلب من نفر مِن عبدالقيس كانوا يمضون باتجاه المدينة أن يبلّغوا النبي بأنهم قرروا العودة إلى القتال، وأنهم قادمون خلفهم، ووعدهم بأن يعطيهم كميات من الزبيب عندما يلتقيهم بعكاظ. وفعلاً قام الوفد بهذا الدور فدخل الحزن في قلوب المسلمين، وصمّموا على القتال متوكلين على الله.

ولم يدم الأمر كثيراً حتى انكشفت الخدعة، حيث أرسل معبد الخزاعي رسولاً إلى النبي «صلى الله عليه وآله» يُعلمه أن قريشاً هابته، وأنها قد غادرت: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[2].

تنتسبُ قبيلة عبد القيس إلى أفصى ابن دُعْمي بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. كانت منازل بني عبد القيس في الجاهلية مع بني ربيعة في تِهامة على ساحل البحر الأحمر، إلا أنها ارتحلت عنها شرقاً واستقرت في البحرين، أي على الشاطئ الغربي للخليج العربي، ووصلت إقامتهم إلى عُمان، وكان العرب يسمون الشاطئ الممتد من البصرة إلى عمان بالخط؛ ويطلقون عليه: خط عبد القيس وكانت مدينة القطيف عاصمة هذا الخط.

* زيارة الشهداء:

تعاهد النبي «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته والصحابة والمسلمون مِن بعدهم زيارةَ مراقد شهداء أُحُد، و (**كان النبي «صلى الله عليه وسلم» يزورهم كلَّ حَوْل، فإذا بلغ نقرة الشِّعب[3] يقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. ثم كان أبو بكر يفعل ذلك كل حول، ثم عمر، ثم عثمان، وكانت فاطمة بنت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تأتيهم فتبكي عندهم وتدعو لهم، وكان سعد يسلّم ثم يُقبِل على أصحابه فيقول: ألا تُسلّمون على**

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٥٨-٦٠.
٢. سورة آل عمران: ١٧٢-١٧٣.
٣. أي دخل في أوله.

قوم يردّون عليكم؟)[1]. وفي المغازي بعد ذكر عثمان: (... ثم معاوية حين مر حاجاً أو معتمراً. وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: ليت أني غودرت مع أصحاب الجبل. وكانت فاطمة بنت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تأتيهم بين اليومين والثلاثة، فتبكي عندهم وتدعو، وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة، فيأتي مِن خلف قبور الشهداء فيقول: السلام عليكم ـ ثلاثاً ـ ثم يُقبِل على أصحابه فيقول: ألا تسلّمون على قوم يردّون عليكم السلام؟ لا يسلّم عليهم أحدٌ إلا ردّوا عليه السلام إلى يوم القيامة. ومر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على مصعب بن عمير فوقف عليه، ودعا، وقرأ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[2]، أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأْتُوهم وزوروهم وسلِّموا عليهم. والذي نفسي بيده، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه. وكان أبو سعيد الخدري يقف على قبر حمزة فيدعو ويقول لمن معه: لا يُسلّم عليهم أحدٌ إلا ردوا عليه السلام، فلا تدَعوا السلام عليهم وزيارتهم. وكان أبو سفيان مولى ابن أبي أحمد يحدث أنه كان يذهب مع محمد بن مسلمة وسلمة بن سلامة بن وقش في الأشهر إلى أحُد، فيسلمان على قبر حمزة أوّلها، ويقفان عنده وعند قبر عبد الله بن عمرو بن حرام مع قبور مَن هناك. وكانت أم سلمة زوج النبي «صلى الله عليه وسلم» تذهب فتسلّم عليهم في كل شهر، فتظل يومها، فجاءت يوماً ومعها غلامها نبهان، فلم يسلّم فقالت: أي لُكَع[3]، ألا تسلم عليهم؟ والله لا يسلم عليهم أحدٌ إلا ردوا إلى يوم القيامة. وكان أبو هريرة يُكثر الاختلاف[4] إليهم. وكان عبد الله بن عمرو إذا ركب إلى الغابة فبلغ ذُباب، عدل إلى قبور الشهداء فسلم عليهم)[5].

❊ تتمة فقهية:

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية تحت عنوان: (التّعزية ، والرّثاء ، وزيارة القبور ونحو ذلك: والتّلقين بعد الدّفن لا يؤمر به وينهى عنه. وظاهر الرّواية عند الحنفيّة يقتضي النّهي عنه، وبه قالت المالكيّة فقد ذهبوا إلى أنّ التّلقين بعد الدّفن وحاله مكروه ، وإنّما يندب حال الاحتضار فقط ، واستحبّه الشّافعيّة فقالوا: والتّلقين هنا أن يقول الملقن مخاطباً للميّت: يا فلان بن فلانة ـ إن كان يعرف اسم أمّه وإلاّ نسبه إلى حوّاء «عليها السلام» ـ ثمّ يقول بعد ذلك: اذكر العهد الّذي خرجت عليه من الدّنيا ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأنّ الجنّة حق، والنّار حق، وأن البعث حق، وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور،

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٥١.
٢. سورة الأحزاب: ٢٣. ولابد أن يكون هذا بعد غزوة الأحزاب.
٣. لكع: لئيم، أحمق، غبي.
٤. الاختلاف: التردد.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١١٨.

وأنك رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد نبيّاً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخواناً... وقال الحنابلة: استحبّ الأكثر تلقينه).

وجاء فيها تحت عنوان تعزية: (لا خلاف بين الفقهاء في استحباب التعزية لمن أصابته مصيبة. والأصل في مشروعيتها : خبر : «من عزّى مصاباً فله مثل أجره». وخبر: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة»).

وحول كيفية التعزية جاء فيها: (يُعزّى أهل المصيبة، كبارهم وصغارهم، ذكورهم وإناثهم، إلا الصبي الذي لا يعقل، والشابة من النساء، فلا يعزيها إلا النساء ومحارمها، خوفاً من الفتنة. مدة التعزية: جمهور الفقهاء: على أن مدة التعزية ثلاثة أيام. واستدّلوا لذلك بإذن الشارع في الإحداد في الثلاث فقط، بقوله «صلى الله عليه وسلم»: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج: أربعة أشهر وعشراً وتكره بعدها؛ لأن المقصود منها سكون قلب المصاب، والغالب سكونه بعد الثلاثة، فلا يجدد له الحزن بالتعزية، إلا إذا كان أحدهما ـ المعزَّى أو المعزِّي ـ غائباً، فلم يحضر إلا بعد الثلاثة، فإنه يعزّيه بعد الثلاثة. وحكى إمام الحرمين وجهاً، وهو قول بعض الحنابلة: أنه لا أمد للتعزية، بل تبقى بعد ثلاثة أيام؛ لأن الغرض الدعاء، والحمل على الصبر، والنهي عن الجزع، وذلك يحصل على طول الزمان).

وعن مكان التعزية: (كره الفقهاء الجلوس للتعزية في المسجد، وكره الشافعية والحنابلة الجلوس للتعزية، بأن يجتمع أهل الميت في مكان ليأتي إليهم الناس للتعزية، لأنه محدث وهو بدعة؛ ولأنه يجدد الحزن. ووافقهم الحنفية على كراهة الجلوس للتعزية على باب الدار ، إذا اشتمل على ارتكاب محظور، كفرش البسط والأطعمة من أهل الميت. ونقل الطحطاوي عن شرح السيد أنه لا بأس بالجلوس لها ثلاثة أيام من غير ارتكاب محظور. وذهب المالكية: إلى أن الأفضل كون التعزية في بيت المصاب. وقال بعض الحنابلة: إنما المكروه البيتوتة عند أهل الميت، وأن يجلس إليهم من عزى مرة، أو يستديم المعزي الجلوس زيادة كثيرة على قدر التعزية).

وجاء فيها أيضاً: (يُسَنّ لجيران أهل الميت أن يصنعوا طعاما لهم ، لقوله «صلى الله عليه وسلم»: «اصنعوا لأهل جعفر طعاماً، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم». ويكره أن يصنع أهل الميت طعاماً للناس، لأن فيه زيادة على مصيبتهم، وشغلاً على شغلهم، وتشبهاً بأهل الجاهلية، لخبر جرير بن عبد الله البجلي «رضي الله عنه»: كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه من النياحة)[1].

وجاء في العروة الوثقى للسيد اليزدي تحت عنوان مستحبات ما بعد الدفن: (تعزية المصاب وتسليته قبل الدفن

١. الموسوعة الفقهية، ج ١٢، ص٢٨٧- ٢٩٠.

وبعده، والثاني أفضل، والمرجع فيها إلى العرف، ويكفي في ثوابها رؤية المصاب إياه، ولا حدّ لزمانها ولو أدّت إلى تجديد حزن قد نسي كان تركها أولى، ويجوز الجلوس للتعزية ولا حدّ له أيضاً، وحدّه بعضهم بيومين أو ثلاثة، وبعضهم على أن الأزيد من يوم مكروه، ولكن إن كان الجلوس بقصد قراءة القرآن والدعاء لا يبعد رجحانه..... إرسال الطعام إلى أهل الميت ثلاثة أيام، ويكره الأكل عندهم، وفي خبر أنه عمل أهل الجاهلية[1].

ومن خلال ما سبق يتبين أن الخلاف بين المذاهب الأربعة في المسائل السابقة متحقق، وبعض الفتاوى تلتقي مع فتاوى بعض مراجع الشيعة في هذا الموضوع، مما يؤكد أن كثيراً مما يثار تحت عنوان البدعة والتهم التي تُلقى جزافاً بحق المسلمين الشيعة في هذا الإطار تلتقي مع فتاوى لبعض أئمة المذاهب الإسلامية اعتماداً على بعض النصوص المروية عن النبي «صلى الله عليه وآله» وعن صحابته وأهل بيته، وهذا يعني أن تلك التهم لا تستند إلى أساس متين، بل هي لا تعدو أن تكون صادرة عن جهل باجتهادات الفقهاء، أو عن تعصب.

❋ البناء على المراقد:

تعاهد المسلمون تخليد هذا الحدث المفصلي في تاريخ أمتهم ببناء هذا المكان والاهتمام به، سواء في ما يخص مراقد الشهداء، أو المواضع التي شهدت أحداثاً خاصة خلال هذه الغزوة. وفي ما يلي عرض لهذه البناءات التي تمت عبر التأريخ وأزيل كثير منها مؤخراً:

١. **مسجد أحُد (الفسح)**: مسجد صغير يقع أسفل جبل أحد عند طرف الشِّعب المؤدي إلى المهاريس، وقد تم هدمه ولم يبق منه إلا الأثر وحوله سياج. وهو موضع صلى فيه النبي «صلى الله عليه وآله» كما ذكرنا من قبل خلال عرض الأحداث. ولربما هذا هو المسجد الذي عناه الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» حيث روي عنه أنه قال: **(ثم تأتي المسجد الذي في المكان الواسع إلى جنب الجبل عن يمينك، حتى تأتي أحُد فتصلي فيه، فعنده خرج النبي «صلى الله عليه وآله» إلى أحُد حين لقي المشركين فلم يبرحوا حتى حضرت الصلاة فصلى فيه)**[2].

٢. **قبة الثنايا**: ويعرف بمسجد الثنايا، وهو مسجد صغير في الطريق إلى جبل أحد والمؤدي إلى الشِّعب، ويقال إن الموضع حيث كُسرت ثنايا النبي «صلى الله عليه وآله» وشج وجهه الشريف. وقد تعرضت القبة إلى الهدم وليس لها أثر اليوم.

٣. **قبة المصرع**: قبة عالية كانت مبنية بالطوب على يد العثمانيين، وهي تعلو موقع استشهاد سيدنا حمزة ومدفنه الأول، وتقع في شمال جبل عينين عند طرفه الشرقي ولا تبعد عنه بأكثر من ٦٠ متراً، وقد أزيلت تماماً.

---

١. اليزدي: العروة الوثقى، ج١، ص ٤٤٣.
٢. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٩٣٧٤.

٤. **مرقد أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبدالمطلب**: دُفن في موضع استشهاده حيث يُعرف بقبة المصرع، ولكن على أثر السيل الذي جرف قبور الشهداء على عهد معاوية، تم نقل موضع دفنه إلى حيث هو اليوم. وكان أول بناء على مرقده قد تم عام ٥٧٠هـ، وزيد فيه عام ٨٩٣هـ، ثم أزيل البناء وسُطِّح القبر، مع تسوير الموقع.

٥. **مسجد جبل عينين**: قال السمهودي: (**وهذا الجبل الذي كان عليه الرماة يوم أحُد، وفي ركنه الشرقي مسجد نبوي... وكانت قنطرة**[١] **العين التي هناك عنده، ولعل عين الشهداء كانت هناك أيضاً، فسمي عينان**)[٢]. وقد تم هدم هذا المسجد وبقيت بعض جدرانه ثم أزيلت مؤخراً.

* آية الربا:

لفت نظري في أثناء دراسة الآيات الخاصة بمعركة أحُد أن الله «سبحانه وتعالى» قد تحدث عن الربا ناهياً عنه ومحذراً من عقوبة المخالفة، وذلك في وسط الحديث عن أجواء المعركة وما له علاقة بها من أحداث سبقتها ولحقتها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[٣]، فما سبب وجود الآية في هذا السياق؟ بالعودة إلى التفاسير والروايات ذات العلاقة بالأحداث، لم أجد ما يشير إلى السبب.

وقد التفت ابن عاشور في تفسيره إلى هذا الأمر فقال حول احتمالات نزول الآية: (**قال القفّال: لما أنفق المشركون على جيوشهم أموالاً جمعوها من الربا ، خيف أن يدعُو ذلك المسلمين إلى الإقدام على الرّبا . وهذه مناسبة مستبعدة. وقال ابن عرفة: لمّا ذكر الله وعيد الكفار عقّبه ببيان أن الوعيد لا يخصّهم بل يتناول العصاة، وذكر أحد صور العصيان وهي أكل الربا. وهو في ضعف ما قبله. وعندي بادىء ذي بدء أن لا حاجة إلى اطّراد المناسبة، فإن مدّة نزول السورة قابلة لأن تحدث في خلالها حوادث ينزل فيها قرآن، فيكون من جملة تلك السورة، كما بيّناه في المقدّمة الثّامنة، فتكون هاته الآية نزلت عقب ما نزل قبلها فكُتبت هنا ولا تكون بَينهما مناسبة إذ هو ملحق إلحاقاً بالكلام. ويتّجه أن يسأل سائل عن وجه إعادة النّهي عن الربا في هذه السورة بعد ما سبق من آيات سورة البقرة بما هو أوفى ممّا في هذه السورة**[٤]، **فالجواب: أنّ الظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبل نزول آية سورة البقرة فكانت هذه تمهيداً لتلك، ولم يكن النّهي فيها بالغاً ما في سورة البقرة، وقد روي أن آية البقرة نزلت بعد أن حَرّم الله**

١. القنطرة: الجسر و ما ارتفع من البنيان .
٢. السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ص ٦١٩.
٣. سورة آل عمران: ١٣٠-١٣٢.
٤. وهو قوله «عزوجل» في الآيتين ٢٧٥-٢٧٦ من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

الربا وأن ثقيفاً قالوا: كيف ننهى عن الربا، وهومثل البيع، ويكون وصف الربا بـ ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ نهياً عن الربا الفاحش وسَكت عمّا دون ذلك ممّا لا يبلغ مبلغ الأضعاف، ثمّ نزلت الآية الّتي في سورة البقرة. ويحتمل أن يكون بعض المسلمين داين بعضاً بالمراباة عقب غزوة أحُد فنزل تحريم الرّبا في مدّة نزول قصّة تلك الغزوة)[1].

والتوجيهات السابقة لا تحل الإشكال، ولا تردّ على التساؤل حول سبب وجود الآيات في سياق الكلام عن المعركة وأجوائها وتبعاتها، ولذا فمن المحتمل جداً أن يكون بعض المسلمين قد اضطروا إلـى الاقتراض، لتوفير بعض أدوات الحرب ولو مع الرهن، كما حصل ذلك في أكثر من غزوة، من قبيل ما أخرجه أبو داود والنسائي عن يعلى بن أمية، قال: **(قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إذا أتتك رسلي فأعطهم ثلاثين بعيراً، وثلاثين درعاً، قال: فقلت: يا رسول الله أعارية مضمونة، أو عارية مؤداة؟ قال: بل مؤدّاة** [2]).

وفي المستدرك عن جابر بن عبد الله: **(أن النبي «صلى الله عليه وسلم» لما أراد المسير إلـى حنين بعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلـى صفوان بن أمية فسأله أدراعاً، مائة درع، وما يصلحها من عدتها، فقال: أغصباً يا محمد؟ فقال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك)**.

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس، قال: **(كان فزعٌ بالمدينة، فاستعار النبي «صلى الله عليه وسلم» فرساً من أبي طلحة، يقال له «المندوب» فركب، فلما رجع....)**[3].

وبالتالـي ارتأى بعض المسلمين أن يُقرضوهم قرضاً ربوياً باعتبارها فرصة سانحة للاستفادة المادية من هذا الظرف الطارئ، متناسين بذلك النهي السابق الوارد في سورة البقرة، ويقوّي هذا الاحتمال التصريح بالنوازع المادية عند بعض المسلمين مما تحدثت عنه الآيات ضمن دوافع الخروج للقتال.. ومن هنا يُحتمل أن تكون هذه الآيات قد نزلت لتمنع عن ممارسة الربا وتحذّر من تبعاته الأخروية.

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، في تفسير الآيات ١٣٠-١٣٢ من سورة آل عمران.
٢. المعير إن شرط الضمان كانت مضمونة، وإلا فهي أمانة.
٣. الزيلعي: نصب الراية لأحاديث الهداية، ج٥، ص ٢٤٦-٢٤٧.

غزوة
الأحزاب



غزوة الأحزاب (الخندق)

تعتبر هذه الغزوة من أشد الغزوات التي واجهها المسلمون، على الرغم من أن الخندق الذي حفره المسلمون قد منع من وقوع القتال بين الطرفين، إلا أن عدد الغزاة، والعامل النفسي، والخوف من خيانة بني قريظة، وتوزع قوات المسلمين وتفرقها على طول الخندق، وخيانة المنافقين، كل هذه الأمور أعطت هذه الغزوة تلك الصفة من الشدة حتى قال الله «عزوجل»: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

وتصف السيدة أم سلمة تلك الحالة، وقد شهدت الغزوة، وهي تقارن بين ما شهدته من أثر نفسي للغزوات: (**قد شهدتُ معه مشاهد فيها قتالٌ وخوف، المُريسيع، وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحنين، لم يكن من ذلك شيءٌ أتعب لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولا أخوف عندنا من الخندق. وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة**[2]**، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تُحرس حتى الصباح، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً، حتى ردَّهم الله ﴿بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾**[3])[4].

وعن محمد بن مسلمة الأنصاري أنه قال: (**كان ليلُنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله**). وعن جابر بن عبدالله أنه قال: (**كان خوفُنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش حتى فرّج الله ذلك**)[5].

وتُعرف أيضاً باسم غزوة بني المصطلق، وقد جرت أحداثها في شعبان من السنة السادسة للهجرة، حيث بلغ النبي أن سيد بني المصطلق سار في قومه وبعض مَن حالفه من العرب، يريدون حربه، وقد ابتاعوا خيلاً وسلاحاً، فجهّز النبي جيشاً واتجه نحو ديارهم، فما كان منهم إلا أن هربوا، وتفرق عنهم حلفاؤهم، ووقعت النساء في الأسر، وقرر النبي الزواج من جويرية ابنة سيد بني المصطلق، فأعتق المسلمون كل السبي إكراماً للنبي، ودخلت القبيلة في الإسلام.

١. سورة الأحزاب: ١٠-١١.
٢. الحرجة: الشجرة الكثيرة الأغصان، فقد تتشتت القوات والطاقات لحراسة أكثر من موقع والمواجهة في أكثر من موقع فأشبهت الحرجة.
٣. سورة الأحزاب: ٢٥.
٤. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٨٣.
٥. ن. م. ص ١٨٣.

* تحديد زمني ومكاني:

وقعت الغزوة في شوال من السنة الخامسة للهجرة، الموافق أواخر شهر فبراير أو بدايات شهر مارس من سنة ٦٢٧ للميلاد، ونصَّ على ذلك عدد من المؤرخين، وتدل عليه نصوص من قبيل المروي في خواتيم الغزوة: (**فلما أصبح أبو سفيان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة، بعث إليهم أبو سفيان عكرمةَ ابن أبي جهل في نفر من قريش، أنَّ أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود، إنَّ الكُراع والخُف**[١] **قد هلكا . . .**)[٢].

يلاحظ أن من المعارك الكبرى التي وقعت في شهر رمضان: (بدر ـ فتح مكة)، ونضيف إلى ذلك الاستعداد لغزوة الأحزاب بحفر الخندق والذي تم في شهر رمضان أيضاً. وهذا يدل على أن اصطباغ شهر رمضان بصبغة الراحة والكسل، أو بالعبادة المحضة مما لا يتوافق مع السُّنَّة النبوية.

وهذا يتوافق مع بعض النصوص التي تحدثت عن برودة الجو، من قبيل النص التالي: (**وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين**)[٣]. وقول حذيفة بن اليمان: (**فمضيتُ وأنا أنتفض من البرد**)[٤].

إلا أننا نجد في نص آخر: (**عسكر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يوم الثلاثاء لثمان مضت من ذي القعدة، فحاصروه خمس عشرة، وانصرف يوم الأربعاء لسبع بقين سنة خمس**)[٥]. وهذا يعني أن بداية المعسكر كان في ٢٨ مارس ٦٢٧ م، وانتهى في ١٥ إبريل، ومن الواضح أن الجو يكون ربيعياً في مثل هذا الوقت، وقد تتخلله البرودة مساءً. ولكن القول الأول أنسب.

كما ووقع الخلاف في سنة الغزوة، فقال البعض أنها وقعت في السنة الرابعة، وقيل الخامسة، وقيل السادسة، ولكن الأصح أنها كانت في السنة الخامسة، حتى سميت هذه السنة باسم «سنة الأحزاب».

وأما مكان المواجهة فعلى مشارف المدينة المنورة، شمال غرب المسجد النبوي الشريف عند جبل سلع، بين حرّتي واقم «الحرة الشرقية» والوبرة «الحرة الغربية».

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى، إذ أن مكة المكرمة تقع جنوب المدينة المنورة، والمنطق يقتضي أن تكون المواجهة في الجهة الجنوبية من المدينة، فلم كانت في الشمال الغربي؟

١. الكراع: الخيل. الخف: يقصد الإبل.
٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٢٩٩.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٣١.
٤. الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج ٦، ص ٢٩.
٥. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٧٣.



والجواب عن ذلك يتضح من خلال الاطلاع على جغرافية المدينة، حيث كانت محصّنة طبيعياً وعمرانياً من الجهات التالية:

- جنوباً، مساكن وغابات النخيل الخاصة باليهود. بالإضافة إلى تلاصق وتقارب بيوت المسلمين بحيث شكلت ما يشبه الجدار أو السور.
- شرقاً، الأرض الوعرة المغطاة بالحمم البركانية «حَرَّة واقم».
- غرباً، الأرض الوعرة المغطاة بالحمم البركانية «حرة الوبرة».

ولذا نجد أن معركة أُحُد أيضاً وقعت في الجهة الشمالية من المدينة المنورة، ولم تقع في الجهات الأخرى.

* أسباب الغزوة:

١ـ تنامي قوة المسلمين بشكل تدريجي من خلال السرايا التي بعث بها النبي «صلى الله عليه وآله» واستطاع من خلالها إخافة بعض القبائل العربية التي يُتوقّع منها الغدر أو التحالف مع قريش، وعقد التحالفات أو المعاهدات الأمنية معها.

يضاف إلى ذلك غزوة دُومَة الجندل[1] بحسب بعض المؤرخين من حيث الترتيب الزمني للأحداث

١. تقع على حدود الشام شمال شرق تبوك وعلى بعد ٦٠٠ كم تقريباً عن المدينة المنورة.



العسكرية، حيث وصلت الأنباء إلى المدينة النبوية المشرّفة بتجمع بعض قطّاع الطرق من الأعراب المشركين عند سوق دومة الجندل، يهددون بذلك أمن المنطقة، ويسلبون القوافل التجارية ويعتدون على مَن فيها، ويُخاف أن يقوموا لاحقاً بالإغارة على المدينة نفسها. ولذا خرج النبي «صلى الله عليه وآله» في ألفٍ من أصحابه، فهرب الأعراب، وغنم المسلمون قطعاناً من الإبل وغيرها. وقال مؤرخون آخرون أن غزوة الأحزاب جاءت بعد غزوة المريسيع، والتي تحقق فيها نصرٌ آخر للمسلمين دون قتال يُذكر.

٢ـ قلق قريش المستمر من عدم حسم أمر المسلمين، وذلك بسبب تلقي الهزيمة في بدر، وعدم تحقيق انتصار حاسم في أُحُد.

٣ـ انتصار المسلمين في ربيع الأول من عام ٤ هـ في مواجهتهم ضد يهود بني النضير الذين أعانوا مشركي مكة وانحازوا إليهم، كما حاولوا اغتيال النبي «صلى الله عليه وآله» حين وفد عليهم في مسألة تتعلق بدية قتيلين، وكانت نيتهم إلقاء حجَر عليه أثناء جلوسه، فغادر النبي المكان وطالبهم بالجلاء في مدة ١٠ أيام، ولكنهم ماطلوا طمعاً في وعدٍ وعدهم إياه رأس المنافقين ابن سلول بأن ينصرهم بالرجال.

ومع انتهاء المدة، حاصر المسلمون حصون بني النضير لمدة ١٥ يوماً، وقد حاول اليهود خلالها القتال برمي النبال والحجارة، واستغلال انتشار أشجار النخيل أمام الحصون، وتمترسهم فيها. ومن هنا أمر النبي «صلى الله عليه وآله» بقطع تلك الأشجار، كما وأخلف ابن سلول بوعده، مما دفع بني النضير إلى الاستسلام، وتم الاتفاق



مع النبي على أن يأخذوا معهم عند الجلاء ما تحمله الإبل، ويتركوا الدروع والسلاح. وعند جلائهم، هدم اليهود أسقف بيوتهم وبعض الجدران كي لا يستفيد منها المسلمون، وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة.

لاحقاً، وبعد استقرارهم في خيبر، عمد عشرون من رجالات بني النضير إلى تأليب قريش على المسلمين ووعدوهم بالنصرة والمدد، والنص التالي يسلّط الضوء على دور حيي بن أخطب في ذلك، وهو أحد قادة بني النضير: (**لما أجلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بني النضير ساروا إلى خيبر، وكان بها من اليهود قومٌ أهل عددٍ وجلدٍ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير... فلما قدموا خيبر خرج حُيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحُقيق، وهَوذة بن الحُقيق، وهوذة بن قيس الوائلي من الأوس من بني خطمة، وأبو عامر الراهب في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد «صلى الله عليه وسلم» فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً. قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزَعكم[1]؟ قالوا: نعم، جئنا لنحالفكم على عداوة محمدٍ وقتاله. قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحبُّ الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد. قال النفر: فأخرِج خمسين رجلاً من بطون قريشٍ كلها، أنت فيهم، وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادَنا بها، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتُنا واحدةً على هذا الرجل ما بقي منا رجل. ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا**).

١. نزعكم: جاء بكم إلينا.

واجتمع بعض رجالات قريش يتناقشون في الأمر في ما بينهم، فاقترح بعضهم أن ينتزعوا من وفد اليهود نوعاً من الاعتراف بأفضلية عقيدة المشركين على الإسلام، وأنَّ لهم الفخر بقيامهم بعمارة البيت الحرام، ونحر الإبل لإطعام الحجيج، وسقياهم.. بل وبعبادة الأصنام أيضاً!

ولما أحس اليهود بأن هذا الطلب الموجَّه من قبل قريش يصبُّ في مصلحة التحالف المشؤوم، وحسداً منهم لرسول الله، لم يتوانوا في تأييد تلك المقولة الباطلة فقالوا: (**اللهم، أنتم أولى بالحق منه؛ إنكم لتعظِّمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البُدْنَ، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله «عزوجل» في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ[2] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[3]**)[4].

ونقلت بعض المصادر نصاً آخر لما جرى بين الطرفين، حيث رووا أنه: (**خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحُد ليحالِفوا قريشاً على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دُور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم، فاسجدوا لهذين الصنمين، وآمنوا بهما. ففعلوا ذلك، فذلك قوله «عزوجل»: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾. ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون، ومنّا ثلاثون، فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد. ففعلوا. ثم قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأيُّنا أهدى طريقة، نحن أم محمد؟ قال كعب: اعرضوا عليَّ دينكم. فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء[5]، ونسقيهم**

كان الأشرف عربياً من بني نبهان، وهم بطن من قبيلة طيء، وقد أصاب دماً في الجاهلية فهرب إلى المدينة، فحالف بني النضير، وتزوّج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً هذا. كان شاعراً مُجيداً، وصاحب بسطة في الجسم، وقد ناصبَ العداء للنبي، وكان يستخدم شعره في التشبيب بالمسلمات، والطعن في رسول الله وفي الإسلام والتحريض عليه.

---

١. الجبت: كل ما عُبد من دون الله، وقال صاحب مجمع البيان: الجبت لا تصريف له في اللغة العربية، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: هو السحر ـ أو الساحر ـ بلغة أهل الحبشة، وهذا يحمل على موافقة اللغتين، أو على أن العرب أدخلوها في لغتهم فصارت لغة لهم.

٢. ما عُبد من دون الله، أو بمعنى الطغيان في الحكم، والحاكم الظالم يسمى طاغوتاً.

٣. سورة النساء: ٥١-٥٢.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٤.

٥. أكوم: جمل ضخم السنام.

الماء، ونقري الضيف، ونفكّ العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. فأنزل الله «عزوجل»: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: كعباً وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ يعني: الصنمين ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أبي سفيان وأصحابه ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ محمد «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه «رضي الله عنهم» ﴿سَبِيلًا﴾ ديناً)[1].

قال العلامة السيد محمد حسين فضل الله تعليقاً على الآية وسبب نزولها: (ونجد الكثير من هذه النماذج في حياتنا المعاصرة، كما هو واقع بعض الاتجاهات المسيحية السياسية التي تحاول أن تنطلق من العاطفة المسيحية كشعار، ولكن ممارساتها لا تتناسب مع ذلك، وتتحالف مع قوى الطغيان والعدوان.. وكما في بعض الأوضاع السياسية الإسلامية التي تتستر بالإسلام، ولكنها تخفي وراء ذلك مطامعها الشخصية والإقليمية والقومية).

* الاستعداد للحرب:

عقدت قريش العزم بقوة لتنفيذ المؤامرة، وتحدث صفوان بن أمية عن ضرورة الالتزام بالأمر، وعدم تكرار الفضيحة التي أعقبت معركة أُحد حيث هتف أبوسفيان وهو يغادر المكان: (**موعدٌ بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقي فيه فنقتتل**)[2]، حتى إذا دارت الأيام وحان الموعد، كره أبوسفيان الخروج، على الرغم من أنه كان يتظاهر بخلاف ذلك، وكان كل مَن ورد عليه مكة يريد المدينة أظهَر له العزم على الغزو في جمع كثيف! ولما علم أن المسلمين مستعدون أتم الاستعداد، خرج أبوسفيان مع ٢٥٠٠ مقاتل في صورة استعراضية، حتى إذا قطع بعض الطريق رجع، وتعذّر عن الاستمرار لحصول الجدب في الأرض.

* اليهود يحشدون القبائل:

بعد إبرام الاتفاقية مع قريش، خرج وفد اليهود لحشد القبائل العربية النازلين في البراري، وتمكنوا من حشد ٦٠٠٠ مقاتل منهم. قال الواقدي: (**فخرجت اليهود حتى أتت غطفان، وأخذت قريش في الجهاز، وسيرت في العرب تدعوهم إلى نصرها، وألّبوا أحابيشهم ومَن تبعهم. ثم خرجت اليهود حتى**

غطفان من القبائل القيسية المضرية العدنانية. قال ابن خلدون عنهم: (بطن عظيم متسع كثير الشعوب والبطون، ومنازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبلي طيء). وإلى هذه القبيلة تنتسب قبيلة مطير التي تتواجد في الكويت والسعودية وغيرهما.

١. البغوي: معالم التنزيل، ج ٢، ص ٢٣٥.
٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٤٧.



جاءوا بني سُليم، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش. ثم ساروا في غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا. فأنعَمت[1] بذلك غطفان، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عُيينة بن حصن)[2].كما وافقت قبيلة بني أسد على المشاركة أيضاً منضمة بذلك إلى جيش الأحزاب.

بنو سُليم قبيلة عربية عدنانية قيسية، كانوا وما زالوا يقيمون في الحجاز ونجد، وهم أخوال النبي، وقد روي قوله: (أنا ابن العواتك من سليم)، فزوجة قصي هي عاتكة بنت هلال، وابنه عبدمناف تزوج عاتكة بنت مرة، كما تزوج عبدمناف بن زُهرة من عاتكة بنت الأقوص فأنجبت وهباً، وهو جد النبي لأمه، وكلهن من بني سُليم.

❋ تشكيلة الأحزاب:

• **القوة القرشية:** قدّرت بعض النصوص قوة قريش ومن تبعها بأربعة آلاف مقاتل، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير.

• **قوى الأعراب:**

١. سُليم: (وأقبلت سُليم فلاقوهم بمر الظهران، وبنو سليم يومئذٍ سبعمائة؛ يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية).

١. أنعمت: وافقت.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٤.

٢. أشجع: (وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رخيلة وهم أربعمائة، ولم توعب[١] أشجع).

٣. أسد: (وخرجت بنو أسد، وقائدها طليحة بن خويلد الأسدي[٢]).

٤. فزارة: (وخرجت بنو فزارة وأوعبت وهم ألفٌ يقودهم عيينة بن حصن).

واختُلف في انضمام بني مُـرَّة للأحزاب، قيل: (لما أجمعت غطفان السير، أبَى الحارث بن عوف المسير وقال لقومه: تفرّقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمداً أمره ظاهر، لو ناوأه مَن بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة. فتفرقوا في بلادهم ولم يحضر واحدٌ منهم؛ وهكذا روى الزُّهري وروت بنو مرة). وفي رواية أخرى أنه: (شَهِدَتْ بنو مرة الخندق وهم أربعمائة، وقائدهم الحارث بن عوف المرّي، وهجاه حسان وأنشد شعراً... فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق في قومه)[٣]. ولاشك أن المشاركة في جيش الأحزاب كانت عاراً بعد ذلك، فلربما حاولت مُرّة الإنكار تخلّصاً من هذا العار. وهكذا بلغ المجموع عشرة آلاف مقاتل تقريباً موزّعين بين القبائل العربية وبين قريش وكان قيادة تحالف الأحزاب بيد أبي سفيان بن حرب.

❊ وصول الخبر:

تجاهلت بعض النصوص ذكر مصدر الخبر الذي بلغ النبي عن قدوم الأحزاب، بينما ذكرت بعضُها أن المصدر كان غيبياً: (فهبط جبرئيل على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فأنبأه بذلك)[٤]، فيما أرجعت نصوص أخرى مصدر الخبر إلى تجسس خزاعة لصالح المسلمين: (فلما فصلت[٥] قريشٌ من مكة إلى المدينة، خرج ركبٌ من خزاعة إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» فأخبروه بفصول قريش، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً)[٦] أي أنهم سابقوا الزمن وساروا سيراً حثيثاً، فوصلوا المدينة في غضون أربعة أيام.

سيطرت خزاعة على مكة في نهايات القرن الثالث الميلادي، ثم أخذت قريش الزعامة منها، وقد كانت لخزاعة علاقات تاريخية مع بني هاشم استمرت حتى بعد ظهور الإسلام بتحالفها مع النبي، وكانت عينه في المنطقة، وأعانته في أكثر من حدث كما بيّنّا من قبل، وكما سيأتي لاحقاً. ولعل خزاعة كانت ترى للمسلمين مستقبلاً يتفوقون به على قريش، ولذا دخلت في حلفه بعد صلح الحديبية، بينما انضم بنو بكر إلى قريش، وقد كانت بين خزاعة وبكر حروب وثارات.

١. يقال أوعبت القبيلة: أي خرج مقاتلوها بأجمعهم ولم يتخلف منهم أحد... لم توعب: لم يخرج كل مقاتليها.
٢. وهو الملقب بالكذاب أسلم سنة ٩ هـ ثم ارتد وادعى النبوة فحورب، فهرب للشام، ثم أسلم وعُيِّن على بعض جيوش الفتوحات.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٤ - ١٧٥.
٤. الميرجهاني: مصباح البلاغة، ج ٣، ص ١٢٥.
٥. فصل: خرج وفارق.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.

فما كان من النبي «صلى الله عليه وآله» إلا أن جمع الناس وأخبرهم خبر عدوِّهم، وشجّعهم على الجد والجهاد في الخروج لمواجهة العدو والصمود في وجه العدوان، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله. كما شاورهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كيفية المواجهة وخيّرهم بين الخروج والبروز لهم من المدينة، أو البقاء فيها والتحصن في آطامها وحصونها، فيكون القتال بين أزقتها وبساتينها.

اختلف المسلمون فيما بينهم، فقال سلمان الفارسي: (**يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا؛ فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟**)[1]. أعجب رأيُ سلمان المسلمين، وساندته ذكرياتهم الأليمة بخصوص ما جرى في غزوة أحد، كما والتقى بذلك مع تفضيل النبي «صلى الله عليه وآله» البقاء في المدينة كما عرفنا في معركة أحد، وإن كانت فكرته مبتكرة من حيث الأسلوب، واختلفت مع مقترح اللجوء إلى الحصون والآطام ومحاربة العدو من ورائها وفي أزقة المدينة وبين بساتينها.

❊ حفر الخندق:

وفق ما ذكرناه في بداية الحديث عن هذه الغزوة حول سبب اختيار موقع حفر الخندق، بدأ البحث عن موقع القيادة، فركب النبي فرساً له ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل جبل سلع خلف ظهره، ويخندق من المذاذ، إلى ذُباب، إلى راتج. وبدأ الحفر على قدم وساق، واستعان المسلمون باليهود في توفير بعض الأدوات: (**واستعاروا من بني قريظة آلةً كثيرةً من مساحي، وكرازين ومكاتل**[2]**، يحفرون به الخندق، وهم**[3] **يومئذٍ سلمٌ للنبي «صلى الله عليه وسلم» يكرهون قدوم قريش**). كما تم تقسيم المسلمين إلى مجاميع للحفر في مناطق مختلفة: (**ووكل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بكل جانبٍ من الخندق قوماً يحفرونه، فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذُباب، وكانت الأنصار تحفر من ذُباب إلى جبل بني عبيد**)[4].

المذاذ: أطم لليهود أو ببني حرام من بني سلمة ويقع غربي مسجد الفتح، وهو المسجد القائم على جبل سلع. ذُباب: اسم جبل يقع شرق جبل سلع. ويسمى اليوم جبل الراية، ويبعد عن المسجد النبوي ١,٥ كم. راتج: الجبل الذي إلى جنب جبل بنى عبيد غربي بطحان.

وهذا التحديد لا يتناسب مع الخريطة التالية. نعم سيأتي في نص آخر ما تكتمل معه المعلومة، حيث يُذكر فيه جبل بني عبيد في ضمن منطقة الحفر.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.
٢. المسحاة: المجرفة من حديد. والكرزِن: الفأس. المكتل: الزبيل الكبير.
٣. أي بنو قريظة، إلا أن موقفهم سيتغير لاحقاً.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.



❊ مشاهد من أيام حفر الخندق:

• المشهد الأول، فرز الحجارة عن التراب: عن محمد بن يحيى بن سهل، عن أبيه، عن جده، قال: (كنت أنظر إلى المسلمين والشباب ينقلون التراب، والخندق بسطة[1] أو نحوها، وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رؤوسهم في المكاتل، وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سلع، وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه، وكانوا يسطُرون الحجارة مما يليهم كأنها جبال التمر، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها)[2].

• المشهد الثاني، وصف النبي في أيام الحفر: كان البراء بن عازب يقول: (ما رأيت أحداً أحسن في حلةٍ حمراء من رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فإنه كان أبيض شديد البياض، كثير الشعر، يضرب الشعر منكبيه. ولقد رأيته يومئذٍ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بيني وبينه، وإني لأنظر إلى بياض بطنه)[3].

• المشهد الثالث، إنشاد الشِّعر: روي أنه: (كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يومئذٍ يحمل التراب في المكاتل ويطرحه، والقوم يرتجزون، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول:

١. بسطة: عمق قامة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.
٣. ن. م. ص ١٧٦.

هذا الجمالُ لا جمالُ خيبرْ هذا أبرَّ ربَّنا وأطهرْ)

وجعل المسلمون يومئذٍ إذا رأوا من الرجل فتوراً ضحكوا منه)[1].

والصحيح في بيت الشعر استبدال كلمة «جَمال» بكلمة «حِمال»، والمقصود به التمر وثمار أشجار خيبر، حيث يقارن بين الحِملين.. التراب والتمر.. وهو بيت شعر روي أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يردده أثناء بناء المسجد في بدايات الهجرة.

ونواجَه هنا بإشكال مفاده أن النبي «صلى الله عليه وآله» ما كان يقول الشعر، إمعاناً في التأكيد على وحيانية القرآن الكريم، إذ كان يُتّهم من قبل المشركين بأن القرآن شعر جاء به من عنده، وقد قال الله «عزوجل» مبيناً هذه الحقيقة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

فإما أن نقول بأن المسلمين هم الذين كانوا يرددون ذلك البيت، وإما أن نقول بأن النبي ما كان يؤلّف الشعر، ولكن يجوز أن يردّد ما أنشده الآخرون، وعندها لن يَملك أحد الحجة لاتهامه في كون القرآن من عنده. وقد ذهب ابن شهاب الزُّهري إلى أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يقل بيتاً من الشعر إلا قد قيل قبله[3]، إلا هذا :

هذا الحمالُ لا حمالُ خيبرْ هذا أبرَّ ربَّنا وأطهرْ

والأرجح عندي أنه ما كان يقول الشعر ولو ترديداً، بل ما كان له «صلى الله عليه وآله» أن يتكلم بأسلوب بلاغي كأسلوب الإمام علي «عليه السلام» الذي نلحظه في نهج البلاغة وفي دعاء الصباح مثلاً، وما ذاك إلا إمعاناً في التأكيد على كون القرآن منزلاً من عند الله «سبحانه».

ويؤيد هذا الرأي شاهدين، الأول ما رواه ابن هشام في أحداث غزوة حنين من قول عباس بن مرداس متذمّراً عند توزيع الغنائم:

كانت نهاباً تلافيتها بكرّي على المهر في الأجرعْ
وإيقاظي القومَ أن يرقدوا إذا هجَع الناسُ لم أهجعْ
فأصبحَ نهبي ونهب العبيـ ـدِ بين عُيينة والأقرعْ

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥- ١٧٦.
٢. سورة يس: ٦٩-٧٠.
٣. ابن شيبة: المصنف، ج١٣، ص ٣١١.

ثم قول النبي «صلى الله عليه وآله» له: (**أنت القائل: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ فقال أبوبكر الصديق: بين عُيينة والأقرعْ. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هما واحد. فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله: وما علمناه الشعر وما ينبغي له**)[1]، والثاني ما سيأتي في الصفحة اللاحقة في خبر جُعيل بن سراقة حيث لم يكرر النبي الشعر معهم واكتفى بالكلمة الأخيرة من المصرع الثاني.

• المشهد الرابع، مشاركة الصبيان: عن أبي واقد الليثي قال: (**رأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، فأجاز مَن أجاز، وردَّ مَن رد، وكان الغلمان الذين لم يبلغوا يعملون معه ولم يُجزِهم، ولكن لما لحُم الأمر[2]، أمَر مَن لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الأطام مع الذراري والنساء**)[3].

• المشهد الخامس، حرص النبي على العمل الدؤوب في حفر الخندق، ومشاركته المسلمين في ذلك: عن أبي واقد الليثي: (**كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، فلقد كنت أرى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وإنه ليضرب مرّة بالمُعول، ومرّة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب في المكتل. ولقد رأيته يوماً بلغ منه[4]، فجلس رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم. فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحّيان الناس أن يمروا به فينبّهوه، وأنا قرّبتُ منه، ففزع ووثب، فقال: ألا أفزعتموني! فأخذ الكرزن يضرب به**)[5].

• المشهد السادس، قصة معبّرة: عن الإمام علي الرضا، عن آبائه، عن علي «عليهم السلام» قال: (**كنا مع النبي «صلى الله عليه وآله» في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة ومعها كُسَيرة من خبز فدفعتها إلى النبي «صلى الله عليه وآله» فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: ما هذه الكسيرة؟ قالت: قرص خبزته للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسيرة. فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث**)[6].

وروى أنس بن مالك مثله بلفظ فيه اختلاف، قال: (**جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله، فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرصاً خبزته ولم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام**)[7].

---

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٩٣-٤٩٤.
٢. لحُم: أُحكِم.
٣. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٤، ص ٣٧١.
٤. بلغ منه: أجهد وتعب.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٨.
٦. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٤٠.
٧. البيهقي: شُعَب الإيمان، ح ٩٧٣٢.

• المشهد السابع، وليمة مباركة: عن جابر الأنصاري أنه قال: (**أصاب الناس كدية[١] يوم الخندق فضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت، فدعوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فدعا بماء فصبه عليها فعادت كثيباً[٢]. قال جابر بن عبد الله: فرأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يحفر، ورأيتُه خميصاً[٣]، ورأيته بين عُكْنه الغبار[٤]، فأتيت امرأتي فأخبرتها ما رأيت من خمص بطن رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فقالت: والله، ما عندنا شيء إلا هذه الشاة، ومدٌّ من شعير. قال جابر: فاطحني وأصلحي. قالت: فطبخنا بعضها وشوينا بعضها، وخبز الشعير. قال جابر: ثم أتيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فمكثتُ حتى رأيت أن الطعام قد بلغ، فقلت: يا رسول الله، قد صنعتُ لك طعاماً فأتِ أنت ومن أحببت من أصحابك. فشبك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصابعه في أصابعي، ثم قال: أجيبوا، جابر يدعوكم! فأقبلوا معه فقلت: والله، إنها لفضيحة! فأتيت المرأة فأخبرتها فقالت: أنت دعوتهم أو هو دعاهم؟ فقلت: بل هو دعاهم. قالت: دعْهم، هو أعلم. قال: فأقبل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأمَر أصحابه، فكانوا فِرَقاً، عشرة عشرة، ثم قال لنا: اغرفوا وغطّوا البُرمة[٥]، وأخرجوا من التنور الخبز ثم غطوه. ففعلنا فجعلنا نغرف ونغطّي البُرمة ثم نفتحها، فما نراها نقصت شيئاً، ونخرج الخبز من التنور ثم نغطيه، فما نراه ينقص شيئاً. فأكلوا حتى شبعوا، وأكلنا وأهدينا**)[٦].

• المشهد الثامن، التنافس على ضم سلمان: (**وتنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسي، فقال المهاجرون: سلمان منا. وكان قوياً عارفاً بحفر الخنادق. وقالت الأنصار: هو منّا ونحن أحق به. فبلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قولهم فقال: سلمان رجل منّا أهل البيت**). وفي نص آخر عن جابر: (**لقد كنت أرى سلمان يومئذ، وقد جعلوا له خمسة أذرع طولاً وخمساً في الأرض، فما تحيَّنتُه حتى فرغ وحده**)[٧].

• المشهد التاسع، المزاح والمفاكهة أثناء العمل: فقد روي أنه: (**جعل المسلمون يومئذ إذا رأوا من الرجل فتوراً ضحكوا منه**).. وتدخّل النبي «صلى الله عليه وآله» لمعالجة مثل هذه التصرفات فقال: (**لا يغضب أحدٌ مما قال صاحبه، لا يريد بذلك سوءً**)، فقد أرادوا التخفيف على أنفسهم في ذلك الظرف العصيب بمثل هذه المزح، وقد روي أن جُعيل بن سراقة كان رجلاً صالحاً، وكان ذميماً قبيحاً، وكان يعمل مع المسلمين يومئذ في الخندق،

١. كدية: صلابة تكون في الأرض.
٢. الكَثِيبُ: الرّمْل المستطيل المُحْدَوْدِب.
٣. خَميص البطن: خالي البطن ضامرُه.
٤. العُكْن: الطيّ الذي في البطن.
٥. البُرمة: قدر عميق مصنوع من الحجارة أو النحاس.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٨.
٧. ن. م. ص ١٧٦.

وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد غيّر اسمه يومئذ فسماه عَمْراً: **(فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:**

سمّاه من بعد جُعيل عمْراً وكان للبائس يوماً ظهراً

قال: فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لا يقول من ذلك شيئاً إلا أن يقول: عَمْراً)[1].

ويبدو من النصوص أن كل مجموعة من المسلمين كانت تتفاخر بإنجازها وجدّها في الحفر والعمل، وتظهر الغلبة في التنافس وذلك عن طريق الرَّجَز وتبادل نظرات الاعتزاز والفخر والغلبة وأمثال ذلك، ولم يستثنوا من تصرفهم هذا رسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي تقبّل الأمر برحابة صدر، ولكنه لاحظ أن الشاعرين كعب بن مالك وحسان ابن ثابت كان يجدان في أنفسهما ويغضبان من المزاح الذي كان يطال النبي بدرجات تفوق ردة فعلهما تجاه ما ينال الآخرين، ومن المتوقع عند الغضب ودفاعاً عن النبي أن تنطلق ألسنتهما بما لا يُحمَد عقباه من الهجاء والتعريض بالآخرين مما قد يخلق فتنة في وسط المسلمين، ولذا فقد أخذ منهما عهداً ألا يقولا شيئاً.

وقد روي عن كعب بن مالك قوله: **(جعلنا يوم الخندق نرتجز ونحفر، وكنّا ـ بني سلمة ـ ناحية، فعزم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عليَّ ألا أقول شيئاً**[2]**، فقلت: هل عزم على غيري؟ قالوا: حسان بن ثابت. قال: فعرفت أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إنما نهانا لوُجدنا له، وقلّته على غيرنا، فما تكلمت بحرف حتى فرغنا من الخندق)**[3].

• المشهد العاشر، مقلب في حق زيد بن ثابت: كان زيد بن ثابت قد رقد في الخندق، في ليلة شديدة الرودة، فغلبته عيناه، وتركه أصحابه نائماً وذهبوا يطيفون بالخندق ويحرسونه، فاستغل عمارة بن حزم الفرصة وأخذ سلاح زيد ـ ترسَه وقوسَه وسيفَه ـ وهو لا يشعر، حتى إذا فزع من نومته بعدئذ، اكتشف اختفاء بعض سلاحه، وبلغ

كعب بن مالك الأنصاري السلمي، كان شاعراً. شهد العقبة ولم يشهد بدراً، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك. وتوفي سنة ٥٠ هجرية.

حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، كان يكبر النبي بثمان سنين، وكان ينشد الشعر قبل الإسلام، ويفد على ملوك الغساسنة في الشام، وبعد إسلامه اعتبر شاعر النبي. توفي في زمن خلافة الإمام علي.

عمارة بن حزم الأنصاري الخزرجي. شهد بيعة العقبة الثانية وبدراً وسائر المعارك، كان يكثر إلطاف النبي. استشهد في حرب اليمامة ضد المرتدين.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٦.
٢. أي أخذ منه عهداً بذلك.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٦.

رسول الله «صلى الله عليه وآله» ما جرى، فدعا زيداً فقال: **(يا أبا رقاد، نمت حتى ذهب سلاحك؟! ثم قال: مَن له عِلْم بسلاح هذا الغلام؟ فقال عمارة بن حزم: أنا يا رسول الله، وهو عندي. فقال: فرده عليه. ونهى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن يُروَّع المسلم، أو يؤخذ متاعُه لاعباً أو جاداً)**[1].

• المشهد الحادي عشر: الدور السلبي للمنافقين: أبطأ عن رَسُول الله «صلى الله عليه وآله» وعن المسلمين في عملهم رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يتظاهرون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم من النبي ولا إذْن، وفي المقابل كان المخلصون من أصحابه إذا نابته نائبة من الحاجة التي لابدَّ منها، يذكر ذلك لرسول الله ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً للأجر وطاعةً لله ورسوله، وكان ذلك مصداقاً لقول الله «عز وجل»: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَلَا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[2].

• المشهد الثاني عشر، النبي وأزواجه: اختار النبي «صلى الله عليه وآله» ـ بحسب إحدى الروايات ـ ثلاثاً من نسائه ليكنَّ عنده في فترة حفر الخندق والمواجهة، عائشة، أم سلمة، زينب، وترك بقيتهن في إحدى الحصون: **(فتكون عائشة عنده أياماً، ثم تكون أم سلمة عنده أياماً، ثم تكون زينب عنده أياماً، فهؤلاء الثلاث اللاتي يُعقب بينهن في الخندق، وسائر نسائه في أطم بني حارثة)**[3].

ويروى عن أم المؤمنين عائشة الخبر التالي: **(كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يختلف إلى ثلمة[4] في الخندق يحرسها، حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني. فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ويقول: ما أخشى أن يؤتَى الناس إلا منها. فبينا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في حضني قد دفىء وهو يقول: ليت رجلاً صالحاً يحرسني[5]. قالت: إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقعة الحديد، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مَن هذا؟ فقال: سعد بن أبي وقاص. قال: عليك بهذه الثلمة، فاحرسها. قالت: ونام رسول الله «صلى**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٦.
٢. سورة النور: ٦٢-٦٤.
٣. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٤، ص ٣٦٧.
٤. يختلف: يتردد. والثلمة: الشق والأخدود والثغرة.
٥. لعله يقصد أن يحل محله في حراسة الثلمة.

الله عليه وسلم» حتى سمعتُ غطيطَه)[١]. والخبر لا تخفى غرابته من حيث دلالته على تفرّد النبي في حراسة المكان، وتمنّيه من يقوم بهذا الدور بدلاً عنه، فضلاً عن وصف ما كان يجري بين النبي وزوجته بهذه الصورة.

والغالب أن هذا الخبر من وضع القصّاصين وأمثالهم ممن كانوا لا يتناهون عن الافتراء واختلاق القصص تشويقاً أو تكسّباً، لاسيما وأننا نجد في بعض الأخبار أن النبي أبقى أم المؤمنين عائشة في أطم بني حارثة، ولم تكن عنده خلال تلك الفترة، ومن بينها الخبر التالي: (كانت عائشة زوج النبي «صلى الله عليه وسلم» تقول: كنا في أطم بني حارثة قبل الحجاب ومعنا أم سعد بن معاذ....)[٢]، وفي خبر آخر: (ورفع المسلمون النساء والصبيان في الآطام، ورفعت بنو حارثة الذراري في أطمهم، وكان أطماً منيعا، وكانت عائشة يومئذ فيه)[٣].

كما ونجد قصة مشابهة في صورتها العامة لتلك التي رويت بلسان أم المؤمنين عائشة، ولكنها هذه المرة بلسان السيدة أم سلمة، وجرت بعد وصول الأحزاب: (كنت مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في الخندق فلم أفارقه مقامه كله، وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قَرٍّ[٤] شديد، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، مَن لهم؟ ثم نادى: يا عبّاد بن بشر. فقال عباد: لبيك! قال: أمَعَك أحد؟ قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي كنّا حول قبتك. قال: فانطلِق في أصحابك فأطف بالخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غَرّة. اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم، لا يغلبهم غيرك! فخرج عباد بن بشر في أصحابه، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق. وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل. فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم[٥] بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم. ورجعت إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأجده يصلي فأخبرته. قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين. فكانت تقول: يرحم الله عباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لقبة رسول الله، يحرسها أبداً)[٦].

عباد بن بشر الأنصاري الأوسي، من سادتهم، أسلم على يد مصعب بن عمير وهو في الخامسة والعشرين، شهد بدراً وسائر المعارك، استشهد في معركة اليمامة ضد المرتدين.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٢.
٢. ن. م. ص ١٨٤.
٣. ن. م. ص ١٧٧.
٤. قر: برد.
٥. أذلقناهم: أجهدناهم وأتعبناهم.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٢.

وهذه القصة أقرب إلى الصحة والواقعية من سابقتها بلحاظ وجود مجموعة تحمي خيمة النبي، وقيامها بمسؤولية حماية الثغر بعد ذلك، وخلوّها من مسألة اللجوء لأم المؤمنين عائشة طلباً للدفء، لعلمنا بأن النبي قد واسى أصحابه في أحوالهم المختلفة أثناء حفر الخندق وما بعده. كما سنطّلع على قصة على لسان محمد بن مسلمة يؤكد فيها على تشكيل فرقة لحماية النبي «صلى الله عليه وآله» على رأسها عباد بن بشر.

• المشهد الثالث عشر، تغيير حكم الصيام: لما كانت الغزوة في شهر شوال، وتم حفْر الخندق خلال شهر رمضان، فقد ذكروا أن حكم الصيام والإفطار في هذا الشهر المبارك قد تغيّر في حادثة معينة، فعن أبي بصير عن أحدهما ـ الإمام محمد الباقر أو جعفر الصادق ـ «عليهما السلام» في قول الله «عزوجل»: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1]، فقال: (نزلت في خوّات بن جبير الأنصاري، وكان مع النبي «صلى الله عليه وآله» في الخندق وهو صائم، فأمسى وهو على تلك الحال. وكانوا قبل أن تنزل هذه الآية إذا نام أحدهم[2] حرم عليه الطعام والشراب، فجاء خوّات إلى أهله حين أمسى فقال: هل عندكم طعام؟ فقالوا: لا تنم حتى نُصلح لك طعاماً، فاتكأ فنام، فقالوا له: قد فعلت؟ قال: نعم، فبات على تلك الحال فأصبح، ثم غدا إلى الخندق فجعل يُغشى عليه، فمرَّ به رسول الله «صلى الله عليه وآله» فلما رأى الذي به أخبره كيف كان أمره، فأنزل الله «عزوجل» فيه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾)[3].

وفي البين أقوال وروايات أخرى، قال ابن عاشور: (وذكروا لسبب نزول هذه الآية كلاماً مضطرباً غير مُبيّن، فروى أبو داود عن معاذ بن جبل: كان المسلمون إذا نام أحدهم إذا صلى العِشاء وسهر بعدها لم يأكل ولم يباشر أهله بعد ذلك، فجاء عُمر يريد امرأته فقالت: إني قد نمت، فظن أنها تعْتَلُّ فباشرها[4]، وروى البخاري عن البراء بن عازب أن قيس بن صرمة جاء إلى منزله بعد الغروب يريد طعامه فقالت له امرأته: حتى نسخنَ لك

قيس بن صرمة الأنصاري المازني، وقيل أن اسمه مالك، أو لبابة، لا يُعرف عنه الكثير، واختلف في مشاركته بمعركة بدر الكبرى، وقيل أنه نزل مصر لاحقاً.

١. سورة البقرة: ١٨٧.
٢. أي نام في الليل واستيقظ قبل الفجر.
٣. الكليني: الكافي، ح ٤٦٣٩٤.
٤. أي تتعلل بالحجج كي تمتنع عن الجماع، فجامعها.

شيئاً، فنام، فجاءت امرأته فوجدته نائماً فقالت: خيبةً لك! فبقي كذلك، فلما انتصف النهار أغمي عليه من الجوع. وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ عن حديث البراء بن عازب قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله «عزوجل»: ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، ووقع لكعب بن مالك مثل ما وقع لعمر، فنزلت هذه الآية بسبب تلك الأحداث، فقيل: كان ترك الأكل ومباشرة النساء من بعد النوم أو من بعد صلاة العشاء حكماً مشروعاً بالسنَّة ثم نُسخ ، وهذا قول جمهور المفسرين، وأنكر أبو مسلم الأصفهاني أن يكون هذا نسخاً لشيء تقرر في شرعنا وقال: هو نسخ لما كان في شريعة النصارى)[1].

وقال العلامة الطباطبائي: (الآية دالة على أن حكم الصيام كان قبل نزول الآية حُرمة الجماع في ليلة الصيام، والآية بنزولها شرعت الحلية ونسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين، ويشعر به أو يدل عليه قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾، وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾، إذ لو لا حرمة سابقة كان حق الكلام أن يقال: فلا جناح عليكم أن تباشروهن أو ما يؤدي هذا المعنى، وهو ظاهر. وربما يقال: أن الآية ليست بناسخة لعدم وجود حكم تحريمي في آيات الصوم بالنسبة إلى الجماع أو إلى الأكل والشرب، بل الظاهر كما يشعر به بعض الروايات المروية من طرق أهل السنة والجماعة، أن المسلمين لما نزل حكم فرض الصوم وسمعوا قوله «عزوجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2] الآية، فهموا منه التساوي في الأحكام من جميع الجهات، وقد كانت النصارى كما قيل: إنما ينكحون ويأكلون ويشربون في أول الليل ثم يمسكون بعد ذلك، فأخذ بذلك المسلمون، غير أن ذلك صعب عليهم، فكان الشبان منهم لا يكفون عن النكاح سراً مع كونهم يرونه معصية وخيانة لأنفسهم، والشيوخ ربما أجهدهم الكف عن الأكل والشرب بعد النوم، وربما أخذ بعضهم النوم فحرم عليه الأكل والشرب بزعمه، فنزلت الآية فبيَّنت أن النكاح والأكل والشرب غير محرّمة عليهم بالليل في شهر رمضان، وظهر بذلك: أن مراد الآية بالتشبيه في قوله «عزوجل»: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التشبيه في أصل فرض الصوم لا في خصوصياته)[3].

❊ مقاسات الخندق:

تم إنجاز حفر الخندق وتحصينه في ستة أيام، وقد قدّم الباحث في تاريخ المدينة المنورة المهندس المعماري

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، في تفسير الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

٢. سورة البقرة: ١٨٣.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٤٥-٤٦.

«عبدالعزيز بن عبد الرحمن كعكي» المعاصر محاولة لتحديد مسار الخندق ومواصفاته، معتمداً على بعض الدراسات السابقة والمقاسات وعلى المصوَّرات الجوية والفضائية والمعالم الثابتة والقائمة على الطبيعة، وساند دراسته بمعلومات من بعض كبار السن من أهل المدينة ممن تواتروا نقل بعض أخبار مسار الخندق، وخاصة من غربي جبل سلع، مبيناً أن طول الخندق في ظل النصوص التاريخية يظهر من عدد المسلمين المشاركين في غزوة الخندق وعددهم ٣٠٠٠ مقاتل، وهم الذين شاركوا في حفر الخندق، حيث كلف النبي «صلى الله عليه وآله» كل عشرة من الصحابة بحفر أربعين ذراعاً، وبذلك يكون قد قسّم النبي جيشه إلى ٣٠٠ مجموعة، كل مجموعة مكلفة بحفر ٤٠ ذارعاً.. إذاً فطول ما تم حفره هو ٣٠٠ × ٤٠ = ١٢٠٠٠ ذراعاً، وهذا المقاس لكامل طول الخندق الرئيسي الذي حفره الأنصار والمهاجرون، والفرعي الذي حفرته بني عبد الأشهل إلى الشرق، وبني دينار إلى الجنوب[١]. وإذا اعتبرنا الذراع قرابة ٤٥ سم، فالنتيجة ستكون: ٥٤٠٠ متراً.

أما الدكتور «راغب السرجاني» فاعتبر أن عمق الخندق يبلغ خمسة أمتار، بينما يصل عرضه في أقل التقديرات إلى خمسة أمتار أيضاً، وأن بعض التقديرات تذهب به إلى ١٠ و١٢ مترًا، بينما يبلغ طوله اثني عشر كيلو متراً. وهذه الأبعاد تدل على أن الأرض المفروض حفرها يبلغ حجمها ٣٠٠ ألف متر مكعب[٢].

وابتعد الدكتور «تنيضب الفايدي» بقوله كثيراً عما سبق، إذ اعتبر أن طول الخندق كان في حدود ٢٧٢٥ متراً، وعرضه في حدود ٤ أمتار، بينما تراوح عمقه بين ٣ و ٤,٥ متراً[٣].

❊ تدابير لاحقة:

اتخذ النبي «صلى الله عليه وآله» إجراءً آخر وذلك بهدف حماية النساء والأطفال، حيث أمر بإدخالهم في الآطام، كما وتم حفر خندق حول إحدى الحصون بقباء الواقعة إلى جنوب المدينة، ومع هذا فقد أحس بعض المسلمين بالقلق على أهليهم المتحصنين في الآطام من هجوم مباغت يقوم به المشركون أو اليهود، فقد روي أن بني واقف: **(جعلوا ذراريهم ونساءهم في أطمهم، وكانوا مع النبي «صلى الله عليه وسلم»، وكانوا يتعاهدون أهليهم بأنصاف النهار بإذن النبي «صلى الله عليه وسلم»، فينهاهم النبي «صلى الله عليه وسلم»، فإذا ألحّوا أمرَهم أن يأخذوا السلاح خوفاً عليهم من بني قريظة)**[٤].

هذا، وقد ذكرنا مسبقاً أن النبي «صلى الله عليه وآله» اختار موقع قيادته ليكون على جبل سلع حيث يوجد

١. صحيفة الرياض الإلكترونية، العدد ١٥٨٦٣.

٢. السرجاني: موقع قصة الإسلام، حفر الخندق، نشر بتاريخ ٢٠١٠/٤/١٧.

٣. صحيفة المدينة الإلكترونية، نشر المقال بتاريخ ٢٠١١/٠٦/٢٤.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٧.

مسجد الفتح اليوم، قال الواقدي: (**وضرب قبة من أدم**[١]**.، وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل، جبل الأحزاب**)[٢].

❋ خيانة بني قريظة:

حين هاجر النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة، عمل على كتابة عهد بينه وبين اليهود القاطنين فيها، وقد تضمّن العهد: عدم اتخاذ اليهود موقفاً ضده أو معه.. وقيل بل: وأن ينصروه فيما لو غزاه الأعداء. إلا أن بني قريظة نقضوا هذا العهد، إذ استجابوا لحُيَي بن أخطب وآخرين من اليهود بغرض مساعدة الأحزاب ضد المسلمين.

وقد طلب أبوسفيان من حُيي أن يتوجه إلى بني قريظة بغرض النصرة: (**كان حيي بن أخطب يقول لأبي سفيان بن حرب ولقريش في مسيره معهم: إن قومي قريظة معكم، وهم أهل حلقة**[٣] **وافرة، هم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً. فلما دنوا**[٤] **قال أبو سفيان لحيي بن أخطب: ائت قومك، حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد**).

وقد تحدث محمد بن كعب القرظي عن شخصية حُيي فقال: (**كان حيي بن أخطب رجلاً مشئوماً؛ هو شأم بني النضير قومَه، وشأم قريظة حتى قُتلوا، وكان يحب الرئاسة والشرف عليهم، وله في قريش شَبَه، أبو جهل بن هشام**)[٥].

وعلى كل حال، فقد توجه حُيي من مكة إلى المدينة، ودخل حي بني قريظة، فكرهوا ذلك، وبدت منهم ردات فعل سلبية انعكست من خلال الموقفين التاليين:

- الموقف الأول، مع غزّال بن سموأل: قال له حُيي: (**قد جئتك**

عُرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود بالكاهنين، قيل أن ذلك نسبة إلى جدهم ابن أخ النبي موسى: الكاهن بن هارون بن عمران. ولعل الصحيح أن الكهانة من بعد عهد النبي موسى كانت في بني هارون بن عمران من بين نسل النبي يعقوب، ولذا عُرفوا بذلك العنوان، ولذا كانوا يرون أن لهم السيادة على مَن سواهم مِن إخوانهم في الدين.

محمد بن كعب القرظي، ولد سنة ٤٠ هـ وكان أبوه من سبي بني قريظة. سكن الكوفة، وغدا متخصصاً بالتفسير والتاريخ. سقط عليه وعلى تلامذته مسجد الربذة سنة ١٠٨ هـ على أثر زلزال، فماتوا. متهم في رواياته.

١. أدم: جلد.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٨.
٣. حلقة: سلاح.
٤. أي دنت الأحزاب من المدينة واقتربت.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٩.

بما تستريح به من محمد، هذه قريش قد حلَّت وادي العقيق، وغطَفان بالزغابة[١]. قال غزال: جئتنا والله بذُلِّ الدهر. قال حيي: لا تقل هذا).

• الموقف الثاني، مع كعب بن أسد: توجّه حُيي ـ بعد أن وجد الصدود من غزال ـ إلى باب كعب بن أسد، فدقَّ عليه، فعرفه كعب وقال: (ما أصنع بدخول حُيي عليَّ، رجل مشئوم قد شأم قومه، وهو الآن يدعوني إلى نقض العهد. قال: فدقّ عليه، فقال كعب: إنك امرؤ مشئوم قد شأمت قومك حتى أهلكتهم، فارجع عنا فإنك إنما تريد هلاكي وهلاك قومي. فأبى حُيي أن يرجع، فقال كعب: يا حُيي، إني عاقدت محمداً وعاهدتُه، فلم نر منه إلا صدقاً؛ والله، ما أخفَر لنا ذمّة[٢] ولا هتك لنا ستراً، ولقد أحسن جِوارنا. فقال حيي: ويحك. إني قد جئتك ببحرٍ طام[٣] وبعزِّ الدهر، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وجئتك بكنانة حتى أنزلتهم بروضة، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بالزغابة إلى نَقمَى[٤]، قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل، والعدد عشرة آلاف، والخيل ألف فرس، وسلاح كثير، ومحمد لا يفلت في فورنا هذا، وقد تعاقدوا وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يستأصلوا محمداً ومَن معه. قال كعب: ويحك. جئتني والله بذُلِّ الدهر وبسحاب يبرق ويرعد ليس فيه شيء، وأنا في بحرٍ لجِّي، لا أقدر على أن أريم داري[٥]، ومالي معي والصبيان والنساء؛ فارجع عني، فإنه لا حاجة لي فيما جئتني به. قال حيي: ويحك. أكلِّمُك. قال كعب: ما أنا بفاعل. قال: والله، ما أغلقتَ دوني إلا لجشيشتك[٦] أن آكل معك منها، فلك ألا أدخل يدي فيها. قال: فأحفظُه[٧]. ففتح الباب فدخل عليه، فلم يزل يفتله في الذروة والغارب حتى لانَ له[٨]، وقال: ارجع عني يومك هذا حتى أشاور رؤساء اليهود. فقال: قد جعلوا العهد والعقد إليك فأنت ترى لهم. وجعل يلح عليه حتى فتله عن رأيه، فقال كعب بن أسد: يا حُيي، قد دخلتُ فيما ترى كارهاً له، وأنا أخشى ألا يُقتَل محمد، وتنصرف قريش إلى بلادها، وترجع أنت إلى أهلك، وأبقى في عقر الدار وأُقتَل ومَن معي. فقال حيي: لك ما في التوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سيناء، لئن لم يُقتَل محمد في هذه الفورة ورجعَت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا محمداً، لأدخلن معك حصنك حتى يصيبني ما أصابك).

١. الزغابة: ويقال لها الزغابات أيضاً، موضع قريب من جبل أحد.

٢. أخفر: نقض.

٣. طام: علا ماؤه وارتفع.

٤. نقمى موضع آخر بالقرب من المدينة المنورة.

٥. أريم: أغادر.

٦. الجشيشة: الحَب المجروش يُلقى عليه لحم أو تمر فيُطبخ.

٧. أي أنه قبل أن يفتح له الباب بعد أن اطمأن أنه لن يطلب منه طعاماً، وما ذاك إلا لبخله.

٨. مثل يُضرب إذا أراد إزالته عن رأيه بالخداع. وذروة البعير أعلاه، ووالغارب: مقدّم السنام، وأصله أن يكون البعير صعباً فيحل الرجل سنامه وغاربه ويفتل الوبر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك، ويخدعه حتى يستمكن منه فيخطمه.

وهكذا اتخذ قرار النقض، وتم شق الكتاب الذي بين قريظة وبين النبي «صلى الله عليه وآله» بيد حيي، الذي بادر بالخروج إلى بني قريظة وقد تجمَّعوا حول منزل كعب ليُخبرهم أن الأمر قد تم، وأن لا عهد بينهم وبين النبي بعد اليوم. ثم أرسل كعب بن أسد إلى خمسة من رؤساء اليهود، وهم: الزبير بن باطا، ونبّاش بن قيس، وغزّال ابن سموأل، وعقبة بن زيد، وكعب بن زيد، فأخبرهم بما جاء به حُيي، فتشاءموا من القرار، وقال الزّبير بن باطا: (**وما حاجتك إلى أن تُقتَل ويُقتَل معك حُيي؟**). وقال الباقون: (**نحن نكره نُزري**[1] **برأيك أو نخالفك، وحُيي من قد عرفت شؤمه**)، فندم كعب بن أسد على ما صنع من نقض العهد، ولكنه لم يتراجع عنه وأمضاه.

وسرعان ما علم النبي «صلى الله عليه وآله» بما جرى وهو في قبته المشرفة على الخندق، حيث قال له عمر بن الخطاب: (**يا رسول الله، بلغني أن بني قريظة قد نقضَت العهد وحاربت**). فاشتدَّ ذلك على النبي، وأرسل الزبير ليستطلع الأمر، فعاد وأخبره باستعداداتهم قائلاً: (**يا رسول الله، رأيتهم يُصلحون حصونهم، ويُدرِبون طُرُقَهم**[2]، **وقد جمعوا ماشيتهم**).

لم يكتف النبي بهذه الصورة الظاهرية لتصرفات بني قريظة، ولذا استدعى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير، لإجراء المزيد من التحقيقات حول ذلك الخبر لئلا يصيبهم بجهالة ويصبح على ما فعل نادماً، فلعل في الأمر مكيدة للإيقاع بين المسلمين وبني قريظة. وأوصى النبي أولئك النفر بالحيطة عند عودتهم بالخبر، تجنّباً لأي أثر سلبي يمكن أن يتركه في نفوس المسلمين، قال: (**فاذهبوا فانظروا إن كان ما بلغني حقاً؛ فإن كان باطلاً فأظهِروا القول، وإن كان حقاً فتكلموا بكلام تَلحَنون لي به أعرفُه؛ لا تفتُّوا أعضاد المسلمين**).

ودار الحوار بين وفد الأنصار وكعب بن أسد، بعد التأكد من صحة الخبر، وذلك في محاولة منهم لثنيه عن قراره الخطير، إلا أنه أبى عليهم، وأخذ نعله فقطع الشسع قائلاً: (**لا نردُّه أبداً؛ قد قطعته كما قطعتُ هذا القبال**).

ولم يكتف كعب بذلك، بل قام بسب سعد بن معاذ، فقال أسيد بن حضير، وهو أوسي أيضاً كسعد: (**تسبُّ سيدك يا عدو الله؟ ما أنت له بكفء! أما والله يا ابن اليهود، لتولينَّ قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك في عقر دارك، فنسير إليك فتنزل مِن جُحرك هذا على حكمنا. وإنك لتعلم النضير؛ كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة، ديتُك نصف ديتهم، وقد رأيت ما صنع الله بهم. وقبل ذلك بنو قينقاع، نزلوا على حكمنا. قال كعب: يا ابن الحضير، تخوفونني بالمسير إليّ؟ أما والتوراة، لقد رآني أبوك يوم بُعاث، لولا نحن لأجْلَته الخزرج منها. إنكم والله ما لقيتم أحداً يُحسِن القتال ولا يعرفه؛ نحن**

آخر وأشهر وأدمى معركة من معارك الأوس والخزرج قبل هجرة النبي، وقعت قبل الهجرة بخمس سنوات.

١. نزري: ننتقص.
٢. أي يصلحونها ويمهدونها لتمكينهم من المواجهة.

والله نُحسِن قتالكم)... وسرعان ما تحوّل اللقاء إلى تراشق بالكلام والسباب، ونالوا من رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومن المسلمين بأسوأ الكلام، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتى أغضبوه. فقال سعد بن معاذ: **(دعهم فإنّا لم نأت لهذا، ما بيننا أشد من المشاتمة؛ السيف)**.

هكذا رجع الوفد إلى رسول الله، واكتفى سعد بن معاذ بقوله: **(عَضَلُ وَالْقَارَةُ)**[1] ففهم النبي الإشارة، وسعى بحكمته أن يحوّل الموقف السلبي الذي اطّلع عليه وأخفاه عن المسلمين إلى موقف إيجابي حيث كبَّر وقال: **(أبشِروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه)** في محاولة منه لتخفيف الأثر السلبي لخبر نقض بني قريظة العهدَ واستعدادهم للخيانة في ما لو بلغ المسلمين ذلك لاحقاً.

وصدق حدس النبي، حيث تسرّب الخبر **(فاشتد الخوف وعظُم البلاء... ونجم**[2] **النفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء)**. وحاول النبي «صلى الله عليه وآله» أن يشجّع المسلمين ويقوّي من عزائمهم فقال: **(إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله)** ولكنه ووجِه بسخرية البعض، قال مُعتّب بن قشير[3]: **(يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته، وما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً!)**.

* وصول قوات الأحزاب:

وصلت قوات الأحزاب إلى حيث الخندق، فتفاجأت به، وأدركت منعته، فعسكر الغزاة متوزعين بحسب تشكيلاتهم القبلية:

- **قريش ومن التحق بها:** نزلت برُومَةَ الواقعة شمال غرب المدينة إلى الجنوب من جبل أحد.
- **الأحابيش ومن انضم إليهم من البوادي:** نزلوا وادي العقيق.
- **غطفان:** نزلت بالزغابة إلى جانب جبل أحد.

وكانت البداية صعبة لقوات التحالف نتيجة الجدب: **(وجعلت قريش تسرّح رِكابها في وادي العقيق في عضاهه**[4]**، وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف، وكان علفهم الذرة، وسرّحت غطفان إبلها**

---

١. يشير بذلك إلى خيانة قبيلتي عضل والقارة بمجموعة من قرّاء أصحاب النبي وفيهم عاصم بن ثابت، وقد أشرنا إليها سابقاً.

٢. نجم: طلع وظهر.

٣. وهو من البدريين! وقد مرَّ قوله في معركة أحد: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا). وهذا في حد ذاته يتعارض مع ما جاء في رواية أن النبي قال: (إن الله «تبارك وتعالى» اطَّلَع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

٤. العضاه: شجر كبير كثير الشوك.

إلى الغابة في أثلها وطرفائها [١] في عضاه الجرف[٢]. وقدموا في زمان ليس في العِرض[٣] زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر، فأدخلوا حصادهم وأتبانهم. وكانت غطفان ترسل خليها في أثر الحصاد، وكان خيل غطفان ثلاثمائة، بالعِرض فيمسِك ذلك مِن خيلهم[٤]، وكادت إبلهم تهلك من الهزال. وكانت المدينة ـ ليالي قدِموا ـ جديبة)[٥].

* انصراف المنافقين:

تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض في هذه الغزوة، قال «سبحانه»: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا، وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولا، قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلا، قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا، يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ[٦] وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلًا﴾[٧].

وفي المقابل قدمت الآيات صورة مخالفة تماماً لحال المؤمنين وموقفهم من هذا الزلزال العظيم، وفيها ثناء على وعيهم وإخلاصهم وتضحياتهم، قال الله «عزوجل»: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٨].

١. الطرفاء: نوع من الشجر من نفس فصيلة الأثل.
٢. الجرف موضع يقع في شمال غرب المدينة المنورة.
٣. العِرض: أي وادي يشتمل على قرى ومياه.
٤. أي يحبس عنهم فلا ينالون شيئاً.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٥.
٦. الآية الأخيرة تتحدث عن وضعهم النفسي بعد مغادرة الأحزاب في نهاية الغزوة، فهم من شدة خوفهم لم يصدّقوا الخبر، ولو أن الأحزاب جاءت مرة أخرى لتمنوا الهروب بتلك الصورة.
٧. سورة الأحزاب: ١٢-٢٠.
٨. سورة الأحزاب: ٢٢-٢٤.

وفي كتب السيرة صور من خيانة المنافقين وموقفهم المتزلزل قبيل المواجهة، ومن بينها الخبر التالي حيث: (**اجتمعت بنو حارثة فبعثوا أوس بن قيظيّ إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقالوا: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة؛ وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا**[1]. **ليس بيننا وبين غطفان أحد يردّهم عنا، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا. فأذن لهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فرجعوا بذلك وتهيئوا للانصراف. فبلغ سعد بن معاذ، فجاء إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: يا رسول الله، لا تأذن لهم؛ إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة قط إلا صنعوا هكذا. ثم أقبل عليهم فقال لبني حارثة: هذا لنا منكم أبداً. ما أصابنا وإياكم شدة إلا صنعتم هكذا. فردّهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**)[2].

* التمادي في الخيانة:

تمادى بنو قريظة في خيانتهم بحيث اتخذوا إجراءات عسكرية مساندة للأحزاب: (**همّت بنو قريظة أن يغيروا على بَيْضة**[3] **المدينة ليلاً، فأرسلوا حيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف، فيغيروا بهم . فجاء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الخبر بذلك، فعظم البلاء**)[4] لأن المسلمين سيغدون بين فكي كماشة بلحاظ موقع مساكن بني قريظة إلى الجنوب.

أوس بن قَيْظي بن عَمْرو الأنصاري الأوسيّ. من رؤوس المنافقين، وله مواقف مشينة كموقفه مع أخيه مربع حين كان المسلمون في الطريق إلى أحد، وموقفه في المجلس الذي جمع الأوس والخزرج ففتن بينهما شاب يهودي، فتنازعوا وهدّد أوس بن قيظي بإعادة الوضع إلى ما كان عليه في الجاهلية! وتنادوا لحمل السلاح، وتجمعوا للاقتتال، فتدخّل النبي حين علم بالأمر، وخطب فيهم حتى عادوا إلى رشدهم وتصالحوا.

وقد كتب العلامة السيد مرتضى العسكري في طبعة قديمة من كتابه «معالم المدرستين»: (ترى مدرسة أهل البيت تبعاً للقرآن الكريم: أن في الصحابة مؤمنين أثنى عليهم الله في القرآن الكريم وقال في بيعة الشجرة مثلاً: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾. فقد خص الله الثناء بالمؤمنين ممن حضروا بيعة الشجرة ولم يشمل المنافقين الذين حضروها مثل عبد الله بن أبيّ وأوس بن خولي). فكتبتُ إليه رسالةً ذكرتُ فيها أن أوس بن خولي كان من المؤمنين، ولابد أن المراد هنا هو أوس بن قيظي، فوافقني، وتم تصحيح المعلومة في النسخ اللاحقة حيث كتب في الهامش: (وأخطأ شارح الإمتاع وذكر ابن خولي، والصّواب ما أثبتناه).

١. كانت دورهم تقع شمال شرق المدينة المنورة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٧٩-١٨٤.
٣. بيضة: وسط.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.

* إجراءات احترازية:

سارع النبي لاتخاذ إجراءات احترازية، وشكّل دوريات عسكرية لحماية المدينة: (فكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يبعث سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير، ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أمِنوا).

سلمة بن أسلم بن حريس أو حريش الأنصاري الحارثي. شهد بدراً وما بعدها من معارك الإسلام، واستشهد سنة ١٤ هـ في العراق.

وقد وصف الخليفة أبوبكر الحالة النفسية للمسلمين وأثر تدبير النبي، قال: (لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين حمدت الله «عز وجل»، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرَس).

كما وأرسل النبي خوّات بن جبير في مهمة استطلاعية، قال: (دعاني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ونحن محاصرو الخندق، فقال: انطلق إلى بني قريظة فانظر هل ترى لهم غُرة[١] أو خللاً من موضع فتخبرني. قال: فخرجت من عنده عند غروب الشمس، فتدليت من سلع وغربت لي الشمس فصليت المغرب، ثم خرجت حتى أخذت في راتِج، ثم على عبد الأشهل، ثم في زهرة، ثم على بُعاث. فلما دنوت من القوم قلت: أكمن لهم. فكمنت ورمقت الحصون ساعة، ثم ذهب بي النوم فلم أشعر إلا برجل قد احتملني وأنا نائم، فوضعني على عنقه ثم انطلق يمشي. قال: ففزعت ورجل يمشي بي على عاتقه، فعرفت أنه طليعة من قريظة واستحييت تلك الساعة من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حياءً شديداً، حيث ضيّعت ثغراً أمرني به، ثم ذكرت غلبة النوم. قال: والرجل يرقل[٢] بي إلى حصونهم، فتكلم باليهودية فعرفته[٣]، قال: أبشِر بجزرة سمينة! قال: وذكرت، وجعلت أضرب بيدي ـ وعهدي بهم لا يخرج منهم أحد أبداً إلا بمعول في وسطه[٤] ـ قال: فأضع يدي على المعول فأنتزعه، وشُغِل بكلام رجل من فوق الحصن، فانتزعتُه فوجأت به كبدَه فاسترخى وصاح: السَّبُع. فأوقدَت اليهود النار على أطامها بشُعَل السعف. ووقع ميتاً وانكشفتُ[٥]، فكنت لا أُدرَك، وأُقبِل من طريقي التي جئت منها).

ثم يسترسل في بيان ما جرى بين المسلمين قبل أن يصل إليهم، قال: (وجاء جبريل إلى رسول الله «صلى

١. غرة: موضع يخادَعون من خلاله.
٢. يرقل: يهرول.
٣. أي فهمت معنى كلامه بالعبرية.
٤. أي وتذكر في هذه اللحظة أن اليهود يضعون معولاً في وسطهم عند الخروج من حصونهم، فأخذ يحاول انتزاعه ليضربه به.
٥. انكشفت: فررت.

الله عليه وسلم»، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ظفِرْتَ يا خوات! ثم خرج فأخبرَ أصحابه فقال: كان من أمر خوات كذا وكذا. وآتي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو جالس في أصحابه وهم يتحدثون، فلما رآني قال: أفلح وجهك! قلت: ووجهك يا رسول الله! قال: أخبِرني خبرك. فأخبرته، فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: هكذا أخبرني جبريل. وقال القوم: هكذا حدثنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم». قال خوات: فكان ليلنا بالخندق نهاراً [1])[2]. ولا أدري إلى أي مدى يمكن قبول بعض التفاصيل الواردة في هذا الخبر، لاسيما تلك الخاصة بإخبار النبي من قبل جبريل بما جرى للراوي، والله أعلم بحقيقة الحال.

* محاولة التعرض لأحياء المسلمين:

وفي المقابل حاول بعض بني قريظة التعرّض للأحياء التي تجمَّع فيها أهالي المسلمين، حيث خرج نبّاش بن قيس ذات ليلة ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم، أملاً في أن يصيبوا من المسلمين غرّة، فانتهوا إلى بقيع الغرقد، فوجدوا نفراً من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حريش، فناهضوهم فراموهم ساعة بالنبل، ثم انكشف القريظيون مولِّين. ولم يكتفِ المسلمون بذلك، بل اتخذوا إجراء آخر، حيث أقبل سلمة بن أسلم في أصحابه ـ وهو بناحية بني حارثة ـ حتى انتهوا إلى حصون بني قريظة، فجعلوا يطيفون بها حتى أدخلوا الرعب في قلوب اليهود، ثم أوقدوا النيران وباتوا ليلتهم في حالة استنفار ومراقبة. ثم عمد المسلمون إلى بئر لليهود فهدموا قرنيها [3]، فزاد ذلك من خوف اليهود ولم يجرؤوا على الخروج من حصنهم.

* شجاعة عمة النبي:

وتروي بعض كتب السيرة موقفاً بطولياً في تلك الظروف العصيبة للسيدة صفية بنت عبدالمطلب عمة النبي وأم الزبير بن العوام: (**كان حسان بن ثابت رجلاً جباناً، فكان قد رُفع مع النساء في الآطام، فكانت صفية في أطم فارع، ومعها جماعة وحسان معهم. فأقبل عشرة من اليهود ورأسهم غزّال بن سموأل من بني قريظة نهاراً، فجعلوا ينقمعون** [4] **ويرمون الحصن، فقالت صفية لحسان: دونك يا أبا الوليد! قال: لا والله، لا أعرّض نفسي لهؤلاء اليهود. ودنا أحدهم إلى باب الحصن يريد أن يدخل، فاحتجزت صفية بثوبها** [5]**، ثم أخذت خشبة فنزلت إليه فضربته ضربة شدخت رأسه فقتلته، فهرب مَن بقي منهم**)[6].

١. أي استنفر المسلمون تحسباً من أية ردة فعل قد تحدث.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨١.
٣. القرنان: منارتان أو عمودان يتم بناؤهما أو وضعهما على رأس البئر، ويوضع فوقهما خشبة فتعلق البكرة فيها.
٤. ينقمع: يدخل متخفياً.
٥. أي ربطته وشدته على وسطها.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٢.

* مشاهد من أيام الحصار:

• المشهد الأول، محاولة لاختراق الخندق: كان أسيد بن حضير يحرس الخندق في أصحابه، فانتهوا إلى مكان منه لم يُحفر بشكل كاف، ويمكن للخيل أن تثب فوقه وتعبره، فإذا طليعة من المشركين مكوّنة من مائة فارس أو نحوها، عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يعبروا إلى الجانب الذي يتواجد فيه المسلمون، فقام أسيد بن حضير عليها بأصحابه، فرموهم بالحجارة والنبل حتى تمكّنوا من ردّهم، فولّوا. وكان سلمان الفارسي من بين تلك المجموعة من المقاتلين المسلمين، فقال لأسيد: (**إن هذا مكان من الخندق متقارب، ونحن نخاف تطفره خيلهم ـ وكان الناس عجلوا في حفره ـ وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق، وأمِنوا أن تطفره خيلهم. وكان المسلمون يتناوبون الحراسة، وكانوا في قُرٍّ شديد وجوع**)[1].

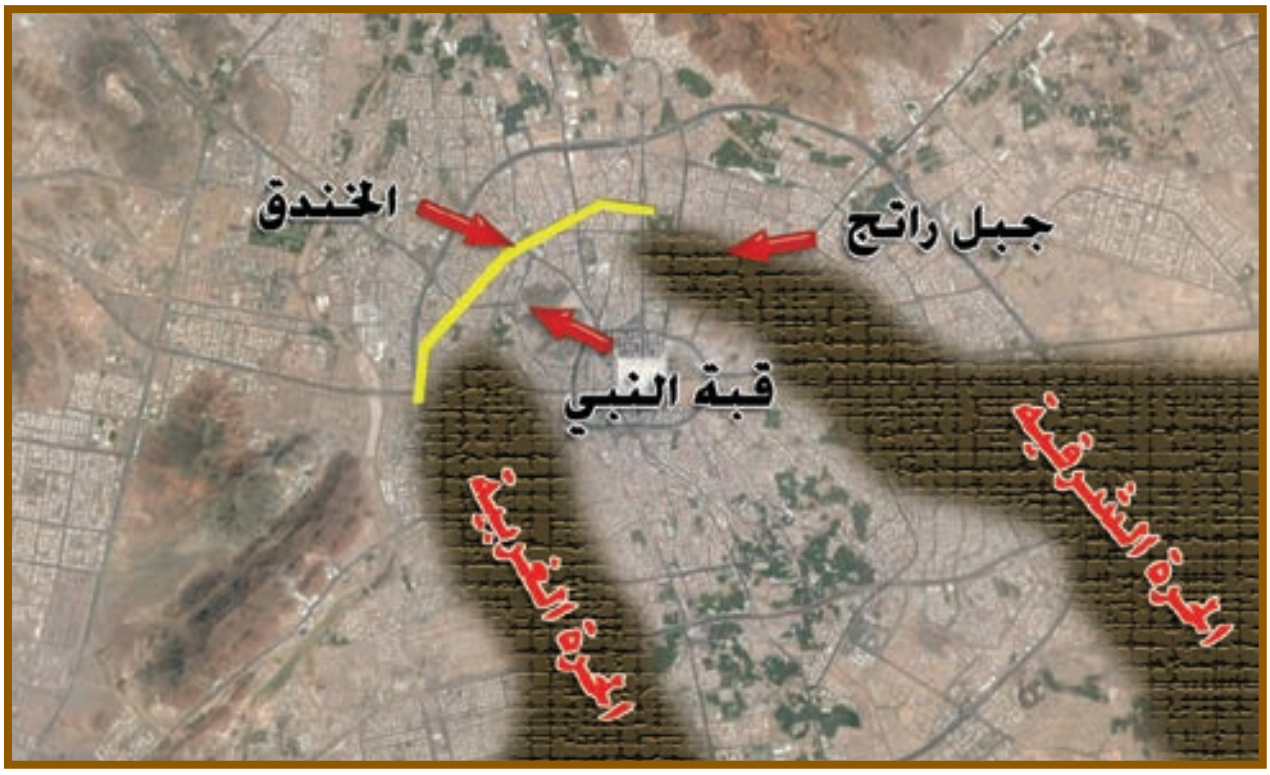
• المشهد الثاني، محاولة أخرى لاختراق الخندق: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: (**لقد رأيتني أحرس الخندق، وخيل المشركين تطيف بالخندق وتطلب غُرّة ومَضيقاً من الخندق فتقتحم فيه، وكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد هما اللذان يفعلان ذلك، يطلبان الغفلة من المسلمين. فلقينا خالد بن الوليد في مائة فارس، قد جال بخيله يريد مضيقاً من الخندق يريد أن يعبر فرسانه، فنَضحناهم بالنبل حتى انصرف**)[2].

• المشهد الثالث، محاولة قتل النبي «صلى الله عليه وآله»: أقبل خالد بن الوليد في مائة فارس حتى وقفوا بالمذاد، مقابل قبة النبي من الجهة الأخرى من الخندق، وتقدّم خالد في ثلاثة نفر هو رابعهم وقال: (**هذه قبة محمد**)، فانتبه لذلك محمد بن مسلمة ونادى في المسلمين ليأخذوا حِذرَهم، وأخبر عبّاد بن بشر ـ وكان على حرس قبة النبي ـ بما رأى وسمع، ثم رمى وأصحابه خالداً ومن معه، وتقارب الطرفان حتى وقفا على شفير الخندق، واستمروا في الترامي، وانضم إلى كل فريق عدد آخر من المقاتلين، وكثرت الجراحة فيهم، ثم تحرك المشركون بموازاة حافة الخندق، وتبعهم قسم من المسلمين من الجهة الأخرى، بينما حافظ آخرون على مواقعهم، فكلما مرَّ ابن مسلمة ومَن معه بنقطة حراسة، انضمت إليه طائفة وثبتت طائفة أخرى، حتى بلغوا جبل راتج، فوقفوا وقفة طويلة.

ويتبين من سائر الرواية أن اتفاقاً قد عُقد مسبقاً بين الأحزاب وبين بني قريظة كي يغيروا في هذه اللحظة على المدينة، كي يقع المسلمون بين فكي كماشة، ويضطرون لترك مواقعهم للدفاع عن حُرَمهم، وكانت وقفتهم الطويلة تلك انتظاراً لساعة الصفر، ولكن قوة من المسلمين باغتت هذه الفرقة من خلفها... قال محمد بن مسلمة:

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٢.
٢. ن. م. ص ١٨٣.



(فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش ـ يحرس ـ فيأتون من خلف راتج، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتتلوا واختلطوا، فما كان إلا حلب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية، وتبعه سلمة بن أسلم حتى ردّه من حيث جاء. فأصبح خالد وقريش وغطفان تزري عليه وتقول: ما صنعتَ شيئاً فيمن في الخندق ولا فيمن أصحر لك[١]).

انزعج خالد بن الوليد من هذا الكلام الذي يستهين بقدراته القتالية، وهو المقاتل المغوار، فقال وهو يستفزّهم ويتحدّاهم: (أنا أقعد الليلة، وابعثوا خيلاً حتى أنظر أي شيء تصنع)[٢].

• المشهد الرابع، محاولة فاشلة للمشركين: روي عن أم سلمة زوج النبي «صلى الله عليه وآله» أنها قالت: (والله، إني لفي جوف الليل في قبة النبي «صلى الله عليه وسلم» وهو نائم، إلى أن سمعت الهيعة[٣]، وقائل يقول: يا خيل الله! وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جعل شعار المهاجرين «يا خيل الله» ففزع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بصوته فخرج من القبة، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها، منهم عباد بن بشر، فقال: ما بال الناس؟ قال عباد: يا رسول الله، هذا صوت عمر بن الخطاب؛ الليلة نوبته ينادي: يا خيل الله! والناس يثوبون إليه ـ وهو من ناحية حسيكة ما بين ذباب ومسجد الفتح[٤] ـ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعبّاد بن بشر:

١. أصحر: خرج في الصحراء، ويريدون بذلك المجموعة التي برزت له في الأرض المكشوف.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٣.
٣. الهيعة: صوت الصّارخ للفَزَع.
٤. هذا المقطع من كلام الراوي إذ لم يُبن مسجد الفتح بعدُ في ذلك الوقت.

اذهب فانظر، ثم ارجع إليَّ إن شاء الله فأخبرني. قالت أم سلمة: فقمتُ على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به. قالت: فلم يزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قائماً حتى جاءه عباد بن بشر فقال: يا رسول الله، هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين، معه مسعود بن رخية بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان[1]، في خيل غطفان، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة. قالت: فدخل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فلبس درعه ومغفره، وركب فرسه. وخرج معه أصحابه، حتى أتى تلك الثغرة، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال: صرفهم الله، وقد كثرت فيهم الجراحة. قالت: فنام حتى سمعت غطيطه[2]، وسمعت هائعة أخرى، ففزع فوثب فصاح: يا عباد بن بشر. قال: لبيك. قال: انظر ما هذا. فذهب ثم رجع فقال: هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين، معه عُيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عبيد، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل. فعاد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فلبس درعه وركب فرسه، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة. فلم يأتنا حتى كان السَّحَر، فرجع وهو يقول: رجعوا مفلولين، قد كثرت فيهم الجراحة. ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس)[3].

• المشهد الخامس، ويصوِّر فيه النبي «صلى الله عليه وآله» مجدداً في سبات عميق.. ولا أدري ما الهدف من تكرار هذه الصورة من قبل الرواة لحال النبي والإصرار على إظهاره في صورة القائد المسترخي في قبته بينما يقوم على حراسته الآخرون وفي هذا الظرف العصيب! عن محمد بن مسلمة قال: **(كنا حول قبة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» نحرسه، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» نائم نسمع غطيطَه، إذ وافت أفراس على سلع، فبصر بهم عبّاد بن بشر فأخبرَنا بهم، قال: فأمضي إلى الخيل، وقام عباد على باب قبة النبي «صلى الله عليه وسلم» آخذاً بقائم السيف ينظرني، فرجعت فقلت: خيل المسلمين أشرفت، عليها سلمة بن أسلم بن حريش، فرجعتُ إلى موضعنا)[4].**

• المشهد السادس، من أساليب الأحزاب لاختراق الخندق أو إلحاق الأذى بالمسلمين: فقد كان المشركون خلال فترة الحصار يتناوبون بينهم على الاقتراب من الخندق ومحاولة البحث عن ثغرة أو طريقة لاختراقه، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، وضرار ابن الخطاب يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم ما بين المذاذ إلى راتج، وهم في مجموعة من أصحابهم، يتفرقون

١. من المؤكد ـ على فرض صحة الخبر ـ أن لا يكون ذكر هذا النسب بطوله قد ورد في كلام عباد للنبي.

٢. وهل يعقل أن يعود النبي إلى النوم على الرغم من حراجة الموقف في تلك الليلة، الأمر الذي يدفع إلى التردد في قبول الخبر أو في قبول بعض تفاصيله على الأقل.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٣.

٤. ن. م. ص ١٨٤.

مرة ويجتمعون أخرى، حتى عظم البلاء وخاف المسلمون خوفاً شديداً. وعملوا ذات يوم على تقديم رماتهم، وفيهم البعض من أشهر رماة العرب، فتناوشوا بالنبل ساعة، وهم جميعاً في وجه واحد وجاه قبة رسول الله «صلى الله عليه وآله» ورسول الله قائم، عليه الدرع والمغفر.

واستطاع حِبّان بن العَرِقَة ـ أحد أمهر الرماة في جيش الأحزاب ـ أن يصيب سعد بن معاذ بسهم، وهو ينادي: (**خذها وأنا ابن العَرِقَة**)، فأصاب أكحله[1]، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (**عرَّق الله وجهَك في النار**)[2].

روي عن أم المؤمنين عائشة قولها: (كنا في أطم بني حارثة قبل الحجاب ومعنا أم سعد بن معاذ، فمرَّ سعد بن معاذ يومئذ عليه رَدْع خلوق) أي كان متعطراً (ما رأيت أحداً في الخلوق مثله، وعليه درع له، مشمّرة عن ذراعيه؛ والله، إني لأخاف عليه يومئذ من تشميرة درعه ما أصابه، فمَرَّ يَرفُل في يده الحربة...) أي يكثر تحريكها حماسةً للقتال (وأمُّه تقول: الحق برسول الله يا بني، وقد والله تأخرت. فقلت: والله يا أم سعد، لوددت أن درع سعد أسبغ على بنانه. قالت أم سعد: يقضي الله ما هو قاض. فقضى له أن أصيب يومئذ، ولقد جاء الخبر بأنه قد رُمي، تقول أمه: واجبلاه).

❋ برز الإيمان كله:

مواجهة الإمام علي «عليه السلام» مع عمرو بن عبد العامري تعتبر حدثاً رئيساً ومفصلياً من أحداث الغزوة، ولها دلالاتها المتعددة. ولنتعرف على شخصية عمرو أولاً ثم لندع النصوص تتحدث عما جرى في ذلك الموقف العصيب.

هو عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود ... بن غالب بن فهر، فهو عامري نسبة إلى جده عامر، وقرشي لأنه من قريش. من أشجع فرسان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. كان يسمى «فارس يليل» لأنه كان يسير بفرسه مع عدد من أصحابه فهجم عليهم عشرة فرسان في وادٍ فهرب جميع أصدقائه وثبت هو لوحده يصارع الفرسان وكانوا عصابة من قطاع الطرق وانتصر عليهم لوحده ليلاً فسمي من ذلك اليوم فارس يليل.

- **النص الأول للمبارزة:** تأتي هذه الرواية بعد عدة نصوص عن فشل محاولات المشركين لاختراق الخندق: **(ثم إن رؤساءهم أجمعوا أن يغدوا جميعاً، فغدا أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله المخزومي، وعمرو بن عبد ونوفل ابن معاوية الديلي، في عدة فجعلوا يطيفون بالخندق ومعه رؤساء غطفان، عيينة بن حصن ومسعود بن رخيلة**

١. الأكحل: وريدٌ رئيس في وسط الذِّراع.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٤.

والحارث بن عوف، ومن سليم رؤساؤهم ومن بني أسد طليحة بن خويلد، وتركوا الرجال منهم خلوفاً، يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون فجعلوا يكرهون خيلهم ويقولون هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها. قالوا: إنَّ معه رجلاً فارسياً، فهو الذي أشار عليهم بهذا. قالوا: فمن هناك إذاً؟ [١] فعبَر عكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد، وقام سائر المشركين من وراء الخندق لا يعبرون. وقيل لأبي سفيان ألا تعبر؟ قال قد عبرتم، فإن احتجتم إلينا عبرنا [٢].

فجعل عمرو بن عبد يدعو إلى البراز ويقول:

ولقد بححت من الندا ء لجمعكم هل من مبارز

وعمرو يومئذ ثائرٌ، قد شهد بدراً فارتثَّ جريحاً فلم يشهد أُحُداً، وحَرَّم الدُّهن حتى يثأر من محمد وأصحابه وهو يومئذ كبير، يقال بلغ تسعين سنة. فلما دعا إلى البراز قال علي «عليه السلام»: أنا أبارزه يا رسول الله ثلاث مرات. وإن المسلمين يومئذ كأن على رءوسهم الطير لمكان عمرو وشجاعته[٣]. فأعطاه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» سيفه، وعمَّمه وقال: اللهم أعنه عليه. قال: وأقبل عمرو يومئذٍ وهو فارسٌ وعليٌّ راجل، فقال له عليٌّ «عليه السلام»: إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلا قبلتها. قال: أجل. قال عليٌّ: فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين. قال: يا ابن أخي، أخِّر هذا عنِّي. قال: فأُخْرى؛ ترجِع إلى بلادك، فإنْ يكن محمدٌ صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن غير ذلك كان الذي تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريشٍ أبداً، وقد نذرت ما نذرت وحرمت الدهن. قال: فالثالثة؟ قال: البراز. قال فضحك عمرو ثم قال: إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها [٤] إني لأكره أن أقتل مثلك، وكان أبوك لي نديماً؛ فارجع، فأنت غلامٌ حدث، إنما أردت شيخي قريش، أبا بكر وعمر. قال فقال عليٌّ «عليه السلام»: فإني أدعوك إلى المبارزة، فأنا أحِب أن أقتلك. فأسِف عمرو ونزل وعقل فرسه، فكان جابر يحدِّث يقول: فدنا أحدُهما من صاحبه وثارت بينهما غبرةٌ فما نراهما، فسمعنا التكبير تحتها فعرفنا أن علياً قتله. فانكشف أصحابُه الذين في الخندق هاربين، وطفرت بهم خيلهم، إلا أن نوفل ابن عبد الله وقع به فرسه في الخندق، فرمي بالحجارة حتى قتل. ورجعوا هاربين، وخرج في أثرهم الزبير بن العوام وعمر بن الخطاب، فناوشوهم ساعة.

---

١. أي من سيعبر إلى الجهة المقابلة حيث المسلمين؟

٢. لاحظ خوف أبي سفيان وسائر من معه من العبور، وفي هذا دلالة على شجاعة الذين عبروا.

٣. شكك البعض في بطولة الإمام علي في هذا الموقف بلحاظ كبر سن عمرو على الرغم من العبارة السابقة.. وسنعالج هذا الموضوع لاحقاً.

٤. والعبارة غريبة وفي نص آخر «يرومها مني» أي يطلبها مني، وهي أصح.

وحمل ضرار بن الخطاب على عمر بن الخطاب بالرمح، حتى إذا وجد عمر مس الرمح رفعه عنه وقال: هذه نعمة مشكورة، فاحفظها يا ابن الخطاب. إني قد كنت حلفت لا تمكنني يداي من رجلٍ من قريشٍ أبداً. فانصرف ضرار راجعاً إلى أبي سفيان وأصحابه وهم قيامٌ عند جبل بني عبيد)[1].

ويبدو أن البعض لم يرتح أن تكون البطولة خالصة لعلي «عليه السلام»، ولذا فقد نسبوا للزبير موقفاً عقيب مقتل عمرو مباشرة، وهو موقف مجهول الأصل. وفي النص: **(ويقال: حمل الزبير على نوفل بن عبد الله بن المغيرة بالسيف حتى شقه باثنين وقطع أندوج سرجه ـ والأندوج: اللبد الذي يكون تحت السرج ـ ويقال إلى كاهل الفرس. فقيل: يا أبا عبد الله، ما رأينا سيفاً مثل سيفك. فيقول: والله، ما هو بالسيف ولكنها الساعد)**[2].

ولعل الأوفق بذلك ما روي من أنه: **(هرب عكرمة وهبيرة فلحقا بأبي سفيان، وحمل الزبير على هبيرة فضرب ثُفْر فرَسه**[3] **فقطع ثفر فرسه وسقطت درعٌ كان محقبها الفرس**[4]**، فأخذ الزبير الدرع، وفر عكرمة وألقى رمحه)**[5].

- **النص الثاني للمبارزة:**

روى النص ابن أبي الحديد، قال: **(خرج عمرو بن عبد ود يوم الخندق وقد كان شهد بدراً فارتثَّ جريحاً ولم يشهد أُحُداً، فحضر الخندق شاهراً سيفه مُعلِماً مُدِلاً بشجاعته وبأسه، وخرج معه ضرار بن الخطاب الفهري وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميون، فطافوا بخيولهم على الخندق إصعاداً و انحداراً يطلبون موضعاً ضيّقاً يعبرونه حتى وقفوا على أضيق موضع فيه، في المكان المعروف بالمزار، فأكرهوا خيولهم على العبور فعبرت، وصاروا مع المسلمين على أرض واحدة، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» جالس وأصحابه قيام على رأسه، فتقدم عمرو بن عبد ود فدعا إلى البراز مراراً فلم يقم إليه أحد، فلما أكثر قام علي «عليه السلام» فقال: أنا أبارزه يا رسول الله. فأمره بالجلوس وأعاد عمرو النداء و الناس سكوت كأن على رءوسهم الطير، فقال عمرو: أيها الناس إنكم تزعمون أن قتلاكم في الجنة و قتلانا في النار، أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة أو يُقدِم عدوا له إلى النار؟ فلم يقم إليه أحد. فقام علي «عليه السلام» دفعة ثانية وقال: أنا له يا رسول الله. فأمره بالجلوس، فجال عمرو بفرسه مقبلاً و مدبراً، وجاءت عظماء الأحزاب فوقفت من وراء الخندق ومدت**

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٤-١٨٥.
٢. ن.م. ص ١٨٥.
٣. ثفر الفرس: السير الذي يكون في مؤخر الفرس.
٤. محقبها: أي مردفها.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٥.

أعناقها تنظر. فلما رأى عمرو أن أحداً لا يجيبه قال:

ولقد بححت من الندا ... ء بجمعهم هل من مبارز
ووقفت مذ جبن المشيع ... موقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل ... متسرعاً قبل الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

فقام علي «عليه السلام» فقال: يا رسول الله ائذن لي في مبارزته. فقال: ادن. فدنا فقلده سيفه و عممه بعمامته وقال: امض لشأنك. فلما انصرف قال: اللهم أعنه عليه. فلما قرب منه قال له مجيبا إياه عن شعره:

لا تعجلنّ فقد أتاك ... مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة ... يرجو بذاك نجاة فائز
إني لأمل أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربة فوهاء يبقى ... ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو: من أنت؟ وكان عمرو شيخا كبيرا قد جاوز الثمانين وكان نديم أبي طالب بن عبد المطلب في الجاهلية. فانتسب علي «عليه السلام» له و قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: أجل لقد كان أبوك نديما لي و صديقا فارجع فإني لا أحب أن أقتلك[1]... قالوا فقال له علي «عليه السلام»: لكني أحب أن أقتلك. فقال: يا ابن أخي، إني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك، فارجع وراءك خير لك. فقال علي«عليه السلام»: إن قريشاً تتحدث عنك أنك قلت لا يدْعوني أحدٌ إلى ثلاث إلا أجبت، و لو إلى واحدة منها. قال: أجل. فقال علي «عليه السلام»: فإني أدعوك إلى الإسلام. قال: دع عنك هذه. قال: فإني أدعوك إلى أن ترجع بمن تبعك من قريش إلى مكة. قال: إذن تتحدث نساء قريش عني أن غلاماً خدعني. قال: فإني أدعوك إلى البراز. فحمي عمرو وقال: ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومها مني. ثم نزل فعقر فرسه، و قيل ضرب وجهه ففر، وتجاولا فثارت لهما غبرة وارتهما عن العيون إلى أن سمع الناس التكبير عالياً من تحت الغبرة، فعلموا أن علياً قتله وانجلت الغبرة عنهما، و علي راكب صدره يحز رأسه. و فر أصحابُه ليعبروا الخندق فظفرت بهم خيلهم إلا نوفل بن عبد الله، فإنه قصر فرسُه فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة فقال: يا معاشر الناس قتلة أكرم من هذه. فنزل إليه علي «عليه السلام» فقتله. و أدرك الزبير هبيرة بن أبي وهب فضربه فقطع ثفر فرسه وسقطت درع كان حملها من ورائه فأخذها الزبير و ألقى

١. علّق ابن أبي الحديد على ما سبق قائلاً: (كان شيخنا أبو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول إذا مررنا في القراءة عليه بهذا الموضع: والله ما أمره بالرجوع إبقاء عليه بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر و أحد و علم أنه إن ناهضَه قتَلَه فاستحيا أن يظهر الفشل فأظهر الإبقاء والإرعاء وإنه لكاذب فيهما).

عكرمة رمحه وناوش عمر بن الخطاب ضرار بن عمرو، فحمل عليه ضرار حتى إذا وجد عمر مس الرمح رفعه عنه وقال: إنها لنعمة مشكورة فاحفظها يا ابن الخطاب، إني كنت آليت ألا تمكنني يداي من قتل قرشي فأقتله. و انصرف ضرار راجعاً إلى أصحابه و قد كان جرى له معه مثل هذه في يوم أحُد)[١].

- النص الثالث للمبارزة:

روى الحاكم النيسابوري الحدث إلى أن قال: (فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي. قال: ابن من؟ قال: ابن عبد مناف. أنا علي بن أبي طالب. فقال: عندك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فانصرف، فإني أكره أن أهريق دمَك. فقال علي: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك. فغضب، فنزل فسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً واستقبله عليٌّ بدرقته[٢] فضربه عمرو في الدرقة فَقَدَّها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجَّه، وضربه علي «رضي الله عنه» على حبل العاتق، فسقط وثار العجاج، فسمع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» التكبير، فعرف أن علياً قتله)[٣].

- النص الرابع للمبارزة:

روى الحسكاني الحدث بتفاصيل أخرى قال بعد الحوار الذي دار بين الإمام وعمرو حول الخصال التي يختار بينها: (فقال له علي: فأنت فارس وأنا راجل. فنزل عن فرسه وقال: ما لقيت من أحد ما لقيت من هذا الغلام! ثم ضرب وجه فرسه فأدبرت، ثم أقبل إلى علي، وكان رجلاً طويلاً ـ يداوي دبر البعيرة وهو قائم[٤] ـ وكان عليّ في تراب دق[٥] لا يثبت قدماه عليه، فجعل علي ينكص إلى ورائه يطلب جَلَداً من الأرض يثبت قدميه، ويعلوه عمرو بالسيف وكان في درع عمرو قِصَر، فلما تشاك[٦] بالضربة تلقاها علي بالترس فلحق ذباب السيف في رأس علي، حتى قطعت تسعة أكوار[٧] حتى خط السيف في رأس علي، وتسيّف علي رجليه بالسيف[٨] من أسفل فوقع على قفاه فثارت بينهما عجاجة فسمع علي يكبر، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: قتله والذي نفسي بيده، فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب، فإذا عليٌّ يمسح سيفه بدرع عمرو، فكبَّر عمر بن الخطاب فقال: يا

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص٦٣-٦٤.
٢. الدَّرَقة نوع من التروس يتخذ من الجلد.
٣. النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٤٣٨٥.
٤. العبارة لبيان شدة طوله.
٥. دق: ناعم تغوص فيه الأقدام.
٦. في الكلمة خطأ، فلا معنى لتشاك هنا.
٧. أي لفات عمامة الإمام علي كانت تسعة.
٨. تسيف رجليه: جزّهما وقطعهما بالسيف.

رسول الله قتله. فحز عليٌّ رأسَه ثم أقبل يخطر في مشيته، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا علي، إن هذه مشية يكرهها الله «عز وجل» إلا في هذا الموضع. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» لعلي: ما منعك من سلبه فقد كان ذا سلب؟ فقال: يا رسول الله، إنه تلقاني بعورته. فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: أبشِر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم، وذلك إنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو)[1].

- النص الخامس للمبارزة:

روى الكراجي حواراً آخر دار بينهما، قال: (فما كان بأسرع من أن صرعه أمير المؤمنين، وجلس على صدره، فلما هَمَّ أن يذبحه وهو يكبر الله ويحمده قال له عمرو: يا علي، قد جلستَ مني مجلساً عظيماً، فإذا قتلتني فلا تسلبني حُلَّتي. فقال له أمير المؤمنين «صلى الله عليه وآله»[2]: هي أهون عَليَّ من ذلك. وذبحه وأتى برأسه وهو يتبختر في مشيته. فقال عمر: ألا ترى يا رسول الله إلى علي كيف يتيه في مشيته؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إنها مشية لا يمقتها الله في هذا المقام. ثم نهض رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» فتلقاه ومسح الغبار عن عينيه)[3].

- النص السادس للمبارزة:

وفي إحدى الروايات تفاصيل أخرى حول كيفية قتل عمرو، وأن الإمام استعان بالحيلة، والرواية بذلك تخالف التفاصيل المشهورة، قال: (فقال له علي: يا عمرو، أما كفاك أني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت عليَّ بظهير؟ فالتفت عمرو إلى خلفه فضربه أمير المؤمنين «عليه السلام» مسرعاً على ساقيه فأطنهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة. وأقبل إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم)[4].

- النص السابع للمبارزة:

ابن الصباغ المالكي[5] روى بدوره تفاصيل لم ترد في النصوص السابقة، قال: (ثم ركب علي «رضي الله عنه»

---

١. الحسكاني: شواهد التنزيل، ج٢، ص ١١-١٢.
٢. هكذا جاءت في المصدر، وأثبتها كما جاءت، وإن كانت هذه العبارة من مختصات رسول الله على ما هو المتعارف.
٣. الكراجكي: كنز الفوائد، ج١، ص ١٣٧.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠ ، ص ٢٢٧.
٥. ابن الصباغ: الفصول المهمة، ج١، ص ٣٤٢-٣٤٣.

على فرسه وكَرَّ على ابنه حنبل[1] بن عمرو فقتله، فخرجت خيولهم منهزمة، ورمى عكرمة بن أبي جهل رمحه وفر منهزماً مع من انهزم من أصحابه، فرجع علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» وهو يقول:

أعلي تقتحم الفوارس هكذا ... عني وعنهم خبروا أصحابي
اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ... ومصمم في الرأس ليس يناب
أرديت عمراً إذ طغى بمهند ... صافي الحديد مجرب قصاب
هذا ابن عبد الود كذب قوله ... وصدقت فاستمعوا إلى الكذاب
نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت دين محمد بصواب
وغدوت حين تركته متجدلاً ... كالعير بين دكادك ورواب
وعفقت عن أثوابه لو أنني ... كنت المقطر بزني أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ... ونبيه يا معشر الأحزاب

● **النص الثامن للمبارزة:**

نقل السيد محسن الأمين الحوار التالي بين رسول الله «صلى الله عليه وآله» وبين علي «عليه السلام» وذلك نقلاً عن التفسير الكبير للفخر الرازي: **(قال الرازي في تفسيره أنه «صلى الله عليه وآله» قال لعلي بعد قتله لعمرو ابن عبد ود: كيف وجدت نفسك معه يا علي؟ قال وجدتها لو كان أهل المدينة كلهم في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم)**[2].

❋ دعاء النبي لعلي:

عن حذيفة بن اليمان أنه حين أراد الإمام علي «عليه السلام» الخروج لعمرو ألبسه رسول الله «صلى الله عليه وآله» درعه ذات الفضول، وأعطاه سيفه ذا الفقار، وعممه عمامة السحاب على رأسه، ولفّها تسعة أكوار، ثم قال له: تقدَّم. ولما ذهب الإمام إلى المبارزة دعا له النبي قائلاً: **(اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدميه)**[3]. وعن الإمام محمد الباقر عن آبائه «عليه السلام» أنه قال: **(قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم الأحزاب: اللهم إنك أخذت مني عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم أحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين)**[4].

١. وقيل حبيل أو حسل.
٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٢٦٠.
٣. المرعشي: شرح إحقاق الحق، ج٣١، ص ٢٣٤.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٠، ص ٢١٥.

* الثناء على الإمام:

ولبيان قيمة هذا النصر العظيم، صدرت عن النبي «صلى الله عليه وآله» عدة كلمات رواها المؤرخون والمحدثون، منها ما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك، والفخر الرازي في تفسيره الكبير، والموفق الخوارزمي في المناقب عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (**لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة**). وفي ينابيع المودة عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (**أبشِر يا علي، فلو وُزن عملك اليوم بعمل أمتي لرجح عملك بعملهم**). وروى الإربلي في «كشف الغمة» وابن أبي الحديد في «شرح النهج» وآخرون: (**أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين برز علي إلى عمرو بن عبد ود قال حينئذ: برز الإسلام كله إلى الشرك كله**)[1].

وقد أثار هذا الثناء الكبير من النبي «صلى الله عليه وآله» على الإمام علي «عليه السلام» حفيظة البعض على مرّ الزمان، والخبر التالي يبيّن واحدة من المواقف ذات العلاقة، فعن ربيعة السعدي قال: (**أتيت حذيفة ابن اليمان فقلت له: يا أبا عبد الله، إننا لنتحدث عن علي «عليه السلام» ومناقبه، فيقول لنا أهل البصرة: إنكم تفرطون في علي، فهل أنت محدثي بحديث فيه؟ فقال حذيفة: يا ربيعة، وما تسألني عن علي «عليه السلام»؟ والذي نفسي بيده، لو وضع جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميزان، منذ بعث الله محمداً إلى يوم القيامة، ووضع عمل علي في الكفة الأخرى، لرجح عمل علي على جميع أعمالهم. فقال ربيعة: هذا الذي لا يقام له ولا يقعد. فقال حذيفة: يا لكع، وكيف لا يحمل؟! وأين كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب محمد يوم عمرو بن عبد ود وقد دعا إلى المبارزة!؟ فأحجم الناس كلهم ما خلا علياً «عليه السلام» فإنه برز إليه فقتله الله على يديه، والذي نفس حذيفة بيده، لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أصحاب محمد إلى يوم القيامة**)[2]. وفي خبر آخر أن حذيفة بن اليمان قال: (**لو قُسِّمت فضيلة علي «عليه السلام» بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم**)[3].

وعن الحسن البصري: (**أن علياً «عليه السلام» لما قتل عمراً احتز رأسه وحمله فألقاه بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقام أبو بكر وعمر فقبّلا رأسه، ووجهُ رسول الله «صلى الله عليه وآله» يتهلل، فقال: هذا النصر! أو قال: هذا أول النصر**)[4].

وروي الحلبي في سيرته النبوية أنه لما سمع النبي «صلى الله عليه وآله» التكبير: (**عرف أن علياً «كرم الله وجهه»**

١. للاطلاع على المصادر راجع المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٩، ص ٥١.
٢. المفيد: الإرشاد، ج١، ص١٠٣.
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص ٢٨٤.
٤. ن.م. ج١٩، ص ٦٢.

قتل عَمْراً «لعنه الله»، وذكر بعضهم أن النبي «صلى الله عليه وآله» عند ذلك قال: قَتْلُ عليٍّ لعمرو بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين)[1].

وعن جابر الأنصاري: **(فما شبَّهتُ قتل علي عمْراً إلا بما قصَّ الله «عزوجل» من قصة داود وجالوت حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾**[2])[3]. وفي خبر آخر أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال يوم قتل عمرو: **(ذهبَت ريحُهم، ولا يغزوننا بعد اليوم، ونحن نغزوهم إن شاء الله)**[4].

وكعادته، قام ابن تيمية بالتشكيك في بطولة الإمام وفي النصوص الواردة في مدحه، قال الحلبي في سيرته: **(قال الإمام أبو العباس ابن تيمية: وهذا من الأحاديث الموضوعة التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها، ولا بسند ضعيف، وكيف يكون قَتْل كافر أفضل من عبادة الثقلين الإنس والجن ومنهم الأنبياء ؟ قال: بل إن عمرو ابن عبد ود هذا لم يُعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة).**

و ردَّ عليه الحلبي قائلاً: **(أقول: و يردّ قوله إن عمرو بن عبد ود هذا لم يُعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة، قول الأصل**[5] **وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلِماً، أي جعل له علامة يعرف بها ليرى مكانه. ويردّه أيضاً ما تقدم من أنه نذر أن لا يمس رأسَه دهناً حتى يقتل محمداً «صلى الله عليه وسلم». واستدلاله بقوله وكيف يكون إلى آخره، فيه نظر، لأن قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين)**[6].

وهكذا كتب أحد المعاصرين في إحدى منتديات الإنترنت تحت مسمى وهمي: **(القنبلة المدوية والمفاجأة الرهيبة للراوي الشيعي، باني البطولات الخرافية والضلال بالكذب)** وسطّر ملاحظتين على أنهما مدعاة لتكذيب بطولة الإمام علي «عليه السلام» في قتله لعمرو بن عبد ود، وهي كالتالي:

١- عمر بن عبد ود أصيب فى معركة بدر إصابة جسيمة جداً سنة ٢ هـ أقعدته ومنعته من المشاركة فى غزوة أحد ٣ هـ، وبعد أن شُفي اشترك فى غزوة الخندق ٥ هـ .

---

١. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص٤٢٨.
٢. سورة البقرة: ٢٥١.
٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٥٦.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص٦٢.
٥. لما كان الحلبي الشافعي قد ألف هذه السيرة اعتماداً على كتابين أحدهما كتاب «عيون الأثر» لمؤلفه ابن سيد الناس، فإنه كلما قال «قول الأصل» أو «قال في الأصل» فإنه يشير إلى هذا الكتاب.
٦. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص٤٢٨.

٢- عمر الإمام علي في غزوة الخندق ٢٧ ـ ٣٠ سنة عمر الفتوة والشباب، أما البطل الرهيب المرعب عمرو بن عبد ود فكان عمره فى غزوة الخندق ٨٠ سنة بحسب كتاب الأعلام للزركلى. البطل الرهيب الخطير والمرعب الجسور الذى يخافه الجميع ولا يخرجون له عجوز كهل عمرة ٨٠ سنة.

ثم قال: (**الحكاية كلها كذب وملفقة من الراوي الشيعي ابن اسحاق، كذب فى كذب، فلم يناد عمرو بن ود من وراء الخندق بالأشعار، ولم يعاير الصحابة بخوفهم وعدم إيمانهم بالشهادة فى سبيل الله، ولم يمنع رسول الله الإمام علي من الخروج لمبارزة عمرو بن ود ٣ مرات، ولا حتى مرة واحدة**)[١].

ويمكن الرد على ذلك بالتساؤلات التالية: لماذا عبَر عمرو بن عبد ود العجوز، وخاف أبوسفيان وسائر القادة الذين معه فلم يعبروا منتظرين نتيجة المبارزة؟ ولماذا تحدى عمرو بن عبد ود المسلمين فلم يخرج إليه أحد منهم إلا علي «عليه السلام» إن كان عجوزاً ضعيفاً؟ ولماذا قال النبي «صلى الله عليه وآله» ما قال فيه؟ ولماذا نغفل عن كل مصادر أهل السنة التي روت الخبر بطرق مختلفة بغض النظر عن رواية ابن إسحق؟

❋ النداء بالقتال دفعة واحدة:

تذكر إحدى الروايات أنه على إثر مقتل عمرو قرر قادة الأحزاب اتخاذ إجراء جديد، فيه تعبأة عامة للقتال دفعة واحدة: (**فلما رجعوا إلى أبي سفيان قال: هذا يوم لم يكن لنا فيه شيء، ارجعوا. فنفرت قريش فرجعت إلى العقيق، ورجعت غطفان إلى منازلها، واتَّعدوا يغدون جميعاً ولا يتخلف منهم أحد. فباتت قريش يعبئون أصحابهم، وباتت غطفان يعبئون أصحابهم، ووافوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالخندق قبل طلوع الشمس. وعبأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه وحضهم على القتال، ووعدهم النصر إن صبروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم فأخذوا بكل وجه من الخندق**)[٢].

وتمضي الرواية في ذكر حدوث الالتحام بين الطرفين، ووقوع القتال على أشده، ولا يصح قبول ذلك، فلو قبلنا الرواية لبان عدم فائدة الخندق، لأن الخندق منع المشركين من التقدم، فأين وقع التلاحم إذاً؟ ولا يُعرف أن تجاوزاً حصل للخندق إلا في قضية عمرو بن عبد ود السابقة، وهو أيضاً مخالف للنص القرآني بأن الله كفى المؤمنين القتال في هذه الغزوة. قال «عزوجل»: ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾[٣]. وتستمر الرواية بذكر أمر آخر يستدعي الوقوف عنده لغرابته: (**قاتلونا يومهم**

---

١. www.dd-sunnah.net

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٥.

٣. سورة الأحزاب: ٢٥.

وفرّقوا كتائبهم، ونحوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هوي من الليل، ما يقدر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم، وما يقدر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على صلاة الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، ما صلينا. فيقول: ولا أنا والله ما صليت. حتى كشفهم الله «عزوجل» فرجعوا متفرقين. فرجعت قريش إلى منزلها، ورجعت غطفان إلى منزلها، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله «صلى الله عليه وسلم»... فلما صار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى موضع قبته، أمر بلالاً فأذن. وكان عبد الله بن مسعود يقول: أمره رسول الله «صلى الله عليه وسلمى فأذّن وأقام للظهر، وأقام بعد لكل صلاة إقامة إقامة).

وفي رواية ثانية: (فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بلالاً فأمره، فأقام صلاة الظهر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها. ثم أقام صلاة العصر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، ثم أقام المغرب فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها، ثم أقام العشاء فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها. قال: وذلك قبل أن ينزل الله صلاة الخوف: ﴿فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً﴾[1])[2].

وفي رواية ثالثة أن صلاة العصر فقط هي التي فاتتهم: (وكان ابن عباس يحدث يقول: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يومئذ: شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى ـ يعني العصر ـ ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً)[3].

وقد عالج القرآن الكريم موضوع الصلاة في الحروب من خلال آية صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا، وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[4].

فإذا أخذنا بالقول الذي يذهب إلى أن الآية نزلت في العام السادس الهجري في الحديبية كما في تفسير القمي، أو في غزوة ذات الرقاع في العام السادس أو السابع الهجري، صح أن لا يكون النبي والمسلمون قد عرفوا

---

١. يشير بذلك إلى قول الله «عزوجل»: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة:٢٣٨-٢٣٩.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٦.

٣. ن.م.

٤. سورة النساء: ١٠١-١٠٢.

تكليفهم من خلال صلاة الخوف في تلك الحالة الموصوفة في الخبر، وأما إذا قلنا أنها نزلت في العام الهجري الرابع في غزوة ذات الرقاع «غزوة نجد» كما في رواية للشيخ الصدوق عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (**صلى النبي «صلى الله عليه وآله» بأصحابه في غزاة ذات الرقاع، ففرق أصحابه فرقتين...**)[1] فلن يكون الأمر مقبولاً، فضلاً عن تخطئة وقوع القتال من الأساس كما بيّنت سابقاً.

* أحداث ذات علاقة:

الحدث الأول: امتنع النبي عن أخذ مبلغ مقابل جيفة نوفل المخزومي المقتول أثناء هربه بعد مقتل عمرو: (**وأرسلت بنو مخزوم إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» يطلبون جيفة نوفل بن عبد الله يشترونها بالدية، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إنما هي جيفة حمار. وكره ثمنه**)[2].

الحدث الثاني: حادثة مؤسفة وقعت خطأً: (**فلما انصرف المشركون تلك الليلة لم يكن لهم قتالٌ جميعاً حتى انصرفوا، إلا أنهم لا يدعون يبعثون الطلائع بالليل، يطمعون في الغارة. وخرجت بعد ذلك طليعتان لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» ليلاً، فالتقيا ولا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو، فكانت بينهم جراحةٌ وقتلٌ؛ ولسنا نعرف مَن قَتل ولم يُسمّ لنا. ثم نادوا بشعار الإسلام، وكف بعضهم عن بعض، وكان شعارهم: حم لا يُنصَرون**).

كيفية صلاة الخوف: في كتاب «السرائر» لابن إدريس الحلي: (أن يفرق الإمام أصحابه، إذا كان العدو في خلاف جهة القبلة فرقتين، فرقة يجعلها بإزاء العدو، وفرقة خلفه، ثم يكبر، ويصلي بمن وراءه ركعة واحدة، فإذا نهض إلى الثانية، صلوا لأنفسهم ركعة أخرى، ونووا مفارقته، والانفراد بصلاتهم، وهو قائم يطول القراءة، ثم جلسوا فتشهدوا وسلموا وانصرفوا، فقاموا مقام أصحابهم، وجاءت الفرقة الأخرى فلحقوه قائماً في الثانية، فاستفتحوا الصلاة، وانصتوا لقراءته، إن كانت الصلاة جهرية، فإذا ركع، ركعوا بركوعه، وسجدوا بسجوده، فإذا جلس للتشهد قاموا فصلوا ركعة أخرى وهو جالس، ثم جلسوا معه، فسلم بهم، وانصرفوا بتسليمه... وإذا كانت الحال، حال طراد وطعان، وتزاحف، وتواقف، ولم يتمكن من الصلاة التي ذكرناها، وصورناها، وجبت الصلاة بالإيماء، وينحني المصلي لركوعه، وسجوده، ويزيد في الانحناء للسجود... ويجزيه أن يصلي إلى حيث توجه، إذا خاف من... إيقاع العدو به. فأما عند اشتباك الملحمة والتضارب بالسيوف، والتعانق، وتعذر كل ما ذكرناه، فإن الصلاة حينئذ تكون بالتكبير والتهليل والتسبيح والتحميد.... وأما السابح في لجة البحر، ولا يتمكن من مفارقتها، والموتحل الذي لا يقدر على استيفاء حدود الصلاة، فيصلي كل واحد منهما بالإيماء، ويتحرى التوجه إلى القبلة بجهده).

١. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ح ١٣٣٤.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٦.

وعاد المسلمون بعد المواجهة المؤسفة إلى النبي يخبرونه ويستفتونه عما جرى فقال: (**جِراحكم في سبيل الله، ومن قتل منكم فإنه شهيد. فكانوا بعد ذلك إذا دنا المسلمون بعضهم من بعضٍ نادوا بشعارهم**[1]**؛ لأن يكف بعضهم عن بعض، فلا يرمون بنبلٍ ولا بحجر**)[2].

الحدث الثالث: أطلق الطرفان دوريات مستمرة على الخندق: (**كانوا يطيفون بالخندق بالليل حتى الصباح يتناوبون، وكذلك يفعل المشركون أيضاً، يطيفون بالخندق حتى يصبحوا**)[3].

الحدث الرابع: قصة لا تمت إلى الواقع بصلة، فعن أبي السائب مولى هشام بن زُهرة أنه: (**دخل على أبي سعيد الخدري في بيته فوجده يصلي، قال: فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته. قال: فسمعت تحريكاً تحت سريره في بيته فإذا حية، فقمت لأقتلها فأشار إلي أن اجلِس. فلما جلست سلم وأشار إلى بيتٍ في الدار، فقال لي: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم فقال: إنه كان فيه فتىً حديث عهدٍ بعرس، فخرجنا مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الخندق فكان يستأذنه بأنصاف النهار ليطلع إلى أهله، فاستأذن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يوماً، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: خذ سلاحك فإني أخشى عليك بني قريظة. قال: فأخذ الرجل سلاحه وذهب فإذا امرأته قائمةٌ بين البابين، فهيأ لها الرمح ليطعنها، وأصابته غيرةٌ فقالت: اكفف عليك رمحك حتى ترى ما في بيتك. فكف ودخل فإذا هو بحيةٍ منطوية على فراشه، فركز فيها رمحه فانتظمها فيه، ثم خرج به فنصبه في الدار، فاضطربت الحية في رأس الرمح وخر الفتى ميتاً، فما ندري أيهما كان أسرع موتاً، الفتى أو الحية. قال أبو سعيد: فجئنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فذكرنا ذلك له فقلنا: يا رسول الله، ادعُ الله أن يحييه. فقال: استغفروا لصاحبكم. ثم قال: إن بالمدينة جناً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان**)[4].

> أبو السائب مولى هشام بن زُهرة السلمي أصله من فارس، كان من الملازمين لأبي هريرة، روى عنه وعن وأبي سعيد والمغيرة بن شعبة.

الحدث الخامس: ويبدو أنها رواية أخرى موضوعة، فعن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع، من بني عدي بن النجار، قال: (**كان المسلمون قد أصابتهم مجاعةٌ شديدة، فكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه، فأرسلت**

---

١. هذا الشعار كان بتوصية مسبقة من النبي للمسلمين، ولكن يبدو أنهم غفلوا عن ذلك، ففي الخبر المروي بأسناد عدة: (إن بيّتكم العدو فقولوا: حم لا يُنصَرون).

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٦.

٣. ن.م.

٤. ن.م. ص ١٨٧.

عَمْرة بنت رواحة

عَمْرة بنت رواحة الأنصارية، أخت عبد الله بن رواحة الشهيد بمؤتة، وهي أم النعمان بن بشير الأنصاري والي يزيد على الكوفة قبل أن يُعزل ليحل عبيدالله بن زياد محله.

عَمْرة بنت رواحة ابنتها بجفنة تمرٍ عجوةٍ في ثوبها، فقالت: يا بنية، اذهبي إلى أبيك بشير بن سعد، وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما. فانطلقت الجارية حتى تأتي الخندق، فتجد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جالساً في أصحابه وهي تلتمسهما، فقال: تعالي يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: بعثتني أمي إلى أبي وخالي بغدائهما. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هاتيه! قالت: فأعطيته فأخذه في كفيه، ثم أمر بثوبٍ فبسط له، وجاء بالتمر فنشره عليه فوق الثوب، فقال لجعال بن سراقة: ناد بأهل الخندق أن هلم إلى الغداء. فاجتمع أهل الخندق عليه يأكلون منه، حتى صدر أهل الخندق وإنه ليفيض من أطراف الثوب)[1].

هذا الخبر وإن احتوى على كرامة للنبي «صلى الله عليه وآله» إلا أن تصرّفه بالتمر المرسل إلى أشخاص بعينهم لا يتناسب وسلوكه الشرعي والأخلاقي.

وقد أحسن د. عدنان فرحان آل قاسم في كتابه «دروس في السيرة النبوية» حيث قال: **(هذه الكرامات والخوارق والتي يسميها البعض تسامحاً بالمعاجز، لا يمكن إنكارها بالكامل، أو تفسيرها تفسيراً مادياً لا تنسجم مع واقعها، أو مع شخصية النبي «صلى الله عليه وآله» المؤيد من السماء والمسدد بالمؤيدات الإلهية. وكيف يمكننا إنكارها على كثرتها وبعد ورودها في عيون مراجع السيرة وتضمنتها كتب الحديث والصحاح وكشف واقع المسلمين المستقبلي عن كثير منها، من قبيل ما أخبر به «صلى الله عليه وآله» من فتح اليمن والشام والمغرب والمشرق، أو ما فتح الله على المسلمين من قصور كسرى وقيصر... إلا أن الذي ينبغي أن نؤكد عليه هو ضرورة التثبت والتدقيق فيما ينسب إلى النبي «صلى الله عليه وآله» من كرامات وأمور خارقة، والتأكد من رواتها ودلالاتها ومضامينها، وأن لا ننجر في بيان سيرته المعطاءة إلى النزعة التي سار عليها بعض المتصوفة والدراويش وأصحاب الطرق)**[2].

* محاولة لتفكيك الأحزاب:

سعى النبي إلى تفكيك التحالف القائم بين الأحزاب وتمزيق وحدة صف الأحزاب لتخفيف الضغط القائم بالحصار المستمر على المدينة المنورة، وكانت محاولته الأولى محاطة بشئ من الكتمان.. إذ أرسل إلى عُيينة بن حِصن والحارث بن عوف قائلاً: **(أرأيت إن جعلتُ لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف تمر المدينة. فأبى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك)**.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٧.
٢. آل قاسم: دروس في السيرة النبوية، ج٢، ص٤٧٠-٤٧١.

جاء الرجلان في عشرةٍ من قومهما بحسب الاتفاق القائم، واستدعى النبي عثمان بن عفان ليكتب الاتفاق، وحضر جمع من الصحابة، وعبّاد بن بشر قائم على رأس رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو مقنَّعٌ في الحديد.

فأقبل أُسيد بن حضير إلى رسول الله ولا يدري بما سبق واتُّفِق عليه، فشاهد عيينة مادًا رجليه بين يدي رسول الله، وعلم ما يريدون، فقال: (**يا عين الهجرس**[1] **اقبض رجليك. أتمد رجليك بين يدي رسول الله؟**) ثم هدده برمح كان بيده، ثم أقبل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: (**يا رسول الله، إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف. متى طمعوا بهذا منا؟**).

سكت النبي وقرر مشاورة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وهو متكئٌ عليهما، والقوم جلوسٌ، فتكلم بكلام يخفيه، وأخبرهما بما قد أراد من الصلح. فقالا: (**إن كان هذا أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمَر فيه ولك فيه هوىً فامض لما كان لك فيه هوىً، فسمعاً وطاعةً، وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف**).

قدّم النبي للرجلين تبريره لهذه المحاولة، قال: (**إني رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم. فقالا: يا رسول الله، إن كانوا ليأكلون العلهز**[2] **في الجاهلية من الجَهد ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرةً إلا بِشرى أو قِرى**[3]**. فحين أتانا الله «تعالى» بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نُعطي الدنية؟! لا نعطيهم أبداً إلا السيف**).

وإذ لم يجد منهما أية استجابة، قرر النبي التراجع عن الاتفاق، وأمر سعد بن معاذ بشق الكتاب، فتفل فيه سعد وشقه وقال: (**بيننا السيف. فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خيرٌ لكم من الخطة التي أخذتم، وما لكم بالقوم طاقة. فقال عباد بن بشر: يا عيينة، أبالسيف تخوّفنا؟ ستعلم أينا أجزع! وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرمّة**[4] **من الجَهد، فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قِرىً أو شرىً، ونحن لا نعبد شيئاً. فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد «صلى الله عليه وسلم» سألتمونا هذه الخطة! أما والله، لولا مكان رسول الله ما وصلتم إلى قومكم. فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: ارجعوا، بيننا السيف. رافعاً صوته**).

أثّر الموقف السابق في سيدي غطفان، وهز قناعتهما بالاستمرار في الحرب ورجعا يقولان: (**والله، ما نرى أن ندرك منهم شيئاً. ولقد أُنهِجت للقوم بصائرهم**[5]**، والله، ما حضرْتُ إلا كرهاً لقوم غلبوني. وما مقامنا بشيءٍ. مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا على محمدٍ عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها. قال عيينة: هو والله ذلك. قال**

١. الهجرس ابن الثعلب أو القرد.

٢. العلهز: طعام يتخذونه في سني المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون فيه القردان.

٣. أي أن يشتروا منا أو نضيّفهم.

٤. الرمة: العظام البالية.

٥. أي أن المسلمين على بصيرة من أمرهم.

الحارث: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد، والله لئن ظهرت قريشٌ على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد أمراً ظاهراً. والله، لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم على صفته. قال عيينة: إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها. ولكني كنت أطمع أن تأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكرٌ مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة. مع أنا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما ها هنا. قال الحارث: قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف؛ والله لتقاتلن عن هذا السعف. ما بقي منها رجلٌ مقيم وقد أجدب الجناب[1] وهلك الخف والكراع. قال عيينة: لا شيء).

عاد الرجلان من حيث أتيا، وجاءتهما غطفان فقالوا: **(ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر؛ رأينا قوماً على بصيرةٍ وبذل أنفسهم دون صاحبهم، وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريشٌ تنصرف ولا تكلم محمداً! وإنما يقع حر محمدٍ ببني قريظة؛ إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعةً حتى يعطوا بأيديهم. قال الحارث: بعداً وسحقاً. محمدٌ أحب إلينا من اليهود)**[2].

❋ محاولة أخرى:

المحاولة الثانية لتفكيك التحالف لها علاقة برجل من قبيلة أشجع الغطفانية، واسمه نُعيم بن مسعود، والقصة مروية بصورتين، الأولى تُظهره في هيئة البطل المخطِّط والماكر الذي ينجح في فك عُرى الأحزاب، والثانية تُظهره قائماً بهذا الدور لا عن وعي منه ولا تخطيط.. ولنسلط الضوء على الروايتين، حيث يروي هو الأولى.

الصورة الأولى للقصة: في مغازي الواقدي أنه قال: **(كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال، وكنا قوماً عرباً، لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاةٍ وبعير. فكنت أقدم على كعب بن أسد، فأقيم عندهم الأيام، أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم، ثم يحملونني تمراً على ركابي ما كانت، فأرجع إلى أهلي. فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» سرت مع قومي، وأنا على ديني، وقد كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عارفاً**[3] **فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع، وقذف الله «عز وجل» في قلبي الإسلام. وكتمت قومي إسلامي، فأخرج حتى آتي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بين المغرب والعشاء وأجده يصلي، فلما رآني جلس ثم قال: ما جاء بك يا نعيم؟ قلت: إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق، فمرني بما شئت يا رسول الله، فوالله لا تأمرني إلا مضيت له؛ قومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم. قال: ما استطعت**

١. أي سيكونون أشد في القتال دفاعاً عن نخيلهم بسبب الجدب.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٨٨-١٨٩.

٣. كأن في العبارة خللاً، ولعل الصحيح ما جاء في مصدر آخر وأنا على ديني ذلك، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» بي عارفاً.

أن تخذّل الناس فخذّل! قال، قلت: أفعل، ولكن يا رسول الله أقول فأذن لي، قال: قل ما بدا لك فأنت في حل).

وهكذا توجه نُعيم لبني قريظة الذين يعرفونه جيداً، قال: **(فذهبت حتى جئت بني قريظة، فلما رأوني رحبوا وأكرموا وحيوا وعرضوا علي الطعام والشراب، فقلت: إني لم آت لشيءٍ من هذا؛ إنما جئتكم نصباً بأمركم، وتخوفاً عليكم؛ لأشير عليكم برأي، وقد عرفتم ودي إياكم وخاصةً ما بيني وبينكم. فقالوا: قد عرفنا ذلك وأنت عنندنا على ما تحب من الصدق والبر. قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: إن أمر هذا الرجل بلاء ـ يعني النبي «صلى الله عليه وسلم» ـ صنع ما قد رأيتم ببني قينقاع وبني النضير، وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال. وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لنصركم، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون، وإنكم والله، ما أنتم وقريشٌ وغطفان من محمدٍ بمنزلةٍ واحدة؛ أما قريشٌ وغطفان فهم قومٌ جاءوا سيارةً حتى نزلوا حيث رأيتم، فإن وجدوا فرصةً انتهزوها، وإن كانت الحرب، أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم. وأنتم لا تقدرون على ذلك، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وقد غلظ عليهم جانب محمد، أجلبوا عليه أمس إلى الليل، فقتل رأسهم عمرو بن عبد، وهربوا منه، مجرَّحين وهم لا غناء بهم عنكم؛ لما تعرفون عندكم. فلا تقاتلوا مع قريشٍ ولا غطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمداً. قالوا: أشرت بالرأي علينا والنصح. ودعوا له وتشكروا، وقالوا: نحن فاعلون. قال: ولكن اكتموا عني. قالوا: نعم، نفعل).**

ثم خرج إلى أبي سفيان وهو متواجد في رجالٍ من قريشٍ فقال نُعيم: **(يا أبا سفيان، قد جئتك بنصيحةٍ فاكتم عني. قال: أفعل. قال: تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وأرادوا إصلاحه ومراجعته. أرسلوا إليه وأنا عندهم: إنا سنأخذ من قريشٍ وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون بني النضير ـ ونكون معك على قريشٍ حتى نردهم عنك. فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً. قالوا: لا نذكره).**

وانتقل نُعيم بعد ذلك إلى الطرف الثالث، غطفان فقال لهم: **(يا معشر غطفان، إني رجلٌ منكم فاكتموا عني، واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد ـ وقال لهم مثل ما قال لقريش ـ فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم. وكان رجلاً منهم فصدقوه).**

وهكذا ـ بحسب الرواية ـ استطاع نُعيم أن يثير الشكوك بين الأطراف الرئيسة في التحالف، وأرسلت اليهود غزّال بن سموأل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش متسائلين عن السر في تباطيء قريش وغطفان في الهجوم، ومطالبين برهائن من رجالاتهم يمكثون في وسط اليهود إلى حين تنفيذ الهجوم. وقالوا: **(فإنا نخاف**

إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا محمداً بالعداوة). سكت رجال قريش، ولم يردوا بشيء، وأصبح مطمئنين من صحة كلام نعيم، الذي قام بدوره بالذهاب إلى اليهود يخبرهم أن أباسفيان قال بعد مغادرة غزّال: **(لو طلبوا مني عناقاً ما رهنتها**[1]**. أنا أرهنهم سراة أصحابي يدفعونهم إلى محمدٍ يقتلهم؟)**. وتوجه نعيم بالخطاب إليهم متظاهراً بالنصح: **(فارتأوا آراءكم حتى تأخذوا الرهن، فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً وانصرَف أبو سفيان تكونوا على مواعدتكم الأولى)**. وابتلع اليهود الطعم وقالوا: **(ترجو ذلك يا نعيم؟ قال: نعم. قال كعب بن أسد: فإنا لا نقاتله. والله، لقد كنت لهذا كارهاً ولكن حيي رجلٌ مشئوم. قال الزبير ابن باطا: إن انكشفت قريش وغطفان عن محمدٍ لم يقبل منا إلا السيف)**.

واستمر الحوار بين المتواجدين وقد عزموا على إنهاء تحالفهم مع قريش وغطفان، ومن جهة أخرى اتخذت قريش قرارها بترك ساحة المعركة بعد التأكد من الموقف النهائي لقريظة. فلما كان ليلة السبت قال أبو سفيان: **(يا معشر قريش، إن الجناب قد أجدب، وهلك الكراع والخف، وغدرت اليهود وكذبت، وليس هذا بحين مقامٍ فانصرفوا! قالت قريش: فاعلم علم اليهود واستيقن خبرهم)**.

توجه عكرمة بن أبي جهل لبني قريظة عند غروب شمس يوم الجمعة، وطالبهم بالقتال صبيحة السبت، فرفضوا لأنهم لا يُقدمون على عمل في مثل هذا اليوم المخصص للعبادة، بل إنهم لن يقاتلوا بعد السبت إلا بشرط حضور الرهائن عندهم. فعاد عكرمة إلى قومه قائلاً: **(أحلف بالله إن الخبر الذي جاء به نعيم حقٌّ، لقد غدر أعداء الله)**. وقامت غطفان بدورها باستطلاع موقف بني قريظة، فوجدت جواباً مشابهاً، واقتنع بنو قريظة بأن قريشاً وغطفان قررتا الانسحاب من أرض المعركة.

وروي أن قريشاً ـ وللمزيد من التأكد ـ أرسلت موفداً آخر، فعاد بمثل ما عاد به عكرمة، وازدادت قناعة بني قريظة بالخذلان، وهكذا الأمر بالنسبة إلى غطفان.

قام أبوسفيان بدوره بلوم حُيي بن أخطب باعتباره الوسيط مع بني قريظة، فخرج إليهم حُيي محاولاً ثنيهم عن الشرط الذي ذكروه، ولكنه عاد بخُفّي حُنين، ونجح نعيم في خطته، وكان يقول: **(أنا خذّلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه، وأنا أمين رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على سرِّه، فكان صحيح الإسلام بعدُ)**[2].

الصورة الثانية للقصة: وهي مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الأولى، حيث تقول أن بني قريظة أرسلت إلى أبي سفيان بن حرب **(أن ائتونا، فإنا سنغير على بيضة المسلمين من ورائهم)**. فسمع ذلك نُعيم بن مسعود الذي

---

١. العناق: الأنثى من أولاد المعز.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٠-١٩١.

كان حاضراً برفقة عُيينة. ولأنه ـ من جهة ـ كان موادعاً للنبي «صلى الله عليه وآله»، ومن جهة أخرى يحب نقل الكلام، أقبل نعيم إلى رسول الله فأخبره بما سمع، فاستغل النبي الموقف بفطنته ومعرفته بطبيعة نُعيم فقال: **(لعلنا أمَرْنا بذلك)**. لم يتمالك نُعيم نفسه، وسارع بالذهاب إلى غطفان ليخبرهم بما سمع.

استغرب الخليفة عمر بن الخطاب كلام النبي وقال: **(يا رسول الله، ما هذا الذي قلت؟ إن كان أمراً مِن أمر الله فأمضه، وإن كان هذا رأياً رأيتَه مِن قِبَل نفسك فإن شأن بني قريظة أهون من أن تقول شيئاً يُؤثَر عنك. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: بل هذا رأي. إن الحرب خدعة)**[1].

ثم أرسل «صلى الله عليه وآله» في أثر نُعيم إمعاناً في الأمر وقال له: **(أرأيتك الذي سمعتني أذكره آنفاً؟ أمسكت عنه، فلا تذكره لأحد[2])**. فانصرف نعيم حتى جاء عيينة بن حصن ومَن معه فقال لهم: **(هل علمتم أن محمداً قال شيئاً قط إلا حقاً؟ قالوا: لا. قال: فإنه قد قال لي فيما أرسلت به إليكم بنو قريظة: فلعلنا نحن أمرناهم بذلك. ثم نهاني أن أذكر لكم)**. انطلق عيينة حتى لقي أبا سفيان فأخبره فقال: **(إنما أنتم في مكرٍ من بني قريظة)**[3].

وفكر أبوسفيان في طريقة للتأكد من الأمر فقال: **(نرسل إليهم الآن فنسألهم الرهن، فإن دفعوا الرهن إلينا فقد صدقونا، وإن أبوا ذلك فنحن منهم في مكر. فجاءهم رسول أبي سفيان فسألهم الرهن ليلة السبت[4] فقالوا: هذه ليلة السبت ولسنا نقضي فيها ولا في يومها أمراً، فأمهل حتى يذهب السبت. فخرج الرسول إلى أبي سفيان فقال أبو سفيان، ورءوس الأحزاب معه هذا مكر من بني قريظة، فارتحلوا فقد طالت إقامتكم. فآذنوا الرحيل)**[5].

❊ دعاء وريح عاتية:

روى جابر بن عبد الله، قال: **(دعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على الأحزاب في مسجد الأحزاب[6] يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء. قال: فعرفنا السرور في وجهه. قال جابر: فما نزل بي أمرٌ غائظٌ مهمٌّ إلا تحيَّنت تلك الساعة من ذلك اليوم، فأدعو الله فأعرف الإجابة)**.

وعنه قال: **(قام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على الجبل الذي عليه المسجد، فدعا في إزارٍ ورفع يديه مداً،**

---

١. الجصاص: أحكام القرآن، ج٤، ص٣٩٣.

٢. وفي رواية: اسكت عنه فلا تذكره، وهو الأوفق.

٣. السيوطي: اللمع في أسباب ورود الحديث، ج١، ص٩٣.

٤. يقال أن حُيي بن أخطب قال لأبي سفيان: أنا آخذ لك من بني قريظة سبعين رجلاً رهناً عندك حتى يخرجوا فيقاتلوا، فهم أعرف بقتال محمد وأصحابه.

٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٣.

٦. لم يكن هناك مسجد حينئذ، ولكن المقصود ما اتخذ مسجداً لاحقاً.

ثم جاءه مرةً أخرى فصلى ودعا). ويقال إنه صلى في تلك المساجد كلها التي حول المسجد الذي فوق الجبل... وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا اشتدّ الأمر عليه، أكثر الصلاة [١].

وروى سعيد بن المسيب بعض ما جاء في دعاء النبي «صلى الله عليه وآله» حيث قال: **(حُصِر النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابُه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكَرْب، وحتى قال النبي «صلى الله عليه وسلم»: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد)** [٢].

وعن عبدالله بن أبي أوفى أن النبي قال في دعائه: **(اللهمّ مُنزلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)** [٣].

وروى أيضاً عن أبي هريرة: **(أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كان يقول: لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شئ بعده)** [٤].

واستجاب الله لنبيه: **(لما كان ليلة السبت بعث الله الريح فقَلعت)**. وفي نص آخر: **(وبعث الله «عزوجل» عليهم الريح، حتى ما يكاد أحدهم يهتدي لموضع رحله)** [٥].

قال الله «عزوجل» مخبراً عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [٦].

* نهاية الغزوة:

قرر النبي «صلى الله عليه وآله» بعد ذلك أن يستطلع ما اتفق عليه المشركون بعد هبوب الريح والتطورات المختلفة التي صبت في صالح المسلمين، وذلك عن طريق إرسال حذيفة بن اليمان سراً ليندس في وسطهم، ولندع الصحابي حذيفة يخبرنا بما جرى، قال: **(لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في ليلةٍ شديدة البرد، قد اجتمع علينا البرد والجوع والخوف، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مَن رجلٌ ينظر لنا ما فعل القوم جعله الله رفيقي في الجنة؟ فقال حذيفة: يشرط له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الجنة والرجوع. فما قام منا رجلٌ. ثم عاد يقول ذلك ثلاث مرات، وما قام رجلٌ واحدٌ من شدة الجوع والقر والخوف. فلما رأى**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٣-١٩٤.
٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح١٦٤٠.
٣. المقريء: معجم مشايخ أبي علي الحداد، ح٤٤.
٤. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح٣٨٣٠.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٣- ١٩٤.
٦. سورة الأحزاب:٦.

رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ذلك لا يقوم أحد، دعاني فقال: يا حذيفة. قال: فلم أجد بُدّاً من القيام حين فوّه باسمي، فجئته ولقلبي وَجَبان [1] في صدري، فقال: تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟ فقلت: لا، والذي بعثك بالحق، إن قدرت على ما بي من الجوع والبرد. فقال: اذهب فانظر ما فعل القوم، ولا ترمين بسهمٍ ولا بحجر، ولا تطعن برمح، ولا تضربن بسيفٍ حتى ترجع إلي. فقلت: يا رسول الله، ما بي يقتلوني، ولكني أخاف أن يُمثّلوا بي. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ليس عليك بأس. فعرفت أنه لابأس علي مع كلام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الأول. ثم قال: اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يقولون. فلما ولّى حذيفة قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اللهم، احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته. فدخل عسكرهم فإذا هم يصطلون على نيرانهم؛ وإن الريح تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قراراً ولا بناء. فأقبلتُ فجلستُ على نارٍ مع قوم، فقام أبو سفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجلٍ جليسَه).

وبكل ذكاء بادر حذيفة بالسؤال لمن يجلس على جانبيه كي لا يُسأل، قال: (فالتفتُّ إلى عمرو بن العاص فقلت: من أنت؟ وهو عن يميني. فقال: عمرو بن العاص. والتفتُّ إلى معاوية بن أبي سفيان فقلت: من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان. ثم قال أبو سفيان: إنكم والله لستم بدار مقام؛ لقد هلك الخف والكراع، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون. والله، ما يثبت لنا بناءٌ ولا تطمئن لنا قدر، فارتحلوا فإني مرتحل). وهكذا قرر أبوسفيان الرحيل على عجل، فجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام، وما ذاك إلا لشدة الريح والخوف من انطلاق البعير قبل أن يستوي به المقام عليه. قال حذيفة راوي الحديث: (ولولا عهد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إليَّ: «لا تُحدث شيئاً حتى تأتي» ثم شئت، لقتلته).

لم يرتضِ عكرمة بهذا القرار ووقف محتجاً منادياً: (إنك رأس القوم وقائدهم، تقشع وتترك الناس؟ فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه، وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا! قال: فجعل الناس يرتحلون وهو قائمٌ حتى خفَّ العسكر، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لابد لي ولك أن نقيم في جريدةٍ من خيلٍ [2] بإزاء محمدٍ وأصحابه، فإنا لا نأمن أن نطلب حتى ينفذ العسكر. فقال عمرو: أنا أقيم. وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أقيم). فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل. وتوجه حذيفة إلى غطفان لاستطلاع موقفهم فوجدهم قد ارتحلوا أيضاً.

وكان الخوف من هجوم المسلمين قد دفعت تشكيلات غطفان المتنوعة إلى عدم التفرق أثناء ارتحالهم عن

١. وجبان: خفقان.

٢. الجريدة: قوة عسكرية على الخيل لا رجّالة فيها.

المنطقة إلا بعد مسافة طويلة، قال الواقدي: (**وكانت غطفان لما ارتحلت وقف مسعود بن رخيلة في خيلٍ من أصحابه، ووقف الحارث بن عوف في خيلٍ من أصحابه، ووقف فرسان من بني سليم في أصحابهم، ثم تحملوا جميعاً في طريقٍ واحدة، وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المِراض**[1] **ثم تفرقت كل قبيلةٍ إلى محالها**)[2]. وأقامت الخيل حتى كان السَّحَر، ثم مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بمَلل، فغدوا إلى السيّالة.

وأما مثير الفتنة اليهودي حُيي بن أخطب فإنه في البداية خرج معهم خوفاً من اتهامه بالخيانة حتى بلغ الروحاء[3] ـ وكان قد عاهد بني قريظة أن يعود إليهم ـ فتسلل منها، وعاد باتجاه المدينة المنورة، ودخل مع بني قريظة حصنهم ليلاً.

* رسالة أبي سفيان:

ونشير هنا إلى أن بعض المصادر تذكر أن أباسفيان أبى قبل المغادرة إلا أن يبعث برسالة وقحة إلى النبي «صلى الله عليه وآله» محاولاً التغطية على شيء من الهزيمة التي تحققت إذ رجع المشركين بخفّي حُنين ولم تتحقق لهم مآربهم الشيطانية على الرغم من كل التخطيط والمال المبذول والجمع المحشود. وجاءت الرسالة كالتالي: (**باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى، لقد سرت إليك في جمعنا، وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك، فرأيتك قد كرهت**

كانت مَلَل مكاناً للرّاحة، لأنها تقع في الوسط بين المدينة والسيالة، فالمغادر والقادم إلى المدينة يرتاح في مَلَل قبل مواصلة المسير. وبملل آبار كثيرة. وتقع السيالة إلى الغرب من المدينة، على الطريق إلى مكة واستمر هذا الطريق عبر مئات السنين. وكانت السيالة هي المرحلة الأولى للذاهب إلى مكة من المدينة. ونظراً لشهرة السيالة، ولجمال موقعها، وقربها من المدينة، فقد سكنها الناس، وخاصة من القبائل المجاورة لها مثل أسلم وغفار ومزينة، كما سكنها أشراف الناس من الباحثين عن الاستجمام والاسترخاء، وممارسة رياضة الصيد والتنزه في البرية، ومن المشهورين الذين سكنوا السيالة الشاعر إبراهيم بن هَرَمَة، وكثير عزة. اتخذها عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى بن علي بن أبي طالب وأولاده مسكناً. وبالقرب من السيالة مسجد للنبي صلى فيه، وعنده قبور قديمة كانت مدفن أهل السيالة، والمقبرة عُرفت فيما بعد بمقبرة الشهداء واشتُهرت بهذا الاسم حتى وقتنا الحالي عند سكان تلك المنطقة، قال السمهودي عنها: (وتلك القبور التي عند المسجد مشهورة بقبور الشهداء، ولعله يكون بعضهم دُفن فيها ممن قُتل ظلماً من الأشراف الذين كانوا بالسيالة وسويقة).

١. على بعد ٦٥ كم من المدينة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ١٩٤.
٣. وهي أبعد من السيالة بـ ٢٠ كم في الطريق إلى مكة.



لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علّمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يومٌ كيوم أحد، تَبقر فيه النساء[1]).

ولما استلم النبي الرسالة دعا أبيَّ بن كعب، فدخل معه قبته، فقرأ عليه كتاب أبي سفيان. وكتب إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (**من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب، أما بعد، فقديماً غرَّك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمرٌ الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى. وأما قولك: مَن علَّمك الذي صنعنا من الخندق، فإن الله ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يومٌ تدافعني بالراح**[2] **وليأتين عليك يومٌ أكسر فيه اللات، والعزى، وإساف، ونائلة، وهبل، حتى أذكّرك ذلك**)[3].

* عودة المقاتلين المسلمين:

اختلف المؤرخون في تحديد مدة الحصار، فقيل بضعة عشر يوماً، وقيل عشرون يوماً، وقيل خمسة وعشرون يوماً، وقيل خمسة عشر يوماً. وقد اختار الواقدي القول الأخير معتبراً إياه أثبت تلك الأقوال.

وقد صدر الأمر بعودة المقاتلين المسلمين إلى بيوتهم بعد التثبّت من مغادرة الأحزاب نهائياً: (**فلما أصبح رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالخندق أصبح وليس بحضرته أحدٌ من العساكر، قد هربوا وذهبوا. وجاء رسول**

---

١. وهو بذلك يشير إلى تكرار ما فعلته زوجته هند بحمزة عم النبي.

٢. لعله إشارة إلى عدم قدرته على القتال إذ لن يتمكن من استخدام السلاح بل سيدافع النبي براحتيه أي بكفيه .

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٥.

الله «صلى الله عليه وآله»، الثبت أنهم انقشعوا إلى بلادهم، ولما أصبحوا أذن رسول الله «صلى الله عليه وآله» للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك).

إلا أن بعض المصادر التأريخية تتحدث عن قلق ساور النبي لاحقاً حين شاهد سرعة ترك المسلمين لمواقعهم وعودتهم إلى بيوتهم، ويعود قلقه هذا إلى عدة أسباب ستتبين لنا من خلال النصوص القادمة.

لذا سارع «صلى الله عليه وآله» بالنداء آمراً المسلمين بالعودة إلى مواقعهم: (**وكره رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم**) فيشعرون بالأمان من فعلتهم أو يتخذون موقفاً في غير صالح المسلمين (**فأمر بردِّهم، وبعث من ينادي في أثرهم، فما رجع رجلٌ واحد**).

وممن أمره النبي بأن ينادي في المسلمين بالعودة عبدالله بن عمر، قَال: (**فجعلت أصيح في أثرهم في كل ناحية: إن رسول الله أمركم أن ترجعوا، فما رجع رجلٌ واحدٌ منهم من القر والجوع. فكان يقول: كره رسول الله «صلى الله عليه وآله» يرى سرعتهم، وكره أن يكون لقريشٍ عيون**) الأمر الذي قد تستغله قريش في معاودة الهجوم بغتة.

وقال جابر بن عبد الله: (**أمرني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن أردهم، فجعلت أصيح بهم فما يرجع أحد، فانطلقت في أثر بني حارثة، فوالله ما أدركتهم حتى دخلوا بيوتهم، ولقد صحت فما يخرج إلي أحدٌ من جهد الجوع والقر**)[1].

و يبدو أن هذه النصوص تتعارض مع الخبر الأول الذي ينص على أن النبي هو الذي سمح لهم بالمغادرة صباحاً، فكيف لم يفكّر منذ البداية بخطورة الأمر وحساسيته؟ ولعل النص الأول في حد ذاته غير دقيق في تفاصيله، وأن المسلمين غادروا الموقع بأنفسهم صباحاً حين شاهدوا مغادرة الأحزاب لساحة المواجهة.

❋ شهداء الغزوة:

روي أن شهداء المسلمين في هذه الغزوة:

من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، رماه حَبّان بن العَرِقة فمات، ويقال رماه أبو أسامة الجشمي؛ وأنس ابن أوس بن عتيك، قتله خالد بن الوليد، رماه بسهم؛ وعبد الله بن سهل الأشهلي، رماه رجل من بني عويف فقتله. ومن بني سلمة: الطفيل بن النعمان. قتله وحشي، وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي، قتله هبيرة بن أبي وهب المخزومي. ومن بني دينار: كعب بن زيد، قتله ضرار بن الخطاب. ولذا قيل: (**فجميع من استشهد من المسلمين ستة نفر**).

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٦.

وأما قتلى المشركين في الغزوة فثلاثة نفر هم: عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود، قتله علي بن أبي طالب؛ ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، قتله الزبير بن العوام، ويقال علي بن أبي طالب. ومن بني عبد الدار: عثمان بن منبه بن عبيد بن السباق، مات بمكة من رمية رميها يوم الخندق[١].

* حصار بني قريظة:

اتخذ النبي «صلى الله عليه وآله» قراراً فورياً بعد انتهاء غزوة الأحزاب بمحاصرة بني قريظة لخيانتهم، وإنزال العقوبة بهم، وفي بعض الأخبار أن جبريل «عليه السلام» هو الذي طلب من النبي أن يبادر لذلك، وأن الملائكة التي نصرته في الخندق تنتظر نصرته في قتاله لبني قريظة: (**فلما دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» المدينة واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرئيل: عذيرك من محارب، والله ما وضعت الملائكة لامتها**[٢]، **فكيف تضع لامتك؟ إن الله يأمرك أن لا تصلي العصر إلا ببني قريظة، فإني متقدمك ومزلزل بهم حصنهم، إنا كنا في آثار القوم**[٣] **نزجرهم زجراً حتى بلغوا حمراء الأُسْد**[٤])[٥].

ولذا سار إليهم النبي «صلى الله عليه وآله» يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس. ولكن إذا قلنا بأن النبي توجه لحصارهم في نفس اليوم الذي ترك فيه المسلمون موقع الخندق، فلابد أن تكون مدة حصار الأحزاب للمدينة أطول مما ذُكر، أو أن نقول بخطأ هذا التاريخ المحدد لحصار بني قريظة.

دعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» فدفع إليه اللواء، وكان اللواء على حاله لم يُحَلْ من مرجعه من الخندق، وبعث رسول الله بلالاً فنادى في الناس: (**إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يأمركم ألا تصلوا العصر إلا ببني قريظة**)[٦]. ثم لبس رسول الله السلاح والمغفر والدرع والبيضة، وأخذ قناة بيده، وتقلد الترس وركب فرسه، وحف به أصحابه وتلبسوا السلاح وركبوا الخيل، وكانت ستة وثلاثين فرساً، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد قاد فرسين وركب واحداً، يقال له اللحيف، فكانت ثلاثة أفراس معه.

وهكذا وصل النبي وأصحابه إلى منازل بني قريظة المحصَّنة، وروى أبوقتادة ما جرى في تلك اللحظات،

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٦.
٢. وهل تحتاج الملائكة إلى لامات؟ إن صح الخبر فالمعنى كنائي.
٣. أي الأحزاب.
٤. جنوب غرب المدينة وتبعد ١٥كم تقريباً.
٥. القمي: تفسير القرآن، ج٢، ص ١٨٩.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٧.

قال: (انتهينا إليهم فلما رأونا أيقنوا بالشر، وغرز علي «رضي الله عنه» الراية عند أصل الحصن، فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأزواجه. قال أبو قتادة: وسكتنا وقلنا: السيف بيننا وبينكم. وطلع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فلما رآه علي «رضي الله عنه» رجع إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأمرني أن ألزم اللواء فلزمته، وكره أن يسمع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أذاهم وشتمهم).

وصدر الأمر من النبي «صلى الله عليه وآله» برميهم بالنبل بكثافة فارتعبوا، وقد روي عن سعد بن أبي وقاص وهو أحد الرماة وصف تلك الساعة، قال: (قال لي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يا سعد، تقدم فارمهم. فتقدمت حيث تبلغهم نبلي، ومعي نيف على الخمسين، فرميناهم ساعة وكأن نبلنا مثل جراد، فانجحروا فلم يطلع منهم أحد. وأشفقنا على نبلنا أن يذهب، فجعلنا نرمي بعضها ونمسك البعض)[1].

وقبيل فجر اليوم الثاني: قدّم رسول الله «صلى الله عليه وآله» الرماة من جديد، وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصونهم من كل ناحية، فجعل المسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضهم بعضاً، فما برح رسول الله يراميهم حتى أيقنوا بالهلكة، وقد استمر الرمي إلى الليل.

* بدء المفاوضات:

لما أيقن اليهود أن لا مفر لهم وأن الحصار شديد، طالبوا بالتفاوض، فوافق النبي، وأرسلوا نبّاش بن قيس، ففاوض رسول الله «صلى الله عليه وآله» وقدّم العرض التالي: (ننزل على ما نزَلت عليه بنو النضير؛ لك الأموال والحلَقة، وتحقن دماءنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة).

رفض رسول الله العرض، فقدموا اقتراحهم البديل، قالوا: (فتحقن دماءنا وتسلّم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا، إلا أن تنزلوا على حُكمي).

رجع نباش إلى قومه بمقالة النبي، فقال كعب بن أسد: (يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبي الله، وما منَعَنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن نبياً من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله. ولقد كنتُ كارهاً لنقض العهد والعقد، ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس علينا [2] وعلى قومه، وقومه كانوا أسوأ منا. لا يستبقي محمد رجلاً واحداً إلا مَن تَبعَه. أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم فقال: تركت الخمر والخمير والتأمير، وجئت إلى السقاء والتمر والشعير؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: يخرج من هذه القرية نبي، فإن خرج وأنا حي اتبعتُه ونصرته، وإن خرج بعدي فإياكم أن تُخدعوا عنه، فاتّبِعوه وكونوا أنصاره وأولياءه، وقد

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٨.
٢. أي حيي بن أخطب.

آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر. قال كعب: فتعالوا فلنتابعه ولنصدقه ولنؤمن به، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا، فنكون بمنزلة من معه. قالوا: لا نكون تبعا لغيرنا، نحن أهل الكتاب والنبوة، ونكون تبعاً لغيرنا؟ فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم. قالوا: لا نفارق التوراة ولا ندع ما كنا عليه من أمر موسى. قال: فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج في أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه. فإنْ قتلَنا قتلَنا وما وراءنا أمر نهتم به، وإن ظفرْنا فلعمري لنتخذن النساء والأبناء. فتضاحك حيي بن أخطب ثم قال: ما ذنب هؤلاء المساكين؟).

وافق اليهود حُيياً، فاقترح كعب أمراً آخر، قال: **(الليلة السبت، وبالحري أن يكون محمد وأصحابه آمنين لنا فيها أن نقاتله، فنخرج فلعلنا أن نصيب منه غرّة. قالوا: نُفسد سبتَنا، وقد عرفت ما أصابنا فيه؟ قال حيي: قد دعوتك إلى هذا وقريش وغطفان حضور فأبيت أن تكسر السبت، فإن أطاعتني اليهود فعلوا. فصاحت اليهود: لا نكسر السبت. قال نباش بن قيس: وكيف نصيب منهم غرة وأنت ترى أن أمرهم كل يوم يشتد. كانوا أول ما يحاصروننا إنما يقاتلون بالنهار ويرجعون الليل، فكان هذا لك قولاً لو بيّتناهم. فهم الآن يبيتون الليل ويظلون النهار، فأي غرة نصيب منهم؟ هي ملحمة وبلاء كتب علينا. فاختلَفوا وسقط في أيديهم، وندموا على ما صنعوا، ورقّوا على النساء والصبيان، وذلك أن النساء والصبيان لما رأوا ضعف أنفسهم هلكوا، فبكى النساء والصبيان، فرقّوا عليهم)**[1].

❊ الاستسلام:

اقترح بعض بني قريظة اللجوء لحلفائهم الأوسيين لعلهم يتوسطون بينهم وبين النبي ليقبل بأحد عروضهم لإنهاء الحصار، فطلبوا من النبي أن يبعث إليهم أبولبابة بن عبدالمنذر، فأرسله رسول الله «صلى الله عليه وآله» إليهم، فلما رأوه قام إليه رجال بني قريظة وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم. ولكنه أعلمهم في النهاية أن لا مفر لهم إلا النزول عند حكم النبي.

وفي أثناء هذه الأحداث قرر ثلاثة نفر من اليهود الدخول في الإسلام، وكانوا أبناء عمومة لبني قريظة، وحاولوا ثني سائر اليهود عن جحودهم لنبوة النبي «صلى الله عليه وآله» فلم يجدوا استجابة منهم.

استمر الحصار قائماً حتى أجهدهم فاستسلموا، ونزلوا على حكم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وخرج مقاتلوهم أسرى بيد المسلمين، وأمر رسول الله بهم فكُتّفوا رباطاً، ونُحّوا ناحية، وأُخرجت النساء والذرية من الحصون، فكانوا ناحية، وأمر رسول الله بجمع أمتعتهم وما وُجد في حصونهم من السلاح والأثاث والثياب.

عن المسور بن رفاعة، قال: **(وجد فيها ألف وخمسمائة سيف، وثلثمائة درع، وألفا رمح، وألف وخمسمائة**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص١٩٩.

ترس وحجفة [١] وأخرجوا أثاثا كثيراً، وآنية كثيرة، ووجدوا خمراً وجِرار سَكَر [٢]، فهريق ذلك كله ولم يُخمَّس. ووجدوا من الجمال النواضح[٣] عدة، ومن الماشية، فجمع هذا كله.

* تدخّل الأوس:

لما كان الأوسيون حلفاء بني قريظة فيما مضى، تدخّلوا لصالحهم بقوة، وألحّوا على النبي «صلى الله عليه وآله» أن يجعلهم الحكام فيهم دون الخزرجيين، فوافق النبي على أن يكون الحكم فيهم أحد سادتهم، وهو سعد بن معاذ، وسعد يومئذ في المسجد في خيمة رفيدة ـ وقيل كعيبة ـ بنت سعد بن عتبة، وكانت تداوي فيها الجرحى.

وبدأ الأوسيون بالضغط على سعد لاتخاذ قرار هيّن في حق حلفاء الأمس، تارة بالكلام، وأخرى بتحيته تحية العظماء، وبغير ذلك من الأساليب، إلا أن ذلك كله لم يُثنِ سعداً ولم يؤثّر فيه، وفي الخبر أنهم: **(جاءوه، فحملوه على حمار بشندة من ليف، وعلى الحمار قطيفة فوق الشندة [٤] وخطامه حبل من ليف. فخرجوا حوله يقولون: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن، فقد رأيت ابن أُبي وما صنع في حلفائه. والضحاك بن خليفة يقول: يا أبا عمرو، مواليك، مواليك! قد منعوك في المواطن كلها، واختاروك على من سواك ورجوا عياذك، ولهم جمال وعدد. وقال سلمة بن سلامة بن وقش: يا أبا عمرو، أحسِن في مواليك وحلفائك؛ إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يحب البقية[٥]. نصروك يوم البعاث والحدائق والمواطن، ولا تكن شراً من ابن أُبيّ. وجعل قائلهم يقول: يا أبا عمرو، وإنا والله قاتلنا بهم فقتلنا، وعاززنا بهم فعززنا[٦]. قالوا: وسعد لا يتكلم، حتى إذا أكثروا عليه قال سعد: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم).**

يشيرون إلى ما جرى لبني قينقاع، فبعد أن حاصرهم النبي لنقضهم الميثاق ونزلوا على حكمه أمر بهم فَكُتِّفُوا، فقام عبدالله بن أُبيّ وطلب أن يُحسِن فيهم، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع النبي، وقال: والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي. أربع مائة حاسر، وثلاث مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فوهبهم النبي له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، وقبض منهم أموالهم، وخمس غنائمهم.

١. الحجفة: ترس جلدي ليس فيه خشب.
٢. السكر: كل ما يُسكر.
٣. النواضح: الإبل التي يُستقى عليها.
٤. الشندة: شبه السرج.
٥. أي الإبقاء على الحياة، لا القتل.
٦. أي أنهم طلبوا النصرة من بني قريظة في الماضي فنصروهم.

كانت هذه الكلمة من ابن معاذ بمثابة رصاصة الرحمة، إذ أدرك الأوسيون أن سيدهم سيصدر حكماً قاسياً بحق حلفاء الأمس، فتصايحوا وعبّروا عن حزنهم بكلمات شتى، وأقبل سعد إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والناس حوله جلوس، فلما طلع سعد قال رسول الله: **(قوموا إلى سيدكم. فكان رجال من بني عبدالأشهل يقولون: فقمنا له على أرجلنا صفين، يحييه كل رجل منا، حتى انتهى إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم». وقائل يقول: إنما عنى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بقوله «قوموا إلى سيدكم» يعني به الأنصار دون قريش. قالت الأوس الذين بقوا عند رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لسعد: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولّاك الحكم، فأحسِن فيهم واذكر بلاءهم عندك. فقال سعد بن معاذ: أترضون بحكمي لبني قريظة؟ قالوا: نعم، قد رضينا بحكمك وأنت غائب عنا، اختياراً منا لك ورجاء أن تمن علينا كما فعله غيرك في حلفائه من قينقاع، وأثرنا عندك أثرنا، وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك. فقال سعد: لا آلوكم جهداً. فقالوا: ما يعني بقوله هذا؟ ثم قال: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيكم ما حكمت؟ قالوا: نعم. فقال سعد للناحية الأخرى التي فيها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»: وعلى مَن هاهنا مثل ذلك؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ومَن معه: نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يُقتل مَن جرت عليه الموسى**[1]**، وتُسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال)**.

أبدى النبي ارتياحه لحكم سعد الذي لم يقع تحت تأثير قومه، ولم تأخذه في الله لومة لائم، ولذا سارع بقولته: **(لقد حكمت بحكم الله «عز وجل» من فوق سبعة أرقعة)**. قالوا: **(وكان سعد بن معاذ في الليلة التي في صبحها نزلت قريظة على حكم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد دعا فقال: اللهم، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أقاتل من قوم كذبوا رسول الله، وآذوه وأخرجوه! وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنا وعنهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتني حتى تقر عيني من بني قريظة)**[2] وتحقق له ذلك.

واستشهد سعد عقيب هذه الغزوة متأثراً بجراحه، ووردت عدة روايات حول وفاته ودفنه وتشييعه من قبل الملائكة وترحّم النبي عليه.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هزيمة بني قريظة وما جرى لهم حيث قال «سبحانه»: ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾[3].

---

١. أي مَن كان منهم في سن البلوغ. وسنتحدث لاحقاً عن قتل رجال بني قريظة والشبهة المثارة حول هذا الموضوع.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠٣.

٣. سورة الأحزاب: ٢٦-٢٧.

* شبهات وردود:

صوّر بعض المستشرقين وقائع ما جرى على بني قريظة بصورة المأساة الإنسانية، وأن مصدرها حقد النبي والمسلمين على اليهود، وأعطوها بُعداً دينياً بحتاً، متناسين حقيقة أن القضية انطلقت من خيانتهم وإعلانهم الحرب على النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين بأبشع صورة تتمثل في خيانة المواثيق والطعن في الظهر. وفي ما يلي صور من كلمات المستشرقين والردود عليها:

كتب المستشرق الفرنسي «إميل درمنغم» Emile Dermenghem في كتابه «حياة محمد»: (**وكان اليهود يطمعون أن يرأف سعدٌ بهم، وكان النبي يعلم أن سعداً الذي جُرح في غزوة الخندق جرحاً خطيراً، حاقد على اليهود كثيراً لما أدّوا إليه من إيقاد تلك الغزوة**)[1].

وكتب المستشرق «إسرائيل ولفنسون» Israel Wolfensohn في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب»: (**قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب، وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج، منذ الساعات الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب، وقد بذلت في هذا السبيل جهوداً عظيمة في فترات مختلفة، ولم توفّق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة، فحققت آمالهم وأطماعهم، في وقت كانت خامدة فيهم تلك الآمال.. وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بني قريظة على أبناء جلدته قبل خروجهم من آطامهم أن يعتنقوا الإسلام فيأمنوا على دمائهم وأموالهم ونسائهم، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة في نفوس بني قريظة، وأنهم ما كانوا ليعبؤوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم، والمحافظة على عقائدهم**)[2]. ولكن يمكن القول:

أولاً : إن إعطاء القضية بعداً دينياً وتناسي البعد الحقيقي للمسألة يعد تجاهلاً واضحاً للحقيقة التاريخية وفق ما استعرضناه من تفاصيل غزوة الأحزاب ثم غزوة بني قريظة.

ثانياً : دلّت كلمات بني قريظة أنفسهم ـ بحسب نفس النصوص التي تمسك بها المستشرقون ـ أنهم كانوا يلومون أنفسهم على خيانتهم، بل وصرَّح بعضهم بإيمانهم بنبوة النبي «صلى الله عليه وآله» وأنهم إنما يرفضونها لأنه ليس من بني إسرائيل، كما صرحوا من قبل أنهم لم يجدوا من النبي إلا الوفاء بالمواثيق وحسن الجوار.

ثالثاً : العفو عنهم بعد الخيانة وتركهم آمنين في ديارهم يعني تركهم جاثمين إلى جوار المسلمين والاطلاع على أسرارهم وإيصالها إلى عدوهم ولربما التحالف مع العدو من جديد. وكان واضحاً رفضهم خيار إعلان

١. بودلي: الرسول، حياة محمد، ص٢٧٣.
٢. ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٩٣-١٩٤.

الإسلام، الأمر الذي يعني أن العفو عنهم لم يكن ليؤدي لدخولهم في الإسلام كما حصل مع مشركي مكة مثلاً عند فتحها، ولا لدخولهم في تحالف حقيقي مع المسلمين كما حصل لبعض القبائل العربية. وأما أن يتركهم ليرحلوا إلى حيث شاءوا، فيعني إعطاء المجال لتكرار ما فعله أمثال حُيي بن أخطب ومَن معه ممن ألّبوا قريشاً والقبائل العربية لشن حرب جديدة. وقد عمل لاحقاً يهود خيبر ومن انضم إليهم من يهود المدينة من خلال مراسلاتهم مع الروم وغيرهم ما صدّقوا به الاحتمال السابق.

رابعاً: الحُكم الذي أصدره سعد بن معاذ ورضيه النبي يوافق ما عند اليهود في شريعتهم، وهذا ما أشار إليه المؤرخ «بودلي» حيث قال: (**والحقيقة أنه لو فكّر يهود المدينة في الأمر لوجدوا محمداً ما فعل شيئاً أكثر أو أقل من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين من تثنية الاشتراع: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعوب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ـ كل غنيمتها ـ فتغتنمها لنفسك». وهنالك نص موجود في التوراة الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية لم يذكره هذا المؤرخ ولا غيره وهو أعظم جوراً من النص الذي ذكره لأنه يقول بصراحة ما نصه: «فضرباً تضرب سكان المدينة بحد السيف، وتحرّمها بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف، وتجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة، وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلالاً إلى الأبد لا تُبنى بعدُ**»)[1].

خامساً: أن العقاب كان بحجم الجريمة، ولم يكن المراد هو القضاء على اليهود، وقد التفت إلى ذلك الكاتب «عماد الدين خليل» في «دراسة في السيرة النبوية» حيث قال: (**كان العقاب الذي ينزله رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بخصومه من اليهود يتناسب دوماً مع حجم الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية.. ولم يستخدم أسلوب القتل إلا إزاء أولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب، وتعاونوا مع الأعداء، وهو العقاب الذي تمارسه جميع القوانين. أما اليهود، كأفراد لا ينتمون إلى هذه الكتلة وتلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري، فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسول «صلى الله عليه وسلم» بدليل أنه توفي «صلى الله عليه وسلم» ودرعه مرهونة عند واحد من هؤلاء**)[2].

سادساً: ذكر ابن شهر آشوب أنّ عدّة الرجال من بني قريظة كانت سبعمائة، وعدة المقتولين منهم كانت أربعمائة وخمسين، وعند غيره أربعمائة أو ثلاثمائة، واعتُبر أنه ينسجم مع قوله «عزوجل»: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

١. بودلي: الرسول، حياة محمد، ص١٩٣.

٢. خليل: دراسة في السيرة النبوية، ص ١٩٠.

فَرِيقًا﴾[1]، وقد أكّد البعض هذا المطلب بقولهم أن النبي «صلى الله عليه وآله» أمر بقتل المقاتلة من رجالهم فقط، لا كل الرجال، فإنَّ مَن كان منهم عاجزاً أو كبيراً في السن أو امتنع عن القتال أو منعه مانع أن يكون من المقاتِلين فلم يشمله الحكم. بل تحدث بعض الباحثين عن اليد اليهودية التي عملت على تضخيم تصوير ما جرى في ذلك اليوم من خلال بث النصوص في كتب السيرة بشكل يظهر فيها النبي بصورة الحاكم الدموي الذي يريد القضاء على اليهود واستعبادهم، خاصة وأننا نجد من بين من يُعتَمد عليهم في نقل تلك الأحداث بعض أبناء بني قريظة كمحمد بن كعب القُرَظي وعطية القُرَظي، كما عملت تلك اليد على إظهار بطولة بني قريظة وصبرهم على دينهم ورفضهم التحول إلى الإسلام ـ ولو تقية ـ وتفضيلهم الموت اعتزازاً بدينهم، وبشاعة التعامل معهم حيث أمر النبي ـ بحسب بعض تلك الروايات ـ بقتل كل من أنبَتَ منهم[2]، أي أن الرسول أمر شباباً، كانوا قد بلغوا أو على وشك البلوغ، أن يرفعوا له عن جلابيبهم ليكشفوا عن عوراتهم ليعرفوا إن كانوا قد بلغوا أم لا، فالبالغون يُقتَلون بأجمعهم، والباقون يتحولون إلى السبي، وما إلى ذلك من صور تجعل الاحتمال السابق قوياً، خاصة وأننا نجد تضارباً كبيراً بين أرقام من أعدموا من أسرى بني قريظة تصل بين التسعمائة على قول، والأربعين على قول آخر، حيث روى «حميد بن زونجويه» في كتابه «الأموال» بسنده عن ابن شهاب الزهري: (**فقُتِلَ منهم يومئذ أربعون رَجلاً**)[3].

> عطية القرظي. كان من سبي يهود بني قريظة، ولا يعرف له نسب. استقر في الكوفة لاحقاً وتخصص في تفسير القرآن، وكان يروي عن النبي! روى عنه مجاهد، وعبد الملك بن عمير.

* من نتائج الغزوة:

من أهم نتائج هذه الغزوة أن مُني تحالف الأحزاب بهزيمة منكرة تمثّلت في عدم تحقيق هدفهم في اقتحام المدينة المنورة والقضاء على الإسلام، واستطاع النبي أن يزرع الشك بين الأطراف الرئيسة في هذا التحالف، ويفقدهم الثقة ببعضهم البعض الأمر الذي جعلهم يصرفون النظر عن إقامة أي تحالف مشابه في المستقبل، بل وجعلهم ينصرفون عن التفكير في غزو المدينة نهائياً، وهذا بدوره سيدفع النبي «صلى الله عليه وآله» للتفكير في مدّ دعوته إلى نطاق أوسع بعد هذه القوة المعنوية الهائلة التي حصل عليها من خلال هذا الانتصار، لاسيما من خلال مراسلة الحكام والملوك ككسرى الفرس وقيصر الروم وملك الحبشة وعظيم القبط، بل وللعودة إلى مكة المكرمة ـ ولو لأداء العمرة ـ مما سيقلب مسار الأحداث في شبه جزيرة العرب رأساً على عقب.

---

١. سورة الأحزاب: ٢٦.

٢. عن عطية القرظي، قال: (كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قُتل، ومن لم يُنبت لم يُقتَل، فكنت فيمن لم يُنبت) سنن ابي داوود، باب الغلام يصيب الحد، ح٤٤٠٤.

٣. ابن زنجويه: الأموال، ص ٤٦١.

غزوة

خيبر



غزوة خيبر

* جغرافية خيبر ووصفها:

تقع مدينة خيبر والقرى التابعة لها في أرض بركانية «حَرّة». مما يعطيها تحصيناً طبيعياً إذ تكون بذلك من أمنع الأمكنة لعجز الغزاة عن التوغل فيها واضطرار من يريد الوصول إلى المناطق المأهولة فيها لسلوك طرق خاصة لا يعرفها إلا البعض «الأدلاء»، وللمدينة المنورة تحصين طبيعي مشابه لما لخيبر.

وحَرّة خيبر منطقة صخرية مكونة من حمم بركانية خامدة يعود تاريخها إلى ملايين السنين وتعتبر أكبر هضبة بركانية في أرض الحجاز حيث تغطي قرابة ٢٠,٠٠٠كم٢، ويوجد فيها أكثر من أربعمائة فوهة بركانية.

أما مدينة خيبر فتقع في الشمال الشرقي للمدينة المنورة وتبعد عنها ١٦٨كم تقريباً. كانت خيبر ولا تزال منذ أقدم العصور واحة واسعة ذات تربة خصبة معطاءة وذات عيون ومياه غزيرة اشتهرت بها منذ القدم وتربتها تصلح لزراعة الحبوب والفواكهة على اختلاف انواعها.

وتشير بعض الآثار المكتشفة في خيبر أنها سُكنت قبل ٨,٠٠٠ سنة، منها آثار ترجع إلى العصر الحجري وهي عبارة عن فؤوس حجرية وقواطع ومعاول ومجموعة من الأنصال والشفرات المشحوذة وأزاميل. وقد عُثر في شمالي خيبر على رسوم لأبقار وحشية وخيول منفّذة بأسلوب الحفر العميق، وزُخرفت بعض أبدانها بدوائر ونقاط تمثل حقبة زمنية تعود للألف الخامس قبل الميلاد.

وفي وادي الوطيح توجد مناظر تمثل معارك تدور على ظهور الخيول باستخدام رماح طويلة. وآثار الشويمس في حرة خيبر عبارة عن متحف مكشوف لكل العصور وبكل معنى الكلمة ويندر وجوده في الجزيرة العربية من حيث النحت والرسم وروعة التصميم فيما يخص الإنسان البدائي.

يلاحظ أن الرسومات تشمل الحيوانات الرعوية والوعول والإبل والنمور والأسود. كما توجد آثار كتابية بخط المسند[1] وبالخط العربي على معظم جبالها. وقد ورد اسم خيبر كإحدى المناطق التي استولى عليها الملك البابلي «نَبونيد» وكانت تابعة لملكه الذي ضم تيماء وديدان وخيبر، وذلك خلال الفترة من «٥٥٥ إلى ٥٣٩ قبل الميلاد»، وعُرفت باسم «خبرا».

١. سمي بالمسند لأن حروفه تكتب وتسند على شكل أعمدة.

وفي حرة خيبر في العصر الحالي ٤٠٠ قرية تقريباً، وهي مأهولة من قبل قبائل شمر وجهينة وحرب وعنزة والرشايدة.

* سبب التسمية:

الاحتمال الأول: الاسم مشتق من قولهم أرض خَبِرة أي طيبة الطين سهلة، وهذا على فرض أنه عربي.

الاحتمال الثاني: سميت باسم رجل من قبيلة العماليق[1] نزل بها، وهو خيبر بن قانية بن عبيل بن مهلائل ابن ارم وهذا هو أول من نزلها.

الاحتمال الثالث: خيبر بلسان اليهود هو الحصن. حيث اشتهرت خيبر بحصونها وقلاعها، سموها خيابر وواحدها خيبر، وإلى هذا القول مال عدد من الباحثين نظراً لأن سكانها كانوا من اليهود.

الاحتمال الرابع: خيبر بلسان اللغات السامية بمعنى الحصن، حيث أن الأقوام السامية من غير اليهود سكنت خيبر قديماً، ويوجد تقارب لفظي ومعنوي للغات السامية وخاصة القديمة منها.

* اليهود في خيبر:

يكاد يجمع المؤرخون على أن أول من سكن خيبر هم العماليق وهم من العرب البائدة، فمنذ أكثر من ٣,٠٠٠ سنة كانت كل المنطقة الشاسعة الممتدة في الحجاز من يثرب حتى الحدود الشمالية المتاخمة للشام خاضعة لسلطان العماليق.

أما عن صلة اليهود بخيبر ففي الأمر اختلاف: فقيل أن يهودها من بني إسرائيل، وأنهم وفدوها مع استيطانهم منطقة يثرب بعد وفاة نبي الله موسى «عليه السلام» على إثر عودة الحملة العسكرية التي أرسلها قبيل وفاته لقتال العماليق الذين يقطنون يثرب والمناطق الشمالية والشرقية والغربية من الحجاز بما في ذلك خيبر.

يقسم مؤرخو العرب الأجيال العربية إلى ثلاثة أنواع: العرب البائدة: وهم الذين انقرضوا انقراضاً كاملاً ولم يبق لهم من عقب أو نسل. ومن هؤلاء طسم وجديس وعاد وثمود والعماليق. العرب العاربة: وهم القحطانيون، وموطنهم الأصلي اليمن وحضرموت. العرب المستعربة: وهم العدنانيون، وكل أبناء نبي الله إسماعيل. ولكن من الصعب ادعاء الانقراض لأقوام لهم امتداداتهم الجغرافية الواسعة في المنطقة، فما الذي يؤدي إلى الانقراض؟ وما الدليل؟ نعم يمكن القول أن بعض المجتمعات الحضرية منها نزل عليها العذاب فأبادها، كثمود وعاد، إلا أن هذا لا يعني انقراض الجميع.

١. كلمة ساميّة تعني المحارب أو ساكن الوادي.



ويقول بعض المؤرخين أن رجال هذه الحملة لما منعهم الأنبياء من بعد موسى «عليه السلام» من دخول الشام، عادوا إلى الحجاز واستوطنوا يثرب وخيبر منذ حوالي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد. وهناك رأي آخر يذهب إلى أن صلتهم بخيبر ويثرب كانت في عهد النبي داود «عليه السلام» أي قبل ٣,٠٠٠ عام، حيث غزا العماليق ونصره الله عليهم.

أما الطبري فاعتبر أن أول قدوم لليهود إلى الحجاز إنما كان بعد خراب بيت المقدس على يد نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد. واستقرب ذلك د.جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب» ذلك، وذكر أن مِن اليهود مَن استقر بها واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب وأقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب.

وقيل أن اليهود والملك البابلي «نبونيد» غزوا العماليق في خيبر، فقضوا عليهم أو طردوهم، وحلوا محلهم في خيبر وبعض النواحي المجاورة. بينما اعتبر بعض المؤرخين أن الوجود اليهودي في خيبر لم يكن إلا بعد الميلاد بحوالي ثمانين سنة.

وهناك مَن يربط الأمر بالبحث عن النبي الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله»، حيث أن بعض علماء اليهود كانوا يجدون صفة رسول الله في كتبهم، وأنه يهاجر إلى بلد نخل بين حَرَّتين، فأقبلوا من الشام يبحثون عن تلك الصفة، فلما رأوا تيماء وفيها النخل نزلت طائفة منهم فيها ومضى أكثرهم إلى يثرب.



وفي المقابل فإن بعض الباحثين يذكرون أن يهود خيبر من أبناء العرب الذين دانوا باليهودية. كتب الباحث حمد الجاسر: (**اليهودية قد تطلق على غير جنس اليهود ويعنى بها من يدين بالدين اليهودي أياً كان جنسه.. قبائل يمنية هاجرت إلى شمال الجزيرة وسكنت في يثرب وفدك، وخيبر وهي عربية الأصل والمنشأ، أما الديانة فهي بالنسبة لهذه القبائل تعتبر أمراً ثانوياً**)[١].

ويستدلون بأن ابن هشام في السيرة النبوية يروي عن ابن اسحاق أن عائلة «مرحب» فارس خيبر المشهور ترجع إلى قبيلة من قبائل حِمْيَر. كما وروى اليعقوبي أن بني النضير وبني قريظة ينتميان إلى قبيلة جذام اليمنية.

وذكر أبوحيان التوحيدي أن: (**اليهودية كانت في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة**)[٢]. ولا يبعد فعلاً أن يكونوا مزيجاً من بني إسرائيل ومن العرب الذين كانوا يقطنون المكان، كما هو حال يهود أوروبا الشرقية. وهذه هي طبيعة المجتمعات البشرية في التداخل عادةً، وإن مال بنو إسرائيل إلى عزل أنفسهم عن الآخرين في بعض الظروف. أما كون يهود المدينة من العرب فيعارضه مخاطبتهم في القرآن بعنوان بني إسرائيل.

* وصف خيبر في المصادر الإسلامية:

قال الحموي: (**وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة**[٣] **لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل**

١. من مقال بعنوان: خيبر أرض السدود والحصون، صحيفة الرياض السعودية ـ النسخة الإلكترونية الصادرة بتاريخ ٢٣يونيو ٢٠٠٧م.
٢. التوحيدي: البصائر والذخائر، ج٥، ص٤٤.
٣. البريد أربعة فراسخ، والفرسخ ٥٥٠٠ م تقريباً.



هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وأسماء حصونها: حصن ناعم..... و القموص..... وحصن الشَّق، وحصن النطاة، وحصن السُّلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة)[1].

نصَّت المصادر على أهميتها اقتصادياً، فما غنمه المسلمون من غزوة خيبر يعتبر أكثر المغانم التي حصلوا عليها في غزواتهم حتى ذلك اليوم، فقد روي أن عبدالله بن رواحة خرَص[2] ما فيها من التمر بأربعين ألف وسق، والوسق حِمل بعير. كما روي أن حصن الكتيبة الذي جعله النبي خُمسَ الغنيمة كان به أربعون ألف عِذق. وكان الشعير من محاصيل خيبر ومحصولهم منه وفير. واعتُبرت آنذاك من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب. وقد أحصى المسلمون عند فتحها من النخيل الموجود في إحدى أوديتها فوجدوا بها أربعين ألف نخلة. ولذا أشبهوها بهَجَر من حيث كثرة ما بها من نخل، كما أنها معروفة بكثرة عيونها التي ما زالت متدفقة. هذا إلـى ما كان فيها من الأنعام والمتاع والخيل والسلاح.

واعتبرت خيبر من المواقع الاستراتيجية المهمة عسكرياً، وكانت مقسمة إلـى ثلاث مناطق حربية: وفي كل منطقة عدة حصون منيعة. وكانت المعدات الحربية عند غزوها من قبل المسلمين مكدَّسة فيها، ففي الخبر أنه حين حوصرت قلاع خيبر أتى النبيَّ رجلٌ في الليلة السادسة وأخبره أن: **(في حصن الصَّعب، وهو من حصون**[3]

١. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٩.

٢. خرص: حزر وخمّن.

٣. كانت حصون خيبر السبعة الرئيسة وهي (النطاة ـ الشق ـ الكتيبة ـ ناعم ـ القموص ـ الوطيح ـ السُّلالم) تنقسم داخلياً إلى عدة قلاع وحصون فرعية، فحصن الصعب من حصون النطاة، وحصن الزبير من حصون الشق.

النطاة، وفي بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً، ودبّابات، ودروعاً، وسيوفاً)[1]. وقد قال الله «عزوجل» مشيراً إلى كثرة غنائم خيبر: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2].

* الأوضاع قبل الغزوة:

ودَّع المسلمون السنة السادسة للهجرة بمجموعة من الإنجازات على رأسها: صلح الحديبية، وغزوة بني المصطلق، وإقبال بعض القرشيين على الإسلام وهجرتهم إلى المدينة المنورة. قال الزُّهري: **(لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه، وإنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناس كلهم كلَّم بعضهم بعضاً وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)**. وعلق على ذلك ابن هشام صاحب السيرة بقوله: **(ويدل عليه أنه «صلى الله عليه وسلم» خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف)**[3].

ومن أهم نتائج صلح الحديبية وبعض السرايا أنها أمّنت بنسبة كبيرة المنطقة الجنوبية للمدينة المنورة، فسمح ذلك للنبي أن يتفرغ لتأمين المنطقة الشمالية حيث الأخطار المحدقة من الجهة الشمالية والمتمثلة في اليهود في خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى، علاوة على إمبراطوريتي الفرس والروم وحلفائهما من العرب، لاسيما وأن اليهود بدأوا يتحركون بشكل مشبوه في اتجاه العدوان على المدينة طالبين المساعدة من الروم لتحقيق هذا الغرض. على إثر ذلك قرر النبي القضاء على قوة اليهود المتآمرين ضده قبل أن ينجحوا في مسعاهم.

* التحديد الزمني:

اتفق المؤرخون على أنها كانت في العام السابع الموافق ٦٢٨م، واختلفوا في موعد خروجه من المدينة على أقوال:

١) في بقية من شهر محرم، أي بين شهري مايو ويونيو.

٢) شهر صفر، أي بعد اليوم العاشر من شهر يونيو.

٣) شهر ربيع الأول، أي بعد العاشر من يوليو.

٤) شهر جمادى الأولى، أي أوائل شهر سبتمبر.

---

١. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ٤٠.

٢. سورة الفتح: ١٨-٢٠.

٣. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٣٩١٩ .

ومن القرائن التي سنذكرها أثناء عرض التفاصيل ما يؤيد أن الغزوة كانت في الحر الشديد، وبعضها يؤيد وجود شئ من البرد، مما يقرّب القول الأخير، والله أعلم .

❋ تفصيل أسباب الغزوة:

بلغ التكتل اليهودي أوجَه في خيبر من حيث العدة والسلاح والتحصينات والعدد، خاصة بعد طرد يهود بني قينقاع وبني النضير من المدينة، كما أنهم عقدوا تحالفات مع بعض القبائل العربية القريبة من خيبر. قال الواقدي: (**وكان يهود خيبر لا يظنّون أنّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يغزوهم لمنعتهم في حصونهم وسلاحهم وعددهم، فكانوا يخرجون كلّ يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثمّ يقولون: محمّد يغزونا؟ هيهات، هيهات. وكان مَن كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى خيبر: ما أمنع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذُرى الجبال، والماء فيها واتن**[1] **إن بخيبر لألف دراع ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم**[2]**، فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي«صلى الله عليه وسلم»**)[3].

كما ظهرت بوادر استعداد اليهود لعمل عدائي جديد ضد المسلمين، وأشار إلى ذلك الواقدي حيث روى أنه بعد ما جرى لبني قريظة، قَدِم «حُسيل بن نويرة الأشجعي» خيبر، وفيها يهود من بني النضير كسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ويهود خيبر جلوس في ناديهم يتحسّبون خبر قريظة، قد بلغهم أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد حصَرهم، فسألوه عن الخبر فقال: (**قُتِلت مقاتلة قريظة صبراً بالسيف. قال كنانة: ما فعل حُيي؟ قال حسيل: حُيي قد طاح، ضُربت عُنقه صبراً. وجعل يخبرهم عن سَراتهم**[4]**: كعب بن أسد، وغزّال بن سموأل، ونباش بن قيس، أنه حضرهم قُتلوا بين يدي محمد. قال سلام بن مشكم: هذا كله عمل حُيي بن أخطب، شأمَنا أولاً وخالفنا في الرأي، فأخرجَنا من أموالنا وشرفنا وقتل إخواننا. وأشد من القتل سباء الذرية لا قامت يهودية بالحجاز أبداً، ليس لليهود عزم ولا رأي. قالوا: وبلغ النساء فصيحن وشققن الجيوب وجززن الشعور وأقمن المآتم وضوى إليهن نساء العرب**[5]).

توجه الحضور إلى سلام بن مشكم، وسألوه عن رأيه في كيفية مواجهة الحدث والمستقبل، فقال: (**وما تصنعون برأي لا تأخذون منه حرفاً؟ قال كنانة: ليس هذا بحين عتاب. قد صار الأمر إلى ما ترى. قال: محمد**

١. واتن: دائم.
٢. أي كانوا يتحصنون ويدافعون عن أنفسهم أمام سائر العرب من خلال هؤلاء المقاتلين اليهود المجهّزين أحسن تجهيز.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٦.
٤. السراة: النخبة من القوم.
٥. أي انضم إلى نسائهم نساء من نساء العرب المتحالفين مع اليهود.

قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم فنازِل بساحتكم وصانع بكم ما صنع ببني قريظة. قالوا: فما الرأي؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء، وفدك، ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعَت بكم العرب بعد أن شرطتم لهم تمر خيبر، نقضوا ذلك وخذلوكم وطلبوا من محمد بعض تمر الأوس والخزرج، وينصرفون عنه[1] **.. ثم نسير إليه في عقر داره فنقاتل على وِتر**[2] **حديث وقديم. فقالت اليهود: هذا الرأي. فقال كنانة: إني قد خبرت العرب فرأيتهم أشداء عليه، وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك، ومحمد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف)**[3]. ولم يحسم اليهود أمرهم بشأن غزو المدينة، وإن بيّتوا نية العدوان على المسلمين.

* إجراءات عسكرية:

هناك قواسم مشتركة بين الغزوات:

أولاً، السرّيّة ومباغتة العدو وتغيير الاتجاه أحياناً في أثناء المسير، ولكن هذا لم يتحقق هنا، و لربما لم تسمح الظروف بذلك، أو لم تكن هناك حاجة ماسة لها، وفي الخبر أنه (**أمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه بالتهيؤ للغزو فهم مجدّون، وتجلب من حوله يغزون معه، وجاءه المخلَّفون يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقالوا: نخرج معك. وقد كانوا تخلّفوا عنه في غزوة الحديبية**[4]**، وأرجفوا بالنبي «صلى الله عليه وسلم» وبالمسلمين**[5] **فقالوا: نخرج معك إلى خيبر، إنها ريف الحجاز طعاماً وودكاً وأموالاً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا. وبعث منادياً فنادى: لا يخرجن معنا إلا راغبٌ في الجهاد، فأما الغنيمة فلا)**[6]. وإذ أدركت بقايا يهود المدينة المنورة من الموادعين الذين لم يُجلَوا منها أن المسلمين سائرين باتجاه خيبر، شق ذلك عليهم، وعرفوا أن المسلمين إذا دخلوا خيبر، أهلكها الله كما أهلك بني قينقاع والنضير وقريظة. ومن هنا لجأ هؤلاء اليهود إلى استعمال حيلة يهدفون من خلالها إلى إعاقة خروج المسلمين ما أمكن.

ففي الخبر أنه: (**لم يبق أحدٌ من يهود المدينة له على أحدٍ من المسلمين حقٌّ إلا لزمه، وكان لأبي الشحم اليهودي**

١. يشير بذلك إلى غطفان.
٢. وتر: ثأر.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢١١.
٤. لم تكن غزوة المعنى المتعارف، حيث خرج المسلمون للعمرة ثم ووجهوا بالصد، فبايعوا النبي ثم عقدوا الصلح مع قريش.
٥. قال «عزوجل» بشأنهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الفتح: ١١.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٥.

عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعيرٍ أخذه لأهله. فلزمه. فقال: أجِّلني، فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يُغنمه إياها... فقال أبو الشحم حسداً وبغياً: تحسب أنَّ قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل! قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله! تخوّفنا بعدوّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا؟ والله لأرفعنّك إلى رسول الله).

ولما اشتكى المسلم إلى النبي سكت ولم يجبه بشيء، احتراماً لحق اليهودي في ماله! فقال اليهودي: **(يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني وحبسني بحقي وأخذ طعامي. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أعطه حقه. قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليَّ عمامةٌ فاستدفأت بها. وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر، فخرجت في ثوبين مع المسلمين، ونفَلني الله خيراً، وغنمت امرأةً بينها وبين أبي الشحم قرابةٌ فبعتها منه بمال).**

ولما علم يهود خيبر بمسير النبي إليهم صاروا: **(يقومون كل ليلة قبل الفجر فيتلبسون السلاح ويصفّون الكتائب وهم عشرة آلاف مقاتل[1].. وكانوا قد اختلفوا فيما بينهم حيث أحسوا بمسير رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فأشار عليهم الحارث أبو زينب اليهودي بأن يعسكروا خارجاً من حصونهم ويبرزوا له، فإني قد رأيت من سار إليه من الحصون، لم يكن لهم بقاء بعد أن حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، ومنهم من سبي ومنهم من قُتل صبراً. فقالت اليهود: إن حصوننا هذه ليست مثل تلك، هذه حصون منيعة في ذرى الجبال. فخالفوه وثبتوا في حصونهم)[2].**

ثانياً، قطع الإمدادات عن العدو، ولاسيما من خلال تحالفهم مع غطفان القوية. وتدل على ذلك النصوص التالية: **(وانتهى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الصهباء .. ثم دعا بالأدلاء فجاء حُسيْل بن خارجة الأشجعي، وعبد الله بن نعيم الأشجعي. قال: فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لحُسيل: امض أمامنا حتى تأخذنا صدور الأودية، حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان)[3].**

وفي تاريخ الطبري: **(مضى حتى نزل بجيشه بواد يقال له الرجيع، فنزل بين أهل خيبر وبين غطفان .... ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله «صلى الله عليه وسلم»)[4].**

---

١. ولم تنفعهم خطتهم تلك لاحقاً كما سنعرف، حيث كان للعناية الإلهية يد في نصرة المسلمين، ففي تاريخ الخميس للدياربكري، ج٢، ص٥٥، أنه (استولى ليلتئذ نوم الغفلة على أهل خيبر، فلم يشعروا بقدوم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مع أنهم كانوا قبل ذلك يبعثون كل ليلة من رجالهم ركبانا متسلحة للتجسس والاستخبار عن جيش الاسلام .. وفي تلك الليلة لم يتحرك أحد منهم حتى أن ديوكهم لم تصح ، ودوابهم لم تتحرك).

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٦.

٣. الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٥ ص١١٧ ـ ١١٨.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٣.

ورجّح اللواء خطّاب بأن تحرك النبي«صلى الله عليه وآله» إلى وادي الرجيع وهي من أرض غطفان كان لإيهام غطفان بأن الهجوم موجّه ضدهم وأن قوات المسلمين توشك أن تطوّقهم ثم عاد الرسول إلى خيبر ولكنه أرسل مفرزة من أصحابه لمباغتة ديار غطفان بعد أن تركتها قوات غطفان الضاربة لمعاونة اليهود، ونجحت المفرزة في إلقاء الرعب في ديار غطفان، مما اضطر هذه القبيلة إلى الإسراع بالعودة إلى ديارهم لحمايتها من تهديد المسلمين، وتركت اليهود وحدهم أمام المسلمين[١].

وخطّاب يشير إلى النص الذي رواه ابن إسحق: (**فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا منقلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهاليهم حِسّاً ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهاليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر**)[٢]. وسنتناول هذه القضية لاحقاً بالتفصيل عند الحديث حول مجريات أحداث المعركة.

ثالثاً، وضَع النبي «صلى الله عليه وآله» خطته وفق معرفته بنفسية اليهود واستراتيجيتهم المفضلة في المواجهة وهي القتال من وراء الحصون: ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾[٣]. وسيتبين ذلك أثناء بيان تفاصيل المواجهة بإذن الله.

* في أجواء الاستعداد:

المشهد الأول: جاء أبو عبس بن جبر فقال: (**يا رسول الله، ما عندنا نفقة ولا زاد ولا ثوب أخرج فيه، فأعطاه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» شُقيقةٌ سنبلانيةٌ[٤]، فباعها بثمانية دراهم، فابتاع تمراً بدرهمين لزاده وترك لأهله نفقةً درهمين، وابتاع بردةً بأربعة دراهم. فبينا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في طريق خيبر في ليلةٍ مقمرةٍ إذ أبصر برجل يسير أمامه، عليه شيءٌ يبرق في القمر كأنه في الشمس وعليه بيضة، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: من هذا؟ فقيل: أبو عبس بن جبر. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أدركوه. قال: فأدركوني فحبسوني، وأخذني ما تقدم وما تأخر[٥] وظننت أنه قد نزل في أمرٌ من السماء، فجعلت أتذكر ما فعلت حتى لحقني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: ما لك تقدم الناس لا تسير معهم؟ قلت: يا**

عبدالرحمن بن جبر النصاري الخزرجي، شهد بدراً وما بعدها، وكان الخليفتان عمر وعثمان يبعثانه على الصدقات. توفي سنة ٣٤هـ ودفن في البقيع.

١. خطاب: الرسول القائد، ص ٢٩٤
٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٥٣.
٣. سورة الحشر: ١٤.
٤. نوع من الثياب.
٥. تعبير عن شدة القلق الذي أصابه والأفكار التي تلاحقت عليه.

رسول الله، إن ناقتي نجيبة. قال: فأين الشقيقة التي كَسَوْتُك؟ فقلت: بعتها بثمانية دراهم، فتزودت بدرهمين تمراً، وتركت لأهلي نفقةً درهمين، واشتريت بُردةً بأربعة دراهم. فضحك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ثم قال: أنت والله يا أبا عبس وأصحابك من الفقراء! والذي نفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرن زادكم، وليكثرن ما تتركون لأهليكم، ولتكثرن دراهمكم وعبيدكم، وما ذاك بخيرٍ لكم! قال أبو عبس: فكان والله ما قال رسول الله«صلى الله عليه وسلم»)[1].

قال ابن هشام : (واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، وكانت بيضاء)[2]. والمراد من الراية هنا اللواء كما بيّنت ذلك من قبل.

واصطحب النبي«صلى الله عليه وآله» عدة من النساء ليعملن على مداواة الجرحى وغير ذلك: (عن **أمية بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية**، قالت: جِئتُ رسول الله«صلى الله عليه وسلم» في نسوة من غفار فقلنا: إنا نريد أن نخرج معك في وجهك هذا فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: على بركة الله)[3].

أمية بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية أسلمت وبايعت بعد الهجرة وشهدت مع رسول الله خيبر، وروي أنها كانت صغيرة السن حينها وبلغت في أثناء هذه الغزوة! وهذا لا يتوافق مع المعلومات السابقة.

وفي نص آخر: (عن ثبيتة بنت حنظلة الأسلمية، عن أمها أم سنان قالت: لما أراد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الخروج جئته فقلت: يا رسول الله، أخرج معك في وجهك هذا، أخرز السقاء[4] وأداوي المرضى والجريح إن كانت جراح ـ ولا يكون ـ[5] وأنظر الرَّحْل. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اخرجي على بركة الله فإنَّ لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم، فإن شئت فمع قومك وإن شئت فمعنا. قلت: معك! قال: فكوني مع أم سلمة زوجتي. قالت: فكنت معها... وكان رجالٌ من أصحابه قد جُرحوا فكنت أداويهم بدواء كان عند أهلي فيبرأون)[6].

وفي نص ثالث: (وخرج مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من المدينة عشرون امرأة: أم سلمة زوجته، وصفية

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٥.
٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٣٢٨.
٣. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٦، ص٣١.
٤. أي تصنع وتصلح حاويات الماء بخياطتها.
٥. أي تتمنى أن لا يحدث مثل ذلك.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٩.

بنت عبد المطلب، وأم أيمن، وسلمى امرأة أبي رافع مولاة النبي «صلى الله عليه وسلم» وامرأة عاصم بن عدي وَلَدت سهلة بنت عاصم بخيبر، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم منيع وهي أم شباث، وكعيبة بنت سعد الأسلمية، وأم متاع الأسلمية، وأم سليم بنت ملحان، وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية، وهند بنت عمرو بن حزام، وأم العلاء الأنصارية، وأم عامر الأشهلية، وأم عطية الأنصارية، وأم سليط)[1]. وكان عدد الفرسان مائتين، وقيل: ثلاثمائة. وقيل أن النبي «صلى الله عليه وآله» اصطحب معه عشرة من يهود المدينة رغبة منهم في المشاركة، وليعينوه في غزوته، ولعله استعان بهم لمعرفة بعض خصوصيات خيبر وأهلها، ولكن كيف له أن يأمن جانبهم؟

* مشاهد في الطريق:

في السيرة النبوية لابن هشام: **(و كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر**[2] **و بني له فيها مسجداً، ثم على الصهباء)**[3].

وقد دأب النبي «صلى الله عليه وآله» في أكثر من مناسبة على اتخاذ المساجد أو تحديد أماكن لها حيث يصلي في الطرق التي كان يسلكها في غزواته. ولكن ما الذي دفعه للنزول جنوب المدينة إلى جبل عِصر في وادي الفُرع، حيث قال الحموي: **(وكل حصن يتحصن به يقال له عِصر. وهو جبل بين المدينة ووادي الفُرع)**. بينما تقع خيبر شمال المدينة؟ هل وقع الخطأ في اسم الجبل؟ أم هناك أكثر من جبل يحمل ذات الاسم، أم وقع الخطأ في تحديد الغزوة التي تم فيها بناء هذا المسجد؟ الله أعلم بحقيقة الأمر.

قال ابن هشام: **(عن أبي الهيثم بن نصر بن دهر الأسلمي أن أباه حدثه: أنه سمع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع، وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكان**

يقع وادي الفُرع جنوب المدينة المنورة ويبعد عن المدينة ١٥٠ كم جنوباً على الطريق السريع بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأغلب سكانه من قبيلة حَرْب، وكانت الطريق القديمة للقوافل تمر بوادي الفُرع بين مكة والمدينة، وهي تشتمل حالياً على أكثر من ٤٠ قرية، وأهل قرية «أبو ضباع» من الحروب، وهم شيعة إمامية. وفي قرية «أم العيال» عين هي صدقة فاطمة الزهراء. يقول أحمد بن عبد الحميد العباسي في كتابة «عمدة الأخبار في مدينة المختار»: (أم العيال: عينٌ عليها قرية، هي صدقة فاطمة الزهراء، قلت كان بها نخلٌ كثير أكثر من عشرين ألف نخلة، والآن في زماننا كذلك بها نخلٌ كثير، واليوم هي لبني حسين).

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٨.
٢. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٣٤٤.
٣. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ١٢٨.

اسم الأكوع سناناً: انزل يا ابن الأكوع، فحِد لنا من هناتك[1]، قال: فنزل يرتجز برسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبيْنا
فأنزلنّ سكينةً علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يرحمك الله. فقال عمر بن الخطاب: وجبت والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به! فقُتل يوم خيبر شهيداً، وكان قتله، فيما بلغني، أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل، فكلَمه كَلْماً شديداً، فمات منه. فكان المسلمون قد شكّوا فيه، وقالوا: إنما قتله سلاحه، حتى سألَ ابنُ أخيه سلمة بن عمرو بن الأكوع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن ذلك، وأخبره بقول الناس؛ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إنه لشهيد، وصلى عليه، فصلى عليه المسلمون)[2].

أما الواقدي فقال: (قُتل يوم مؤتة شهيداً)[3].

وبعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» عباد بن بشر في فوارس طليعةً، فوجد في الطريق جاسوساً من قبيلة أشجع يعمل لصالح اليهود، (فسأله عباد: من أنت؟ قال: باغٍ أبتغي أبعرةً ضلت لي، أنا على أثرها. قال له عباد: ألك علمٌ بخيبر؟. قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني

في لسان العرب لابن منظور: (حَدَا الإبل وحَدَا بها يَحدُو حَدْواً وحِدَاءً، ممدود: زَجَرَها خَلْفَها وساقها. الجوهري: الحَدْوُ سَوْقُ الإبل والغناء لها). وفي القاموس المحيط: (وأصل الحُداء في: دي دي). وفي الفقه تطرح قضية الحداء ضمن بحث الغناء. وفي المبسوط للشيخ الطوسي: (أما الحداء وهو الشِّعر الذي تحث به العرب الإبل على الإسراع في السير، فهو مباح). وفي كفاية الأحكام للمحقق السبزواري حول الغناء المحرم: (المشهور بين الأصحاب استثناء الحداء، وهو سوق الإبل بالغناء لها، ولا أعلم حجة عليه إلا أن يقال بعدم شمول أدلة المنع له). وفي مصباح الفقاهة للسيد الخوئي: (وقد اشتهر فيه استثناء الغناء، ولكنه ممنوع، لعدم الدليل عليه، نعم ذكر في جملة من النبويات المنقولة من طرق العامة جواز ذلك، ولكنها ضعيفة السند وغير منجبرة بشيء، ولو سلمنا انجبارها فلا دلالة فيها على كون الحداء الذي جوزه النبي «صلى الله عليه وآله» غناء، فإن القضية التي ذكرت فيها لم يعلم وقوعها بأي كيفية. نعم الظاهر خروجه من مفهوم الغناء موضوعاً، وقد مال إليه صاحب الجواهر).

١. في نص آخر أنه: (قال لعامر بن سنان: انزل يا ابن الأكوع فخُذ لنا من هناتك). الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٦.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٢٨-٣٢٩.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٦.

عنه؟ قال: عن اليهود). تفطّن الأعرابي أنه بلغ غايته من عبّاد، فعمد إلى زرع الخوف في قلبه فقال: (نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً، فجاءوا مُعَدّين مؤيَّدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاحٌ وطعامٌ كثير لو حصروا لسنين لكفاهم، وماءٌ واتنٌ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة. فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات وقال: ما أنت إلا عينٌ لهم، أصدِقني وإلا ضربتُ عنقَك. فقال الأعرابي: أفتؤمنِي على أن أُصدقك؟ قال عباد: نعم. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون وجِلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وإن يهود يثرب[1] بعثوا ابن عمٍّ لي وجدوه بالمدينة، قد قَدِمَ بسلعةٍ يبيعها، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلّتكم وقلة خيلكم وسلاحكم). ثم نقل الأعرابي كلام أولئك اليهود وتشجيعهم يهود خيبر على القتال لقلة عدد المسلمين وضعف إمكاناتهم في مقابل إمكانات يهود خيبر، وكيف أن كنانة بن أبي الحقيق طلب منه التجسس لصالحهم وأنهم قالوا له: (اذهب معترضاً للطريق، فإنهم لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألقِ إليهم كثرةَ عددِنا ومادتِنا، فإنهم لن يدَعوا سؤالك، وعجّل الرجعة إلينا بخبرهم).

فأُتي به إلى النبي «صلى الله عليه وآله» فأخبره الخبر، فقال عمر بن الخطاب: (اضرب عنقه. قال عباد: جعلت له الأمان. فقال رسول الله: أمسكه معك يا عباد)[2].

* المسلمون على أبواب خيبر:

في البداية والنهاية لابن كثير عن أبي معتب بن عمرو: (أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: قفوا، ثم قال: اللهم رب السموات وما أظللن ورب الارضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدِموا بسم الله)[3]. وفي رواية الواقدي أنه طلب من أصحابه ذلك أيضاً: (قولوا: اللهم رب السموات السبع وما أظلّت، ورب الأرضين السبع وما أقلّت، ورب الرياح وما ذرَت، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها. ثم قال: ادخلوا على بركة الله. فسار حتى انتهى إلى المنزلة، وعرَّس بها[4] ساعةً من الليل)[5].

١. أي من تبقى منهم في المدينة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٧.
٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٢٠٨.
٤. أي بات بها.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٨.

وفي الخبر أنه لما انتهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى «المنزِلة» جعل مسجداً فصلى إليه من آخر الليل نافلةً. فثارت راحلته تجرّ زمامها، فأُدرِكت وهي تتوجه إلى صخرة كبيرة لا تريد تُركب، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (**دعوها فإنها مأمورة. حتى بركت عند الصخرة، فتحول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الصخرة، وأمر برحله فحطّ، وأمر الناس بالتحول إليها، ثم ابتنى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عليها مسجداً، فهو مسجدهم اليوم**)[١]. وقد مرَّ علينا أن اليهود كانوا يقومون كل ليلة قبل الفجر، ويصفّون الكتائب، وخرج كنانة ابن أبي الحقيق في أربعة عشر رجلاً إلى غطفان، يدعوهم إلى نصرهم ولهم نصف ثمر خيبر سنة. فلما نزل رسول الله «صلى الله عليه وآله» بساحتهم، لم يتحركوا تلك الليلة، ولم يصِح لهم ديك، حتى طلعت الشمس، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم، وغدوا إلى أعمالهم، معهم أدواتهم الزراعية، فلما رأوا المسلمين قالوا: (**محمد والخميس**[٢]**!!**) وولّوا هاربين إلى حصونهم، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: (**الله أكبر. خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين**)[٣].

* اختيار الموقع:

روي أنه لما أصبح النبي جاءه الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال: (**يا رسول الله صلى الله عليك، إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أُمرتَ به فلا نتكلم فيه، وإن كان الرأي تكلمنا. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: بل هو الرأي. فقال: يا رسول الله، دنوتَ من الحصن ونزلتَ بين ظهري النخل والنز**[٤] **مع أن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدىً منهم**[٥] **ولا أعدل منهم، وهم مرتفعون علينا. وهو أسرع لانحطاط نبلهم، مع أني لا آمن من بياتهم يدخلون في خَمَر النخل**[٦] **تحوّل يا رسول الله إلى موضع بريء من النز ومن الوباء، نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: نقاتلهم هذا اليوم. ودعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» محمد بن مسلمة فقال: انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم بريئاً من الوباء، نأمن فيه بياتهم. فطاف محمد حتى انتهى إلى الرجيع، ثم رجع إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» ليلاً فقال: وجدت لك منزلاً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: على بركة الله. وقاتل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يومه ذلك إلى الليل يقاتل أهل النطاة، يقاتلها من أسفلها. وحشَدت اليهود يومئذٍ، فقال له الحباب: لو تحولت يا رسول الله!**

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩.
٢. الخميس: الجيش.
٣. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٣٠٧.
٤. النز: ما يتحلب من الأرض من الماء.
٥. أي في إصابة النبل.
٦. الخَمَر: كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا)[1]. فإن صححنا الخبر، فلعل النبي «صلى الله عليه وآله» لم يشأ التحول إلى ذلك الموقع الجديد لئلا يفهم اليهود من ذلك دخول الخوف في قلوب المسلمين حين رؤية الحصون، فأثر المواجهة القوية والقريبة في اليوم الأول على أن يتخذ الموقع الجديد للتخطيط والهجوم ضمن معطيات المعركة. كما يُحتمل أنَّ تقهقر النبي في البداية قد يُدخل حالة من الوهن في المسلمين أنفسهم.

* الحث على الجهاد:

قام النبي «صلى الله عليه وآله» بجمع أصحابه وحثّهم على الجهاد ورغَّبهم في الثواب وبشَّرهم أن من يثبت فإن له الغنيمة والظفر، وكان شعار المسلمين: يا منصور أمِت.

أما عن وضع اليهود حين اكتشفوا قدوم المسلمين فقد قال الدياربكري في تاريخ الخميس عن ذلك: (**فدخلت اليهود حصونهم وأخبروا سلام بن مشكم بأنه قد دهمهم جيش محمد، قال: ما سمعتم كلامي وقصّرتم في الخروج إليه، فلا تقصّروا في الحرب لئن تُقتلوا في الحرب خير من أن تُوتَروا** [2] **فعزموا على الحرب وأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن كتيبة، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم، وجمع المقاتلة وأهل الحرب في حصن نطاة، وسلام ابن مشكم جاء ودخل نطاة معهم، وحرّض الناس على الحرب ومات في ذلك الحصن**)[3].

* المواجهة الأولى:

كانت بداية المواجهة في اليوم الأول عند أول حصن: (**وجعلت نبل اليهود تخالط عسكر المسلمين وتجاوزه، وجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردونها عليهم**)[4]. وفي المساء تقهقر المسلمون إلى الموقع المقترح مسبقاً ليعسكروا فيه.

وقد روي أن الحباب بن المنذر قال للنبي: (**يا رسول الله، إن اليهود ترى النخل أحب إليهم من أبكار أولادهم، فاقطع نخلهم**). فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقطع النخل، ووقع المسلمون في قطعها حتى أسرعوا في القطع... إلى هنا لا غرابة في الأمر، فقد حصل من قَبْل أن أمر النبي بقطع نخل اليهود كما في سورة الحشر حيث قال «عزوجل»: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[5]. ولكن الغريب هو ما في تتمة الخبر: (**فجاءه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إن الله «عز وجل» قد وعدكم خيبر، وهو منجزٌ**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٩.
٢. أي يُقتَل لكم قتيل من أهلكم.
٣. الدياربكري، تاريخ الخميس: ج٢، ص ٤٥.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٩.
٥. سورة الحشر:٥.

ما وعدك، فلا تقطع النخل. فأمر فنادى منادي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فنهى عن قطع النخل)[1]. فهل كانوا يبدلون رأي النبي«صلى الله عليه وآله» بهذه السهولة؟ وهل غابت الحكمة عنه في هذا التصرف في بداية الأمر؟ وليست هذه الحادثة مشابهة لاختيار موقع المعسكر الذي بدّله وفق مقترح الحباب، إن صح ذلك الخبر أيضاً، لأن القصة الثانية ترتبط بمدى وعي النبي لفلسفة النصر في المعركة، لا في اختيار موقع للمعسكر.

وكان أول يوم للقتال قد شهد جرح خمسين من المسلمين عن طريق نبل اليهود، فكانوا يُداوون من الجراح. وقد استمر معسكر المسلمين بالرجيع سبعة أيام، يغدو النبي كل يوم بالمسلمين على راياتهم متسلحين ويترك العسكر بالرجيع، ثم إذا أمسى عاد إلى الرجيع.

واعتمد النبي «صلى الله عليه وآله» أسلوباً ذكياً في المواجهة، حيث كلما ركز المسلمون هجومهم على حصن، بقيت قوات المسلمين الثانوية تشاغل الحصون الأخرى، كي تمنع قوات اليهود من التعاون فيما بينها، وتحرمها أيضاً من معرفة اتجاه الهجوم الرئيس للمسلمين.

كما حرص «صلى الله عليه وآله» على الانضباط العسكري حيث وعظ أصحابه ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودي فقتله، فقال المسلمون: **(استشهد فلان، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أبعد ما نهيت عن القتال؟ قالوا: نعم. فأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» منادياً فنادى في الناس: لا تحل الجنة لعاص)**[2].

❊ الإصابة بالحمّى:

قال الواقدي: **(وقَدِموا خيبر على ثمرة خضراء وهي وبئةٌ وخيمة، فأكلوا من تلك الثمرة، وأهمدتهم الحمى، فشكوا ذلك إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: قَرِّسوا الماء في الشِّنان**[3]**، فإذا كان بين الأذانين**[4] **فاحدروا الماء عليكم حدراً واذكروا اسم الله. ففعلوا فكأنما أُنشِطوا** [5] **من عقال)**[6].

❊ تفكيك التحالف:

اختلفت الروايات حول سعي النبي «صلى الله عليه وآله» لتفكيك التحالف بين غطفان واليهود، فالرواية

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٥٩.
٢. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ١٢٠.
٣. قَرَّسْتُ الماءَ في الشَّنِّ: إذا بَرَّدْتَه بالقرب المصنوعة من الجلد.
٤. أي بين أذان الفجر والإقامة.
٥. تشبيهاً بالإبل التي تكون مربوطة بالعقال، فإذا أُطلقت نهضَت نشيطة.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٠.

الأولى عن رجل من بني مُرّة يّقال له «أبو شُيَيْم» يقول: (**أنا في الجيش الذين كانوا مع عيينة من غطفان؛ أقبل مدد اليهود، فنزلنا بخيبر ولم ندخل حصناً. فأرسل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى عيينة بن حصن وهو رأس غطفان وقائدهم أن ارجِع بمن معك ولك نصف تمر خيبر هذه السنة، إن الله قد وعدني خيبر. فقال عيينة: لست بمسلم حلفائي وجيراني. فأقمنا فبينا نحن على ذلك مع عيينة إذ سمعنا صائحاً، لا ندري من السماء أو من الأرض: أهلَكم، أهلكم بحيفاء ـ صيح ثلاثة ـ فإنكم قد خولفتم إليهم**)[1]. وبهذا تركت غطفان خيبر وعاد مقاتلوها إلى ديارهم ولم يفعلوا شيئاً.

أما الرواية الثانية فتذكر أنه لما سار كنانة بن أبي الحقيق إلى غطفان تحالفوا معه، وترأسهم عيينة بن حصن وهم أربعة آلاف، فدخلوا مع اليهود في حصن النطاة قبل قدوم رسول الله «صلى الله عليه وآله» بثلاثة أيام، فلما قدم رسول الله خيبر أرسل إليهم سعد بن عبادة وهم في الحصن، فلما انتهى سعد إلى الحصن ناداهم: (**إني أريد أن أكلم عيينة بن حصن**). فأراد عيينة أن يدخله الحصن، فرفض مرحب ذلك خوفاً من أن يطّلع سعد على طبيعة الحصن من الداخل، ويعرف نواحيه التي يؤتى منها. فخرج عيينة إلى باب الحصن، فقال سعد: (**إن رسول الله أرسلني إليك يقول: إن الله قد وعدني خيبر فارجعوا وكفوا، فإن ظهرنا عليها فلكم تمر خيبر سنةً. فقال عيينة: إنا والله ما كنا لنُسلم حلفاءنا لشيءٍ، وإنا لنعلم ما لك ولمن معك مما ها هنا طاقة، هؤلاء قومٌ أهل حصونٍ منيعة، ورجالٍ عددهم كثير، وسلاح. إن أقمتَ هلكتَ ومن معك، وإن أردت القتال عجّلوا عليك بالرجال والسلاح. ولا والله، ما هؤلاء كقريش، قوم ساروا إليك، إن أصابوا غرة منك فذاك الذي أرادوا وإلا انصرفوا، وهؤلاء يماكرونك الحرب ويطاولونك حتى تملهم. فقال سعد بن عبادة: أشهد ليحضرنك في حصنك هذا حتى تطلب الذي كنا عرضنا عليك، فلا نعطيك إلا السيف، وقد رأيت يا عيينة من قد حللنا بساحته من يهود يثرب، كيف مُزّقوا كل ممزق**)[2].

رجع سعد إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأخبره بمقولة عيينة، فأمر أصحابه أن يتوجهوا إلى الحصن الذي تتواجد فيه غطفان، وامتلأت قلوبهم بالرعب، وسمعوا صائحاً يصيح ثلاث مرات: (**يا معشر غطفان، أهلكم أهلكم. الغوث، الغوث بحيفاء. لا تربة ولا مال**).

خرج رجال غطفان على إثر ذلك من الحصن مسرعين إلى ديارهم، وعلم كنانة بن أبي الحقيق في صبيحة اليوم التالي بما جرى، فسقط في يديه، وذل، وأيقن بالهلكة وقال: (**كنا من هؤلاء الأعراب في باطل، إنا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرّونا، ولعمري لولا ما وعدونا من نصرهم ما نابذنا محمداً بالحرب، ولم نحفظ كلام سلام بن أبي الحقيق إذ قال: لا تستنصروا بهؤلاء الأعراب أبداً فإنا قد بلوناهم وجلبهم لنصر بني قريظة ثم غرّوهم. فلم نر**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٣.
٢. ن.م.

عندهم وفاءً لنا، وقد سار فيهم حيي بن أخطب وجعلوا يطلبون الصلح من محمد، ثم زحف محمد إلى بني قريظة وانكشفت غطفان راجعةً إلى أهلها).

وأما الغطفانيون فإنهم لما بلغوا ديارهم بحيفاء، وجدوا أهلهم على حالهم، فقال عيينة لأصحابه: **(هذا والله من مكائد محمد وأصحابه، خدعنا والله)**. فأقام عيينة أياماً في أهله ثم دعا أصحابه للخروج لنصرة اليهود، فجاءه الحارث بن عوف فقال: **(يا عيينة أطعني وأقم في منزلك ودع نصر اليهود، مع أني لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد ولا آمن عليك. فأبى عيينة أن يقبل قوله وقال: لا أسلم حلفائي لشيءٍ)**[1].

* فتح الحصون:

فتح الحصن الأول: **(وكان كعب بن مالك يحدّث: إن رجلاً من اليهود من أهل النطاة نادانا بعد ليلٍ ونحن بالرجيع: أنا آمنٌ وأبلغكم؟ قلنا: نعم. قال: فابتدرناه فكنت أول من سبق إليه فقلت: من أنت؟ فقال: رجلٌ من اليهود. فأدخلناه على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال اليهودي: يا أبا القاسم، تؤمني وأهلي على أن أدلك على عورة من عورات اليهود؟**[2] **قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: نعم. فدلّه على عورة اليهود. قال: فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه تلك الساعة فحضهم على الجهاد، وخبرهم أن اليهود قد أسلمها حلفاؤها وهربوا، وأنها قد تجادلت واختلفوا بينهم. قال كعب: فغدونا عليهم فظفرنا الله بهم، فلم يكن في النطاة شيءٌ غير الذرية. فلما انتهينا إلى الشق وجدنا فيه ذرية، فدفع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى اليهودي زوجته)**[3].

وفي خبر أكثر تفصيلاً أن رسول الله كان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل في مقامه بالرجيع. فلما كانت الليلة السادسة استعمل عمر بن الخطاب على العسكر، فطاف عمر بأصحابه حول العسكر، فأتي برجلٍ من اليهود في جوف الليل، فأمر به عمر أن يُضرب عنقه، فقال اليهودي: **(اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه)**.

فأمسكه عمر وانتهى به إلى باب رسول الله فوجده يصلي، فسمع رسول الله كلام عمر فسلَّم وأدخله عليه، ودخل عمر باليهودي، فسأله النبي ما وراءه، فطلب الأمان، فأعطاه، فقال: **(خرجتُ من حصن النطاة من عند قومٍ ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: فأين يذهبون؟ قال: إلى أذل مما كانوا فيه، إلى الشق، وقد رعبوا منك حتى إن أفئدتهم لتخفق. وهذا حصن اليهود فيه السلاح والطعام والودك، وفيه آلة حصونهم التي كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيبوا ذلك في بيتٍ من حصونهم تحت**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٣.
٢. أي نقطة ضعف في حصنهم.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٠.

الأرض. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وما هو؟ قال: منجينق مفككة ودبابتان[1] وسلاح من دروع وبيضٍ وسيوف). وضمن اليهودي للنبي أن يدلّه على موضعها إن دخلوا الحصن في اليوم الآتي، وقال: **(ثم انصب المنجنيق على حصن الشق، وتُدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة. فقال عمر: يا رسول الله، إني أحسبه قد صدق. قال اليهودي: يا أبا القاسم، احقن دمي. قال: أنت آمن. قال: ولي زوجة في حصن النزار فهبها لي. قال: هي لك. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ما لليهود حوّلوا ذراريهم من النطاة؟ قال: جرَّدوها للمقاتِلة، وحوَّلوا الذراري إلى الشق والكتيبة. ثم دعاه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الإسلام، فقال: أنظرني أياماً)**[2]. وفي الصباح تم الأمر كما ذكر.

أما الحصون الأخرى فقد اختلف المؤرخون في تفاصيل ما جرى لها وكيف تهاوت بين يدي المسلمين وننقل هنا صورة منها رواها ابن إسحق: **(وتدنى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم... ثم القموص، حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» منهم سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب.. وفتح الله «عزوجل» حصن الصعب بن مُعاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه.. ولما افتتح رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنيهم الوطيح والسُّلالم وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً فحاصرهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بضع عشرة ليلة)**[3].

❋ حدث ذو دلالة:

كان «يسار» عبداً لعامر اليهودي يرعى غنماً له، فلما نزل رسول الله «صلى الله عليه وآله» خيبر وقع الإسلام بقلبه فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول الله ، فقال: **(يا محمد إلى ما تدعو؟ قال: إلى الإسلام، تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قال: فما لي؟ قال: الجنة إن ثبتَّ على ذلك. فأسلم وقال: إن غنمي وديعة، فقال: أخرِجها من العسكر ثم صح بها وارميها بحصيات، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك. ففعل فخرجت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم)**. وخرج الإمام علي «عليه السلام» بالراية، وتبعه العبد فقاتل حتى قُتل. فاحتُمِل فأُدخِل خباء من أخبية العسكر، فاطّلع رسول الله في الخباء، فقال: **(لقد أكرم الله هذا العبد الأسود وساقه إلى خير، قد رأب زوجتين من الحور العين عند رأسه)**[4].

---

١. الدبابة: صندوق خشبي يحتمي تحته المقاتلون عند مهاجمة الحصون.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٠.

٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٣٠-٣٣٢.

٤. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١، ص٣٧٩.



❋ أمير المؤمنين بطل خيبر:

كان لأمير المؤمنين «عليه السلام» الدور المساعد للنبي «صلى الله عليه وآله» في تحقيق النصر، وهو الدور التنفيذي لرجل لم يعرف للجبن معنى، ولم يهدأ حتى يحقق للنبي أهدافه العسكرية، ولذا جعله النبي على رأس الجيش.

روى ابن الأثير عن الضحاك الأنصاري: (**لما سار النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى خيبر جعل علياً في مقدمته فقال: مَن دخل النخل فهو آمن. فلما تكلم بها النبي «صلى الله عليه وسلم» نادى بها علي، فنظر النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى جبريل فضحك، فقال: ما يضحكك؟ قال: إني أحبه. فقال النبي «صلى الله عليه وسلم» لعلي: إن جبريل يقول إنه يحبك. قال: وبُلّغت أن يحبني جبريل؟ قال: نعم ومن هو خير من جبريل، الله «عزوجل»**)[1].

وأعطي الإمام الراية الكبرى للحرب، قال الحلبي في سيرته: (**ولواؤه أبيض دفعه إلى علي «كرم الله وجهه»، وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب**)[2].

وروى سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: (**بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبابكر الصديق «رضي الله عنه»**

---

١. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٢، ص ٤٢٧.

٢. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٢، ص ٥٢.

برايته ـ وكانت بيضاء فيما قال ابن هشام ـ إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يك فتح، وقد جهد؛ ثم بعث الغد عمر بن الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يكُ فتح، وقد جهد؛ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ، ليس بفرّار. قال : يقول سلمة، فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عليا «رضي الله عنه» وهو أرمد، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك. قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح[1] يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال : أنا علي بن أبي طالب. قال: يقول اليهودي: علوتم، وما أُنزِل على موسى، أو كما قال. قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه)[2].

وفي رواية أخرى عن أبي رافع مولى رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (خرجنا مع علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» حين بعثه رسول الله «صلى الله عليه وآله» برايته ؛ فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود ، فطاح ترسه من يده ، فتناول علي «عليه السلام» باباً كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نَجهد على أن نقلب ذلك الباب ، فما نقلبه)[3].

وفي رواية عن عبد الله بن بريدة في «تهذيب الخصائص» قال: (سمعت أبي، بريدة يقول: حاصرنا خيبر، فأخذ الراية أبو بكر ولم يفتح له، فأخذها من الغد عمر، فانصرف ولم يفتح له، وأصاب الناس شدة وجهد، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً، فلما أصبح رسول الله «صلى الله عليه وآله» صلى الغداة، ثم جاء قائماً، ورمى اللواء، والناس على أقصافهم[4]

بريدة بن الحصيب الأسلمي، أسلم حين مر به النبي مهاجراً، هو ومن معه، وكانوا نحو ثمانين بيتاً، فصلى رسول الله العشاء الآخرة فصلوا خلفه، وأقام بأرض قومه، ثم قدم على رسول الله بعد أحد، فشهد معه مشاهده، سكن المدينة فالبصرة فمرو بخراسان حيث خرج للجهاد، وبها توفي ودفن. كان يُبغض علياً إلى أن جاء شاكياً إلى النبي في حادثة، قال: (فلما رجعت إلى النبي أخبرته بما صنع علي، قال: وكنت أبغض علياً فقال: يا بريدة، أتبغض علياً؟ قال: قلت: نعم، قال: فلا تبغضه). وعمل بريدة بحسب كلام النبي، وغدا واحداً من الصحابة المقربين للإمام علي.

١. يأنح: يعلو نفَسُه.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣٤.
٣. ن.م.
٤. قال السيد الأمين في أعيان الشيعة، ج١، ص ٣٩٩: (كذا في النسخة المطبوعة بمصر ولا أضمن صحتها فإن صحت فلعل الأقصاف جمع قصف وهو الازدحام أو جمع قصفة وهي التدافع والتزاحم ولعل الصواب على مصافهم بدل اقصافهم والله أعلم).

فما منّا إنسان له منزلة عند الرسول «صلى الله عليه وآله» إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» وهو أرمد ، فتفل ومسح في عينيه فدفع إليه اللواء وفتح الله عليه)[١].

وفي رواية ابن سعد عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يوم خيبر: لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ويفتح عليه. قال: قال عمر: فما أحببت الإمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي، فلما كان الغد دعا علياً فدفعها إليه فقال: قاتِل ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار قريباً ثم نادى: يا رسول الله، علام أقاتل؟ قال: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله)[٢]. وفي الصحيحين تتمة: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[٣].

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن جابر بن عبد الله قال : (لما كان يوم خيبر ، بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» رجلاً فجَبُن، فجاء محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، لم أر كاليوم قط، قُتل محمود بن مسلمة، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون معهم، وإذا لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت، ثم الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا، ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه، لا يولّي الدبُر، يفتح الله على يديه. فتشرّف لها الناس، وعلي يومئذ أرمد، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: سر. فقال: يا رسول الله، على ما أقاتلهم؟ فقال: على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك، فقد حقنوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله «عز وجل»، قال: فلقيهم ففتح الله عليه)[٤].

* التلاعب في النص التاريخي:

فبعد أن ذكرت النصوص التاريخية أن أبابكر كان على رأس القوة الأولى، نجده غير مذكور في النص التالي الذي يرويه الطبري في تاريخه :(نزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بحصن أهل خيبر ، أعطى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» اللواء عمر بن الخطاب، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يجبّنه أصحابُه ويجبّنونه)[٥].

١. النسائي: تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ٢١-٢٢.
٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١١٠.
٣. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٣٩٧٣.
٤. النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٤٣٩٩.
٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ١٣٦.

وفي رواية الواقدي: (انتهى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى حصن ناعم ومعه المسلمون، وحصون ناعم عدة، فرمت اليهود يومئذ بالنبل، وترس أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن رسول الله، وعلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يومئذ درعان ومغفر وبيضة، وهو على فرس يقال له الظَّرِب، في يده قناة وترس، وأصحابه محدقون به، وقد كان دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لواء الأنصار إلى رجل منهم، فخرج ورجع ولم يعمل شيئاً، فحث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المسلمين، وسالت كتائب اليهود، أمامهم الحارث أبو زينب يقدم اليهود يهد الأرض هدّاً، فأقبل صاحب راية الأنصار فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه، وخرج أسير اليهودي يقدم أصحابه معه عاديته وكشف راية أصحاب الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في موقفه، ووجد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في نفسه حِدّة شديدة، وقد ذكر لهم الذي وعدهم الله، فأمسى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مهموماً، وقد كان سعد بن عبادة [1] رجع مجروحاً وجعل يستبطىء أصحابه، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطىء أصحابه ويقول: أنتم، وأنتم. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن اليهود جاءهم الشيطان فقال لهم: إن محمداً يقاتلكم على أموالكم. نادوهم: قولوا لا إله إلا الله، ثم قد أحرزتم بذلك أموالكم ودماءكم، وحسابكم على الله. فنادوهم بذلك فنادت اليهود: إنا لا نفعل ولا نترك عهد موسى والتوراة بيننا. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار. أبشِر يا محمد بن مسلمة، غداً ـ إن شاء الله ـ يُقتل قاتل أخيك [2] وتولّي عادية اليهود. فلما أصبح أرسل إلى علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» وهو أرمد، فقال: ما أبصر سهلاً ولا جبلاً. قال: فذهب إليه فقال: افتح عينيك. ففتحهما فتفل فيهما. قال علي «رضي الله عنه»: فما رمدت حتى الساعة [3].

ثم دفع إليه اللواء ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر، فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب في عاديته، فانكشف المسلمون وثبت علي «رضي الله عنه» فاضطربا ضربات فقتله علي «رضي الله عنه»، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم، فرجع المسلمون إلى موضعهم، وخرج مرحب وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ شَاكِي السّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرّبُ
أَضْرِبُ أَحْيَانًا وَحِينًا أُضْرَبُ

فحمل علي «رضي الله عنه» فقطره على الباب وفتح الباب. وكان للحصن بابان) [4].

١. بعد أن حاول أحدهم التغطية على هوية القائد الأنصاري الذي لم ينجح في المهمة، سقط عنه سهواً فذكره هنا.
٢. أخوه محمود بن مسلمة الذي استشهد في خيبر.
٣. أي لم تُصب عيناه بالرمد بعد ذلك.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٤.

ومن المستبعد أن يكون الواقدي هو من حذف الأسماء الثلاثة، خاصة وأنه عاد وذكر اسم سعد بن عبادة بعد قليل، وهذه فضيحة لمؤرخ مثل الواقدي أن يرتكب خطئاً في غضون سطر واحد، وأستقرب أنه من عمل النساخ.

وللأسف، فإن الحقيقة التاريخية التي ثبتت لأمير المؤمنين علي «عليه السلام» في هذا المقطع من غزوة خيبر، ونصّت عليها الصحاح وكتب الحديث والتاريخ والتراجم وتعاهدها المؤرخون شاهدت محاولات لتحريفها.

المحاولة الأولى ما في الخبر التالي: (**عن عمرو بن أبي عمرو، قال: نزلت بأريحا زمن سليمان بن عبد الملك فإذا حيٌّ من اليهود، وإذا رجل يهدج [1] من الكبر. فقال: ممن أنتم؟ فقلنا: من الحجاز، فقال اليهودي: واشوقاه إلى الحجاز! أنا ابن الحارث اليهودي فارس خيابر، قتله يوم خيبر رجلٌ من أصحاب محمد يقال له أبو دجانة يوم نزل محمد خيبر، وكنا ممن أجلى عمر بن الخطاب إلى الشام. فقلت: ألا تُسلِم؟ قال: أما إنه خيرٌ لي لو فعلت، ولكن أُعيَّر، تعيرني اليهود، تقول: أبوك ابن سيد اليهود لم يترك اليهودية، قتل عليها أبوك وتخالفه؟**) [2].

المحاولة الثانية ما جاء في «الويكيبيديا» تحت عنوان «محافظة خيبر» دون تحديد المصدر: (**لما حاصرهم المسلمون خرج مرحب يتبختر بسيفه طالبا المبارزة ... فبرز له عامر بن سنان الأكوع وهو يقول:**

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي عامِرُ شَاكِي السّلَاحِ بَطَلٌ مُغامِرُ

فاختلفا ضربتين بينهما فوقع سيف مرحب في ترس عامر كما يقول الراوي).

المحاولة الثالثة ما في المغازي: (**ويقال [3]: إن مرحب برز وهو كالفحل الصؤول يرتجز وهو يقول:**

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ شَاكِي السّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرّبُ

أَضْرِبُ أَحْيَانًا وَحِينًا أُضْرَبُ

يدعو للبراز. فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس فائذن لي في قتال مرحب وهو قاتل أخي، فأذن له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في مبارزته، ودعا له بدعوات، وأعطاه سيفه، فخرج محمد فصاح: يا مرحب، هل لك في البراز؟ فقال: نعم. فبرز إليه مرحب وهو يرتجز: «قد علمت خيبر أني مرحب». وخرج محمد بن مسلمة وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي ماضِ حُلوٌ إذا شِئتُ وسمٌّ قاضِ

ويقال: إنه جعل يومئذٍ يرتجز ويقول:

---

١. يهدج: يمشي رويداً بسبب كبر سنه وضعفه.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٥.

٣. في استعمال «يقال» تضعيف للخبر.

يا نفسُ إلا تُقتَلي تَمُوتي لا صبْرَ لي بَعْدَ أبي النبيتِ

وكان أخوه محمود يكنى بأبي النبيت. قال: وبرز كل واحد منهما إلى صاحبه. قال: فحال بينهما عُشَرات[1] أصلها كمثل أصل الفحل من النخل، وأفنانٌ ـ أغصان ـ منكرة، فكلما ضرب شجر العُشَر أحدهما صاحبه استتر بالعشر حتى قطعا كل ساقٍ لها، وبقي أصلها قائماً كأنه الرجل القائم. وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه، وبدر مرحب محمداً، فيرفع السيف ليضربه، فاتقاه محمد بالدرقة فلحج سيفه[2] وعلى مرحب درعٌ مشمرة، فيضرب محمد ساقي مرحب فقطعهما. ويقال: لما اتقى محمدٌ بالدرقة وشمرت الدرع عن ساقي مرحب حين رفع يديه بالسيف، فطأطأ محمد بالسيف فقطع رجليه ووقع مرحب، فقال مرحب: أجهز يا محمد. قال محمد: ذق الموت كما ذاقه أخي محمود. وجاوزه ومرَّ به عليٌّ فضرب عنقه وأخذ سلبه، فاختصما إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» في سلبه، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله، والله ما قطعت رجليه ثم تركته إلا ليذوق مُرّ السلاح وشدة الموت كما ذاق أخي؛ مكث ثلاثاً يموت، وما منعني من الإجهاز عليه شيء، قد كنت قادراً بعد أن قطعت رجليه أن أجهز عليه. فقال علي «رضي الله عنه»: صدق، ضربت عنقه بعد أن قطع رجليه. فأعطى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» محمد بن مسلمة سيفه، فيه كتاب لا يُدرى ما هو حتى قرأه يهوديٌّ من يهود تيماء فإذا فيه: هذا سيف مرحب ... من يذقه يعطب)[3].

محمد بن مسلمة الأنصاري، حارثي من حلفاء بني عبد الأشهل، ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة، وتوفي سنة ٤٣هـ. أسلم على يد مصعب بن عمير حينما كان في المدينة، وآخى الرسول بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح. كان أحد المشاركين في تهديد بيت الزهراء بعد السقيفة. لم يبايع لأمير المؤمنين علي حين بايعه الناس بعد مقتل الخليفة عثمان. أُطلِق عليه الهارب من الفتن لأنه لما قامت الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، كسر سيفه، واتخذ لنفسه سيفًا من خشب، وبنى لنفسه بيتاً صغيراً اعتزل فيه، فلما سئل عن السبب قال: أعطاني رسول الله سيفاً، وقال لي: يا محمد بن مسلمة، جاهِد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً، فائت به أُحُداً فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو مَنيَّة قاضية، وقد فعلْتُ ما أمرني به رسول الله).

ولتكتمل الصورة نقرأ النص التالي الذي رواه ابن أبي الحديد المعتزلي قال: (وذكر

١. عشرات: نوع من الشجر الكبير المعمر يصل طوله إلى ٣ أمتار.
٢. لحج: علق ولم يستطع فكه.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٥.

شيخنا أبو جعفر الأسكافي «رحمه الله تعالى»:أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي «عليه السلام» تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أن انظروا مَن قبلكم مِن شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكَثُر ذلك في كل مِصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا.. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب الا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقُرئت كتبُه على الناس، فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعَلة لا حقيقة لها، و جدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله)[1].

❋ تتمة الخبر:

ونعود من جديد إلى ما كتبه محرر مقالة «محافظة خيبر» في «الويكيبيديا» إذ قال: (وأما الفريق الآخر يرى أن علي بن أبي طالب هو الذي قتل مرحب وهذا هو الأصح، لأن الحصن فُتح على يده بعد المبارزة التي حدثت بينهم فلما قتله علي انهار اليهود ووقعت معنوياتهم وهربوا إلى الحصون الأخرى وتم فتح حصن ناعم. فقال مرحب أثناء المبارزة:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب ... أحجمت عن صولة المغلب

فقال علي «رضي الله عنه»:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كليث غابات شديد القسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره

فلما بدأت المبارزة ضرب علي «رضي الله عنه» مرحب على رأسه فقدَّ الحجر والمِغفر ووقع السيف في الأضراس).

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٤٤-٤٥.

وفي نص البيهقي أن علياً جاء النبي برأس مرحب. وروى البرزنجي في كتاب «مقاصد الطالب» أن مرحباً كان قد تدرّع بدرعين وسيفين ومغفر وعمامتين وحجر مثقوب كالقلنسوة على رأسه. وقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: (**أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بقوله له، خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلّفتني مع النساء والصبيان، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي علياً، فأتي به أرمد، فبصق في عينه، ودفع الراية إليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾[1]، دعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي**)[2].

ونلاحظ في النص التالي في «كنز العمال» أدب علي «عليه السلام» في تعبيره عن النصر الذي تحقق، ونسبة ذلك إلى الله «عزوجل»، ففي رواية أنه قال: (**فبرز مرحب يرتجز، وبرزت له أرتجز، كما يرتجز، حتى التقينا، فقتله الله بيدي، وانهزم أصحابه، فتحصنوا وأغلقوا الباب، فلم أزل أعالجه، حتى فتحه الله**)[3].

وفي «بحار الأنوار» أن خزيمة بن ثابت استأذن النبي في أن يقول في وصف الحال، فأذن له فقال[4]:

وكان علي أرمد العين يبتغي	دواءً فلما لم يحس مداويا
شفاه رسول الله منه بتفلة	فبورك مُرقياً وبورك راقيا
وقال سأعطي الراية اليوم صارماً	حمياً مجيباً للرسول مواليا
يحب إلهي والإله يحبه	به يفتح الله الحصون الأوابيا
فأصفا بها دون البرية كلها	علياً وسماه الوزير المواخيا

* مبارزات متفرقة:

روى الواقدي أنه برز «أسير» المقاتل اليهودي الذي مرَّ بنا أنه قاد عملية رد هجوم سعد بن عبادة، فجعل يصيح: (**مَن يبارز؟ فبرز له محمد بن مسلمة فاختلفا ضربات، ثم قتله محمد بن مسلمة. ثم برز «ياسر» وكان من أشدائهم، وكانت معه حربةٌ يحوش بها المسلمين حوشاً، فبرز له علي «رضي الله عنه» فقال الزبير: أقسمت عليك**

١. سورة آل عمران: ٦١.
٢. مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.
٣. المتقي الهندي: كنز العمال، ج١٠، ص ٤٦٢.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٧، ص ٨٧.

إلا خليت بيني وبينه. ففعل عليٌّ وأقبل ياسر بحربته يسوق بها الناس، فبرز له الزبير، فقالت صفية: يا رسول الله واحزني! ابني يُقتل يا رسول الله؟ فقال: بل ابنك يَقتله. قال: فاقتتلا فقتله الزبير، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: فداك عمٌّ وخال! وقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: لكل نبي حواري وحواري الزبير وابن عمتي. فلما قتل مرحب وياسر قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أبشروا، قد ترحَّبت خيبر وتيسرت[١]. وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين طلع عامر: أترونه خمسة أذرع[٢]؟ وهو يدعو إلى البراز، يخطر بسيفه وعليه درعان، مقنع في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه عليٌّ «رضي الله عنه» فضربه ضرباتٍ، كل ذلك لا يصنع شيئاً، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم ذَفَّف عليه[٣] فأخذ سلاحه)[٤].

* مناقشة روايات التترس بالباب:

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي رافع مولى رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطرح ترسه من يده، فتناول علي بابا كان عند الحصن، فترّس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة ـ أنا ثامنهم ـ نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه)[٥].

وروى السيوطي في «تاريخ الخلفاء»: (قال جابر بن عبد الله: حمل علي الباب على ظهره يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وإنهم جروه بعد ذلك، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً)[٦]. وروى العلامة الحلي في «كشف اليقين» عن علي «عليه السلام» أنه قال: (ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية، ولكن بقوة ربانية)[٧].

كما روى المفيد في «الإرشاد» عن علي «عليه السلام» قوله: (لما عالجتُ باب خيبر، جعلته مجنّاً لي، فقاتلتهم به، فلما أخزاهم الله وضعت الباب على حصنهم طريقاً، ثم رميت به في خندقهم. وتساءل رجل عن ثقل ذلك الباب عليه، أجاب: ما كان إلا مثل جُنّتي التي في يدي في غير ذلك المقام)[٨].

أما الراوندي في «الخرائج والجرائح» فقد قدَّم تفاصيل أخرى حيث قال: (كان الباب حجراً منقوراً في صخر

١. كأن النبي تفأل بمقتل مرحب وياسر فقال ذلك استبشاراً بالنصر الكامل.
٢. الذراع ٤٥ – ٥٠ سم، وإذا ضاعفنا هذا الرقم خمس مرات فالنتيجة أن طوله يقارب الـ ٢٢٥ – ٢٥٠ سم.
٣. أي أجهز عليه وقتله.
٤. الواقدي: المغزي، ج١، ص ٢٦٦.
٥. ابن حنبل: المسند، ح ٢٣٢٢٧.
٦. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٦٧.
٧. الحلي: كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، ص ١٤١.
٨. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٢٤.

والباب من الحجر في ذلك الصخر المنقور كأنه حجر رحى، وفي وسطه ثقب لطيف، فرمى أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوسه من يده اليسرى وجعل يده اليسرى في ذلك الثقب الذي في وسط الحجر دون اليمنى لأن السيف كان في يده اليمنى، ثم جذبه إليه فانهار الصخر المنقور وصار الباب في يده اليسرى، فحملت عليه اليهود فجعل ذلك ترساً له وحمل عليهم)[1]. وذكر اليعقوبي في تاريخه أن ذلك الباب كان من الصخر وبطول أربعة أذرع وعرض ذراعين.

قال العلامة السيد محسن الأمين: **(وهذا يدلنا على أن مرحباً كان قد خرج من الحصن ومعه جماعة ليقاتل، وإذا كان الحصن حوله خندق كما مر فلا بد أن يكون مرحب ومن معه عبروا على جسر خشبي صغير عند باب الحصن فوق الخندق ، كما هو الشأن في الخنادق التي حول الحصون والمدن، فلما قتل مرحب وعاد من معه هاربين إلى الحصن عبروا على ذلك الجسر، فيمكن أن يكونوا رفعوه لما دخلوا الحصن فأعاده علي ومن معه وعبروا عليه، ويمكن أن يكون علي قد أعجلهم عن رفعه فعبر عليه هو ومن معه، ومثل هذا الجسر يكون عادة صغيراً لا يكفي إلا لعبور النفر القليل في دفعة واحدة ، فلذلك لما قلع باب الحصن جعله جسراً على الخندق ليعبر عليه أكثر مَن معه الذين كانوا خارج الخندق، ولم يعبر معه منهم إلا القليل لضيق الطريق)**.

وأضاف الأمين في بيان التنافي بين الروايات من حيث عدد الذين عجزوا عن حمل الباب: **(عن جابر الأنصاري أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً رواه البيهقي، وفي رواية للبيهقي إن علياً لما انتهى إلى الحصن المسمى القموص اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض فاجتمع عليه بعده سبعون رجلاً، فكان جهدهم أن أعادوا الباب مكانه، وجمع بين روايتي السبعين والأربعين بأن الأربعين عالجوا حمله فما قدروا فتكاملوا سبعين فحملوه، وعن الحافظ ابن حجر أنه جمع بين الرواية السابقة: لقد رأيتني في سبعة نفر إلخ، وبين رواية الأربعين، أن السبعة عالجوا قلبه والأربعين عالجوا حمله والفرق بينهما ظاهر. ثم قال: ولكن رواية السبعة واردة في الباب الترس، والأربعين في باب الحصن فلا حاجة إلى الجمع)**.

ثم قال الأمين: **(يبدو أنها قراءة صحيحة للأخبار، فمن خلال مراجعة النصوص وتضارب الأرقام والتدقيق في العبارات يمكن القول أن الإمام «عليه السلام» قد قلع بابين، الأول هو الذي تترس به، ولم يتمكن ثمانية نفر من حمله، وكان من الحجر، والآخر أكبر منه جعله جسراً للعبور، وهو ما جاء في بعض الأخبار أنه لم يتمكن أربعون أو سبعون نفراً من حمله، ويبدو أنه كان من الحديد، أو مزيجاً من الخشب والحديد)**[2].

---

١. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص ١٦٠.
٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٤٠٠.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في عينيته المكونة من ٨٠ بيتاً في مدح أمير المؤمنين«عليه السلام»[١]:

يا هازم الأحزاب لا يُثنيه عن ... خوض الحِمام مدجَّج ومدرَّعُ
يا قالع الباب الذي عن هزِّها ... عجزت أكف أربعون وأربعُ

وقال «طلائع بن رزيك» وزير الفاطميين «ت٥٥٦ هـ»[٢]:

والباب لما دحاه وهو في سغب ... من الصيام وما يخفى تعبده
وقلقل الحصن فارتاع اليهود له ... وكان أكبرهم عمداً يفنده
نادى بأعلى العلى جبريل ممتدحاً ... هذا الوصي وهذا الطهر أحمده

وقد روى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أنه قال لعلي، وكان يسير معه: **(إن الناس قد أنكروا منك شيئاً، تخرج في البرد في الملاءتين، وتخرج في الحر في الخشن والثوب الغليظ! فقال: لم تكن معنا في خيبر. قال: بلى[٣]، قال: بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبا بكر، وعقد له لواء، فرجع، وبعث عمر، وعقد له لواء فرجع، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرّار، فأرسل إليّ، وأنا أرمد، فتفل في عيني، فقال: اللهم أكفه أذى الحر والبرد. قال: ما وجدت حراً بعد ذلك، ولا برداً)**[٤].

وقد ذكر العلامة السيد محسن الأمين مجموعة من الامتيازات للإمام علي «عليه السلام» والتي لم يشاركه فيها غيره واستخلصها من بطولته في هذه الغزوة، ورتّبها وفق النقاط التالية:

الابن محمد هو مفتي الكوفة وقاضيها في زمانه، ولد سنة نيف وسبعين. قالوا: وكان نظيراً للإمام أبي حنيفة في الفقه. قال ابن حبان: كان ابن أبي ليلى رديء الحفظ، فاحش الخطأ، فكثر في حديثه المناكير، فاستحق الترك. وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: رديء الحفظ، كثير الوهم. وقال أبو أحمد الحاكم: عامة أحاديثه مقلوبة. وأما الأب عبدالرحمن فوصف بالإمام العلامة الحافظ الفقيه الأنصاري الأوسي الكوفي. قرأ القرآن على الإمام علي، وروى عن الصحابة. وعن الأعمش: سمعت عبد الرحمن يقول: (أقامني الحجاج، فقال العن الكاذبين! فقلت: لعن الله الكاذبين علي بن أبي طالب، وعبدالله ابن الزبير، و المختار بن أبي عبيد) أي الكاذبين عليهم (قال حفص: وأهل الشام حَمير يظنون أنه يوقعها عليهم، و قد أخرجهم منها ورفعهم).

١. ابن أبي الحديد: روضة المختارة: شرح القصائد العلويات السبع، ص ٥٨.
٢. السماوي: الطليعة من شعراء الشيعة: ج ١، ص ١٠٨.
٣. أي بلى لم أكن معكم.. لأنه ولد بعد وفاة النبي أو قبل ذلك بقليل.
٤. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ١١، ص ٢٨٠.

١ ـ أنه كان صاحب الراية[١] فيها كسائر الغزوات، وإنما أخذها غيره لما كان أرمد، فلما عادوا منهزمين واحد بعد واحد وشفاه الله «عزوجل» من الرمد ببركة الرسول «صلى الله عليه وآله» كان هو صاحبها.

٢ ـ قول النبي «صلى الله عليه وآله» لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراراً غير فرار يفتح الله على يديه.

٣ ـ أنه به كشفت الشدة والهم والجهد عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعن المسلمين لما انكشفت الأنصار حتى انتهوا إليه في موقفه، فاشتد ذلك عليه وأمسى مهموماً وأصاب الناس شدة وجهد، ثم طابت أنفسهم أن الفتح غداً.

٤ ـ أنه لما خرج بالراية لم يمش الهوينا بل أسرع وهرول هرولة فعل الشجاع الباسل الذي لا يبالي بشئ، فجعلوا يقولون له ارفق فلم يقف حتى ركز الراية في أصل الحصن.

٥ ـ شدة خوف اليهود وإيقانهم بأنهم مغلوبون لما سمعوا باسمه.

٦ ـ قَتْلُه مرحباً بضربة سمع العسكر صوتها.

٧ ـ قتله مرحباً وفتحه الحصن قبل أن يتتام لحاق الناس به، فإنه ما تتام آخر الناس معه حتى فتح الله لأولهم.

٨ ـ أن النبي ألبسه درعه وعممه بيده وألبسه ثيابه وشد ذا الفقار في وسطه بيده وأركبه بغلته.

٩ ـ قَتْلُه الحارث أخا مرحب وكان معروفاً بالشجاعة.

١٠ ـ ثباته حين خروج الحارث وانهزام المسلمين.

١١ ـ إنه لما بلغه قول النبي «صلى الله عليه وآله» لأعطين الراية، قال: (**اللهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت**). فلم يتطاول ولم يتصادر ولم يتساور ولم يستشرف ولم يظهر حب الإمارة.

١٢ ـ أمر النبي له أن يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله وقوله له: (**لئن يهدي الله بك**....).

١٣ ـ دعاء النبي «صلى الله عليه وآله» له أن يكفيه الحر والبرد فاستجاب الله له ذلك.

١٤ ـ تترّسه بباب لم يستطع قلبه ثمانية نفر.

١٥ ـ قلعه باب الحصن وإلقاؤه على الأرض ووضعه جسراً على الخندق واجتماع سبعين حتى أعادوه[٢].

---

١. المراد هنا الراية الكبرى أي اللواء.

٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٤٠٦.

* أحداث متفرقة:

قال الواقدي: (**قُتل الحارث، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، مع ناس من اليهود كثير، ولكن إنما سمي هؤلاء المذكورين لأنهم كانوا أهل شجاعة، وكان هؤلاء في حصن ناعم جميعاً**)[1].

ونقل معتب الأسلمي معاناة المسلمين في فترة الحصار من حيث الإمداد الغذائي، وقد أقاموا عشرة أيام يقاتلون وليس عندهم طعامٌ إلا العلف[2]، وقد حاولوا فتح حصن الصعب بن معاذ في النطاة ـ وفيه الطعام والماشية والمتاع ـ دون جدوى، فقد كان فيه خمسمائة مقاتل يمنعون اقتحام الحصن، فأجمعت قبيلة «أسلم» أن يرسلوا أسماء بن حارثة فيقول للنبي: (**إنَّ أسلمَ يُقرئونك السلام ويقولون إنّا قد جَهِدنا من الجوع والضعف. فقال بريدة بن الحصيب: والله إن**[3] **رأيت كاليوم قط أمراً بين العرب يصنعون فيه هذا! فقال عِند بن حارثة: والله إنا لنرجو أن تكون البعثة إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مفتاح الخير**).

توجّه أسماء بن حارثة إلى النبي فقال: (**يا رسول الله، إن أسلم تقول: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف، فادعُ الله لنا. فدعا لهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: والله ما بيدي ما أقريهم. ثم صاح بالناس فقال: اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه، أكثره طعاماً وأكثره ودكاً. ودفعوا باللواء إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح، وندب الناس، فما رجعنا حتى فتح الله علينا الحصن، حصن الصعب بن معاذ**).

وروي عن أم مُطاع الأسلمية شيئاً من التفصيل حول ما جرى حيث قالت: (**فندب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فنهضوا، فرأيت أسلم أول مَن انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ، وإن عليه لخمسمائة مقاتل، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله، وكان عليه قتال شديد. برز رجلٌ من اليهود يقال له يوشع يدعو إلى البراز، فبرز إليه الحباب بن المنذر فاختلفا ضرباتٍ فقتله الحباب. وبرز آخر يقال له الزيال، فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري فبدره الغفاري فيضربه ضربةً على هامته، وهو يقول: خذها وأنا الغلام الغفاري. فقال الناس: بطُلَ جهادُه. فبلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: ما بأسٌ به، يؤجر ويحمد**)[4].

وروى الواقدي حادثة أخرى فيها نظر، قال: (**وكان أبو اليُسر يحدّث أنهم حاصروا حصن الصعب بن معاذ ثلاثة أيام، وكان حصناً منيعاً، وأقبلت غنمٌ لرجلٍ من اليهود ترتع وراء حصنهم، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: مَن رجلٌ يطعمنا من هذه الغنم؟ فقلت: أنا يا رسول الله، فخرجت أسعى مثل الظبي، فلما نظر إليّ رسول الله**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٦.
٢. ن.م. ص٢٦٧.
٣. إن هذه نافية بمعنى: ما رأيت.... إلخ.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٧.

«صلى الله عليه وآله» مولياً قال: اللهم متِّعنا به. فأدركت الغنم وقد دخل أولها الحصن، فأخذت شاتين من آخرها فاحتضنتهما تحت يدي، ثم أقبلت أعدو كأن ليس معي شيء حتى أتيت بهما رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأمر بهما رسول الله «صلى الله عليه وآله» فذُبحتا ثم قسمهما، فما بقي أحدٌ من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منها. فقيل لأبي اليسر: وكم كانوا؟ قال: كانوا عدداً كثيراً. فيقال: أين بقية الناس؟ فيقول: في الرجيع بالمعسكر. فسُمع أبو اليسر ـ وهو شيخ كبير ـ وهو يبكي في شيءٍ غاظه من بعض ولده، فقال: لَعمري بقيتُ بعد أصحابي ومتعوا بي وما أمتع بهم. لقول رسول الله «صلى الله عليه وآله»: اللهم متعنا به. فبقي فكان من آخرهم)[1]. والذي يمكن ملاحظته على الخبر الأمور التالية:

١) ما الذي يخرج غنم اليهودي لترعى خارج الحصن في ظروف القتال تلك؟

٢) مرّ بنا سابقاً في قصة العبد الراعي أن النبي أمره بإرسال الأغنام، بينما نجده هنا يأخذ منها لإطعام جيشه، والفرق إن صحّت الرواية يعود إلى اختلاف الظرف، فتلك كانت أمانة بيد الراعي، أما هنا فقد اعتبرها النبي «صلى الله عليه وآله» من الغنائم.

٣) هل تكون دعوة النبي «صلى الله عليه وآله» ذات أثر سلبي بهذه الصورة على الرجل بحيث يشتكي من بقائه وحيداً؟

قال الواقدي: **(وكان أبو رهم الغفاري يحدّث قال: أصابنا جوعٌ شديدٌ، ونزلنا خيبر زمان البلح، وهي أرض وخيمة**[2] **حارةٌ شديدٌ حرها. فبينا نحن محاصِرون حصن الصعب بن معاذ فخرج عشرون حماراً منه أو ثلاثون، فلم يقدر اليهود على إدخالها، وكان حصنهم له منعةٌ، فأخذها المسلمون فانتحروها، وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها في القدور والمسلمون جياع، ومر بهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهم على تلك الحال فسأل فأخبر فأمر منادياً: إن رسول الله ينهاكم عن الحمر الإنسية ـ قال: فكَفّوا القدور ـ وعن متعة النساء، وعن كل ذي ناب ومخلب).**

وقال: **(كان جابر بن عبد الله يقول: أطعمنا رسول الله «صلى الله عليه وآله» لحوم الخيل، فذبح قومٌ من المسلمين خيلاً من خيلهم قبل أن يفتح حصن الصعب بن معاذ، فقيل لجابر: أرأيت البغال، أكنتم تأكلونها؟ قال: لا).**

وروى: **(عن أم عمارة، قالت: ذبحنا بخيبر لبني مازن ابن النجار فرسين، فكنا نأكل منهما قبل أن يفتح حصن الصعب بن معاذ)**[3].

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٧.
٢. أي لم يُوافِق هواؤها أبدانَهُم.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٧.

وأسجّل هنا عدة نقاط تعليقاً على هذه الأخبار، فحكم أكل لحم الحُمر الأهلية عند أهل السنة نجده في النص التالي في كتاب «المغني» لابن قدامة، قال: (أكثر أهل العلم يرون تحريم الحمر الأهلية. قال أحمد: خمسة عشر من أصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» كرهوها. قال ابن عبدالبر: لا خلاف بين علماء المسلمين اليوم في تحريمها وحكي عن ابن عباس وعائشة «رضي الله عنه»، أنهما كانا يقولان بظاهر قوله «سبحانه»: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾[1]. وتلاها ابن عباس وقال: ما خلا هذا، فهو حلال. وسئلت عائشة «رضي الله عنه» عن الفأرة، فقالت: ما هي بحرام. وتلت هذه الآية. ولم ير عكرمة وأبو وائل بأكل الحمر بأساً، وقد روي عن غالب بن الحر قال: أصابتنا سنة فقلت: يا رسول الله، أصابتنا سِنَة، ولم يكن في مالي ما أطعم أهلي إلا سمان حمر، وإنك حرمت لحوم الحمر الأهلية. فقال «أطعِم أهلك من سمين حُمُرك، فإنما حرمتها من أجل جَوَالِّ القرية[2]. ولنا: ما روى جابر، أن النبي «صلى الله عليه وسلم» نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية، وأذِن في لحوم الخيل. متفق عليه... ويحتمل أن رسول «صلى الله عليه وسلم» رخص لهم في مجاعتهم، وبيّن علة تحريمها المطلق، لكونها تأكل العذرات. قال عبدالله بن أبي أوفى: حرمها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ألبتة، من أجل أنها تأكل العذرة. متفق عليه)[3].

وعلى كل حال لا أدري ما دخل متعة النساء بين أكل الحمير وكل ذي ناب ومخلب؟! كما ووُضع خبر على لسان خالد بن الوليد الذي لم يكن قد أسلم بعدُ، ففي المغازي: (عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن أبيه، عن جده قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: حضرت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بخيبر يقول: حرامٌ أكل الحمر الأهلية والخيل والبغال. قالوا: وكل ذي نابٍ من السباع، ومخلب من الطير)[4]. وعلق الواقدي على ذلك بقوله: (الثبت عندنا أن خالداً لم يشهد خيبر، وأسلم قبل الفتح هو وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة أول يومٍ من صفر سنة ثمان).

أما في مصادر الإمامية فيمكن تقسيم ما ورد في هذا الخصوص إلى:

١) عن علي «عليه السلام» قال: (حرّم رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة). وعلَّق عليه الحر العاملي: (أقول: حمله الشيخ وغيره على التقية لأن إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية)[5].

١. سورة الأنعام: ١٤٥.
٢. الجوال التي تأكل الجَلّة وهي العذرة.
٣. ابن قدامة: المغني، مسألة ٧٧٨٢.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٦٨.
٥. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٦٣٨٧.

٢) وبسند معتبر أن الإمام محمد بن علي الباقر «عليه السلام» سئل: **(عن أكل لحوم الحمر الأهلية؟ فقال: نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن أكلها يوم خيبر، وإنما نهى عن أكلها في ذلك الوقت لأنها كانت حمولة الناس، وإنما الحرام ما حرَّم الله في القرآن)**[١].

٣) وعنه «عليه السلام»: **(إنما نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن أكل لحوم الحمر الإنسية بخيبر، لئلا تفنى ظهورها وكان ذلك نهي كراهة، لا نهي تحريم)**[٢].

٤) وعن محمد بن سنان: **(أن الرضا «عليه السلام» كَتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: كره أكل لحوم البغال والحمر الأهلية، لحاجة الناس إلى ظهورها واستعمالها، والخوف من فنائها وقلتها، لا لقذر خلقها، ولا قذر غذائها)**[٣].

٥) وعن محمد بن مسلم عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام» قال: **(سألته عن لحوم الخيل والبغال والحمير؟ فقال: حلال، ولكن الناس يعافونها)**[٤].

* مشاهد قتالية أخرى:

روى الواقدي: **(عن محمد بن مسلمة قال: كنت فيمن ترّس عن النبي «صلى الله عليه وآله»، فجعلت أصيح بأصحابه: تراموا بالحَجَف ـ الترس المصنوع من الجلد فقط فهو يطلب منهم البقاء متترسين في حال أنهم يرمون العدو بالسهام ـ ففعلوا فرمونا حتى ظننت ألا يقلعوا، فرأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» رمى بسهم، فما أخطأ رجلاً منهم، وتبسم إليّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» وانفرجوا ودخلوا الحصن)**[٥]. والذي يدفعنا إلى الشك في هذه الرواية أن الرسول «صلى الله عليه وآله» ما كان يقاتل في الغزوات، ولو بالرماية، وهو الأمر الذي بحثناه مسبقاً. ثم ما معنى أن يبتسم النبي لابن مسلمة؟ أعُجُباً بنفسه لأنه أصاب اليهودي؟ وأخيراً، لاحظ الخبر التالي كيف يقاتل المسلمون في ظرف صعب والنبي يحثّهم عليه دون أن يقاتل بنفسه.

فعن جابر بن عبد الله قال: **(لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ، والمسلمون جياع والأطعمة فيه كلها، وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح ومعه رايتنا وتبعه المسلمون، وقد أقمنا عليه يومين نقاتلهم أشد القتال، فلما كان اليوم الثالث بكَّر رسول الله «صلى الله عليه وآله» عليهم، فخرج رجل من اليهود كأنه الدقل**[٦] **في يده حربةٌ له،**

---

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٢٠.
٢. ن.م. ح ٣٠١٢٤.
٣. ن.م. ح ٣٠١٢٧.
٤. ن.م. ح ٣٠١٣٣.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٨.
٦. الدقل: نوع من النخل أو صاري السفينة.

وخرج وعاديته معه، فرموا بالنبل ساعةً سراعاً، وترسنا عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأمطروا علينا بالنبل، فكان نبلهم مثل الجراد حتى ظننت ألا يقلعوا، ثم حملوا علينا حملة رجلٍ واحدٍ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو واقف، قد نزل عن فرسه ومدعم يمسك فرسه. وثبت الحباب برايتنا، والله ما يزول، يراميهم على فرسه، وندب رسول الله «صلى الله عليه وآله» المسلمين وحضهم على الجهاد ورغّبهم فيه، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يُغنِمه إياها. قال: فأقبل الناس جميعاً حتى عادوا إلى صاحب رايتهم، ثم زحف بهم الحباب فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً، وترجع اليهود على أدبارها حتى لحمها الشر فانكشفوا سراعاً، ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم، ووافوا على جدره، وله جدر دون جدر فجعلوا يرموننا بالجَندل[1] رمياً كثيراً، ونحَونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول).

وعاد القتال لاحقاً من جديد، واستمات اليهود فيه، واستشهد يومئذٍ على الباب ثلاثة من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، كما قُتل من اليهود عدة. ثم نجح المسلمون في إجبار اليهود على الدخول إلى حصنهم والدخول معهم في جوفه. قال جابر: **(فلما دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غنم، فقتلنا من أشرف لنا، وأسرنا منهم، وهربوا في كل وجهٍ يركبون الحرة يريدون حصن قلعة الزبير، وجعلنا ندعهم يهربون، وصعد المسلمون على جدره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً، ففتتنا أعضاد اليهود بالتكبير، لقد رأيت فتيان أسلم وغفار فوق الحصن يكبرون، فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أن هناك؛ من الشعير، والتمر، والسمن والعسل والزيت والودك[2] ونادى منادي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: كُلوا واعلفوا ولا تحتملوا. يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم. فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مقامهم طعامهم وعلف دوابهم، لا يمنع أحد أن يأخذ حاجته ولا يخمِّس الطعام[3]. ووجدوا فيه من البَز[4] والآنية، ووجدوا خوابي السَّكَر[5]، فأمِروا فكسروها، فكانوا يكسرونها حتى سال السَّكَر في الحصن، والخوابي كبار لا يُطاق حَملها. وكان أبو ثعلبة الخشني يقول: وجدنا فيه آنيةً من نحاسٍ وفخارٍ كانت اليهود تأكل فيها وتشرب، فسألنا رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا. وقال: أسخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد، وكلوا واشربوا. وأخرجنا منه غنماً كثيراً وبقراً وحمراً، وأخرجنا منه آلةً كثيرةً للحرب، ومنجنيقاً ودبابات وعُدة، فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهراً، فعجَّل الله خزيهم)[6].**

---

١. الجندل: الحجارة.
٢. الودك: دسم اللحم.
٣. فالمعروف أن الغنيمة تخمس أولاً ثم توزع على المقاتلين.
٤. البز: نوع من الثياب.
٥. خوابي السكر: أواني حفظ المُسكرات.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٦٨.

عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله الأنصاري المديني، وصف بالإمام المحدِّث. ت١٥٣هـ، وروايته عن أبيه هنا غير مسندة إلى صحابي، ولا إلى جده الأكبر وهو رافع ابن سنان الأنصاري الأوسي.

وعن عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه، قال: **(لقد خرج من أطم[١] من حصن الصعب بن معاذ من البَز عشرون عكماً[٢] محزومةً من غليظ متاع اليمن، وألفٌ وخمسمائة قطيفة؛ يقال: قدم كل رجل بقطيفةٍ على أهله. ووجدوا عشرة أحمال خشب، فأمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق، فمكث أياماً يحترق، وخوابي سَكَرٍ كُسرت، وزقاق خمر فأهريقت)**. ولكن لماذا يأمر النبي بإحراق الخشب؟ ألم يمكن الاستفادة منها ولو ببيعها ـ مثلاً ـ دون حاجة إلى حملها إلى المدينة؟ وهل كان سلوك النبي «صلى الله عليه وآله» تدميرياً في مثل هذه الأحداث وهو الذي نجده يوصي المقاتلين بعدم قطع الأشجار وتجنب هدم المباني وعدم التعرض للآمنين؟ وهذا يدفعنا إلى الشك في الرواية خاصة وأننا نجد الراوي يكمل قصته بذكر أمر غريب، حيث قال: **(وعمد يومئذٍ رجل من المسلمين فشرب من الخمر، فرُفع إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» فكره حين رُفع إليه فخفقه بنعليه؛ ومن حضره، فخفقوه بنعالهم. وكان يقال له عبد الله الخمار، وكان رجلاً لا يصبر عن الشراب قد ضربه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مراراً. فقال عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»: اللهم العنه! ما أكثر ما يُضرب! فقال رسول الله«صلى الله عليه وسلم»: لا تفعل يا عمر، فإنه يحب الله ورسولَه. قال: ثم راح عبد الله فجلس معهم كأنه أحدهم!)**[٣]. أهكذا كانت عقوبة المعاقر للخمر؟ وهل يجتمع حب الله والنبي مع مثل هذه المعاقرة؟

ومن بين الروايات التي تصف الغنائم التي أخرجت من ذلك الحصن الخبر التالي الذي روته أم عمارة قالت: **(لقد وجدنا في حصن الصعب بن معاذ من الطعام ما كنت أظن أنه لا يكون بخيبر، جعل المسلمون يأكلون مقامهم شهراً وأكثر من ذلك الحصن، فيعلفون دوابهم، ما يُمنع أحدهم ولم يكن فيه خمس، وأخرج من البزور شيءٌ كثيرٌ يباع في المِقسم[٤] ووجد فيه خرز من خرز اليهود. فقيل لها: فمن الذي يشتري ذلك في المِقسم؟ قالت: المسلمون واليهود الذين كانوا في الكتيبة فأُمِّنوا، ومَن حضر من الأعراب، فكل هؤلاء يشتري، فأما من يشتري من المسلمين فإنما يحاسب به مما يصيبه من المغنم)**[٥].

وعلى إثر هذه الهزيمة انتقل اليهود من حصن ناعم، ومن حصن الصعب بن معاذ، ومن كل حصون النطاة،

١. أطم: حصن مبني من الحجارة.
٢. البز: نوع من الثياب. وعكم: ثياب مشدودة بعضها إلى بعض.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٠.
٤. المقسم: موضع تقسيم الغنائم.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٠.

إلـى حصنٍ فرعي يقال له قلعة الزبير، فزحف رسول الله «صلى الله عليه وآله» إليهم والمسلمون، فحاصروهم وغلّقوا عليهم حصنهم وهو حصين منيع، إذ كان في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه، وبقيت بقايا لا ذكر لهم في بعض حصون النطاة. فجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» بإزائهم رجالاً يحرسونهم، لا يطلع أحدٌ عليهم إلا قتلوه. كما أمر النبي المسلمين بتحويل معسكرهم من الرجيع إلـى موقعهم الأول القريب من الحصون، إذ أمِن ما كان يخاف منه في بداية المواجهات. ثم أقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» على محاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام، ثم وقع القتال بين الطرفين، وانتصر المسلمون، فتحوّل رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلـى أهل الشق.

* أحداث حصون الشِّق:

لما تحول رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلـى الشِّق، وبه حصونٌ ذات عدد، كان أول حصنٍ بدأ منها حصن أُبيّ، فقام رسول الله على قلعةٍ يقال لها سمران، فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً. وخرج رجلٌ من اليهود يقال له «غزّال» فدعا إلـى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزال فكان أعزل، ورجع مبادراً منهزماً إلـى الحصن، وتبعه الحباب فقطع عرقوبه، فوقع فذفف عليه. وخرج آخر مطالباً من يبارزه، فبرز إليه رجلٌ من المسلمين من آل جحش فقُتل الجحشي. وقام مكانه يدعو إلـى البراز ويبرز له أبو دجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المغفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه، ثم ذفف عليه وأخذ سلبه، درعه وسيفه، فجاء به إلـى النبي فنفَله رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك. وأحجموا عن البراز، فكبرّ المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، يقدمهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب مَن كان فيه من المقاتلة، وتقحّموا الجدر كأنهم الظباء حتى صاروا إلـى حصن النّزار بالشق، وجعل يأتي من بقي من قُلل النطاة إلـى حصن النزار فغلّقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع. وزحف رسول الله إليهم في أصحابه فقاتلوهم فكانوا أشد أهل الشق قتالاً، رموا المسلمين بالنبل والحجارة، ورسول الله معهم، حتى أصابت النبل ثيابه وعلقت به. ولما فتح النبي حصن النزار بقيت حصونٌ في الشق، فهرب أهلها منها حتى انتهوا إلـى أهل الكتيبة والوطيح وسُلالم.

وروي عن محمد بن مسلمة قوله: (**نظر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلـى حصن النزار فقال: هذا آخر حصون خيبر كان فيه قتال؛ لما فتحنا هذا الحصن لم يكن بعده قتالٌ حتى خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من خيبر**)[1].

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧١.

وسبى المسلمون قرابة الألفين من النساء والذرية الذين كانوا في هذا الحصن، ومن بينهم صفية بنت حُيي ابن أخطب، وابنة عم لها، حيث كان يهود خيبر قد فرغوا حصن النطاة للمقاتلة، وأخرجوا النساء والذرية إلى حصن النزار، فكان السبي فيه.

ثم تحول رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الكتيبة والوطيح وسُلالم التي تحصَّن فيها أهلها أشد التحصن، وانضمّ إليهم كل مَن هرب من الحصون التي تساقطت من قبل، فتحصّنوا معهم. وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مغلّقين عليهم، حتى همَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يرميهم بالمنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله «صلى الله عليه وآله» الصلح، على الرغم من أنهم أخذوا للقتال أهبته، ففي خبر أنه كانت معهم خمسمائة قوس عربية، وكان لكنانة بن أبي الحقيق من دقة الرمي أن بإمكانه أن يرمي بثلاثة أسهم من مسافة ثلاثمائة ذراع[1] فيدخلها في هدف طولُه شِبر في عَرض شِبر. فلماذا لم يقاتلوا وقد وقف الرماة على أهبة الاستعداد؟

تقول الرواية أن الرعب أخذ منهم كل مأخذ، حتى أن كنانة هذا نهض إلى قوسه فما قدر أن يوترها من الرعدة، وأومأ إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع في حصنه، فما رئي منهم أحدٌ، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب. فأرسل كنانة رجلاً من اليهود يقال له «شماخ» ليعرض الصلح على النبي، فوافق النبي للعرض الذي قدّم إليه، فنزل كنانة في نفر من اليهود، وتم الصلح وفق البنود التالية:

١) حقن دماء مَن في حصونهم من المقاتلة

٢) ترك الذرية لهم

٣) يخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم

٤) يخلّون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مالٍ أو أرضٍ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، وعلى البَز، إلا ثوباً على ظهر إنسان.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (**وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً**)[2]. فتم الصلح على ذلك، وأرسل رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الأموال فقبضها، الأول فالأول، وبعث إلى المتاع والحلقة فقبضها، فوجد من الدروع مائة درع، ومن السيوف أربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجعابها.

١. ١٥٠ متراً تقريباً.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٢.

* كنز آل أبي الحقيق:

لم يكن كنانة صادقاً في وعده بكشف كل الممتلكات، فبادر النبي «صلى الله عليه وآله» عن ثروة آل أبي الحقيق (**وحليّ من حليهم، كان يكون في مسك الجمل**[1] **كان أسراهم**[2] **يُعرف به، وكان العرس يكون بمكة فيُقدم عليهم، فيستعار ذلك الحلي الشهر فيكون فيهم، وكان ذلك الحلي يكون عند الأكابر فالأكابر من آل أبي الحقيق. فقال: يا أبا القاسم، أنفقناه في حربنا فلم يبق منه شئ، وكنا نرفعه لمثل هذا اليوم، فلم تُبقِ الحرب واستنصار الرجال من ذلك شيئاً**). وأخذ الرجل يُقسم قسماً مؤكداً أنه صادق في قوله، وأخذ منه النبي المواثيق المغلّظة من جديد، وأنه سيكون مباح الدم إن كان كاذباً، والرجل مصرٌّ على كلامه. فقام رجلٌ من اليهود إلى كنانة بن أبي الحقيق فقال: (**إن كان عندك ما يطلب منك محمدٌ أو تعلم علمه فأعلمه فإنك تأمن على دمك، وإلا فوالله ليظهرن عليه، قد اطلع على غير ذلك بما لم نعلمه. فزبره ابن أبي الحقيق فتنحى اليهودي فقعد. ثم سأل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ثعلبة بن سلام بن أبي الحقيق ـ وكان رجلاً ضعيفاً ـ عن كنزهما، فقال: ليس لي علم غير أني قد كنت أرى كنانة كل غداة يطوف بهذه الخربة ـ قال: وأشار إلى خَربة ـ فإن كان شيءٌ دفنه فهو فيها**)[3].

وكان كنانة بن أبي الحقيق لما ظهر رسول الله «صلى الله عليه وآله» على النطاة أيقن بالهلكة، فذهب بجلد الجمل، فيه حليهم، فحفر له في خربةٍ ليلاً ولا يراه أحد، ثم سوّى عليه التراب بالكتيبة، وهي الخربة التي رآه ثعلبة يدور بها كل غداة. فأرسل مع ثعلبة الزبير بن العوام ونفراً من المسلمين إلى تلك الخربة، فحفر حيث أراه ثعلبة فاستخرج منه ذلك الكنز.

* تصرف إنساني:

وحيث أُسِرت صفية بنت حيي، أرسل بها النبي «صلى الله عليه وآله» مع بلال إلى رحلِه، فمرَّ بها وبابنة عمها على القتلى، فصاحت ابنة عمها صياحاً شديداً، فكره رسول الله ما صنع بلال فقال: (**أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى! فقال بلال: يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها**)[4]. وقد روت ابنة أبي القين المزني خبراً بشأن ما جرى للسيدة صفية بعد ذلك، قالت: (**كنت آلف صفية من بين أزواج النبي «صلى الله عليه وسلم» وكانت تحدّثني عن قومها وما كانت تسمع منهم. قالت: خرجنا**

١. مسك الجمل: جلده.
٢. أسراهم: ساداتهم وأشرافهم.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٣.
٤. ن.م.

من المدينة حيث أجلانا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأقمنا بخيبر فتزوجني كنانة بن أبي الحقيق فأعرس بي قبل قدوم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأيام، وذبح جُزُراً ودعا باليهود، وحولني في حصنه بسُلالم، فرأيت في النوم كأن قمراً أقبل من يثرب يسير حتى وقع في حجري. فذكرت ذلك لكنانة زوجي فلطم عيني فاخضرّت). ثم ذكرت كيفية انتقالها إلى الحصن الذي سُبيت منه، وما جرى بينها وبين النبي من حوار، قالت: **(فأرسل بي إلى رحله، ثم جاءنا حين أمسى فدعاني، فجئت وأنا مقنّعة حيية، فجلست بين يديه فقال: إن أقمت على دينك لم أُكرِهُك، وإن اخترت الله ورسوله فهو خيرٌ لك. قالت: أختار الله ورسوله والإسلام. فأعتقني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وتزوجني وجعل عتقي مهري)**.

ونقلت أيضاً شيئاً من معاناتها من بعض زوجات النبي: **(وكنتُ ألقى من أزواجه، يفخرن عليَّ يقلن: يا بنت اليهودي. وكنت أرى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يلطف بي ويكرمني، فدخل علي يوماً وأنا أبكي فقال: ما لك؟ فقلت: أزواجك يفخرن علي ويقلن: يا بنت اليهودي. قالت: فرأيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد غضب ثم قال: إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي: أبي هارون وعمي موسى)**[1].

* الإبقاء على اليهود في خيبر:

على الرغم من الاتفاق الذي تم أخيراً في بنود الصلح على الإجلاء، إلا أن يهود خيبر عرضوا على النبي «صلى الله عليه وآله» أن يبقيهم فيها على أن يعملوا في زراعتها، وللمسلمين نصف ثمارها، فأبقاهم وأقرهم على ذلك. فلماذا لم يصر النبي على الإجلاء كما فعل من قبل مع يهود يثرب؟ أجيب عن ذلك بأمرين:

١) خيبر مترامية الأطراف وتحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة خبيرة بمتطلبات الزراعة ومصادر المياه والتجارة المتعلقة بها وغير ذلك، فكان من المناسب أن يبقى أهلها فيها ليديروا شؤونها.

٢) بقاؤهم ضعافاً بعد مقتل أبطالهم وفرض الجزية عليهم ووقوعهم تحت سلطان الدولة الإسلامية خير من إجلائهم من الجزيرة العربية بما قد يدفعهم للتحالف من جديد مع أطراف أخرى كالروم مثلا بما قد يقوّي شوكتهم ويجهّزهم لعدوان جديد.

* عيينة بن حصن وانكشاف الموقف:

حاول عيينة بن حصن سيد غطفان استغلال الموقف حين عاد مجدداً إلى خيبر لنصرة حلفائه اليهود بعد أن اكتشف الخدعة التي وقع فيها، فلما كان دون خيبر بمكانٍ يقال له الحُطام بات ليلته فيه، فرأى في المنام أنه قد أعطي جبلاً بخيبر يُعرف باسم «ذا الرقيبة»، وأوّل ذلك بقوله: **(قد والله قد أخذْتُ برقبة محمد!)**.

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٤.

ولكنه إذ وصل خيبر تفاجأ بأن الأمر قد حُسم لصالح النبي، فقال عيينة: (**أعطني يا محمد مما غنمت من حلفائي، فإني انصرفت عنك وعن قتالك وخذلت حلفائي ولم أُكثِر عليك، ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كذبت، ولكن الصياح الذي سمعت أنفرك إلى أهلك. قال: أجزني يا محمد. قال: لك ذو الرقيبة. قال عيينة: وما ذو الرقيبة؟ قال: الجبل الذي رأيت في النوم أنك أخذته. فانصرف عيينة فجعل يتدسس إلى اليهود ويقول: ما رأيت كاليوم أمراً؛ والله ما كنت أرى أحداً يصيب محمداً غيركم**).

وصار يسائلهم عما جرى متحسّراً، ثم انصرف إلى قومه يفتل يديه، فقال له الحارث بن عوف: (**ألم أقل لك إنك توضع في غير شيء؟ والله ليظهرن محمدٌ على من بين المشرق والمغرب، اليهود كانوا يخبروننا هذا. أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل واليهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذَبحان، واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث، قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحب أن تُعلِم اليهود بقولي فيه!**)[1].

* محاولة اغتيال النبي:

تقول بعض الروايات أن نفوس بعض اليهود لم تهدأ لما جرى، ومن بينهم زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم، إذ خطّطت لاغتيال النبي «صلى الله عليه وآله» بسُمٍّ تضعه في طعامه، وأن النبي نهش نهشة من اللحم المسموم نهشة، ثم أدرك سميّته، وأن الكتف المطبوخة هي التي نطقت وأخبرته بالمؤامرة! وأن صحابياً بجانبه أكل من اللحم وأدرك أنه مسموم ولكنه لم يحب أن ينغّص على النبي طعامه فلم يتكلم أملاً في أن يتدخل العامل الغيبي وينقذه من السمّ! وأن النبي أمر بالمرأة اليهودية فقُتلت ثم صُلبت! وفي رواية أنه عفا عنها، وفي ثالثة أنها أسلمت! وأن النبي أمر بالحجامة لإخراج السم من جسد من أكل من أصحابه من ذلك الطعام. بل وتكمل بعض الروايات تلك القصة بأن وفاة النبي بعد ثلاث سنوات كانت من أثر ذلك السم! ونلاحظ على الخبر ما يلي:

١) من الغريب أن يقبل النبي أن يأكل من طعام أعدّته يهودية هُزم أهلها وثُكلت في أقرب الناس إليها.

٢) هناك تضارب في الروايات في تفاصيلها من حيث الأسماء وتأثير السم وغير ذلك.

٣) كيف لسم أن يؤثر بعد ٣ سنوات؟ وهل يمكن قبول ذلك علمياً؟

٤) ما معنى إخبار الذراع بأنها مسمومة؟ فإن قيل بمعنى النطق والتكلم كما في بعض النصوص فلماذا لم تنطق قبل أن ينهش منها النبي؟ نعم، قد يقال أن تعبيره «صلى الله عليه وآله» كما في إحدى الأخبار: (**كفوا**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٥.

أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة). بمعنى الإيحاء، كأن يقول: «تخبرني عينك أنك لم تنم»، دون نطق من العين. وقد يكون ما ورد في الحديث من هذا الباب، بينما حرّفه البعض إلى كلمة «تكلم».

* توزيع الغنائم:

استعمل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على الغنائم يوم خيبر فروة ابن عمرو البياضي، ولما اجتمعت الغنائم الضخمة كلها، أمر بها رسول الله فجزئت خمسة أجزاء وبدأت عملية التقسيم. ونادى منادي رسول الله: (**أدوا الخيط والمخيط، فإن الغلول عارٌ وشنارٌ ونارٌ يوم القيامة**)[1].

فروة بن عمرو الأنصاري البياضي. شهد العقبة وبدراً وما بعدها من المشاهد. آخى النبي بينه وبين عبد الله بن مخرمة العامري. كان النبي يبعثه لحساب محصول التمر للزكاة، وكان يوصف بدقة تقديراته.

وكان من بين الغنائم مصاحف فيها التوراة، فجاءت اليهود تطلب استراجعها، فأمر النبي «صلى الله عليه وآله» بردّها عليهم. هذا الموقف من النبي قارنه المستشرق الدكتور إسرائيل ولفنسون بموقف آخر يعود إلى العام ٧٠ للميلاد، قال: (**ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول «صلى الله عليه وسلم» من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» بالبنان، ويحفظون له هذه إليه، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب. م، أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم، وبين رسول الإسلام**)[2].

وطالب النبي من أصحابه المقاتلين إشراك بعض الفقراء من حديثي العهد بالإسلام في الغنائم وإن لم يقاتلوا، ففي الخبر أنه: (**قدم الدوسيون [3] فيهم أبو هريرة والطفيل بن عمرو وأصحابهم ونفرٌ من الأشجعيين[4]، فكلم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة. قالوا: نعم يا رسول الله. ونظر أبان بن سعيد بن العاص إلى أبي هريرة فقال: أما أنت فلا. فقال أبو هريرة: يا رسول الله، هذا قاتل ابن قَوْقِل. قال أبان بن**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٧.

٢. ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٧٠.

٣. قبيلة دوس إحدى قبائل زهران الواقعة بمنطقة الباحة الواقعة جنوب غرب مكة في الطريق إلى اليمن. لما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي دعا قومه فأسلموا، وقدم معه منهم المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت، وفيهم أبو هريرة وعبد الله بن أزيهر الدوسي، ورسول الله بخيبر، فساروا إليه فلقوه هناك.

٤. قبيلة أشجع متفرعة من غطفان، وهم ينتسبون إلى أشجع بن ريث بن غطفان، امتدت ديارهم في فدك وخيبر وشمال المدينة المنورة وأنحاء أخرى من جزيرة العرب.

سعيد: يا عجباه لوَبرٍ تدلّى علينا من قدوم ضأنٍ ينعى عليَّ قتل امرىءٍ مسلم أكرمه الله على يدي ولم يهنني[1] على يده)[2]. وفي نص آخر أن النبي صرف النظر عن الأمر إذ رأى كراهيتهم لذلك، ولكن لنا أن نتساءل بما يُضعف من صحة الرواية: ولماذا لم يعطهم النبي من خمس المغنم بدل أن يُشركهم في حصص المقاتلين؟

وأما النساء اللائي حضرن الغزوة فقد أعطاهن النبي مما أفاء الله عليه، فعن ثبيتة بنت حنظلة الأسلمية، عن أمها أم سنان قالت: (... فرجعت مع أم سلمة فقالت لي حين أردنا ندخل المدينة، وكنت على بعيرٍ من إبل النبي «صلى الله عليه وسلم» منحه لي، فقالت: بعيرك الذي تحتك لك رقبته أعطاكيه رسول الله. قالت: فحمدت الله وقدمت بالبعير فبعته بسبعة دنانير. قالت: فجعل الله في وجهي ذلك خيراً). وفي نص آخر: (فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء[3]، ولم يُسهم). وفي نص ثالث: (عن الحارث بن عبد الله بن كعب، قال: رأيت في رقبة أم عمارة خرزاً حمراً فسألتها عن الخرز فقالت: أصاب المسلمون خرزاً في حصن الصعب بن معاذ دفن في الأرض، فأتي به إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأمر به بمن معه من النساء فأحصين، فكنا عشرين امرأة، فقسم ذلك الخرز بيننا هذا وأرضخ لنا من الفيء، قطيفةً وبرداً يمانياً ودينارين، وكذلك أعطى صواحبي). وأعطى هدية للمولود في خيبر: (عن عبد الله بن أنيس، قال: خرجت مع النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى خيبر ومعي زوجي حبلى، فنفَست بالطريق فأخبرت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: انقع لها تمراً فإذا أنعم بله فامرثه ـ اجعله كالحساء ـ ثم تشربه. ففعلت فما رأت شيئاً تكرهه. فلما فتحنا خيبر أحذى النساء ولم يسهم لهن، فأحذى زوجتي وولدي الذي ولد).

وأعطى لليهود الذين جاءوا معه من المدينة نصيباً: (عن حزام بن سعد ابن محيصة قال: فخرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بعشرة من يهود المدينة غزا بهم إلى خيبر، فأسهم لهم كسِهمان المسلمين. ويقال: أحذاهم ولم يُسهم لهم، وكان معهم مملوكون، منهم عمير مولى أبي اللحم. قال عمير: ولم يُسهم لي وأعطاني خُرْثِيّ متاع[4] وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مُحذيهم)[5].

عمير مولى أبي اللحم الغفاري، واسم أبي اللحم: عبدالله بن عبد بن مالك بن عبد الله بن عفان. وكان أبي اللحم شاعراً. وإنما سمي أبي اللحم لأنه كان يمتنع من أكل اللحم. شهد عمير فتح خيبر.

١. والمقصود من ذلك أن أباناً حين كان مشركاً قتل الصحابي النعمان بن قوقل في أحُد، والقواقلة من الخزرج، ثم دخل أبان في الإسلام بعد صلح الحديبية قبل غزوة خيبر فلم يُقتَل على يد المسلم وبالتالي لم تلحقه المهانة بذلك، والإسلام يجبُّ ما قبله، ومن جهة أخرى كان مصير النعمان هو الجنة بالشهادة.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٨.

٣. رضَخ لفلان من ماله: أعطاه قليلاً من كثير.

٤. خرثي: متاع البيت وأثاثه.

٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٨-٢٧٩.

* خُمس المغنم:

روي الواقدي عن الزُّهري أنه قال: (الكتيبة[١] خُمس رسول الله «صلى الله عليه وسلم». قال: فكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يُطعم مَن أطعم في الكتيبة[٢] وينفق على أهله منها. قال ابن واقد: والثبت عندنا أنها خمس النبي «صلى الله عليه وسلم» من خيبر؛ لأن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لم يُطعِم من الشِّق والنطاة أحداً وجعلها سهماناً للمسلمين، وكانت الكتيبة التي أطعم فيها).

أما عن محصول الخمس فجاء: (كانت الكتيبة تخرص ثمانية آلاف وسق تمر[٣] فكان لليهود نصفها أربعة آلاف، وكان يزرع في الكتيبة شعير، فكان يحصد منها ثلاثة آلاف صاع[٤] فكان للنبي «صلى الله عليه وسلم» نصفه؛ ألف وخمسمائة صاع شعير، وكان يكون فيها نوى فربما اجتمع ألف صاع فيكون لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» نصفه، فكل هذا قد أعطى منه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المسلمين من الشعير والتمر والنوى)[٥].

وقال جبير بن مطعم[٦]: (لما قسم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» سهم ذوي القربى بخيبر من بني هاشم وبني المطلب[٧] مشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخواننا من بني المطلب لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أفرأيت إخواننا من بني المطلب، إنما نحن وهم منك بمنزلةٍ واحدة، أعطيتهم وتركتنا. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن بني المطلب لم يفارقوني في الجاهلية والإسلام؛ دخلوا معنا في الشِّعب، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحدٌ! وشبك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بين أصابعه)[٨].

وحدث في عهد الخليفة عمر أن اتخذ تدبيراً مغايراً لما درج عليه النبي وأبوبكر من بعده بشأن من مات وله نصيب من خيبر من الخمس، روى الواقدي: (وكان من مات من المطعَمين أو قُتل في حياة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأبي بكر فإنه يرثه تلك الطُّعمة من وِرث ماله. فلما ولي عمر بن الخطاب قبض طعمة كل من مات ولم يورثه، فقبض طعمة زيد بن حارثة، وقبض طعمة جعفر بن أبي طالب، وكلمه فيه علي بن أبي طالب فأبى؛

---

١. أي حصن الكتيبة.
٢. أي من هذا الخمس.
٣. الوسق ٦٠ صاعاً والصاع ٣ كجم تقريباً = ١٨٠ كجم، فالمحصول ١٨٠ X ٨٠٠٠ = ١٤٤٠ طناً.
٤. أي ٩ طن تقريباً.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٨٢.
٦. وهو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي.
٧. وهم بنوالمطلب بن عبد مناف بن قصي.
٨. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٨٣.

وقبض طعمة صفية بنت عبد المطلب، فكلمه الزبير في ذلك حتى غالظه فأبى عليه برده، فلما ألح عليه قال: أعطيك بعضه. قال الزبير: لا والله، لا تخلف تمرةً واحدةً تحبسها عني! فأبى عمر تسليمه كله إليه. قال الزبير: لا آخذه إلا جميعاً! فأبى عمر وأبى أن يرد على المهاجرين. وقبض طعمة فاطمة، فكُلِّم فيها فأبى أن يفعل. وكان يجيز لأزواج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ما صنعن، فماتت زينب بنت جحش في خلافته فخلى بين ورثتها وبين تلك الطعمة، وأجاز ما صنعن فيه من بيع أو هبة، وورث ذلك كل من ورثهن، ولم يفعل بغيرهن. وأبى أن يجيز بيع من باع تلك الطعمة، وقال: هذا شيء لا يُعرف، إذا مات المطعَم بطل حقه فكيف يجوز بيعه؟ إلا أزواج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فإنه أجاز ما صنعن، فلما ولي عثمان كُلِّم في تلك الطعمة فرد على أسامة ولم يرد على غيره. فكلمه الزبير في طعمة صفية أمه فأبى يرده وقال: أنا حاضرك حين تكلم عمر، وعمر يأبى عليك يقول: خُذ بعضه، فأنا أعطيك بعضه الذي عرض عليك عمر، أنا أعطيك الثلثين وأحتبس الثلث. فقال الزبير: لا والله، لا تمرة واحدة حتى تسلمه كله أو تحتبسه).

وفي نص آخر ما يدل على أن الاستثناء لم يقتصر على أمهات المؤمنين: (حدثني شعيب بن طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، قال: لما توفي أبو بكر «رضي الله عنه» كان ولده ورثته يأخذون طعمته من خيبر؛ مائة وسق في خلافة عمر وعثمان، ورثت امرأته أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، وحبيبة بنت خارجة ابن زيد بن أبي زهير، فلم يزل جارياً عليهن حتى كان زمن عبد الملك أو بعده فقُطع)[1].

هذا، وقد كان مجموع الشهداء خمسة عشر رجلاً، بينما قُتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

❋ تدابير ما بعد الغزوة:

المساقاة هي اتفاق شخص مع آخر على سقي أشجار مثمرة وإصلاح شؤونها إلى مدة معينة مقابل حصة من أثمارها.

ذكرنا مسبقاً أن النبي سمح لليهود بالقيام بشؤون الزراعة في خيبر، وقد تم ذلك وفق عقد المساقاة، وفي الخبر أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» : (لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمد، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها. فساقاهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خيبر على شطرٍ من التمر والزرع، وكان يزرع تحت النخل، فقال رسول الله: أقرّكم على ما أقركم الله. فكانوا على عهد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حتى توفي، وأبي بكر وصدرٍ من خلافة عمر). ثم إن الخليفة عمر أجلى اليهود من خيبر، وسبب ذلك كما جاء في عدة مصادر منها الرواية التالية في السيرة النبوية لابن هشام: (قال ابن اسحاق: وحدثني نافع مولى عبدالله بن عمر عن عبدالله بن عمر، قال:

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٨٤.

خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا، قال: فعُدي عليَّ تحت الليل، وأنا نائم على فراشي ففُدعت[١] يداي من مرفقي فلما أصبحت استصرخ عليَّ صاحباي فأتياني فسألاني من صنع هذا بك؟ قلت: لا أدري، قال: فأصلحا من يدي، ثم قدما بي على عمر «رضي الله عنه» فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبدالله بن عمر، ففدعوا يديه كما قد بلغكم، مع عَدْوهم على الأنصاري قبله[٢]، لا نشك أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به، فإني مخرج يهود، فأخرجهم)[٣]. وفي نصوص أخرى في صحيح مسلم وسنن أبي داود وغيرهما: (.. فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك)[٤].

أما على عهد النبي «صلى الله عليه وآله» فقد جاء في الأخبار أن مسلماً اغتيل في خيبر بعد فتحها، وقصة ذلك في المغازي كالتالي: (عن سعد بن حزام بن محيصة، عن أبيه، قال: كنا بالمدينة والمجاعة تصيبنا، فنخرج إلى خيبر فنقيم بها ما أقمنا ثم نرجع، وربما خرجنا إلى فدك وتيماء. وكانت اليهود قوماً لهم ثمار لا يصيبها قطعة، أما تيماء فعينٌ جاريةٌ تخرج من أصل جبلٍ لم يصبها قطعه منذ كانت، وأما خيبر فماءٌ واتنٌ، فهي مغفرة في الماء، وأما فدك فمثل ذلك. وذلك قبل الإسلام). ويكمل الراوي كيف أنه خرج بعد فتح خيبر إليها مع أحد أصحابه، الذي اختفى بعد عدة أيام من مكوثهم بخيبر، ثم دلّه غلامٌ على جثة صاحبه، قال له: (تعال أدلك على صاحبك. فانتهى بي إلى منهر فأقامني عليه، فإذا الذباب يطلع من المنهر. قال: فتدليت في المنهر فإذا صاحبي قتيل، فقلت لأهل الشق: أنت قتلتموه! قالوا: لا والله، ما لنا به علم! قال: فاستعنت عليه بنفرٍ من اليهود حتى أخرجته وكفنته ودفنته، ثم خرجت سريعاً حتى قدمت على قومي بالمدينة فأخبرتهم الخبر. ونجد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يريد عمرة القضية، فخرج معي من قومي ثلاثون رجلاً، أكبرنا أخي حويصة، فخرج معنا عبد الرحمن بن سهل أخو المقتول[٥] وكان عبدالرحمن بن سهل أحدث مني، فهو مستعبرٌ على أخيه رقيقٌ عليه، فبرك بين يدي رسول

١. فدعت: أصابها الفسخ.

٢. يشير بذلك إلى الخبر التالي: (أقبل مظهر بن رافع الحارثي بأعلاج من الشام يعملون بأرضه وهم عشرة، فأقبل حتى نزل بهم خيبر فأقام بها ثلاثة أيام، فيدخل بهم رجلٌ من اليهود فقال: أنتم نصارى ونحن يهود وهؤلاء قومٍ عرب قد قهرونا بالسيف، وأنتم عشرة رجال أقبل رجلٌ واحدٌ منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس، وتكونون في رقٍ شديد، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه. قالوا: ليس معنا سلاحٍ. فدسوا إليهم سكينين أو ثلاثة. قال: فخرجوا فلما كانوا بثبار قال لأحدهم، وكان الذي يخدمه منهم: ناولني كذا وكذا. فأقبلوا إليه جميعاً قد شهروا سكاكينهم، فخرج مظهر يعدو إلى سيفه وكان في قراب راحلته، فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه، ثم انصرفوا سراعاً حتى قدموا خيبر على اليهود فآووهم وزودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٧٢.

٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٥٧.

٤. مسلم: المسند الصحيح، ح ١٥٥١.

٥. المقتول عبد الله بن سهل.

الله «صلى الله عليه وسلم» وجلسنا حوله، وقد بلغ النبي «صلى الله عليه وسلم» الخبر، فقال عبد الرحمن: يا رسول الله إن أخي قُتل. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كبّر، كبّر! فتكلمت فقال: كبّر، كبّر! فسكت. وتكلم أخي حويصة فتكلم بكلمات وذكر أن اليهود تهمتنا وظنتنا ثم سكت، فتكلمت وأخبرت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الخبر. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إما أن يدوا صاحبكم وإما أن يأذنوا بحربٍ من الله ورسوله، وكتب النبي «صلى الله عليه وسلم» إليهم في ذلك فكتبوا إليه: ما قتلناه. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن ولمن معهم: تحلفون خمسين يميناً وتستحقون دم صاحبكم؟ قالوا: يا رسول الله، لم نحضر ولم نشهد. قال: فتحلف لكم اليهود؟ قالوا: يا رسول الله، ليسوا بمسلمين)[1].

واتفق الرواة على أن الدية أعطيت لأهل القتيل، ولكنهم اختلفوا في مصدرها، فقيل أن النبي «صلى الله عليه وآله» وأده من عنده مائة ناقة، وقيل بل جعل ديته على اليهود لأنه قُتل بحضرتهم، وقيل أن النبي أعان في الدية ببضعة وثلاثين بعيراً.

ولك أن تقارن بين هذا التدبير النبوي وبين تدبير الخليفة عمر فيما تناولناه مسبقاً حين اتخذ قرار إجلاء يهود خيبر. ولعل الفارق أن الدولة الإسلامية على عهد الخليفة عمر اتسعت بشكل كبير، وبالتالي فالأيدي العاملة كثيرة، ويمكن الاستغناء عن اليهود العاملين فيها.

كما وصدرت اعتداءات متكررة من بعض المسلمين بعد الصلح مع اليهود، حيث كانوا يدخلون عليهم بلا استئذان ويتصرفون في حرثهم ومحاصيلهم، فشكت اليهود ذلك إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأمر النبي بجمع المسلمين، وخطب فيهم قائلاً: **(إن اليهود شكوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمّنّاهم على دمائهم وعلى أموالهم والذي في أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم، وإنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها)**.

ونجح هذا التدبير: **(وكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئاً إلا بثمن، فربما قال اليهودي للمسلم: أنا أعطيكه باطلاً! فيأبى المسلم إلا بثمن)**[2].

* أمر فدك:

جاء في بعض المصادر التاريخية أن اسم مدينة فدك ورد في وثيقة بابلية تؤكد أن المدينة وقعت تحت احتلال الملك البابلي «نبونيد» الذي كان يحكم في القرن السادس قبل الميلاد. وفي يومنا هذا هي مدينة زراعية تعرف باسم الحائط تابعة لمحافظة حائل في المملكة العربية السعودية، وهي مشهورة بالنخيل، وأغلب سكانها من الحضر

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٢٩١.
٢. ن.م. ص ٢٧٢.

ومن بادية بني رشيد وغيرهم، ويطلق على أهل البلدة لقب الحايطي، وتبعد مسافة ١٠٠ كم عن مدينة خيبر.

وأما خبر فدك ضمن أحداث فتح خيبر، فإنه لما أقبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى خيبر فدنا منها، بعث محيصة بن مسعود إلى فدكٍ يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ويحل بساحتهم. ولكنهم ركنوا إلى قوة وكثرة أهل خيبر وحصانة قلاعها، فامتنعوا عن الإجابة، حتى جاءهم خبر قتل أهل حصن ناعم، فذهب أحد سادتهم يقال له «نون بن يوشع» في نفرٍ من اليهود، وصالحوا رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يحقن دماءهم وأن يكون لهم نصف الأرض بتربتها، ولرسول الله نصفها، فقبل رسول الله ذلك، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب وأجلى يهود خيبر، بعث إليهم مَن يقوِّم أرضهم، ثم أخذها ودفع إليهم نصف قيمة النخل بتربتها، فبلغ ذلك خمسين ألف درهم أو يزيد، وأجلاهم إلى الشام.

وقد كان النبي «صلى الله عليه وآله» يطعم أهله من الفيء، وما زاد يوزعه على المحتاجين. وبعد وفاة رسول الله استأثر الخليفة أبوبكر بفدك، فطالبته السيدة الزهراء «عليها السلام» بحقها، فعن أم المؤمنين عائشة: **(أن فاطمة «عليها السلام» بنت النبي «صلى الله عليه وسلم» أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر. فقال أبوبكر: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: لا نورِّث. ما تركنا صدقة. إنما يأكل آل محمد في هذا المال. وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً. فوجدت**

محيصة بن مسعود الأنصاري الأوسي الحارثي، شهد أُحداً والخندق وما بعدهما من المشاهد كلها.

فدك كانت من الفيء لأنها لم تُفتح عنوة، وحكم الفيء كما جاء في قول الله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـكِنَّ اللَّـهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الحشر:٦. ولم تكن فدك وحدها ملك رسول الله، بل كان ما انتقل إلى ملكه بحسب ما نص عليه جمع من الباحثين كالتالي: ما وُهب للنبي وذلك وصية مخيريق اليهودي له عند إسلامه يوم أحُد، وكانت سبع حوائط في بني النضير، وما أعطاه الانصار من أرضهم وهو مالا يبلغه الماء. وحقه من الفئ من أرض بني النضير حين أجلاهم لعدم وقوع قتال. وكذلك نصف أرض فدك، وثلث أرض وادى القرى أخذه في الصلح حين صالح أهلها اليهود، وكذلك حصنان من حصون خيبر وهى الوطيح والسلالم أخذهما صلحاً. وأخيراً سهمه من خُمس خيبر، وما افتتح فيها عنوة، فكانت هذه كلها ملكاً لرسول الله خاصة لا حق فيها لأحد غيره.



فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت. وعاشت بعد النبي «صلى الله عليه وسلم» ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها)[1].

بل في شرح نهج البلاغة ومصادر أخرى أن النبي وهبَها فدكاً في حياته، قال ابن أبي الحديد المعتزلي: (لما كلمت فاطمة أبا بكر بكى، ثم قال: يا بنت رسول الله، والله ما ورَّث أبوك ديناراً ولا درهماً وإنه قال: إن الأنبياء لا يورِّثون، فقالت: إن فدك وهبها لي رسول الله «صلى الله عليه وآله». قال فمن يشهد بذلك؟ فجاء علي بن أبي طالب «عليه السلام» فشهد، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان يقسمها. قال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وصدق علي، وصدقت أم أيمن وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك لأبيك. كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي. قال: فلك على الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك. قالت: الله لتفعلن! قال: والله لأفعلن. قالت: اللهم اشهد. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي)[2].

وفي شرح نهج البلاغة أيضاً أنها قالت: (ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3]. إيهاً معاشر المسلمين، أبتز إرث أبي! أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك

١. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٣٩٩٨.
٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢١٦.
٣. سورة المائدة: ٥٠.

ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً! فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك)[١]. وفي السيرة النبوية للحلبي: **(وفى كلام سبط ابن الجوزي رحمه الله أنه «رضي الله عنه» كتب لها بفدك ودخل عليه عمر «رضي الله عنه» فقال: ما هذا؟ فقال: كتابٌ كتبته لفاطمه بميراثها من أبيها. فقال: مماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثم أخذ عمر الكتاب فشقَّه)**[٢].

وفي نهج البلاغة عن علي «عليه السلام» أنه قال: **(بلى، كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، و سخَت عنها نفوس آخرين. ونِعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غدٍ جدث)**[٣]. وجاء في كتب الحديث والتاريخ أن الخليفة عثمان بن عفان أقطع مروان فدكاً[٤]. وفي فتوح البلدان للبلاذري عن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز: **(ثم ولـي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك فصارت لـي وللوليد وسليمان. فلما ولـي الوليد سألته حصته منها فوهبها لـي، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي، فاستجمعتُها. وما كان لـي من مال أحب إلـيّ منها فاشهدوا أنى قد رددتها إلى ما كانت عليه)**[٥].

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي: **(فلما ولـي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلـى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلـى ولد فاطمة «رضي الله عنه» فكانت في أيديهم في أيام عمر بن عبد العزيز، فلما ولـي يزيد بن عبد الملك قبضها فلم تزل في أيدي بني أمية)**[٦].

وفي شرح نهج البلاغة: **(فكتب إليه والـي المدينة: أن فاطمة قد ولدت في آل عثمان**[٧] **وآل فلان وفلان فعلى من أرد منهم؟ فكتب إليه: أما بعد، فإني لو كتبت إليك آمرك أن تذبح شاة لكتبت إلـيَّ: أجمّاء**[٨] **أم قرناء؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لونها؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة «عليها السلام» من علي «عليه السلام» والسلام. قال أبو المقدام: فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه وقالوا له: هجنت فعل الشيخين**[٩]**. وخرج إليه عمر بن قيس في جماعه من أهل الكوفة فلما عاتبوه على فعله قال: إنكم**

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢١٢.
٢. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ٥١٣.
٣. الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٢٨٣.
٤. الشوكاني: نيل الأوطار، حاشية المسألة ٢٤٠٧.
٥. البلاذري: فتوح البلدان، ح ٩٨.
٦. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٢٣٩.
٧. كانت فاطمة بنت الإمام الحسين قد تزوجت ابن عمها الحسن المثنى، فتوفي عنها عام ٩٧ هـ، فتزوجها عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان بن عفان .
٨. جماء: ليس لها قرن.
٩. أي أدخلت فيه ما ليس منه.

جهلتم وعلمت، ونسيتم وذكرت. إن أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: فاطمة بضعة مني، يسخطها ما يسخطني ويرضيني ما أرضاها. وإن فدك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثم صار أمرها إلى مروان فوهبها لعبدالعزيز أبي، فورثتها أنا وإخوتي عنه، فسألتهم أن يبيعوني حصتهم منها فمن بائع وواهب حتى استجمعت لي، فرأيت أن أردها على ولد فاطمة. قالوا: فإن أبيت إلا هذا فأمسك الأصل وأقسم الغلَّة. ففعل)[1].

وفي العهد العباسي دفعها أبوالعباس السفاح إلى عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فكان هو القيّم عليها يفرقها في بني علي بن أبي طالب، فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم ثم قبضها موسى الهادي ومَن بعده إلى أيام المأمون فجاءه رسول بني علي ابن أبي طالب فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها. فكُتب السجل وقُرئ على المأمون، فقام دعبل الشاعر وأنشد[2]:

أصبح وجهُ الزمان قد ضحكا ... بردِّ مأمون هاشم فدكا

وفي فتوح البلدان تفصيل للإجراء الذي اتخذه المأمون بهذا الصدد حيث كتب إلى والي المدينة: (**... وقد كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أعطى فاطمة بنت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فدك وتصدق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ولم تزل تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأى أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها ويسلمها إليهم، تقرباً إلى الله «تعالى» بإقامة حقه وعدله وإلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بتنفيذ أمره وصدقته. فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتابة به إلى عماله. فلئن كان ينادى في كل موسم، بعد أن قبض الله نبيه «صلى الله عليه وسلم»، أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة ذلك، فيقبل قوله وينفذ عدته، إن فاطمة «رضي الله عنه» لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لها. وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها، وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك.. فلما استخلف المتوكل على الله أمر بردّها إلى ما كانت عليه قبل المأمون**)[3].

و تتضح القيمة المادية والمعنوية لفدك من خلال النقاط التالية:

١) ما ذكرناه من أن عمر منع أبا بكر من ترك فدك للزهراء لضعف المالية العامة مع احتياجها إلى التقوية لما يتهدد الموقف من حروب الردة.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص ١٠٣.
٢. ن. م. ص ٨٤.
٣. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٧-٢٨.

٢) قول الخليفة أبوبكر للسيدة فاطمة الزهراء «عليها السلام» في محاورة له معها حول فدك : (... **كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال وينفقه في سبيل الله**)[١].

٣) تقدير البعض نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس للهجرة كما في شرح النهج لابن أبي الحديد.

وفي رأي الشهيد السيد محمد باقر الصدر أن الإمام علي «عليه السلام» لابد وأنه استرجع فدكاً إبان خلافته أن: (**الشئ الثابت هو أن أمير المؤمنين علياً انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان، كسائر ما نهبه بنو أمية في أيام خليفتهم**)[٢]. بينما صرّحت عدّة روايات بعدم إرجاع الإمام علي «عليه السلام» لفدك أيام حكومته، كما صرّحت بالعلة التي من أجلها لم يفعل ذلك، ومن بينها:

الرواية الأولى: الصدوق في علل الشرائع عن أبي بصير عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: (**قلت له: لم لم يأخذ أمير المؤمنين «عليه السلام» فدك لمّا ولي الناس، ولأي علة تركها؟ فقال: لأن الظالم والمظلومة قد كانا قدما على الله «عزوجل»، وأثاب الله المظلومة وعاقب الظالم، فكره أن يسترجع شيئاً قد عاقب الله عليه غاصبه وأثاب عليه المغصوبة**).

الرواية الثانية: الصدوق في علل الشرائع: عن إبراهيم الكرخي قال: (**سألت أبا عبد الله «عليه السلام» فقلت له: لأي علة ترك أمير المؤمنين فدكا لمّا ولي الناس ؟ فقال: للاقتداء برسول الله «صلى الله عليه وسلم» لمّا فتح مكة، وقد باع عقيل ابن أبي طالب داره، فقيل له : يا رسول الله ألا ترجع إلى دارك؟ فقال «صلى الله عليه وسلم» وهل ترك عقيل لنا داراً ؟ ! إنا أهل بيت لا نسترجع شيئاً يؤخذ منّا ظلماً، فلذلك لم يسترجع فدكاً لمّا ولي**).

الرواية الثالثة: الصدوق في علل الشرائع: عن الحسن بن فضّال عن الإمام الكاظم «عليه السلام» قال: (**سألته عن أمير المؤمنين «عليه السلام» لم لم يسترجع فدكاً لمّا ولي الناس ؟ فقال : لأنّا أهل بيت لا نأخذ حقوقنا ممّن ظلمنا إلا هو**[٣] **ونحن أولياء المؤمنين، إنما نحكم لهم، ونأخذ حقوقهم ممّن ظلمهم، ولا نأخذ لأنفسنا**)[٤].

* يهود وادي القرى وتيماء:

أكمل النبي «صلى الله عليه وآله» ما بدأ به مع يهود خيبر وفدك بالتوجه إلى وادي القرى حيث يستوطن بعضهم فيه، فعبّأ أصحابه للقتال وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، ورايةً إلى الحباب بن المنذر، ورايةً

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص ٢١٤.
٢. الصدر: فدك في التاريخ، ص ٣٦.
٣. يعني إلا الله سبحانه.
٤. الصدوق: علل الشرائع، ج١، ص١٥٤-١٥٥.

إلـى سهل بن حنيف، ورايةً إلـى عباد بن بشر. ثم دعاهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلـى الإسلام وأخبرهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله. فبرز رجلٌ منهم وبرز إليه الزبير بن العوام فقتله؛ ثم برز آخر فبرز إليه الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز له علي «عليه السلام» فقتله؛ ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله؛ حتى قتل رسول الله «صلى الله عليه وآله» منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل رجلٌ دعا من بقي إلـى الإسلام.

ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذٍ فيصلي رسول الله «صلى الله عليه وآله» بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلـى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وعاد إليهم صبيحة اليوم التالـي، فلم تمضِ سوى سويعات قلائل حتى استسلموا، وغنمه الله أموالهم، وأصاب المسلمون أثاثاً ومتاعاً كثيراً. وأقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها.

ولما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله «صلى الله عليه وآله» خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله على الجزية. فلما كان زمن خلافة عمر بن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخُرج أهل تيماء ووادي القرى؛ لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلـى المدينة حجازٌ، وأن ما وراء ذلك من الشام، ولكل حكم مختلف، وأنه لابد من إخراج غير المسلمين من الحجاز.

* نهاية الغزوة:

وبذا نكون قد انتهينا من استعراض أحداث هذه الغزوة المهمة بنتائجها للمرحلة القادمة من عهد الرسالة، بالإضافة إلـى الانتعاش الاقتصادي الكبير الذي حصل للمسلمين ولدولتهم من خلال الغنائم المهمة التي حصلوا عليها والتي كانت كما قال الله «عزوجل»: ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

١. سورة الفتح: ٢٠.

غزوة
مؤتة



غزوة مؤتة (جيش الأمراء)

على الرغم من عدم حضور النبي في هذه الغزوة، إلا أنها تعد من الغزوات الرئيسة والمهمة على عهده بلحاظ:

- عدد المقاتلين «٣٠٠٠ مقاتل»
- طبيعة العدو «من الروم وحلفائهم من العرب»
- كونها مقدمة لغزوة أخرى كبيرة هي غزوة تبوك
- وقوعها خارج الجزيرة العربية

❊ تحديد زمني ومكاني:

نص المؤرخون على أن المعركة وقعت في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة. قال ابن هشام في السيرة النبوية: (**عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان**)[١]. وهذا يتوافق مع نهايات شهر أغسطس وشهر سبتمبر سنة ٦٢٩ م.

أخذت الغزوة اسمها من مكان وقوع القتال فيها، ولها اسم آخر «غزوة جيش الأمراء» بلحاظ تعدد الأمراء الذين عيّنهم النبي «صلى الله عليه وآله» لقيادة الجيش تباعاً. ويبدو أن الاسم «مؤتة» غير عربي، ولعل إلى هذا أشار الحموي بقوله: (**لم أظفر في قولٍ بمعنى مؤتة**)، وأضاف: (**مؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام**)، ونقل قول المهلبي: (**على اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تُعرف بمؤتة، بها قبر جعفر بن أبي طالب**)[٢].

تقع بلدة مؤتة حالياً في محافظة الكَرَك، وتبعد عن مدينة الكَرَك ١٢ كم، و١٤٠ كم جنوب عمّان. وتبعد عن المدينة المنورة قرابة ١٠٠٠ كم.

❊ مؤتة عبر التاريخ:

استوطنت مؤتة من قبل «المؤابيين»، ولعلهم كانوا المؤسسين لها، ومؤاب قبيلة كانت تسكن الضفة الشرقية للبحر الميت، وأسست مملكة بهذا الاسم.. ثم خضعت مؤتة لسيطرة الإدوميين، وهم سكان جنوب وجنوب

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٧٣.
٢. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٢٠.



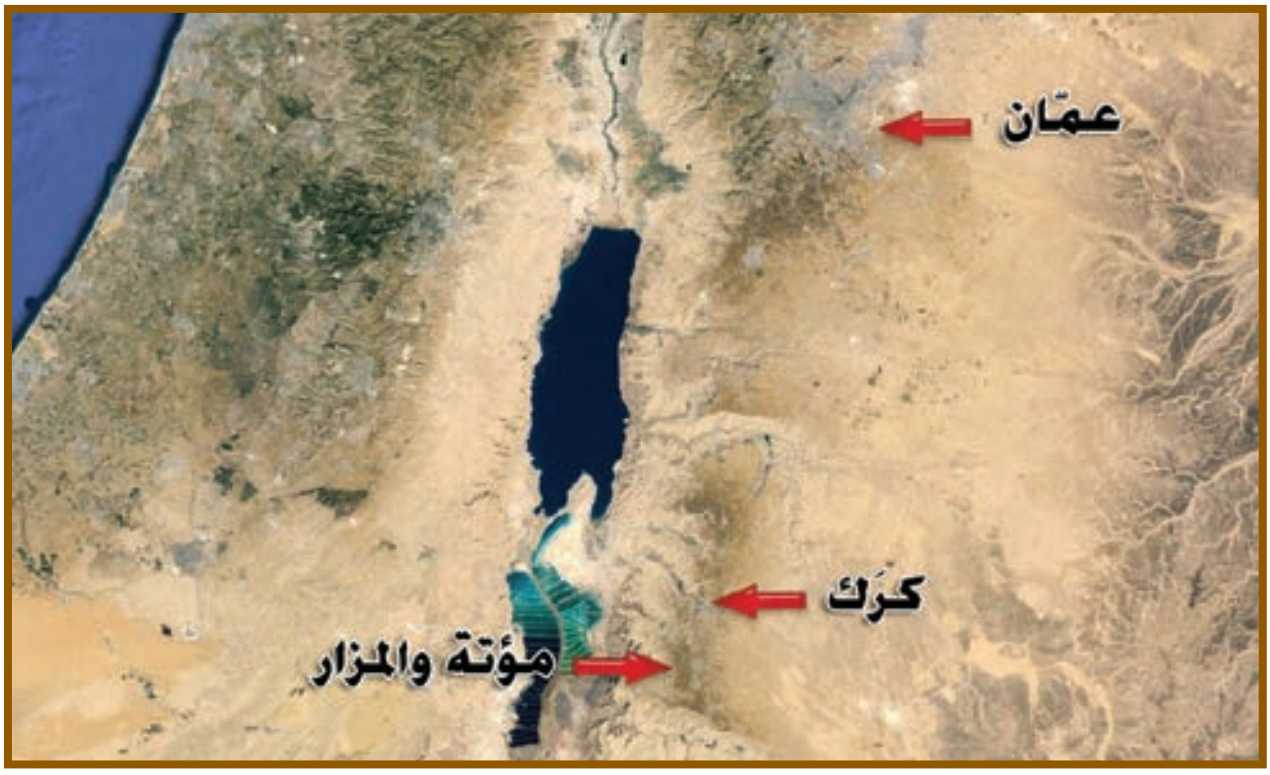
شرق البحر الميت، وقد استوطنوا فيها منذ ٤,٠٠٠ سنة. ثم جاء من بعدهم الأنباط، وهم عرب ارتحلوا من شبه الجزيرة العربية واستوطنوا هذه المنطقة. وعندما قامت الإمبراطورية الرومانية باجتياح المنطقة كانت مؤتة مأهولة من قبل الغساسنة، وبنو غسّان قبيلة عربية مهاجرة، أصلها من قبائل الأزد اليمنية.

وبالقرب من مؤتة الحالية بلدة تحمل اسم «المزار الجنوبي» وفيها مرقد شهداء مؤتة وموقع حدوث المعركة، وسميت البلدة بهذا الاسم لوجود مزار الشهداء فيها. بلغ عدد سكانها عام ٢٠٠٩ قرابة ٣١,٠٠٠ نسمة، بينما يسكن في مؤتة ٢٣,٠٠٠ نسمة.

❊ آل الجعافرة:

من سكان البلدة آل الجعافرة «الجعفري» وهم ينتسبون إلى الشهيد جعفر بن أبي طالب. جاء في كتاب «الصفوة، جوهرة الأنساب، الأردن» لطلال بن الشيخ حسين البطاينة أن الجعافرة يستقرون في بلدة «راكين» في «الكَرَك»، وفي «المزار الجنوبي»، وأن لهم أقارب في بلدة «ترقوميا» في منطقة الخليل بفلسطين، وهم يحملون نفس الاسم «الجعافرة».

يُذكَر أنه في أواخر القرن الرابع الهجري خرج بنو الشريف الجمَّال أبو الفرج نعمة الله بن سلطان بن سرور بن رافع بن الحسن بن جعفر بن إبراهيم بن إسماعيل بن الأمير جعفر السيد الأغر بن إبراهيم الأعرابي بن محمد



الرئيس الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، من الجزيرة العربية إلـى بلاد الشام هرباً من الاضطهاد الذي كان سائداً في ذلك الوقت والواقع على كل الهاشميين بلا استثناء، وخوفاً على أنفسهم وأولادهم والعلم الذي توارثوه واحتفظوا به عبر الأجيال.. ومع بدايات القرن العشرين حضر الكثير منهم من نابلس إلـى شرقي نهر الأردن.

وكتب الدكتور الشيخ محمد صادق الكرباسي في «معجم المشاريع الحسينية»: (**ويُذكر بأن هناك من ذرية جعفر الطيار مَن يعيشون في الأردن وذلك بمناسبة دفن جدهم في مدينة مؤتة، وكانوا يتولون شؤون مرقده «رضوان الله عليه»، ويدلنا على ذلك ما جاء على بعض النقوشات الحجرية في المرقد الشريف حيث ورد فيه أن متولـي المرقد من أحفاد جعفر الطيار، ونصه كالتالـي: «بسم الله الرحمن الرحيم، قد تجدد بناء هذا الضريح المبارك بسعي العبد الفقير إلـى رحمة مولاه القدير، وكيل متصرِّف الكَرَك، سيفي أفندي، وذلك في جمادى الأولـى سنة ١٣٣١ هـ، متولـي مصطفى الجعفري»**. وجاء في العدة أن عيسى بن يحيى بن القاسم بن عيسى بن إبراهيم بن محمد بن جعفر بن القاسم بن إسحاق العريضي بن عبدالله بن جعفر الطيار كان نقيب الأشراف في عمّان، وكان أسود الجلد فاضلاً، ولا يمكن أن يكون نقيباً ما لم يكن عدد معتد به منهم يتواجدون في الأردن، ومن المعلوم أنهم كانوا من أتباع أهل البيت «عليهم السلام» كأبناء عمهم في العراق وإيران والحجاز وغيرها. وظلت هذه المراقد ـ وبالأخص مرقد جعفر الطيار شقيق الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» ـ مركز إشعاع للولاء لأهل البيت «عليهم

السلام» حيث كان يعيش عند مرقد جعفر الطيار «رضوان الله عليه» الألوف من المحبين لآل الرسول «صلى الله عليه وآله» ومن أتباع مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»[١]، ممن يسكنون عَمَّان وكذلك مَعَان)[٢].

* البناء على المرقد:

وجاء على موقع «الأمانة العامة للسادة الأشراف آل هاشم الجعفري الطيار» أن تاريخ بناء مرقد جعفر الطيار يعود إلى عصر الأيوبيين والمماليك، أي القرن السابع الهجري فما بعد، حيث قاموا ببناء الضريح والقبة، ثم جاء العثمانيون من بعدهم واهتموا بهذا المزار، فبنوا القباب وغطوا الأضرحة ببلاطات رخامية. وذكر الدكتور محمد عدنان البخيت في كتابه «مملكة الكرك في العهد المملوكي»: **(إن الظاهر بيبرس رابع سلاطين المماليك ـ ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ـ جدَّد قبر جعفر بن أبي طالب، ووقف على الزائرين له شيئاً كثيراً)**[٣] ويضيف أن المقام تحوّل إلى مركز ديني تعليمي، وإلى مركز مجاوَرة[٤].

وقد تهدم هذا المقام مرةً بفعل الزلازل أو نتيجة الغزو الصليبي، وقام قسم الآثار الإسلامية في وزارة الأوقاف الأردنية بإجراء حفريات أثرية أسفرت عن اكتشافات مهمة للبناء القديم حيث عثر على قبة وأقواس ومحراب وعملات معدنية وأسرجة[٥] فخارية ونقوش أثرية. وفي سنة ١٩٣٤م أمر الملك عبدالله ببناء مسجد كبير ذي ثلاث قباب ومئذنتين على الضريح كما أمر بتجديد أضرحة شهيدي غزوة مؤتة، زيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة. والمشهد حالياً مقام على مساحة من الأرض قدرها ٣٤٣٧٥م٢. ويقال أن الضريح مقام على موضع الاستشهاد لا القبر ذاته.

كتب الدكتور الشيخ الكرباسي في «معجم المشاريع الحسينية»: **(لقد زرت المرقد الطاهر أخيراً في آب سنة ٢٠٠٣ فوجدته بناءً فخماً تولّى المسلمون البُهَرة بناءه، وقد قام الملك الأردني حسين بن طلال الحسني بتوسعته أيضاً، ولا زالت التوسعة ماضية من جهة الشمال)**[٦].

١. هذا الوصف غير دقيق، فهناك الكثير ممن ينتسبون إلى الفرعين الحسني والحسيني بالإضافة إلى نسل جعفر وغيرهم من الهاشميين ومن آل أبي طالب لا ينتمون إلى مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، لا بالعنوان الخاص «الإمامية» ولا بالعنوان العام «التشيع»، بل عُرف الجعافرة بأنهم حنابلة، وفيهم فرع يحمل هذا الاسم. نعم هم يحبون أهل البيت، ولهم تقدير خاص وعناية مميزة للمنتسبين إليه، كيف وهم جزء من هذه السلسلة التي يعتزون بها، إلا أن هذا شيء والانتماء إلى مدرسة أهل البيت بالمعنى الخاص أو العام شيء آخر.

٢. الكرباسي: معجم المشاريع الحسينية، ج١، ص٢٦٢-٢٦٣.

٣. من مقال بعنوان: مرقد جعفر الطيار، ضريح يبعث الهيبة والجلال، نشر في صحيفة الدستور الأردنية – النسخة الإلكترونية، بتاريخ ١٩ يوليو ٢٠٠٩.

٤. المجاورة: اعتاد المتصوفة والزهاد البحث عن مواقع ذات صبغة إيمانية ليتخذوها مسكناً لهم بعيداً عن الحياة المدنية.

٥. أسرجة: جمع سراج، وهو ما يتخذ للإنارة.

٦. الكرباسي: معجم المشاريع الحسينية، ج١، هامش ص٢٦٣.

وإلى الجنوب من المشهد بقليل يقع مرقد عبدالله بن رواحة في الموقع الذي استشهد فيه، وكذلك مرقد الشهيد زيد بن حارثة على بعد ١٥٠ م من مرقد جعفر الطيار.

جاء في صحيفة الدستور الأردنية: (**في أوقات الصلاة اليومية، يكوّن سكان مدينة المزار العدد الأكبر من الزائرين، إذ يفضلون الصلاة في هذا المكان، يعبدون الله قرب وليٍّ من أوليائه.. ثمة ظاهرة تلفت نظرك وأنت قريب من مرقد جعفر الطيار هي وجود مجموعات من المصلين من غير العرب. تقترب منهم تحدثهم بلهجتك العربية الدارجة التي تعوَّدت عليها ، يجيبوك متحدثين بلسان عربي مبين ، إنهم من المسلمين الماليزيين الذين يدرسون الفقه الإسلامي ، وعلوم الشريعة الإسلامية في «جامعة مؤتة» التي أنشئت عام ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ويواظبون على أداء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة قريباً من مقام الشهيد جعفر الطيار**)[١].

وقد اعتاد أهالي المنطقة والمناطق المجاورة لها الوفود على مرقد جعفر بن أبي طالب في الأفراح يذبحون الشياه ويقدّمون لحومها للفقراء، وكأنهم يستهدون بذلك بهدي جعفر الطيار الذي عُرف بسعة كرمه وحبه للمساكين وعطفه عليهم.

❋ مراسلات النبي:

بعد أن أمّن النبي «صلى الله عليه وآله» المنطقة الجنوبية الممتدة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، علاوة على المنطقة الشمالية إلى حيث خيبر وما يجاورها، عمد إلى مراسلة عدد من الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام انطلاقاً من قول الله «عزوجل»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٢]. وأسجّل هنا عدة ملاحظات:

- **الملاحظة الأولى**: أوْلى محمد بن سعد البغدادي «ت٢٣٠ هـ» في كتابه الطبقات الكبرى عناية خاصة برسائل النبي «صلى الله عليه وآله» إلى الملوك والأمراء، ولذا اعتُبر هذا الكتاب أهم مصدر لها، وإن لم يستوعبها بأجمعها، خاصة وأن الكتب التي عنيت بالأمر قبل ابن سعد لم تعد موجودة. وقد ألّف البروفسور محمد حميدالله الحيدرآبادي «ت٢٠٠٢م» كتاباً باسم «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» ضمّنه هذه الرسائل وأضاف إليها وثائق رسمية مع دراسات متعددة حولها. ومن الكتب التي اختصت بالموضوع كتاب «مكاتيب الرسول» للعلامة الشيخ علي الأحمدي الميانجي «ت٢٠٠٠م»، والذي صدرت نسخته المتكاملة سنة ١٤١٨ هـ وفيه بحوث تاريخية عديدة لها علاقة بتلك الرسائل والوثائق.

---

١. من مقال بعنوان: مرقد جعفر الطيار، ضريح يبعث الهيبة والجلال، صحيفة الدستور الأردنية ـ النسخة الإلكترونية، ١٩ يوليو ٢٠٠٩.
٢. سورة سبأ:٢٨.

• **الملاحظة الثانية**: أصل هذه الرسائل والوثائق ضاع واحترق وتلف بمرور الزمان، وبحسب البروفسور حميدالله: (**كَتب النبي «صلى الله عليه وسلم» جميع المحالفات والمعاهدات مع القبائل والملوك سوى ما كتب إليهم من المراسلات. ويقال إن أمير المؤمنين عمر «رضي الله عنه» كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق، ولكنها احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم سنة ٨٢ للهجرة. والذي بقي بعد ذلك قضت عليه صروف الزمن وغارة التتار. والواقع أنه لم يصل إلينا إلا أصل اثنتين أو ثلاث من تلك الوثائق، أولها كتاب النبي إلى «المقوقس» الذي وجده المستشرق الفرنسي «بارتيلمي» في كنيسة قرب «أخميم» في مصر، والثاني كتاب النبي إلى المنذر بن ساوى الذي كان المستشرق الألماني «فلايشر» نشر صورته، والثالث كتاب النبي إلى «النجاشي» الذي ينوي المستشرق دنلوب الإنكليزي نشره... وإذا كانت أصول أكثر الوثائق قد ضاعت فقد حفظ لنا رواة الحديث والمؤرخون جملة صالحة منها**)[1].

وقعة دير الجماجم نسبة إلى منطقة تقع بين البصرة والكوفة، وفيها وقع قتال بين القائد العسكري عبدالرحمن ابن الأشعث وبين الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يومها والياً في العراق، إذ تمرد عبدالرحمن عليه سنة ٨٢ هـ، وانضم إليه أهل العراق رغبة في التخلص من ظلم الحجاج، ولكن تم القضاء على التمرد سنة ٨٣.

المنذر بن ساوى التميمي، ملك البحرين على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والبحرين في صدر الإسلام هي الأقليم الممتد على ساحل الخليج العربي بين عُمان والبصرة.

وفي مقدمة الطبعة الرابعة ذكر المؤلف ما يلي: (**ثم إن أهم ما حدث منذ النشرة السالفة هو ظهور أصلين لرسائل النبي «عليه الصلاة والسلام»: إلى هرقل عظيم الروم، وإلى «جيفر وعبد ابني الجلندي» ملِكَيْ عُمَان. أما أصل مكتوب «جيفر» فقد نشرت صورته الشمسية إحدى جرائد تونس، رأيتها عند بعض الإخوان في باريس في السنة ١٤٠٠ هـ، بدون أن أعرف اسم الجريدة أو تأريخ نشرها... وأما أصل مكتوبه «صلى الله عليه وسلم» إلى هرقل فلا نعرف كيف وصل إلى الملك عبد الله من الأردن، فكان عنده ثم عند بعض جواريه! وبعد وفاته أخذته معها إلى سويسرا، وباعته من سلطان أبي ظبي. ولما علم ذلك الملك الحسين من الأردن، استدل بحق شفعته، فقبله صاحب أبي ظبي في جميل أخلاقه الإسلامية، فرجع أصل المكتوب الشريف إلى عمّان وهو محفوظ هناك**)[2].

• **الملاحظة الثالثة**: تنقسم مكاتيب ورسائل النبي «صلى الله عليه وآله» من حيث الموضوعات إلى قسمين:

١. حميدالله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ج١، ص٢٤.
٢. ن. م. ص١١.



مكاتيبه في علومه التي أملاها على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فكتبها بخطه الشريف. وقد ذكر الميانجي أنه جمعها في كتابه من خلال الروايات المبثوثة في كتب الشيعة والسنة. والقسم الثاني مكاتيبه في الدعوة إلى الإسلام، وإلى عماله في بيان وظائفه، وفي العهود والمواثيق والأمانات والإقطاعات وفي موضوعات أخرى مختلفة. قال الميانجي: **(وقد بلغ ما عثرنا عليه في هذا القسم ٢٥٥ كتاباً مما لم تصل إلينا ألفاظها، و ٢٢٩ مما وصلتنا ألفاظها، هذا عدا ما نقلنا من الكتب المفتعلة المنسوبة إليه «صلى الله عليه وآله»)**[١].

- **الملاحظة الرابعة:** رسائل النبي «صلى الله عليه وآله» إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام بدأت في أواخر السنة السادسة للهجرة، أو في بدايات السنة السابعة. قال المسعودي في أحداث السنة السابعة للهجرة: **(اتخذ رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخاتم في المحرَّم، ونقش عليه محمد رسول الله، وكاتب الملوك في شهر ربيع الأول، ونفذت كتبه ورسله إليهم يدعوهم إلى الإسلام)**[٢].

- **الملاحظة الخامسة:** تذكر بعض النصوص أن النبي «صلى الله عليه وآله» حين أراد إرسال تلك الرسائل مع بعض أصحابه نبّه إلى ضرورة تنفيذ الأمر وحذّرهم التردُّد في الاستجابة، مما يعني ـ على فرض صحّة تلك النصوص ـ تخوّف النبي من تردد بعضهم أو امتناعهم، حذراً من ردود الفعل التي قد تصدر من الحكام الجبابرة

١. الميانجي: مكاتيب الرسول، ج١، ص٧.
٢. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٢٢٥.



رسائل النبي إلى: المنذر بن ساوى ـ هرقل عظيم الروم ـ المقوقس عظيم القبط ـ النجاشي عظيم الحبشة.

تجاه المسلمين عموماً، أو تجاههم بشكل شخصي. ففي الطبقات الكبرى: (**أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال لأصحابه: وافوني بأجمعكم بالغداة. وكان «صلى الله عليه وسلم» إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً يسبّح ويدعو ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة**[1]، **وقال لهم: انصحوا لله في عباده، فإنه من استُرعي شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرّم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد. فأصبحوا ـ يعني الرسل ـ وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسِل إليهم! فذُكر ذلك للنبي «صلى الله عليه وسلم»، فقال: هذا أعظم ما كان مِن حق الله عليهم في أمر عباده)**[2].

وإن كان أوَّلُ الخبرِ مقبولاً، إلا أن ذيله غير مقبول، فما معنى ـ بل وما الداعي ـ أن يُلهَم كل منهم لغة أجنبية بهذه الصورة مع وجود المترجمين، ومع وجود رجال من المسلمين مارسوا التجارة الدولية، وتعلموا اللغات المختلفة بحسب الحاجة إليها.

١. أي اختار عدة منهم لإرسالهم إلى عدة من الملوك.

٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح٦٢١.

• **الملاحظة السادسة:** من بين رسائل النبي «صلى الله عليه وآله» التي أرسلها إلى الملوك، رسائله إلى:

١) النجاشي ملك الحبشة، وحمل الرسالة عمرو ابن أمية الضمري.

٢) هرقل قيصر الروم، وحمل الرسالة دحية بن خليفة الكلبي.

٣) كسرى أبرويز حاكم بلاد فارس، وحمل الرسالة عبدالله بن حُذافة السهمي.

٤) المقوقس عظيم القبط، وحمل الرسالة حاطب ابن أبي بلتعة.

٥) الحارث الغساني حاكم تخوم بلاد الشام، وحمل الرسالة شجاع الأسدي.

٦) ثمامة بن أثال وهوزة بن علي رئيسا اليمامة، وحمل الرسالة سليط بن عمرو العامري.

ويلاحظ من خلال تتبع أسماء حاملي الرسائل أنهم بأجمعهم من المهاجرين وليسوا من الأنصار من أهل المدينة، ولعل ذلك يعود إلى خبرتهم الشخصية في السفر ومعرفة طرقه بلحاظ اعتماد اقتصاد أهل مكة على التجارة الدولية، بالإضافة إلى معرفتهم بلغة الأقوام الذين حملوا الرسائل إليهم بنفس اللحاظ السابق، وهو ما يفتقد إليه غالبية أهل المدينة باعتبارهم من أهل الزراعة والصناعة والتجارة المحلية.

وقد عاد رسل النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة بسلام، ولم يتعرض أحد منهم إلى أذى،

عمرو بن أمية الضمري الكناني، زوج ابنة عبيدة بن الحارث بن المطلب أحد الثلاثة الذين بارزوا في بدر واستشهد. كان عمرو أحد أنجاد العرب في الجاهلية. أسلم بعد انصراف المشركين من غزوة أحد. أمّره النبي في عدة سرايا. توفي سنة ٦٠ هـ.

دحية بن خليفة القضاعي الكلبي. لا يعلم عنه إلا القليل، شارك في معركة اليرموك ثم سكن بالقرب من دمشق إلى أن توفي سنة ٤٥ هـ.

عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي الكناني. هاجر إلى الحبشة ثم التحق بالنبي في المدينة وشهد أُحُداً. شارك في فتوحات الشام على عهد الخليفة عمر فأسر سنة ١٩هـ، ثم أخلي سبيله. توفي بمصر سنة ٣٣ هـ.

حاطب بن أبي بلتعة القحطاني اللخمي: كان حليفاً لقريش، شهد بدراً وما بعدها، وسنذكر قصته الغريبة في أحداث فتح مكة.

شجاع بن وهب الأسدي: من بني أسد بن خزيمة. شهد بدراً وما بعدها، أمّره النبي على إحدى السرايا. استشهد يوم اليمامة سنة ١١ هـ.

سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود القرشي: هاجر الهجرتين، ولا يعرف عنه الكثير. استشهد يوم اليمامة سنة ١١ هـ.

وحملوا معهم إجابات محددة من الذين أُرسِلوا إليهم. ويهمنا هنا أن نطّلع على الرسالة الموجهة إلى الحارث الغساني، وعلى رد فعله لما له علاقة لاحقاً بغزوة مؤتة.

مضمون الرسالة: (**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدّق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكُك**).

وروى ابن الجوزي في عن شجاع ما جرى له: (**فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والإلطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، فأقمتُ على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إليه، فقال: لا تصلُ إليه، حيث يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه ـ وكان رومياً ـ يسألني عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وما يدعو إليه، فكنت أحدِّثُه عن صفة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وما يدعو إليه، فيرقّ حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه، فأنا أؤمن به وأصدّقه، وأخاف من الحارث أن يقتلني. وكان[1] يكرمني ويُحسن ضيافتي، وخرج الحارث يوماً، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي، فدفعت إليه كتاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقرأه ثم رمى به، وقال: من ينتزع منِّي مُلكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته. عليَّ بالناس. فلم يزل يُعرض حتى قام، وأمر بالخيول تُنعَل، ثم قال: أخبِر صاحبك ما ترى. وكتب إلى قيصر يخبره خبري، وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر ألا تسر إليه، والْهَ عنه ووافني بإيلياء[2]، فلما جاءه جواب كتابه دعاني، فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غداً. فأمر لي بمائة مثقال ذهب[3]، ووصلني حاجبُه بنفقةٍ وكسوة، وقال[4]: أقرئ على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مني السلام. فقدمت على رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فأخبرتُه، فقال: بادَ ملكُه. ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح**)[5]. وروى ابن الجوزي أيضاً ردة فعل قيصر الروم القادم للتو من حربه مع الفرس حيث انتصر عليهم وأعاد الصليب الأعظم المأخوذ من بيت المقدس، حيث وصلته الرسالة المبعوثة إليه من النبي «صلى الله عليه وآله» وهو في إيلياء، وأنه تحقق من صحة نبوة النبي في قصة طويلة، فردّ رداً حسناً.. بل في بعض المصادر أنه كتب رسالة سرية بإسلامه وأن النبي كذّبه.

ويبدو من مجريات الأحداث التاريخية أن الرجل لم يؤمن بنبوة النبي «صلى الله عليه وآله» ، ولعل أقصى ردة فعل كانت له إرسال هدية إليه كما في رواية، وإلا كيف نفسر مجريات أحداث غزوة مؤتة وتبوك فيما يأتي؟

---

١. أي الحاجب الرومي.
٢. أي القدس.
٣. من الغريب أن يهديه ذهباً بعد التهديد والوعيد! فهل كان ذلك بإيحاء من قيصر الروم؟
٤. أي الحاجب أيضاً.
٥. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٣، ص: ٢٨٩-٢٩٠.

* سرايا سبقت مؤتة:

• سرية عمر بن الخطاب في شعبان سنة ٧ هـ إلى بعض هوازن المتواجدين في «تربة» على طريق صنعاء ونجران، ولم يقع قتال حيث هربت هوازن.

• سرية أبي بكر في شعبان سنة ٧ هـ إلى بني كلاب المتواجدين بنجد، ووقع فيها قتال يسير وغنم المسلمون بعض الغنائم.

• سرية بشير بن سعد الأنصاري في شعبان من سنة ٧ هـ إلى بني مرّة بفدك، ولم يقع في أوّلها قتال، وغنم المسلمون غنائم من الأنعام، وفي طريق عودتهم أغار بنو مرة عليهم، ولم ينجُ من المسلمين إلا اثنان.

• سرية غالب الليثي في شهر رمضان سنة ٧ هـ إلى منطقة «المَفيفَعة» بنجد، ووقع فيها قتال انتصر فيه المسلمون وغنموا. وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رجلاً من المشركين بعد أن قال لا إله إلا الله.. ثم ندم على ذلك في قصة معروفة.

• سرية بشير بن سعد الأنصاري في شوال سنة ٧هـ إلى «يُمن والجبار» بالقرب من خيبر، وغنم فيها المسلمون من دون قتال، كما أسروا اثنين.

• سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم في أواخر ذي الحجة من سنة ٧ هـ، وبمعيته ٥٠ مقاتلاً، استشهدوا بأجمعهم، وأصيب قائدهم وعاد إلى المدينة.

• سرية غالب الليثي إلى بني الملوّح بالكُدِيد في صفر سنة ٨ هـ، وغنموا فيها بعض الغنائم من النعم.

بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي: شهد بيعة العَقَبة، كما شهد بدرًا وما بعدها. قيل أنه أول أنصاري بايع أبابكر بالخلافة، استشهد في فتوحات العراق في معركة عين التمر جنوب غرب الأنبار وذلك على عهد الخليفة أبي بكر. ابنه النعمان كان والياً على الكوفة على عهد يزيد بن معاوية ثم استبدله بابن زياد.

غالب بن عبدالله الكناني الليثي، لا يُعرف عنه إلا أن النبي بعثه في بعض السرايا، وروي أنه قال: (بعثني النبي «صلى الله عليه وسلم» عام الفتح بين يديه لأسهل له الطريق....).

الأخرم بن أبي العوجاء: اسم الأخرم مُحرِز ابن نضلة، من بني أسد بن خزيمة، وهي قبيلة مضرية تختلف عن بني أسد القرشية. كان بعض بني أسد بن خزيمة على الحنيفية ولم يكونوا وثنيين. ومساكنهم في تهامة ونجد، إلا أن فرعاً منهم «بنو غَنْم بن دُودان بن أسد» سكنوا مكة قبل ظهور الإسلام محالفين لبني عبدمناف، وأسلم عدد منهم بعد البعثة. ويقال أن الأخرم أول من أسلم من قومه. شهد الأخرم بدراً واستشهد على عهد رسول الله وهو في الثامنة والثلاثين.



- سرية غالب الليثي إلى بني سليم رداً على مقتل رجال سرية ابن أبي العوجاء فقتلوا منهم وغنموا.
- سرية شجاع الأسدي إلى بني عامر في نجد في ربيع الأول من سنة ٨ هـ، وغنموا نِعَماً كثيرة.
- سرية كعب الغفاري إلى ذات أطلاح من وراء وادي القرى جنوب تبوك في ربيع الأول ٨ هـ، ودعوهم إلى الإسلام فأبوا ورموا المسلمين وتقاتلوا حتى استشهد رجال السرية، عدا واحد.

كعب بن عمير الغفاري، لا يعرف عنه شيء سوى أن النبي أمّره على هذه السرية التي قيل أنه أصيب فيها، وسقط بين القتلى، فلما جن الليل تحامل على نفسه وبلغ المدينة، وقيل أنه استشهد فيها مع سائر المقاتلين.

وجاءت هذه السرايا كإجراءات تأديبية واحترازية تخويفية بحق أولئك الأعراب الذين كانوا يزعجون قوافل المسلمين ويثيرون القلق دائماً في إغاراتهم وتحالفاتهم مع قريش، فقد جاءت بالتالي ضمن إجراءات النبي لتأمين حدود دولته شمالاً وجنوباً، وترسيخ الأمن في طريق القوافل التجارية.

❋ عمرة القضاء:

بعد منْع قريش النبي والمسلمين من أداء العمرة في ذي القعدة من سنة ٦ هـ، وكتابة الصلح بين المسلمين وقريش، تضمن الصلح بنداً يخص قضاء تلك العمرة بعد مرور سنة.. وهذا ما تم فعلاً، فقد خرج النبي بمعية المسلمين وأدوا عمرتهم التي عُرفت باسم عمرة القضاء.

وكان لدخول المسلمين مكة بعد الانقطاع لسنوات أثر كبير ومهم في ترسيخ قوة المسلمين والاعتراف بقوتهم الكبرى في المنطقة، وبث روح اليأس في نفوس المشركين، بل والتمهيد لفتح مكة الذي سيقع بعد أقل من عام من ذلك. وقد قال الله «عزوجل» مبيّناً جانباً من أهمية الحدث: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

❊ الغساسنة:

قبل الدخول في تفاصيل أسباب وأحداث غزوة مؤتة، لابد من التعرف على مكوّن مهم في الطرف المعادي للمسلمين في تلك الغزوة، وهم الغساسنة. وآل غسان أو آل جفنة أو الغساسنة، قبيلة عربية أسست إمارة قوية متحالفة مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة ببيزنطة أو الروم في سورية، يعود أصلها إلى الأزد، أي أن أصولهم تعود إلى اليمن. قيل: أطلق عليهم آل غسان والغساسنة لأنهم استقروا في تُهامة قرب عين ماء اسمها غسان، فعُرفوا بهذا الاسم قبل حكمهم في الشام.

إقليم تهامة: هو السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر بين أقاليم الحجاز واليمن التاريخية غرب شبه الجزيرة العربية، وتعد مكة وجدة وجيزان وعدن من بين مدنها، ولذا يقال عن النبي بأنه تهامي.

وأما تسميتهم بآل جفنة فكان انتساباً لجد أعلى يدعونه جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر، وهو أول حاكم من حكامهم، وقيل غير ذلك. وروي أن هجرات الغساسنة من جنوب الجزيرة العربية بدأت بعد انهيار سد مأرب في اليمن وبعد السيل العرم، في أواخر الألف الأول قبل الميلاد، إلا أن د. جواد علي لا يعتبر أن الانهيار كان لمرة واحدة كي يُحدَّد التاريخ بحسبه، قال: (**حادث تصدع السد لم يكن حادثاً واحداً حتى نعتبره مبدأ لتأريخ هجرة الأزد وغيرهم من قبائل اليمن نحو الشمال، فقد تصدع السد مراراً ورمّ مراراً**)[2].

الضجاعمة قبائل عربية قضاعية يمانية قحطانية، هاجرت إلى الشام وانتصرت على التنوخيين الذين تعود أصولهم إلى اليمن أيضاً وكانوا يحكمون قبلهم عرب الشام.. ولما انتصر الضجاعمة ولاّهم الروم مُلك العرب هناك.

وكانوا في أول نزوحهم إلى الشام قد تغلبوا على قبائل الضجاعمة التي كانت تنزل هناك، واعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية المشرقية المعروفة في سورية آنذاك باليعقوبية، بعد أن كانوا يدينون

١. سورة الفتح: ٢٨.
٢. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٣، ص٣٨٧.

بالوثنية. كان استقرار قبائل الغساسنة في جنوبي سورية في بُصرى، ثم أصبحت عاصمتهم «الجابية» إلى الشرق من الجولان، وامتد سلطانهم على قسم كبير من بلاد الشام.

اتخذ الرومان من الغساسنة حلفاء في الصراع ضد الفرس الساسانيين، فسمحوا لهم بتكوين دولة حدودية ضمن نطاق الدولة الرومانية، وكان الهدف من ذلك أن تصبح الدولة الغسانية حاجزاً بين الإمبراطوريتين وخط الدفاع الأول. وقد حكم الغساسنة من عام ٢٣٠ ـ ٦٣٨ م، أي أربعمائة وثماني عشرة سنة.

اشترك الغساسنة مع الروم في حروبهم ضد الفرس وحلفائهم المناذرة العرب، كما انضم الكثير منهم للجيش البيزنطي، وقام الملك الغساني الحارث بن جبلة «حكم من ٥٢٩-٥٦٩م» بمساعدة بيزنطة في حربها ضد الفرس وقد منحه الإمبراطور جوستنيان الأول لقب بتريسيوس «بطرَك ـ بطرق ـ بطريق» وهو من ألقاب الشرف الفخمة عند الروم، ولذلك فلك يكن يمنح إلا لعدد قليل من الخاصة، ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدولة البيزنطية حتى أن بعض الملوك كانوا يحبذون الحصول على هذا اللقب من القيصر ويفضلونه على غيره من الألقاب. كما منحه لقب «فيلاركس ـ فيلارخ» والذي يعني العامل أو سيد القبيلة، وورّثهما لمن جاء من بعده من حكام الغساسنة.

قال د. جواد علي في «المفصل من تاريخ العرب»: (يظهر من الموارد البيزنطية ومن روايات أهل الأخبار، أن الملوك الغساسنة والملوك من آل نصر، أي ملوك الحيرة، لم يكونوا ملوكاً بالمعنى العلمي الصحيح المفهوم من الكلمة، وإنما كانوا عُمّالاً، إذا كاتبهم الروم أو الفرس، لقّبوهم بعامل. إذ عينوهم عمالاً على الأعراب ولم يعينوهم ملوكاً. فلقب ملك من الألقاب الخاصة بملوك الروم لم يمنحوه لغيرهم... ومن هنا شك المستشرق نولدكه في صحة رواية بوكوبيوس بشأن منح الحارث لقب ملك، ذلك لأن لقب ملك كان خاصّاً كما ذكرت بقياصرة البيزنطيين، فلا يُمنح لغيرهم، ولأن الوثائق الرسمية لم تطلق هذا اللقب عليهم... وهذا مما يدل على أن آل نصر وآل غسان وإن لقبوا أنفسهم بلقب ملك أو لقبهم العرب به، إلا أن ذلك التلقيب لم يكن بصفة دولية رسمية، وإنما كان بصورة غير رسمية وعلى سبيل التجمل بهذا اللقب والتشبه بالملوك الأجانب، استعمله الناس من باب التزلف والتقرب إلى أولئك الحكام، أو أنهم نظروا إليهم من وجهة نظرهم الخاصة، فدعوهم ملوكاً، لأنهم كانوا رعيتهم وكانوا هم مالكي رقبتهم.. والذي صح إطلاقه على أمراء الغساسنة، وثبت وجوده في الوثائق الرسمية، هو لقب «بطريق» Patricius، ولقب «عامل» أو رئيس قبيلة = Phylarcos Phylarchus = Phylarkos مقرونًا بنعت من النعوت التابعة له، أو مجردًا منه).



ويعد المنذر بن الحارث الغساني أحد الملوك الأقوياء وقد حكم سنة ٥٧٠م أي في نفس سنة ولادة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، واستمر حكمه ١١ سنة انتصر خلالها في معركتين ضد عرب الحيرة، ثم تمرد على الروم حين أحس بوجود مؤامرة عليه وغادر المنطقة إلى البادية، فانتهز عرب الحيرة الفرصة وأمعنوا في غزو تلك تلك المنطقة، بل قيل أنه ساعدهم في ذلك أيضاً، مما دفع الروم لاسترضاء المنذر لكي يعود.

وتم ذلك ضمن عقد صلح، وزيارة قام بها المنذر إلى القسطنطينية حيث أغدقوا عليه بالهدايا وأعطي بعض الألقاب وأبدلوا إكليله بتاج، وطلب منهم مساعدته في بناء قصر يكون أعظم قصر غساني بُني حتى أيامه، وذلك بأن يرسلوا إليه أحسن المعماريين والبنائين الحاذقين. فلبى البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج إليه من معماريين ومن مواد بناء. ولم تلبث العلاقة بين الطرفين أن توترت من جديد، فألقي القبض عليه ونُفي إلى القسطنطينية ثم صقلية، وثار أبناؤه بعد أن لجؤوا إلى البادية، وأخذوا يهاجمون حدود الروم ملحقين بها أذى شديداً، ولكنهم ما لبثوا أن انقسموا فيما بينهم ووقع بينهم الاختلاف الشديد سنة ٥٨٤م، فقام الروم باختيار أحد أبناء المنذر وتعيينه حاكماً لإنهاء الوضع المتأزم وتأمين الحدود ضد عرب الحيرة والفرس.. ولكن دولة الغساسنة لم تعد قوية بعد هذا التاريخ.

وفي ٦١٣-٦١٤ م قام الفرس بغزو بلاد الشام واحتلالها بأكملها نتيجة ضعف الروم، وصار عرب الشام أمام حكام جدد، لم يألفوا حكمهم من قبل! قال الله «عزوجل» مشيراً إلى هذا الحدث: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى

﴿الْأَرْضِ﴾[1]. ثم تمكن البيزنطيون من طرد الفرس من الأرضين التي استولوا عليها ومن إجلائهم نهائياً عنها، وإعادة فرض حكمهم عليها سنة ٦٢٩م، أي في السنة السابعة للهجرة. قال «عزوجل»: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّـهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2]. ويلاحظ هنا أن كلمة «بضع» تعني ما بين «٣-٩»، بينما الفارق بين التاريخين ١٦ سنة تقريباً، وهذا يعني أن الآية لربما تشير إلى بدايات الهزائم التي لحقت بالفرس في مواجهاتهم مع الروم بعد احتلال الشام، حيث خسروا معركة بحرية كبيرة قُتل فيها الآلاف من جنودهم سنة ٦١٩م، ثم توالت هجمات الروم منذ عام ٦٢٢م، وانهزم فيها الفرس.

وعلى كل حال فإن الفرس وحلفاءهم عرب الحيرة والروم والغساسنة ما عادوا أقوياء بعد الحروب الطويلة والطاحنة التي عاشتها المنطقة خلال عقدين من الزمان، وهو ما شجّع النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين من بعده لخوض حروب معهم على ضوء تحرشاتهم وتعدّيهم على دولة الإسلام استخفافاً منهم بقوتها.. وغزوة مؤتة تأتي في ضمن هذا السياق.

* عرب الجنوب والشمال:

استقر العرب منذ آلاف السنين في شبه الجزيرة العربية والعراق وغرب نهر الفرات وبلاد الشام وسيناء وأنحاء أخرى متاخمة، وأنشأوا فيها إمارات وممالك ومجتمعات حضرية وبدوية متنوعة، كما تنوعت بيئاتها الاقتصادية أيضاً تبعاً لذلك.

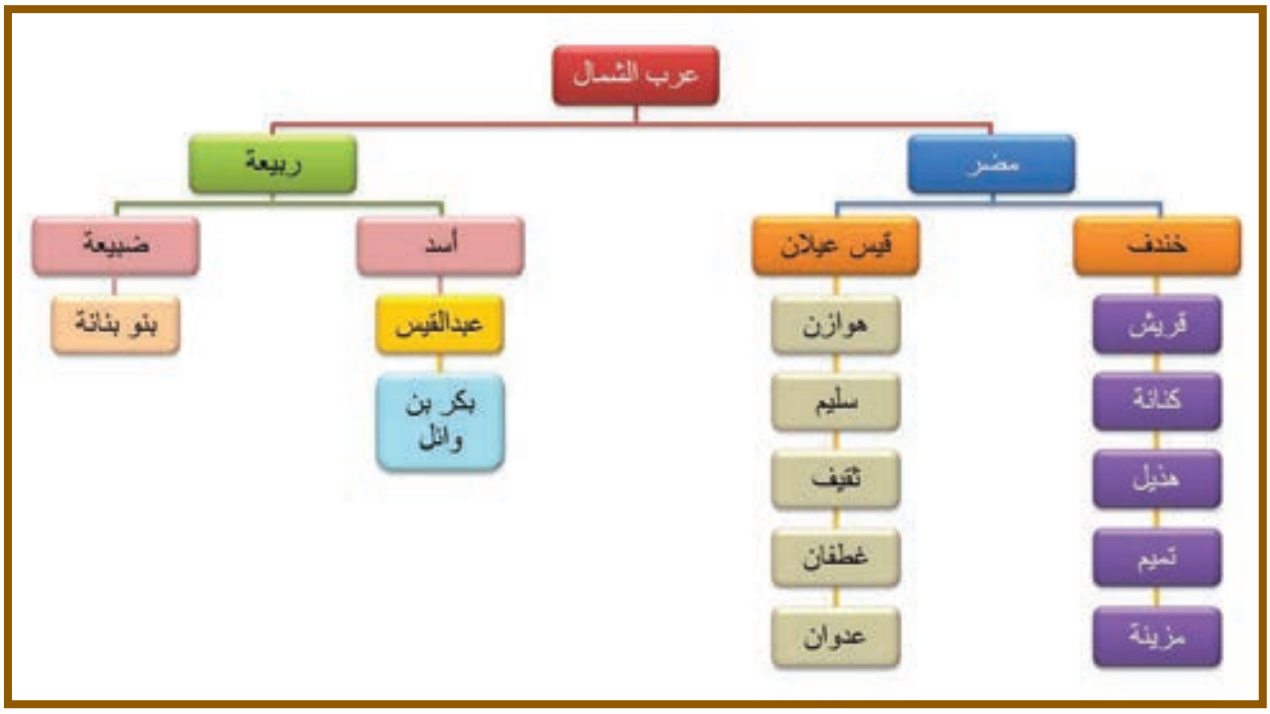
وقد تم تقسيم العرب إلى قسمين: عرب الجنوب «القحطانيين»، وعرب الشمال «العدنانيين»، ولكل منهما فروع تضم قبائل متعددة. وكانت بين الشمال والجنوب علاقات متينة ومتداخلة، متفقة أو متعارضة، بسبب الهجرات والمصالح الاقتصادية والحروب.

وشهدت العصور المتلاحقة الهجرات من الجنوب إلى الشمال، واستمرت في العهد الإسلامي، وكان معظم عرب جنوب سورية والعراق وغرب الفرات يعودون بأصولهم إلى عرب الجنوب. وفيما يلي بعض الأمثلة:

طيء: سكنت شمال نجد ـ عاملة وجذام: سكنتا بادية الشام ـ لُخَم: أسست مملكة الحيرة جنوب العراق ـ الأزد ومنهم الغساسنة: سكنت الشام ـ قضاعة: سكنت شمال الحجاز والشام ـ تغلب: سكنت نجد وبلاد الشام ـ تنوخ وكلب: سكنت بادية الشام وشمالها.

---

١. سورة الروم: ٢-٣.
٢. سورة الروم: ٣-٥.



أما عرب الشمال فهم من نسل النبي إسماعيل بن إبراهيم «عليهما السلام»، والمعروف منهم ينتسب إلى عدنان وهو من أحفاد إسماعيل. والعدنانيون ينقسمون بحسب ولدي حفيده نزار إلى قسمين: مضر وربيعة.

مضر بدورها تنقسم إلى خندف، وتندرج تحتها قبائل منها: قريش وكنانة وهذيل وتميم ومزينة. ومن هنا قال ابن الزبعرى ـ وهو البيت الذي استشهد به يزيد بن معاوية حين جاؤوا إليه برأس الحسين «عليه السلام» ـ :

لست من خندف إن لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

وإلى قيس عيلان، والتي تندرج تحتها قبائل منها: هوازن وسُليم وثقيف وغطفان وعدوان.

وأما ربيعة فتنقسم إلى: أسد، وتندرج تحتها قبائل منها: عبد القيس، وبكر بن وائل؛ وضبيعة، وتندرج تحتها قبيلة بني بنانة.

❋ ديانات العرب قبل الإسلام:

- **الوثنية**: وكانت منتشرة بين القبائل المختلفة، ولبعضها أصنام خاصة، فلقضاعة «وَد» في دومة الجندل، ولحِمْيَر وهمدان «نَسر» منصوباً بصنعاء، ولكنانة «سُواع»، ولثقيف «اللات»، ولغطفان «العُزَّى»، وللأوس والخزرج «مناة» منصوباً بفدك.

- **الحنيفية**: التي تمثل بحسب إحدى التفاسير امتداداً لملة النبي إبراهيم «عليه السلام»، حيث الالتزام بالتوحيد، ولهم علامات منها: اعتزال الأصنام، والامتناع عن أكل ذبائح الأوثان، والاختتان، وحج البيت

الحرام، وتحريم الخمر، والزواج بالصَّدَاق والشهود، والاغتسال من الجنابة. واعتبرهم بعض المستشرقين منشقين من المذهب النصراني التوحيدي «الآريوسية»، أو مذهب خليط من اليهودية والنصرانية، مع إضافة بعض التعاليم من ملل أخرى، وأنهم لم يكونوا على رأي واحد في كل شيء، بل جمعهم رفض الوثنية وتوحيد الله.

• **اليهودية**: دخلت مبكرة إلى الجزيرة العربية، وقد اعتبر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن يهود الجزيرة العربية عرب تهوّدوا، بينما اعتبرهم الأصفهاني في «الأغاني» مهاجرين من أرض فلسطين بسبب اضطهاد الروم لهم عام ٧٠م و ١٣٢م، أما أحمد أمين في «فجر الإسلام» فاعتبرهم مزيجاً من الإثنين. تواجد اليهود في تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى ويثرب واليمن حيث كانت لهم فيها دولة.

• **النصرانية**: لم يعرف العرب لفظة مسيحي أو مسيحية، بل كانوا يطلقون كلمتي «نصراني» أو «نصرانية» بدلاً منهما نسبة إلى مدينة «الناصرة» بفلسطين حيث مولد السيد المسيح «عليه السلام»[١]، وقد وردت الكلمة في أشعارهم قبل الإسلام.

وكان العرب متداخلين أو مجاورين للمجتمع الذي شهد ما يجري في فلسطين في عهد الدعوة النصرانية، فقد جاء في العهد الجديد ما نصه: (**كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله**)[٢]، وذكر «رزق الله شيخو» في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» أن القديس «لوقا» في «سِفر الأعمال» أثناء حديثه عن اليوم العاشر لصعود السيد المسيح بحسب التعاليم النصرانية والمعروف بعيد «العنصرة» قال: (**العرب كانوا في جملة الذين عاينوا آيات ذلك اليوم الشريف وسمعوا الحواريين يتكلّمون بلغتهم العربية. فلا جرم أنّ بعضاً منهم كانوا في عداد الثلثة الآلاف المصطبغين**[٣] **ذلك اليوم... فلما عادوا إلى بلادهم نضروا بين مواطنيهم ما رأوا وسمعوا من أمر المسيح وتلاميذه**)[٤]. والقصة وإن كانت ـ باعتقادنا ـ غير حقيقية إلا أن ذكر العرب في النص يدل على وجودهم وتفاعلهم مع أحداث قصة السيد المسيح.. ثم بلغ الأمر مداه حيث انتشرت النصرانية بينهم قبل الإسلام انتشاراً كبيراً.

❊ العرب النصارى:

وأسجّل هنا عدة ملاحظات ذات علاقة بهذا الأمر:

١) تحوّلت بعض القبائل بكاملها إلى النصرانية، وجاء هذا نتيجة تنصّر رئيس القبيلة لسبب إيماني أو سياسي

١. قيل أن سبب التسمية غير ذلك.
٢. العهد الجديد، أعمال الرسل: ٢ـ١١.
٣. الاصطباغ أو التعميد من الطقوس الدينية عند النصارى وهو كالغسل الارتماسي عند المسلمين، إلا أنه يحمل دلالة عقدية أيضاً.
٤. شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص٢.

أو اقتصادي أو قومي أو شخصي؛ ومثال ذلك تنصّر زعيم «الضجاعمة» في الشام بعد أن دعا أحد الرهبان أن يرزقه الله الولد، فتحقق ذلك. وتنصّر النعمان ملك الحيرة في العراق بعد أن شفي من مرض عصبي على يد أسقف نصراني، وتنصّر عرب في اليمن بسبب تأثير البحارة البيزنطيين، كما وتنصرت نجران من خلال تاجر نجراني متنصّر.

٢) تفاوت تنصّر العرب بين منطقة وأخرى، فقد كان تنصّرهم كثيفاً نسبياً في نجران والحيرة وغسان وبادية الشام وشمال سورية، بينما كان فردياً تقريباً في الحجاز.

٣) كان تنصّر أفراد القبائل العربية بسيطاً دون تعمّق في اللاهوت، على خلاف قادتها وشخصياتها المبرّزة التي كانت ترتبط بالأساقفة والرهبان.

٤) غالباً ما أقلمت القبائلُ العربيةُ النصرانيةَ وطبعتها بطابعها، وتأثّرت بتراثها الثقافي وتقاليدها، ومن هنا استمر التصارع القبلي والتنافس السياسي بين تلك القبائل، ولم يوحّدها الانتماء الديني.

٥) تم توظيف الخلافات المذهبية بين النصارى في هذه الصراعات القبلية، حيث كانت في ظاهرها صراعات دينية، وفي واقعها قبلية أو سياسية محضة، كما غذّت بعض الدول الإقليمية[١] هذه الصراعات بما يخدمها. فنجد أن الغساسنة النصارى أتباع المذهب اليعقوبي والمتحالفين مع البيزنطيين في خصومة شديدة وقتال مستمر مع اللخميين النصارى أتباع المذهب النسطوري، ومن أشهر المعارك بينهما تلك التي وقعت جنوب «تَدمُر» سنة ٥٣٠م تقريباً، وقرب «قنّسرين» سنة ٥٥٤م.

قال الله «عز اسمه» متحدثاً عن النزاع المذهبي العنيف بين النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[٢].

٦) كان لبناء الأديرة دور مهم في نشر النصرانية بين العرب، سواء في المناطق التي كانت تحت سيطرتهم، أم على طريق التجارة بين الحجاز والشام. وسكن الرهبان هذه الأديرة، وجعلوها محطات استراحة للقوافل، وقدّموا فيها الطعام والخمر، وجعلوا منها مراكز لنشر الدعوة النصرانية بين رجال القوافل.

٧) أرسلت الكنيسة عشرات الأساقفة إلى المجتمعات العربية المختلفة، وعرفوا باسم «أساقفة الخيام» أو «أساقفة أهل الوبر»، وقامت الكنيسة البيزنطية بتمويل هذه الحملات التبشيرية حتى في الموارد التي اختلفت فيها مذهبياً مع القائمين عليها، وذلك لأغراض سياسية.

١. البيزنطيون والساسانيون.
٢. سورة المائدة: ١٤.



٨) هاجرت مجموعات نصرانية كانت عقائدها مزيجاً من اليهودية والنصرانية، ووجدت سبيلها إلى الجزيرة العربية، مثل الأبيونيين والناصريين والكسائيين.

٩) وهكذا تنصّر مثلاً:

بنو كلب القاطنون غرب الفرات والسماوة ووصلت ديارهم إلى تدمر وحمص والبقاع؛ وبنو تميم في حرّان؛ وإياد الساكنون في السواد والجزيرة؛ وقبائل تنوخ في قنّسرين وحلب والأنبار؛ والتغلبيون من تكريت والموصل إلى حلب؛ واللخميون في الحيرة؛ وعبدالقيس على الساحل الشرقي للجزيرة العربية؛ وطيء في شمال نجد؛ وبنو الحارث بن كعب في نجران.

١٠) نقل لنا التاريخ أسماء بعض الشخصيات النصرانية في الجزيرة العربية، وفي قريش على وجه التحديد، ومن بينهم: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي

اعتقد الأبيونيون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون قول بولس الرسول في السيد المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت، وأن المسيح إنسان وأنه لم يُصلب، وأن المصلوب شبيه المسيح، وقد شُبِّه على مَن صلبه.

اعتقد الناصريون بألوهية السيد المسيح وحافظوا على شريعة النبي موسى.

حافظ الكسائيون على الختان وحرمة يوم السبت، واتجهوا في صلاتهم نحو بيت المقدس وآمنوا بوجود إله واحد.

ابن كلاب؛ وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ابن كلاب، وكلاهما من أبناء عمومة السيدة خديجة بنت خويلد؛ وأمية بن أبي الصلت الثقفي، وهو من الطائف؛ والحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب في وقته؛ وعبدعمرو ابن صيفي الأوسي[1]، وهو من المدينة؛ وعَدي بن حاتم الطائي، ومساكن طيء شمال نجد.

١١) عرفت مكة قبل الإسلام حضوراً لنصارى وافدين عليها. قال د. جواد علي: (**وكان بين سكاّن مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها، لأسباب، منها: الرق، والاتجار، والتبشير، والحرفة**)[2].

ونصَّ أبو الوليد الأزرقي «ت٢٥٠هـ» في كتابه «تاريخ مكة» على وجود مقبرة مخصصة لهم في مكة، قال: (**مقبرة النصارى: دُبر المقلع على طريق بئر عنبسة بذي طوى**)[3].

١٢) كما سُكنت المدينة المنورة من قبل نفر منهم. قال د. جواد علي: (**ويفهم من بيت للشاعر حسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي وهو:**

فرحت نصارى يثرب ويهودها

لما توارى في الضريح المُلحد

أنه كان في يثرب نفر من النصارى كما كان بها قوم من يهود. وذُكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له: سوق النبط. ولعل هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشام الذين كانوا يقصدون المدينة للاتجار في الحبوب، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى، ونُسب إليهم. وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد

روي أن الأول وفد على قيصر الروم، فتنصر، وحسنت منزلته عنده، ومنحه لقب بطريق، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده.

أمية بن أبي الصلت شاعر جاهلي ومن رؤساء ثقيف، اختُلف في أمره، هل كان من الحنيفية أم نصرانياً، وقد يلتقيان وفق تفسير الحنيفية بكونها من مذاهب النصرانية، أو أنه كان نصرانياً موحداً واشتبه أمره على المؤرخين. دعا إلى التوحيد ونبذ الأصنام. كان كثير الأسفار، وصار يتردد على القسيسين والأحبار، كما كان كثير الاطلاع على كتب الأديان والكتب القديمة، وكان مُهتماً بيوم البعث والحساب والجنة والنار فكان يكثر من ذكرها في أشعار. روي أنه التقى النبي ولكنه امتنع عن الدخول في الإسلام، ومات سنة ٥ هـ.

١. وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة، وقد تحدثنا عن شخصيته مسبقاً.

٢. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٣، ص ٢٠٤.

٣. الأزرقي: تاريخ مكة، ص ٥٠.

الشاعر النصراني على صدقات قومه، وأن أبا زبيد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفان من بعده)[1].

١٣) شُيِّدت الكنائس في الجزيرة العربية، منها كنيسة في عكاظ، وأخرى في طيء، وفي كندة المتواجدين بنجد، وفي ديار غطفان.

١٤) انتمى العرب النصارى إلى مذاهب نصرانية متعددة، فقد كانت الانقسامات لدى كنائس الشرق عديدة في القرون المسيحية الأولى، وكان الجدل بشأن الاختلافات بين تلك المذاهب على أشدّه، يلج فيه عامة الناس، ولم تقتصر تلك الانقسامات على الأسباب الدينية بل شملت العرقية والثقافية والسياسية.

وفي الأساس كانت رسالة السيد المسيح «عليه السلام» تدعو إلى وحدانية الله «عزوجل»، ونبوة عيسى بن مريم، وأنَّ خلقه كان بإرادة من الله، وكانت هذه هي عقيدة أتباعه، إلى أن أعلن «شاؤول بن كيساي» المشهور بـ «بولس» أو «الرسول بولس» إيمانه بالسيد المسيح «عليه السلام».

وكان شاؤول «ت ٦٤ أو ٦٨ م» يهودياً متعصباً وخصماً عنيداً ومؤذياً لأتباع المسيح، فلما رأى أن التنكيل لا يجدي معهم؛ عمد إلى محاولة هدم تعاليم المسيح من الداخل، حيث أعلن فجأة تحوله إلى النصرانية، وأن المسيح تراءى له وهو في الطريق إلى دمشق، وأمره ـ بعد أن تاب عليه ـ بنشر دعوته.

ولنشاطه الكبير ورحلاته الواسعة والمتكررة واستغلاله حب النصارى للسيد المسيح ومعاناتهم من اضطهاد اليهود، والتركيز على الجوانب الروحية، استطاع بولس خداعهم إذ دعاهم إلى الإيمان بأن:

- المسيح ابن الله، وقد استقى الفكرة من عقيدة المصريين حول «حورس وأوزيريس وإيزيس» وعقيدة التثليث.
- صلبه كان تكفيراً لخطايا الناس.
- عيسى «عليه السلام» قام من الأموات بعد صلبه وأنه صعد وجلس عن يمين الله.
- جميع أحكام التوراة باتت منسوخة، لأنها كانت لعنة خلصهم منها السيد المسيح «عليه السلام».
- ولنعرف مدى تأثيره يمكننا الاطلاع على العهد الجديد ـ الشامل للإنجيل وأعمال الرسل ـ لنكتشف أن نصفه قد

اعتقد قدماء المصريين أن أوزيريس هو إله البعث والحساب، وهو رئيس محكمة الموتى، وأن أخاه «ست» الشرير قتله وقطع جسده ورمى الأوصال في النيل، فعمدت أخته التي هي في نفس الوقت زوجته «إيزيس» إلى البحث عن الأوصال وجمعها ثم مضاجعة أوزيريس لتنجب منه «حورس». فشبّه بولس: أوزيريس بالإله الأب، وإيزيس بمريم، وحورس بالمسيح.

١. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٣، ص ٢٠٤.

تمت كتابته بيد بولس، إذ أن ١٣ من ٢٧ سِفراً تُنسب إليه مباشرة، وبيد أشخاص تأثروا بفكره.

وهكذا انقسم النصارى بين أتباعٍ للحواريين يؤمنون بما جاء به عيسى «عليه السلام» دون تحريفٍ، وأتباع لبولس يؤمنون بأن عيسى ابن الله... إلخ البدع البولسية والوثنية.

قال «هيم ماكبي» في كتابه «بولس وتحريف المسيحية»: **(بولس، لا عيسى هو مؤسس هذه المسيحية، إن الأسطورة الأساسية في هذا الدين الجديد تقول بموت كائن إلهي للتكفير عن خطايا البشر، وإن الخلاص الوحيد هو الإيمان بهذه التضحية والتوحد الديني بها، ولقد استقى بولس بعض ذلك من المصادر الهيلينية[١] وافترى هذا الدين، كما خلط ذلك بما استوحاه من الغنوصية والأديان الباطنية)**[٢].



إيزيس ـ أوزيريس ـ حورس

وقد اقتبس بولس من الوثنيات كذلك أعياد رأس السنة، وعيد القيامة، وعيد الغطاس، وأطلق عليها مسميات جديدة، فعيد الربيع مثلاً عندهم Ostara أصبح عيداً لخروج عيسى من القبر Easter.

وهكذا انقسم النصارى إلى فرقتين رئيستين، فرقة تتبع بولس، وفرقة تتبع الحواريين الأمناء على رسالة السيد المسيح، ودار صراع عنيف بين الطرفين، وامتد بعد ذلك لقرون، ووجدت فيه السلطة الرومانية الوثنية

يمكن تعريف الغنوصية أو العرفانية بأنه العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية والناتج عن صفاء الروح وانكشاف الحقائق بذاتها لا بالتعلم ولا بالوحي ولا بالتحليل العقلي، ويعتبره القائلون به أرقى مصدراً ومحتوى من سائر العلم المتحقق بالبحث والتفكير. والعرفاني هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص في باطنها لمعرفة أسرارها، وهي معرفة تقوم على تعميق الحياة الروحية. فالمعرفة هنا لا تعني العلم، أي اكتساب معارف، بل بذل مجهود متواصل بقصد التطهير والتخلص من الأدران والتوصل للصيغة الغنوصية اللازمة لرحلة العودة للاندماج من جديد في العالم الإلهي. والغنوصية ترى أن ثمة جوهراً واحداً يجمع بين كل الديانات، ولذا لا تقدّم نفسها كديانة جديدة، بل كباطن للشريعة القائمة، ومهمة الغنوص الكشف عن المغزى العميق للعقيدة التي ينتمي إليها الغنوصي.

١. هيم ماكبي: بولس وتحريف المسيحية، ص٢٩-٣٠.

٢. تمثل الحضارة الهيلينية فترة متأخرة من الحضارة اليونانية وكانت ذات طبيعة صوفية فلسفية باطنية.



النموذج الأفضل من المسيحية التي يمكن قبولها كصورة قريبة من العقائد الوثنية آنذاك. وعُقد المجمع الكنسي في «نيقية» سنة ٣٢٥م، بأمر من «قسطنطين الأول»، وجمع بين «آريوس» وأتباعه الممثلين لكنيسة الإسكندرية وكانوا موحِّدين، و «الكسندروس الأول» بابا الإسكندرية وكانوا من المعتقدين بالتثليث، وصدر القرار باعتماد التثليث ورفض التوحيد، وحُرقت كتب الموحدين، واختفى الإنجيل الحقيقي، واضطُهد أتباع هذا المذهب، وتبنّى قسطنطين الأول النصرانية بصورتها التثليثية.

* طوائف النصارى:

لم يكن الانقسام الذي أحدثه بولس هو الوحيد الذي ظهر بين النصارى في الشرق والغرب، بل ظهرت انقسامات حادة وعنيفة على مدى قرون متوالية، أدت إلى ظهور عشرات المذاهب التي ما زلنا نشهد مجموعة منها كالكاثوليكية والأروثوذكسية والبروتستنتية. ولنا جولة مع أهم تلك المذاهب لا سيما بما يخص العرب النصارى قبل الإسلام.. فمن أهم فرق النصرانية قبل الإسلام:

١) **الآريوسية**: تنسب إلى الكاهن «آريوس»، المصري الأصل، الليبي المولد «ولد ٢٥٦م». اعتقد آريوس أن الله واحد لم يولد، سرمدي، ليست له بداية ولا نهاية، ولا يشاركه شيء في ذاته وكل ما كان خارجاً عن الله الأحد هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله ومشيئته، وأن عيسى «عليه السلام» مولود مخلوق له بداية، غير أزلي ولا قديم، وهو وسط بين الله والعالم، ليس بمعصوم ذاتاً، ولكن استقامته حفظته من كل زلل وخطأ.



مجمع نيقية ويظهر آريوس باللباس الأبيض

٢) النساطرة: ويُعرفون بأصحاب الطبيعتين، وهم أتباع الراهب «نسطوريوس = نسطور»، اختير بطريركاً لكرسي القسطنطينية عام ٤٢٨م. اعتقد نسطور بوجود طبيعتين في المسيح، فقبل التجسد كانت طبيعته إلهية، وبعد التجسد صارت طبيعته بشرية أيضاً، وأن عذاب الصليب لم ينل من الطبيعة الإلهية بل انتصر على الطبيعة البشرية فحسب، وعاد المسيح إلى الطبيعة الإلهية فقط بعد الصلب. وأنه لا يحق للسيدة مريم أن تُدعى والدة الإله، بل أم يسوع فقط. حكمت الكنيسة الرسمية على نسطور بالهرطقة «الابتداع» وتم حرمانه وعزله عن رتبته البطريركية، عام ٤٣١م.

وفي عام ٤٥١م عقد اجتماع كنسي في «خلقيدونية» تبعاً لارتدادات انتشار النسطورية، وانقسم فيه الحضور إلى قسمين شكّلا مذهبين:

٣) اليعاقبة: ويعرفون باسم أصحاب الطبيعة الواحدة. أبرز مؤسسيهم مار يعقوب البرادعي «ت ٥٧٨م» وهو من الإسكندرية. اعتقد اليعاقبة بأن ليس للسيد المسيح سوى طبيعة واحدة، يتَّحد فيها الجوهر الإلهي والجوهر البشري للسيد المسيح بدون امتزاج ولا اختلاط. ويُعَدّ الأقباط الأورثوذوكس اليوم من اليعاقبة.

٤) الملكانية: القائلين بوجود طبيعتين للسيد المسيح متحدتين في شخصه ودون فصل بينهما. وعُرفوا بهذا الاسم لأنهم أتباع الملك في القسطنطينية. ويُعتبر الكاثوليك اليوم من الكنيسة الملكانية.

لما لجأ أتباع نسطور ـ بعد عزله واضطهاد أتباعه ـ إلى الأراضي الواقعة تحت سلطان الدولة الفارسية الساسانية استقبلوهم وساعدوهم، وأسسوا مدرستين دينيتين رئيستين، وقوي نفوذهم وانتشر مذهبهم في العراق في إمارة الحيرة، وأنحاء من الشام، وبين القبائل العربية في اليمن والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربية. وفي المقابل فقد انتشر المذهب اليعقوبي بين الغساسنة، وفي بادية الشام، ولدى بعض القبائل العربية، وأنحاء من اليمن والحجاز.

كانت الكنيستان النسطورية واليعقوبية وانقساماتهما ذات الطبيعة الإثنية «سريان ـ أقباط ـ عرب ...» على عداء دائم مع الكنيسة الرسمية الملكانية.

* قصص قرآنية:

تحدث القرآن الكريم في قصصه عن النصارى المؤمنين في عهد الفترة وفي العهد النبوي الشريف، ومن ذلك قصة أصحاب الكهف والرقيم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ إلى قوله «عزوجل» ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا، هَـؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا، وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[1].

وقعت الحادثة بعد عهد رسالة المسيح «عليه السلام» ونزول الإنجيل، وبالتالي لم يكن هناك كتاب سماوي لاحق ليذكر القصة سوى القرآن الكريم، ولذا اختص القرآن بها. أما المصادر المسيحية لعهد ما بعد نزول الإنجيل فقد ذكرت القصة، ففي الموسوعة الكاثوليكية جاءت تحت عنوان: The Seven Sleepers of Ephesus معتبرة أن دخولهم الكهف كان على عهد «دسيوس» Desius الذي حكم في الفترة ما بين ٢٤٩ – ٢٥١ م، بينما كان ظهور أمرهم على عهد «ثيودوسيوس» الأول Theodosius[2] الذي حكم بين ٣٧٩ – ٣٩٥ م، أو «ثيودوسيوس» الثاني الذي حكم بين ٤٠٨ – ٤٥٠ م، والذي أثيرت إبان حكمه قضية إحياء الموتى في يوم القيامة كمشكلة فكرية كبيرة انقسم على إثرها الناس يومذاك، ولم ينتصر أصحاب الرأي القائل بحقيقة البعث الجسماني بعد الموت إلا حين أزاح أحد أهل المدينة الحجارة التي تُغلق مدخل الكهف، فتفاجأ بوجود أولئك الفتية «السبعة» الذين ما لبثوا أن استيقظوا من ذلك السبات الذي طال قروناً من الزمان، ثم توالت الأحداث حتى كُشف أمرهم، وماتوا، وقرر الملك على إثر ذلك نقل جثامينهم وبناء أضرحة ذهبية عليها تخليداً لذكراهم، إلا أنهم تراءوا له في المنام طالبين منه الإبقاء عليهم في الكهف، فأُغلِق الكهف، وبُنيت عليه كنيسة.

١. سورة الكهف: ٩-١٦.
٢. معنى اسمه بالعربية عطاء الله، وبالعبرية يقال له نتنياهو.



أصحاب الكهف بحسب التصور المسيحي

واعتاد النصارى بعد ذلك على إحياء ذكراهم في الرابع من أغسطس، وفي الثاني والعشرين من أكتوبر من كل عام[١]. والوصف القرآني لهم بأنهم فتية آمنوا بربهم وأنه زادهم هدى، وأنهم لا يعبدون إلا الله دليل على أنهم ما كانوا من التابعين للمذاهب المعتقدة بالتثليث.

وأما القصة الثانية فهي قصة أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وتدل بعض النصوص على أن أحداثها جرت بالقرب من نجران، وبالتحديد في مدينة «الأخدود» التي كانت تسمى «رقمات»، وهي مدينة قديمة جداً حيث عُثر فيها على نقوش ورسوم تعود إلى ٧,٠٠٠ سنة! وقد اشتهرت المدينة بهذه الجريمة الواقعة في عهد الفترة ما بين ٥١٥ م إلى ٥٢٥ م، حيث آمن أهلها برسالة السيد المسيح «عليه السلام» نحو عام ٥٠٠م، فهاجم مدينتهم الملكُ الحميري اليهودي ذو نواس، وخيّرهم بين الرجوع عن إيمانهم وبين الإبادة حرقاً، فأصروا على إيمانهم، فحفر لهم أخدوداً وقتلهم حرقاً.. وقيل أنهم كانوا عشرين ألفاً، قال الله «عزوجل» في الإشارة إلى قصتهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَايَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[٢].

وقد جاء في تقرير لصحيفة «عكاظ» السعودية: (... **فرغم مرور مئات السنين إلا أن العظام الهشة السوداء والرماد الكثيف والفحم والحجارة المتناثرة على أطراف المباني شاهدة على الحريق الهائل الذي أصاب أهالي مدينة**

١. www.newadvent.org/cathena/05496a.htm

٢. سورة البروج: ٤ - ١٠.

الأخدود في عام ٥٢٥ من الميلاد.. ويتحدث المدير التنفيذي لفرع الهيئة العامة للسياحة والآثار بمنطقة نجران «صالح ابن محمد آل مريح»: ... هناك عدة أخاديد حفرت في الموقع وما زال رماد وآثار الحريق موجودة حتى الآن.. لقد أجرينا منذ فترة مجسات اختبارية أوضحت لنا أن الأخدود ممتد إلى الألف الأول قبل الميلاد واستمر إلى الألف الأول الميلادي، وبعدها حدث الحريق وحادثة الأخدود)[١].

والقصة الثالثة تتعلق بمؤمنين من النصارى على عهد النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، ففي سورة المائدة التي لعلها آخر سورة أنزلت على النبي حديثٌ عن نصارى عَرفوا الحق في رسول الله.. ولكن هل أعلنوا عن إيمانهم جهاراً أم أنهم التزموا الصمت وآمنوا في السر تقيّة؟ ومن هم بالتحديد؟ وممن اتّقوا؟ الآيات لا تتحدث عن هذا كله وتكتفي بوصف مختصر كالتالي: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

وقد روي عن عبدالله بن الزبير أنها قال: **(نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه)**[٣]. أي أن الآية نازلة بخصوص ما جرى في الحبشة حين سمع النجاشي القرآن. واستُشكل على ذلك بالفترة الزمنية الطويلة ما بين الحدث في العهد المكي، ونزول الآيات في أواخر العهد المدني.

وقيل أن الآيات تتحدث عن ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستّين راهباً من الحبشة مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة وسمعوا القرآن وأسلموا سنة ٧هـ بعد فتح خيبر، ولذا جاء الحديث عن اليهود في البداية باعتبارهم طرف معاند ومحارب في خيبر في مقابل هؤلاء النصاري المؤمنين.

واستشكل ابن عاشور في تفسيره قائلاً: **(ولم يُعرف قوم معيّنون من النصارى أسلموا في زمن الرسول. ولَعلّ الله أعلَم رسوله بفريق من النصارى آمنوا بمحمد في قلوبهم ولم يتمكّنوا من لقائه ولا من إظهار إيمانهم ولم يبلغهم من الشريعة إلاّ شيء قليل تمسّكوا به، ولم يعلموا اشتراط إظهار الإيمان المسمّى بالإسلام، وهؤلاء يشبه حالهم حالَ مَن لم تبلغه الدعوة، لأنّ بلوغ الدعوة متفاوت المراتب. ولعلّ هؤلاء كان منهم من هو بأرض الحبشة أو باليمن. ولا**

١. صحيفة عكاظ السعودية ـ النسخة الإلكترونية الصادرة بتاريخ ٩/أبريل/٢٠١٢.
٢. سورة المائدة: ٨٢-٨٥.
٣. المزيني: المحرر في أسباب نزول القرآن، ج ١، ص٤٩٥.

شكّ أنّ النجاشي «أصْحَمة» منهم. وقد كان بهذه الحالة، أخبر عنه بذلك النّبي. والمقصود أنّ الأمّة التي فيها أمثال هؤلاء تكون قريبة من مودّة المسلمين)[1].

❋ مقتل الحارث الأزدي:

عن عمر بن الحكم، قال: **(بعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بُصرى بكتابه، فلما نزل مؤتة عرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدَّمه، فضرب عنقه صبراً**[2]. **ولم يُقتَل لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» رسولٌ غيرُه، وبلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الخبر، فاشتد عليه)**[3].

والذي يبدو من هذا النص وغيره أن شرحبيل هذا ليس الحاكم الغساني المعاصر للحدث، بل لعله من القادة العسكريين أو الولاة المعينين في تلك المنطقة من قبل الحاكم الغساني، وقد صادف أن قطع طريق مبعوث النبي فقتله.. وهل كان ذلك بأمر مسبق من الحاكم الغساني؟ لعل بعض القرائن تدل على أنه ما كان ليتصرف هكذا من تلقاء نفسه، فلقد كان العُرف آنذاك أن الرسل لا تُقتَل، ولا يُساء إليهم، بل في بعض النصوص أن الرسالة كانت لقيصر الروم عن طريق حاكم بُصرى، مما يجعل قبول احتمال كون تصرفه شخصياً أضعف.

وقد اشتبه البعض فخلط بين شرحبيل هذا وبين الحاكم الغساني في تلك الفترة، وبالعودة إلى قائمة المراسلات النبوية ومضمون الرسالة إلى الغساسنة نجد أن الحاكم المخاطب في الرسالة الأولى المبعوثة إلى الغساسنة هو الحارث بن أبي شَمِر الغساني، فهل هو نفس الحاكم الذي خاطبه النبي في المراسلة الثانية التي قُتل على إثرها الأزدي؟

القوائم التي دوّنها المؤرخون وكذلك المستشرقون لحكام الغساسنة متفاوتة، من حيث العدد، والأسماء، وتحديد مَن منهم عاصر النبي في تلك الفترة.

إحدى القوائم المدونة بأسماء ملوك الغساسنة تظهر أن الذي كان يحكم ما بين «٦٢٨-٦٣٢م» هو جبلة بن الحارث الغساني وترتيبه الخامس والثلاثين، وهذا يعني أن احتمال انتقال الحكم من الحارث إلى جبلّة أمر ممكن بحسب التاريخ، بالإضافة إلى الرواية التي مرّت بنا وذكرت أن النبي قال بأن ملك الحارث بن أبي شمر

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير: ج٧، ص ٥-٩.
٢. بعد أن قتله شرحبيل بن عمرو الغساني، دُفن في منطقة بصيرا في محافظة الطفيلة، وتقع جنوب العاصمة الأردنية عمّان بحدود ١٨٩كم، ومرقده فيها مبني.
٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح٥٥٣٩.

لن يبقى، وأنه مات في عام الفتح أي نفس السنة التي وقعت فيها غزوة مؤتة أيضاً.. إلا أن نفس القائمة التي ذكرت اسم جبلّة أظهرت أن الحاكم السابق له هو عمرو بن جبلة، وليس الحارث بن أبي شمر.. ولذا يبقى تحديد اسم الحاكم الغساني المعنوَن في الرسالة الثانية غير محسوم[١].

ويضاف إلى هذه الجريمة ـ بحسب محمد أبوزهرة ـ جريمة أخرى حيث قال: (**كان من عرب الشام مَن دخل فى الإسلام، أو كان من العرب من سافر إلى الشام. وأولئك المسلمون، وإن كانوا عدداً قليلاً ضاقت بهم صدور النصارى حرجاً، فقتل والي الشام من قبل الرومان مَن أسلم من عرب الشام، ولا بد أن يحمي محمد «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه أولئك الذين يُفتنون عن دينهم لتمنع الفتنة عنهم، ويقول فى ذلك ابن تيمية فى رسالة القتال: إن النبى «صلى الله عليه وسلم» ما بعث إلى حرب الروم فى مؤتة إلا بعد أن قتل الوالي الرومانى مَن أسلم فى الشام**)[٢]. ولكن بالعودة إلى المصادر المتاحة لم أجد نصاً تاريخياً يدل على ذلك، والله أعلم.

وجاء في كتاب (غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية) لمؤلفه بريك العمري: (**ويرى بعض المستشرقين ومَن سار في فلكهم من القوميين العرب، أنَّ مؤتة كانت لإشعار العرب المتنصِّرة في الشام بقوة المسلمين، قوّة تحفزهم على الانضمام إليهم بدافع العروبة، مِمَّا يوحّد العرب جميعاً، وضمهم إلى الدولة العربية، وإدخالهم في نطاقها. كما أنَّ زوال ما كان لبيزنطة من الهيبة في نفوس العرب، هيأ الفرصة لقيام الوحدة بينهم، ثُمَّ مهاجمة الممتلكات البيزنطية فيما بعد**)[٣].

ولم يرتضِ المؤلف هذه الاستنتاجات وردّها برأيه للأسباب التالية:

١) أنها استنتاجات بُنِيَت على أساس الفكر القومي وأنه فكر عقيم ولا زال معول هدم لتفتيت وحدة الأُمة الإسلامية.

٢) غزوة مؤتة ما كانت إلا استجابة لنداء الباري «عزَّ وجلَّ» لقتال أهل الكتاب وإخضاعهم لسلطان المسلمين، إمَّا بالدخول في الإسلام، أو أداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

٣) لأنه اتَّضح بما لا يدع مجالاً للشَّك، من خلال الأحداث أنَّهم كانوا حجر عثرة في وجه نشر الدَّعوة الإسلامية، وأنَّهم شكَّلوا بقواهم السياسية والعسكرية، تهديداً للمسلمين، وفتنةً لأتباعهم.

١. جعل حمزة الأصفهاني ترتيب جبلّة برقم ٣١ وهو قبل الأخير في سلسلة الحكام الغساسنة ويسبقه عمرو بن جبلة ولا ذكر للحارث بن أبي شمر إلا برقم ٢٥ والذي كان يعيش قبل قرابة القرن من هذه الأحداث. بينما صرّح المسعودي أن الذي عاصر النبي هو الحارث بن أبي شَمِر وكان ترتيبه قبل الأخير

٢. محمد أبوزهرة: خاتم النبيين، ج٣، ص٨٤٦.

٣. بريك العمري: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص٢٥٠.

٤) والعرب المتنصّرة في الشام كانوا جزءً لا يتجزأ من تلك القوى المعادية للإسلام. فكيف يُقال بعد ذلك أنَّ مؤتة حفَّزت على قيام الوحدة العربية بين المسلمين والقبائل العربية المتنصِّرة في الشام؟!

ولكن يمكن القول أن ردوده جاءت متحاملة ومجانبة للصواب[١]، فما المانع أن يفكّر النبي «صلى الله عليه وآله» بتلك الصورة من أجل هداية أولئك العرب، ولو من منطلق قومي في البداية، ثم لتتحول المسألة إلى حالة إيمانية حقيقية بشكل تدريجي؟ بالطبع، هذا لا يعني أنهم يمتلكون دليلاً نصياً على صحة الفكرة، ولكنها تبقى استنتاجات يسعى الباحث للوصول إليها من خلال تفسير مجريات الأحداث التاريخية، وهو أمر مشروع للباحثين ما لم يقم الدليل على تعذّر القول بتلك الاستنتاجات.

* النبي يعلن النفير:

بمجيء خبر مقتل الحارث الأزدي، أعلن رسول الله النفير للخروج للقتال، إذ لابد من الرد على هذه الإساءة التي قد يتجرأ من خلالها العدو للإقبال على المزيد من صور العدوان المحتملة، ولربما تصل إلى حد التفكير في غزو الحجاز أو بعض المناطق الخاضعة لنفوذ دولة الإسلام بقيادة رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث غدت متاخمة لحدود دولة الروم ومناطق نفوذ وسيطرة الغساسنة، لاسيما بلحاظ التهديد الذي وجهه الحاكم الغساني الحارث بن أبي شمر حين قرأ الرسالة الأولى واستعراض القوة الذي قام به أمام مبعوث النبي.

وقد روى المؤرخون، ومنهم ابن عساكر أن النبي بعد سماعه بمقتل الحارث: **(ندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرف)**.

إلا أنهم أضافوا: **(ولم يبيِّن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الأمراء، فلما صلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الظهر جلس، وجلس أصحابُه حوله، وجاء النعمان بن مهض[٢] اليهودي فوقف على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مع الناس، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتِل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة، فإن أصيب عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم. فقال النعمان بن مهض: أبا القاسم، إن كنت نبياً فسمّيتَ مَن سمّيت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا: إنْ أصيب فلان، فلو سمى مئة أصيبوا جميعاً، ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة، اعهد، فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً، فقال زيد: فأشهد أنه نبي صادق بار)**[٣].

١. وقد تجاوزْتُ الكثير من عباراته العنيفة.
٢. وقيل: «فنحص».
٣. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج١، ص٤٢.



ويمكن أن يُلاحظ على ما سبق حضور اليهودي في هذا الوقت والوضع الحساس الذي يُعلن فيه النبي عن الغزوة وتحديد الأمراء، وموقف اليهود من المسلمين غير خاف، خاصة ونحن نتحدث عن موقف يأتي بعد غزوة خيبر بقليل.. فكيف يأمن النبي «صلى الله عليه وآله» أن يطرح الأمر بهذه الصورة أمامه، ويحدد مسار الغزوة وأسماء القادة البدلاء؟ خاصة ونحن نعرف كيف كان النبي حريصاً على كتمان مسار غزواته وسراياه إلا ما ندر.

ثم أليس تعيين القادة البدلاء أمراً بديهياً في مثل هذه الحالة التي لا يصاحبهم فيها النبي بنفسه؟ فلماذا يُفسَّر الأمر بما له علاقة بمقام النبوة؟ ثم يحتّم اليهودي مقتل أو إصابة القادة معتبراً ذلك من دلالات نبوة النبي «صلى الله عليه وآله». يضاف إلى ذلك أن هذا اليهودي مجهول ولا يُعرف مَن هو.

ويبدو أن بعض القصاصين حلا لهم أن يضيفوا شيئاً من الإثارة على القصة من خلال اختلاق هذه الشخصية اليهودية أو اختلاق البعد الغيبي في الحدث من خلال ادّعاء وجود سنّة نبوية مشهورة عبر التأريخ تحكم مجريات الأمور. وأكمل الراوي الخبر كالتالي: (**فلما أجمعوا المسير وقد عقد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لهم اللواء ودفعه إلى زيد بن حارثة ـ لواء أبيض ـ مشى الناس إلى أمراء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يودّعونهم ويدعون لهم، وجعل المسلمون يودع بعضهم بعضاً، والمسلمون ثلاثة آلاف، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم، وردّكم صالحين غانمين**)[1].

١. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج١، ص٤٢.

أشار د. محمود شيت خطاب إلى أن هذا التعيين للقادة بالترتيب كان الأول من نوعه في تاريخ غزوات النَّبيّ «صلى الله عليه وآله» وسراياه: (**وما ولَّى النَّبيّ «صلى الله عليه وسلم» قبل وقعة مؤتة ولا ولَّى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة، ولكن بُعْد نظره ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولِّي ثلاثة قادة على سرية واحدة، مرَّة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها**)[١].

واحتمل أكرم العمري أن هذا كان احتياطاً منه «صلى الله عليه وآله»: (**وربما كان متوقعاً أن تُخفَّ الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً**)[٢].

* التعريف بالقادة:

جعفر بن أبي طالب: أبوعبدالله المشهور بجعفر الطيار، وذي الجناحين. هو ابن عم النبي «صلى الله عليه وآله»، وشقيق أمير المؤمنين علي «عليه السلام». قيل أنه كان أسن من علي بعشر سنين، وأخوه عقيل أسن منه بعشر سنين، وأخوهم طالب أسن من عقيل بعشر سنين، والأمر غير أكيد.

كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، فقد آمن بالنبوة بعد إيمان الإمام علي بقليل، وقد روي: (**أن علياً «عليه السلام» أولُ ذَكَرٍ أسلم، ثم أسلم زيد بن حارثة «رضي الله عنه» حِبُّ النبي «صلى الله عليه وسلم» ثم جعفر ابن أبي طالب «رضي الله عنه». وكان أبو بكر «رضي الله عنه» الرابع في الإسلام أو الخامس**)[٣]. وقال ابن الأثير: (**روي أن أبا طالب رأى النبي «صلى الله عليه وسلم» وعلياً «رضي الله عنه» يصليان، وعلي عن يمينه، فقال لجعفر «رضي الله عنه»: صِل جناح ابن عمك، وصَلِّ عن يساره**)[٤].

ويبدو أنه بعودته من الحبشة في السنة السابعة سرعان ما ترك بصمة في المجتمع المسلم حيث عُرف برعايته للمساكين حتى أطلق عليه النبي عنوان «أبي المساكين». وقد روي عن أبي هريرة، قوله: (**إن كنتُ لألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية، وهي معي، كي ينقلب بي، فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إنْ كان ليخرج إلينا العُكّة[٥] التي ليس فيها شيء، فنشقها، فنعلق ما فيها**)[٦].

١. خطاب: القادة الشهداء، ص ١١٤-١١٥.
٢. العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج٢، ص٤٦٧.
٣. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج١، ص٧٧٩.
٤. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص١٨١.
٥. العُك: زَق صغير مخصص للسمن، والزق وعاءٌ من جلد يُجَزُّ شعرُهُ ولا يُنْتَف، يُجعَل للشراب وغيره.
٦. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص١٨١.

ولأبي هريرة عدة أحاديث في الثناء على جعفر لما كان يشهده منه من رعاية للمساكين، وكان أبو هريرة أحدهم، حتى قال عنه: (**ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا ركب الكَوْرَ** [1] **بعد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أفضل من جعفر**)[2]. وقد ورّث جعفر هذه الصفة لابنه عبدالله الذي كان يُعد من أجود العرب ويُضرب بجوده المثل.

ويرتبط اسم جعفر بالهجرة إلى الحبشة، على إثر الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون في مكة، حيث روي أن أحد عشر رجلًا وأربع نسوة من المسلمين هاجروا إليها في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وأمّروا عليهم عثمان بن مظعون، إلا أن بعضهم عاد بعد فترة وجيزة حين بلغتهم إشاعة إيمان قريش برسالة النبي «صلى الله عليه وآله». وإذ تبيّن للعائدين إلى مكة كذب الخبر، قرروا العودة إلى الحبشة وبرفقتهم مجموعة أكبر وبقيادة جعفر.

ومن بين المهاجرين السيدة أم سلمة، التي روي عنها وصف ما جرى في تلك الهجرة، قالت: (**لما ضاقت على النبي «صلى الله عليه وسلم» مكة، وأوذي أصحابه وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في مَنَعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله«صلى الله عليه وسلم»: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه. فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنّا على ديننا، ولم نخش ظُلماً، فلما رأت قريش أنا قد أصبنا داراً وأمِنّا، اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا، ليخرجونا من بلاده، وليردنا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته**[3]**، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا بعثوا له هدية على حدة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتما أن يردّهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا. فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقته إلا قدموا إليه هديته فكلموه فقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم ولم يدخلوا في دينكم، فبعثَنا قومُهم ليردّهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل. ثم قدموا إلى النجاشي هداياه ، فكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم، فلما أدخلوا عليه هداياه، فقالوا له: أيها الملك، إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم وآباءهم وأعمامهم وقومهم لتردّهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً** [4] **فقالت بطارقته : صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم،**

١. الكَوْر: الجماعةُ الكثَيرة من الإبل أو البقر.
٢. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص١٨١.
٣. البطريق أو البطريرك: صاحب مرتبة علمية دينية نصرانية.
٤. أي أبصر بهم.

فإنهم لم يدخلوا في دينك فيمنعهم أملُك. فغضب ثم قال: لا لَعَمرُ الله، لا أردّهم عليهم حتى أدعوهم وأكلمهم وأنظر ما أمْرُهم. قوم لجئوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عيناً. فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض إلى عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامَهم، فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا تقول؟ نقول والله ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا «صلى الله عليه وسلم» كائن من ذلك ما كان. فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب[1]، فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية، ولا نصرانية، فما هذا الدين؟ فقال جعفر: أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيئ الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرّمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحُسن الجوار، ونصلي لله «تعالى»، ونصوم له[2] ولا نعبد غيره، قال: فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلم فاتل علي ما جاء به. فقرأ عليه صدراً من كهيعص، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى[3] انطلِقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليهم، ولا أنعمكم عيناً. فخرجنا من عنده، وكان أتقى الرجلين فينا عبد الله بن أبي ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لأئتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم، فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى ابن مريم عبد، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا، فإن لهم رحماً، ولهم حقاً. فقال: والله لأفعلن. فلما كان الغد دخل عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسِل إليهم فسلهم عنه. فبعث إليهم ولم ينزل بنا مثلها. فقال بعضُنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقال: نقول والله الذي قاله الله «عزوجل»، والذي أمرنا به نبينا «صلى الله عليه

---

١. وفي رواية: (فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتَّبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله «عز وجل». قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً ثم أمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله «عز وجل»، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال: فما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد) أي لم يؤثّر فيها ولم يحزّها قبل المسيح. والفرض: الحز في الشيء والقطع (فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما). ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣ ص٨٨.

٢. في رواية أخرى ذكر الزكاة بدلاً من الصوم، وهو الأصح لأن تشريع الصيام جاء بعد عدة سنوات من هذا الحدث.

٣. وفي رواية أخرى عيسى بدلاً من موسى وهو الأوفق.

وسلم» أن نقول فيه، فدخلوا عليه وعنده بطارقته، فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول: هو عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين إصبعيه، فقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العويد، فتناخرت بطارقته. فقال: وإن تناخرتم والله. اذهبوا، فأنتم شيوم في أرضي ـ والشيوم: الآمنون ـ من سبَّكم غَرِم، ثم مَن سبَّكم غرِم، ثم مَن سبَّكم غرِم، فأنا ما أحب أن لي دبراً، وأني آذيت رجلاً منكم ـ والدبر بلسانهم الذهب ـ فوالله ما أخذ الله «عزوجل» مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس في، فأطيع الناس فيه، ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، واخرجا من بلادي. فرجعا مقبوحَين مردوداً عليهما ما جاءا به، فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار)[1].

ولكن هناك شك في عودة المجموعة الأولى من الحبشة لسماعهم إشاعة إسلام قريش، ثم رجوعهم إليها مجدداً وقيادة جعفر لهم، حيث أنها ترتبط بقصة الغرانيق التي قيل فيها أن النبي «صلى الله عليه وآله» لما تلى قوله «عزوجل»: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزّى، وَمَنَاةَ الثّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[2]، ألقى الشيطان على لسانه: **(تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لتُرجى)** فقال المشركون: ما ذَكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد النبي «صلى الله عليه وآله» ومَن معه من المسلمين، وسجد معهم المشركون! ثم تبيّن لهم لاحقاً أنها ليست من الوحي! والقصة مختلَقة. نعم، من الممكن أن تكون للمسلمين هجرتان، والكبرى منهما بقيادة جعفر، دون اللجوء إلى القول برجوع المجموعة الأولى إلى مكة.

وعلى كل حال، لما عاد جعفر من الحبشة سنة ٧هـ بُعيد فتح خيبر فرح النبي بذلك فرحاً شديداً، وقبّل بين عينيه، والتزمه وقال: **(ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟)**[3]. وزوجة جعفر هي السيدة أسماء بنت عميس.

أسماء بنت عميس بن معد الخثعمية، وقبيلة خثعم يمنية تسكن اليمن إلى «تبالة» الواقعة على الطريق من اليمن إلى مكة، ومن هنا ندرك سبب المصاهرة بين قريش وخثعم: فشقيقتها سلمى زوجة حمزة بن عبد المطلب؛ وأخواتها لأمها: لبابة الكبرى بنت الحارث زوجة العباس بن عبدالمطلب، وأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، ولبابة الصغرى بنت الحارث أم خالد بن الوليد، وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة. أسلمت أسماء مبكراً، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها فولدت له في الحبشة عبدالله وعون ومحمد، وعادت إلى المدينة مع زوجها وأبنائها. بعد استشهاد جعفر تزوجها الخليفة أبوبكر، وأنجبت له محمداً. ثم بعد وفاته تزوجها الإمام علي، فولدت له يحيى وعون. توفيت سنة ٣٨هـ، وقيل بعد ذلك.

١. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج٢، ص ٢٧٧-٢٧٨.
٢. سورة النجم: ١٩-٢٠.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢ ص٣٥٩.

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي: وأمه من قبيلة طيء. اختُطف حين كان مع أمه في رحلة إلى أهلها، وبيع في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد «رضي الله عنها»، ثم أهدته إلى النبي «صلى الله عليه وآله». وفي رواية أخرى أنه اختُطف من أهله في دياره بعد وفاة أمه ثم حُمل وبيع للسيدة خديجة. وفي رواية ثالثة أنه: (**أبصر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» زيد بن حارثة غلاماً ذا ذؤابة قد أوقفه قومه بالبطحاء للبيع، فأتى خديجة، فقالت: كم ثمنه؟ قال: سبعمائة. قالت: خذ سبعمائة. فاشتراه وجاء به إليها فقال: أما إنه لو كان لي لأعتقته. قالت: فهو لك. فأعتقه**)[1].

وعلى الرغم من أن أهله تعرفوا عليه لاحقاً في موسم حج، إلا أنه رفض الذهاب معهم، وفضّل البقاء مع النبي لما كان يجده عنده من التكريم وحسن المعاملة، إذ اعتنى به النبي كولد له، حتى كان يُعرف باسم زيد بن محمد. وقد آمن زيد برسالة النبي «صلى الله عليه وآله» مبكراً، وقيل أنه كان ثانياً من الرجال بعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام». هاجر إلى المدينة المنورة، وآخى النبي بينه وبين حمزة بن عبدالمطلب. ومن الواضح قيمة هذه المؤاخاة، فهي لم تكن مع أنصاري، كما أنها كانت مع عم النبي، وأي عم؟! عمه حمزة، وهذه من علامات علو شأن زيد.

شهد بدراً وما بعدها، وأمّره النبي «صلى الله عليه وآله» على عدة سرايا، وروت أم المؤمنين عائشة كيف استقبله النبي بعد أن عاد من إحدى السرايا منتصراً، قالت: (**أتانا زيد بن حارثة ، فقام إليه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يجر ثوبه، فقبّل وجهَه**)[2].

كان حُب النبي له مشهوداً حتى كان يقال عنه «حِب النبي»، وفي رواية عن ابن عمر قال: (**فرَض عمر لأسامة ابن زيد أكثر مما فرض لي، فكلمته في ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من أبيك**)[3].

قيل زوّجه النبي في البداية من مولاته أم أيمن بركة بنت ثعلبة الحبشية، فولدت له أسامة، وفي الخبر أن زيداً كان أبيض أحمر، وكان ابنه أسامة آدم شديد الأدمة تبعاً لأمه. ولكن إذا كانت أم أيمن حاضنة النبي «صلى الله عليه وآله» التي ورثها عن أبيه عبدالله، فلابد أن تكون أسن من رسول الله بعشر سنين على أقل التقادير كي تكون حاضنته، أي أنها كانت أكبر من زيد بعشرين سنة على الأقل، إذا أخذنا بالخبر الذي يقول أن زيداً كان أصغر من النبي بعشر سنين. فإذا كان أسامة قد ولد قبل الهجرة بسبع سنين كما روي، فهذا يعني أنه ولد ولأبيه

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١، ص٢٢٤.
٢. ن.م. ص٢٢٨-٢٢٩.
٣. ن. م. ص٢٢٩-٢٣٠.

٣٦ سنة، ولأمه ٥٦ سنة! وهذا بعيد... فإما أن نشكك في زواجه من أم أيمن، للفارق الكبير في العمر بينهما دون وجود مقتض لذلك، أو في سنة ولادة أسامة، حيث تدل بعض الروايات أنه ولد قبل الهجرة بعشر سنين، ومع هذا يكون لأمه ٥٣ سنة حين ولادته على أقل التقادير! وما زال الرقم كبيراً، ويحتمل أن أم أيمن هذه ليست حاضنة النبي، ووقع الخلط بسبب تشابه في الأسماء... والأمر يصعب حسمه.

وعلى الرغم من كونه مولى في الأساس، إلا أن النبي اختار له ابنة عمته زينب بنت جحش زوجة له، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب، وما ذاك إلا لشدة حبه له، ولإيمانه وشأنه عنده، وتذويباً للفروقات الاجتماعية. ومن المعلوم أن هذا الزواج لم يدم، فلم تكن زينب على وفاق معه، وحاول النبي «صلى الله عليه وآله» الإصلاح بينهما إلا أن الأمور اتجهت نحو الطلاق، وتزوجها النبي بعد انتهاء عدتها، وحكى القرآن الكريم جانباً من القصة، وجاء على ذكر اسم زيد في الآية، وهو الصحابي الوحيد الذي صُرِّح باسمه في القرآن كله، قال الله «عزوجل»: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾[١].

عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي: كان عظيم القدر في قومه، سيداً من ساداتها، يكتب في الجاهلية ويقول الشعر، فكان يناقض الشاعر قيس بن الخطيم في الحروب التي جرت بين الأوس والخزرج في الجاهلية. أسلم عبد الله بن رواحة في بيعة العقبة الأولى، وكان أحد النقباء الإثني عشر فيها. وبعد الهجرة آخى النبي «صلى الله عليه وآله» بينه وبين المقداد بن الأسود. شهد بدراً، وخرج للمبارزة حين نادى القرشيون بذلك في بداية المعركة، إلا أن النبي أبدلهم لاحقاً بحمزة وعلي وعبيدة. أرسله رسول الله بعد انتهاء المعركة إلى العالية من المدينة ليبشّر المسلمين فيها بالنصر. شهد ابن رواحة أحداً وما بعدها.

كان ابن رواحة كثير التعبد لله، وقد روي عن أنس أنه قال: **(كان عبد الله بن رواحة إذا لقي رجلاً من الصحابة يقول: تعالَ نؤمن ساعة[٢]، فقال ذلك يوماً لرجل، فغضب الرجل وجاء إلى النبي فقال: يا رسول الله، ألا ترى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)**[٣]. وعنه «صلى الله عليه وآله»: **(نِعم الرجل عبد الله بن رواحة)**[٤].

١. سورة الأحزاب: ٣٧.
٢. يريد بذلك التعبد لبعض الوقت.
٣. النقاش: فوائد العراقيين، ح٤٩.
٤. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٦٦.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلي: (**أن عبد الله بن رواحة أتى النبي «صلى الله عليه وسلم» ذات يوم وهو يخطب فسمعه وهو يقول: اجلسوا. فجلس مكانه خارجاً من المسجد حتى فرغ النبي «صلى الله عليه وسلم» من خطبته، فبلغ ذلك النبي «صلى الله عليه وسلم»، فقال: زادك الله حرصاً على طواعية الله «تعالى» وطواعية رسوله**)[1].

كان ابن رواحة أحد الشعراء الذين تصدوا للمشركين ودافعوا عن رسول الله وعن الإسلام والمسلمين. ومن شعره في النبي «صلى الله عليه وآله» ما رواه هو قال:

يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ، إِنَّ اللهَ فَضَّلَكُمَ ... عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلًا مَالَهُ غِيَرُ
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الخَيْـــرَ أَعْرِفُــهُ ... فِرَاسَةً خَالَفَتْهُمْ فِي الَّذِي نَظَرُوا
وَلَوْ سَأَلْتَ أَوِ اسْتَنْصَرْتَ بَعْضَهُمُ ... فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا آوَوْا وَلَا نَصَرُوا
فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى ، وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

(**فأقبلَ عليَّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» متبسماً وقال: وأنت فثبّتك الله**)[2].

وعن أنس بن مالك: (**أن النبي «صلى الله عليه وسلم» دخل مكة في عمرة القضاء؛ وابن رواحة يمشي بين يديه، وهو يقول:**

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فقال له عمر: يابن رواحة، بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وفي حرم الله تقول شعراً؟ فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: خَلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم مِن نضح النَّبْل)[3].

* ترتيب القادة:

وقع نزاع بين بعض المؤرخين في تحديد ترتيب القادة بحسب تعيين النبي «صلى الله عليه وآله» لهم، وأخذ هذا النزاع صبغة مذهبية، وقد تحدث ابن أبي الحديد عن هذا النزاع العلمي، قال: (**اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول، وأنكرت الشيعة ذلك، وقالوا كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأول، فإنْ قُتل فزيد ابن حارثة، فإنْ قُتل فعبد الله بن رواحة، ورووا في ذلك روايات**)[4].

إلا أن ابن أبي الحديد لم يذكر تلك الروايات، كما أنه سار بعد ذلك في ذكر الأحداث وفق الترتيب المشهور.

١. البيهقي: دلائل النبوة، ح٢٥٢٥.
٢. الطبري: تهذيب الآثار، ح٥٧٧.
٣. البغوي: الأنوار في شمائل النبي المختار، ح٣٥٣.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص٦٢.

نعم سيذكر أبياتاً لحسان بن ثابت ومالك الأنصاري وهي تؤيد قول الشيعة، وسنتحدث عنها لاحقاً. وتحدث اليعقوبي قبل ذلك في تاريخه عن الاختلاف الموجود في تحديد ترتيب القادة، وإن لم يُشر إلى تصنيف المختلفين مذهبياً، قال: (**ووجّه جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة في جيش إلى الشام لقتال الروم سنة ثمان، وروى بعضهم أنه قال: أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن قُتل زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل جعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة، فإن قُتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون من أحبوا. وقيل: بل كان جعفر المقدم ثم زيد بن حارثة ثم عبد الله بن رواحة، وصار إلى موضع يقال له مؤتة، من الشام من البلقاء من أرض دمشق، فأخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل، ثم أخذها جعفر...**)[1]. ومن خلال استعماله كلمة «قيل» ثم عرضه للأحداث وفق الترتيب المشهور «زيد، فجعفر، فعبدالله» يتبيّن لنا أنه يميل إلى هذا القول.

ونجد الشيخ الطوسي يتحدث عن مسألة تقديم المفضول على الفاضل واستدلال البعض بتقديم زيد على جعفر في قيادة الجيش مع أفضلية جعفر، ورده على هذا الاستدلال حيث قال: (**لا يجوز أن يُقدَّم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل فيه، وليس يمتنع أن يكون المقدَّم أفضل فيما تقدَّم فيه... وكذلك الجواب عن تقديم زيد على جعفر بن أبي طالب... على أنه قد اختلفت الرواية في تقديم زيد على جعفر، فروي أن جعفراً كان أميراً أولاً، وأنشدوا في ذلك أبياتاً لحسان بن ثابت**)[2]. فما هي الروايات الواردة في كتب السنة والشيعة والتي تتحدث عن تقديم جعفر على زيد في قيادة الجيش؟

في الطبقات الكبرى روايتان، جاء في الأولى ما يطابق قول المشهور، وفي الثانية: (**فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، ولبس السلاح، وقال غيره أخذ اللواء زيد بن حارثة وكان رأس القوم، ثم حمل جعفر، حتى إذا همَّ أن يخالط العدو، رجع فوحَّش بالسلاح**[3] **ثم حمل على العدو، فطاعن حتى قُتل. ثم أخذ اللواء زيد...**)[4].

وفي كتاب شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، عن أنس بن مالك قال: (**خطبنا رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعيناه تذرفان، فقال: أخذ الراية جعفر فقتل، ثم أخذها زيد بن حارث فقتل، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل، ثم أخذها خالد بن الوليد.. ثم إنه «صلى الله عليه وآله» التفت إلى مؤتة، وقال لهم: بايعَهم، إن أصيب جعفر، فأميركم زيد بن حارثة...**)[5].

---

١. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٢٩.
٢. الطوسي: تلخيص الشافي، ج١، ص٢١٤-٢٣٠.
٣. وحَّش بالسلاح: رمى به مخافة أن يُلحَق. ويبدو أنه أراد أن يتخفف من السلاح ليكون أكثر مرونة في القتال والكر والفر، أو لأنه وجد أن لا مصير في هذا القتال أمام هذا العدد الضخم إلا الموت فقرر أن يقوم بهجوم شبه انتحاري يقاتل من خلاله بأخف سلاح لديه.
٤. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٢١.
٥. القاضي النعمان: شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج٣، ص٢٠٦ و ٢٠٧.

وفي كتاب سُلَيْم بن قيس أن عبدالله بن جعفر في كلام له لمعاوية قال: (**يا معاوية، أما علمت أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث بعثَ إلى مؤتة أمَّر عليهم جعفر بن أبي طالب، ثم قال: إن هلك فزيد...؟**)[١].

وفي كتاب الاحتجاج أن الإمام الحسن المجتبى «عليه السلام» قال لمعاوية: (**وقد بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» جيشاً يوم مؤتة فقال: عليكم بجعفر، فإن هلك فزيد...**)[٢].

وقد ذكر ابن أبي الحديد بعد أن نقل رأي الشيعة في الموضوع ما يلي: (**وقد وجدت في الأشعار التى ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازى ما يشهد لقولهم**[٣] **فمن ذلك ما رواه عن حسان بن ثابت، وهو:..**)[٤]، وذكر الأبيات وبدورنا ننقلها من ديوانه[٥] لوجود بعض الاختلاف.

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ ... وَهُمْ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهِرُ

لِذِكْرَى حَبِيبٍ هَيَّجَتْ لِي عِبْرَةً ... سُفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذَكُّرُ

بَلَى إِنَّ فِقْدَانَ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ

رَأَيْت خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا ... شَعُوبَ وَخَلْفًا بَعْدَهُمْ يَتَأَخَّرُ

فَلَا يُبْعِدَن اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا ... بِمُؤْتَةَ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ

وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللهِ حِينَ تَتَابَعُوا ... جَمِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطِرُ

غَدَاةَ مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ ... إِلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ

أَغَرَّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... أَبِيٍّ إِذَا سِيمَ الظَّلَامَةَ مِجْسَرُ

فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرَ مُوَسَّدٍ ... لِمُعْتَرِكٍ فِيهِ قَنًا مُتَكَسِّرُ

فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابَهُ ... جِنَانٌ وَمُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ

وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ ... وَفَاءً وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ

فَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... دَعَائِمُ عِزٍّ لَا يَزُلْنَ وَمَفْخَرُ

هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ ... رِضَامٌ إِلَى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَقْهَرُ

بَهَالِيلُ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ ... عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ

وَحَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ ... عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ

---

١. كتاب سليم بن قيس: ص٣٦٧.
٢. الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص٥.
٣. أي قول الشيعة.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٦٢-٦٤.
٥. نقلت الأبيات عن ديوان حسان من موقع: konouz.com.

بِهِمْ تُفْرَجُ اللّأْوَاءُ فِي كُلّ مَأْزِقٍ ... عِمَاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالنّاسِ مَصْدَرُ
هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ ... عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابُ الْمُطَهّرُ

ومنها قول كعب بن مالك الأنصاري[1] من قصيدة أولها:

نَامَ العُيُونُ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ ... سَحّاً كَمَا وَكَفَ الطّبَابُ المُخْضَلُ
فِي لَيْلَةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا ... طَوْراً أحِنُّ وَتَارَةً أَتَمَلْمَلُ
واعتَادَنِي حُزْنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِي ... بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسّمَاكِ مُوكَّلُ
وكَأَنّمَا بَيْنَ الجَوَانِحِ والحَشَى ... ممّا تَأَوَّبَنِي شِهابٌ مُدْخِلُ
وَجْداً عَلَى النَّفَرِ الذينَ تَتَابَعُوا ... يوماً بِمؤتَةَ أُسْنِدُوا لم يُنقَلُوا
صلّى الإلهُ عَليهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ ... وَسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المُسْبَلُ
صَبَرُوا بِمُؤْتَةَ للإلهِ نُفُوسَهُمْ ... حَذَرَى الرَّدى وَمَخَافَةً أن يَنْكُلُوا
فَمَضَوْا أَمَامَ المُسْلِمينَ كَأَنَّهُمْ ... فُنُقٌ عَلَيْهِنَّ الحديدُ المُرفَلُ
إِذْ يَهْتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَائِهِ ... قُدَّامَ أَوَّلِهِمْ فِنِعْمَ الأَوَّلُ
حتّى تَفَرَّجَتِ الصُفُوفُ وَجَعْفَرٌ ... حَيْثُ التَقَى وَعْثُ الصّفوفِ مجَدَّلُ
تَغَيَّرَ القَمَرُ المُنيرُ لِفَقْدِهِ ... والشّمْسُ قد كُسِفَتْ وكَادَتْ تأفلُ
قَرْمٌ عَلاَ بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ ... فَرْعاً أَشَمَّ وَسُؤْدداً مَا يُنقَلُ
قومٌ بِهِمْ عَصَمَ الإلهُ عِبَادَهُ ... وَعَلَيْهِمُ نَزَلَ الكِتَابُ المُنْزَلُ
فَضُلُوا المَعَاشِرَ عِزَّةً وتَكَرُّماً ... وتَغَمَّدَتْ أَحْلاَمُهُمْ مَنْ يَجْهَلُ
يُطلِقُونَ إلى السَّفَاهِ حُبَاهُمُ ... ويُرى خَطِيبُهُمُ بِحَقٍّ يَفْصِلُ
يا هَاشِماً إِنَّ الإلهَ حَبَاكُمُ ... مَا لَيْسَ يبلغُهُ اللّسَانُ المقْصَلُ
قَوْمٌ لأَصْلِهِمُ السّيَادَةُ كُلُّهَا ... قِدْماً وَفَرْعُهُمُ النّبِيُّ المُرْسَلُ
بِيضُ الوُجُوهِ تَرضى بُطُونَ أَكُفِّهِمْ ... تَنْدَى إِذَا اعتَذَرَ الزّمانُ المُمْحِلُ
وَبِهَدْيِهِمْ رَضِيَ الإلهُ لِخَلْقِهِ ... وَبِجَدِّهِمْ نُصِرَ النّبِيُّ المُرْسَلُ

وتحدث السيد عبدالحسين شرف الدين عن الموضوع في: (ولعل الصواب ما يقوله أصحابنا الإمامية، أن الأول من هؤلاء الأمراء إنما هو جعفر، والثاني إنما هو زيد، وثالثهم عبدالله بن رواحة، وأخبارنا في هذا متظافرة من طريق

١. نقلت الأبيات من موقع: www.aldiwanalarabi.com .

العترة الطاهرة)[1]. والمؤسف أن السيد شرف الدين لم يذكر الروايات المتظافرة بتعبيره، وفي الهامش تم الإرجاع إلى كتاب بحار الأنوار للمجلسي، فهل هي متظافرة عن أهل البيت فعلاً؟ عند الرجوع إلى الجزء الحادي والعشرين من بحار الأنوار ـ باب غزوة مؤتة نجد ما يلي:

الرواية الأولى: عن المفيد في كتاب أمالي الشيخ الطوسي، ويذكر فيها الترتيب المشهور.

الروايتان الثانية والثالثة: عن قطب الدين الراوندي في الخرائج والجرائح، ويذكر فيهما الترتيب المشهور.

الرواية الرابعة: عن الطبرسي في كتاب إعلام الورى بأعلام الهدى، ويذكر فيها أولاً الترتيب المشهور ثم يقول: (**وفي رواية أبان بن عثمان، عن الصادق «عليه السلام» أنه استعمل عليهم جعفراً فإن قُتل فزيد...**).

الرواية الخامسة: عن ابن الأثير في كتابه جامع الأصول في أحاديث الرسول، ويذكر فيها الترتيب المشهور.

الرواية السادسة: عن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ويذكر فيها الترتيب المشهور ومعارضة الشيعة[2].

هذا كل ما في بحث غزوة مؤتة من كتاب بحار الأنوار، بالإضافة إلى الروايتين اللتين نقلهما في احتجاج الإمام الحسن وعبدالله بن جعفر، وبالتالي لا أدري كيف قال السيد شرف الدين بتظافر الروايات عن أئمة أهل البيت بأن النبي «صلى الله عليه وآله» عيّن جعفراً كقائد أول، ومن بعده زيد بن حارثة.

فهل وقع شرف الدين في خطأ، أم لديه من المصادر التي فاتت المجلسي وفيها روايات عن الأئمة تؤيد هذا القول، أم اعتمد على ما ذكره ابن أبي الحديد من أن لدى الشيعة روايات تؤيد رأيهم دون ذكر شيء منها؟ أم أنه قصد تظافر الروايات عموماً [3] وليس عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» فقط؟

على كل حال، فالأمر يصعب حسمه، دون تشكيك في مقام جعفر بن أبي طالب وتقدّم شأنه، حتى أن بعضهم استدل على جواز تقديم المفضول على الفاضل بتقديم زيد على جعفر في القيادة كما تقدّم.. وإنْ صححنا قول المشهور فسيكون تقديم زيد عليه بناءً على غياب جعفر في المهجر لمدة طويلة، وعدم مشاركته في أية معركة سابقة، على خلاف زيد بن حارثة، مما يجعل جاهزية زيد للقيادة أكبر من جاهزية جعفر لها. بل لربما كان زيد ـ بشكل عام ـ أفضل لموقع القيادة العسكرية من جعفر، دون أن يعني هذا أفضلية زيد العامة على جعفر وتقدّمه عليه في الشأن والمقام.

ونحن نجد أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» يجعل القيادة لخالد بن الوليد في بعض السرايا، وهو حديث

١. شرف الدين: النص والاجتهاد، ج١، ص ٢٦.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ٥٠-٥٦.
٣. علماً بأنها في المجموع أيضاً غير متظافرة.

عهد بالإسلام، وتحت إمرته مَن هم أقدم منه إسلاماً وأفضل شأناً، وما ذاك إلا لأن النبي كان يتعامل مع هذه الأمور ذات العلاقة بالإدارة والسياسة والقيادة من واقع قابليات الأفراد وقدراتهم في ذلك المجال.

قال العسقلاني: (**وروى أحمد والنسائي وصححه ابن حبان من حديث أبي قتادة قال: بعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جيش الأمراء وقال: عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر، فذكر الحديث وفيه: فوثب جعفر فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كنتُ أرهبُ أن تستعمل عليَّ زيداً، قال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير**)[1]. والخبر إن صح فدليل على أن جعفر بن أبي طالب لم يكن يرى سوى الطاعة لرسول الله «صلى الله عليه وآله» في هذا الشأن، وإن كان أعلى شأناً من زيد، علاوة على أن زيداً مولى، على خلاف جعفر، فالمتوقع أن يكون هو القائد، ولكنه سلّم الأمر للنبي.

لم يخرج النبي في هذه الغزوة، كما لم يخرج في سرايا وغزوات أخرى، والسبب يعود فيها إلى أن المهام كانت بسيطة، أو لانشغال النبي بما هو أهم، أو لما روي عنه «صلى الله عليه وآله» قوله: (**لولا أن أشُقَّ على المؤمنين، ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم أن يقعدوا بعدي**)[2]. وحيث لم يكن الجيش تحت قيادة النَّبيّ، لذا فقد جرت العادة أن يكون الانخراط فيه تطوعياً حسب الاستطاعة، وروي عنه قوله: (**ليخرج من كُلِّ رجلين، رجل، والأجر بينهما**)[3].

❊ دعاء النبي ووصاياه:

نعود للكلام حول تفاصيل ما جرى بعد أن عيّن النبي القادة وأمر الجيش بالحركة، وقد بلغ عدد المقاتلين ثلاثة آلاف، وقيل ستة آلاف، وهو رقم غير مسبوق في الغزوات والسرايا مما يدل على نجاح صلح الحديبية عملياً، وأنَّ قوة المسلمين في تنامي وتزايد مستمر.

أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» الجيش أن يمضي إلى أن يصل إلى موضع مقتل الحارث بن عمير، وكأنها رسالة واضحة للعدو عن أن هذا التحرك ليس عدواناً منه، بل هو ردٌّ على العدوان الذي تم بقتل مبعوثه الحارث.

وتطالعنا كتب السيرة بالمشهد التالي: (**ومشى الناس إلى أمراء رسول الله «صلى الله عليه وآله» يودعونهم ويدعون لهم، وكانوا ثلاثة آلاف، فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون: دفع الله عنكم، وردَّكم صالحين سالمين غانمين**)[4].

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح ٤٠١٣.
٢. مسلم: المسند الصحيح، ح ١٨٧٦.
٣. ن.م. ح ١٣٨.
٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٦٢.

وفي السيرة النبوية لابن هشام: (فلما ودّع عبد الله بن رواحة من ودع من أمراء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بكى فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة[1] بكم، ولكني سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقرأ آية من كتاب الله «عزوجل» يذكر فيها النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[2] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين)[3]. وأنشد عبد الله بن رواحة بعد ذلك أبياتاً بالمناسبة نتركها طلباً للاختصار.

وفي الدر المنثور لما ودَّع رسول الله «صلى الله عليه وآله» عبد الله بن رواحة قال ابن رواحة: (يا رسول الله، مُرني بشيء أحفظه عنك. قال: إنك قادم غداً بلداً السجود به قليل، فأكثِر السجود، قال: زدني، قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطالب، قال: زدني. قال: يا ابن رواحة ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشراً أن تُحسن واحدة، فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها)[4].

وقد روي عن زيد بن أرقم أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» خطب في الجيش فأوصاهم قائلاً: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث: فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل واكفف. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى المهاجرين فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن أبوا فادعهم إلى

زيد بن أرقم بن زيد الأنصاري الخزرجي، تقدم للقتال يوم أحد فرده النبي لصغر سنه، ثم شارك في المريسيع أو الخندق، فكانت أول غزواته. شهد زيد بن أرقم مع الإمام علي معركة صفين، وهو معدود في خاصة أصحابه، وقد روى حديث الغدير والثقلين، وأحاديث أخرى في فضل الإمام. كما أنه روى حديث مناشدة الإمام علي لبعض الصحابة في رحبة الكوفة. كان حاضراً في مجلس ابن زياد حين جيء برأس الحسين فبكى واحتج مذكراً بقول النبي: (اللهم إني أحبه فأحبه). ولمّا خرج قال: ملك عبد عبداً، فاتخذهم تلداً، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمَن رضي بالذل.

١. صبابة: شوق.
٢. سورة مريم: ٧١.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٧٣-٣٧٤.
٤. السيوطي: الدر المنثور، ج٧، ص ١٤١.

إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرتَ أهل حصن أو مدينة فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أ تصيب حكم الله فيهم أم لا. وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة وأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وأصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله)[1].

ويبدو أن هذه الوصية كان يكررها النبي «صلى الله عليه وآله» في السرايا التي كان يبعثها لغزو المشركين المحاربين، فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: **(كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً ثم قال: اغزوا باسم الله ...)**[2].

ولعل الراوي جاء بهذه الوصية المعهودة لقائد السرية وخاصته، وادَّعى صدورها من النبي في هذه الحادثة خلال وداع الجيش.. من هنا ندرك سبب تغير الخطاب في بداية الوصية من صيغة الجمع إلى المفرد، واشتمالها على ذكر المشركين والكفار.

قد يقال أن النبي «صلى الله عليه وآله» ذكر الجزية، وهي خاصة بأهل الكتاب، وفي هذا دلالة على أن الوصية مناسبة لإرسال الجيش إلى النصارى من الغساسنة، إلا أن الصحيح أن يقال أن الجزية عبارة عن ضريبة الخراج المفروضة على غير المسلمين، من أهل الكتاب وغيرهم، ممن أصبحوا في حمى الدولة الإسلامية، كما فُرضت الزكاة والخمس على المسلمين، وبالتالي فلا دلالة لها على ما ذُكر.

ولذا فالأرجح أن وصية النبي عند خروج الجيش كانت وفق ما جاء عن عَطَّاف بن خالد المخزومي قال: **(وخرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مشيِّعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف ووقفوا حوله، فقال: اغزوا باسم الله، فقاتِلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون بها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين، للشياطين في رؤوسهم مفاحيص**[3]**، فافلقوا هامهم بالسيوف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تَعزِقن**[4] **نخلاً، ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بناء)**[5].

---

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص ٦٤.
٢. مسلم: المسند الصحيح، ح ١٧٣١.
٣. مفاحيص: كذا في الكتاب، والصواب مفاحص جمع مفحَص، وهو الموضع الذي تقلب فيه القطاة التراب وتكشفه لتبيض فيه. وكأن النبي يقول أن الشياطين معششة في رؤوسهم.
٤. تعزقن: تقطعن أو تقلعن.
٥. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج١، ص٤٢.



* مشاهد في الطريق :

روى ابن عساكر: (**وكان زيد بن أرقم يقول: كنت في حِجر عبد الله بن رواحة، فلم أر والي يتيم كان خيراً منه، خرجت معه في وجهة إلى مؤتة، وصبَّ بي وصبَبْت به** [1] **فكان يردفني خلف رحله، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتي رحله، وهو يتمثل أبيات شعر...**) وذكر الأبيات الحزينة التي يرثي فيها نفسه (**فلما سمعتُ هذه الأبيات منه بكيت، فخفقني بالدِّرَّة، وقال: ما يَضُرك يا لُكَع أن يرزقني الله الشهادة فأستريح من الدنيا ونصبها وهمومها وأهوائها وأحداثها، وترجع بين شعبتي الرحل؟ ثم نزل نزلة من الليل فصلى ركعتين دعا فيها دعاء طويلاً ثم قال لي: يا غلام. فقلت: لبيك. قال: هي إن شاء الله الشهادة**)[2].

مضى المسلمون في طريقهم نحو الشام، فنزلوا وادي القرى، فأقاموا به أياماً، ولكن أنباء حركتهم وصلت إلى الروم وحلفائهم الغساسنة قبل وصول المسلمين إليهم، فما كان من الممكن لجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل يطوي طريقاً بعيدة أن يخفى أمره على العدو. وهكذا أعلن الروم والغساسنة النفير لمواجهة جيش المسلمين، واختلف المؤرخون في عددهم وتركيبتهم كالتالي:

- مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم، وجذام، والقين، وبَهْرَاء، وبليّ، مائة ألف منهم. فيكون المجموع مائتي ألف مقاتل[3].

١. لعله يقصد أن الاهتمام كان متبادلاً بينهما.
٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٨، ص ١١٨.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص ٣٧٥.

- المجموع خمسين ومائة ألف[١].
- المجموع مائة ألف[٢].

أشار الأديب عباس محمود العقاد إلى صعوبة جمع تلك الجيوش الجرَّارة وتسييرها في مثل تلك السرعة، ورجّح أنَّ الظرف ساعد في تحضير هذا الجيش الجرار حيث أن: (**هرقل إنَّما كان في جموعه هنالك في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤدِّيها إذا هو ظفر بالفرس، وردَّ منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم أَنْ فتحوا بيت المقدس، وربَّما كان هرقل قد بارح بيت المقدس في ذلك الحين، وتخلَّفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه، أو القيام بمراسم الحفاوة في تلك الزيارة التاريخية**)[٣].

بينما اعتبر بعض الباحثين أن في الأمر مبالغة، ولربما كانت بسبب الهزيمة التي سيُمنى بها الجيش الإسلامي، لإيجاد نوع من المبرر لها، فمهما كانت شجاعة وقوة جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فلن يتمكن من هزيمة جيش مكوّن من مائة ألف مقاتل على الأقل.

بالطبع لا ينفي هؤلاء إمكانية تشكيل الروم وحلفائهم لجيش جرار قوامه هذا العدد، ولكن ما الداعي ما دام الرصَد قد أخبرهم بالعدد التقريبي لجيش المسلمين؟ قال أحمد الشريف في كتابه: (**فإنَّ الحملة الإسلامية كانت مكوَّنة من ثلاثة آلاف، وأنَّ أنباء مسيرها كانت معروفة، فلا يمكن أن يوجه إليها الروم مثل هذا العدد الحاشد من الجيوش، على أنَّ هذه الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة في قتالها مع الفرس**)[٤]. فقد ذكرت المصادر التاريخية كتاريخ الطبري وتاريخ دمشق لابن عساكر أنَّ جيش هرقل الذي هزم جيوش كسرى، حتى استطاع دخول المدائن، كان لا يزيد عدده عن سبعين ألفاً. ولعل الأوفق بالحقيقة الاقتصار على ما جاء في بعض الأخبار التي اكتفت بوصف قوام جيش العدو بـ «الجموع الكثيرة».

وعلى كل حال، فقد أرسل القائد الغساني شرحبيل بن عمرو أخاه سدوساً في طليعة مكوّنة من خمسين مقاتلاً، فنزلوا وادي القرى حيث مكث المسلمون فيها عدة أيام، ويبدو أنهم اكتشفوا العدو، فوقعت المواجهة بين الطرفين، حيث قُتل قائد الطليعة سدوس بن عمر، وهرب مَن كان معه. وبوصول المسلمين إلى معان، بلغهم نبأ احتشاد قوات العدو في مآب، كما أدركوا تفوقه في العدد والعتاد بشكل كبير جداً، فأقاموا ليلتين حيث هم، تباحثوا خلالهما في القرار الذي يجب اتخاذه في هذا الظرف.. أيمضون في المواجهة، أم يعودون أدراجهم؟

١. السهيلي: الروض الأنف، ج٧، ص ٤١.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٠٩.
٣. العقاد: عبقرية خالد، ص ٥٢-٥٣.
٤. الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص٥٣٤.



الرأي الأول: (نكتب إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فنخبره بعدد عدونا، فإمَّا أن يُمدَّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له)[١].

الرأي الثاني: (قد وطئتَ البلاد، وأخفتَ أهلها، فانصرِف، فإنه لا يعدل العافية شيء)[٢].

الرأي الثالث لعبدالله بن رواحة: (إنَّا لم نسر إلى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم، ولكنَّا خرجنا نريد لقاءهم، ولسنا نقاتلهم بعددٍ ولا عُدَّة، فالرأي المسير إليهم)[٣].

وفي رواية الطبراني: (فشجَّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة وكثرة، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحسنيين، إمَّا ظهور، وإمَّا شهادة، قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس. وقبل زيد رأيه وسار إليهم)[٤].

وفي رواية الواقدي: (... والله لقد رأيتنا يوم بدرٍ ما معنا إلا فرَسان، ويوم أُحُد فرسٌ واحد؛ وإنما هي إحدى

١. الطبراني: المعجم الكبير، ج١٣، ص١١٨.
٢. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٥. لا توضح الروايات أسماء المتحدثين بل تتحدث عنهم بصيغة «قالوا».
٣. ن. م.
٤. الطبراني: المعجم الكبير، ج١٤، ص١١٨.

الحسنيين، إما ظهورٌ عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا، وليس لوعده خلفٌ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان)[1]. وكأنّ هذا الرأي الحماسي لابن رواحة أزاح الخوف من قلوبهم، وبثّ روح الإقدام والشجاعة في نفوسهم، فقالوا: **(قد والله صدق ابن رواحة)**[2]. وأيّدهم على ذلك زيد بن حارثة، وقرروا المضي شمالاً نحو المواجهة.

وفي الطريق نحو مؤتة تعرَّض قطاع من جيش المسلمين لهجوم غادر حين مرّ بقرية من قرى الجبال بين الشراة والبلقاء، يُقال لها: أكثب، إذ شدَّ أهلها على ذلك القطاع الذي شكّل مؤخرة الجيش، فأصابوا بعض المقاتلين المسلمين، واستشهد أحدهم، فبلغ ذلك من تقدّم من الجيش، فاستأذنوا زيد بن حارثة في الرجعة إليهم والانتقام منهم، فامتنع معللاً ذلك بأنه سيكون سبباً لإنهاكهم في مواجهة غير ضرورية، والجيش لا يحتمل ذلك في هذا الظرف العصيب، مع تخوّفه من الوقوع في فخ مقصود. قال زيد: **(لا أرى ذلك، لأنَّ عدوَّكم أمامكم قد جمعوا لكم، ودنوا منكم، فأكره أن تفلّوا حدَّكم ونشاطكم بقتال غيرهم، ثُمَّ لا آمن أن يجمعوا لكم فيكونوا من ورائكم، فتكونوا بين عسكرين)**[3].

وهكذا مضى المسلمون حتى كانوا على حدود البلقاء، فإذا بجيش العدو على أهبة الاستعداد للمواجهة، وقد استقر عند قرية يقال لها «مشارف». وما أن شاهدهم العدو حتى تقدمت قواته، فارتأى المسلمون أن يغيّروا موقعهم ليكونوا في وضعية أفضل، ووقع اختيارهم على قرية مؤتة القريبة.

وقد بيّن اللواء خطاب سبب اختيار الموقع الجديد، قال: **(ولكن المسلمين رأوا أنَّ منطقة قرية مؤتة، بين الكرك والطفيلة، أنسب لقبول المعركة فيها، وذلك لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيعون التحصُّن بها، نظراً لقلَّة قوتهم بالنسبة إلى الأعداء)**[4].

تعبأ المسلمون للمواجهة، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم عباية بن مالك[5]، وكان من الأنصار.

بنو عُذرة: قبيلة حميرية كانت تقطن في وادي القرى، ذُكرت في الكتابات الرومانية باسم عذرات، يُنسب إليها الحب العذري العفيف، ومنها الشاعر جميل بن معمر العذري الملقب جميل بثينة. كانت من القبائل العربية المتنصرة، كما اشتركت مع كلب في صنم ود.

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص٣٠٩.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٧٥.
٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥.
٤. خطّاب: الرسول القائد، ص ٣٠٧.
٥. وقيل: عبادة بن مالك.

❋ بدء القتال :

التقى الطرفان، ووقع القتال، وقاتل القائد زيد بن حارثة، حاملاً الراية: (**حتى شاط في رماح القوم**)[1]. وتستوقفنا كلمة «شاط» والتي تعني أنه تشظى وتمزق جسده بفعل تلك الرماح، فقد حارب زيد مستقتلاً مستميتاً غير آبه بالعدو وعدده وشراسته، حتّى مزّقته رماح العدو.

وانبرى جعفر بن أبي طالب لحمل الراية وقيادة جيش المسلمين وهو يمتطي صهوة فرسه الأشقر، فما كان له أن يترك الراية لتسقط وينهزم الجيش، لما لبقاء الراية مرفوعة من معنى رمزي في عرف الحروب في ذلك الزمان.

وقاتل جعفر كسلفه زيد، بكل قوة وشجاعة واستماتة حتى إذا وجد أن الأمر قد بلغ مدىً يحتاج معه إلى شد عزيمة رجاله إذ اشتد الالتحام بين الطرفين واستعر القتال، ترجّل عن فرسه.. ونترك شاهد عيان يخبرنا عن تلك اللحظات العصيبة، قال: (**والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها، ثُمَّ قاتل القوم راجلاً، وهو يرتجز**[2]):

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةٌ بَارِدَةٌ شَرَابُهَا

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... عَلَيَّ إِنْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

وتلقى جعفر ضربة على يده اليمنى حيث كان يمسك بالراية، فأخذها بيساره، فتلقى ضربة أخرى جاءت هذه المرة على يده اليسرى فقطعتها، وكادت الراية أن تسقط، فاستمات جعفر للحفاظ عليها مرتفعة، ليبقى الجيش

جاء في «جواهر الكلام» للشيخ النجفي حول مكروهات الجهاد: (و يكره أيضاً أن يعرقب الدابة وإن وقفت به أو أشرف على القتل إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، كما فعله جعفر ذو الجناحين بمؤتة على ما صرح به غير واحد... نعم قد يقال أن المنساق دابة المسلم، أما دابة الكافر فلا كراهة في تعرقبها حال الحرب إضعافاً لهم ومقدمة لقتل راكبها وغير ذلك). وجاء في كتاب «غزوة مؤتة»: (قال السّهيلي: «وأمّا عقر جعفر فرسه، ولم يعب ذلك عليه أحد، فدلّ على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو، فيقاتل عليها المسلمين، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم وقتلها». وقال الشامي: «فرخّص فيه مالك، وكره ذلك الأوزاعي والشافعي، واحتجّ الشافعي بحديث النبي «صلى الله عليه وسلم»: «من قتل عصفوراً فما فوقه بغير حقّه، يسأله الله «تعالى» عن قتله». واحتجّ بنهيه «صلى الله عليه وسلم» عن قتل الحيوان إلاّ لمأكله، قال: «وأمّا أن يعقر الفرس من المشركين فله ذلك، لأن ذلك أمر يجد به السبيل إلى قتل مَن أمر بقتله»... وقال ابن قدامة: «ويقوى عندي أنّ ما عجز المسلمون عن سياقه وأخذه، إن كان ممَّا يستعين به الكُفّار في القتال، كالخيل، جاز عقره وإتلافه، لأنّه ممَّا يحرم إيصاله إلى الكُفّار بالبيع، فترْكُه لهم بغير عِوَض أولى بالتحريم...»).

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٧٨.
٢. المزي: تهذيب الكمال، ح٢٨٦.

الإسلامي محافظاً على تماسكه في ساحة القتال، ولذا احتضن الراية بعضديه، وهو يتلقّى الضربات من كل جهة، إذ ما عاد قادراً على أن يدافع عن نفسه، حتى أثخن بالجراح وسقط شهيداً. واختلفت الروايات في عدد الطعنات والجراحات التي أصيب بها جعفر، ففي رواية الواقدي أنه تلقى بعد قطع يديه ضربةً قطعت جسده إلى نصفين: (**فوقع أحد نصفيه في كرمٍ، فوجد في نصفه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جرحاً**)[١].

وفي الطبقات الكبرى: (**عن ابن عمر، قال: وُجد أو وجدنا فيما أقبل**[٢] **من بدن جعفر بن أبي طالب ما بين منكبيه، قال الفضل بن دكين: تسعين ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف. وقال محمد بن عمر: اثنتين وسبعين ضربة**). ثم روى ابن سعد رواية أخرى قال: (**عن ابن عمر قال: كنت بمؤتة، فلما فقدنا جعفر بن أبي طالب طلبناه في القتلى، فوجدناه وبه طعنة ورمية بضع وتسعون، فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده**)[٣].

وقد بيّن البخاري دلالة ما جاء في النصين السابقين من عدد الطعنات في مقدم الجسد حيث روى عن نافع أن ابن عمر أخبره: (**أنه وقف على جعفر يومئذ، وهو قتيل، فعددت به خمسين، بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره. يعني في ظهره**)[٤]. وقال ابن حجر في شرح النص السابق: (**وفي قوله: ليس شيء منها في دبره، بيان فرط شجاعته وإقدامه**)[٥].

وفي رواية أخرى لابن سعد قال: (**عن عبد الله بن أبي بكر قال: وُجد في بدن جعفر أكثر من ستين جرحاً، ووجد به طعنة قد أنفذته**)[٦].

عبدالله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي، ولد في عام ٦٥ هـ وتوفي ١٣٥. من الطبقة الخامسة من طبقات رواة الحديث النبوي التي تضم صغار التابعين.

وحان دور عبدالله بن رواحة لكي يقود الجيش الإسلامي ويحمل الراية من بعد جعفر، وقد روي المشهد عن عروة بن الزبير كالتالي: (**ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة، فالتوى بعض الالتواء**[٧] **ثم تقدم بها على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بها بعض التردد**)[٨].

وهل يمكن قبول هذه الصورة عنه؟ صورة المتردد المحتار الذي لم يعد يعرف ما هو القرار الصحيح الذي

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٠٩.
٢. أي الجهة الأمامية من جسده.
٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ٤٦٢١.
٤. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٤٢٦٠.
٥. ابن حجر: فتح الباري، شرح الحديث برقم ٤٠١٣.
٦. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ٤٦٢١.
٧. أي اشتد به الأمر أو صعب عليه اتخاذ القرار ولم يهتدِ إلى الصواب.
٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ح ٢٨٢٣٠.

يجب أن يُتّخذ في تلك اللحظات العصيبة، بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه في الشهادة، وهو الذي حفّز الجيش على المضي في القتال، واتخاذ قرار المنازلة قبيل المعركة.. فضلاً عما جاء في كلامه لزيد بن أرقم، ومضامين أشعاره الحماسية؟ لعل تلك المعطيات تجعلنا نتردد بدورنا في قبول رواية عروة التي دافع البعض عن مضمونها ومضمون أحاديث أخرى سنذكرها لاحقاً وهي كلها تؤكد تردد ابن رواحة ثم إقدامه على القتال، إلا إذا قلنا أن نتردده لم يكن بلحاظ شخصي بل بلحاظ مسؤوليته تجاه المقاتلين الذين أصبحوا في عهدته بحثاً عن القرار الصحيح في تلك الحظات.

عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ – ٩٤هـ)، وأمه أسماء بنت أبي بكر، تفقّه على يد خالته أم المؤمنين عائشة، وتتبع الحديث عند الصحابة، وصار يعد أحد فقهاء المدينة المنورة في زمانه. قال الواقدي أنه أوّل من ألّف كتاباً في المغازي. وفي الإيضاح للفضل بن شاذان: (كان عروة بن الزبير ينال من علي «عليه السلام» ويُكثِر).

قال بريك العمري: **(وينفي بعض المعاصرين رواية تردُّد عبد الله بن رواحة «رضي الله عنه» كونها تتعارض مع موقفه قبل ذلك من تشجيعه للمسلمين لملاقاة الروم، وتحرُّقه للشهادة في سبيل الله. بينما يربط بعضهم هذا الموقف بما عُرِفَ من تقلبات نفسية الشُّعراء وحساسيتهم. بينما ما حدث من عبد الله بن رواحة «رضي الله عنه» لا يعدو كونه أمراً طبعياً، وموقفاً من مواقف ضعف النفس البشرية يعتريها أوقات الشدة والأزمات، وهو بالتالي لا يُدلِّل على خَوَرِ عبد الله «رضي الله عنه» وجُبْنَه، كما يفهمه البعض من ظاهر الرواية، فذلك أمرٌ مفروغٌ منه، فعبد الله بن رواحة «رضي الله عنه» مشهودٌ له بالشجاعة، والجرأة، ورباطة الجأش، وليس اختيار النَّبيّ «صلى الله عليه وسلم» ـ وهو الخبير في أصحابه ـ له قائداً من قوَّاد هذه الموقعة العظيمة التي كانت في عمق الأراضي الخاضعة لنفوذ الدولة البيزنطية، وبعيداً عن قاعدة المسلمين، وانتدابه له سابقاً في أقوى سراياه وبعوثه، وأصعبها مهمّة وجُرأة، وهي سرايا المغاوير، إلاَّ دليلاً من الأدلة القاطعة على ذلك. والصحابة «رضي الله عنهم» وإن كانوا مشهورين بالشجاعة والجرأة وحُب الموت في سبيل الله «تعالى»، فهم في النهاية ليسوا ملائكة، بل بشر يعتريهم الخوف والضَّعْف في مواطنهما، بل ربَّما مغادرة ميدان المعركة، كما حدث من بعضهم في بعض المواقع، وقد سوَّغ لهم الشرع التحيُّز إلى فئة، وعدم الاستقتال)**[1].

وأضاف ابن عساكر رواية أخرى رواها عن عبدالله بن أبي بكر : **(أن عبد الله بن رواحة، قال عند ذلك:**

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهْ طائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهَنَّهْ

١. العمري: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص٣١٥-٣١٧.

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ ... مَا لِـي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ
قَدْ طَالَ مَا كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إِلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

ثم نزل فقاتل حتى قُتل. قال: وقد قال أيضاً:

يا نَفْسُ إِلا تُقْتَلِي تَمُوتِي ... هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ
وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

يريد[١] جعفراً وزيداً. ونزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعِرق لحم[٢]، فقال: شُدّ بهذا صُلبَك، فإنك قد لقيتَ أيامك هذه ـ وقال الفراوي: يومك هذا ـ ما لقيت، فأخذه منه، فنهش منه نهشة، ثم سمع الحُطَمة[٣] في ناحية العسكر، فقال: وأنت في الدنيا، فألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، فتقدم فقاتل حتى قُتل)[٤]. وهذا المقطع غريب في تفاصيله.

وفي رواية أخرى: (لما نزل ابن رواحة للقتال طُعن فاستقبل الدم بيده، فدلَك به وجهَه، ثم صُرِع بين الصفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذبُّوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتى يحوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه)[٥].

وقد روى ابن عساكر حديثاً آخر فيه غرابة، قال: (فروي أن الراية لما انتهت إلى عبد الله بن رواحة جاءه الشيطان فرغّبه بالحياة وكرّه إليه الموت، ثم تذكّر فصاح بأولئك النفر الذين حضروا ذلك المجلس الذي بعث إليهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فتلا عليهم ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٦]. أين ما كنتم عاهدتم الله عليه؟ قد جاء مصداقه. اصدقوا الله يصدقكم. قال: فجاؤوه يخبّون[٧] كأنهم بقر نُزعت من تحتها أولادها، فتقدموا بين يديه، وأوتي ابن رواحة بلوح من ضلع وقد التاث جوعاً، فردّه وقال: هذا أدعه فيما أدعه من الدنيا. فشد عليهم وشدوا حتى شُدخوا[٨] جميعاً)[٩].

١. أي بالضمير المثنى في المصرع الثاني من البيت الثاني.
٢. أي قطعة لحم.
٣. أي تزاحم المقاتلين وتدافعهم.
٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ح ٢٨٢٣٠.
٥. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ج١، ص١٦٨١.
٦. سورة الصف: ٤.
٧. الخَبَب نوع من الركض.
٨. شُدخوا: شُجّوا أو كُسروا.
٩. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ج١، ص١٦٨٠.

وسيأتي معنا في نهايات الغزوة أن إحدى الروايات تقول أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو مَن أخبر المسلمين بقضية مجيء الشيطان لابن رواحة، وإلا كيف كان للراوي أن يعرف ذلك؟ ولكن على العموم تلك الرواية برمتها وهذه الرواية أيضاً مشكوك في صحتهما.

ثم كيف جمع عبدالله خصوص أولئك النفر من الصحابة الذين حضروا مجلساً معيناً في المدينة، والقتال مستعر، والصفوف متلاحمة؟ ثم تأتي قصة قطعة اللحم التي قُدِّمت إليه في تلك اللحظات العصيبة فرفضها لتُكمل غرابة التفاصيل.

وعلى كل حال، فقد استشهد آخر قائد بديل معيّن من قبل النبي «صلى الله عليه وآله»، وغدا الوضع حرجاً جداً، ولابد من تقديم قيادة بديلة تتخذ القرار المناسب في اللحظة الحرجة.

* القيادة بيد ابن الوليد :

كان سقوط الراية مع مقتل عبدالله بن رواحة يعني انهيار الجيش، ولربما وقوع كارثة كبرى، ولذا بادر ثابت بن أقرم لانتشالها والتحرك بها إلى مكان آمن ليجتمع المقاتلون المسلمون حوله لاتخاذ قرار عاجل يخص القيادة البديلة التي يختارونها، والقرار المناسب، فإما المضي في القتال، وإما الانسحاب من ساحة المعركة.

ثابت بن أقرم العجلاني حليف الأنصار، شهد بدراً وما بعدها، واستشهد في حرب اليمامة سنة ١١ أو ١٢ هـ بيد طليحة الأسدي.

روي عن عروة بن الزبير أنه قال: **(ثم أخذ الراية ـ يعني بعد قتل ابن رواحة يوم مؤتة ـ ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان، فقال: اصطلحوا يا معشر المسلمين على رجل. فقالوا: أنت لها. قال: لا، ولكن اصطلحوا على رجل. قال: فاصطلح الناس على خالد بن الوليد)**[1].

فماذا جرى بعد ذلك؟ اختلفت النصوص، وسنستعرض بعضاً منها لبيان موارد الاختلاف:

النص الأول: على لسان أحد المسلمين إلا أنه لم يكن مشاركاً في القتال: **(عن أبي عامر ، قال: بعثني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى الشام، فلما رجعت مررت على أصحابي وهم يقاتلون المشركين بمؤتة، قلت: والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم، فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ولبس السلاح ـ وقال غيره: أخذ زيد اللواء وكان رأس القوم ـ ثم حمل جعفر حتى إذا هَمَّ أن يخالط العدو رجع فوَحَش بالسلاح[2] ثم حمل على العدو وطاعن حتى قُتل، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وطاعن حتى قتل، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها**

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ح ٩٢٣٠.
٢. رماه رغبة في التخفف والاستبسال إلى الموت.

قط، حتى لم أر اثنين جميعاً، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه، ثم قال: إليّ أيها الناس، فاجتمع إليه الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد، فقال له خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به، فقال الأنصاري: والله ما أخذته إلا لك، فأخذ اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا، وقال: فأتيت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأخبرته، فشق ذلك عليه، فصلى الظهر ثم دخل، وكان إذا صلى الظهر قام فركع ركعتين، ثم أقبل بوجهه على القوم[١] فشق ذلك على الناس، ثم صلى العصر ففعل مثل ذلك، ثم صلى المغرب ففعل مثل ذلك، ثم صلى العتمة ففعل مثل ذلك، حتى إذا كان صلاة الصبح دخل المسجد ثم تبسّم وكان تلك الساعة لا يقوم إليه إنسان من ناحية المسجد حتى يصلي الغداة، فقال له القوم حين تبسم: يا نبي الله، بأنفسنا أنت، ما يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد[٢] منذ رأينا منك الذي رأينا. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي، حتى رأيتهم في الجنة إخواناً على سرر متقابلين، ورأيت في بعضهم إعراضاً كأنه كره السيف[٣]، ورأيت جعفراً ملَكاً ذا جناحين مضرّجاً بالدماء مصبوغ القوادم)[٤]. من دلالات هذا النص ـ على فرض صحته ـ أمور:

١. انتصار المسلمين بعد استلام خالد مهمة القيادة ولحوق هزيمة منكرة بالعدو.

٢. بلوغ الخبر للنبي بعد وقوع الأحداث بمدة وبصورة طبيعية من خلال هذا الراوي، على خلاف ما في روايات أخرى من أن علمه بما جرى كان بإعلام غيبي وفي وقت متزامن مع مجريات القتال.

النص الثاني: عن العطاف بن خالد قال: **(لما قُتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقة، وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة. قال: فأنكروا[٥] ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا: قد جاءهم مدد. فرعبوا وانكشفوا منهزمين. قال: فقُتلوا مقتلة لم يقتلها قوم)**[٦].

العطاف بن خالد المخزومي. قال ابن حبان في كتابه «المجروحين»: (من أهل المدينة، ولد سنة إحدى وتسعين، يروي عن نافع، وغيره من الثقات ما لا يشبه حديثهم، وأحسبه كان يؤتي ذلك من سوء حفظه، فلا يجوز عندي الاحتجاج بروايته إلا فيما وافق الثقات، كان مالك بن أنس لا يرضاه).

١. أي من عادة النبي خلاف ذلك حيث أنه كان إذا صلى الصبح .... إلخ العبارة، أما هذه المرة فلم يفعل ذلك.
٢. الوجد: الحزن المشوب بالحب.
٣. هل يشير بذلك إلى تردد ابن رواحة أم إلى بعض المقاتلين؟
٤. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح١٧٣٢.
٥. أي الروم وحلفاؤهم.
٦. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٦٣.

من دلالات هذا النص ـ على فرض صحته ـ أمور:

١. عدم انتهاء المعركة في يوم واحد كما دل على ذلك ظاهر النص السابق وغيره من النصوص.

٢. لجوء خالد بن الوليد إلى خدعة بتغيير مواقع مقاتليه للإيحاء بالتحاق مدد من المسلمين.

٣. انتصار المسلمين بعد استلام خالد مهمة القيادة ولحوق هزيمة منكرة بالعدو ووقوع مقتلة عظيمة.

النص الثالث: عن رجل من العرب، عن أبيه، قال: **(لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمةٍ رأيتها قط ـ في كل وجهٍ ـ ثم إن المسلمين تراجعوا. فأقبل رجلٌ من الأنصار يقال له ثابت بن أرقم، فأخذ اللواء وجعل يصيح بالأنصار، فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجهٍ وهم قليل وهو يقول: إليَّ أيها الناس! فاجتمعوا إليه. قال: فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد. فقال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: لا آخذه، أنت أحق به. أنت رجلٌ لك سنٌّ، وقد شهدتَ بدراً. قال ثابت: خذه أيها الرجل! فوالله ما أخذته إلا لك! فأخذه خالدٌ فحمله ساعة، وجعل المشركون يحملون عليه. فثبت حتى تكركر المشركون[١] وحمل بأصحابه ففض جمعاً من جمعهم، ثم دهمه منهم بشرٌ كثيرٌ. فانحاش المسلمون فانكشفوا راجعين)**[٢]. من دلالات هذا النص ـ على فرض صحته ـ أمور:

١. تغير طفيف في اسم الإنصاري من أقرم إلى أرقم، ولعله من النساخ. والأول أصح.

٢. ثبات وانتصار جزئي للمسلمين، ثم انسحاب.

٣. وصف العدو بعنوان المشركين.

٤. لم تجر مشاورة بين المسلمين حول تحديد القائد الجديد.

النص الرابع: عن ابن كعب بن مالك[٣] قال: حدثني نفرٌ من قومي حضروا يومئذٍ قالوا: **(لما أخذ اللواء انكشف بالناس فكانت الهزيمة. وقُتل المسلمون. واتّبعهم المشركون، فجعل قطبة بن عامر يصيح: يا قوم، يُقتل الرجل مقبلاً أحسن أن يقتل مدبراً! يصيح بأصحابه، فما يثوب إليه أحد، هي الهزيمة، ويتبعون صاحب الراية منهزماً)**[٤].

من دلالات هذا النص ـ على فرض صحته ـ أمور:

قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الخزرجي. شهد بيعتي العقبة، وبدراً وسائر المشاهد. أصيب يوم أحد بتسع جراحات، وكانت راية بني سلمة معه يوم فتح مكة. توفي على عهد الخليفة عمر أو عثمان.

١. تكركر: تردد أو تراجع.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١٠.
٣. لعله عبيدالله بن كعب بن مالك الأنصاري السلمي، من التابعين، وأبوه كان أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ثم تاب الله عليهم.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١٠.

١. لا ذكر لتحقق انتصار للمسلمين.

٢. القتل وقع في المسلمين لا العدو.

٣. هروب المسلمين وعدم استجابتهم لنداء قطبة بالثبات والمواجهة.

٤. هروب المسلمين كان تبعاً لانسحاب ابن الوليد.

* محاولة استيضاح لحقيقة ما جرى :

يبدو أن المسلمين انسحبوا من ساحة المعركة بعد استلام خالد بن الوليد للقيادة، والذي ارتأى اختيار النجاة بنفسه وبمن معه من المقاتلين المسلمين وعدم المضي في القتال بعد مقتل القادة الثلاث، وإلا كان مصيرهم واحداً. وقد أكد عدد من الرواة هذه الصورة، وقد قال الواقدي: (**والأول أثبت عندنا؛ أن خالداً انهزم بالناس**). ثم روى عن داود بن سنان قال: (**سمعت ثعلبة بن أبي مالك يقول: انكشف خالد بن الوليد يومئذٍ حتى عُيّروا بالفرار، وتشاءم الناس به**)[١].

قال ابن حبان في ثعلبة بن أبي مالك القُرَظي: (وهو إمام بني قريظة. وُلد على عهد النبي. قدم أبوه من اليمن وأصله من كِندة، وكان على دين اليهودية، فتزوج امرأة من بني قريظة، فنُسب إليهم).

كما أن النصوص التي تحدثت عن ردة فعل المسلمين في المدينة إذ استقبلوا الجيش العائد بالاستنكار والكلمات المسيئة ـ كما سنبيّن ذلك لاحقاً ـ تبيّن رجحان فرار الجيش وعدم تحقيقه أي نصر في ساحة المعركة، وأن ما كان خلاف ذلك إنما جاء كمحاولة لتحسين صورة القرار الذي اتخذه خالد بن الوليد، وتبرئته من الفرار من ساحة المعركة على خلاف القادة السابقين، أو رغبة في عدم نسبة الهزيمة إلى جيش المسلمين.

وقد حاول ابن كثير الجمع بين النصوص فقال: (**ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق و بين قول الباقين و هو أن خالد لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلّصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة فلما أصبح**[٢] **وحوّل الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة كما ذكره الواقدي، توهّم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله، والله أعلم**)[٣].

إلا أن النصوص التي تحدثت عن سير الأحداث وكيفية الانسحاب وردَّة فعل أهل المدينة لا تساعد على هذه المحاولة.

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١٠.

٢. أي أن الانسحاب الذي نفّذه خالد بن الوليد كان في اليوم الأول.

٣. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٦٣.

وحاول ابن كثير مجدداً تأكيد وقوع نحو من الانتصار بعد أن روى عن الصحابي عوف بن مالك الأشجعي قوله: (خرجتُ مع مَن خرج مع زيد بن حارثة مِن المسلمين في غزوة مؤتة، ووافقني[1] مَدديٌّ من اليمن ليس معه غير سيفه، فنحر رجل من المسلمين جَزوراً، فسأله المددي طابقة[2] من جلده، فأعطاه إياه، فاتخذه كهيئة الدَّرقة ومضينا فلقينا جموع الروم، وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهّب وسلاح مذهّب، فجعل الرومي يفري بالمسلمين، وقعد له المددي خلف صخرة فمرَّ به الرومي فعرقب فرسه فخرَّ وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه السلب. قال عوف: فأتيته فقلت: يا خالد، أما علمت أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ولكني استكثرته. فقلت: لتردنّه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله «صلى الله عليه وسلم». فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: يا خالد رد عليه ما أخذت منه. قال عوف: فقلت: دونك يا خالد، ألم أَفِ لك؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: وما ذاك؟ فأخبرته. فغضب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وقال: يا خالد، لا ترد عليه. هل أنتم تاركوا أمرائي؟ لكم صفوةُ أمرِهم وعليهم كدرُه).

عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني، صحابي، آخى النبي بينه وبين أبي الدرداء. وكانت راية قبيلة أشجع بيده يوم فتح مكة. سكن حمص في زمن خلافة أبي بكر، توفي سنة ٧٣ هـ.

وقد علق ابن كثير على ما سبق قائلاً: (وهذا يقتضي أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم، وقد تقدم فيما رواه البخاري أن خالد «رضي الله عنه» قال: اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية. و هذا يقتضي أنهم أثخنوا فيهم قتلاً. و لو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلص منهم وهذا وحده دليل مستقل والله أعلم).

ثم تحدث ابن كثير عن رأي ابن إسحاق: (و أما ابن إسحاق فإنه ذهب إلى أنه لم يكن إلا المخاشاة والتخلص من أيدي الروم، وسمى هذا نصراً وفتحاً أي باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم وتراكمهم وتكاثرهم وتكاثفهم عليهم، وكان مقتضى العادة أن يصطلموا بالكلية، فلما تخلصوا منهم وانحازوا عنهم، كان هذا غاية المرام في هذا المقام. وهذا محتمل)[3].

وهكذا نجد ابن كثير يحتمل توجيه ابن إسحق الذي اقتصر في تحقق النصر على القدرة على الانسحاب

١. وفي نص آخر: رافقني.
٢. لعل هناك خطأ في الكلمة حيث لم أجد لها معنى.
٣. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٧١.

وتقليل الخسائر البشرية في جيش المسلمين، وهذه صورة مغايرة تماماً للمحاولة السابقة التي تذكر أن المسلمين قتلوا من عدوهم عدداً كبيراً لم يُرَ مثله، وإن اتفق الإثنان على أن ما حدث كان فتحاً على كل حال.

وقد جاء في وصف كيفية الانسحاب بما يضمن سلامة المنسحبين أن مؤخِّرة جيش المسلمين قامت بقتال التعويق لإحباط مطاردة العدو لهم، ومنع أي محاولة للتطويق، مع القيام بتعملية تغطية عن طريق وابلٍ من سهام النَبَّالة الذين كان على رأسهم واقد بن عبد الله التميمي، وكان من أرمى الناس. فماذا جرى بعد ذلك؟ هل طلب المسلمون نوعاً من الهدنة لدفن شهدائهم؟ أم غادروا ساحة المواجهة سراعاً؟ وهذا يعني أنهم كانوا قد دفنوا شهداءكم في الليلة السابقة على فرض تقسيم المواجهة إلى يومين... من الصعب أن نحسم المسألة، وتبقى التفاصيل غامضة.

❊ خسائر العدو :

بالإضافة إلى قصة اليمني ومقتل ذلك الفارس على فرض صحتها، روى الطبراني عن جابر بن عبد الله قال: **(بارَز عقيل بن أبي طالب رجلاً يوم مؤتة فقتله، فنفله رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خاتمه وسَلْبَه)**[1]. ولا يُعلم عن قتلاهم وإصاباتهم شيئاً.

❊ شهداء مؤتة :

عدَّد ابن هشام مَن استشهد يوم مؤتة كما يلي:

من بني هاشم: من قريش، ثم من بني هاشم: جعفر بن أبي طالب «رضي الله عنه»، وزيد بن حارثة «رضي الله عنه»[2]. ومن بني عدي: ومن بني عدي بن كعب: مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة. ومن بني مالك: ومن بني مالك بن حسل: وهب بن سعد بن أبي سرح. ومن الأنصار: ومن الأنصار ثم من بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وعباد بن قيس. ومن بني غَنْم بن مالك بن النجار: الحارث بن النعمان بن أساف ابن نضلة بن عبد بن عوف بن غنم. ومن بني مازن بن النجار: سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء. ومن استشهد يوم مؤتة، فيما ذكر ابن شهاب: من بني مازن بن النجار: أبو كليب وجابر، ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول وهما لأب وأم. ومن بني مالك بن أفصى: عمرو وعامر، ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى[3]. وأضيفت إلى القائمة ـ في بعض المصادر ـ أسماء أخرى.

١. الطبراني: المعجم الأوسط، ح٤٣١.

٢. ذكر زيد في عداد شهداء بني هاشم غريب، لأنه مخالف لنص القرآن الكريم لقوله «تعالى»: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ الأحزاب: ٤-٥.

٣. ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص٣٨٨-٣٨٩.

❋ عودة الجيش :

عاد جيش المسلمين إلـى المدينة المنورة وقد سبق وصولهم نبأ ما جرى من انسحاب بعد استشهاد القادة الذين عيّنهم النبي «صلى الله عليه وآله»، واختلفت الروايات بين تلك التي ذكرت أن النبي قد علم بالأمر من خلال الوحي، وتلك التي ذكرنا نموذجاً منها وتذكر أن النبأ بلغهم من خلال بعض المسافرين الذين سبقوا وصول الجيش الإسلامي.

والروايات من القسم الأول مختلفة في التفاصيل، فبعضها يحكي أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يشاهد ـ بصورة غيبية ـ ما كان يجري في ساحة المعركة أولاً بأول وينقل الصورة إلى المسلمين، وبعضها أن النبي أخبرهم لاحقاً بما بلغه عن طريق الوحي.

المثال الأول: عن عمرو بن حزم قال: (**لما التقى الناس بمؤتة جلس رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على المنبر و كشف الله له ما بينه وبين الشام فهو ينظر إلـى معتركهم فقال: أخذ الراية زيد بن حارثة فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكرّه إليه الموت وحبب إليه الدنيا فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تُحبِّب إليَّ الدنيا؟! فمضى قُدُماً حتى استشهد فصلى عليه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وقال: استغفروا له فقد دخل الجنة وهو شهيد**)[1]. وفي رواية أنه «صلى الله عليه وآله» قال: (**إنَّ الله رفع لـي الأرض، حتَّى رأيت معتركهم**)[2].

المثال الثاني: عن أبي قتادة أنه قال في ذكر أحداث الغزوة: (**... فانطلَقوا فلبثوا ما شاء الله، فصعد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المنبر فأمر فنودي: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: أُخبركم عن جيشكم هذا. إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقُتل زيد شهيداً. فاستغفَرَ له. ثم أخذ اللواء جعفر فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيداً. شهد له بالشهادة واستغفر له. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قُتل شهيداً. فاستغفر له. ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمَّر نفسه ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اللهم إنه سيف من سيوفك أنت تنصره. فمن يومئذ سمي خالد سيفَ الله**)[3].

ولكن سنعرف لاحقاً كيف استُقبِل خالد عند عودته مع الجيش، مما يبيّن أن المقطع الأخير من الرواية ـ على الأقل ـ لا يستقيم مع مجريات الأحداث، وإلا فمن المفترض بصحابة النبي أن يُحسنوا استقبال سيف الله.

وعلى كل حال فقد عاد المقاتلون بروحية مهزومة وشعور مرير وحسرة على الشهداء، عبّر عنه أحد المقاتلين

---

١. ابن كثير: السيرة النبوية: ج٣، ص٤٦٣.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٤١٢.
٣. ابن كثير: السيرة النبوية: ج٣، ص٤٦٣.

وهو قيس بن المسحر اليعمري[١] كالتالـي:

فَوَاللَّهِ لَا تَنْفَكُّ نَفْسِي تَلُومُنِي ... عَلَى مَوْقِفِي وَالْخَيْلُ قَابِعَةٌ قُبْلُ
وَقَفْتُ بِهَا لَا مُسْتَجِيرًا فَنَافِذًا ... وَلَا مَانِعًا مَنْ كَانَ حُمَّ لَهُ الْقَتْلُ
عَلَى أَنَّنِي آسَيْتُ نَفْسِي بِخَالِدٍ ... أَلَا خَالِدٌ فِي الْقَوْمِ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ
وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرٍ ... بِمُؤْتَةَ إِذْ لَا يَنْفَعُ النَّابِلَ النَّبْلُ
وَضَمَّ إِلَيْنَا حَجْزَتَيْهِمْ كِلَيْهِمَا ... مُهَاجِرَةٌ لَا مُشْرِكُونَ وَلَا عُزْلُ

في هذا الظرف العصيب خرج إليهم المسلمون يستقبلونهم بصورة غير لائقة كما في بعض الروايات، ومنها ما عن عروة بن الزبير قال: (**لما دنوا من حول المدينة تلقّاهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» والمسلمون. قال: ولقيهم الصبيان يشتدّون ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر**[٢] **فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه. قال: وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرّار، فررتم في سبيل الله**[٣]. **قال: فيقول رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكرّار إن شاء الله «تعالـى»**)[٤].

والعبارة الأخيرة «إن شاء الله تعالـى» لا تنفي فرارهم، وإنما هو سعي من النبي «صلى الله عليه وآله» لإعادة الأمل إلـى نفوسهم، وهكذا يفعل القائد الحريص على قواته، والحاكم الذي يسعى لدرء فتنة محتملة.

واستمر الموقف السلبي منهم بعد دخولهم المدينة أيضاً فعن السيدة أم سلمة أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام: (**ما لـي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس يا فرّار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج**)[٥].

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: (**ما لقي جيش بُعثوا مبعثاً ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقوهم بالشر، حتى أن الرجل ينصرف إلـى بيته وأهله فيُدَق عليهم فيأبون أن يفتحوا له يقولون: ألا تقدمت مع أصحابك فقُتلت، وجلس الكبراء منهم في بيوتهم استحياء من الناس، حتى أرسل النبي «صلى الله عليه وسلم» رجلاً يقول**

١. ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص ٣٨٣.
٢. أي كانوا يركضون باتجاههم، فأمر النبي بحمل الصبيان لمنع تقدمهم، فهل كان ذلك خوفاً من تصرفاتهم التي ستسيء إلى المقاتلين أم خوفاً على مشاعر أبناء الشهداء؟ الأمر غير واضح ولعل الاحتمال الأول أقرب بلحاظ ما يأتي من تصرفات الكبار فكيف بالصبيان، وإنما حمل عبدالله رعايةً له في تلك اللحظات الصعبة التي سيفتقد فيها أباه.
٣. والعبارة الأخيرة على سبيل الاستهزاء بهم، أو لعل المراد أنهم فروا وتركوا الجهاد الذي هو سبيل الله.
٤. ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢، ص ٣٨٢.
٥. ن.م. ص ٣٨٣.

لهم: أنتم الكرار في سبيل الله. فخرجوا)[1]. وعن أبي هريرة قال: **(كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس، لقد كان بيني وبين ابن عم لي كلام، فقال: إلا فرارك يوم مؤتة! فما دريت أي شيء أقول له)**[2].

❊ تأبين جعفر:

لم ينل شهداء مؤتة من حزن النبي ومواساته لأهلهم ما خصّه لجعفر، وقد روى المسلمون روايات عديدة في هذا الشأن تؤكد هذا المطلب. ومن بينها رواية الواقدي عن أسماء بنت عميس قالت: **(أصبحت في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه فأتاني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولقد هيأت أربعين مَنّاً من أُدْم، وعجنت عجيني، وأخذت بَنيَّ فغسلت وجوههم ودهنتهم. فدخل علي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: يا أسماء، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه فضمهم وشمهم، ثم ذرفت عيناه فبكى، فقلت: أي رسول الله، لعلك بلغك عن جعفر شيءٌ؟ فقال: نعم، قُتل اليوم. قالت: فقمت أصيح، واجتمع إليّ النساء. قالت: فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: يا أسماء، لا تقولي هجراً ولا تضربي صدراً! قالت: فخرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حتى دخل على ابنته فاطمة وهي تقول: واعماه! فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: على مثل جعفر فلتبك الباكية! ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم)**[3].

وفي رواية أن هذا كان بعد بلوغ الخبر للنبي «صلى الله عليه وآله» بطريقة طبيعية من خلال أحد المسافرين، قال الحاكم بن عيينة: **(لما أصيب جعفر بن أبي طالب جاء رجل، فنعاه لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» فاشتد ذلك عليه، فأقيمت الصلاة، فلما قضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» صلاته، قال: أين هذا؟**[4] **فجاءه، فقال: كيف صنع جعفر؟ فقال: قاتل يا رسول الله على فرسه، حتى إذا اشتد القتال نزل، فقاتل حتى قتل، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لقد رأيتُه، أو قال: لقد أُرِيتُه ملكاً ذا جناحين**[5] **مضرجاً بالدماء مصبوغ القوادم)**[6].

وقد روي عن عبدالله بن جعفر ما جرى في اللحظات الأولى من دخول النبي «صلى الله عليه وآله» على أسماء بنت عميس حيث أخبرها باستشهاد زوجها جعفر، قال: **(أنا أحفظ حين دخل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على أمي فنعى لها أبي، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي، وعيناه تهراقان الدموع حتى تقطر لحيته. ثم قال: اللهم، إن جعفراً قد قَدِم إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلَّفت أحداً من عبادك**

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص٧٠.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١١.
٣. ن.م.
٤. أي المسافر صاحب الخبر.
٥. وكأن هذا كان في المنام كما في رواية أخرى.
٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ٢٦٦١٦.

في ذريته. ثم قال: يا أسماء، ألا أبشرك؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأمي! قال: فإن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة[1]**. قالت: بأبي وأمي يا رسول الله، فأعلِم الناس ذلك. فقام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأخذ بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقي على المنبر، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يُعرَف عليه، فتكلم فقال: إن المرء كثيرٌ بأخيه وابن عمه، ألا إن جعفراً قد استُشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة. ثم نزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فدخل بيته وأدخلني، وأمر بطعام فصنع لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده ـ والله ـ غداءً طيباً مباركاً؛ عمدت سلمى خادمته إلى شعيرٍ فطحنته، ثم نسفته، ثم أنضجته وأدمته بزيت. وجعلت عليه فلفلاً. فتغدّيت أنا وأخي معه، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته، ندور معه كلما صار في إحدى بيوت نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا، فأتى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأنا أساوم بشاة أخٍ لي، فقال: اللهم بارك في صفَقَته. قال عبد الله: فما بعت شيئاً ولا اشتريت إلا بورك فيه)**[2]. وفي رواية أن النبي دعا لأهل جعفر حيث قال: **(اللهم اخلُف جعفراً في أهله، كأفضل ما خلفت عبداً من عبادك الصالحين)**[3].

وفي بعض الروايات أن روح جعفر زارت النبي «صلى الله عليه وآله»، ففي تاريخ ابن عساكر: **(أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال بعد قتل جعفر: لقد مرّ بي الليلة جعفر يقتفي نفراً من الملائكة، له جناحين متخضبة قوادمها بالدم، يريدون بِيشَة، بلداً باليمن!!)**[4]. وتكمل رواية أخرى عن علي «عليه السلام» عن النبي «صلى الله عليه وآله» أن سفر جعفر مع الملائكة كان لغرض محدد، حيث روي أنه قال: **(عرفت جعفراً في رفقة من الملائكة يبشرون أهل بيشة بالمطر!!)**[5].

وعن ابن عباس رواية يتحدد فيها اليوم الذي التقت فيه روح جعفر بالنبي «صلى الله عليه وآله» حيث قال: **(بينما النبي «صلى الله عليه وسلم» جالس وأسماء بنت عميس قريباً منه، إذ رد السلام، قال: يا أسماء، هذا جعفر ـ يعني ابن أبي طالب ـ مع جبريل وميكائيل والملائكة «عليهم السلام» مرّوا فسلموا علينا، فرُدّوا عليهم السلام. وأخبرَني أنه لقي المشركين يوم كذا وكذا، قبل ممره على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بثلاث أو أربع، فقال: لقيت المشركين، فأصبت في جسدي من مقاديمي ثلاثة وسبعين من طعنة وضربة، ثم أخذت اللواء بيدي اليمنى فقُطعت، ثم أخذته بيدي اليسرى فقُطعت، فعوضني الله من يدي جناحين أطير بهما مع جبريل وميكائيل، أنزل**

---

١. هذا أولى من التعبير الوارد في بعض الأخبار «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء» لأن الجناحين لن يكونا بديلين مناسبين للإنسان عن يديه. وكأن الجناحين بحسب الرواية المختارة تمثلان إضافة له.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣١١.

٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص٢٦٦١٨.

٤. ن.م. ص٢٦٦١٧.

٥. ن.م. ص٢٦٦١٨.

من الجنة حيث شئت، وآكل من ثمارها ما شئت. قالت أسماء: هنيئاً لجعفر ما رزقه الله من الخير، لكني أخاف أن لا يصدّق الناس، فاصعد المنبر فأخبِر به الناس. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن جعفر بن أبي طالب مرَّ مع جبريل وميكائيل وله جناحان، عوّضه الله من يديه فسلم عليَّ. ثم أخبرهم كيف كان أمره حيث لقي المشركين، فاستبان الناس من بعد ذلك اليوم الذي أخبر به رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن جعفراً لقيهم، فلذلك سُمِّي الطيار في الجنة). وفي رواية أن لقاء النبي بجعفر كان في الجنة! فعن ابن عباس قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: **(دخلت الجنة البارحة فنظرت، فإذا جعفر يطير على الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سرير. وذكر ناساً من أصحابه)**[1].

وأسجّل هنا عدة ملاحظات:

١. تضافرت الروايات عند المسلمين بأن الله أعطى لجعفر جناحين حتى عُرف بالطيار وذي الجناحين، وفي الخبر: **(كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر قال: السَّلام عليك يا ابن ذي الجناحين)**[2].

وفي نهج البلاغة تحت عنوان: **(ومن كتاب له «عليه السلام» إلى معاوية جواباً: ألا ترى غير مُخبر لك، ولكن بنعمة الله أحدِّث أن قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين ولكلٍّ فضل، حتى إذا استشهد شهيدُنا قيل سيد الشهداء، وخصه رسول الله «صلى الله عليه وآله» بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه. أوَ لا ترى أن قوماً قُطعت أيديهم في سبيل الله ـ ولكلٍّ فضل ـ حتى إذا فُعل بواحدنا ما فُعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين. ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذَكَر ذاكرٌ فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين)**[3].

وفي بحار الأنوار أن الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام» ـ وقد أُحضِر إلى القصر مع بعض الأسرى في الشام ـ طلب من يزيد أن يصعد المنبر، فلما أذن له قال: **(أيّها الناس، أُعطِينا ستاً، وفُضِّلنا بسبع: أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفُضِّلنا بأن منّا النبيّ المختار محمّداً، ومنّا الصِّدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سيّدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنّا سبطا هذه الأمّة وسيّدا شباب أهل الجنّة)**[4].

وفي كتاب «غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية» دراسة سندية للروايات الواردة في كتب أهل السنة

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص٢٦٦١٧-٢٦٦١٨.
٢. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح٤٠١٦.
٣. الشريف الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٨.

وعلّق عليها قائلاً: (أحاديث الجناحين كثيرة، منها الصحيح، والحسن، والضعيف. وهي بمجموعها تُدَلِّل وتؤكد صحَّة الخبر)[١].

٢. أشار ابن حجر في تعليقه على الخبر السابق إلى أن بعض العلماء لم يرتضِ الأخذ بظاهر هذه الروايات، وردّ عليهم، قال: (وإن النسفي روى عن البخاري أنه يقال لكل ذي ناحيتين جناحان، وأنه أشار إلى أن الجناحين في هذه القصة ليسا على ظاهرهما. وقال السهيلي: قوله: جناحان، ليسا كما يسبق إلى الوهم كجناحي الطير وريشه؛ لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، فالمراد بالجناحية صفة ملكية وقوة روحانية أعطيها جعفر. وقد عبر القرآن عن العضد بالجناح توسعاً في قوله «تعالى»: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾[٢]. وقال العلماء في أجنحة الملائكة: إنها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة، فقد ثبت أن لجبريل ستمائة جناح، ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة [٣] فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبت خبر في بيان كيفيتها فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها، انتهى. وهذا الذي جزم به في مقام المنع والذي نقله عن العلماء ليس صريحاً في الدلالة لما ادعاه، ولا مانع من الحمل على الظاهر إلا من جهة ما ذكره من المعهود، وهو من قياس الغائب على الشاهد وهو ضعيف، وكون الصورة البشرية أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على ظاهره؛ لأن الصورة باقية. وقد روى البيهقي في «الدلائل» من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة أن جناحي جعفر من ياقوت. وجاء في جناحي جبريل أنهما لؤلؤ أخرجه ابن منده في ترجمة ورقة)[٤].

وهذا من الفروقات بين المدرسة النقلية التي تأخذ بمثل هذه الظواهر، والمدرسة العقلية أو التي تعطي للعقل دوراً في محاولة فهم النص من خلال بعض القرائن، أو حتى رفض النصوص أو رد علمها إلى أصحابها، وإلا ما معنى أن يكون الجناحان من ياقوت أو لؤلؤ؟

ومن المعلوم أن القدرة على الطيران بجناحين كجناحي أي طائر تستدعي تناسباً معيناً مع حجم الجسد ووزنه وتصميمه، بالإضافة إلى العضلات المخصصة لذلك، وهذه العضلات تبلغ عادة ثلث مجموع وزن عضلات الطيور. ولك أن تتخيل كم سيبلغ طول جناحين يمكّنان الإنسان من الطيران بالنظر إلى طول ووزن الجسد الإنساني بوضعه المادي الحالي، ومقدار العضلات المتصلة بالجناحين، والتي ستزن ١٣ كجم تقريباً لكل جناح بحسب بعض الحسابات العلمية. ولذا فالأولى ترك تصوّر ذلك وفق طبيعة الحياة الدنيا والمقاييس المادية فيها.

١. العمري: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٣٠٩.

٢. قال الله لنبيه موسى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ سورة القصص: ٣٢.

٣. إشارة إلى قوله «عزوجل»: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاطر: ١.

٤. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ح٤٠١٦.

يبدو أن حجم المأساة، ومكانة القادة الشهداء، ولاسيما جعفر بن أبي طالب، وتأبين النبي «صلى الله عليه وآله» لهم، ولربما رغبة المسلمين في تشديد بيان موقفهم السلبي ممن فروا من القتال ولم ينالوا وسام الشهادة، قد ساعد على إطلاق مخيلة الرواة لإضافة مجموعة من النصوص والتفاصيل ذات الطابع الغيبي من عندهم، تماماً كما جرى لأحداث واقعة الطف بعد ذلك.

* نتائج الغزوة :

وهكذا انتهت الغزوة بمقدماتها وأحداثها وتبعاتها، وهي إن لم يتحقق فيها نصر عسكري، ونال المسلمين من الخسائر ما نالهم، إلا أن الغزوة أكسبتهم جرأة على التوغل في الأرض لمواجهة أعدائهم في المستقبل، ومن خلال استعداد أفضل وقوات أكبر عدداً، وهذا ما سيتحقق في غزوة تبوك بعد سنة من هذا التاريخ والتي سيهرب فيها العدو من المواجهة لميل ميزان القوة لصالح المسلمين فيها بعد فتح مكة والتبدلات الطارئة في الجزيرة العربية من حيث التحالفات وامتداد حدود الدولة الإسلامية في الاتجاهات الأربعة، ثم ليُتوّج الأمر بعد عهد النبي «صلى الله عليه وآله» بهزيمة الروم والغساسنة، ومن ثمَّ فتح بلاد الشام كلها.

فتح
مكة



فتح مكة

قبل الحديث عن فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، لابد من العودة إلى الوراء لسنتين لمعرفة المعادلة الحاكمة بين المسلمين ومشركي مكة عام ٦ هـ، حيث قصد النبي «صلى الله عليه وآله» مكة المكرمة بغرض أداء مناسك العمرة، وقد مر عام تقريباً على غزوة الخندق التي هُزم فيها الأحزاب بقيادة قريش، ثم انتصارهم على بني قريظة، وفي عدة سرايا من بينها:

عُكاشة بن مِحْصن الأسدي. من بني أسد القاطنين في مكة والمتحالفين معها، أسلم قبل الهجرة، وهاجر إلى المدينة، وشهد بدراً وما بعدها. استشهد عام ١١ هـ في قتال المرتدين.

١) سرية عكاشة الأسدي في بداية السنة السادسة قاصداً منطقة الغَمر، وتبعد قرابة ٨٠ كم عن المدينة المنورة وفيها أعراب من بني أسد.

٢) سرية محمد بن مسلمة إلى منطقة ذي القَصّة وتقع في الطريق إلى الربذة، وفيها أعراب من بني ثعلبة وبني عُول، وذلك في ربيع الآخر من العام السادس.

٣) سرية زيد بن حارثة إلى بني سُليم بمنطقة الجموم في نفس الشهر.

٤) سرية أبي عبيدة بن الجراح نحو مضارب بني محارب وثعلبة وأنمار في نفس الشهر.

٥) سرية زيد بن حارثة إلى منطقة العِيص على ساحل البحر الأحمر في الطريق التجاري لمكة وتقع شمال غرب المدنة بمسافة ٢٠٠ كلم، وذلك في جمادى الأولى، ضد قافلة تجارية لقريش وأسر فيها أبوالعاص طليق زينب بنت رسول الله، فأجارته فأطلقه ورد عليه ما أخذ منه.

٦) سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان للدعوة إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً، وأسلم معه ناس كثير.

٧) سرية الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» إلى بني سعد بأرض فدك في شعبان، حين بلغ النبي أن لهم جمعاً يريدون أن يمدّوا يهود خيبر.

ولذا قال د. أمين دويدار في كتابه صور من حياة الرسول: (**ما كادت السنة السادسة تنتهي حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت في نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهيأ لحياة استقرار وسلم**

بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة جوار فيما بينهم على تناسي الثارات ودفن الحزازات، وعلى التعاون والتلاقي)[١].

* النبي يقصد مكة للعمرة :

في هذه الأجواء وبعد استراحة من السرايا في شهري رمضان وشوال، خرج النبي في الأول من ذي القعدة من العام السادس الهجري لأداء العمرة. جاء القرار بعد الرؤيا الصادقة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله «عزوجل»: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢].

وروى تفاصيلها المؤرخون حيث قالوا: **(كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد رأى في النوم أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت وعرّف مع المعرّفين**[٣] **فاستنفر أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيأ للخروج، وخرج أصحابه معه لا يشكون في الفتح للرؤيا التي رأى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»)**[٤]. **(فخرجوا بغير سلاح إلا السيوف في القرب...)**[٥].

وخرج معه من المسلمين ١,٦٠٠ رجلاً، كما استنفر النبي الأعراب في طريقه فأبوا الخروج معه، وقد تحدث القرآن الكريم عن موقفهم المتخاذل وما جرى بعد ذلك معهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ إلى قوله «سبحانه»: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ من قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٦].

وإذ علمت قريش بنية النبي «صلى الله عليه وآله» بالتوجه إلى مكة المكرمة، استنفرت رجالاتها ورجالات

---

١. دويدار: صور من حياة الرسول، ص ٤٥٢.
٢. سورة الفتح: ٢٧.
٣. أي وقف بعرفة.
٤. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١٣، ص٣٥٥.
٥. المغازي: الواقدي، ج١، ص ٢٢٨.
٦. سورة الفتح: ١١-١٦.



ثقيف وبعض الأعراب لمواجهة هذا الجمع غير المرحّب به. وفي عُسفان[1] ترصّد المشركون للنبي وأصحابه، ومنعوهم من التقدم، وحذّروهم من الإصرار على أداء العمرة. على إثر ذلك، اتخذ النبي «صلى الله عليه وآله» قراره بتغيير طريقه، فاتّجه غرباً نحو الحديبية[2] واستقر فيها بانتظار ما تصل إليه المفاوضات مع قريش.

وفي الحديبية تحت الشجرة، جمع النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه إذ بلغته أنباء كاذبة مفادها قَتْل عثمان ابن عفان مبعوثه إلى قريش، وشكَّ في نية قريش، فعرض عليهم مبايعته من جديد على النصرة في هذا الظرف العصيب والوضع المقلق، فمن المحتمل أن تَغير عليهم قريش وهم في العراء وبلا استعدادات عسكرية، فجاءت بيعة الرضوان في هذا الإطار، وقد قال الله «عزوجل»: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[3].

وعادت قريش بالخبر اليقين، فهي مستعدة للمصالحة وفق شروط معينة، عُرضت على النبي فقبلها، وجاء نص الوثيقة كالتالي: (**هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهم الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه وماله. ومن قدم المدينة من قريش، مجتازاً إلى مصر، أو إلى**

١. على بعد ٨٠ كم تقريباً من مكة.
٢. الحديبية: أدنى الحل من الحرم المكي وتبعد ٢٢ كم تقريباً، وتعرف اليوم باسم ميقات الشميسي.
٣. سورة الفتح: ١٨.

الشام، فهو آمن على دمه وماله. وإن بيننا عَيبة مكفولة [١] وإنه لا إسلال، ولا إغلال[٢]، وإنه مَن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه. ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه).

فتواثبت خزاعة فقالوا: (نحن في عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. فقال رسول الله: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف. فقال سهيل: والله ما تتحدث العرب أنا أخِذنا ضغطة. ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب: على أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا. ومن جاءنا ممن معك لم نرده عليك. وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك، فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب، وسلاح الراكب. وعلى أن هذا الهدي حيث ما حبسناه محله لا تُقدمه علينا)[٣].

ونزلت سورة الفتح وأولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[٤] مبيّنة أهمية هذا الحدث المتمثل في عقد الصلح الذي سيفتح أبواباً من الخير للمسلمين، وسيمثل منعطفاً مهماً وحاسماً في مسيرة الدعوة الإسلامية، ثم فصّلت الحديث عن اتلك الآثار الإيجابية ووصف الظروف المحيطة بالحدث حيث قال «عز اسمه»: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله «سبحانه»: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٥].

وقد قال النبي «صلى الله عليه وآله» مبيّناً لأصحابه هذه الأهمية حيث قال: (نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها)[٦].

قال المستشرق درمنغم: (وتعد هذه المعاهدة فتحاً مبيناً لمحمد الذي استطاع بها أن يفاوض البلد الذي أخرجه

---

١. أو مكفوفة: كناية عن المحافظة على العهد.
٢. أي لا غش ولا خداع ولا مكيدة.
٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج٩، ص ١٩٨.
٤. سورة الفتح: ١.
٥. سورة الفتح: ١٨-٢٥.
٦. المتقي الهندي: كنز العمال، ح ٢٨٦٢٨.

مفاوضة النظير للنظير، وأبصر محمد أن الثمرة أينعت ورأى ألا يتعجل اقتطافها، ولم يدرك أصحابه ما في اعتداله من حِذق)[1].

❋ نتائج صلح الحديبية :

ويمكن تلخيص نتائج هذا الصلح في النقاط التالية:

١) الاعتراف بدولة النبي من قبل قريش.

٢) إعطاء المجال أمام القبائل العربية لمحالفة من تريد من طرفي النزاع وفق تقييم موازين القوى، لا كما كان الأمر في السابق، حيث كانت تقام مع قريش على أساس أنها تمثل زعامة الوثنية. ولذا كان تحالف خزاعة نصراً.

٣) إعطاء المجال للمسلمين للانتشار في الآفاق بشكل حر، لاسيما في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية.

٤) حرية التحرك السياسي والعسكري للمسلمين بعد أن أمِنوا جانب قريش وحلفائها، فأرسل النبي «صلى الله عليه وآله» الرسل إلى الملوك في الآفاق، واتجه المسلمون للقضاء على يهود خيبر.

٥) إدخال المهابة في قلوب المشركين والمنافقين.

٦) إمكانية دخول مكة المكرمة لأداء العمرة في أمان وبصورة مهيبة ذات دلالات كبيرة.

٧) مقدمة لفتح مكة عام ٨ هـ.

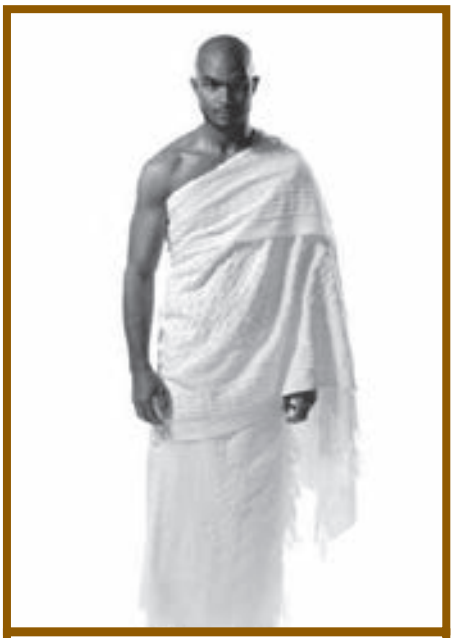
❋ عمرة القضاء :

بعد مرور عام على الصلح خرج النبي «صلى الله عليه وآله» في ذي القعدة في نفس الشهر الذي صدّه فيه المشركون، معتمراً عمرة القضاء، مكان عمرته التي صدّوه عنها.. **(ويقال لها عمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فافتص رسول الله «صلى الله عليه وسلم» منهم فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع)**[2].

وجاء في وصف أداء النبي «صلى الله عليه وآله» للعمرة ما يلي: **(وخرج مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قوم من المسلمين عمّاراً فكانوا في عمرة القضية ألفين.. وساق رسول الله ستين بُدنة.. وحمل رسول الله السلاح البيض والدروع والرماح وقاد مائة فرس.. ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مرّ الظهران**[3] **فوجد بها نفراً**

١. درمنغم: حياة محمد، ص ٣٢٩.
٢. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٤٢٩.
٣. يعرف حالياً بوادي فاطمة.

من قريش فسألوه، فقال: هذا رسول الله يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله. فأتوا قريشاً فأخبروهم ففزعوا ونزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، بمرّ الظهران، وقدّم السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحَرم، وخلّف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائة رجل، وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال وخلوا مكة، فقدّم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الهدي أمامه فحُبس بذي طوى، وخرج رسول الله على راحلته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون برسول الله يلبّون، فدخل من الثنية التي تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته، فلم يزل رسول الله، يلبّي حتى استلم الركن بمحجنه[١] مضطبعاً بثوبه، وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم)[٢].



الاضطباع

ويعود سبب الاضطباع إلى أن المشركين أشاعوا أن المسلمين أصابهم الوهن والضعف بسبب الحمى التي تفشّت فيهم في المدينة المنورة قبل قدومهم إلى مكة، وحيث علم النبي بمقولتهم، وشاهدهم وقد قعدوا بالقرب من الحِجر وأطلّوا من بيوتهم، أوصى أصحابه أن يضطبعوا فيُخرجوا أعضادهم اليمنى، ولا يخفى أن أهل المدينة يعملون في الزراعة ومن شأن ذلك نمو عضلات اليدين. كما طلب منهم أن يرمّلوا [٣] الأشواط الثلاثة ليرى المشركون قوتهم، وأن يمشوا ما بين الركنين «اليماني والأسود». قال ابن عباس: (**ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء**[٤] **عليهم**)[٥]. وأوصاهم قائلاً: (**رحم الله امرء أراهم اليوم من نفسه قوة**)[٦]. ولما رأى المشركون هذا المشهد قالوا: (**هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهمتهم، هؤلاء أجلد من كذا، إنهم لينفرون**[٧] **نفر الظبي**)[٨].

وبقي المسلمون ثلاثة أيام في مكة، فلما كان الظهر من يوم الرابع أتى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى ورسول الله في مجلس من مجالس الأنصار يتحدث ومعه سعد بن عبادة فقال: (**قد انقضى أجلك فاخرج**

١. عصا معوجة الطرف تستخدم للإبل.
٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٢١.
٣. يرمل: يهرول.
٤. أي رفقاً بهم كما في نص آخر.
٥. مسلم: المسند الصحيح، ح ١٢٦٦
٦. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ح ٧٢٩.
٧. أي أي يَثبون.
٨. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ٩١.

عنا. فقال النبي: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً؟ فقال: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا. ننشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت. فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبي فقال لسهيل: كذبت لا أم لك ليست بأرضك ولا أرض أبيك، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً. فتبسم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ثم قال: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا. ثم أمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أبا رافع بالرحيل وقال: لا يمسينّ بها أحد من المسلمين)[1].

هذا النص يعكس مدى التأثير الذي تركه النبي «صلى الله عليه وآله» من خلال وجوده مع المسلمين في مكة في شهر من أشهر الحج.

قال الله «عزوجل» واصفاً هذه العمرة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].

* أهم أحداث العام السابع :

وشهد العام الهجري السابع أحداثاً عديدة، وتناولنا كثيراً منها أثناء الحديث عن غزوة خيبر، وقد اهتمت قريش بمعرفة نتائج هذه الغزوة، حتى عقدوا الرهانات فيما بينهم، وكانوا يقفون في أفواه الطرق وسكك مكة

الاضطباع: أن يدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على يساره، ويُبدي منكبه الأيمن ويغطي الأيسر، وهو عند الحنفية والحنابلة والشوافع سنّة، وخاص بالطواف الذي يعقبه سعي. واعتبر مالك أنه غير مشروع. ومن الإمامية قال الشهيد الأول، عند عد مستحبات الطواف: (الاضطباع للرجل على ما روي.. وهو مستحب في موضع استحباب الرَّمْل لا غير، ووقته حين الشروع في الطواف إلى الفراغ، ويترك عند الصلاة، وربما قيل: يضطبع فيها وفي السعي). وقال في طواف الوداع: (ولا رمل في هذا الطواف ولا اضطباع). ويفهم من كلامه وكلام غيره: أن الحكم مختص بالرجال، وأنه مختص بطواف القدوم. وفي الحديث عن زرارة، قال: (سألت أبا جعفر عن الطواف أيرمل فيه الرجل؟ فقال: إن رسول الله لما أن قدم مكة وكان بينه وبين المشركين الكتاب الذي قد علمتم، أمر الناس أن يتجلدوا، وقال: أخرجوا أعضادكم، وأخرج رسول الله، ثم رمّل بالبيت ليريهم أنه لم يصبهم جَهد، فمن أجل ذلك يرمّل الناس، وإني لأمشي مشياً، وقد كان علي بن الحسين يمشي مشياً). والرمل: عند الحنابلة والمالكية لا يشرع إلا في طواف العمرة أو القدوم. وذهب الحنفية والشافعية إلى أنه يشرع في كل طواف يعقبه سعي. وعند من قال به من الإمامية فإنما يكون مختصاً بطواف القدوم في الأشواط الثلاثة الأولى وهو للرجال دون غيرهم وبشرط ألا يؤذي به أحداً.

١. المغازي: الواقدي، ج١، ص ٣٠١.
٢. سورة الفتح: ٢٧.

يسألون كل قادم إليها عما أسفرت عنه المعركة، وكان وقع خبر انتصار المسلمين عليهم شديداً. كما كانت مراسلات النبي «صلى الله عليه وآله» للملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام ذات وقع كبير على قريش، وأدخلت في قلوبهم الرعب، حتى قال أبوسفيان: (**لقد عظم أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه مَلك بني الأصفر**)[1].

* أهم أحداث العام الثامن :

وشهد العام الثامن مجموعة من الأحداث، حيث واصل النبي «صلى الله عليه وآله» إرسال الرسائل إلى بعض الحكام، وقد تحدثنا عن بعض السرايا التي بعثها النبي في ذلك العام، ثم جاءت غزوة مؤتة التي وإن انهزم فيها المسلمون وانسحبوا أمام قوات الروم والعرب الموالين لهم، إلا أنها بيّنت للجميع نمو قوة المسلمين حتى أنهم يتحدّون إحدى القوتين العظميين في العالم بجيش صغير، مع ما تركته من أثر في اندفاع عدد من قبائل العرب في تلك الناحية للدخول في الإسلام.

* خلفيات وأسباب فتح مكة :

كان من نتائج صلح الحديبية إتاحة الفرصة أمام القبائل العربية للدخول في تحالفات سياسية مع المسلمين، وهو ما لم يكن متاحاً من قبل إلا في نطاق ضيق بالقرب من المدينة المنورة. فخزاعة التي كانت في حالة صراع مع كنانة ومتحالفة سراً مع النبي «صلى الله عليه وآله»، أو على الأصل كانت تميل إلى مناصرته كما شهدنا في أكثر من حدث يرتبط بالغزوات السابقة، قررت الدخول في تحالف علني مع المسلمين، فلما كان صلح الحديبية، دخل الطرفان ـ خزاعة وكنانة ـ أيضاً في حالة صلح.

ولكن بعد هزيمة المسلمين في مؤتة شجّع بعض رجالات قريش قبيلة بكر من كنانة على الاعتداء على خزاعة، وقاتل بعض قريش إلى جانبهم، ورفدتهم بالسلاح. ولربما كان ذلك من باب جس النبض لمعرفة مدى قوة واستعداد المسلمين للقتال من جديد بعد هزيمتهم في بلاد الشام.

وعلى إثر هذا الاعتداء، خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله «صلى الله عليه وآله» ويخبرونه بالذي أصابهم وكيف حضر صفوان بن أمية في رجال من قريش متنكرين فقتلوا بأيديهم رجالاً من خزاعة، ورسول الله جالس في المسجد في أصحابه. ثم استأذن عمرو بن سالم النبي أن ينشد أبياتاً من الشعر، فأذن له. وفي رواية أنه أخذ يكرر: (**قُتلنا وقد أسلمنا. فقال رسول الله: نُصرت يا عمرو بن سالم. وقام يجر طرف ردائه وهو يقول: لا نُصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي**)[2].

---

١. الدياربكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج٢، ص ٣٣. وبنو الأصفر هم الروم.
٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٤.

وأرسلت خزاعة وفداً آخر على رأسهم بُديل بن ورقاء لنفس الهدف. فقال رسول الله: (**ينقضون العهد لأمر يريده الله «عزوجل» بهم. فقيل: خير أو شر يا رسول الله؟ قال: خير**)[1].

بُديل بن ورقاء الخزاعي. وفد هذه المرة على النبي من قبل قومه دون أن يكون مسلماً، وسيلتقي لاحقاً بأبي سفيان مرتين، في طريق أبي سفيان إلى المدينة، وعند توجه النبي إلى مكة، وسيعلن إسلامه حينها.

❋ أبوسفيان يحاول تدارك الموقف :

أحسَّت بعض الأطراف في قريش بخطورة ما أقدم عليه بعض رجالاتها، وأخذوا يلقون باللوم على من اشترك في قتال خزاعة من رجالهم. فجاء الحارث بن هشام وعبدالله بن أبي ربيعة إلى صفوان ابن أمية، وإلى سُهيل بن عمرو، وعِكْرَمة بن أبي جهل، فلاموهم فيما صنعوا من عونهم بنى بكر، وأنّ بينكم وبين محمّد مُدّة، وهذا نَقضٌ لها، وأن: (**هذا أمرٌ لابد له من أن يصلح؛ والله لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد في أصحابه. قال أبو سفيان: قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وأفظعتها وخفت من شرها. فقال القوم: ما هي؟ قال: رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة ملياً، ثم كأن ذلك الدم لم يكن. فكره القوم هذا، وقالوا: هذا شرٌّ.... والله ليغزونا محمدٌ إن صدقني ظني وهو صادقي، وما لي بدٌّ أن آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر. فقالت قريش: قد والله أصبت الرأي! وندمت قريش على ما صنعت من عون بني بكرٍ على خزاعة، وعرفوا أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لن يدعهم حتى يغزوهم. فخرج أبو سفيان، وخرج معه مولى له على راحلتين، فأسرع السير وهو يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**)[2].

وفي الطريق عند عُسفان التقى أبوسفيان ببديل بن ورقاء العائد من المدينة مع أصحابه بعد أن شكى للنبي فعلة قريش. وحاول أبوسفيان اكتشاف سبب وجودهم بهذه المنطقة وما إذا كانوا قد اشتكوا للنبي فقال: (**من أين أقبلت يا بديل؟.. قال: تسيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل إلى مكة قال أبوسفيان: لئن جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففتّه، فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديلٌ محمداً**)[3].

وأقبل أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على النبي «صلى الله عليه وآله» فقال: (**يا محمد، إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة. فقال رسول الله: هل كان قِبَلكم حدثٌ؟ قال: معاذ الله! فقال رسول**

١. الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج٥، ص٢٠١.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣١٨-٣١٩.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٣٩٥.

الله: فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيّر ولا نبدل. ثم قام من عنده فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله «صلى الله عليه وسلم» طوته دونه، فقال: أرغبت بهذا الفراش عني أو بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤٌ نجسٌ مشرك! قال: يا بنيّة، لقد أصابك بعلمك شرٌّ! قالت: هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟ قال: يا عجباه، وهذا منك أيضاً؟ أأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمدٍ؟ ثم قام من عندها فلقي أبا بكر الصديق فكلمه وقال: تكلم محمداً وتجير أنت بين الناس؟ فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله «صلى الله عليه وسلم». ثم لقي عمر فكلمه بمثل ما كلم به أبو بكر، فقال عمر: والله، لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم! قال أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً. ثم دخل على عثمان بن عفان فقال: إنه ليس في القوم أحدٌ أقرب بي رحماً منك، فزد في الهدنة وجدد العهد؛ فإن صاحبك لن يرده عليك أبداً؛ والله ما رأيت رجلاً قط أكثر إكراماً لصاحبٍ من محمدٍ لأصحابه! قال عثمان: جواري في جوار رسول الله)[1].

ويروي الواقدي أيضاً أنه دخل بعد ذلك على الزهراء «عليها السلام»: (فقال: أجيري بين الناس! فقالت: إنما أنا امرأة. قال: إن جوارك جائزٌ، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع، فأجاز ذلك محمدٌ. قالت فاطمة: ذلك إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم». وأبت ذلك عليه. فقال: مري أحد ابنيك يجير بين الناس! قالت: إنهما صبيّان، وليس مثلهما يجير. فلما أبت عليه أتى علياً فقال: يا أبا الحسن، أجر بين الناس وكلم محمداً يزيد في المدة. قال علي: ويحك يا أبا سفيان! إن رسول الله قد عزم ألا يفعل، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلم رسول في شيءٍ يكرهه. قال أبو سفيان: فما الرأي؟ يسِّر لي أمري فإنه قد ضاق علي، فمر لي بأمرٍ ترى أنه نافعي. فقال علي: ما أجد لك شيئاً أمثَلَ من أن تقوم فتجير بين الناس، فإنك سيد كنانة. قال: ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال علي: لا أظن ذلك والله، ولكني لا أجد لك غيره. فقام بين ظهري الناس فصاح: ألا إني قد أجرت بين الناس، ولا أظن محمداً يخفرني[2]. ثم دخل على النبي فقال: يا محمد، ما أظن أن ترد جواري. فقال رسول الله: أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟!)[3].

ركب أبوسفيان راحلته وانطلق إلى مكة، وكان قد تأخر وطالت غيبته، (وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة وقالوا: والله إنا نراه قد صبأ، واتّبع محمداً سراً وكتم إسلامه. فلما دخل على هندٍ ليلاً قالت: لقد حبست حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجحٍ فأنت الرجل! ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢١.
٢. يخفرني: يحميني.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.

المرأة، فجعلت تقول: ما صنعت؟ فأخبرها الخبر وقال: لم أجد إلا ما قال لـي عليٌّ. فضربت برجليها في صدره، وقالت: قـُبِّحت من رسول قوم... فلما أصبح حلق رأسه عند الصنمين، إساف ونائلة، وذبح لهما، وجعل يمسح بالدم رءوسهما، ويقول: لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبي! إبراءً لقريش مما اتهموه به... وقالت له قريش: ما وراءك؟ هل جئتنا بكتاب من محمد، أو زيادة في مدة؟ ما نأمن أن يغزنا! فقال: والله لقد أبى عَلَيّ). وأخذ يخبرهم بما جرى مع الإمام علي «عليه السلام» فقالوا له: **(ما زاد على أن تلعّب بك تلعّباً! قال: والله ما وجدت غير ذلك)**[1].

* النبي يستعد للفتح :

أمر النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه بالاستعداد للقتال وأرسل من يخبر القبائل الحليفة بالاستعداد أيضاً، دون أن يُعلم أحداً بغاية مسيره، ولا بالعدو الذي سيلاقيه. أرسل النبي سرية بقيادة أبي قتادة الأنصاري إلـى «بطن إِضَم»[2] ليزيد من إبهام حركته.

قال الواقدي في مغازيه: **(لما ولّى أبو سفيان راجعاً قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعائشة: جهزينا وأخفي أمرك! وقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: اللهم خذ على قريشٍ الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتةً. ويقال قال: اللهم خذ على قريشٍ أبصارهم فلا يروني إلا بغتةً، ولا يسمعون بي إلا فجأةً)**[3].

واتخذ النبي إجراء احترازياً آخر، حيث أمر بإغلاق جميع منافذ الطرق والمداخل المؤدية إلـى المدينة أمام الغرباء، وأمام الخارجين منها وخاصة من كانت وجهته إلـى مكة.

* خيانة حاطب :

قدرة النبي على إخفاء الأمر وهو يجهز عشرة آلاف مقاتل أمام أجواء ضاغطة يعدّ إنجازاً عسكرياً مهماً ويكشف عن حسن تدبير وحكمة في التصرف. وقد احتمل الصحابي حاطب بن أبي بلتعة أن يكون مقصد النبي هو مكة، فكتب لثلاثة من قريش يحذّرهم، صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل: **(إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لـي عندكم يدٌ بكتابي إليكم)**[4].

ودفع الكتاب إلـى امرأةٍ من مزينة من أهل العرج يقال لها كنود ـ وقيل سارة وقيل غير ذلك ـ وجعل لها

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.
٢. وهي على بعد ٢٠ كم تقريباً من المدينة المنورة.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٢.
٤. ن.م. ص ٣٢٣.

ديناراً على أن تبلّغ الكتاب ـ وفي نص آخر عشرة دنانير ـ وقال: (**أخفيه ما استطعت، ولا تمرّي على الطريق فإن عليها محرساً. فسلكت على غير نقب[١] عن يسار المحجة في الفلوق[٢] حتى لقيت الطريق بالعقيق**)[٣].

وفي رواية أخرى أنها جعلت الرسالة في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، فخرجت. وأتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير فقال: (**أدرِكا امرأةً من مزينة، قد كتب معها حاطب كتاباً يحذر قريشاً، فخرجا فأدركاها بالخليفة، فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا شيئاً. فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرِض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حاطباً فقال: يا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: و ما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟**)[٤].

وفي بحار الأنوار أن النبي «صلى الله عليه وآله» أمر أن ينادي المنادي الصلاة جامعة، فاجتمعوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم، ثم صعد النبي إلى المنبر، وأخذ الكتاب بيده وقال: (**أيها الناس إني كنت سألت الله «عزوجل» أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلا منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي. فلم يقم أحد، فأعاد رسول الله مقالته ثانية وقال: ليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي. فقال حاطب بن أبي بلتعة وهو يرعد كالسعفة في يوم الريح العاصف، فقال: أنا يا رسول الله صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني، فقال له النبي: فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟ قال: يا رسول الله إن لي أهلاً بمكة، وليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون دائرة لهم علينا فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم، و لم أفعل ذلك للشك في الدين. فقام عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله مُرني بقتله فإنه منافق، فقال رسول الله: إنه من أهل بدر، ولعل الله «تعالى» اطّلع عليهم فغفر لهم، أخرجوه من المسجد. قال: فجعل الناس يدفعون في ظهره حتى أخرجوه، وهو يلتفت إلى النبي ليرقّ عليه، فأمر رسول الله بردِّه، وقال**

---

١. نقب: طريق.
٢. الفلوق: الشقوق بين الحرّات.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٣.
٤. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٥٣٦.

له: قد عفوت عنك وعن جرمك فاستغفر ربك ولاتعد بمثل ما جنيت)[1]. ولكن الملاحظ على هذه الرواية أن ها تفترض أن النبي نقض الغرض من الكتمان وفضح مسيره إلى مكة، وهذا تصرف لا يتناسب وحكمته في مثل هذا الموقف. خاصة وأن النصوص ـ كما سيأتي ـ تؤكد استمرار سرية الجهة التي أرادها النبي في غزوته هذه. كما قد يلاحظ على الخبر أن النبي كان يمكنه معرفة صاحب الرسالة من خلال المرأة نفسها التي أمسك بها علياً، ولا حاجة إلى أن يسأل من الفاعل. إلا أن يقال أن علياً «عليه السلام» لم يسألها، وهذا بعيد في حد ذاته، أو أن النبي أراد فضحه أمام الناس، مع معرفته بأنه الفاعل.

والملاحظ على الروايات السابقة أنها تقول أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال:

١) **(لعل الله قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)**.

٢) أو **(إنه من أهل بدر، ولعل الله «عزوجل» اطّلع عليهم فغفر لهم)**.

ولا أدري مدى صحة نسبة هذا الكلام للنبي، وهو يتضمن امتيازاً غريباً لأصحاب بدر يمتد عبر الزمن مهما فعلوا من معاص، فالله سيغفرها، وفي ذلك تشجيع على المعصية. وإذا قيل أن الله علم مسبقاً أنهم لن يرتكبوا ما من شأنه أن يغفر لهم، فهذه هي العصمة بذاتها، فهل يمكن إثبات ذلك لأصحاب

استفاد بعض الفقهاء من هذه الحادثة ما يلي:

١. قال الشيخ حسين علي المنتظري في كتابه دراسات في كتابه «ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية»: (إذا علم الحاكم أنه يوجد عند الشخص معلومات نافعة في حفظ النظام ورفع الفتنة، أو في تقوية الإسلام ورفع شر الأعداء، أو في إحقاق حقوق المسلمين بحيث يحكم العقل والشرع بوجوب الإعلام عليه وكان الوجوب بيّناً واضحاً له أيضا، بحيث يعتقد هو أيضاً بوجوبه وأهميته شرعاً ولا يكون في شبهة ولكنه مع ذلك يكتم الشهادة والإعلام عناداً وفراراً من الحق، جاز حينئذ تعزيره للكشف والإعلام فقط).

٢. وقال: (رجحان العفو بالنسبة إلى من كان متديناً ملازماً للصلوات... ومن موارد العفو بالسوابق الحسنة قصة حاطب بن أبي بلتعة).

٣. وقال الشيخ الطوسي في كتابه «المبسوط»: (وإذا تجسس مسلم لأهل الحرب، وكتب إليهم فأطلَعهم على أخبار المسلمين لم يحل بذلك قتله، لأن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة كتاباً يخبرهم بخبر المسلمين فلم يستحل النبي قتله وللإمام أن يعفو عنه، وله أن يعزره، لأن النبي «صلى الله عليه وآله» عفى عن حاطب). وخالفه الشيخ المنتظري معتبراً ترتب العقوبة مع رجحان العفو عن التعزير بالنسبة إلى من كان متدينا ملازماً للصلوات ومن ذوي السوابق الحسنة.

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٢٠-١٢١.

بدر؟ ثم إن فعلة حاطب في هذه الحادثة وحدها تنقض الفرض السابق، فقد ارتكب جريمة كبرى.. فأين العصمة؟ أو أن يقال أن الله علم مسبقاً أنهم إن ارتكبوا معصية ما فسيتوبون لاحقاً، وسيغفر الله لهم ذلك. وعلى كل حال فإن التصريح به من دواعي التشجيع على ارتكاب المعصية.

* آيات سورة الممتحنة :

ذكر المفسرون أن الله «عزوجل» أنزل في حاطب الآيات التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ، إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ، لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

* عدد جيش المسلمين :

وهكذا خرج رسول الله يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر، وخرج المسلمون، ولم يتخلف منهم أحد.. فكانوا عشرة آلاف. ثم مضى «صلى الله عليه وآله» حتى نزل مرّ الظهران، فانضمت إليه قبيلة سليم وكانوا سبعمائة، وقيل بل ألف مقاتل، ثم انضمّت إليه مزينة بألف ثانية[2].

* محاولات فاشلة :

بقي النبي «صلى الله عليه وآله» كاتماً لأمره، لا يَعلم أصحابُه مقصدَه في هذه الغزوة، هل سيتوجه إلى قريش في مكة، أم إلى ثقيف في الطائف، أم إلى هوازن بين مكة والطائف، حتى إذ نزل العَرْج[3]، جلس في أصحابه

١. سورة الممتحنة: ١-٩.
٢. وقيل أن المجموع مع أفراد القبيلتين ١٠ آلاف مقاتل.
٣. عقبة بين المدينة ومكة تبعد قرابة ١٧٠ كم جنوب المدينة.



وهو يتحدث، فقال كعب بن مالك: (آتي رسول الله فأعلم لكم عِلم وجهِه. فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله على ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامة كل ريبٍ ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دُوساً أو ثقيفا
فلست لحاضر إنْ لم ترْوِها ... بساحة داركم منها ألوفا
فننتزع الخيام ببطن وجّ ... ونترك دورهم منهم خلوفا

فتبسم رسول الله ولم يزد على ذلك. فجعل الناس يقولون: والله ما بيّن لك رسول الله شيئاً، ما ندري بمن يبدأ، بقريش أو ثقيف أو هوازن)[1].

وحاول أحد الأعراب اكتشاف مقصد النبي «صلى الله عليه وآله»، لعله ينال من وراء ذلك شيئاً من غنائم المشاركة في الغزو مع بعض قومه، قال الواقدي: (كان عيينة في أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يريد وجهاً، وقد تجمعت العرب إليه، فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة، فيجد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد خرج قبله بيومين، فسلك عن ركوبه فسبق إلى العَرْج، فوجده رسول الله بالعَرج، فلما نزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» العرج أتاه فقال: يا رسول الله، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعاً ولم

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٥.

أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جلبة كثيرة، ولست أرى هيأة حرب، لا أرى ألويةً ولا رايات! فالعمرة تريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام! فأين وجهك يا رسول الله؟ قال: حيث يشاء الله. وذهب وسار معه، ووجد الأقرع بن حابس بالسُّقيا [١] قد وافاها في عشرة نفرٍ من قومه، فساروا معه، فلما نزل قُديد عقد الألوية وجعل الرايات. فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله، فقال أبو بكر: علام تندم؟ قال: على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد، فأين يريد محمد يا أبا بكر؟ قال: حيث يشاء الله)[٢].

* القبض على جاسوس :

لما غادر المسلمون وادي العرج، تقدمت أمامه قوة عسكرية من الخيّالة تستطلع الطريق، فلما تقدمت قليلاً ألقت القبض على جاسوس من هوازن، فجاءوا به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقالوا: **(قلنا: ممن أنت؟ قال: رجلٌ من بني غفار. فقلنا: هم أهل هذا البلد. فقلنا: من أي بني غفار أنت؟ فعيى ولم ينفذ لنا نسباً، فازددنا به ريبةً وأسأنا به الظن، فقلنا: فأين أهلك؟ قال: قريباً. وأومأ بيده إلى ناحية. قلنا: على أي ماءٍ، ومن معك هنالك؟ فلم ينفذ لنا شيئاً، فلما رأينا ما خلط قلنا: لتُصدقنا أو لنضربن عنقك. قال: فإن صدقتُكم ينفعني ذلك عندكم؟ قلنا: نعم. قال: فإني رجلٌ من هوازن من بني نضر، بعثنتي هوازن عيناً. وقالوا: ائت المدينة حتى تلقى محمداً فتستخبر لنا ما يريد في أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثاً أو يغزوهم بنفسه، ولا نراه إلا يستغورهم [٣] فإن خرج سائراً أو بعث بعثاً فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سَرِف [٤]، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك في بطن سَرِف حتى يخرج إلينا، وإن كان يريد قريشاً فسيلزم الطريق. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: وأين هوازن؟ قال: تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع، وأجلبوا في العرب، وبعثوا إلى ثقيفٍ فأجابتهم، فتركتُ ثقيفاً على ساقٍ قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش [٥] في عمل الدبابات والمنجنيق، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً... وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سفيان بن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به، وهم خائفون وجلون. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: حسبنا الله ونعم الوكيل، ما أراه إلا صدقني. قال الرجل: فلينفعني ذلك؟ فأمر به رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خالد بن الوليد أن يحبسه، وخافوا أن يتقدم ويحذّر الناس)[٦].**

ثم إن الرجل حاول الهروب حين نزل العسكر مرّ الظهران، فألقي القبض عليه من جديد، وحُبس، فلما دخل

١. على بعد ٣٠ كم تقريباً من الجحفة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٥.
٣. يستغورهم: يغير عليهم.
٤. تقع شمال مكة تقريباً وتبعد عنها ٢٠ كم، تسمى اليوم النوارية.
٥. مدينة كانت بين مكة واليمن.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٦.



رسول الله «صلى الله عليه وآله» مكة وفحتها أُتِي به إليه، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن[1] فقُتل بأوطاس.

❋ موقف إنساني :

روى الواقدي: (**لما سار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من العرج، فكان فيما بين العرج والطلوب، نظر إلى كلبةٍ تهرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جُعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحدٌ من الجيش ولأولادها**)[2].

❋ العباس يلتقي النبي :

وفي الجحفة التقى العباس بن عبدالمطلب بابن أخيه النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، مهاجراً بعياله. وقد اختلف الرواة والمؤرخون في تحديد تاريخ إسلامه.

فمنهم من تمسّك بخبر أبي رافع خادم الرسول «صلى الله عليه وآله»: (**كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أمُّ الفضل، وأَسْلَمْتُ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر،**

١. أي في ضمن غزوة حنين بعد فتح مكة بقليل.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٢٥.

وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة)[1] للدلالة على أن إسلامه كان قبل هجرة النبي. ومنهم من قال بأن إسلامه كان في السنة الهجرية الثانية تمسكاً بخبر فكاكه من الأسر في غزوة بدر التي شارك فيها مع المشركين، ثم طلب منه النبي أن يفدي نفسه فقال: **(يا محمد، تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم. فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي «عزوجل». قال: فأشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل)**[2]. ومنهم من أنكر ذلك كله، معتبراً أن إسلامه جاء قبيل فتح مكة فقط.

ونعود إلى خبر اللقاء الذي تم بين النبي والعباس في الجحفة، والنصوص قاصرة عن بيان ما جرى حين لقي العباس النبي في الطريق، ومن المحتمل أن وفوده عليه تم بطلب منه «صلى الله عليه وآله»:

١. ليكون لعمه دور في الفتح دون إراقة الدماء

٢. أو لينقل له صورة الأوضاع الداخلية بمكة

٣. أو لتجنيبه أي ضرر قد يلحق به نتيجة المواجهات العسكرية المحتملة

٤. أو استشرافاً من العباس لما ستؤول إليه الأمور

* إسلام وفد مكي:

وبالقرب من الجحفة في «نِيق العُقاب» بالتحديد، وفد أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب على رسول الله «صلى الله عليه وآله» والتمس الدخول عليه ليُسلِم. وبحسب الرواية الأولى أن وفوده كان مع ابنه جعفر، فدخلا مُعْتَمّين، فلما انتهيا إليه قالا: **(السلام عليك يا رسول الله. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أسفِروا تعُرفوا. قال: فانتَسبوا له وكشفوا عن وجوههم، وقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال رسول الله: أي مَطْرَد طردتني يا أبا سفيان، أو متى طردتني يا أبا سفيان؟ قال: لا تثريب يا رسول الله. قال: لا تثريب يا أبا سفيان. وقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**

أبوسفيان - واسمه المغيرة - بن الحارث بن عبدالمطلب، أخو النبي في الرضاعة حيث أرضعته حليمة السعدية، وكان يقاربه من حيث السن، ويلازمه قبل النبوة. ثم تحولت المحبة إلى عداء شديد بعد البعثة، فصار يهجوه، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال النبي. كان من التسعة الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين، وتوفي عام ٢٠هـ.

١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ٤٧٠٣.
٢. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج٣، ص ٦٧-٦٨.

لعلي بن أبي طالب: بصّر ابن عمك الوضوء والسنّة ورُح به إليّ. قال: فراح به إلى رسول الله، فصلى معه، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» علي بن أبي طالب فنادى في الناس: ألا إن الله ورسوله قد رضيا عن أبي سفيان، فارضوا عنه)[1].

أما الرواية الثانية فتقول أن أبا سفيان بن الحارث كان مع ابنه وبرفقة عبدالله بن أبي أمية أيضاً: **(فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: لا حاجة لي بهما**[2]**). علم أبوسفيان بردة فعل النبي فقال: (والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رقّ لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، فأسلما)**[3].

عبد الله بن أبي أمية المخزومي، أخو السيد أم سلمة لأبيها، وأمه السيدة عاتكة بنت عبد المطلب عمةُ رسول الله. استُشهد في غزوة الطائف عام ٨ هـ.

* الإفطار في السفر:

روى مسلم في صحيحه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: **(أنه أخبره أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خرج عام الفتح في رمضان، فصام حتى بلغ الكَديد ثم أفطر. قال: وكان صحابة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يتبعون الأحدث فالأحدث من أمره)**[4].

فأين تقع الكَديد؟ قال الحموي في معجم البلدان: **(هو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة)**[5]. وقال النووي في الكَديد: **(عين جارية بينها وبين المدينة سبع مراحل أو نحوها**[6] **وبينها وبين مكة قريب من مرحلتين)**[7].

---

١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ح ٤٦٥٢.

٢. كان أبوسفيان بن الحارث قد هجا النبي، وأما عبدالله بن أبي أمية فقد كان أحد الذين نزلت فيهم الآيات التالية: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ الإسراء: ٩٠-٩٣. قال العلامة الطباطبائي معلقاً على الخبر: (وقد تكررت الرواية من طرق الشيعة و أهل السنة أن الذي ألقى إليه القول من بين القوم وسأله هذه المسائل هو عبدالله بن أبي أمية المخزومي أخو أم سلمة زوج النبي). الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، في تفسير الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٠١.

٤. مسلم: المسند الصحيح، ح١١١٣.

٥. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٢. وبمضاعفة ١,٨ كم ٤٢ مرة «وهو حساب الميل حسب بعض التقديرات» يكون الناتج ٧٥,٦كم.

٦. المرحلة ٤٤ كم تقريباً، وبمضاعفتها سبع مرات يكون الناتج ٣٠٨ كم.

٧. النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ح١١١٣.

وهذا يعني أن النبي «صلى الله عليه وآله» بقي صائماً خلال سفره لعدة أيام، ثم لما اقترب من مكة أمر بالإفطار لكي يكون المسلمون أقوياء حال دخولهم مكة مع احتمال المواجهة العسكرية أيضاً. ويؤيد ذلك ما جاء من أنه قال: (**إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم**)[1].

وعلى هذا تبرز مسألة وجوب الإفطار حال السفر كما في قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. حيث قال جمع من المفسرين والفقهاء: (**الظاهر منها هو أنَّ صيام الأيام المعدودات فرض غير المسافر والمريض، أمّا هما فإنَّ فرضهما هو أيام أُخر، في غير شهر رمضان، لأنَّ السياق جرى مجرى العزيمة والفرض**)[3]. فكيف نوفّق بين الأمرين؟

الاحتمال الأول: وجوب الإفطار حال السفر لم يكن مشرَّعاً حينذاك.. وهذا غير صحيح، لأن النصوص تؤكد أن تشريعه سابق على العام الثامن الهجري بسنوات، قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: (**سياق الآيات الثلاث يدل أولاً على أنها جميعا نازلة معاً**)[4]، وكان ذلك في العام الهجري الثاني.

الاحتمال الثاني: هناك خطأ في تسمية المكان الذي أفطر فيه النبي، وأن الصحيح ما ورد في الخبر التالي المروي عن الإمام الصادق «عليه السلام» حيث قال: (**إذا خرج الرجل في شهر رمضان مسافراً أفطر. وقال: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» خرج من المدينة إلى مكة في شهر رمضان ومعه الناس وفيهم المشاة، فلما انتهى إلى «كُراع الغَميم» دعا بقدح من ماء فيما بين الظهر والعصر، فشربه وأفطر، ثم أفطر الناس معه، وتم ناس على صومهم فسمّاهم العصاة، وإنما يؤخذ بآخر أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله»**)[5].

ومثله الخبر الذي رواه ابن كثير عن جابر عن عبدالله قال: (**خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عام الفتح صائماً حتى أتى كُراع الغَميم، والناس معه مشاة وركباناً، وذلك في شهر رمضان، فقيل: يا رسول الله، إن الناس**

---

١. مسلم: المسند الصحيح، ح ١١٢٠.
٢. سورة البقرة: ١٨٣-١٨٥.
٣. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيات ١٨٣-١٨٥ من سورة البقرة.
٤. الطباطبائي: تفسير الميزان، تفسير الآيات ١٨٣-١٨٥.
٥. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ١٣١٤٧. والعبارة الأخيرة شبيهة بما جاء في رواية صحيح مسلم عن ابن عباس.

قد اشتد عليهم الصوم وإنما ينظرون كيف فعلت؟ فدعا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بقدَح فيه ماء فرفعه فشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس، وأفطر البعض، حتى أخبر النبي «صلى الله عليه وسلم» أن بعضهم صائم. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أولئك العصاة)[1]. قال النووي في بيان هذا المضمون: **(وهو واد أمام عُسَفان بثمانية أميال، يضاف إليه هذا الكُراع، وهو جبل أسود متصل به... قال القاضي: وهذا كله في سفر واحد في غزاة الفتح، قال: وسميت هذه المواضع في هذه الأحاديث لتقاربها، وإن كانت عُسفان متباعدة شيئاً عن هذه المواضع، لكنها كلها مضافة إليها)**[2]. و كُراع الغَميم ويسمى «برقا الغَميم» وادي تكثر به الجبال السود وهو يبعد عن مكة باتجاه المدينة على الطريق السريع بحدود ٦٠ كم. واحتمل البعض أن يكون المراد منطقة أخرى تسمى «الغَميم» وهي بين رابغ والجحفة، أي على بعد ٣٠٠ كم تقريباً من المدينة المنورة، وبالتالي لم يتم حل المشكلة على الفرضين، إذ أن هذا يعني أن النبي استمر بالصيام أياماً في السفر ثم أفطر.

الاحتمال الثالث: أن الإفطار حال السفر رخصة، لا عزيمة، وأن النبي إنما سماهم العصاة لأنه قد أصدر أمراً بالإفطار، ولم ينفّذه البعض، لا أن الإفطار واجب حال السفر بالعنوان الأولي، بل هو رخصة لمن أحب أن يفطر.

الاحتمال الرابع: الحادثة برمّتها غير صحيحة.. والله أعلم.

* عشرة آلاف شعلة :

بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» مر الظهران عشاءً، وبذا يكون قد اقترب من مكة كثيراً، ثم أمر أصحابه أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف شعلة.. وللقاريء أن يتخيل المنظر حيث يُضاء ليل تلك المنطقة فيصبح كالنهار، وليبلغ نبأ هذا الجيش الإسلامي الكبير الذي يوازي في تعداده جيش الأحزاب الرهيب في غزوة الخندق. وفي تلك الأيام كانت قريش تترصّد حركة النبي، ولا تدري إلى أين هو قاصد، ولا يدرون ما هو فاعل. ثم أجمعَت على أن تبعث أبا سفيان بن حرب ليتحسّب الأخبار، وقالوا: **(إن لقيت محمداً فخُذ لنا منه جِواراً، إلا أن ترى رقةً من أصحابه فأذِنه بالحرب)**.

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام، فلقيا بديل بن ورقاء الخزاعي فاستتبعاه فخرج معهما، وصادف أن ركب العباس بن عبد المطلب بغلة رسول الله «الدلدل» وصار يبحث لعله يجد رجلاً من قريش يخبره أن رسول الله داخلٌ عليهم مع عشرة آلاف.. فسمع العباس صوت أبي سفيان فقال: **(أبا حنظلة! فقال أبو سفيان: يا لبيك، أبو الفضل؟ قال العباس: نعم. قال أبو سفيان: فما وراءك؟ قال العباس: هذا رسول الله في عشرة آلاف من المسلمين،**

---

١. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص ٥٣٩.

٢. النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ح١١١٣.

فأسلِم، ثكلتك أمُّك وعشيرتُك. ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال: أسلِما، فإني لكما جارٌ حتى تنتهوا إلى رسول الله، فإني أخشى أن تقتطعوا دون النبي «صلى الله عليه وسلم». قالوا: فنحن معك. قال: فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فدخل عليه فقال: يا رسول الله، أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، قد أجَرْتُهم وهم يدخلون عليك. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أدخِلهم. فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ودعاهم إلى الإسلام، وقال: تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله! فأما حكيم وبديل فشهدا، وأما أبو سفيان فشهد أن لا إله إلا الله، فلما قال «وأني رسول الله» قال: والله يا محمد، إن في النفس من هذا لشيئاً يسيراً بعد، فأرجئها. ثم قال للعباس: قد أجَرناهم، اذهب بهم إلى منزلك. فلما أذّن الصبح أذّن العسكر كلهم، ففزع أبو سفيان من أذانهم وقال: ما يصنعون؟ قال العباس: فقلت: الصلاة. قال أبو سفيان: كم يصلون في اليوم والليلة؟ قال العباس: يصلون خمس صلوات. قال أبوسفيان: كثيرٌ والله! قال: ثم رآهم يبتدرون وضوء النبي «صلى الله عليه وسلم»، فقال: ما رأيت يا أبا الفضل ملكاً هكذا قط، لا ملك كسرى، ولا ملك بني الأصفر! فقال العباس: ويحك، آمِن. قال: أدخِلني عليه يا أبا الفضل. فأدخله العباس عليه وقال: يا محمد، استنصرتُ إلهي واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتك من مرةٍ إلا ظفرت عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتُك! فتشهد أبو سفيان أن محمداً رسول الله. ولم تسترح نفس أبي سفيان في تلك اللحظات دون أن يطعن في أصحاب النبي «صلى الله عليه وسلم» كما كانت عادة قريش من قبل، فقال: يا محمد، جئتَ بأوباش الناس، من يُعرف ومن لا يُعرف، إلى عشيرتك وأصلك. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أنت أظلم وأفجر، غدرتم بعهد الحديبية وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه! فقال أبو سفيان: ويحك يا رسول الله! لو كنت جعلت حدتك ومكيدتك بهوازن، فهم أبعد رحماً وأشد لك عداوةً. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إني لأرجو من ربي أن يجمع ذلك لي كله بفتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن! وأن يغنمني الله أموالهم وذراريهم، فإني راغبٌ إلى الله «عزوجل» في ذلك)[1]. ولنا أن نتساءل عن تصرف العباس عم النبي حين خرج يبحث عمن يخبره بأمر جيش المسلمين.. هل كان تصرفاً شخصياً أم بإذن أو أمر من النبي؟

يمكن أن يقال أن ركوبه بغلة النبي مؤشر على أن التصرف كان بإذن منه أو بأمره، إلا أن هذا التوجيه يصطدم بالخبر التالي: (لما نزل رسول الله بمر الظهران، قال العباس بن عبد المطلب: واصباح قريش! والله لئن دخلها رسول الله عنوةً إنه لهلاك قريش آخر الدهر. قال: فأخذتُ بغلة رسول الله الشهباء فركبتها، وقلت: ألتمس إنساناً أبعثه إلى قريش؛ فيلقون رسول الله قبل أن يدخلها عليهم عنوةً)[2].

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٣٠.
٢. ن. م. ٣٣١.

* أبو سفيان يعاين جيش المسلمين :

وعلى كل حال، فقد طلب العباس من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يُرضي أبا سفيان بشيء بعد أن تشهد بالشهادتين، قال: (**يا رسول الله، إنك عرفت أبا سفيان وحبه الشرف والفخر، اجعل له شيئاً! قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومن أغلق داره فهو آمنٌ. ثم قال رسول الله للعباس بعد ما خرج: احبِسه بمضيق الوادي إلى خَطْم الجبل**[1] **حتى تمرّ به جنود الله فيراها. قال العباس: فعدلت به في مضيق الوادي إلى خطم الجبل، فلما حبست أبا سفيان قال: غدراً بني هاشم؟ فقال العباس: إن أهل النبوة لا يغدرون، ولكن لي إليك حاجةٌ. فقال أبو سفيان: فهلا بدأت بها أولاً، فقلت: إن لي إليك حاجةً فكان أفرخ**[2] **لروعي. قال العباس: لم أكن أراك تذهب هذا المذهب. وعبّأ رسول الله أصحابه، ومرَّت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، فكان أول من قدم رسول الله خالد بن الوليد في بني سليم، وهم ألف، فيهم لواءٌ يحمله عباس بن مرداس السلمي، ولواءٌ يحمله خفاف بن ندبة، وراية يحملها الحجاج بن علاط. قال أبو سفيان: مَن هؤلاء؟ قال العباس: خالد بن الوليد. قال: الغلام؟ قال: نعم. فلما حاذى خالد العباس، وإلى جنبه أبو سفيان، كبّر ثلاثاً، ثم مضوا. ثم مر على إثره الزبير بن العوام في خمسمائة ـ منهم مهاجرون وأفناء العرب ـ ومعه رايةٌ سوداء، فلما حاذى أبا سفيان كبّر ثلاثاً وكبّر أصحابه، فقال: من هذا؟ قال: الزبير بن العوام. قال: ابن أختك؟ قال: نعم. ومرّ بنو غفار في ثلاثمائة، يحمل رايتهم أبو ذر الغفاري ـ ويقال إيماء بن رحضة ـ فلما حاذوه كبّروا ثلاثاً. وقال: يا أبا الفضل، من هؤلاء؟ قال: بنو غفار. قال: ما لي ولبني غفار).**

وهكذا مرت كتائب المسلمين من قبيلة أسلم وبني عمرو بن كعب ومزينة وجهينة وبني ليث، وضمرة، وسعد ابن بكر، وحامل راية كل كتيبة يكبر ثلاث تكبيرات ويكرر أصحابه من ورائه! فلما حان دور أشجع من غطفان قال أبوسفيان: (**هؤلاء كانوا أشد العرب على محمدٍ. فقال العباس: أدخَل الله الإسلام في قلوبهم، فهذا من فضل الله «عز وجل». فسكت ثم قال: ما مضى بعدُ محمد؟ قال العباس: لم يمض بعد، لو رأيتَ الكتيبة التي فيها محمد رأيتَ الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحدٍ به طاقة. قال: أظن والله يا أبا الفضل؛ ومن له بهؤلاء طاقة، سوادٌ وغبرةٌ من سنابك الخيل. وجعل الناس يمرّون، كل ذلك يقول: ما مرّ محمد؟! فيقول العباس: لا. حتى مر يسير على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير وهو يحدثهما، فقال العباس: هذا رسول الله في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، فيها الرايات والألوية، مع كل بطنٍ من الأنصار راية ولواء، في الحديد لا يُرى منهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب فيها زجلٌ ـ وعليه الحديد ـ بصوتٍ عالٍ وهو يزعجها. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل، من**

١. أي الموضع الذي يضيق من الجبل، وقيل حطم الجبل بنفس المعنى أو بمعنى المكان المثلوم من الجبل.
٢. أفرخ: أذهب.

هذا المتكلم؟ قال: عمر بن الخطاب. قال: لقد أمِرَ [1] أمْرُ بني عَدي بعد ـ والله ـ قلةٍ وذلةٍ! فقال العباس: يا أبا سفيان، إن الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإن عمر ممن رفعه الإسلام. ويقال: كان في الكتيبة ألف دارعٍ. وأعطى رسول الله رايته سعد بن عبادة وهو أمام الكتيبة، فلما مر سعد براية النبي نادى: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستحَل الحُرمة! اليوم أذل الله قريشاً!).

امتلأ قلب بأبي سفيان رعباً حين سمع كلمات سعد بن عبادة فأقبل رسول الله حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: (يا رسول الله، أمرتَ بقتلِ قومِك؟ زعم سعد ومن معه حين مر بنا قال: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة! اليوم أذل الله قريشاً! وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبرّ الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. قال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان: يا رسول الله، ما نأمن سعداً أن يكون منه في قُرى صولة. فقال رسول الله: اليوم يوم المرحمة. اليوم أعز الله فيه قريشاً. قال: وأرسَل رسول الله إلى سعدٍ فعزله، وجعل اللواء إلى قيس بن سعد، ورأى رسول الله أن اللواء لم يخرج من سعدٍ حين صار لابنه. فأبى سعدٌ أن يسلم اللواء إلا بأمارةٍ [2] من النبي، فأرسل رسول الله بعمامته، فعرفها سعدٌ فدفع اللواء إلى ابنه قيس) [3].

إلا أن الشيخ المفيد روى الخبر بشكل مغاير، قال: (إن العباس قال للنبي: أما تسمع يا رسول الله ما يقول سعد ابن عبادة؟ إني لا آمن أن يكون له في قريش صولة. فقال النبي لأمير المؤمنين: أدرِك يا علي سعداً فَخُذ الراية منه، وكن أنت الذي يدخل بها مكة. فأدركه أمير المؤمنين «عليه السلام» فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد من دفعها) [4].

وأكّد ابن هشام انتقال الراية لعلي، قال: (فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها) [5]. أما الواقدي فقال: (ويقال أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أمر علياً «رضي الله عنه» فأخذ اللواء فذهب علي بها حتى دخل مكة فغرزها عند الركن) [6].

وعلّق المفيد على الخبر قائلاً: (فكان تلافي الفارط من سعد في هذا الأمر بأمير المؤمنين «عليه السلام»، ولم ير رسول الله أحداً من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من سيد الأنصار سوى أمير المؤمنين «عليه السلام»، وعلم أنه لو رام ذلك غيره لامتنع سعد عليه، فكان في امتناعه فساد التدبير واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين، ولما لم يكن سعد يخفض جناحه لأحد من المسلمين وكافة الناس سوى النبي «صلى الله عليه وآله» ولم يكن وجه

١. يعني كبر شأنه.
٢. أمارة: علامة ودلالة.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣١-٣٣٣.
٤. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٣٥.
٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٤٠٧.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٣.

الرأي تولي رسول الله «صلى الله عليه وآله» أخذ الراية منه بنفسه، ولّى ذلك مَن يقوم مقامه ولا يتميز عنه)[1].

وإذا اعتمدنا أن اللواء يختلف عن الراية كما ذكرنا مسبقاً ، فسيكون اللواء بيد علي، والراية التي كانت بيد سعد بن عبادة قد انتقلت لابنه قيساً.

* العودة إلى مكة :

وعاد أبوسفيان للحديث مع العباس، فقال حين رأى الكتيبة الخضراء التي كان فيها النبي «صلى الله عليه وآله»: **(ما رأيت مثل هذه الكتيبة قط، ولا خبّرنيه مخبر! سبحان الله، ما لأحدٍ بهذه طاقةٌ ولا يدان! ثم قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال، قلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملكٍ ولكنها نبوةٌ. قال: نعم... قال له العباس: فانجُ ويحك فأدرِك قومك قبل أن يدخل عليهم. قال: فخرج أبو سفيان فتقدم الناس كلهم حتى دخل من كُداءٍ وهو يقول: من أغلق بابه فهو آمن! حتى انتهى إلى هند بنت عتبة، فأخذت برأسه فقالت: ما وراءك؟ قال: هذا محمد في عشرة آلافٍ عليهم الحديد، وقد جعل لي: مَن دخل داري فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن طرح السلاح فهو آمنٌ. قالت: قبحك الله رسول قوم. قال: وجعل يصرخ بمكة: يا معشر قريش، ويحكم! إنه قد جاء ما لا قبل لكم به! هذا محمد في عشرة آلاف عليهم الحديد، فأسلِموا! قالوا: قبحك الله وافد قوم! وجعلت هند تقول: اقتلوا وافدكم هذا، قبحك الله وافد قوم. قال: يقول أبو سفيان: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم! رأيت ما لم تروا! رأيت الرجال والكراع والسلاح، فلا لأحدٍ بهذا طاقة)**[2]. وفي نص آخر: **(فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمش**[3] **قُبّح من طليعة قوم! قال: ويحكم لا تغرّنّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان؛ فهو آمن، قالوا: ويلك وما تغني دارك؟! قال: ومن أغلق بابه؛ فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن. فتفرّق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد)**[4].

* المسلمون يدخلون مكة :

فرَّق رسول الله جيشه من ذي طوى إلى أربع فرق، كل فرقة تدخل من ناحية من نواحي مكة. فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من «كُدي»، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من «كَداء»، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من «اللِّيط» أسفل مكة، وأمر أبوعبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبّ لمكة بين يدي رسول الله، فدخل رسول الله من «أذاخر» حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هناك قُبة.

---

١. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٣٥.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٣.

٣. الدسم: الأسود. والأحمش: القليل اللحم. أي: الأسود الدنيء؛ قالته له في معرض الذم.

٤. الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج٧، ص ١٠٢٩.



وأكد المؤرِّخون أن النبي نهى عن القتال في مكة عند فتحها ضمن هذه الظروف وحرص على أن يكون الدخول سلمياً ومن دون إراقة دماء. قال ابن إسحق: (**وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة، أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سمّاهم أمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة**)[1]. وعلى الرغم من ذلك فقد أصر بعض دعاة الحرب من قريش على قتال المسلمين، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عمرو قد دعوا إلى قتال رسول الله، وضوى إليهم ناس من قريش وناس من بني بكر وهُذيل، وهم يُقسمون بالله ألا يسمحوا للنبي أن يدخلها عنوة أبداً.

فلما دخل خالد بن الوليد وجد هذا الجمع أمامه، فمنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموا بالنبل، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم فقُتل منهم أربعة وعشرين رجلاً من قريش ، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح الانهزام حتى قُتلوا بالحَزْوَرة[2] وهم مولّون في كل وجه. وانطلقت طائفة منهم فوق رءوس الجبال واتّبعهم المسلمون فجعل أبوسفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان: (**يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ مَن دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن. فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذها المسلمون**).

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٠٩.

٢. الحزورة هي الربوة التي تقابل منتصف المسعى من الشرق، وكان فيها بيت السيدة خديجة أم المؤمنين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء.

ولما ظهر رسول الله على ثنية أذاخر نظر قال: (**ما هذه البارقة** [1] **؟ ألم أَنْهَ عن القتال؟ قيل: يا رسول الله خالد ابن الوليد قوتل، ولو لم يُقاتَل ما قاتل. فقال رسول الله: قضى الله خيراً**). ولم يُقتل من المسلمين أحد إلا رجلان أخطئا طريقهما فسلكا غيرها فقُتلا.

وقد أمر النبي باستثناء بعض الأشخاص، وحكم بقتلهم ولو تحت أستار الكعبة، ولكن اختلف المؤرخون في عددهم وأسمائهم، ومن بينهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صبابة الليثي، وعبدالله بن هلال بن خطل الأدرمي، وأوصل بعض المؤرخين عددهم إلى ما يزيد على العشرين رجلاً وامرأة.

عبدالله بن سعد بن أبي سرح القرشي[2]: سبب هدر دمه أنه ارتد عن الإسلام، وكان قبل ذلك يكتب الوحي للنبي، فيتلاعب فما يكتب. روى ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ**﴾[3]، قال: (**نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي أسلم وكان يكتب للنبي «صلى الله عليه وسلم» فكان إذا أملى عليه «سميعاً عليماً» كتب «عليماً حكيماً»، وإذا قال «عليماً حكيماً» كتب «سميعاً عليماً». فشك وكفر وقال: إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحي إليّ**)[4].

قال الحلبي في سيرته: (**فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبي دمه، لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة فقال له: يا أخي، استأمن لي رسول الله قبل أن يضرب عنقي. فغيّبه حتى هدأ الناس واطمأونا فاستأمن له، ثم أتى به إلى النبي فأعرض عنه النبي فصار يقول: يا رسول الله أمّنتَه؟ والنبي يُعرض عنه. ثم قال: نعم. فبسط يده فبايعه. فلما خرج عثمان وعبد الله، قال لمن حوله: أعرضتُ عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. وقال لعباد بن بشر وكان نذر إن رأى عبد الله قتله، وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبي يشير إليه أن يقتله، فقال له «صلى الله عليه وسلم»: انتظرتك أن تفي بنذرك. قال: يا رسول الله خفتك، أفلا أومضت إليّ؟ فقال: إنه ليس لنبي أن يومض. وفي رواية: الإيماء خيانة، ليس لنبي أن يوميء. وفي رواية: لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**)[5].

وقد اختُلقت رواية في مقابل هذه الروايات منافية لها تماماً، قال الحلبي في سيرته: (**وقيل إنه أسلم وبايع والنبي**

---

١. البارقة: لمعان السيوف.

٢. أخو الخليفة عثمان بالرضاعة، حيث أرضعته أم عثمان. ولاّه الخليفة عثمان مصر سنة ٢٥هـ وعزل عنها عمرو بن العاص، ففتح أفريقية فأعطاه الخليفة خُمس غنائم الغزوة الأولى، وفي شرح النهج لابن أبي الحديد: (وأعطى عبد الله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب، وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين). ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٩٩.

٣. سورة الأنعام: ٩٣.

٤. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ح ١٣٥٥٦.

٥. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ١٣٠.

«صلى الله عليه وسلم» بمرّ الظهران، وصار يستحي من مقابلته «صلى الله عليه وسلم» فقال لعثمان: أما بايعته وأمَّنته؟ قال بلى، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحي منك، قال: الإسلام يجبّ ما قبله. وأخبره عثمان «رضي الله عنه» بذلك، ومع ذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي «صلى الله عليه وسلم» يجيء معهم ولا يجيء إليه منفرداً)[1].

عبدالله بن هلال بن خطل: أمر النبي «صلى الله عليه وآله» بقتله لأنه كان ممن قَدِم المدينة قبل فتح مكة وأسلم، وأبدل النبي اسمه من عبد العزى إلى عبد الله، وبعثه لأخذ الصدقة، وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه، فنزل منزلاً فغدر بالأنصاري وارتد مشركاً، وصار يهجو النبي في شعره، ويأمر قينتيه بغناء ذلك الشعر.

مقيس بن ضبابة: أمر بقتله لأنه كان قد أتى النبي «صلى الله عليه وآله» مسلماً طالباً ديّةَ أخيه هشام بن ضبابة، قتله رجل من الأنصار في غزوة ذي قَرد خطأ يظنه من العدو، ودفع له النبي دية أخيه، ثم إنه عدا على الأنصاري قاتل أخيه فقتله بعد أن أخذ الدية، ثم لحق بمكة مرتداً.

غزوة ذي قرد وتُعرف بغزوة الغابة أيضاً عام ٦هـ، وهي أول غزوة غزاها رسول الله بعد الحديبية، وقبل خيبر. كانت حركة مطاردة ضد فصيل من بني فزارة مكون من ٤٠ راكباً وعلى رأسهم عيينة بن حصن الفزاري مع جماعة من غطفان، كانوا قد أغاروا على لقاح ـ النوق ذوات الحمل واللبن معاً ـ كانت للرسول بمنطقة الغابة، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد.

* صفة دخول النبي مكة :

دخل النبي مكة وهو راكب ناقته، في تواضع حامداً شاكراً الله، (حتى أن عثنونه ـ وهو طرف لحيته ـ ليمس مَوْرِك رحله[2] مما يطأطئ رأسه خضعاناً لله «عزوجل»، ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق)[3].

وروى الدياربكري: (دخل رسول الله مكة حين ارتفعت الشمس على ناقته القصواء.. وقد طأطأ لله وهو يقرأ سورة الفتح)[4].

وروى الواقدي: (عن جابر بن عبد الله، قال: كنت ممن لزم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر، فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة، ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبته فقال: هذا منزلنا يا جابر، حيث تقاسَمت علينا قريشٌ في كُفرها. قال جابر: فذكرت حديثاً كنت

---

١. الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ج٣، ص ١٣٠.
٢. مورك الرحل: الموضع الذي يُثني الراكب رجلَه عليه قدام واسطة الرحل إذا ملّ من الركوب.
٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٣٧٧.
٤. الدياربكري: تاريخ الخميس، ج٢، ص٨٤.

أسمعه منه «صلى الله عليه وسلم» قبل ذلك بالمدينة: منزلنا غداً ـ إن شاء الله إذا فتح الله علينا مكة ـ في الخَيْف[1] حين تقاسموا عليّ الكفر. وكنا بالأبطح وجاه شِعب أبي طالب حيث حُصر رسول الله وبنو هاشم ثلاث سنين)[2].

وعن أبي مسعود أن رجلاً كلم النبي «صلى الله عليه وآله» يوم الفتح فأخذته الرعدة فقال النبي: **(هوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)[3]**. ثم ضُربت لرسول الله قبة من أدم بالحجون.

وقد تجنب النبي أن يعطي أي انطباع عن أن فتح مكة يمثل حالة من الاحتلال والتعالي على المهزوم، على خلاف ما يصنعه المنتصرون في المعارك والفاتحون للبلاد، ولربما يكون ذلك لمزيد من تهيئة النفوس للدخول في الإسلام. روى الواقدي: **(عن أبي رافع، قال: قيل للنبي «صلى الله عليه وسلم»: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ قال: فهل ترك لنا عقيلٌ منزلاً؟ وكان عقيل قد باع منزل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة. فقيل لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منازلك. فأبى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وقال: لا أدخل البيوت. فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون)[4]**. ويرى البعض أن امتناع النبي اتخاذ بيت ثابت مقراً له واستقراره في الخيمة طوال مدة بقائه في مكة المكرمة إشارة بليغة إلى الأنصار أنه لا ينوي العودة للسكنى في مكة المكرمة، إذ أن الأنصار كانوا في قلق عميق من هذه المسألة.

روى ابن منظور أن النبي: **(انطلق حتى أتى الصفا، فعلا منه حتى يرى البيت، وجعل يحمد الله ويدعوه، والأنصار عنده يقولون: أما الرجل فأدركَتْه رغبته في قريتِه ورأفته بعشيرته[5]، وجاء الوحي، وكان الوحي إذا جاء لم يَخْفَ علينا، فلما رُفع الوحي قال: يا معشر الأنصار، قلتم: أمّا الرجل فأدركته رغبته في قريته، ورأفته بعشيرته، كلا. فما اسمي إذاً؟ [6] كلا. إني عبد الله ورسوله، المحيا محياكم، والممات مماتكم. فأقبلوا يبكون وقالوا: يا رسول الله، والله ما قلنا إلا لضَنٍّ بالله وبرسوله [7] فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إن الله ورسوله**

---

١. الخيف: ما انحدر من غِلظِ الجبل وارتفع عن مَسِيل الماء، وفي منى مسجد يحمل هذا الاسم.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٦.

٣. السيوطي: الخصائص الكبرى، ص٤١١.

٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٦.

٥. قريته: مكة. عشيرته: قريش.

٦. أي أن اسمه «محمد» ومشتق من «الحمد»، أو أن المقصود دلالة العبارة اللاحقة: «إني عبدالله ورسوله»، وأن قراراته تدور مدار هذين العناوين، لا مدار العناوين القبلية والعشائرية. ولم ترد هذه العبارة في نص آخر، بل جاءت هكذا: «يا معشر الأنصار. قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته. قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا إني عبدالله ورسوله هاجرتُ إلى الله وإليكم».

٧. الضن: الحرص على الشيء.

يصدقانكم ويعذرانكم. وزاد في حديث آخر قال: فوالله ما منهم من أحد إلا مَن بلَّ نحره بالدموع من عينيه «رضي الله عنهم»[1].

❋ قصة أم هانيء بنت أبي طالب :

كانت أم هانيء بنت أبي طالب زوجة هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، وفي يوم الفتح دخل عليها حموان لها، عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، والحارث بن هشام، فاستجارا بها [2] قالت أم هانئ فهما عندي إذ دخل أخوها عليٌّ «عليه السلام» فارساً، وقد غطى الحديد وجهه، فلم تعرفه فقالت له: (**أنا بنت عم رسول الله**). فأسفر الإمام عن وجهه، فإذا علي. فقالت: (**أخي؟**) فاعتنقتْه وسلّمت عليه، ونظر الإمام إلى الرجلين فشَهر السيف عليهما. فقالت: (**أخي من بين الناس يصنع بي هذا؟**) وألقت عليهما ثوباً للدلالة على أنهما في جوارها وتحت حمايتها، فقال: (**تجيرين المشركين؟ فقالت وقد وقفت أمامهما: والله لتبدأن بي قبلهما**). فخرج الإمام فبادرت إلى إغلاق الباب، ثم ذهبت إلى خباء رسول الله بالبطحاء فلم تجده، ووجدت فيه فاطمة «عليها السلام» فقالت لها وهي تشتكي: (**ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ أجرتُ حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما**). لم تختلف ردة فعل الزهراء «عليها السلام» عن زوجها تجاه الرجلين فقالت: (**تجيرين المشركين؟**) وفي الأثناء طلع رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعليه آثار الغبار فقال: (**مرحباً بفاختة أم هانئ. فقالت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أنفلت منه، أجرْتُ حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما. فقال رسول الله: ما كان ذاك، قد أمّنّا من أمّنتِ، وأجرنا من أجرتِ. ثم أمر فاطمة فسكبت له غسلاً فاغتسل ثم صلى ثمان ركعات في ثوب واحد ملتحفاً به، وذلك ضحى في فتح مكة**)[3].

❋ المنظر المهيب :

ثم إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» دعا براحلته القصواء فأُدنيت إلى باب قبته ودعا للبس السلاح والمِغفر على رأسه وقد صف له الناس، فركب براحلته والخيل تمعج بين الخندمة إلى الحجون، ولما انتهى إلى الكعبة ورآها تقدم راكباً فاستلم الركن، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، فرجّعوا التكبير حتى ارتجّت مكة تكبيراً، فأخذ رسول الله يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون. ثم طاف رسول الله بالبيت على راحلته آخذاً بزمامها محمد بن مسلمة، وحول الكعبة ٣٦٠ صنماً متبّتة بالرصاص، وكان هُبل[4] أكبرها، وهو وجاه الكعبة

---

١. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج٤، ص ١٧٤.

٢. قيل أنهما من المهدورة دماؤهم أو لعلهم من الذين أصروا على القتال ولم يصمدا.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٦.

٤. كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان.

على بابها، فجعل رسول الله كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: (**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**)، وتم تحطيم الأصنام.. فطاف رسول الله سبعاً على راحلته يستلم الركن الأسود بمحجنه في كل طواف، فلما فرغ من سبعة أشواط نزل عن راحلته، وانتهى إلى مقام إبراهيم «عليه السلام» ـ وهو يومئذ لاصق بالكعبة ـ والدرع عليه والمغفر وعمامته بين كتفيه فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فاطّلع فيها، وقال: (**لولا أن يُغلب بنو عبدالمطلب لنزعت منها دلواً**)[1]، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلوا فشرب منه.

ثم أمر النبي بهُبل فكُسر وهو واقف عليه، فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب: (**يا أبا سفيان، قد كُسر هبل، أما إنك قد كنت منه يوم أحُد في غرور حين تزعم أنه قد أنعَم**[2]. **فقال أبو سفيان: دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان**)[3].

عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» قال ضمن كلامه عن المأزمين: (**إنه موضع عُبد فيه الأصنام، ومنه أخِذ الحجَر الذي نُحت منه هبل الذي رمى به علي «عليه السلام» من ظهر الكعبة لما علا ظهر رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأمر به فدُفن عند باب بني شيبة، فصار الدخول إلى المسجد من باب بني شيبة سُنّة لأجل ذلك**)[4]. وقد ذكر الفقهاء استحباب دخول المسجد الحرام من هذا الباب... ولا أثر له اليوم.

* بنوشيبة ومفاتيح الكعبة:

ثم انصرف رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجلس ناحيةً من المسجد والناس حوله، ثم أرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة [5] يأتيه بمفتاح الكعبة، فخرج عثمان إلى أمه وهي بنت شيبة، فطلب منها المفتاح وهو يومئذ عندها، فقالت: (**أعيذك بالله أن تكون الذي تذهب مأثرة قومه على يديه. قال: فوالله لتدفعنه إلي أو ليأتينك غيري فيأخذه منك**) تمنّعت الأم عن تسليم المفتاح، فبينا هم على ذلك إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار، وعمر رافعٌ صوته حين رأى إبطاء عثمان: (**يا عثمان اخرج إليّ. فقالت أمه: يا بني خذ المفتاح، فأن تأخذه أنت**

---

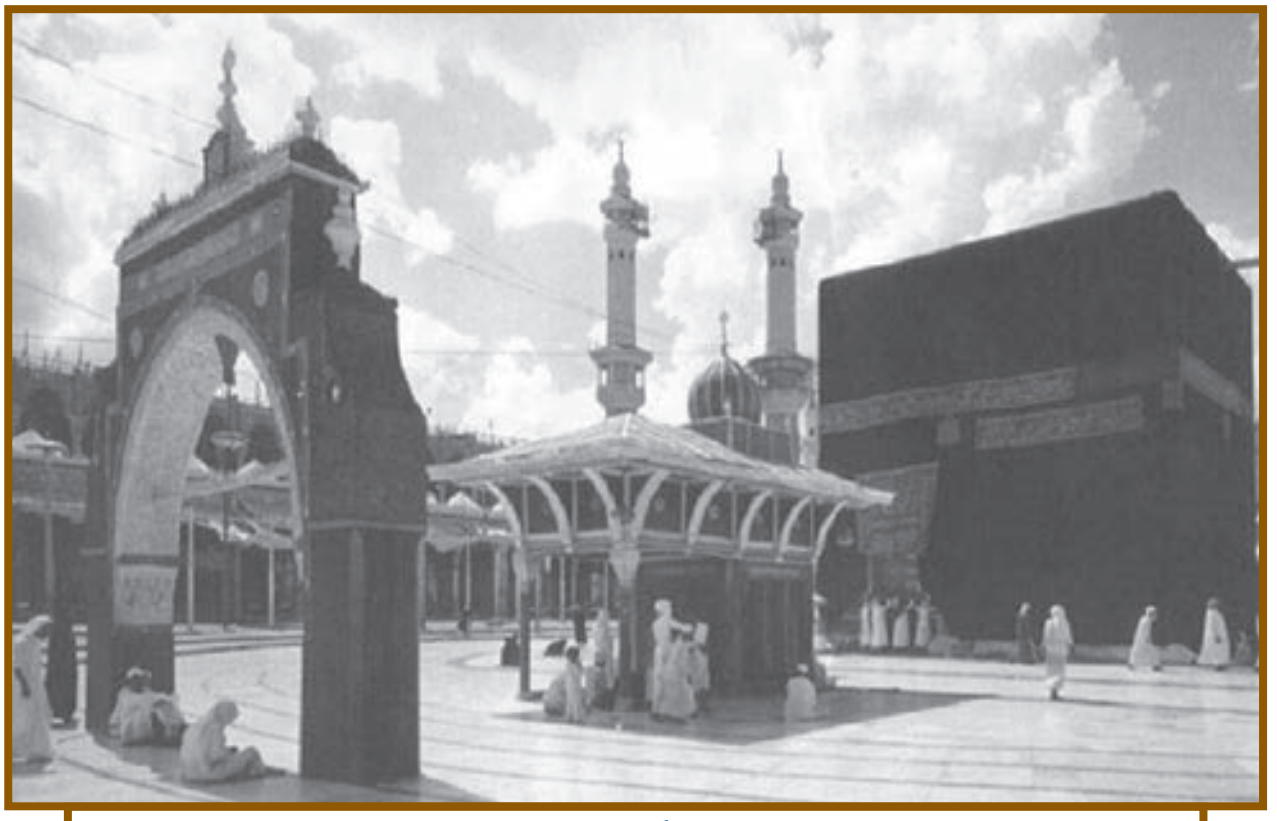
١. لعل قصد النبي أنه لو نزع الدلو بنفسه فإن الناس سيعتبرون ذلك إشارة إلى نزع السقاية من العباس بحيث يكون لكل أحد السقاية، وهذا ما كان يتحاشاه النبي في كثير مما نقرؤه في طريقة تعامله الحساسة مع امتيازات القرشيين وممتلكاتهم وغير ذلك.

٢. كان أبوسفيان يوم أحُد يرتجز: أعلُ هبل أعلُ هبل. فقال رسول الله: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال: إن العزى لنا ولا عزى لكم. قال رسول الله: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. ثم قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، يومٌ لنا ويومٌ علينا، ويوم نُساء، ويوم نُسَرّ، حنظلة بحنظلة ـ أي حنظلة غسيل الملائكة الشهيد بأحُد بحنظلة ابنه المقتول ببدر ـ وفلان بفلان. فقال رسول الله: لا سواء، أما قتلانا فأحياء يُرزقون، وقتلاكم في النار يُعذّبون.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٧.

٤. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح١٧٥٧٤.

٥. هاجر مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم قبل فتح مكة.



يظهر القوس في الصورة حيث موضع باب بني شيبة وأمامه حجرة مقام إبراهيم «عليه السلام» كما كان في الماضي.

أحب إليّ من أن يأخذه تيم وعدي). فأخذه عثمان فأتى رسول الله فناوله إياه، فبسط العباس بن عبد المطلب يده محاولاً الاستفادة من الفرصة المواتية وقال: (**يا نبي الله، بأبي أنت، اجمع لنا الحجابة والسقاية. فقال رسول الله: أعطيكم ما ترزءون فيه**[١] **ولا أعطيكم ما ترزءون منه**[٢])[٣]. وعن ابن عباس أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (**خذوها يا بني طلحة**[٤] **خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم**)[٥].

❋ محو الصور ودخول النبي الكعبة:

وقد روى الواقدي رواية محو الصور في جوف الكعبة بنحوين، الأول أن النبي «صلى الله عليه وآله» بعث

١. أي تعطون منه فينقص مما عندكم.

٢. بحيث تأخذون منه وتستفيدون.

٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٨.

٤. ولعل الصحيح «بني أبي طلحة» كما في نص آخر، فبنو شيبة يقال لهم بنو أبي طلحة أيضاً نسبة لجدهم، وهم قبيلة من عبد الدار بن قصي من قريش، توارثوا سدانة الكعبة من قِبَل جدهم عبد الدار الذي قيل أنه ابتاع أبوه قصي مفاتيح الكعبة من أبي غبشان الخزاعي، وانتهت المفاتيح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الذي قُتل أبوه كافراً في يوم أُحد على يد أمير المؤمنين علي «عليه السلام» مبارزة. وحجابة الكعبة يتوارثها بنو شيبة إلى اليوم، ويقال لهم آل شيبي.

٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص١٠.

الخليفة عمر بن الخطاب من البطحاء ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يتقدم فيفتح البيت فلا يدع فيه صورة إلا محاها، ولا تمثالاً، إلا صورة إبراهيم. فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخاً كبيراً يستقسم بالأزلام[1]. وأما النحو الثاني أنه أمره ألا يدع صورة إلا محاها، فترك عمر صورة إبراهيم، فلما دخل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رأى صورة إبراهيم، فقال: (**يا عمر، ألم آمرك ألا تدع فيها صورة إلا محوتها؟ فقال عمر: كانت صورة إبراهيم. قال: فامحها**).

ثم أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالكعبة فغُلّقت عليه ومعه أسامة بن زيد وبلال بن رباح وعثمان بن طلحة. فمكث فيها ما شاء الله، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة. قال ابن عمر: (**فسألت بلالاً: كيف صنع النبي «صلى الله عليه وآله» حين دخل البيت؟ قال: جعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة وراءه. ثم صلى ركعتين ثم خرج رسول الله والمفتاح في يده ووقف على الباب خالد بن الوليد يذب الناس عن الباب حتى خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**)[2].

ذكر الفقهاء أنه يستحب دخول الكعبة للحاج لأول مرة، ويستحبّ له أن يغتسل قبل دخوله وأن يقول عند دخوله: «اللهُمَّ إنَّكَ قُلتَ: وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمناً، فَآمِنّي مِنْ عَذاب النَّار». ثمّ يصلّي ركعتين بين الاسطوانتين على الرخامة الحمراء، يقرأ بعد الفاتحة في الركعة الأُولى سورة حم السجدة، وفي الثانية بعد الفاتحة خمساً وخمسين آية. وأن يصلّي في كلّ زاوية من زوايا البيت، ثم يدعو بالدعاء المشهور: «اللهم مَن تهيأ أوتعبّأ أو أعد أو استعد لوفادة إلى مخلوق....». ويستحبّ التكبير ثلاثاً عند خروجه من الكعبة وأن يقول: «اللهم لا تجهَد بلاءنا، ربنا ولا تُشمت بنا أعداءنا، فإنك أنت الضار النافع»».

* خطبة النبي :

خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» من البيت فوقف على الباب وأخذ بعضادتيه، فأشرف على الناس وبيده المفتاح ثم جعله في كمه، وجلس الناس حول الكعبة، فقال: (**الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قَدَرْت. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: فإني أقول كما قال أخي يوسف ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3] ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة**

---

١. هي الأعواد التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها على الميسر ويضعونها في وعاء فإذا أرادوا الاستقسام أدخلوا أيديهم في ذلك الوعاء وسحب كل واحد سهماً، لتكون إحداها المميزة من نصيب الخاسر.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٨.

٣. سورة يوسف: ٩٢. و ذكر ابن إسحق أن النبي قال بعد ذلك: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

البيت وسقاية الحاج... إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبّرها بآبائها، كلّكم من آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد كائن بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار ـ يقصرها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بيده هكذا ـ لا ينفر صيدها ولا يعضد عضاهها [1] ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يُختلَى خلاها. فقال العباس وكان شيخاً مجرّباً: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنه لا بد منه، إنه للقبر وطهور البيوت[2] قال فسكت رسول الله ساعة ثم قال: إلا الإذخر فإنه حلال.... إلخ الخطبة)[3]. فخرج الناس كأنما نُشروا من القبور.

* أمير المؤمنين على ظهر الكعبة:

روى الحاكم في المستدرك: **(عن علي بن أبي طالب «عليه السلام» قال: انطلق بي رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى أتى بي الكعبة فقال لي: اجلس. فجلست إلى جنب الكعبة، فصعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» بمنكبي، ثم قال لي: انهض. فنهضت، فلما رأى ضعفي تحته قال لي: اجلس. فنزلت وجلست، ثم قال لي: يا علي اصعد على منكبي. فصعدت على منكبيه، ثم نهض بي رسول الله «صلى الله عليه وآله» فلما نهض بي خُيّل إلي لو شئت نلت أفق السماء، فصعدت فوق الكعبة وتنحى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال لي: ألْقِ صنمهم الأكبر صنم قريش، وكان من نحاس موتّداً بأوتاد من حديد إلى الأرض، فقال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: عالجْه. ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول لي: إيه إيه جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فقال: اقذفه، فقذفته فتكسر وترديت من فوق الكعبة، فانطلقت أنا والنبي «صلى الله عليه وآله» نسعى وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم، قال علي: فما صُعد به حتى الساعة)**[4].

وفي ذيل الرواية ما لا يُقبل، فإن كان المقصود من السعي هو السعي بين الصفا والمروة، فما موقعه، وهما لم يأتيا لأداء عمرة أو حج، وإن كان المراد المعنى اللغوي أي المشي السريع خشية من قريش ـ وهو الأقرب إلى الصورة ـ فما هو موقع الخشية منهم في ذلك الموقف الذي كان فيه النبي منتصراً وحوله الآلاف من أصحابه؟! هذا علاوة على غرابة الجملة الأخيرة: «**قال علي: فما صُعد به حتى الساعة**» فإن كان المقصود هو الصنم كما هو ظاهر العبارة، فمن الذي سيُصعده من جديد بعد الفتح؟

---

١. العضاه نوع من الشجر، والعضد القطع.
٢. الإِذْخِرُ حشيش طيب الريح، واحدتها إِذْخِرَةٌ.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٣٩.
٤. الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ح ٣٤٣٩.

❊ الخطبة الثانية :

ذكر الواقدي أن النبي أباح لخزاعة ساعة من النهار لقتل من شاءوا من بني بكر! قال: (**ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» : يا معشر المسلمين كفّوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر. فخبطوهم ساعة وهي الساعة التي أحِلّت لرسول الله لم تحل لأحد قبله**)[1].

ولا يصح ذلك، ولا يتوافق مع سياسة النبي، ولعل الصحيح هو ما ذكره مؤرخون آخرون حيث قالوا أن بعض رجال خزاعة تصوروا أن حرمة مكة قد أزيلت بعد أن غزاها رسول الله، ولهذا أباحوا لأنفسهم قتل أحد مناوئيهم، فعدَت في اليوم الثاني من فتح مكة على رجل من هذيل فقتلته وهو في مكة، فسمع بذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله» فلم يقرّهم على ذلك، رغم أن خزاعة حليفة رسول الله، وسعى أن يصحح للناس الخطأ الذي توهمته خزاعة.

ومن هنا قام فيهم خطيباً فقال: (**أيها الناس إن الله قد حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من النهار، ثم رجعَت كحرمتها بالأمس. فليبلغ شاهدكم غائبكم. فإن قال قائل قد قاتل فيها رسول الله فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلّها لكم. يا مشعر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد والله كثر القتل إن نفع، وقد قتلتم هذا القتيل، والله لأدينّه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بالخيار، إن شاؤوا فدمُ قتيلهم، وإن شاؤوا فعقلُه**[2])[3].

والخطبة قريبة في المضمون من التي ذكرناها مسبقاً في أحداث اليوم الأول، ويحتمل أن الأمر اختلط على المؤرخين.

سعى النبي إلى ترسيخ القيم الإسلامية الاجتماعية في بداية الفتح، وتجلى ذلك في خطبته الأولى، لتُدفن بذلك تلك المآثر الجاهلية العتيقة من التفاخر بالآباء والتباهي بالقومية والاعتداد بالفوارق. كما اعتنى عناية خاصة بالجانب المعنوي في تحقيق النصر على الأعداء، وتقليل الخسائر، بل وتجنب القتال فليس هو الهدف، بل وسيلة لتمكين دين الله. وقد تجلت الرحمة الإلهية والرأفة النبوية والعفو عند المقدرة في فتح مكة. وقارن بين تصرف النبي وبين تصرف الحكام الفاتحين ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

١. المغازي: الواقدي: ج١، ص ٣٤٠.
٢. أي هما بالخيار بين القصاص والديّة.
٣. ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٣، ص ٥٧٧.

* البيعة العامة :

بعد انتهاء أحداث الفتح قدمت أفواج من أهل مكة لتبايع النبي على الإسلام، روى البيهقي في دلائل النبوة أن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (**جلس عند قرن مسفلة، قال: وقرن مسفلة الذي إليه بيوت ابن أبي ثمامة، وهو دار ابن سمرة وما حولها. قال الأسود: فرأيت النبي «صلى الله عليه وسلم» جلس إليه فجاءه الناس الصغار والكبار والرجال والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة. قلت: ما الشهادة ؟ قال: أخبرني محمد عن الأسود أنه بايعهم على الإيمان وشهادة أن لا إله إلا الله**)[1].

وكانت للنساء بيعة خاصة على الإسلام، وكانت هند بنت عتبة فيمن وفد منهن، وفي ذلك روايتان على الأقل، أما الأولى فقد رواها الواقدي عن عبدالله بن الزبير قال: (**لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة، وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة بن أبي جهل، وأسلمت امرأة صفوان بن أمية، البغوم بنت المعذل من كنانة، وأسلمت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وأسلمت هند بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص، في عشر نسوة من قريش. فأتين رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالأبطح فبايعنه فدخلن عليه وعنده زوجته وابنته فاطمة ونساء من نساء بني عبد المطلب، فتكلمت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتمسني رحمتك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدِّقة. ثم كشفت عن نقابها فقالت: هند بنت عتبة. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: مرحباً بك. فقالت: والله يا رسول الله، ما على الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يعزّوا من أهل خبائك. فقال رسول الله: وزيادة أيضا. ثم قرأ رسول الله عليهن القرآن وبايعهن فقالت هند من بينهن: يا رسول الله نماسحك؟ فقال رسول الله: إني لا أصافح النساء. إنّ قَوْلي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة. ويقال: وضع على يده ثوباً ثم مسحن على يده يومئذ. ويقال: كان يؤتى بقدح من ماء فيُدخل يده فيه ثم يدفعه إليهن فيدخلن أيديهن فيه. والقول الأول أثبتها عندنا «إني لا أصافح النساء»**)[2].

أما النص الآخر فنجده في تاريخ ابن كثير، قال: (**فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة بحديثها، لما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بحدثها ذلك، فلما دنين من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ليبايعهن قال: بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً. فقالت هن : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال. قال: ولا تسرقن. فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً لي أم لا؟ فقال أبو سفيان،**

١. البيهقي: دلائل النبوة، ج٥، ص ١٤٣.
٢. المغازي: الواقدي: ج١، ص ٣٤٤.

وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبتِ فيما مضى فأنت منه في حل. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك. ثم قال: ولا تزنين. فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟! ثم قال: ولا تقتلن أولادكن. قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقتلتَهم ببدر كباراً، فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[1] ثم قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. ثم قال: ولا تعصينني. فقالت: في معروف. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعمر: بايعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم. فبايعهن عمر، وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لا يصافح النساء، ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرَم منه)[2].

ولا يخفى الفرق بين النصين فيما يخص كلام هند وردة فعل النبي، وكذلك ردات فعلها مع كلماته، وهي تكشف عن حالة من الكراهية للأمر على خلاف النص الأول الذي يظهرها بمظهر الصادقة، ولا ننسى ردة فعلها قبل يوم أو يومين حين دخول أبي سفيان مكة محذراً، إلا إذا قلنا أن الخوف قد أخذ منها كل مأخذ فأرادت الأمان بأية طريقة. أما النص الثاني فيظهرها بمظهر المرأة سليطة اللسان، المظهرة لانزعاجها من كلام النبي وكأنها ما زالت تعيش حالة من الرغبة في التحدي، ولذا استنكرت أن تزني الحرة، وقتل أهلها المشركين، وقيّدت طاعتهن للنبي في عنوان المعروف فقط، وكأنه سيأمر بالمنكر!!

❊ الدخول في الإسلام :

دخل الناس في الإسلام بأعداد هائلة بعد فتح مكة، بينما كانوا قبل ذلك يدخلون بأعداد محدودة جداً. وقد لحق فتح مكة وغزوة حنين والطائف دخول العرب في دين الله أفواجاً، وسُمّي العام التاسع للهجرة عام الوفود. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[3].

والنتيجة الأخرى المهمة لفتح مكة أنه كانت لقريش المشركة السيادة على كثير من العرب بحكم مكانة مكة والكعبة في نفوسهم، وكان لها الثقل الأكبر في مجريات الأحداث التي واجهها المسلمون، وكانت القبائل العربية الأخرى تتابع نتائج هذا الصراع، وما دامت قريش قوية فهذا يعني أن ساحة الصراع غير محسومة لطرف، وأن قريشاً قد تحقق انتصارات لاحقة في المعارك، أو قد تقضي تماماً على الإسلام ونبيه. ولكن فتح مكة أنهى ذلك كله وحسم الأمر لصالح الإسلام، وانتهت بذلك سيادة قريش وزعامتها.

---

١. وفي نص: استغرق.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٦١٦ ـ ٦١٨.
٣. سورة النصر: ١-٣.

غزوة
حُنين والطائف



غزوة حُنين وأوطاس والطائف

يمكن اعتبار هذه الغزوة في الواقع ثلاث غزوات متتالية ومترابطة، وقعت في العام الثامن للهجرة، وهي حنين وأوطاس والطائف، وإن كانت الأولى هي الأبرز بينها بلحاظ أحداثها ونتائجها وتخليدها بالنص القرآني كما سنلاحظ ذلك لاحقاً.

وهذه الغزوات مليئة بالأحداث، كثيرة العبر، وبعض من الشخصيات الوارد ذكرها في الأحداث سيكون لهم دور حساس بعد رحيل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو ما سنتطرق إليه في وقته.

❋ تحديد زمني ومكاني :

في العشرين من شهر رمضان عام ٨ هـ فتح المسلمون مكة المكرمة، فمكث النبي «صلى الله عليه وآله» بها ١٥ يوماً عمل خلالها على تنظيم أمورها الدعوية والإدارية، فقام بتعيين معاذ ابن جبل الأنصاري ليعلّم الناس الإسلام، وعيّن عتاب بن أسيد الأموي لإدارة الأمور بمكة مقابل درهم ـ أو درهمين ـ لكل يوم. ثم غادرها باتجاه وادي حنين في الخامس أو السادس من شوال، وبما أن الطريق استغرق ثلاث مراحل على ما ذكره المؤرخون، فلابد من القول بأن أحداث المعركة وقعت ما بين التاسع والعاشر من شهر شوال من العام الهجري الثامن، الموافق ٣٠ أو ٣١ يناير عام ٦٣٠ م.

يقع وادي حنين على بُعد ٢٦ كم شرق مكة ، ويعرف اليوم باسم «الشرائع» ومن الغريب أن يستغرق المسير من مكة إلى حُنين ثلاث مراحل، بينما يمكن للقافلة أن تقطع ذات المسافة في مرحلة واحدة فقط. ولربما قيل أن ذلك يعود إلى وعورة الطريق الجبلية، وثقل حركة الآلاف من المقاتلين وهم بين

معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، من فقهاء الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وبعثه النبي بعد غزوة تبوك إلى اليمن ليعلِّم الناس القرآن وشرائع الإسلام. لما أصيب أبو عبيدة في طاعون «عمواس»، وعمواس قرية في فلسطين انتشر منها الوباء، استخلف على الناس معاذ بن جبل، ثم أصيب بدوره بهذا الطاعون ومات سنة ١٨ هـ وله ٣٨ سنة.

عَتّاب بن أَسِيد بن أبي العيص بن أمية، أسرَّ يوم فتح مكة لأبي سفيان والحارث بن هشام: (لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا)، فأخبره النبي بما قال! فقال: (نشهد أنك رسول الله، والله ما اطّلع على هذا أحد). بقي والياً على مكة إلى أن توفي في يوم وفاة أبي بكر.



راكب وراجل، أو أن تجميع القوات وترتيب أمورها ومن ثم الحركة والوصول بأجمعها استغرقت هذه المدة، وهذا أوفق، والله أعلم.

❊ تحديد طرفي المواجهات :

شكّل المعسكر المعادي للمسلمين تحالفاً من عدة قبائل على رأسها قبيلتان كبيرتان:

١. قبيلة هوازن، وتنقسم إلى قسمين، قسم حجازي يسمى «عَجز هوازن»، وموطنهم في الطائف وما حولها. وقسم نجدي يُعرفون ببني عامر بن صعصعة، وهو يشمل قبائل مثل بني عقيل وبني نمير.

٢. قبيلة ثَقيف، وهم في الأصل بطن من هوازن نفسها، ويُنسبون إلى أب لُقِّب بهذا الاسم، وقيل أن اسمه قسي بن منبه بن بكر بن هوازن، وموطنهم مدينة الطائف.

أما المعسكر الآخر فقد ضم عدة أطراف:

١. المهاجرون والأنصار وقوامهم عشرة آلاف مقاتل جاءوا لفتح مكة.

٢. المكيون من الطلقاء المشركين، وممن أسلم منهم حديثاً على إثر فتح مكة، وقوامهم ألفا مقاتل.

٣. قبيلة بني سليم التي صاحبت النبي لفتح مكة، في ألف مقاتل.

٤. قبيلة مزينة: التي صاحبت النبي لفتح مكة، في ألف مقاتل[١].

١. هناك رأي آخر بأن أفراد قبيلتي بني سليم ومزينة كانوا ضمن العشرة آلاف مقاتل ممن شاركوا في فتح مكة، فيرتد العدد ليكون١٢ ألفاً.



❋ أسباب الغزوة :

بالرجوع إلـى المصادر التاريخية نجد أنفسنا أمام احتمالين:

الاحتمال الأول: أن المعسكر المعادي للمسلمين هم البادؤون بالحرب، وذلك بهدف القضاء على شوكة الإسلام بعد أن عجزت قريش عن تحقيق ذلك، وتم الفتح بكل يسر ودون مقاومة تُذكر.

الاحتمال الثاني: أن النبي «صلى الله عليه وآله» حينما خرج من المدينة نحو مكة لفتحها، أظهر بايحاءات معينة أنه كان يريد أن يغزو ديار هوازن تأديباً لها لمشاركتها في التحالفات السابقة مع قريش كما حصل في غزوة الخندق ولعدائها المستمر للمسلمين وإيذائها لهم بصور شتّى... فبلغهم ذلك، فأعدوا العُدّة لقتاله قبل أن يباغتهم، فلما فتح النبي مكة تحركت هوازن وثقيف ومن والاها بنيّة المبادرة بالغزو.

❋ إجراءات النبي :

قبيل تحرك قوات النبي اتخذ «صلى الله عليه وآله» عدة اجراءات من أهمها:

١. إرسال عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي لتقصّي الأمور، حيث أمره النبي أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعْلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق ابن أبي حدرد، فأقام فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من الحرب، وسمع من قائدهم مالك بن عوف النصري ما هم عليه. ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر.

٢. ذُكر للنبي أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: **(يا أبا أمية،**

أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً. فقال صفوان: أغصْباً يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤدّيها إليك. قال: ليس بهذا بأس)[1]. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.

٣. جمع النبي قواته ورغّبهم في الجهاد ووعدهم النصر، وأن الله قد وعده أن يُغنمه أموالهم ونساءهم وذراريهم. فرغب الناس وخرجوا على راياتهم، وعقد اللواء الأكبر ودفعه إلى أميرالمؤمنين علي، وكل من دخل مكة براية حين فتحها أمره أن يحملها.

❋ تحذير دُريد :

خرجت هوازن وثقيف بمعيّة ما تملكه من الأنعام والأموال والنساء والذراري، وكان ذلك تدبيراً من القائد الشاب مالك بن عوف، يهدف من ورائه إيجاد الدافع لقواته للقتال حتى الرمق الأخير، فإن لم يكن صمودهم في القتال لأجل العقيدة والولاء للقبيلة، فليكن لأجل الممتلكات والأهل والولد.

دريد بن الصمة ـ واسمه معاوية الأصغر ـ بن الحارث بن معاوية الأكبر الجشمي، وجشم من هوازن. كان سيد بني جشم فارساً شهيراً ومن شعراء الجاهلية. شهد حُنين وقد تجاوز المائة من عمره، وقُتل فيها.

ولما وصل الجمع أرضاً تعرف بـ «أوطاس» لمس دُريد بن الصمّة الأرض بيده فقال: **(في أي واد أنتم؟ قالوا: بوادي أوطاس. قال: نِعم مجال خيل، لا حزَن ضرس ولا سهل دهس**[2]**)**. ثم أبدى انزعاجه من اصطحاب الأموال والنساء والذراري فقال: **(يا مالك، إنك أصبحت رئيس قوم وإنك تقاتل رجلاً كريماً، ولم تصنع في تقدمة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ويحك وهل يلوي المنهزم على شيء؟ اردد بيضة هوازن إلى عُليا بلادهم وممتَنع محالهم، والقَ الرجال على متون الخيل، فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه وفرسه، فإن كانت لك، لحق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك لا تكون قد فُضحت في أهلك وعيالك**[3]**. فقال له مالك: إنك قد كَبُرت وكَبُر علمُك. فلم يقبل من دريد)**[4].

❋ ذات أنواط :

روى ابن إسحاق عن الحارث بن مالك، قال: **(خرجنا مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى حُنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فَسِرْنا معه إلى حنين، قال: وكانت كفار قريش ومَن سواهم من العرب لهم شجرة**

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٤٠.
٢. أي أن الأرض ليست مرتفعة وعرة، ولا سهلية ولينة تغوص فيها الأقدام والحوافر.
٣. أي من خلال سبيهم من قبل المسلمين.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٤٦-١٤٧.



عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً. قال: فرأينا ـ ونحن نسير مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ـ سدرةً خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جَنَبات الطريق: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: الله أكبر، قلتم ـ والذي نفس محمد بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1] إنها السُّنَن، لتركبنّ سُنَن مَن كان قبلكم)[2].

❋ إعجاب المسلمين بقوّتهم :

حكى القرآن الكريم شعور بعض المسلمين بالزهو نتيجة الكثرة العددية، قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[3] قال الشامي: (عن أنس «رضي الله عنه» قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل ـ ولفظ البزار: فقال غلام من الأنصار ـ يوم حنين: لن نُغلَب اليوم من قلة... وروى محمد بن عمر عن ابن شهاب الزُّهْري، قال رجل من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لو لقينا بني شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحَد مِن قِلّة. قال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل مكة: أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال حين فصل من مكة إلى حنين ورأى كثرة مَن معه من جنود الله «تعالى»: لن نُغلَب اليوم من قلة. كذا في هذه الرواية. والصحيح أن قائل ذلك غير النبي «صلى الله عليه وسلم» كما سبق.

---

١. سورة الأعراف: ١٣٨.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٤٢.

٣. سورة التوبة: ٢٥.

قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها. وروى محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب «رحمه الله تعالى» أن أبا بكر «رضي الله عنه» قال: يا رسول الله، لن نُغلَب اليوم مِن قِلّة. كذا في هذه الرواية، وبذلك جزم ابن عبد البر)[1]. وفي رواية أن ممن عبّر عن هذا الزهو عباس بن مرداس السلمي حيث أنشد:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... مني رسالة نصح فيه تبيان
أني أظن رسول الله صابحكم ... جيشاً له في فضاء الأرض أركان
فيهم أخوكم سليم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته ... وفي مقدمه أوس وعثمان

قال ابن إسحاق: **(أوس وعثمان: قبيلا مَزْيَنة)**[2].

❋ الاستعدادات الميدانية:

وصلت هوازن وثقيف أولاً إلى وادي حُنين، واتخذت عدة إجراءات عسكرية أهمها:

١. احتلال الهضاب والجبال المشرفة على وادي حنين.

٢. الاستعداد لمباغتة جيش المسلمين بكميات هائلة من النبال من كل جانب لإرباكهم.

٣. إعداد المقاتلين الميدانيين للهجوم بمجرد اختلال صفوف جيش المسلمين وإلحاق الهزيمة به.

❋ خطبة مالك بن عوف:

وقبيل المعركة جمع مالك بن عوف المقاتلين وخطب فيهم قائلاً: **(ليصيّر كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره، واكسروا جفون سيوفكم، واكمنوا في شعاب هذا الوادي، وهذا الوادي، وفي الشجر، فإذا كان في غبش الصبح**[3] **فاحملوا حملة رجل واحد، وهدّوا القوم، فإن محمداً لم يلقَ أحداً يُحسن الحرب)**[4].

❋ المفاجأة الكبرى:

صلى النبي «صلى الله عليه وآله» بالمسلمين صلاة الفجر قبل دخول الوادي، ثم تحركت القوات، وكانت في المقدمة قبيلة بني سليم وأمامهم خالد بن الوليد، وما هي إلا لحظات حتى انهمرت النبال من كل ناحية

١. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٥، ص ٣١٧.
٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٤١-٤٤٢.
٣. أي ظلمة الصبح قبل أن يسفر النور.
٤. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤.

كالمطر، ونجح عاملا المباغتة والظلام في إحداث ارتباك كبير في صفوف الكتيبة الأولى التي سرعان ما ارتدت على أعقابها وهي محصورة بين جبلين، تلاحقها قوات هوازن وثقيف التي بادرت إلى الهجوم من الأمام. وقد أحدث هذا الارتداد حالة من الفوضى والتصادم بين صفوف قوات المسلمين، ولجأ كثير منهم إلى الهروب في كل ناحية، لاسيما مع جهلهم لحقيقة ما جرى في الوادي، والمفاجآت التي ربما يكون العدو قد أعدّها لهم.

ويصف الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري تلك اللحظات قائلاً: **(لما استقبلْنا وادي حُنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حَطوط[1]، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال : وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيّئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحد. وانحاز رسول الله ذات اليمين، ثم قال : أين أيها الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله. قال: فلا شيء[2]. حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس)**[3].

❋ ثبات العشرة :

لم يبق أحد إلا انهزم، وبقي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» يقاتلهم في نفر قليل، أنهاهم كثير من أهل السير إلى عشرة، تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن ابن أم أيمن. قال الشيخ المفيد في تحديد أسماء التسعة الهاشميين: **(ومن ثبت معه من بني هاشم يومئذ وهم ثمانية، أمير المؤمنين تاسعهم: العباس بن عبد المطلب عن يمين رسول الله، والفضل بن العباس بن عبد المطلب عن يساره، وأبو سفيان بن الحارث ممسك بسرجه عند ثفر بغلته[4]، وأمير المؤمنين «عليه السلام» بين يديه يضرب بالسيف، ونوفل بن الحارث، وربيعة ابن الحارث، و عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب حوله. وقد ولت الكافة مدبرين سوى من ذكرناه)**[5].

قال الفضل بن العباس: **(التفت العباس يومئذ وقد أقشع الناس عن بكرة أبيهم، فلم ير علياً فيمن ثبت، فقال: شوهة وبوهة[6]! أو في مثل هذه الحال يرغب ابنُ أبي طالب بنفسه عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم»؟**

١. حطوط: منحدر.
٢. أي لم يستجب أحد لنداء النبي.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٤٢.
٤. ثفر البغلة: السير الذي في مؤخر السرج.
٥. المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ١٤١.
٦. أي ما أقبح هذا الفعل.

وهو صاحبه فيما هو صاحبه؟ ـ يعني المواطن المشهورة له ـ فقلت[١]: نقِّص قولك لابن أخيك، أما تراه في الرّهج[٢]؟ قال: أشعِرْه لي يا بنيّ. قلت ذو كذا، ذو كذا، ذو البردة. قال: فما تلك البرقة؟ قلت: سيفه يرفل به بين الأقران. فقال: برّ ابن برّ، فداه عم وخال. قال: فضرب عليّ يومئذ أربعين مبارِزاً... قال: وكانت ضرباته[٣] منكَرة)[٤].

وكما كان لأم عمارة نسيبة بنت كعب الموقف المشرف يوم أحُد، كان لها موقف مشرّف آخر في حُنين، حيث صارت تحثو في وجوه المنهزمين التراب وتقول: **(أين تفرون؟ عن الله وعن رسوله؟)**[٥].

❊ نداءات النبي :

وفي الأثناء أخذ النبي «صلى الله عليه وآله» يحفّز قواته على العودة إلى ساحة المعركة، وصار ينادي فيهم ويأمر عمه العباس بالنداء فيهم بنداءات مختلفة، منها: **(يا معشر الأنصار إلى أين؟ أنا رسول الله، يا أنصار الله وأنصار رسوله أنا عبدالله ورسوله، أنا النبي لا كَذِب ، أنا ابن عبدالمطلب)**، ثم أمر عمه العباس أن يصعد على مرتفع وينادي: **(يا معشر الأنصار، يا معشر السَّمُرة[٦])** وفي نص آخر: **(اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة، يا أصحاب سورة البقرة)**[٧].

ولما رأى رسول الله «صلى الله عليه وآله» شدة الموقف رفع يده فقال: **(اللهم لك الحمد إليك المشتكى وأنت المستعان. فنزل جبرئيل فقال: يا رسول الله، دعوت بما دعا به موسى حيث فلق له البحر، ونجاه من فرعون)**. ثم قال لأبي سفيان بن الحارث: **(ناولني كفاً من حصى. فناوله فرماه في وجوه المشركين ثم قال: شاهت الوجوه. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إن تُهلك هذه العصابة لم تُعبد، وإن شئت أن لا تُعبد لا تُعبد)**[٨].

❊ مواقف سلبية :

لم يجد أبوسفيان بن حرب فرصة للشماتة بالنبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين أفضل من هذه اللحظات، فقال مستهزئاً: **(لا تنتهي هزيمتهم دون البحر)**. وصرخ كلّدة بن الحنبل، وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خلف، وكان أخاه لأمه، وصفوان يومئذ مشرك: **(ألا بطل السحر اليوم)**. انزعج صفوان من كلام أخيه لا لإيمانه

١. القائل هنا هو ابنه الفضل.
٢. الرهج: الغبار.
٣. وفي بحار الأنوار للمجلسي، ج ٢١، ص ١٧٩: (وكانت ضرباته مبتَكرة) أي يقتل بضربة واحدة لا يثنّيها.
٤. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج ٢، ص ١١-١٢.
٥. القمي: تفسير القرآن، ج١، ص ٢٨٧.
٦. إشارة إلى بيعة الشجرة في الحديبية.
٧. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢، ص ١٣٣.
٨. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٤٩-١٥٠.

بالإسلام ولا غيرة على النبي، بل من منطلق قبلي محض، فقال: (**اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني**[١] **رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن**)[٢].

شيبة بن عثمان الأوقص بن أبي طلحة القرشي العبدري. حاجب الكعبة، كان مشاركاً لابن عمه عثمان بن طلحة في حجابة الكعبة، وحجبة البيت بنو شيبة من ذريته. كان مصعب ابن عمير خاله، قتل الإمام علي أباه يوم أُحُد. توفي ٥٩ هـ.

وعن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال: (**ما كان أحد أبغض إليّ من محمد، وكيف لا يكون ذلك وقد قتل منّا ثمانية، كلٌّ منهم يحمل اللواء. فلما فتح مكة آيست مما كنت أتمناه مِن قتله، وقلت في نفسي: قددخلت العرب في دينه، فمتي أُدرك ثاري منه. فلما اجتمعت هوازن بحُنين قصدتهم لآخذ منه غرة، فأقتله، ودبّرت في نفسي كيف أصنع، فلما انهزم الناس وبقي محمد وحده والنفر الذين بقوا معه، جئت مِن ورائه ورفعت السيف حتي إذاكدت أحطه غشي فؤادي، فلم أطق ذلك، فعلمت أنه ممنوع... ثم التفت إليّ محمد «صلى الله عليه وآله» فقال لي: ادنُ ياشيبة وقاتِل. ووضع يده في صدري، فصار أحب الناس إليّ، وتقدمْتُ وقاتلت بين يديه، فلو عرض لي أبي لقتلتُه في نصرة رسول الله «صلى الله عليه وآله». فلما انقضي القتال دخلنا علي رسول الله فقال لي: الذي أراد الله بك خيراً مما أردتَه لنفسك، وحدثني بجميع ما زوَّرته في نفسي**[٣]. **فقلت: ما اطلع علي هذا إلا الله، فأسلمت**)[٤].

❋ بطولة أخرى للإمام علي:

أقبل رجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء وهويرتجز:

أنا أبو جَرولَ لا بَراح حتّى نُبيحَ القومَ أونُباح

فصمد له أميرالمؤمنين علي «عليه السلام» فضرب عجْزَ بعيره فصرعه، ثمّ ضربه فقطّره[٥] وكانت هزيمة المشركين بقتل أبي جرول، (**ولمّا قتله وضع المسلمون سيوفهم فيهم وأمير المؤمنين يقدمهم، حتّى قتل أربعين رجلاً من القوم، ثمّ كانت الهزيمة والأسر حينئذ**)[٦].

---

١. أي يملكني فأكون تحت سلطانه وهيمنته.
٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ١٦٨.
٣. زَوّرَ الكلامَ في نفسه: هيّأه وأعدّه.
٤. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص ١١٧-١١٨.
٥. قطّره: صرعه صرعة شديدة.
٦. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٣٨٧.

وفي تفسير القمي أنه: (**لما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم، وهم يقولون: لبيك. ومروا برسول الله «صلى الله عليه وآله» واستحيوا أن يرجعوا إليه ولحقوا بالراية، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» للعباس: مَن هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: يا رسول الله، هؤلاء الأنصار. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: الآن حمي الوطيس**[1] **ونزل النصر من الله**)[2].

* نهاية المعركة :

مع نداءات النبي المتكررة وبطولات المدافعين عنه، اجتمع حوله «صلى الله عليه وآله» في بداية الأمر نحو مائة من المقاتلين ثم تزايد عددهم تدريجياً، فقاموا بهجوم مضاد هُزم على إثره المشركون وفرّ مقاتلوهم في اتجاهين، تاركين النساء والأطفال والممتلكات غنائم في يد المسلمين.

غالبية ثقيف انسحبت نحو الطائف ومعهم مالك النصري، والبقية الباقية من المقاتلين هربت في البرّية تجاه وادي أوطاس ونخلة، فأعلن النبي «صلى الله عليه وآله» أن مَن قَتل مشركاً ضِمن عملية المطاردة فله سلبُه[3]، وقد شجع هذا الأمر الكثيرَ من المسلمين على المطاردة الجادة، فأوقعوا في الفارّين خسائر فادحة، وأسروا عدداً كبيراً منهم، واستشهد قائد سرية المسلمين أبوعامر الأشعري، واختير بدلاً منه ابن عمه أبو موسى الأشعري.

أما مَن فرَّ نحو الطائف فقد أرسل النبي نحوهم قوة بقيادة أبي سفيان، فحاصر المدينة المحصَّنة، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، فعاد إلى النبي شاكياً فشله.

* مقتل أسيرين :

لما ارتفع النهار، أمر النبي بالكف عن القتال في ساحة المعركة في حُنين، وأن لا يُقتل أسير. ومع هذا فقد وقعت بعض المخالفات. فقد كانت هذيل قد بعثت ابن الاكوع ـ أيام فتح مكة ـ ليتجسس على النبي، وبعد أن أدى مهمته رجع إلى قومه، ولكنه أسِر يوم حُنين، فمرَّ به الخليفة عمر بن الخطاب، فلما رآه أقبل على رجل من الأنصار وقال: هذا عدو الله الذي كان علينا عيناً، ها هو أسير، فاقتله. فضرب الأنصاري عنقَه. وبلغ ذلك النبي فكره ذلك، وقال: (**ألم آمركم أن لا تقتلوا أسيراً؟**)[4].

ثم قُتل بعده جميل بن معمر بن زهير وهو أسير، فبعث رسول الله إلى الأنصار وهو مغضب فقال: (ما

---

١. الوطيس: التنور، وحمي الوطيس كناية عن شدة الأمر واضطراب الحرب.

٢. الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، ج ٢، ص ٣٣٢.

٣. أي سيغنم كل ما معه دون أن يشترك معه أحد في ذلك، ولن يدخل فيه خمس المغنم .

٤. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٤٤.

حملكم على قتله وقد جاءكم الرسول أن لا تقتلوا أسيراً؟ فقالوا: إنما قتلناه بقول عمر. فأعرض رسول الله حتى كلّمه عمير بن وهب في الصفح عن ذلك)[1].

ومر النبي في طريقه بامرأة مقتولة فقال: (**مَن قتلها؟ قالوا: قتلها خالد بن الوليد. فقال لبعض مَن معه: أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً** [2])[3].

❊ غنائم الحرب:

روي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (**سبا رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم حنين أربعة آلاف رأس واثني عشر ألف ناقة، سوى ما لا يُعلم من الغنائم**)[4]. وعن الزهري أنها كانت ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن البهائم ما لا يُحصى ولا يُدرى. وذكر محمود شيت خطاب في كتابه «الرسول القائد» أن الغنائم كانت: أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعة وعشرين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف نسمة من السبي.

❊ القرآن يتحدث عن الغزوة:

قال «عزوجل»: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

❊ حصار الطائف:

لما رجع أبوسفيان إلى النبي «صلى الله عليه وآله» يشكو إليه فشله، قال: (**بعثْتني مع قوم لا يُرفع بهم الدلاء من هذيل والأعراب، فما أغنوا عني شيئاً**)[6].

فسكت النبي عنه، ثم سار بنفسه إلى الطائف فحاصرهم. فما كان من ثقيف إلا أن سدَّدت نبالها نحو المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر، فقرر النبي الانسحاب بعيداً والاستقرار في مكان أمين.

١. المفيد: الإرشاد، ج١، ص ١٤٥.
٢. العسيف: الأجير.
٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٥٧.
٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٨٣.
٥. سورة التوبة: ٢٥-٢٧.
٦. الأمين: أعيان الشيعة، ج١، ص ٢٧٥.

* الإمام علي في مهمة :

وفي أثناء الحصار، أنفذ النبي «صلى الله عليه وآله» أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» في خيل، وأمره أن يكسر كل صنم وجده، فخرج حتى لقيته خثعم في جمع كثير، فبرز لهم رجل من القوم يقال له «شهاب» في غبش الصبح فقال: (هل من مبارز؟ فلم يقم أحد، فقام إليه علي «عليه السلام» فوثب أبوالعاص بن الربيع زوج بنت النبي «صلى الله عليه وآله»[1] فقال: تُكفاه أيها الأمير. فقال: لا، ولكن إن قُتلت فأنت على الناس. فبرز إليه علي «عليه السلام» وهو يقول:

إن على كل رئيس حقّا أن تروى الصعدة أو تندقّا

ثم ضربه فقتله، ومضى حتى كسر الأصنام، وانصرف إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو بعدُ محاصِر لأهل الطائف ينتظره، فلما رآه كبَّر وأخذ بيده وخلا به)[2].

* مكيدة عُيينة :

في أثناء حصار النبي «صلى الله عليه وآله» لأهل الطائف قال عيينة بن حصن: (ائذن لي حتى آتي حصن الطائف فأكلمهم. فأذن رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجاءهم فقال: أدنو منكم وأنا آمن؟ قالوا: نعم. وعرفه أبو محجن فقال: أدن. فدخل عليهم، فقال: فداكم أبي وأمي والله لقد سرني ما رأيت منكم، وما في العرب أحد غيركم، ووالله ما في محمد مثلكم، ولقد قل المقام وطعامكم كثير، وماؤكم وافر لا تخافون قطعه. فلما خرج قالت ثقيف لأبي محجن: فإنا قد كرهنا دخوله، وخشينا أن يخبر محمداً بخلل إن رآه فينا أو في حصننا. فقال أبو محجن: أنا كنت أعرف به، ليس منّا أحد أشد على محمد منه، وإن كان معه).

عيينة ـ واسمه الحقيقي حذيفة وليس عيينة وسمي عيينة لأنه أصابته لقوة وهو مرض وشلل يصيب الوجه فجحظت عيناه ـ بن حصن الفزاري، وفزارة من غطفان. استعرضنا جملة من مواقفه خلال الغزوات السابقة، وكان من الأعراب الجفاة المحاربين لله ورسوله، وفي حنين كان من المؤلفة قلوبهم. ارتد بعد وفاة النبي وانضم إلى طليحة الأسدي، ثم أسِر وعاد إلى الإسلام.

أبو محجن الثقفي، فارس ثقيف وشاعرها، اختلف في اسمه، كان مدمناً على الخمر حتى بعد أن أسلم، وأقيم عليه الحد عدة مرات. وأوصى ولده أن يدفنوه عند شجرة عنب لتروي عظامه من عروقها !

١. أبوالعاص بن الربيع الأموي هو زوج زينب بنت النبي. وأم أبي العاص هي هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة، وهي التي طلبت من النبي أن يزوج زينباً له. فأولدها أمامة التي تزوج بها الإمام علي بعد وفاة الزهراء.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٦٩.

وصدق أبومحجن في حدسه، إذ لما رجع عيينة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» كذب عليه قائلاً: **(قلت لهم: ادخلوا في الإسلام، فوالله لا يبرح محمد عقر داركم حتى تنزلوا، فخذوا لأنفسكم أماناً، فخذّلتهم ما استطعت. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: كذبت، لقد قلت لهم: كذا وكذا. وعاتَبه جماعة من الصحابة قال: أستغفر الله وأتوب إليه، ولا أعود أبداً)**[1].

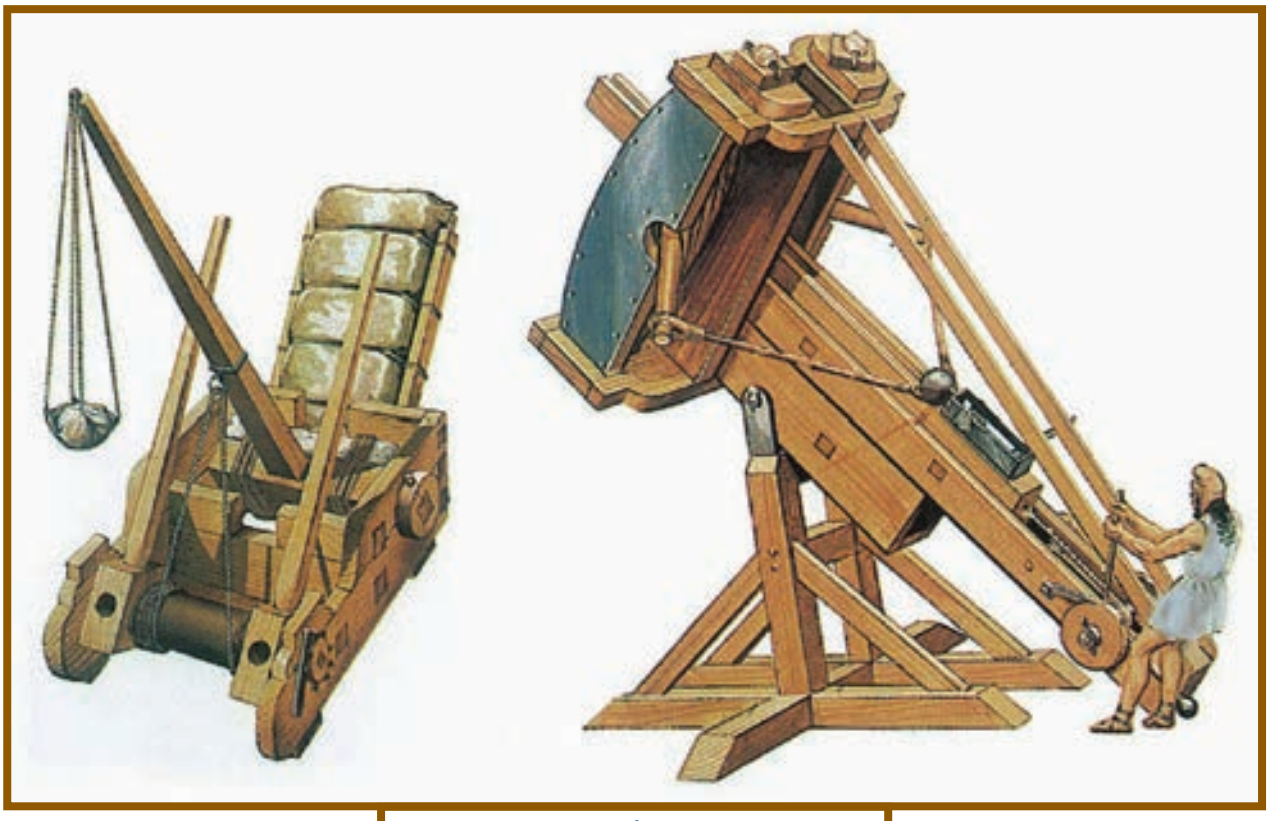
وإذ أراد النبي «صلى الله عليه وآله» أن يطّلع على الأوضاع الداخلية في المدينة المحصَّنة، أعلن أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف، ففر إليه قرابة العشرين منهم، فعرف منهم أن المؤونة الغذائية كثيرة جداً[2]. ومن العبيد الذين نزلوا «أبوبكرة» وكان عبداً للحارث بن كلّدة طبيب العرب.

❋ دبابتان ومنجنيق :

شاور رسول الله أصحابه في حصن الطائف، فاقترح عليه سلمان الفارسي أن ينصب المنجنيق على حصنهم، فأمر رسول الله فعُمل منجنيق. ويقال: قدم بالمنجنيق يزيد بن زمعة ومعه ودبابتان[3]. ولما اقتربت دبابة من الحصن، صار رجال ثقيف يرمون سكك الحديد محماة بالنار، فأحرقت الدبابة. ثم فكّر النبي بالضغط عليهم ليستسلموا بأن يقطع أعنابهم ويحرقها، فلما أمر بذلك نادى سفيان بن عبدالله الثقفي: **(لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرْت علينا، وإما أن تدعها لله والرَّحِم، فقال رسول الله: فإني أدعها لله والرحم)**[4]. فتركها.

اسمه نفيع. أمه سمية مولاة الحارث بن كلّدة، وهو أخو زياد بن أبيه لأمه، وقد استلحقه الحارث به ولكنه كان ينكر أنه ولده. تدلى في حصار الطائف ببكرة هارباً فعُرف بأبي بكرة، روى جملة أحاديث. عن الأحنف بن قيس قال: (بايعت علياً فرآني أبو بكرة وأنا متقلد السيف، فقال: ما هذا يا ابن أخي؟ قلت: بايعت علياً. قال: لا تفعل، إنهم يقتتلون على الدنيا، وإنما أخذوها بغير مشورة. ثم وفد على معاوية! له رواية تفرّد بها أن النبي قال: (لن يُفلح قوم ولّوا أمورهم امرأة). سكن البصرة. جلده عمر كما جلد صاحبيه نافعاً وشبل بن معبد لشهادتهم على المغيرة بن شعبة بالزنى، بعد أن تراجع عنها رابعهم زياد بن أبيه. تأثر جسد أبي بكرة من الجلد، فأمرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بشاة فسُلخت ثم أُلبِس جلدها. وكان أبو بكرة إذا طُلِبَ إلى شهادة قال: (اطلبوا غيري، فإنّ زياداً أفسد عليّ شهادتي).

١. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج١، ص ١١٩.
٢. أثّر هذا لاحقاً في قرار النبي، حيث أعلن الانسحاب من الحصار بعد أن رأى أن الاستمرار به لن يأتي بثمرة تذكر، كما أن بعض أهل الطائف أمّلوه في إسلامهم، وهذا ما سنطلع عليه لاحقاً.
٣. الدبابة: صندوق كبير يصنع من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونه من الحصن المحاصر لينقبوه ويقيهم ما يُرمَون به من فوقهم.
٤. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٢٣٤.



من تصاميم وأنواع المنجنيق

* انتهاء الحصار :

كان الحصار قد استمر قرابة الشهر، فارتأى النبي «صلى الله عليه وآله» أن لا فائدة أكثر تُرتجى منه، لاسيما وقد أخبره العبيد الفارون أن المؤونة في المدينة كثيرة، كما أن أهل الطائف طلبوا من النبي أن يبرح عنهم ليقدم عليه وفدهم لاحقاً فيشترط له ويشترطون لأنفسهم ليصلوا إلى اتفاق يفرضي الطرفين. وهكذا، حين عاد النبي لاحقاً إلى مكة قَدِم عليه نفر منهم يخبرونه بإسلام قومهم، ولكنهم اشترطوا عليه ألّا يصلّوا ولا يُزكّوا، فرفض، وأصرَّ على إسلامهم دون هذا الشرط، فنزلوا عند رأيه.

* توزيع الغنائم :

شرع النبي «صلى الله عليه وآله» بتقسيم الغنائم، فبعد إخراج خمس الغنيمة، بدأ بإعطاء المؤلفة قلوبهم من ذلك الخمس[1] ـ بالإضافة إلى حصتهم من باقي الغنيمة ـ فأخذ أبوسفيان ١٠٠ من الإبل، وأربعين أوقية من الفضة. فقال: **(وابني معاوية؟ فمنح مثلها لابنه معاوية. فقال: وابني يزيد؟ فمنح مثلها لابنه يزيد)**[2].

١. قال ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج٢، ص ١٤١: (وأعطى ذلك كله من الخمس، وهو أثبت الأقاويل عندنا).
٢. الغزالي: فقه السيرة، ج١، ص ٣٩٢.

قال الطبري: (فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى النضير بن الحارث بن كلدة بن علقمة أخا بني عبدالدار مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي حليف بني زهرة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبدالعزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى عيينة بن حصن مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النصري مائة بعير[1]، فهؤلاء أصحاب المئين، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل بن أهيب الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، لا يحفظ عدة ما أعطاهم)[2].

* احتجاج الأنصار:

لما قسّم رسول الله غنائم حنين وأعطى من الخُمس للمؤلفة قلوبهم، غضب قوم من الأنصار، وبلغ رسول الله قولهم: (لقي الرجل أهله وبني عمه، ونحن أصحاب كل كريهة)[3].

وفي رواية عن زرارة بن أعين عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام»: (فغَضِبَت الأنصار، واجتمعت إلى سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالجِعرانة[4]، فقال: يا رسول الله، أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، فقال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسمت بين قومك شيئاً أنزله الله، رضينا، وإن كان غير ذلك لم نرض، قال زرارة: وسمعْتُ أبا جعفر «عليه السلام» يقول: فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا معشر الأنصار، أكلكم على قول سيدكم؟ فقالوا: سيدنا الله ورسوله، ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه. قال زرارة: فسمعتُ أبا جعفر «عليه السلام» يقول: فحَطَّ الله نورهم....)[5].

فنادى فيهم فاجتمعوا وقال لهم: (اجلسوا، ولا يقعد معكم أحدٌ مِن غيركم، فلما قعدوا جاء النبي «صلى الله عليه وآله» يتَّبعه أميرالمؤمنين «صلوات الله عليهما» حتى جلس وسطهم وقال لهم: إني سائلكم عن أمر فأجيبوني عنه. فقالوا: قل: يا رسول الله، قال: ألستم كنتم ضالين فهداكم الله بي؟ فقالوا: بلى، فلله المنَّة ولرسوله. قال: ألم تكونوا على شفا حُفرة من النار فأنقذكم الله بي؟ قالوا: بلى، فلله المنَّة ولرسوله. قال: ألم

---

١. سنذكر لاحقاً كيف دخل مالك بن عوف وهو قائد المعسكر المعادي في حنين ضمن هذه التقسيمة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٧٥.

٣. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٢٣٨.

٤. قال الحموي في معجم البلدان، ج٢، ص ١٤٢: (بكسر أوّله إجماعاً، ثم إن أصحاب الحديث يكسرون عينه ويشدّدون راءه، وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويسكنون العين، ويخففون الراء).

٥. الكليني: الكافي، ج٢، ص ٤١١.

تكونوا قليلاً فكثَّركم الله بي؟ قالوا: بلى، فلله المنّة ولرسوله. قال: ألم تكونوا أعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟ قالوا: بلى فلله المنة ولرسوله ، ثم سكت النبي «صلى الله عليه وآله» هنيئة ثم قال: ألا تجيبوني بما عندكم؟ قالوا: بم نجيبك فداؤك آباؤنا وأمهاتنا؟ قد أجبناك بأنَّ لك الفضل والمن والطَّوْل[١] علينا. قال: أما لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمناك، وجئتنا مكذباً فصدّقناك. فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه فقبّلوا يديه ورجليه ثم قالوا: رضينا بالله وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال مَن قال منّا على غير وغَر صدر[٢] وغِلّ في قلب، ولكنهم ظنّوا سخطاً عليهم، وتقصيراً لهم[٣]، وقد استغفروا الله من ذنوبهم فاستغفِر لهم يا رسول الله، فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: اللهم اغفِر للأنصار ولأبناء الأنصار، و لأبناء أبناء الأنصار، يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنَّعم، وترجعون أنتم وفي سهمكم رسول الله؟ قالوا: بلى رضينا، قال النبي «صلى الله عليه وآله» حنيئذ: الأنصار كَرشي وعيبتي[٤]، لو سلك الناس وادياً وسلَكَت الأنصار شِعْباً لسلكْتُ شِعب الأنصار، اللهم اغفر للأنصار)[٥]. وعن الإمام محمد الباقر «عليه السلام»: (فلما كان في قابل، جاءوا بضِعف الذي أخذوا ، وأسلم ناس كثير، قال: فقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» خطيباً فقال: هذا خير أم الذي قلتم؟ قد جاؤا من الإبل بكذا وكذا ضعف ما أعطيتهم، وقد أسلم لله عالَم وناسٌ كثير، والذي نفس محمد بيده، لوددت أن عندي ما أعطي كل إنسان ديَتَه على أن يُسلِم لله رب العالمين)[٦].

* احتجاج ابن مرداس :

كان رسول الله أعطى عباس بن مرداس أربعاً من الإبل فسخِطها وأنشأ يقول :

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس ... يفوقان شيخي في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومَن تضع اليوم لم يُرفَع

عباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، شاعر مخضرم وسيد بني سليم، كان أبوه صديقاً لوالد أبي سفيان، وقُتلا معاً. كان عباس بدوياً لم يسكن مكة ولا المدينة، وكان من ذم الخمر وحرّمها في الجاهية. أسلم قبل فتح مكة، وأحرق صنم قومه. توفي سنة ١٨ هـ.

١. الطول: التفضّل والإنعام.
٢. الوغر: الحقد والضغن والعداوة .
٣. أي ظن الأنصار ما ظنوه عند التقسيم تصوراً منهم أن النبي ساخط عليهم وأنهم مقصّرون، ولذا لم ينالوا ما ناله أولئك القوم.
٤. كرشي: جماعتي وأصحابي. عيبتي: خاصتي وموضع سرّي.
٥. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٥٩-١٦٠.
٦. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ١٧٧.

وهو بذلك يقارن بينه وبين عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فبلغ النبي قولَه فاستحضَرَه وقال له: (**أنت القائل: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ فقال له أبوبكر: بأبي أنت وأمي، لستَ بشاعر. فقال: وكيف؟ قال: قال: بين عيينة والأقرع**[1]. **فقال رسول الله لأمير المؤمنين: قُم يا علي واقطع لسانه. قال: فقال العباس: فوالله لهذه الكلمة كانت أشد علي من يوم خَثْعَم حين أتونا في ديارنا، فانطلق بي وإني لأودُّ أن أخلص منه، فقلت: أتقطع لساني؟ قال: إني ممضٍ فيك قول رسول الله «صلى الله عليه وآله». فما زال حتى أدخلني الحظاير**[2] **وقال: خذ ما بين أربع إلى مائة فقلت: بأبي أنت وأمي، ما أكرمكم وأحلمكم وأعلمكم؟ فقال: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أعطاك أربعاً وجعلك مع المهاجرين، فإن شئتَ فخذها، وإن شئت فخذ المائة وكن مع أهل المائة. قال: قلت: أشِر عليَّ. قال: إني آمرك أن تأخذ ما أعطاك وترضى، قلت: فإني أفعل**)[3].

الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعي الدرامي، سيد قبيلة خندف، أحد الذين يُتحاكَم إليهم في الجاهلية، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن الأقرع أبصر النبي يُقبّل الحسن، فقال: (إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ واحداً منهم، فقال رسول الله: إنه من لا يَرحم لا يُرحم). استشهد عام ٣١هـ بجوزجان «حالياً في أفغانستان».

❊ احتجاج ذي الخويصرة:

لما قسم رسول الله «صلى الله عليه وآله» غنائم حُنين، أقبل رجل طويل آدم[4] أحنى، بين عينيه أثر السجود، فسلَّم ولم يخص النبي ثم قال: (**قد رأيتُك وما صنعت في هذه الغنائم. قال: وكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله وقال: ويلك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال المسلمون: ألا نقتله؟ قال: دعوه فإنه سيكون له أتباع يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلهم الله على يد أحب الخلق إليه من بعدي. فقتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» فيمن قتل يوم النهروان من الخوارج**)[5].

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: (**بينما نحن عند رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو يُقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ فقال: يا رسول الله، اعدِل. فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم**

---

١. يبدو لي أن النبي تعمّد أن لا يأتي بالبيت كما هو كي يتجنب قول الشعر، واعتقد الخليفة أبوبكر أن النبي أخطأ النقل لأنه ليس بشاعر.

٢. حيث يتم حبس الأنعام.

٣. الإربلي: كشف الغمة، ج١، ص ٢٢٥.

٤. آدم: أسمر.

٥. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٦١.

أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدِل. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعْه، فإنَّ له أصحاباً يُحقّر أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون مِن الدين[١] كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نَصْلِه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رُصافه[٢] فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه ـ وهو قِدْحه[٣] ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه[٤] فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتُهم رجلٌ أسود إحدى عَضُديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البِضعة تُدَردر[٥]، ويخرجون على حين فُرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتَلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتُمس، فأتِيَ به حتى نظرتُ إليه على نعت النبي «صلى الله عليه وسلم» الذي نعته)[٦].

* يوم النهروان :

نخرج هنا عن السياق قليلاً لنطّلع على ما جرى لذي الخويصرة ومن تبعه من الخوارج يوم النهروان كما أشار إلى ذلك الخبر السابق، فعندما تلاقى جيش الإمام علي «عليه السلام» بالخوارج عند النهروان حاججهم أكثر من مرة، فأعلن الآلاف منهم التوبة، جاء في الخبر: **(ثم صاح القوم من كل ناحية وقالوا: التوبة! التوبة! يا أمير المؤمنين. فاستأمن إليه منهم ثمانية آلاف، وبقي على حربه أربعة آلاف)**[٧]. ثم بدأت المبارزة الفردية بين الطرفين، فاستشد ثمانية من جيش الإمام: **(فلم يزل يخرج رجل بعد رجل، من أشدِّ فُرسان علي، حتى قُتل منهم جماعة، وهم ثمانية. وأقبل التاسع، واسمه حبيب بن عاصم الأزدي، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفارٌ هم؟ فقال علي: مِن الكفر هربوا، وفيه وقعوا. قال: أفمنافقون؟ قال: إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قال: فما هم يا أمير المؤمنين، حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين؟ فقال علي: هم قوم مرقوا من دين الإسلام كما مَرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن، فلا يجاوز تراقيهم، فطوبى لمن قتَلهم. قال: فعندها تقدم حبيب بن عاصم هذا نحو الشراة ـ وهو التاسع من أصحاب علي ـ فقاتل حتى قتل. واشتبك الحرب بين الفريقين. فاقتتلوا قتالاً شديداً. ولم يُقتل من أصحاب علي إلا أولئك التسعة)**[٨].

١. يمرقون من الدين أي يجوزونه.
٢. الرُّصافةُ: عَقَبة تشدّ على مدخل سِنخ النصل.
٣. النضي من السهم: ما بين الريش والنصل، و لذا قال «وهو قِدحه» لأن القدح عبارة عن العصا الخشبية التي تكون بمثابة جسم النبل.
٤. القذذ: ريش السهم ، واحدتها قُذّة.
٥. البِضعة «بالكسر»: قطعة اللحم، والبُضعة «بالضم»: فرج الرجل. تدردر: ترجرج ، تجئ وتذهب.
٦. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٣٤١٤.
٧. ابن أعثم: الفتوح، ج٤، ص ٢٧٠.
٨. ن.م. ص ٢٧٢.

وتقدم رجل من الخوارج يقال له الأخنس العيزار الطائي فحمل على معسكر الإمام علي، فشق الصفوف وقصده علي فالتقيا بضربتين فضربه علي فقتله. وحمل ذو الثدية على علي ليضربه بسيفه، وسبقه علي فضربه على بيضته[١] فهتكها، وحمل به فرسُه حتى رمى بها بعيداً على شط النهروان.

وخرج من بعده ابن عم له يقال له مالك بن الوضاح فحمل على أصحاب الامام، وحمل على علي «عليه السلام» فضربه ضربة فقتله، وتقدم عبد الله بن وهب الراسبي[٢] ثم صاح: (**يا بن أبي طالب والله لا تبرح هذه المعركة أو تأتي على أنفسنا أو نأتي على نفسك، فابرز إليّ وأبرز إليك وذر الناس جانباً. فلما سمع علي «عليه السلام» كلامه تبسم وقال: قاتَله الله مِن رجلٍ ما أقل حياءه، أما إنه ليعلم أني حليف السيف و خَدِين الرمح[٣] ولكنه قد أيس من الحياة، أو أنه ليطمع طمعاً كاذباً**)[٤]. ثم حمل على علي «عليه السلام» فحمل عليه علي وضربه ضربة قتله وألحقه بأصحابه القتلى.

اختلط القوم فلم تكن إلا ساعة حتى قُتلوا، فما فلت منهم إلا تسعة نفر، وغنم أصحاب علي في ذلك اليوم غنائم كثيرة. فقال علي: (**اطلبوا ذا الثدية. فطلبوه فلم يجدوه. فقال: ما كَذِبت ولا كُذّبت، اطلبوه. فطلبوه فوجدوه في وهدة من الأرض عليه ناس من القتلى، فإذا رجل على يده سبلات السنَّور[٥]. فكبّر علي والناس وأعجبه ذلك**)[٦].

وفي سنن أبي داود: (**قال أبو الوضيء: فكأني أنظر إليه حبشي عليه قريطق[٧]، له إحدى يدين مثل ثدي المرأة، عليها شعيرات مثل شعيرات التي تكون على ذنب اليربوع**)[٨].

ومن طريق أبي مريم قال: (**إن كان وذلك المخدج لمعنا في المسجد، وكان فقيراً قد كسوته بُرنساً لي ورأيته يشهد طعام عليٍّ، وكان يُسمّى نافعاً ذا الثدية[٩] وكان في يده مثل ثدي المرأة على رأسه حلمة مثل حلمة الثدي، عليه شعيرات مثل سبلات السنور**)[١٠].

١. البيضة: ما يشبه الخوذة العسكرية.
٢. وهو من قادتهم.
٣. يريد بذلك أنه قد ألِفَ السيف والرمح وصارا كالأصحاب والأخلاء.
٤. الهاشمي: وقعة النهروان، ص٦٣.
٥. سبلات: شعر مقدم اللحية. والسنور: القط.
٦. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٦٩٣٤.
٧. القريطق: القباء وهو نوع من اللباس.
٨. العباد: شرح سنن أبي داود، ج٢٢، ص ٥٤٢.
٩. وفي نص آخر أن اسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي .
١٠. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٦٥٣٤.

❋ إطلاق السبي :

وكان في من وقع في السبي «شيماء» أخت النبي بالرضاعة، وهي بنت حليمة السعدية، فقامت على رأسه وكلمته على انفراد وقالت: (**يا محمد، أختك شيماء بنت حليمة**). فنزع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بُرْدَه فبسطه لها فأجلسها عليه، ثمّ أكبّ عليها يسائلها، وهي التي كانت تحضنه إذ كانت أمّها ترضعه. ثم كلّمته عن السبي ـ وقد تم تقسيم عدد كبير منهن ـ فقال: (**أمّا نصيبي ونصيب بني عبد المطلب فهو لك، وأمّا ما كان للمسلمين فاستشفعي**[1] **بي عليهم**)[2].

وفي أثناء ذلك كان وفد هوازن قد جاء عند رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالجعرانة وقد أسلموا أملا في أن يعيد إليهم نساءهم وذراريهم، وقالوا: (**يا رسول الله، لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخْف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صُرَد فقال: يا رسول الله، إنّا لو ملحنا**[3] **الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثمّ ولي منّا مثل الذي وليت لعاد علينا بفضله وعطفه وأنت خير المكفولين، وإنّما في الحظائر خالاتك وبنات خالاتك وحواضنك وبنات حواضنك اللاتي أرضعنك، ولسنا نسألك مالاً، إنّما نسألكهنّ**).

فلمّا صلّوا الظهر ، قامت أخته فتكلّمت وتكلّم الوفد، فوهب لها الناس أجمعون إلاّ الأقرع بن حابس وعيينة ابن حصن، فإنّهما أبيا أن يهبا وقالوا: (**يا رسول الله، إنّ هؤلاء قوم قد أصابوا من نسائنا، فنحن نصيب من نسائهم مثل ما أصابوا**). فأقرع رسول الله «صلى الله عليه وآله» بينهم ثمّ قال: (**اللهمّ توّه سهميهما**) فأصاب أحدهما خادماً لبني عقيل، وأصاب الآخر خادماً لبني نمير[4]، فلمّا رأيا ذلك وهبا ما منعا.

ثم كلمته أخته «شيماء» في مالك بن عوف النصري فقال: (**إنْ جاءني فهو آمن**)[5].. كما وعد بأن يردّ عليه ماله وأهله مع مائة من الإبل، فأتاه فأوفى له النبي ما وعده.

❋ العودة إلى مكة فالمدينة :

وهكذا انتهت أحداث الغزوات الثلاث بكل تبعاتها، ودخل كثير من الناس في الإسلام، وعاد الأسرى إلى أهليهم، ثم خرج رسول الله من الجعرانة في ذي القعدة إلى مكة فأدّى العمرة، ثم توجه إلى المدينة المنورة.

---

١. أي اطلبي ذلك مني أمامهم واجعليني شفيعاً بينك وبينهم ليقبلوا ويتنازلوا عن حصصهم.

٢. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠.

٣. ملحنا: أرضعنا.

٤. الأقرع وعيينة كلاهما من بني تميم، وكانت لهما علاقات مع بني نمير وبني عقيل، حتى أن بني نمير استنجدوا بالتميميين على أعدائهم ذات مرة.

٥. الطبرسي: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١، ص٢٤٠.

* وصفٌ علَوي :

وقد وصف أمير المؤمنين علي «عليه السلام» أحداث الحصار في شعب أبي طالب بالاضافة إلى غزوة حنين في كتاب بعثه إلى معاوية بن أبي سفيان، وقد ورد هذا النص بألفاظ فيها اختلافات بسيطة وشيء من الزيادة والنقصان، واللفظ التالي كما جاء في كتاب «بحار الأنوار» للمجلسي: (**إن محمداً «صلى الله عليه وآله» لما دعا إلى الايمان بالله والتوحيد له، كنا أهل البيت أول من آمن به وصدقه فيما جاء به، فلبثنا أحوالاً كاملة مجرَّمة**[١] **تامة، وما يَعبد الله في ربعٍ**[٢] **ساكنٌ من العرب غيرنا. فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلِنا وهمّوا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل ومنعونا الميرة وأمسكوا عنا العذب وأحلسونا الخوف**[٣]**، وجعلوا علينا الأرصاد والعيون واضطرونا إلى جبل وعِر، وأوقدوا لنا نار الحرب وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلوننا ولا يشاربوننا ولا يناكحوننا ولا يبايعوننا ولا نأمن فيهم حتى ندفع إليهم محمداً «صلى الله عليه وآله» فيقتلوه ويمثلوا به. فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم**[٤]**. أكبر ذلك أبوك وأنت. فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته والرمياء من وراء حرمته والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار، فمؤمننا يرجو بذلك الثواب وكافرُنا يحامي به عن الأصل. وأما من أسلم من قريش بعدُ فإنهم مما نحن فيه أخلياء، فمنهم الحليف الممنوع، ومنهم ذو العشيرة التي تدافع عنه، فلا يبغيه أحد مثل ما بغانا به قومُنا من التلف. فهم من القتل بمكان نجوة وأمن. فكان ذلك ما شاء الله أن يكون. ثم أمر الله «تعالى» رسولَه بالهجرة، وأذِن له بعد ذلك في قتال المشركين فكان إذا احمر البأس ودُعِيَت نزال**[٥] **أقامَ أهلَ بيته فاستُقدِموا، فوقى أصحابَه بهم حدّ الأسنة والسيوف، فقُتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة. وأراد مَن لو شئت ذكرتُ اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبي «صلى الله عليه وآله» غير مرة إلا أن آجالهم عُجِّلت ومنيّته أخِّرت**[٦]**...)**[٧]**. وفي نص «تمام نهج البلاغة» تتمة: (وقد أنزل الله «تعالى» في كتابه يوم حنين إذ أسلم الناس نبيهم غير العباس عمه وأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمه فقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٨] **وإنما عنانا بذلك دون غيرنا...)**[٩].

---

١. جَرّمَ السَّنَة : أتـمّـها.

٢. الربع: المقام والمنزل.

٣. الميرة: المؤونة الغذائية. والعَذْبُ : السّائغُ من الطعام والشراب وغيرهما. واستحْلَسَتِ الشيءُ فلانًا: لزِمَه. يقال: استحلسه الخوفُ .

٤. يقصد موسم الحج حيث الأشهر الحرُم.

٥. دعيت نزال: تنادوا وقالوا «نزال» إعلاناً عن بدء القتال والحرب.

٦. يريد بذلك نفسه.

٧. المجلسي: بحار الأنوار، ج٣٣، ص١١١-١١٣.

٨. سورة التوبة: ٢٦.

٩. صادق الموسوي: تمام نهج البلاغة، ج ٧، ص ١٦١.

غزوة
تبوك



غزوة تبوك

تتمثل أهمية هذه الغزوة في أنها آخر غزوة غزاها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، كما أنها بلغت أقصى موضع بلغه النبي في غزوة بنفسه، كما أنها حظيت باهتمام القرآن الكريم في سورة التوبة بشكل كبير في الحديث عن مقدماتها وأحداثها وتبعاتها، وأعادت نشاط المنافقين إلى الواجهة وفضحت مشاريعهم، وكسرت الرهبة النفسية عند المقاتلين المسلمين في مواجهة القوى العظمى بشكل أكبر بعد أن تم ذلك جزئياً في غزوة مؤتة.

❊ تحديد زمني ومكاني :

ذكر عدد من المؤرخين أن هذه الغزوة كانت في شهر رجب من العام التاسع للهجرة، وخالف ذلك البخاري في صحيحه ذاكراً إياها بعد حجة الوداع، وهذا يعني أنها وقعت بحسب التسلسل الزمني في السنة العاشرة أو الحادية عشرة قبيل وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقليل، وهو خطأ واضح، ولذا قال ابن حجر في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: (**وهو خطأ، ولا خلاف أنها قبلها، ولا أظن ذلك إلا من النساخ، فإن غزوة تبوك كانت في رجب سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف**)[1].

وبتحويل التاريخ إلى الميلادي فإننا سنجد أن الأول من رجب من ذلك العام يوافق الرابع عشر من شهر أكتوبر من سنة ٦٣٠م، بينما قال الله «عزوجل»: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[2] أي أن الغزوة كانت في الصيف، وهو ما تؤكده بعض المرويات كما في الخبر التالي عن كعب بن مالك: (**كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في حر شديد... وغزا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال**)[3]، وهو تعارض بيّن، فشهر أكتوبر لا يتسم بالحر الشديد، وليس هو موسم نضوج الثمار بالنسبة إلى محاصيل أهل المدينة، بل لابد أن يكون ذلك قبل شهر رجب بشهرين أو ثلاثة، أي في ربيع الثاني أو جمادى الأولى. ولعل لقائل أن يقول أنهم عادوا من الغزوة في رجب بعد أن أمضوا عدة أسابيع ذهاباً وإياباً.

نعم، لو قلنا بأن معنى النسيء الوارد في قول الله «عزوجل»: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٤١٥٣.
٢. سورة التوبة: ٨١.
٣. الزبيري: موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية، ج٤، ص ١٦١.



يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1] هو كما قال بعض الباحثين من أن المراد منه إضافة شهر للسنة كل أربع سنوات قمرية كي تعود أشهر الربيع إلى فصل الربيع، وأشهر الجماد إلى فصل جماد الحبوب والحصاد، وأشهر الحج تكون دائماً خلال فصل الشتاء، الفصل الأفضل بالنسبة لمناخ مكة الصحراوي ليكون موسماً للحج وفتح الأسواق فيها حيث يكون الطقس رائعاً والحرارة معتدلة[2]، كما أن شهر رمضان ـ للمسلمين ـ سيكون في بداية فصل الخريف حيث يتساوى الليل والنهار ويميل الجو إلى الاعتدال بعد موسم الصيف.. حينئذ يمكن التوفيق بين الخبر المتضمن للتحديد الزمني لغزوة تبوك وبين ما جاء من وصف في الآية الشريفة من أن الحر كان شديداً في ذلك الوقت، لأنه بناء على هذه النظرية فإن شهر رجب سيكون دائماً في وسط الصيف.

وعلى كل حال، فق كان مقصد الغزوة تبوك. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : (**تبوك بين الحِجر وأول الشام على بُعد أربعة مراحل من الحِجر، وهي في طرف الشام من جهة القبلة، وبينها وبين المدينة المشرفة إثنا عشرة مرحلة**)[3]. وقد ذكر الواقدي أن الطريق استغرق عشرين يوماً، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى جيش كبير يتحرك في ظروف استثنائية في ذلك الحر الشديد.

والمسافة بين المدينة المنورة وبين تبوك حالياً ٧٦٠ كم تقريباً، وتبلغ مساحة منطقة تبوك وفق التقسيم الإداري حالياً ١١٧,٠٠٠ كم٢، وتنقسم إلى خمس محافظات تشمل : «محافظة تيماء ـ محافظة أملج ـ محافظة الوجه ـ محافظة ضباء ـ محافظة حقل» ويتبعها ١٧٠ قرية، أما مساحة مدينة تبوك فتبلغ ٣٠,٠٠٠ هتكار.

١. سورة التوبة: ٣٧.
٢. من الإشكالات التي أثيرت على هذا القول أن نصوص الغدير تذكر شدة حر يوم ١٨ من ذي الحجة، فكيف يكون الحج في الشتاء؟
٣. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ١٤.



❋ تبوك في التاريخ :

يعيد بعض الباحثين تاريخ تبوك كمنطقة مأهولة بالسكان إلى قبل الميلاد بآلاف السنين، حيث كانت تُعرف باسم «تابو» أو «تابوا»، وقيل أن الاسم لاتيني بمعنى المحرّم أو المقدس، وتشير الآثار التاريخية أن منطقة تبوك كانت موطناً لأمم عديدة قبل الإسلام، كالعرب البائدة مثل ثمود، بالإضافة إلى الآراميين، والأنباط. ويذكر المؤرخون أن تبوك كانت موطناً لقبائل عربية يمنية ذات تاريخ مشهور يرجع أصلها إلى حضرموت. ويعد جبل اللوز الواقع على بعد ٥٠ كم غرب مدينة تبوك من أهم معالمها التاريخية، إذ يقال أن لليهود ادّعاءً بأن الصحائف العشر لسيدنا موسى «عليه السلام» نزلت هناك قبل ذهاب النبي موسى «عليه السلام» إلى طور سيناء.

ويقال أن تسميته بجبل اللوز يعود في الأصل إلى كلمة (Lēx) اللاتينية، والتي تعني «قوانين»، أو لوجود شجر اللوز فيه بكثرة. وتنتشر في منطقة جبل اللوز الرسوم الصخرية التي يرجع تاريخها إلى ١٠,٠٠٠ عام تقريباً حسب بعض التقديرات، بالإضافة إلى النقوش القديمة والكتابات الإسلامية. وحين احتل الرومان بلاد الشام، كانوا حريصين على أن تمتد مملكتهم إلى جبل اللوز جنوباً، ففعلوا كل ما أمكن لضم الأردن والجزء الشمالي الغربي من الجزيرة العربية، كما حرصوا على وضع الصليب على هذا الجبل، فبقي مرفوعاً عليه لأكثر من ٤٦٠ عاماً.

وتعد قلعة تبوك الأثرية من آثارها المهمة أيضاً إذ يرجع تاريخها إلى ٣٥٠٠ سنة تقريباً، وقد جُدِّد بناؤها أكثر من مرة، كان آخرها عام ١٠٦٢ هـ، كما يدل على ذلك نقش مرسوم عليها. ويقال إنها قلعة أصحاب الأيكة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ٤ مرات. حيث قال الله «عزوجل»: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

١. سورة الشعراء: ١٧٦.

❊ أسماء الغزوة :

لهذه الغزوة عدة أسماء، أشهرها «غزوة تبوك» نظراً للمكان الذي بلغه جيش المسلمين وعاد منه لاحقاً، والاسم الآخر «غزوة العُسرة» نظراً للظرف الاقتصادي الصعب الذي تم فيه الإعداد للغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ومن أسمائها «الفاضحة» لأن نوايا المنافقين افتُضحت من خلال موقفهم في هذه الغزوة وما نزل فيهم من الآيات القرآنية الفاضحة لخططهم وتحركاتهم العدوانية.

❊ أسباب الغزوة :

شهد المسلمون انتصارات متتالية في السنوات الأخيرة، أهمها: فتح مكة في العام الهجري الثامن، ثم الانتصار على هوازن وثقيف في غزوة حنين والطائف في نفس العام، يليهما توافد بعض القبائل العربية لإعلان الدخول في دين الله، مع إرسال السرايا لهدم الأصنام في الجزيرة العربية في العام الهجري التاسع، بالإضافة إلى فتح أرض طيء شمال نجد في نفس العام. ولا يمكن قراءة أسباب هذه الغزوة بعيداً عن المعطيات السابقة، بالإضافة إلى غزوة مؤتة التي واجه فيها جيش المسلمين ـ دون حضور النبي ـ جيش الروم والغساسنة وسائر حلفاء الروم من العرب. إذ تذكر بعض الأخبار أن أنباءً بلغت النبي «صلى الله عليه وآله» تتضمن تهيؤ الروم وحلفائهم لغزو الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وأنها كانت أكاذيب بثّها الروم أنفسهم لتخويف المسلمين وتحذيرهم من القيام بأي عمل عسكري انتقاماً لمؤتة، أو رغبةً في التوسع، لاسيما بعد أن ازدادت قوة المسلمين وكثر عددهم، واتسعت مساحة الأرض التي غدت تحت حكم النبي «صلى الله عليه وآله» أو دخل أهلها في الإسلام، أو هي مرشّحة لذلك في القريب، لتشمل كثيراً من أنحاء شبه الجزيرة العربية.

قال الواقدي: (**كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة مَن يقدم عليهم من الأنباط بجلب الزيت للمدينة، فقدِمت قادمةٌ فذكروا أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة، وزحفوا وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلّف هرقل بحمص. ولم يكن ذلك، وإنما ذلك شئ قيل لهم فقالوه، ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، من العدد والعُدة والكراع**)[2].

ولكن، ما الذي يجعل هذه الأخبار محتملة الصحة بالنسبة إلى النبي «صلى الله عليه وآله» بحيث قد تدفع الروم لغزو الجزيرة العربية؟

---

١. سورة التوبة: ١١٧.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩٨.

١. رغبة الروم في حماية الحركة التجارية التي تمر من خلال الجزيرة العربية.

٢. حماية النصرانية في مقابل امتداد الإسلام، بالإضافة إلى العرب المتنصرين على الحدود وفي الشام.

ولم تكن تلك الأنباء وحدها سبباً محتملاً للغزوة، بل يمكن أن نضيف إليها رغبة النبي في العمل على تهيئة الأرضية المناسبة لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، وتقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم والتي بدأت تتقبَّل الإسلام على الرغم من جهود الروم للمنع من ذلك.

ولربما أراد النبي «صلى الله عليه وآله» أيضاً أن يمحو الأثر السلبي الذي تركته غزوة مؤتة نفسياً على المسلمين، واستطلاع قوة دولة الروم وحلفائها في بلاد الشام تمهيداً لمعارك لاحقة.

ومن الروايات في بيان أسباب الغزوة ما لا يمكن قبوله، كالخبر التالي الذي رواه البيهقي بأن اليهود أتوا رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوماً فقالوا: (**يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله «عز وجل» آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما خُتمت السورة**[١]: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلاً﴾[٢] **فأمره الله «عز وجل» بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تُبعث**)[٣]. فالآيات مكية، وهي تتحدث عن مكر وخطط المشركين لطرد النبي من مكة المكرمة، وكيف للنبي أن يكون بهذه السذاجة فيصدّق اليهود بعد كل الأحداث التي جرت بينه وبينهم خلال السنوات السابقة، ولا يعرف هل من وظيفته كنبي أن يلحق بالشام أم لا؟

وأما أن يتحرك بجشيه نحو الشام على إثر الأخبار الكاذبة التي ساقها التجار الأنباط القادمون من الشام فهو أمر محتمل وتصرف عقلائي من قبل قائد وحاكم يريد تأمين حدود بلاده ودفع الهجوم المحتمل من قبل قوة عظمى بعيداً عن عاصمته، فإن لم يكونوا صادقين، فإن حركته بجيش كبير العدد، وجرأته على المواجهة في حد ذاتها ـ وإن لم يقع قتال ـ سيجعل الروم يفكّرون ألف مرة قبل القيام بأي غزو محتمل في المستقبل... ولا يشبه هذا تصديقه لكذبة اليهود حول تحقيق النبوة كما في خبر البيهقي.

وهكذا نجد نصاً آخر ـ غير مقبول ـ يتحدث عن سبب الغزوة، فعن عمران بن حصين أنه قال: (**كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إنَّ هذا الرجل الذي قد خرج يدّعي النبوة هلك، وأصابتهم سِنون**[٤]،

١. أي أن الآيتين مدنيتان أضيفتا لاحقاً على السورة.
٢. والآية الثانية هكذا: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾. سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.
٣. البيهقي: دلائل النبوة، ح ٢٠٠٥.
٤. سنون: جدب وقحط.

فهلكت أموالهم. فبعث رجلاً من عظمائهم، يقال له قباذ، وجهّز معه أربعين ألفاً، فبلغ النبي «صلى الله عليه وسلم» ذلك...)[1].

فهل كان هرقل غافلاً عن إرسال مبعوثيه وجواسيسه للتأكد من وفاة النبي قبل تحريك الجيش، وهو الذي خاض معارك طاحنة مع الفرس خلال السنوات الماضية، وإرسال هذا العدد إلى عمق الجزيرة العربية من دون مبرر حقيقي سيعرّضه لخطر تجرؤ الفرس على غزوه في عُقر داره؟

* التهيؤ للخروج وإرجاف المنافقين :

على خلاف الأعم الأغلب من الغزوات السابقة، لم يُخْفِ النبي وجهته في هذه المرة. قال ابن عساكر: **(وكان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لا يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها، لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً واستقبل غزواً وعدداً كثيراً، فجلا للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبة عدوهم، وأخبرهم بالوجه الذي يريد، وبعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى القبائل، وإلى مكة يستنفرهم إلى عدوّهم)**[2].

ونشط المنافقون والذين في قلوبهم مرض في بث روح الهزيمة والخوف من مواجهة قوة عظمى وحلفائها، لاسيما مع استرجاع ذكرى غزوة مؤتة.

ومن نماذج ذلك ما روي من أن الجد بن قيس استأذن من النبي في عدم الخروج، وقدّم أعذاراً واهية وكاذبة، فأذن له النبي، فقال له ابنه عبدالله ـ وكان بدريّاً ـ وهو أخو معاذ بن جبل لأمه: **(لِمَ تردّ على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» مقالته؟ فو الله ما في بني سلمة أحد أكثر مالاً منك، فلا تخرج ولا تَحمِل؟! فقال: يا بني، ما لي وللخروج في الريح والحرّ الشديد والعسرة إلى بني الأصفر، فو الله ما آمن ـ خوفاً ـ من بني الأصفر وأنا في منزلي، أفأذهب إليهم أغزوهم؟! إني ـ والله يا بني ـ عالم بالدوائر. فأغلَظ له ابنه وقال: لا والله، ولكنّه النفاق، والله لينزلن على رسول الله «صلى الله عليه وسلم»**

الجد بن قيس بن صخر الخزرجي، ابن عم البراء بن معرور، ساد في الجاهلية جميع بني سلمة، فانتزع رسول الله سؤدده. قال ابن إسحق: (ولم يتخلف عن بيعة رسول الله أحَد، يعني في الحديبية، من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، قال جابر بن عبد الله: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقة رسول الله، قد صبا إليها، يستتر بها من الناس). مات على عهد الخليفة عثمان بن عفان.

١. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح الحديث ٤١٥٣.
٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص ٢٠.

فيك قرآن يَقرأ به. فرفع نعله فضرب به وجه ولده، فانصرف ابنه ولم يكلمه، وأنزل الله «عزوجل»: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾[1]).

ولم يكتفِ الأب بموقفه، بل جعل هو ـ وغيره من المنافقين ـ يُثبّطون المسلمين عن الخروج: (قال الجدّ لجبّار بن صخر ومن معه من بني سلمة: لا تنفروا في الحر؛ زهادةً في الجهاد، وشكّاً في الحق، وإرجافاً برسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأنزل الله «سبحانه وتعالى» فيهم: ﴿وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2])[3].

وتخلّف عبدالله بن أبيّ بن أبي سلول عن رسول الله فيمن تخلف من المنافقين، وأرجف لإشاعة الخوف في قلوب المسلمين فقال: (يغزو محمد بنى الأصفر، مع جَهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به؟! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟! ونافق معه مَن هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أبيّ: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرَّنين في الحبال)[4].

وساعد على ذلك التخوّف المسبق لدى بعض المسلمين من الروم وحلفائها، ويشهد على ذلك ما جرى في حادثة سابقة لغزوة تبوك، ففي صحيح البخاري عن الخليفة عمر بن الخطاب في حديث طويل: (... وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوّف ملكاً من ملوك غسان، ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب فقال: افتح، افتح. فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك....)[5].

ومن طريف التشبيه ما ذكره الشيخ محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة» حيث قال: (فالعرب ينظرون إلى دولة الروم آنذاك نظرة أهل أفريقية اليوم إلى أوروبة وأمريكة، إنها قوة لا تُنال ولا تُناوَش)[6].

واعتمد المنافقون على عدة أساليب لتحقيق هدفهم الشيطاني، حتى عندما قررت مجموعة منهم المضي مع الجيش، لا للمشاركة الحقيقية في القتال، بل من أجل إفساد الأمور على النبي والمسلمين كما كانت عادتهم في غزوات سابقة، أو من أجل الغنائم كما جاء في كتاب المغازي[7].

١. سورة التوبة: ٤٩.
٢. سورة التوبة: ٨١-٨٢.
٣. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٥، ص ٤٣٧.
٤. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٠.
٥. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر، ح ٤٦٢٩.
٦. الغزالي: فقه السيرة، ص ٤٠٠.
٧. قال الواقدي في المغازي، ج١، ص ٤٠١: (فخرج معه ناس من المنافقين كثير لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة).

ومن بين أساليب تلك، بالإضافة إلى ما ذكرناه من التخذيل بالتهويل والتخويف:

١. **استخدام أسلوب السخرية المثبّطة للعزائم**: قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

ومن أمثلة ذلك ما روي أن رهطاً من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخشّن[٢] بن حُميّر، و الجلاس بن سويد، يشيرون إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: (**أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنكم غداً مقرّنين في الحبال**)[٣] إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال وديعة بن ثابت: (**ما لي أرى قرّاءنا هؤلاء أوعبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء؟**) وقال الجلاس بن سويد: (**هؤلاء ساداتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. والله، لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجلٍ منا مائة جلدة وأنا ننفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم!**)[٤].

وقد أخبر القرآن الكريم عن تخوّف المنافقين من نزول شيء فيهم على الرغم من استمرارهم في شيطنتهم، قال «سبحانه وتعالى»: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ، وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٥].

وذُكِر أن ناقة رسول الله «صلى الله عليه وآله» ضلّت، فذهبوا في طلبها، فقال رسول الله لعمارة بن حزم الأنصاري، وكان عنده: (**إن رجلاً قال: محمدٌ يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته**). ثم علّق النبي على كلام الرجل فقال: (**وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي قد حبَسَتْها شجرة بزمامها**).

فانطلقوا فجاءوا بها، فرجع عمارة إلى رحله، فحدّثهم عما جرى،

عمارة بن حزم بن زيد الأنصاري الخزرجي، كان من السبعين الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية، شهد بدراً وما بعدها، استشهد يوم اليمامة في قتال المرتدين سنة ١١ للهجرة.

١. سورة التوبة: ٧٩.
٢. وفي نص آخر أن اسمه مخشّى.
٣. ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج٢، ص٢٥٧-٢٥٨.
٤. المغازي: الواقدي، ج١، ص ٤٠٣.
٥. سورة التوبة: ٦٤-٦٦.

فقيل له: (**إنما قال ذلك زيد بن اللصيت**). وكان زيد متواجداً في رحل عمارة قبل أن يأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: (**إنَّ في رَحلي لداهية وأنا لا أدري، اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني. فقال بعض الناس: إن زيداً تاب، وقال بعضهم: لم يزل مصراً حتى هلك**)[١].

من يهود بني قينقاع، أسلم فنافق، وكان يستخدم مكر اليهود وخبثهم في محاربته للنبي، وكان مظاهراً للمنافقين من أهل المدينة.

وفي مورد آخر، لما ارتحل النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون عن منطقة الحِجر: (**أصبح ولا ماء معه ولا مع أصحابه، ونزلوا على غير ماء، فشكوا إليه العطش، فاستقبل القبلة ودعا، ولم تكن في السماء سحابة، فما زال يدعو حتى اجتمعت السحائب من كل ناحية، فما برح من مقامه حتى سحت بالرواء، فانكشفت السحابة من ساعتها فسقي الناس وارتووا و ملاؤا الأسقية، قال بعض الصحابة: قلت لرجل من المنافقين: ويلك أبعد هذا شيء؟ فقال: سحابة مارّة!**)[٢]. وذكر المقريزي أن الصحابي هو عبدالله بن أبي حدرد، والمنافق إما زيد بن اللصيت أو أوس بن قيظي.

٢. **عقد التجمعات المريبة**: حيث اتخذوا بيت أحد اليهود مركزاً للاجتماع للتخطيط ضد النبي «صلى الله عليه وآله»، قال ابن كثير: (**بلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم**[٣]**، يثبّطون الناس عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في غزوة تبوك**)[٤].

٣. **الانسحاب قبل المواجهة مع العدو**: وهو الأسلوب الذي اعتمده المنافقون من قبلُ. قال الواقدي في مغازيه: (**وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من غير علةٍ، فأذن لهم، وكان المنافقون الذين استأذنوا بضعه وثمانين. وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله «عز وجل»، هم نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماء بن رحضة، اثنان وثمانون رجلاً. وأقبل عبد الله بن أُبيّ بعسكره، فضربه على ثنية الوداع بحذاء ذُباب**[٥]**، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجتمع إليه، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين**). فلما سار رسول الله: (**تخلف ابن أبيّ عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فيمن تخلف من المنافقين. ولما مضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من ثنية الوداع سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجال فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان! فيقول: دعوه، فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه**)[٦].

---

١. ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص ١٦-١٧.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٩-٢٥٠.
٣. منطقة في المدينة يسكن فيها بعض اليهود.
٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص ٧.
٥. ذباب اسم جبل يقع شرق جبل سلع حيث حفر الخندق. ويسمى اليوم جبل الراية، ويبعد عن المسجد النبوي ١,٥ كم.
٦. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٠.

٤. **اتخاذ مسجد ضرار**: والذي جاء وصفه في القرآن بأنه بُني ضراراً، فعُرف بهذا العنوان. قال «عز اسمه»: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[١]. وسنتحدث لاحقاً بشيء من التفصيل عن هذا المسجد.

* التعبئة العامة :

كان لابد لمواجهة كبيرة محتمَلة مع الروم وحلفائها أن يتم الاستعداد لها بشكل جيد، وأن تكون التعبئة مستوعبة لأكبر عدد ممكن من الرجال، بالإضافة إلى توفير الإمدادت ووسائل النقل بلحاظ المسافة البعيدة التي سيقطعها الجيش شمالاً باتجاه الشام.

وبين أيدينا نصوص عديدة تتحدث عن حث النبي «صلى الله عليه وآله» المسلمين من أهل المدينة ومكة والقبائل المنتشرة في الجزيرة العربية وأهل المدن والقرى للحضور والمشاركة في الغزوة، إلا أن الاستجابة في بداية الأمر لم تكن بالمستوى المطلوب، فنزلت آيات عديدة من سورة التوبة لمعالجة الموضوع.

فعلى مستوى المشاركة في الجيش: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ، إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وعلى مستوى المساهمة المالية في إعداد الجيش وتأمين المؤونة ومساعدة غير القادرين على الخروج لتمكينهم من ذلك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[٣].

ويبدو أن الآيات والجهود التي بذلها النبي «صلى الله عليه وآله» أثمرت لاحقاً وهو ما يعكسه النص التالي: **(ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف واحتسبوا في ذلك الخير، وقوّوا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم حتى إن الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج، حتى إن كن النساء ليُعنّ بكل ما قدرن عليه. قالت أم سنان الأسلمية: لقد رأيت ثوباً مبسوطا**

١. سورة التوبة: ١٠٧.
٢. سورة التوبة: ٣٨-٤١.
٣. سورة التوبة: ٤٦.

بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في بيت عائشة «رضي الله عنها» فيه مسك ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات[١] مما يبعث به النساء يُعِنّ به المسلمين في جهازهم)[٢].

وقد أُطلق على هذا الجيش اسم جيش العسرة، وجاء العنوان من قوله «عزوجل»: ﴿لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]. ولم تكن العسرة عسرةً مالية فقط، بل نفسية أيضاً.

قال القرطبي: **(كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوّس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة[٤]، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء، كذلك حتى يأتي على آخرهم، فلا يبقى من التمرة إلا النواة)[٥].**

❊ المتخلفون عن الخروج :

تتحدث الآيات القرآنية والنصوص التاريخية عن تخلف فئات من مجتمع المدينة المنورة وغيرهم عن المشاركة في الجيش، ويمكن تقسيمهم إلى فئات:

١. **المعذّرون:** أي أصحاب الأعذار الواهية. قال «عزوجل»: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّـهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٦].

٢. **المعذورون:** أي أصحاب الأعذار الحقيقية. قال «عزوجل»: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّـهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٧].

٣. **البكاؤون:** أي أصحاب الأعذار الحقيقية والذين كانوا يتشوّقون للخروج ولكن ظروفهم لم تسمح بذلك فانقلبوا باكين. قال «عزوجل»: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ

---

١. الخدمات: الحلي التي تلبسها المرأة.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٣٩٨.
٣. سورة التوبة: ١١٧.
٤. أي الليّـة المذابة المتغيرة الرائحة.
٥. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص٢٧٩.
٦. سورة التوبة: ٩٠.
٧. سورة التوبة: ٩١.

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[1]. وفي الخبر المروي عن ابن إسحق أنهم كانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم. قال ابن حبان: (فاستحملوا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾)[2].

٤. **المنافقون**: قال الله «عزوجل» في حديثه عن المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3].

٥. **مَن أبطأت بهم النية**: أي الذين لم يخرجوا معه، ولكنهم سرعان ما ندموا وتابوا إلى الله، قال «سبحانه وتعالى» في شأن من تاب عليهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[4]. وسنتحدث عنهم لاحقاً.

* أبو ذر يمشي وحده:

بعد أن اتضحت الصورة، لم يعد النبي «صلى الله عليه وآله» يعير اهتماماً للمتخلفين، إلا أن أباذر كان بين من تخلّف عن الجيش مؤقتاً، ويبدو أن النبي كان متألماً لذلك، وقد تحدث أبوذر ـ في نص مروي عنه ـ ما الذي جعله في مثل هذا الموقف الحرج. قال الواقدي في مغازيه: (كان أبو ذر يقول: أبطأتُ في غزوة تبوك من أجل بعيري، كان نِضواً أعجف[5]، فقلت: أعلفه أياماً ثم ألحق برسول الله «صلى الله عليه وسلم». فعلفته أياماً ثم خرجت، فلما كنت بذي المروة عجز بي، فتلوّمت عليه يوماً فلم أر به حركة، فأخذت متاعي فحملته على ظهري، ثم خرجت أتبع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ماشياً في حر شديد، وقد تقطّع الناس فلا أرى أحداً يلحقنا من المسلمين، فطلعت على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» نصف النهار وقد بلغ مني العطش، فنظر ناظر من الطريق فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: كن أبا ذر[6]. فلما تأملني القوم قالوا: يا رسول الله، هذا أبو ذر. فقام رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حتى دنوت منه فقال: مرحباً بأبي ذر. يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده. فقال: ما خلَّفك يا أبا ذر؟ فأخبره خبر بعيره، ثم قال: إن كنتَ لمن أعز أهلي عليّ تخلفاً، لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوةٍ ذنباً إلى أن بلغتني. ووضع متاعه عن ظهره

١. سورة التوبة: ٩٢.
٢. ابن حبان: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ج١، ص ٣٦٧.
٣. سورة التوبة: ٨٧.
٤. سورة التوبة: ١١٨.
٥. النِّضْوُ: المهزولُ من الحيوان. وحيوان أَعْجَف: مَهْزول.
٦. يتمنى النبي أن يكون الرجل الماشي وحده أبا ذر.



ثم استسقى، فأتى بإناء من ماء فشربه، فلما أخرجه عثمان «رضي الله عنه» إلى الربذة فأصابه قدرُه[1] لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما فقال: اغسلاني وكفّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق إذا أنا مت. وأقبل ابن مسعود في رهطٍ من العراق عماراً، فلم يرعهم إلا بالجنازة على قارعة الطريق قد كادت الإبل تطرها، فسلم القوم فقام إليهم غلامه فقال لهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فأعينوني عليه. فاستهلَّ ابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، أبو ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده. ثم نزل هو وأصحابه حتى وراروه، ثم حدثهم ابن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في مسيره إلى تبوك)[2].

* أبو خيثمة يتخلف :

وممن تخلف عن المسير مع الجيش أبو خيثمة ولم يكن يُصنّف من المنافقين بل في الخبر أنه كان لا يُتهم في إسلامه. بقي أبو خيثمة في المدينة، وبعد أن سار رسول الله «صلى الله عليه وآله» عشرة أيام دخل على امرأتين له في يومٍ حار فوجدهما في عريشين لهما، قد رشت كل واحدةٍ منهما عريشها وبرّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما انتهى إليهما قام على العريشين فقال: (سبحان الله! رسول الله قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في الضح والريح

أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة السالمي، أحد بني سالم من الخزرج. شهد أُحُداً وبقي إلى أيام حكم يزيد بن معاوية.

١. تعبير جبري بامتياز! أخرجه قدره.. لتبرئة الفاعل الحقيقي وإسناد ذلك إلى القدَر!
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠١-٤٠٢.

والحر، يحمل سلاحه على عنقه، وأبو خيثمة في ظلالٍ باردٍ وطعامٍ مهيأ وامرأتين حسناوين، مقيم في ماله، ما هذا بالنَّصَف! ثم قال: والله، لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى أخرج فألحق برسول الله «صلى الله عليه وسلم». فأناخ ناضحَه[١] وشد عليه قتبه[٢] وتزوّد وارتحل، فجعلت امرأتاه يكلمانه ولا يكلمهما، حتى أدرك عمير بن وهب الجمحي[٣] بوادي القرى يريد النبي «صلى الله عليه وسلم»، فصحبه فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة: يا عمير، إن لي ذنوباً وأنت لا ذنب لك، فلا عليك أن تخلّف عني[٤] حتى آتي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قبلك. ففعل عمير، فسار أبو خيثمة حتى إذا دنا من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب الطريق. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كن أبا خيثمة. فقال الناس: يا رسول الله، هذا أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على النبي «صلى الله عليه وسلم»، فقال له رسول الله: أولى لك يا أبا خثيمة. ثم أخبر رسول الله الخبر، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خيراً ودعا له)[٥].

* أنت مني بمنزلة هارون:

أمر النبي «صلى الله عليه وآله» أمير المؤمنين علياً «عليه السلام» بالبقاء في المدينة، (واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وذكر عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن أبيه: أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» استعمل على المدينة ـ مخرجه إلى تبوك ـ سبّاع بن عرفطة... وخلَّف رسول الله «صلى الله عليه وسلم» علي بن أبي طالب «رضوان الله عليه» على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلّفه إلا استثقالا له، وتخفُّفاً منه. فلما قال ذلك المنافقون، أخذ علي بن أبي طالب «رضوان الله عليه» سلاحَه، ثم خرج حتى أتى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو نازل بالجُرف[٦]، فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنك إنما خلّفتني أنك استثقلتني وتخفَّفْتَ منّي، فقال: كذبوا، ولكنني خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع علي إلى المدينة؛ ومضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على سفره)[٧].

ولكن في كتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودي جاء الخبر مغايراً لما سبق، قال: (وكان استخلف عليها[٨] علي

١. الناضِح: الدابة يُسْتَقَى عليها.
٢. القتب للإبل كالسرج للفرَس.
٣. ذكرنا قصة إسلامه في نهايات أحداث غزوة بدر.
٤. أي تتأخر عني.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠١.
٦. الجرف موضع يقع شمال غرب المدينة المنورة.
٧. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٥١٩-٥٢٠.
٨. أي على المدينة المنورة.

ابن أبي طالب، وقد ذهب قوم إلى أنه استخلف عليها أبا رهم الغفاري وعلى أهله علي بن أبي طالب، وقيل بل استخلف عليها بن أم مكتوم، وقيل محمد بن مسلمة، وقيل سباع بن عرفطة... وفي هذه الغزاة قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعلي بن أبي طالب لما خلفه بالمدينة ولم يخلّفه قبلها، وقد رأى كراهية علي لذلك: أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. والأشهر أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» استخلف علياً على المدينة، ليكون مع مَن ذَكرنا من المتخلّفين، وقد ذكرنا السبب الذي له ومن أجله خَلَّفه، وسبب تخلّف عبد الله ابن أبيّ فيما ذكرنا في كتاب «الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار»[1]. وللأسف فإن الكتاب مفقود، فلا يمكننا أن نعرف الأسباب التي ذكرها فيه.

والمسألة المحورية في الاستخلاف على المدينة وليس على أهله فقط ـ مع ما عُرف عن علي «عليه السلام» من أنه الشخصية الأبرز والحاسمة في مغازي النبي «صلى الله عليه وآله» ـ هو ما أشار إليه المسعودي بقوله (**ليكون مع مَن ذكرنا مِن المتخلفين**) لاسيما بلحاظ قول النبي (**أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟**) والذي يعتبر مفتاح الحل في القضية وذلك بالرجوع إلى الآيات القرآنية التي تحدَّثت عن قضية موسى وهارون «عليهما السلام» لنعرف حجم الخطر المحدق، وهاجس النبي ودور الإمام علي المتوقع في مواجهة ذلك الخطر.

قال «سبحانه»: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[2]. وقال «عز اسمه»: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[3].

إذاً فقد كان النبي يخشى مؤامرة كبرى من المنافقين شعر ببوادرها قبل الغزوة، وتجلّت في حالات التخلف العديدة والمواقف المهزوزة والبطء في التعامل مع الأمر بالخروج وحالات التثبيط وغير ذلك من الشواهد والدلالات التي أقلقت النبي «صلى الله عليه وآله» والتي يبدو أنها لم تكن لتنتهي وفق المخطط بأقل من القضاء على النبي، والانقلاب على كل الوضع القائم في المدينة المنورة.

---

١. ابن مسعود: التنبيه والإشراف، ج١، ص ١٠٠.
٢. سورة الأعراف: ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠.
٣. سورة طه: ٨٣-٨٦، ٩٠.

ولعل كثرة الآيات القرآنية التي تحدثت في سورة التوبة عن دور المنافقين والتشديد في التعامل معهم وتهديدهم بردود الفعل العنيفة إنما جاءت لخطورة الأوضاع والأهداف التي رسموها لمخططهم. ولربما إلى هذا أيضاً أشار النبي بقوله تتمَّةً لحديث المنزلة: (**إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك**)[1].

وفي التفسير المنسوب للإمام العسكري «عليه السلام» رواية عن الإمام موسى الكاظم «عليه السلام» أنه قال: (**ولقد اتخذ المنافقون من أمة محمد «صلى الله عليه وآله» بعد موت سعد بن معاذ وبعد انطلاق محمد «صلى الله عليه وآله» إلى تبوك أبا عامر الراهب أميراً ورئيساً، وبايعوا له وتواطؤوا على إنهاب المدينة وسبي ذراري رسول الله «صلى الله عليه وآله» وسائر أهله وصحابته، ودبّروا التبييت على محمد ليقتلوه في طريقه إلى تبوك، فأحسن الله الدفاع عن محمد «صلى الله عليه وآله» وفضَح المنافقين وأخزاهم**)[2].

وكان يراد للإمام علي «عليه السلام» أن يؤدي دوراً أهم وأكثر حساسية من مشاركته في الغزوة، وهو نفس الدور الذي أريد للنبي هارون «عليه السلام» أن يؤديه حينما تركه النبي موسى «عليه السلام» مع قومه في أرض سيناء وذهب لميقات ربه. ويبدو أن المنافقين أدركوا هدف استخلاف النبي لعلي، ولذا حاولوا أن يُثيروا الأجواء ضد الإمام بالسخرية والهمز واللمز، كي تُثار حميته فيترك المدينة إصراراً على المشاركة في الغزوة، ويقع النبي تحت طائلة ضغط وإلحاح الإمام، لاسيما حين وصفوا وضعه بأنه مُستخلَف مع النساء والصبيان، أي مع الضعفاء. ففطنة النبي واستجابة الإمام علي فوّتا الفرصة على المنافقين وأفسدتا عليهم مخططاتهم والتي سعوا لتنفيذ بعض عناصرها في مراحل قادمة، من قبيل محاولة اغتيال النبي، والتي سنستعرضها لاحقاً بإذن الله.

ولربما يقال بأن النبي هارون «عليه السلام» لم ينجح في المهمة الموكلة إليه وحدث الانقلاب في مجتمع بني إسرائيل بعبادة العجل، فهل أريد للإمام علي أن يعيش نفس التجربة؟ والجواب عن ذلك أننا قلنا أن النبي أراد له أن يقوم بذات الدور، لا أن النتيجة ستكون في الحالتين واحدة.

وقد حاول البعض التشكيك في صدور حديث المَنزلة، وقد أشار إلى ذلك السائل في المراجعة ٣٠ من كتاب «المراجعات» فقال: (**حديث المنزلة صحيح مستفيض، لكن المدقق الآمدي ـ وهو فحل الفحول في علم الأصول ـ شك في أسانيده، وارتاب في طرقه، وربما تشبث برأيه خصومكم، فبماذا تستظهرون عليهم ؟**). فرد عليه المؤلف العلامة شرف الدين بالنقاط التالية:

١. ظلَم الآمدي بهذا التشكيك نفسَه، فإن حديث المنزلة من أصح السنن وأثبت الآثار.

---

١. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ٣٣٤٧.
٢. الإمام العسكري: تفسير القرآن، ح ٣٠٩.

٢. لم يختلج في صحة سنده ريب، ولا سنح في خواطر أحد أن يناقش في ثبوته ببنت شفة، حتى أن الذهبي على تعنّته صرح في تلخيص المستدرك بصحته، وابن حجر الهيثمي على محاربته بصواعقه ذكر الحديث في الشبهة الثانية عشرة من الصواعق، فنقل القول بصحته عن أئمة الحديث الذين لا معوّل فيه إلا عليهم، فراجع.

ولولا أن الحديث بمثابة من الثبوت، ما أخرجه البخاري في كتابه، فإن الرجل يغتصب نفسه عند خصائص علي وفضائل أهل البيت اغتصاباً. ومعاوية كان إمام الفئة الباغية، ناصَبَ أمير المؤمنين وحاربه، ولعنه على منابر المسلمين، وأمرهم بلعنه..... لم يجحد حديث المنزلة، ولا كابر فيه سعد بن أبي وقاص حين قال له فيما أخرجه مسلم: «**ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فلن أسبّه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حُمر النَّعَم. سمعت رسول الله يقول له، خلَّفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان فقال له رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي**»[١]. فأبلس معاوية، وكف عن تكليف سعد.

ثم إن معاوية نفسه حدّث بحديث المنزلة ، قال ابن حجر في صواعقه: (**أخرج أحمد أن رجلاً سأل معاوية عن مسألة، فقال: سل عنها علياً فهو أعلم. قال: جوابك فيها أحب إليَّ من جواب علي. قال: بئس ما قلت. لقد كرهت رجلاً كان رسول الله يغره بالعلم غراً، ولقد قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه...**)[٢] إلى آخر كلامه . وبالجملة فإن حديث المنزلة مما لا ريب في ثبوته بإجماع المسلمين على اختلافهم في المذاهب والمشارب.... وأورده ابن عبد البر في أحوال علي من «الاستيعاب» ثم قال ما هذا نصه: (**وهو أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي «صلى الله عليه وسلم» سعد بن أبي وقاص، وطريق حديث سعد فيه كثيرة جداً، قد ذكرها ابن أبي خثيمة وغيره، ورواه ابن عباس وأبوسعيد الخدري وأم سلمة وأم أسامة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبدالله وجماعةٌ يطول ذكرهم**)[٣].

فلا عبرة بتشكيك الآمدي في سنده فإنه ليس من علم الحديث في شيء، وحكمه في معرفة الأسانيد والطرق حكم العوام لا يفقهون حديثاً، وتبحره في علم الأصول هو الذي أوقعه في هذه الورطة، حيث رآه بمقتضى الأصول نصاً صريحاً لا يمكن التخلص منه إلا بالتشكيك في سنده، ظناً منه أن هذا من الممكن. وهيهات هيهات ذلك[٤].

١. مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.
٢. ذكر شرف الدين أن كلام ابن حجر جاء (أثناء المقصد الخامس من المقاصد التي أوردها في الآية الرابعة عشر من الباب ١١ ص١٠٧ من الصواعق). ويمكن أن تجد الرواية في تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٥٩، ص ٧٤.
٣. ابن عبدالبر: الاستيعاب، ج٣، ص ١٠٩٠.
٤. شرف الدين: المراجعات، المراجعة ٢٨.

كما وحاول البعض التشكيك في قيمة حديث المنزلة بعد أن صعب عليهم التشكيك في أصل صدوره، واستعرض صاحب المراجعات مع محاوِره جانباً من ذلك، قال المحاور: (**وقد بلغني أن غير الأمدي من خصومكم، يزعم أن لا عموم في حديث المنزلة وأنه خاص بمورده، واستدل بسياق الحديث، وسببه لأنه إنما قاله لعلي حين استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال له الإمام «رضي الله عنه»: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال «صلى الله عليه وآله»: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي، وكأنه «صلى الله عليه وآله» أراد كونه منه بمنزلة هارون من موسى حيث استخلفه في قومه عند توجهه إلى الطور، فيكون المقصود أنت مني أيام غزوة تبوك بمنزلة هارون من موسى أيام غيبته في مناجاة ربه**). وأضاف : (**ربما قالوا : إن الحديث غير حجة وإن كان عاماً لكونه مخصوصاً، والعام المخصوص غير حجة في الباقي**).

قال شرف الدين رداً على الشبهة: (**نحن نوكل الجواب عن قولهم بعدم عموم الحديث إلى أهل اللسان والعُرف العربيين، وأنت حُجّة العرب لا تُدافَع، ولا تُنازَع، فهل ترى أمتك ـ أهل الضاد ـ يرتابون في عموم المنزلة من هذا الحديث. كلا وحاشا مثلك أن يرتاب في عموم اسم الجنس المضاف وشموله لجميع مصاديقه، فلو قلت: منحتكم إنصافي مثلاً، أيكون إنصافك هذا خاصاً ببعض الأمور دون بعض، أم عاماً شاملاً لجميع مصاديقه؟ معاذ الله أن تراه غير عام، أو يتبادر منه إلا الاستغراق، ولو قال خليفة المسلمين لأحد أوليائه: جعلت لك ولايتي على الناس، أو منزلتي منهم، أو منصبي فيهم، أو مُلكي، فهل يتبادر إلى الذهن غير العموم؟ وهل يكون مدَّعي التخصيص ببعض الشؤون دون بعض إلا مخالفاً مجازفاً؟ ولو قال لأحد وزرائه: لك في أيامي منزلة عمر في أيام أبي بكر إلا أنك لست بصحابي، أكان هذا بنظر العرف خاصاً ببعض المنازل أم عاماً؟ . . . أما قول الخصم بأن الحديث خاص بمورده فمردود من وجهين. الوجه الأول: أن الحديث في نفسه عام كما علمت، فمورده ـ لو سلمنا كونه خاصاً ـ لا يُخرجه عن العموم، لأن المورد لا يخصص الوارد كما هو مقرر في محله. ألا ترى لو رأيت الجُنُب يمس آية الكرسي مثلاً، فقلت له: لا يمسّنّ آيات القرآن مُحدِث، أيكون هذا خاصاً بمورده، أم عاماً شاملاً لجميع آيات القرآن ولكل مُحدِث؟ ما أظن أحداً يفهم كونه خاصاً بمس الجنُب بخصوصه لآية الكرسي بالخصوص. . . الوجه الثاني: أن الحديث لم تنحصر موارده باستخلاف علي على المدينة في غزوة تبوك ليتشبث الخصم بتخصيصه به، وصحاحنا المتواترة عن أئمة العترة الطاهرة تثبت وروده في موارد أخر فليراجعها الباحثون، وسنن أهل السنة تشهد بذلك كما يعلمه المتتبعون، فقول المعترض بأن سياق الحديث دال على تخصيصه بغزوة تبوك مما لا وجه له إذن، كما لا يخفى. أما قولهم بأن العام المخصوص ليس بحجة في الباقي، فغلط واضح، وخطأ فاضح، وهل يقول به في مثل حديثنا إلا من يعتنف الأمور، فيكون منها على غماء، كراكب عشواء، في ليلة ظلماء، نعوذ بالله من الجهل، والحمد لله على العافية. إن تخصيص العام لا يخرجه عن الحجية في الباقي إذا لم يكن المخصص مجملاً، ولا سيما إذا كان متصلاً**

كما في حديثنا، فإن المولى إذا قال لعبده: أكرم اليوم كل من زارني إلا زيداً، ثم ترك العبد إكرام غير زيد ممن زار مولاه يعد في العرف عاصياً، ويلومه العقلاء، ويحكمون عليه باستحقاق الذم، والعقوبة على قدر ما تستوجبه هذه المعصية عقلاً أو شرعاً، ولا يُصغي أحد من أهل العرف إلى عذره لو اعتذر بتخصيص هذا العام، بل يكون عذره أقبح عندهم من ذنبه، وهذا ليس إلا لظهور العام ـ بعد تخصيصه ـ في الباقي، كما لا يخفى..)[1].

ويمكن أن يضاف إلى ردّه أنه يكفي أن يكون صحابي كسعد بن أبي وقاص قد أدرك ما في الحديث من مضمون ـ وهو الشاهد على صدوره من النبي ـ حتى قال كما في صحيح مسلم لما أمره معاوية أن يسب علياً فرفض فاستفهم منه معاوية السبب: (لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حُمر النَّعَم)[2].

قال المفيد في «الإرشاد» في بيان قيمة الخبر: (تضمّن هذا القول من رسول الله «صلى الله عليه وآله» نصه عليه بالإمامة، وإبانته عن الكافة بالخلافة، ودل به على فضل، لم يشركه فيه سواه، وأوجب له به «عليه السلام» جميع منازل هارون من موسى، إلا ما خصه العرف من الأخوة واستثناه هو[3] «عليه السلام» من النبوة. ألا ترى أنه «عليه وآله السلام» جعل له كافة منازل هارون من موسى، إلا المستثنى منها لفظاً أو عقلاً؟ وقد علم كل من تأمل معاني القرآن، وتصفح الروايات والأخبار، أن هارون «عليه السلام» كان أخا موسى لأبيه وأمه وشريكه في أمره، ووزيره على نبوته وتبليغه رسالات ربه، وأن الله «عزوجل» شدَّ به أزره، وأنه كان خليفته على قومه، وكان له من الإمامة عليهم وفرض الطاعة كإمامته وفرض طاعته، وأنه كان أحب قومه إليه وأفضلهم لديه. قال الله «عز وجل» حاكياً عن موسى «عليه السلام»: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[4]. فأجاب الله «عزوجل» مسألته وأعطاه سؤله في ذلك وأمنيته، حيث يقول: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[5]. وقال حاكياً عن موسى «عليه السلام»: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[6] فلما جعل النبي «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» منه بمنزلة هارون من موسى، أوجب له بذلك جميع ما عددناه، إلا ما خصَّه العرف من الأخوة واستثناه من النبوة لفظاً. وهذه فضيلة لم يشرك فيها أحد من الخلق أمير المؤمنين «عليه السلام» ولا ساواه في معناها ولا قاربه فيها على حال، ولو علم الله «تعالى» أن بنبيه «عليه السلام» في

---

١. شرف الدين: المراجعات، المراجعتان ٢٩-٣٠.
٢. مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٤٠٤.
٣. أي رسول الله.
٤. سورة طه: ٢٥-٣٢.
٥. سورة طه: ٣٦.
٦. سورة الأعراف: ١٤٢.

هذه الغزاة حاجة إلى الحرب والأنصار، لما أذن له في تخليف أمير المؤمنين «عليه السلام» عنه حسب ما قدمناه، بل علم أن المصلحة في استخلافه، وأن إقامته في دار هجرته مقامه أفضل الأعمال، فدبر الخلق والدين بما قضاه في ذلك وأمضاه ...)[1].

❊ حركة الجيش نحو تبوك :

صحب النبي ثلاثون ألف مقاتل، من بينهم عشرة آلاف فارس، وقسّم الرايات فكانت لبطون الأنصار راياتهم، وللقبائل العربية راياتهم. وقد ذكر زيد بن ثابت في خبر أنه حمل لواء مالك بن النجار في تبوك. فسئل: **(يا أبا سعيد، كم ترى كان المسلمون؟ قال: ثلاثون ألفاً، لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس، فما يزالون يرحلون والساقة ـ المؤخرة ـ مقيمون حتى يرحل العسكر. فسألت بعض مَن كان بالساقة فقال: ما يرحل آخرهم إلا مساء، ثم نرحل على أثرهم فما ننتهي إلى العسكر إلا مُصبحين، من كثرة الناس)**[2].

❊ تشييد المساجد :

ذكر عدد من المؤرخين أن النبي «صلى الله عليه وآله» شيّد عدة مساجد خلال مسيره إلى تبوك. قال الواقدي في المغازي : **(ومضى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من المدينة، فصبّح ذا خشب، فنزل تحت الدومة، وكان دليله إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعي. فقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» تحت الدومة، فراح منها ممسياً حيث أبرد، وكان في حر شديد، وكان يجمع من يوم نزل ذا خشب**[3] **بين الظهر والعصر في منزله ـ حيث ينزل في الطريق ـ يؤخِّر الظهر حتى يبرد، ويعجِّل العصر، ثم يجمع بينهما، فكل ذلك فعله حتى رجع من تبوك. وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة؛ صلى تحت دومة بذي خشب، ومسجد الفيفاء، ومسجد بالمروة، ومسجد بالسقيا، ومسجد بوادي القرى، ومسجد بالحِجر، ومسجد بذنب حوصاء، ومسجد بذي الجيفة من صدر حوصاء، ومسجد بشق تاراء مما يلي جوبر، ومسجد بذات الخطمى، ومسجد بسمنة، ومسجد بالأخضر، ومسجد بذات الزراب، ومسجد بالمدران، ومسجد بتبوك)**.

وهل شُيِّدت كمساجد أم اتخذها المسلمون لاحقاً مواضع لمساجد؟ يبدو أن الثاني أقرب للقبول، وذلك لقصر مدة السفر مما لا يسمح بتشييد كل تلك المساجد، نعم يمكن أن نقول أن النبي وضع حجر الأساس وعمل المسلمون لاحقاً على تشييدها.

---

١. المفيد: الإرشاد، ص ٧٤.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٠.
٣. ليس بعيداً عن ذي المروة.

❊ قصة أبي رهم :

كان أبو رهم الغفاري وهو كلثوم بن الحصين، قد بايع رسول الله «صلى الله عليه وآله» تحت الشجرة فقال: **(غزوت مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تبوكاً. قال: فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر قريباً من رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وألقى الله علينا النعاس فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فيفزعني دنوّها منه، مخافة أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحوز راحلتي عنه، حتى غلبتني عيني في بعض الطريق، ونحن في بعض الليل، فزاحمت راحلتي راحلة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ورجله في الغرز[١]، فما استيقظت إلا بقوله: حس[٢]. فقلت: يا رسول الله، استغفر لي. فقال: سر. فجعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يسألني عمن تخلف عن بني غفار، فأخبره به؛ فقال وهو يسألني: ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط[٣]. فحدثته بتخلفهم. قال: فما فعل النفر السود الجعاد القصار؟ قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: بلى، الذين لهم نَعَم بشبكة شدخ[٤]؛ فتذكرتهم في بني غفار، ولم أذكرهم حتى ذكرت أم لهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم، حلفاء فينا؛ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطاً في سبيل الله؟ إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم)**[٥].

❊ عين تبوك :

روي أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أخبر مَن معه أنهم سيردون عين تبوك في الغد، وأوصاهم قائلاً: **(فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي. قال معاذ بن جبل: فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الزلال تبضّ بشئ من ماء، فسألهما: هل مسستما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم. فسبَّهما النبي «صلى الله عليه وآله» وقال لهما ما شاء الله أن يقول[٦]! ثم غرفوا بأيديهم قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شن[٧] ثم غسل النبي «صلى الله عليه وآله» فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجاءت العين بماء كثير فاستقى الناس. ثم قال النبي «صلى الله عليه وآله»: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مليء جناناً)**[٨].

١. الغَرْزُ: ركاب الرّحْل من جلد مخروز يُعتَمَد عليه في الركوب.
٢. كلمة تقال للتنبيه.
٣. ثطّ: خفّ شعر لحيته أو حاجبيه.
٤. شبكة شدخ: اسم ماء لأسلم من بني غفار.
٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٥٢٩.
٦. وفي رواية ابن هشام في حادثة مشابهة: (فسبقه إليه نفر من المنافقين... ثم لعنهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ودعا عليهم).
٧. الشن: قربة الماء.
٨. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٨.

ومن الواضح أن هذا المدَّعى لا يتناسب مع خلقه ووصاياه وتعاليمه «صلى الله عليه وآله» إلا على معيار ما في صحيح مسلم : (**عن عائشة قالت دخل على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رجلان فكلماه بشئ لا أدرى ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما. فلما خرجا قلت: يا رسول الله من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان! قال: وما ذاك؟ قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما. قال: أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما انا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً**)[1]، وهو مرفوض لتنافيه مع شخصية النبي وأخلاقه العظيمة.

❋ المفاجأة :

وبعد رحلة شاقة وصل المسلمون إلى تبوك، فلم يجدوا جيش الروم أو العرب المتحالفين معهم.. فقد كان خبر تحرك جيش الروم وحلفائهم من أساسه باطلاً كما أسلفنا.

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن هرقل إمبراطور الروم آنذاك كان قد آمن بنبوة سيدنا محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه قال لدحية الكلبي حين جاءه برسالة النبي: (**ويحك، والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وإنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم، فهو والله أعظم في الروم مني، وأجْوز قولاً عندهم مني، فانظر ما يقول لك**)[2]، وذكر اليعقوبي في تاريخه (**أن هرقل كتب إلى الرسول «صلى الله عليه وسلم» هذه الرسالة : إلى أحمد رسول الله الذي بشَّر به عيسى، من قيصر ملك الروم، أنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشَّرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك**)[3]، وأشرت إلى هذا الموضوع في أثناء الحديث عن غزوة مؤتة، واعتبر هؤلاء

في بدايات القرن السابع الميلادي كان «فوقاس» هو إمبراطور الروم، وهو الذي قام بنقل الجيش البيزنطي كله إلى آسيا لمواجهة الفرس، ولكنه خسر معاركه معهم. فاستغاث أشراف العاصمة القسطنطينية بهرقل إمبراطور أفريقيا، اليوناني الأصل، ودعوه لينقذ الإمبراطورية، فاعتذر وأرسل بدلاً عنه ابنه الذي يحمل نفس الاسم. فخَلع هرقلُ فوقاسَ ونودي به امبراطوراً عام ٦١٠م. وهرقل هذا هو الذي راسله النبي كما ذكرنا في تفاصيل غزوة مؤتة، وفي عهده انتصر المسلمون لاحقاً في فتوحاتهم لبلاد الشام وما يليها. توفي عام ٦٤١م.

١. مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٦٠٠.
٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ١٣٠.
٣. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٦٢.

الباحثون أن هذا هو السبب الحقيقي لامتناع هرقل عن القتال في تبوك، ولست أوافقهم على ذلك، فلو صح لما قاتل المسلمين في مؤتة، ولما أمر النبي «صلى الله عليه وآله» قبيل وفاته بالتجهيز لجيش أسامة للخروج نحو الشام، ولما قاتل المسلمين في الفتوحات بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله».

واحتمل بعض الباحثين أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان قد علم منذ البداية بعدم وجود تحرك حقيقي لقوات الروم وحلفائهم، وإنما أصر على الخروج لغرض كسر حاجز الخوف في نفوس المسلمين واستعراض القوة في المنطقة وإيصال رسالة إلى قوات الروم باستعداد المسلمين لهم إن أرادوا أن يقوموا بأية مغامرة لاحقاً.

ورأى آخرون أن قوات الروم وحلفاءها تحركوا فعلاً في اتجاه الجزيرة العربية، ولكنهم بعد أن وصلتهم أنباء تحرك قوات المسلمين آثروا الانسحاب، واستندوا في ذلك على الخبر التالي: (**شاور رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في التقدم، فقال عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»: إن كنت أُمرتَ بالمسير فسِر. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لو أُمرت به ما استشرتكم فيه. قال: يا رسول الله، فإن للروم جموعاً كثيرةً، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوّك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله «عز وجل» لك في ذلك أمراً**)[1].

وقالت جماعة أن انسحاب الروم كان تكتيكياً ولم يكن خوفاً من المسلمين، وهدفه استدراجهم ثم قطع المدد عنهم ومحاصرتهم والإجهاز عليهم، وقد فطن النبي «صلى الله عليه وآله» إلى ذلك فقرر عدم الاستمرار في الزحف بجيشه إلى حيث لا يعلم إلى أين ستصير الأحداث.

❋ تشييد مسجد تبوك :

أقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» في تبوك عشرين ليلة، ووضع فيها حجراً قبلةَ مسجد تبوك بيده. قيل: (**صلى الظهر بالناس، ثم أقبل عليهم فقال: ما هاهنا شام، وما هاهنا يمن**)[2].

والعبارة غير مفهومة إذا قرأنا الكلمتين «شام ـ يمن» مفتوحتين، أما إذا كانتا مضمومتين «شُؤم ـ يُمن» فالمعنى سيكون واضحاً نسبياً، حيث تبقى الجهة التي نسب إليها الشؤم والأخرى التي نسب إليها اليُمن غامضة، ويمكن فهمها من خلال نصوص أخرى. ففي كتاب إمتاع الأسماع للمقريزي: (**ونظر بتبوك نحو اليمن ورفع يديه يشير إلى أهلها وقال: الإيمان يمان، ونظر نحو المشرق وأشار بيده وقال: إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدّادين**[3]

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١٠.
٢. ن.م. ص ٤١١.
٣. الفدادين: أصحاب الإبل الكثيرة.



مسجد الرسول «التوبة» يقال أنه أسس على الموضع الذي حدده النبي لمسجده في تبوك

أهل الوبر من نحو المشرق حيث يُطلع الشيطان قرنيه)[1]. قيل: المراد بالفدادين من أهل المشرق ـ بالنسبة إلى موقع الحدث ـ أهل نجد.

وفي صحيح مسلم: (**عن أبي مسعود قال: أشار النبي «صلى الله عليه وسلم» بيده نحو اليمن فقال: ألا إن الإيمان ههنا، وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر**)[2].

وفي شرح صحيح مسلم للنووي: (**عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله: «صلى الله عليه وسلم»: غلظ القلوب والجفاء في المشرق، والإيمان في أهل الحجاز**)[3].

وفي مصنف ابن أبي شيبة: (**عن قيس عن أبي مسعود قال: أشار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بيده نحو اليمن فقال: إن اليُمن هاهنا، وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين عند أصول أذناب الإبل في ربيعة ومضر**)[4].

ولنا أن نتساءل ـ من واقع حالات مشابهة ـ هل هي نصوص موضوعة وُظّفت في خضم الصراعات التي

١. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج١، ص ٤٦١.
٢. مسلم: المسند الصحيح، ح ٥١.
٣. النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح الحديث ٥١.
٤. ابن أبي شيبة: المصنف، ح ٣١٧٥٣.

نشبت لاحقاً على عهد الإمام علي ثم الأمويين، بلحاظ توزع الولاءات؟ أم أنه استشراف نبوي للمستقبل مبني على معطيات حاضرة أو على إنباء غيبي، ولربما لما له علاقة بحروب الردة مثلاً حيث ستكون نجد واليمامة محورها بعد وفاة رسول الله بقليل؟

* موعظة ومسائل :

لم يهمل النبي «صلى الله عليه وآله» فترة المكث في تبوك وتجمع المسلمين حوله، بل قام بمهمة الوعظ والإرشاد كما تنقلها عدة روايات، منها ما رواه عبد الله بن عمر قال: (**كنا مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بتبوك، فقام يصلي من الليل، وكان يُكثر التهجد من الليل، ولا يقوم إلا استاك، وكان إذا قام يصلي صلى بفناء خيمته، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه. فصلى ليلة من تلك الليالي، فلما فرغ أقبل على من كان عنده فقال: أعطيت خمساً ما أعطيهن أحد قبلي: بُعثت إلى الناس كافة، وإنما كان النبي يُبعث إلى قومه، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تيممت وصليت، وكان مَن قَبْلي يُعظمون ذلك ولا يصلّون إلا في كنائسهم والبيع، وأُحلَّت لي الغنائم أكلها، وكان مَن كان قبلي يحرّمونها، والخامسة هي ما هي، هي ما هي، هي ما هي! ـ ثلاثاً ـ قالوا: وما هي يا رسول الله؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» : قيل لي: سَلْ، فكل نبي قد سأل، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله**)[1].

فما الذي سأله النبي لأمَّته؟ في كتاب صحيح مسلم: (**عَنْ ثوبان.. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسِنَة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً مِن سِوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإنَّ ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنَّه لا يُرَد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسِنَة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بَيْضتهم**[2] **ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً** [3]**، ويسبي بعضهم بعضاً**)[4]. وفي مسند أحمد تتمة للحديث: (**... إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين، وإذا وُضع في أمتي السيف لم يُرفَع عنهم إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين حتى تَعبد قبائل من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله «عزوجل»**)[5].

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١١.
٢. بيضتهم: جماعتهم وأصلهم، والبيضة أيضاً العز والملك.
٣. أي إذا فعلوا ذلك في أنفسهم، فإن هذا القضاء سيرتفع، وسيتسلط الآخرون عليهم ويستبيحون بيضتهم.
٤. مسلم: المسند الصحيح، ح ٢٨٨٩.
٥. ابن حنبل: المسند، ح ٢٧٧٠٣.

وحول الآية الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1] قال العلامة الطباطبائي: (وهناك روايات كثيرة مروية من طرق أهل السنة وروايات أخرى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» أن ما أوعده الله في الآية من العذاب النازل من فوقهم ومن تحت أرجلهم، أعني الصيحة والخسف سيقع على هذه الأمة، وأما لبسهم شيعاً وإذاقة بعضهم بأس بعض فوقوعه مفروغ عنه. وقد روى السيوطي في الدر المنثور وابن كثير في تفسيره أخباراً كثيره دالة على أنه لما نزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ إلى آخرها استعاذ النبي «صلى الله عليه وآله» إلى ربه ودعاه أن لا يعذب أمته بما أوعدهم من أنواع العذاب، فأجابه ربه إلى بعضها ولم يُجبه إلى بعض آخر وهو أن لا يُلبسهم شِيَعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض).

ثم رد العلامة الطباطبائي هذه الروايات بالأدلة التالية:

١. هذه الروايات ـ على كثرتها ـ وإن اشتملت على القوية والضعيفة من حيث أسنادها موهونة جميعاً بمخالفتها لظاهر الآية، فإن قوله «تعالى» في الآيتين التاليتين: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ، لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2] تهديد صريح بالوقوع.

٢. لو كان هناك بَداء برفع البلاء، لكان من الواجب أن نجده في كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس من ذلك أثر، بل الأمر على خلافه كما تقدم في البيان السابق أن عدة من آيات القرآن الكريم تؤيد هذه الآيات في مضمونها كالتي في سورة يونس والروم وغيرهما.

٣. هناك روايات أخر كثيرة عند السنة والشيعة دالة على وقوع ذلك ونزوله على الأمة في مستقبل الزمان.

٤. الروايات التي تتحدث عن أن النبي سأل من الله «عزوجل» أن يعطيه كذا وكذا، لا تتفق في عدد المسائل، ففي بعضها أنها كانت ثلاثاً، وفي بعضها أنها كانت أربعاً.

٥. وهي أيضاً لا تتفق في عدد ما أجيب إليه، ففي بعضها أنه كان واحداً، وفي بعضها أنه كان اثنين.

٦. ولا تتفق في نفس المسائل:

- ففي بعضها أنها كانت هي الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض.
- وفي بعضها أنها الغرق والسِّنة وجعل بأسهم بينهم.

١. سورة الأنعام: ٦٥.
٢. سورة الأنعام: ٦٦-٦٧.

- وفي بعضها أنها السِّنة العامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم وأن يذيق بعضهم بأس بعض.
- وفي بعضها أن المسائل هي أن لا يجمع أمته على ضلالة وأن لا يُظهر عليهم عدواً مِن غيرهم وأن لا يهلكهم بالسنين وأن لا يُلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض.
- وفي بعضها أنها أن لا يظهر عليهم عدو مِن غيرهم وأن لا يُهلكهم بغرق وأن لا يجعل بأسهم بينهم.
- وفي بعضها أنها أن لا يُهلكهم بما أهلك به مَن قبلهم وأن لا يُظهر عليهم عدواً من غيرهم وأن لا يُلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض.
- وفي بعضها أنها أن لا يظهر عليهم عدو مِن غيرهم وأن لا يُهلكهم بغرق وأن لا يجعل بأسهم بينهم.
- وفي بعضها أنها العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وأن يلبسهم شيعاً وأن يذيق بعضهم بأس بعض.

٧. على أن في كثير منها أن دعاءه «صلى الله عليه وآله» كان في حَرّة بني معاوية، قرية من قرى الأنصار بالعالية، ولازمه كونه بعد الهجرة، وسورة الأنعام من السور النازلة بمكة قبل الهجرة دَفْعة.

٨. وفي الروايات اختلافات أخرى تظهر لمن راجعها.

ثم بيّن الطباطبائي أنه إن كان ولا بد من أخذ شيء من الروايات، فالوجه هو اختيار ما رواه عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن شداد بن أوس يرفعه إلى النبي «صلى الله عليه وآله»: (**إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوى لي منها، وإني أعطِيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي أن لا يُهلك قومي بسِنة عامة، وأن لا يُلبسهم شيعاً ولا يُذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً مِن سواهم فيهلكوهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضُهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً. فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: إني أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين، فإذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة**). لأن هذه الرواية ـ بحسب كلام العلامة الطباطبائي ـ وما في مضمونها خالية عن غالب الإشكالات السابقة، وليس فيها أن الدعاء كان إثر نزول الآية.

ولكنه جعل قبوله هذا أيضاً مشروطاً حيث قال: (**وينبغي مع ذلك أن يُحمل على أن المراد رفع الهلاك العام والسنة العامة التي تبيد الأمة، وإلا فالسنين والمُثلات والمقاتل الذريعة التي لقيتها الأمة في حروب المغول والصليب وبأندلس وغيرها مما لا سبيل إلى إنكارها، وينبغي أيضاً أن تُحمل على أن الدعاء والمسألة كان في أوائل البعثة قبل نزول السورة، وإلا فالنبي «صلى الله عليه وآله» أعلم بمقام ربه وأجل قدراً من أن يتلقي هذه الآيات بالوحي ثم يراجع ربَّه في تغيير ما قضى به وأمره بتبليغه وإنذار أمته به**).

ثم يختم العلامة كلامه بوضع إطار عام لتقييم هذا الأمر وما يشبهه فقال: (**القرآن الشريف يدل بآياته على حاق الأمر وهو أن هذا الدين قائم إلى يوم القيامة ، وأن الأمة لا تبيد عامة ، وأن أمثال ما ابتلى الله به الأمم السالفة تُبتلى بها هذه الأمة حذو النعل بالنعل من غير أي اختلاف وتخلف. والروايات المستفيضة المروية عن النبي والأئمة من أهل بيته «عليهم السلام» القطعية في صدورها ودلالتها ناطقة بذلك**)[1].

❊ مواعظ أخرى :

ومما روي عنه من مواعظه في تبوك أنه: (**كان رجل من بني عُذرة يقال له عدي يقول: جئت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بتبوك، فرأيته على ناقةٍ حمراء يطوف على الناس يقول: أيها الناس، يد الله فوق يد المعطي، ويد المعطِي الوسطى، ويد المعطَى السفلى. أيها الناس، اقنعوا ولو بحَزْم الحطَب! اللهم، هل بلغت؟ ثلاثاً**)[2].

وروى الواقدي في مغازيه عن النبي أنه: (**جمع الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم ـ«عليه السلام» وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدي، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدي ما اتُّبع، وشر العمى عمى القلب؛ واليد العليا خير من السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر الأمور المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة. ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً؛ ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكم مخافة الله، وخير ما ألقي في القلب اليقين، والارتياب من الكفر....**)[3].

❊ سرية خالد بن الوليد :

أراد النبي «صلى الله عليه وآله» أن يؤمّن الحدود الشمالية من الجزيرة العربية، فأرسل من تبوك خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، حيث تشير بعض الروايات إلى أن نوايا الشر كانت بادية من حاكمها.

قال الواقدي في المغازي: (**بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً، فقال خالد: يا**

---

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ١٤٩-١٥٢.
٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٠٩.
٣. ن.م.

رسول الله، كيف لي به وسط بلاد كَلْب[1]، وإنما أنا في أناس يسير؟ فقال رسول الله: ستجده يصيد البقر[2] فتأخذه. قال: فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرةٍ صائفة، وهو على سطحٍ له ومعه امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر من كندةٍ، وصعد على ظهر الحصن من الحر، وقينته تغنيه، ثم دعا بشرابٍ فشرب. فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن، فأقبلت امرأته الرباب فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت: ما رأيت كالليلة في اللحم[3]! هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا. ثم قالت: من يترك هذا؟ قال: لا أحد. قال: يقول أكيدر: والله، ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً أو أكثر، ثم أركب بالرجال وبالآلة. فنزل فأمر بفرسه فأسرج، وأمر بخيل فأسرجت، وركب معه نفر من أهل بيت، معه أخوه حسان ومملوكان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم؛ فلما فصلوا من الحصن، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان، فقاتل حتى قُتل، وهرب المملوكان ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن. وكان على حسان قباء ديباجٍ مخوص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسولِ الله «صلى الله عليه وسلم» مع عمرو بن أمية الضمري حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذهم أكيدر. قال أنس ابن مالك، وجابر بن عبد الله: رأينا قباء حسان أخي أكيدر حين قدم به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجعل

تعد دومة الجندل إحدى أهم المدن القديمة في شمال الجزيرة العربية. يعود تاريخها المدوَّن إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أما الأدلة الآثارية فتشير إلى مرحلة مبكرة من عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. ورد ذكر دومة الجندل في إحدى النصوص المسمارية في حوليات الملك الآشوري سنحريب ٧٠٥-٦٨١ ق.م ضمن إشارة لحملة قام بها هذا الملك ضد مملكة دومة الجندل. وفي العصر الجاهلي أصبحت دومة الجندل من أهم مدن شمال الجزيرة العربية ومركزاً للقبائل العربية الشمالية، وكانت سوقها التجارية والأدبية من الأسواق المهمة في الجزيرة العربية. وفي فترة السيطرة البيزنطية على بلاد الشام أصبح حكامها وشعبها خاضعين في ولائهم للإمبراطورية البيزنطية حتى الفتح الإسلامي. من أهم معالمها التاريخية الأثرية قلعة مارد. وقد حاولت الملكة الزباء «زنوبيا أو زينب» ملكة تدمر ٢٦٧-٢٧٢م احتلال قلعة مارد بدومة الجندل وحصن الأبلق بتيماء ولكنها فشلت في تحقيق ذلك وقالت قولتها المشهورة: (تمرّد مارد وعَزَّ الأبلق). دومة الجندل حالياً إحدى محافظات منطقة الجوف الواقعة شمال المملكة العربية السعودية.

١. أي أن هذه القبيلة واسعة الانتشار في تلك المنطقة وهي صاحبة قوة وعدد.

٢. أي البقر الوحشي.

٣. كيف علم الراوي بهذه التفاصيل الجارية بين الملك وزوجته؟



المسلمون يتلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» : أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا. وقد كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال لخالد بن الوليد: إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله وائت به إليّ، فإن أبى فاقتلوه، فطاوعهم).

ثم تذكر الرواية تفاصيل دخولهم الحصن بمعية الملك الموثَّق، ثم كيف تمت المصالحة على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، على أن ينطلق به وأخيه الآخر واسمه «مضاد» إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيحكم فيهما حكمه. ثم خرج قافلاً إلى المدينة، ومعه أكيدر ومضاد. **(فلما قدم بأكيدر على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» صالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما. وكتب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم)**[1].

النص السابق الذي نشك في بعض تفاصيله لا يذكر إسلام أكيدر ، إلا أن الواقدي يروي نصاً آخر يذكر فيه إسلامه. قال :**(حدثني شيخ من أهل دومة أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كتب له هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله، في دومة الجندل وأكنافها.... تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين)**[2].

ونشك في صدور هذا الكتاب من أصله أو بهذا الشكل عن النبي «صلى الله عليه وآله» لأمرين:

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١٣.

٢. ن.م.

١. حيث يصف خالد بن الوليد بأنه: «سيف الله»، ولم يُعهد من النبي ذلك في كتبه.

٢. ما ذكره ابن الأثير في «أسْد الغابة» حيث قال: **(أما سرية خالد فصحيح، وإنما أهدَى أكيدر لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» وصالحه ولم يُسلم، وهذا لا اختلاف فيه بين أهل السير، ومن قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأً فاحشاً، وكان أكيدر نصرانياً ولما صالحه النبي «صلى الله عليه وسلم» عاد إلى حصنه وبقي فيه. ثم إن خالداً أسره لما حصر دومة أيام أبي بكر «رضي الله عنه» فقتله مشركاً نصرانياً)**[1].

❋ مصالحة ملك أيلة :

لما عرف ملك أيلة «يحنة بن رؤبة» بأن النبي قد بلغ تبوك وأنه أرسل سرية إلى دومة الجندل، مع ما بلغه من القوة المتعاظمة للمسلمين وإقبال العرب على الإسلام بشكل مطّرد، أقبل ومعه وفود من مدن أخرى، فصالح ملك أيلة على أن يعطي الجزية وقدرها ٣٠٠ دينار، وكتب له كتاباً: **(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، لسفنهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر)**.

كما كتب لأهل «جرباء» و«أذرح» و«مقنا» هذا الكتاب: **(من محمد النبي رسول الله لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم ... وكتب لأهل مَقنا أنهم**

تقع أيلة «العقبة» في رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر في الركن الشمالي الشرقي. وقد قال بعض المفسرين أن الآية القرآنية: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ تخص أيلة هذه. كانت ملتقى للحاج من مصر والمغرب والشام إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. أما اسم العقبة فبرز في العصر المملوكي، حيث كانت المدينة تعرف باسم أيلة أو عقبة أيلة حتى غلب اسم العقبة عليها في ذلك العصر. أسس الصهاينة عام ١٩٥١ ميناء إيلات على أرض فلسطين المحتلة بالقرب من العقبة الأردنية.

وأما جرباء «الجربا» فبلدة تبعد عن العقبة بضعة كيلومترات. وأذرح قرية أردنية ضمن قضاء أذرح، في محافظة معان جنوب عمّان. وتقع مقنا في السعودية منتصف خليج العقبة. ويقع في وسطها عين جارية تنبع من الأرض ويفور الماء العذب من خلال التربة طوال العام تسمى : عين موسى.

١. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٢، ص ٢٧٣-٢٧٤.

آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم)[1]. قال المقريزي: **(فما انصرف رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من تبوك حتى أوطأوا مَن حولهم غلبة)**[2].

* محاولة اغتيال النبي :

استغرقت الغزوة كلها ٦٠ يوماً تقريباً ذهاباً وإياباً ومكثاً في تبوك على ما قدّره بعض المؤرخين، ولم تخل رحلة النبي «صلى الله عليه وآله» في طريق عودته إلى المدينة المنورة من أحداث مهمة بل وبعضها خطير، وسنتناول قضيتين أولاهما محاولة اغتياله، ويعقبها أمره بهدم مسجد ضرار!

وقد روى أغلب المحدثين والمؤرخين والمفسرين محاولة الاغتيال هذه والتي تأتي ضمن سلسلة من مؤامرات المنافقين للتخلص من النبي، إلا أن نصوص هذه المحاولة ابتليت بالتحريف والتوجيه المتعمد ضد أشخاص ومحاولات طمس حقيقة ما جرى. وسنستعرض بدءً رواية الواقدي، قال في مغازيه: **(لما كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ببعض الطريق مكر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبةً في الطريق. فلما بلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبِر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خبرهم، فقال للناس: اسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع. فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله «صلى الله عليه وسلم» العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق من خلفه. فبينا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غَشَوه، فغضب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأمر حذيفة أن يردّهم، فرجّع حذيفة رواحلهم بمحجن في يده، وظن القوم أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد أطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فساق به. فلما خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من العقبة نزل الناس، فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: يا حذيفة، هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله، عرفت راحلة فلان وفلان، وكان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل. وكانوا قد أنفروا بالنبي «صلى الله عليه وسلم» فسقط بعض متاع رحله، فكان حمزة بن عمرو الأسلمي يقول: فنوّر لي في أصابعي الخمس فأضئن حتى كنا نجمع ما سقط من السوط والحبل وأشباههما، حتى ما بقي من المتاع شيء إلا جمعناه! وكان لحق النبي «صلى الله عليه وسلم» في العقبة. فلما أصبح قال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله، ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟ قال: يا أبا يحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما اهتموا به؟ قالوا: نتبعه في العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني من راحلتي. فقال أُسَيد: يا رسول الله، فقد**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١٥.
٢. المقريزي: إمتاع الأسماع، ج٢، ص ٦٨.

اجتمع الناس ونزلوا، فمُرْ كل بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت، والذي بعثك بالحق، فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيكم برؤسهم، وإن كانوا في النبيت [١] فكفيتكهم، وأمرت سيد الخزرج فكفاك مَن في ناحيته، فإن مثل هؤلاء يتركون يا رسول الله؟ حتى متى نداهنهم وقد صاروا اليوم في القلة والذلة، وضرب الإسلام بجرانه، فما يستبقي من هؤلاء؟ قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لأسيد: إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه. فقال: يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب. قال رسول الله«صلى الله عليه وسلم»: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولا شهادة لهم. قال: أليس يظهرون أني رسول الله؟ قال: بلى ولا شهادة لهم. قال: فقد نهيت عن قتل أولئك). ثم روى الواقدي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: **(كان أهل العقبة الذين أرادوا بالنبي «صلى الله عليه وسلم» ثلاثة عشر رجلاً [٢]، قد سماهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لحذيفة وعمار «رحمهما الله»)** [٣].

وقد حاول البعض توظيف هذا الخبر في ما يصب لمصلحته، ونلحظ ذلك ـ مثلاً ـ في التركيز على كونهم من الأنصار كما في الخبر التالي: **(لم يُخبِر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بأسماء المنافقين الذين نخسوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة «رضي الله عنه»، وهم إثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي، وكلهم من الأنصار ومن حلفائهم)** [٤].

بينما نجد في روايات أخرى أنهم كانوا خليطاً، فعن موسى بن بكر أنه قال: **(قال بعض أصحابنا لأبي عبد الله «عليه السلام»: عَلِمَ رسول الله «صلى الله عليه وآله» أسماء المنافقين؟ فقال: لا، ولكن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما كان في غزوة تبوك كان يسير على ناقته والناس أمامه، فلما انتهى إلى العقبة وقد جلس عليها أربعة عشر رجلاً، ستة من قريش، وثمانية من أفناء الناس ـ أو على عكس هذا [٥] ـ فأتاه جبرئيل «عليه السلام» فقال: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً قد قعدوا لك على العقبة لينفروا ناقتك، فناداهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا فلان ويا فلان ويا فلان، أنتم القعود لتنفروا ناقتي؟ وكان حذيفة خلفه فلحق بهم، فقال: يا حذيفة سمعت؟ قال: نعم. قال: اكتم)** [٦].

وهكذا قامت بعض الروايات بإقحام بعض الأسماء مع غيابها وتخلفها عن الغزوة، فذُكر من بينهم عبدالله بن أبيّ، والجلاس بن سويد، وأبوعامر الراهب، وسعد بن أبي سرح. وقد يكون ذلك رغبة في تضييع أسماء بعض المشاركين الحقيقيين، أو جهلاً من الوضّاعين والقصاصين.

١. النبيت: جبل يبعد قرابة ٤٥ كم عن المدينة.
٢. في روايات أخرى أنهم كانوا ١٢ وروي ١٥.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤١٩-٤٢٠.
٤. السيوطي: الدر المنثور، ج٧، ص ٤٥٠.
٥. الترديد من الراوي.
٦. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٣٣.

ويصعب الاعتماد على هذه المرويات في كتب السنة والشيعة لاسيما مع نصهم على أن الأمر كان سراً بين النبي وحذيفة ـ وعمار أيضاً حسب بعض الروايات ـ وأن النبي ائتمنه على ذلك كما مر بنا، وكما جاء أيضاً في مغازي الواقدي أن النبي قال له: (**إني مُسِرٌّ إليك أمراً فلا تذكرنّه، إني نُهيت أن أصلي على فلان وفلان ورهط ذوي عدد من المنافقين**)[١].

والقدر المتفق عليه في الروايات أن النبي «صلى الله عليه وآله» كشفهم لحذيفة حتى صار يُعرف بلقب «حافظ ـ أو صاحب ـ سر رسول الله». قال الواقدي: (**فلما توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» في خلافته إذا مات رجل ممن يظن أنه من أولئك الرهط، أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر، وإن انتزع يده وأبى أن يمشي انصرف معه**)[٢].

ولكن لماذا لم يكشفهم النبي «صلى الله عليه وآله» واكتفى بذكرهم لحذيفة؟ قال الأحمدي الميانجي في كتابه «مكاتيب الرسول»: (**وذِكر أسمائهم كان يورث مفاسد اجتماعية من تفريق وحدة المسلمين أو الفتّ في عضدهم أو جرأة الأعداء عليهم**)[٣].

وكما تعرَّضت القصة في تفاصيلها السابقة إلى التشويش والتوظيف، فإنها تعرضت إلى ذلك أيضاً في تحديد الموضع الذي تمت فيه محاولة الاغتيال، فترددت بين طريق العودة من تبوك إلى المدينة؛ وبين طريق العودة من حجة الوداع إلى المدينة في منطقة تُعرف باسم «عَقَبة هَرشَى[٤]» و «ثنية هرشى»، بعد بيعة الغدير مباشرة.. وبالتالي اختلف معنا تحديد زمان وقوع محاولة الاغتيال أيضاً كما هو واضح.

تقع عقبة هرشى ضمن منطقة الجحفة وتبعد قرابة ١٥ كم عن الأبواء، وهي كُراع[٥] من الحرَّة، يقطع طريق الحجاج الساحلي قديماً، وهو ليس بعريض لكنه مزعج للإبل في طلوع ونزول لحجارته الضخمة، ووصفت في بعض الكتب أنها عقبة صعبة المنحدر سهلة المصعد، والطريق من جانبيها. وعند هرشى يقع منتصف الطريق بين مكة والمدينة. ووفق هذا التحديد المكاني لا يصح أن تكون محاولة الاغتيال قد تمت في طريق العودة من تبوك، فإما أن نقول بأنها لم تكن محاولة واحدة للاغتيال بل اثنتين، أو بأن تكون إحداهما غير صحيحة.

ثم إن بين أيدينا رواية تتحدث عن اسم آخر للعقبة، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢٠.
٢. ن.م.
٣. الميانجي: مكاتب الرسول، ج١، ص ٦٠١.
٤. وتكتب «هرشا» أيضاً.
٥. كراع: طرف.



قال: (ما زال القرآن ينزل بكلام المنافقين حتى تركوا الكلام، واقتصروا بالحواجب يغمزون، فقال بعضهم: تأمنون أن تُسمَّوا في القرآن فتفتضحوا أنتم وعقبكم؟ هذه عقبة بين أيدينا لو رمينا به منها ينقطع، فقعدوا على العقبة ويقال لها: عقبة ذي فتق[1] وقال حذيفة: كان رسول الله، إذا أراد النوم على ناقته اقتصَدت في السير[2]، فقال حذيفة: قلت ليلة من الليالي: لا والله لا أفارق رسول الله «صلى الله عليه وآله». قال: فجعلت أحبس ناقتي عليه، فنزل جبرئيل على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: هذا فلان وفلان وفلان ـ حتى عدَّهم ـ قد قعدوا ينفرون بك، فقال رسول الله: يا فلان يا فلان يا فلان، يا أعداء الله، حتى سماهم بأسمائهم كلهم. ثم نظر فإذا حذيفة، فقال: عرفتهم؟ قلت: نعم برواحلهم وهم متلثمون، فقال: لا تخبر بهم أحداً. قلت: يا رسول الله، أفلا تقتلهم؟ قال: إني أكره أن يقول الناس: قاتَل بهم حتى ظفر فقتلهم. فكانوا من قريش)[3].

ونلاحظ هنا كيف جاءت الرواية على خلاف رواية سابقة تنفي تماماً أن يكون أحد منهم من قريش.. وتبقى المسألة غامضة، والله أعلم بحقيقة ما جرى.

❊ هدم مسجد ضرار:

يبدو أن فكرة تأسيس هذا المسجد ـ ليكون مقراً للمنافقين وغطاءً لأنشطتهم ـ لها علاقة بأبي عامر الفاسق[4]

١. قيل أن الصحيح «ذي فيق» كما في نص آخر، ولكن لا يصح هذا لأن «عقبة فيق» تقع عند نهر طبرية.

٢. أي مشت بشكل بطيء.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٢-٢٤٣.

٤. تحدثنا عن شخصيته في أثناء الحديث عن غزوة أحد.

الذي وفد على منافقي المدينة ليعمل على التخطيط ضد النبي من الداخل، بعد أن باءت محاولاته السابقة في مساعدة قريش للقضاء على النبي والإسلام من خلال غزو المدينة عسكرياً.

وتذكر بعض النصوص أن المنافقين بايعوا أبا عامر وجعلوه أميراً عليهم، وأنه أعلمهم أنه لا يستطيع البقاء في المدينة لئلا يُكتشَف أمره، ثم قال لهم: (**كاتِبوا أكيدر في دومة الجندل**[1] **ليقصد المدينة. فأوحى الله إلى محمد «صلى الله عليه وسلم» وعرَّفه ما اجتمعوا عليه من أمرهم ، وأمره بالمسير إلى تبوك**)[2].

وكان حضور أبي عامر الفاسق في مسجد قباء ـ حيث كان يسكن بالقرب منه ـ أمراً عسيراً، لأن المسلمين كانوا يتوجسون منه ريبة، فاقترح المنافقون في ما بينهم أن ينوا مسجداً قريباً منه: (**يأتينا أبو عامرٍ فيتحدث عندنا فيه، فإنه يقول: لا أستطيع آتي مسجد بني عمرو بن عوف، إنما أصحاب رسول الله يلحقوننا بأبصارهم**)[3].

وفي خبر آخر: (**قيل لعاصم بن عدي: ولم أرادوا بناءه؟ قال: كانوا يجتمعون في مسجدنا، فإنما هم يتناجون فيما بينهم ويلتفت بعضهم إلى بعض، فيلحظهم المسلمون بأبصارهم، فشق ذلك عليهم وأرادوا مسجداً يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم. فكان أبو عامر يقول: لا أقدر أن أدخل مِربدكم**[4] **هذا! وذاك أن أصحاب محمد يلحظونني وينالون مني ما أكره. قالوا: نحن نبني مسجداً تتحدث فيه عندنا**).

وبعد إتمام بناء المسجد في قرية قباء قدم وفد من المنافقين إلى النبي «صلى الله عليه وآله» وهو في طريق خروجه إلى تبوك يعرضون عليه إقامة الصلاة عندهم، ليُضفوا نوعاً من الشرعية على مشروعهم الخبيث، وقالوا: (**يا رسول الله، إنا رُسل مَن خلفنا من أصحابنا، إنا قد بنينا مسجداً لذي القلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، ونحن نحب أن تأتينا فتصلي بنا فيه**)[5].

اعتذر لهم النبي «صلى الله عليه وآله» لانشغاله بالخروج إلى تبوك، ووعدهم أن يصلي فيه إذا رجع، وبعد أسابيع، في طريق العودة إلى المدينة نزل الوحي على النبي يخبره بحقيقة مشروع المنافقين. قال «عز اسمه»: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ، أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ**

١. هذا النص يدلل على ما ذكرناه من وجود نوايا سوء عند حاكم دومة الجندل تجاه النبي والمسلمين.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج٢١، ص ٢٥٨.
٣. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢١.
٤. يشبه المسجد بالمربد! أي محبس الإبل.
٥. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٢١.

﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فدعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» عاصم بن عدي العجلاني، ومالك بن الدخشم السالمي، وأمرهما بهدمه وإحراقه، فخرجا سريعين على أقدامهما حتى وصلا إليه بين المغرب والعشاء والمنافقون مجتمعون فيه، فلما عرفوا نيتهما هربوا، فهُدم المكان وأحرِق.

❋ الثلاثة الذين خُلِّفوا :

تحدثت سورة التوبة عن ثلاثة نفر من أهل المدينة تخلّفوا عن الالتحاق بجيش المسلمين، ولم يكونوا من المعذورين في حقيقة أمرهم، ثم ندموا على ذلك.. كما لم يكونوا معدودين من المنافقين، وهم كعب بن مالك[2] وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع.

أمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي، شهد بدراً وما بعدها سوى تبوك. قيل أنه لاعن زوجته، فنزلت الآيات من سورة النور تبين حكم اللعان.

مرارة بن الربيع - أو ربيعة - الأنصاري العمري، من بني عمرو بن عوف. وقيل أنه كان من قضاعة محالفاً لبني عمرو ابن عوف وليس منهم.

وقد روي عن كعب بن مالك قوله في وصف ما جرى: **(لم أتخلف عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في غزوة غزاها قط. إلا في غزوة تبوك. غير أني قد تخلفت في غزوة بدر. ولم يعاتب أحداً تخلف عنه. إنما خرج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» والمسلمون يريدون عِيرَ قريش. حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم، على غير معاد. ولقد شهدت مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ليلة العقبة. حتى تواثقنا على الإسلام.... وكان من خبري، حين تخلفت عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله، ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة. فغزاها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلّا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم. فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان[3] - قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله «عز وجل». وغزا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تلك الغزوة حين طابت الثمار**

١. سورة التوبة: ١٠٧-١١٠.

٢. تحدثنا عنه ضمن تفاصيل غزوة مؤتة.

٣. أي لم يكن في ذلك الوقت ديوان تُكتب فيه أسماء الناس ليعلم من الحاضر ومن الغائب، فتوقع أن يغيب دون أن يشعر به النبي.

والظلال، فأنا إليها أصعر[١]. فتجهز رسول الله «صلى الله عليه وسلم» والمسلمون معه، وطفقت أغدوا لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقضِ شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك، إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد. فأصبح رسول الله «صلى الله عليه وسلم» غادياً والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو. فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت. ثم لم يُقدَّر ذلك لي. فطفقت، إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً[٢] عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء).

ثم انتقل للحديث عن اكتشاف النبي لتغيبه بينما النبي في تبوك، وردة فعله إلى أن عاد إلى المدينة، وكيف تعامل النبي مع المتخلفين من المنافقين، قال: **(ولم يذكرني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حتى بلغ تبوكاً فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه والنظر في عطفيه[٣]. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله «صلى الله عليه وسلم»... فلما بلغني أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد توجّه قافلاً من تبوك، حضرني بَثّي[٤]. فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً. فأجمعت صِدْقه[٥]. وصبَّح رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قادماً، وكان إذا قَدِم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً. فقبِل منهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله[٦]).**

ثم تحدث كعب عن الحرج الشديد الذي عاشه وهو بين خيارين، إما أن يسلك مسلك المنافقين فيقدّم أعذاراً واهية، وإما أن يَصدُق في قوله وليكن ما يكن، فيكفيه أنه تخلّف عن الجيش، ولا يريد أن يزيد الطين بلة، قال:

١. أصعر: أميل وأرغب.
٢. مغموصاً: مطعوناً.
٣. كناية عن العُجُب.
٤. بثي: همّي.
٥. أي قررت أن لا أقول له إلا الصدق.
٦. في المغازي للواقدي. ج١، ص ٤٢٢، عن غير مالك: (إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لما نزل بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لا تكلموا أحداً منهم تخلف عنا ولا تجالسوه حتى آذن لكم. فلم يكلموهم، فلما قدم المدينة جاءه المعذرون يحلفون له، وأعرض عنهم، وأعرض المؤمنون عنهم حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه وعمه. فجعلوا يأتون النبي «صلى الله عليه وسلم» ويعتذرون إليه بالحمى والأسقام، فيرحمهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم، وحلفوا فصدقهم واستغفر لهم، ويكل سرائرهم الى الله «عز وجل»).

(حتى جئت، فلما سلمت، تبسَّمَ تبسُّمَ المغضَب ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال لـي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟[1] قال قلت: يا رسول الله. إني، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلاً[2]. ولكني، والله لقد علمت، لئن حدثتُك اليوم حديثَ كذِب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يُسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد[3] علي فيه، إني لأرجو فيه عقبى الله. والله، ما كان لـي عذر. والله، ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أما هذا، فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لـي: والله، ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلـى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بما اعتذر به إليه المخلفون. فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلـى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأكذّب نفسي[4])[5].

وفي تفسير ابن كثير تتمة لحديث كعب يبيّن فيه ما جرى لصاحبيه أيضاً، قال: (ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا : نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما ؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لـي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لـي فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لـي. قال: ونهى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لـي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلّم، وأقول في نفسي: حرَّك شفتيه بِرَدّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلـيَّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرَض، حتى إذا طال عليَّ ذلك مِن هجْر المسلمين، مشيت حتى تسوّرتُ حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحب الناس إلـي ـ فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني

---

١. أي الدابة التي ستركبها لتسافر بها معنا.

٢. أي لدي قدرة على الإقناع.

٣. تجد: تغضب.

٤. في المغازي للواقدي. ج١، ص ٤٢٣: (فلقيت معاذ بن جبل وأبا قتادة فقالا لي: لا تطع أصحابك وأقم على الصدق، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً إن شاء الله! فأما هؤلاء المعذرون، فإن يكونوا صادقين فسيرضى الله ذلك ويعلمه نبيه، وإن كانوا على غير ذلك يذمهم أقبح الذم ويكذب حديثهم).

٥. الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٩، ص ٣٢٤-٣٢٦.

أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فنشدته، فسكت، فعدت فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار).

وتحدث مالك بعد المقطع السابق عن محاولة الملك الغساني شراء ولائه، ولربما يتم توظيفه سراً في أعمال عدائية ضد المسلمين، قال: **(فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيمَّمت به التنور فسجرته[1]).**

ثم انتقل مالك بعد ذلك للحديث عن معاناة إضافية، حيث صدر عن النبي أمر جديد وعسير بحق الثلاثة، قال: **(حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسولِ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يأتيني، فقال: إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع[2] ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنَّك. قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي مِن لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا).**

كان الاستثناء الذي أعطاه النبي لامرأة هلال باب فرج محتمل لكعب، قال: **(فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وما أدري ما يقول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إذا استأذنته وأنا رجل شاب. قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا).**

وبانتهاء الخمسين ليلة جاء الفرج من السماء، قال كعب: **(ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله «عزوجل» منا: قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت[3]، سمعت صارخاً أوفى[4] على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشِر.**

---

١. أي ذهب إلى التنور فأشعله وأحرق الكتاب بالنار.

٢. أي رجل كبير بالسن ويحتاج إلى من يخدمه.

٣. إشارة إلى قوله «تعالى» في الآية ١١٨ من سورة التوبة: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾.

٤. أي صعد على ذلك الجبل الذي ذكرناه في غزوة الخندق.

قال: فخررتُ ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، فآذن [١] رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشِّرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع مِن «أسلم»[٢] وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرَس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم[٣] رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، يلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جالس في المسجد حوله الناس.... فلما سلمت على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشِر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت: أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله..... فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه[٤] الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» أحسن مما أبلاني الله «عزوجل»، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال:وأنزل الله «عزوجل»: ﴿لَّقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٥]. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي، من صدقي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا، حين أنزل الوحي، شرَّ ما قال لأحد. وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٦])[٧].

---

١. آذن: أعلم.
٢. أسلم: من بيوت الأنصار.
٣. أؤم: أقصد.
٤. أبلاه: اختبره.
٥. سورة التوبة: ١١٧-١١٩.
٦. سورة التوبة: ٩٥ - ٩٦.
٧. ابن كثير: تفسير القرآن، تفسير الآيات ١١٨-١٢٢ من سورة التوبة.

❊ خاتمة :

وهكذا انتهت غزوة تبوك بكل تعقيداتها، وانتهت معاناة الثلاثة الذين خُلِّفوا ثم تابوا توبةً صادقة، لينتهي بذلك عرضُنا لغزوات رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أقل من عامين، حيث شهدت السنة التاسعة للهجرة ـ بعد تبوك ـ وفود المزيد من ممثّلي المدن والقرى والقبائل العربية، بما في ذلك وفد نصارى نجران الذين باهلهم النبي «صلى الله عليه وآله» في شهر ذي الحجة من نفس العام، ثم شهد العام الهجري العاشر حجة النبي المعروفة باسم حجة الوداع، وهي الحجة الوحيدة التي حجها بعد هجرته إلى المدينة المنورة، ثم بيعة الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة من ذلك العام، لتشهد بدايات العام الحادي عشر، وفي شهر صفر على وجه التحديد، رحيل سيد الأنبياء وخير المرسلين محمد بن عبدالله «صلى الله عليه وآله» عن هذه الدنيا الفانية، وليواجه المسلمون من بعده مصيرهم بعيداً عن الوحي الذي كان ينزل ليرشدهم على لسان رسول الله ويُصلح شؤونهم ويجنّبهم المزالق الكبيرة، وليعيشوا تحديات عسيرة على المستوى الإداري والسياسي والأمني والفكري، وليشهدوا اختلافات كثيرة، تحوّلت بعضها إلى صراعات داخلية دامية، وابتعدت بهم اختياراتهم عن تقديم عترة النبي من أهل بيته «عليهم السلام» وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» على مستوى المرجعية الدينية كما نص على ذلك حديث الثقلين[1]، وعلى مستوى القيادة السياسية كما نص على ذلك حديث الولاية يوم الغدير[2].. كما حققوا من جهة أخرى انتصارات عديدة على أعدائهم، تُوّجت بفتوحات كبرى في آسيا وأفريقيا وأوروبا.

---

١. حكم العلامة الألباني على حديث الثقلين المذكور في سنن الترمذي «سنن الترمذي، ح ٣٧٨٦، وبلفْظِه القاضي بالتمسك بالثقلين أنه حديث صحيح، وذكره في السلسلة الصحيحة بلفظ: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي». سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤/٣٥٥ حديث رقم ١٧٦١.

٢. قال العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٤، ص٣٣٠ -٣٤٣ حول حديث الغدير: (ورد من حديث زيد بن أرقم، وسعد ابن أبي وقاص، وبريدة بن الحصيب، وعليّ بن أبي طالب، وأبي أيوب الأنصاري، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وأبي سعيد، وأبي هريرة). ثم ذكر نماذج مما رواه الصحابة من هذا الحديث ومن بينها أن النبي قال في ذلك اليوم: (إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن. ثم إنه أخذ بيد عليّ «رضي الله عنه» فقال: من كنت وليه، فهذا وليه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه). وبعد عدة تعليقات وردود قال الألباني: (وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة كبيرة منها الهيثمي في «المجمع: ٩/١٠٣-١٠٨»، وقد ذكرت وخرّجت ما تيسر لي منها مما يقطع الواقف عليها بعد تحقيق الكلام على أسانيدها بصحة الحديث يقيناً، وإلا فهي كثيرة جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد، قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حِسان. وجملة القول إن حديث الترجمة حديث صحيح بشطريه، بل الأول منه متواتر عنه «صلى الله عليه وسلم» كما يظهر لمن تتبع أسانيده وطرقه، وما ذكرت منها كفاية).

مصادر
الكتاب



مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم

٢. الاحتجاج: أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي

٣. أحكام القرآن: أحمد بن علي الرازي الجصاص

٤. إرشاد القلوب المنجي من عمل به من أليم العقاب: الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي

٥. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: محمد بن محمد بن النعمان البغدادي المعروف بالمفيد

٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبدالله القرطبي العروف بابن عبدالبر

٧. أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير

٨. أسئلة وردود: محمد تقي مصباح اليزدي

٩. الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني

١٠. الاصطفا في سيرة المصطفى: محمد نبهان الخباز

١١. أعلام النبوة: علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري

١٢. إعلام الورى بأعلام الهدى: الفضل بن الحسن الطبرسي

١٣. أعيان الشيعة: محسن الأمين العاملي

١٤. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: أحمد بن علي المقريزي

١٥. الأموال: حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله المعروف بابن زنجويه

١٦. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الشافعي الحلبي

١٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر البيضاوي

١٨. الأنوار في شمائل النبي المختار: الحسين بن مسعود البغوي

١٩. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي

٢٠. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير

٢١. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

٢٢. بدر الكبرى: محمد سالم

٢٣. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: علي بن أبي بكر الهيثمي

٢٤. بولس وتحريف المسيحية: هيم ماكبي

٢٥. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري

٢٦. تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي

٢٧. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس: حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري

٢٨. تاريخ المدينة: عمر بن شبة ـ زيد ـ بن عبيدة بن ريطة النميري

٢٩. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي

٣٠. تاريخ اليهود في بلاد العرب: إسرائيل ولفنسون

٣١. تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي

٣٢. تاريخ مكة: محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي

٣٣. التحرير والتنوير من التفسير: محمد الطاهر بن عاشور

٣٤. تفسير الصافي: محمد محسن بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني

٣٥. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

٣٥. تفسير القرآن: (منسوب إلى) الإمام الحسن بن علي العسكري

٣٦. تفسير القرآن: علي بن إبراهيم القمي

٣٧. تلخيص الشافي: محمد بن الحسن الطوسي

٣٨. تمام نهج البلاغة: صادق الموسوي

٣٩. التنبيه والإشراف: علي بن الحسين بن علي المسعودي

٤٠. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار: محمد بن جرير الطبري

٤١. تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي

٤٢. تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أحمد بن شعيب النسائي

٤٣. جامع أحاديث الشيعة: حسين الطبطبائي البروجردي

٤٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري

٤٥. الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل االبخاري

٤٦. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

٤٧. حياة محمد: إميل درمنغم

٤٨. خاتم النبيين: محمد أبوزهرة

٤٩. الخرائج والجرائح: سعيد بن هبة الله المعروف بقطب الدين الراوندي

٥٠. الخصائص الكبرى: جلال الدين السيوطي

٥١. خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى: علي بن عبد الله بن أحمد الحسني السمهودي

٥٢. الدر المنثور: جلال الدين السيوطي

٥٣. دراسة في السيرة النبوية: عماد الدين خليل

٥٤. دروس في السيرة النبوية: عدنان فرحان آل قاسم

٥٥. دلائل النبوة: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى

٥٦. الرسائل: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي

٥٧. الرسول القائد: محمود شيث خطاب

٥٨. الرسول، حياة محمد: ر.ف. بودلي

٥٩. الروض الأنف: عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي

٦٠. زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

٦١. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي

٦٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني

٦٣. السنن: سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي

٦٤. السنن: محمد بن يزيد بن ماجه

٦٥. سيد المرسلين: جعفر السبحاني

٦٦. سيدنا محمد: محمد رشيد رضا

٦٧. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

٦٨. السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري

٦٩. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: محمد بن حبان التميمي الدارمي

٧٠. السيرة النبوية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

٧١. السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري

٧٢. شرح إحقاق الحق: نور الله الحسيني المرعشي التستري

٧٣. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار: النعمان بن محمد التميمي المغربي

٧٤. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: محمد بن عبد الباقي الزرقاني

٧٥. شرح سنن ابن ماجه: محمد بن عبد الهادي التتوي السندي

٧٦. شرح سنن أبي داود المؤلف: عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن العباد

٧٧. شرح نهج البلاغة: عبدالحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد المعتزلي

٧٨. شعَب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى

٧٩. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل: عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني

٨٠. صور من حياة الرسول: أمين دويدار

٨١. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري

٨٢. الطليعة من شعراء الشيعة: محمد السماوي

٨٣. عبقرية خالد: عباس محمود العقاد

٨٤. العروة الوثقى: محمد كاظم اليزدي

٨٥. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق

٨٦. عيون أخبار الرضا: محمد بن علي الصدوق

٨٧. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري

٨٨. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية: بريك العمري

٨٩. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية: بريك بن محمد بريك العمري

٩٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني

٩١. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري

٩٢. الفتوح: أحمد بن أعثم الكوفي

٩٣. فدك في التاريخ: محمد باقر الصدر

٩٤. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة: ع لي بن محمد بن أحمد المعروف بابن الصباغ المالكي

٩٥. فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل

٩٦. فقه السيرة: محمد الغزالي

٩٧. فوائد العراقيين: محمد بن علي بن عمر الحنبلي النقاش

٩٨. القادة الشهداء: محمود شيث خطاب

٩٩. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني

١٠٠. الكامل في التاريخ: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير

١٠١. كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي العامري

١٠٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري

١٠٣. كشف الغمة في معرفة الأئمة: ابي الحسن علي بن عيسى الإربلي

١٠٤. كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين: الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي

١٠٥. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي بن حسام الدين الهندي

١٠٦. كنز الفوائد: محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي

١٠٧. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن منظور

١٠٨. اللمع في أسباب ورود الحديث: جلال الدين السيوطي

١٠٩. مباني فتاوى في الأموال العامة: كاظم الحائري

١١٠. مجمع البيان في تفسير القرآن الفضل بن الحسن الطبرسي

١١١. مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

١١٢. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ المؤلف: محمد حميد الله الحيدرآبادي

١١٣. المحرر في أسباب نزول القرآن: خالد بن سليمان المزيني

١١٤. مختار الصحبح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

١١٥. مختصر تاريخ دمشق: محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن منظور

١١٦. المراجعات: عبدالحسين شرف الدين الموسوي

١١٧. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري

١١٨. المسند الصحيح (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج القشيري

١١٩. المسند: أحمد بن حنبل

١٢٠. مصباح البلاغة في مشكوة الصياغة: حسنالميرجهاني الطباطبائي

١٢١. المصباح في عيون الصحاح: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي

١٢٢. المصنف: عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان المعروف بابن أبي شيبة

١٢٣. معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي

١٢٤. معالم المدرستين: مرتضى العسكري

١٢٥. المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني

١٢٦. معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي

١٢٧. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني

١٢٨. معجم المشاريع الحسينية: محمد صادق محمد الكرباسي

١٢٩. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية

١٣٠. معجم أسامي مشايخ أبي علي الحسن بن أحمد الحداد: الحسن بن الأصبهاني المقريء

١٣١. المغازي النبوية: محمد بن عمر الواقدي

١٣٢. المغني: عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة

١٣٣. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي

١٣٤. مكاتيب الرسول: علي الاحمدي الميانجي

١٣٥. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول: أحمد إبراهيم الشريف

١٣٦. من لا يحضره الفقيه: محمد بن علي الصدوق

١٣٧. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله

١٣٨. مناقب آل أبي طالب: محمد بن علي ابن شهر آشوب

١٣٩. المناقب: الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي

١٤٠. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي

١٤١. منهاج السنة: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

١٤٢. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج: محيي الدين يحيى بن شرف النووي

١٤٣. موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية: وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيري وآخرون

١٤٤. الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف، دولة الكويت

١٤٥. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي

١٤٦. النص والاجتهاد: عبدالحسين شرف الدين الموسوي

١٤٧. نصب الراية لأحاديث الهداية: عبد الله بن يوسف الزيلعي

١٤٨. النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية: رزق الله بن يوسف بن شيخو

١٤٩. نهج البلاغة: محمد بن الحسين الشريف الرضي

١٥٠. نيل الأوطار: حمد علي الشوكاني

١٥١. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: محمد بن الحسن الحرّ العاملي

١٥٢. وقعة النهروان: علي بن الحسين الهاشمي

- الصحف الإلكترونية:

١. صحيفة الدستور (الأردنية) ـ النسخة الإلكترونية

٢. صحيفة الرياض (السعودية) ـ النسخة الإلكترونية

٣. صحيفة المدينة (السعودية) ـ النسخة الإلكترونية

٤. صحيفة عكاظ (السعودية) ـ النسخة الإلكترونية

- المواقع الإلكترونية:

1. islamstory.com
2. www.aldiwanalarabi.com
3. www.newadvent.org
4. www.quora.com